

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة



إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تُصدِرُها

لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

العدد الاول ، ربيع الثاني ١٤٠٠ هـ / اذار (مارس) ١٩٨٠ م

ثمـن العـدد

في سورية ٣٠٠ ق.س ، لبنان ٣٠٠ ق.ل ، الاردن ٣٠٠ فلس ، العراق ٤٠٠ فلس ، الكويت ٤٠٠ فلس ، عدن ٦٠٠ فلس ، البحرين ٦٠٠ فلس ، السعودية ٦ ريالات ، قطر ٦ ريالات ، الامارات العربية والخليج العربي ٧٫٥ درهم ، مصر ٤٥٠ مليما ، السودان ٧٥٠ مليما ، ليبيا ٤٥٠ مليما ، تونس ٦٠٠ مليما ، الجزائر والمغرب ٦ دراهم .

المراسلات : لجنة كتابة تاريخ العرب
جامعة دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

تقـــديم

حين قامت النهضة العربيـة الحديثة رافقتها ومهدت لها حركـة احياء اللغـة العربية ، وبعث التراث ، والعناية بكتابة التاريخ . كان استلهام التاريخ العربي ، والتمسك بالعربية المبينة ، والاستمداد من تراث الأجداد من خير ماتزودت به الاجيال العربية في نضالها البطولي للخلاص مما تعاني من تحكم الاستعمار ، ومساوىء التجزئة ، ونعرات الاقليميـة ، ونزغـات العصبية ، وفي ثورتهـا وتطلعها لبناء المستقبـل العربي المشرق تظلله رايات التحرر والوحدة والعدل والتقدم والسلام . لقـد ايقظت العربية والتاريخ والتراث مشاعر القومية الاصيلة ، ووحّدت النفوس ، وحفزت الهمم ، واجّجت الحمـاسة ، ووطّـدت معـالم الشخصية العربية ، وكشفت عما قدمته الامة العربية المجيدة في ماضيها الزاهر من مشاركـة جليلـة بنـاءة في حضارة الانسان وتقدمه ، وفي ترسيخ قيمه الاخلاقية .

ونقف اليوم ، ولا بد لنا من هـذه الوقفة الواعية المتبصّرة التي تضافرت دواعيها وتلاقت أسبابها ، امام هذه الاعمال والمصنّفات الكثيرة التي تم انجازها في ميدان التاليف التاريخي ، خلال هـذه المرحلة الهامة ، فيقودنا النظر ثم ترديـد النظر في تقويم هـذا الجهد الغني الخصب الى ضرورة البدء بمرحلة جـديدة نتوفر فيها على كتابة تاريـخ الامة العربية ، على هَديْ منهج تاريخي سليم ، مستمد ممـا كسبناه مـن التجربة الجادة في مضمار التاليف التاريخي ، وما واتتنا به الخبرة والمعاناة

العربية في دروب العمل القومي من نظرة متفحصة ، قادرة على الرؤيـة العميقة الشاملة ، تعين على فهم الماضي العربي ، كما كان ، وتهدي الى تصور احـداثه وقد تمشّى في مفاصلها نسغ الحياة ، مسترشدين في تقعيـد هذا المنهج بحصيلة ماتوصل اليه التفكير التاريخي العالمي ، وما انتهت اليه جهود العلماء المتخصصين .

ـ من الحق ان التجربة العربية الماضية في كتابـة التاريخ قـد استطاعت التفلت من إساد المنهج القديم الذي سيطر على الاذهـان في مرحلة الجمود والتراخي ، لتنطلق الـى رحاب التأليف المتكىء علـى معطيات المنهج التاريخي النقدي الحديث ، وحظيت المكتبة العربيـة بكتب رائدة في هذا المجال . ولكن التجربة العربية لم يتح لها ان تنمو وتتسع وتبلغ مداهـا المقدر لهـا . لقد شابها وخالطها ، وهي في طريقها الى كتابة التاريخ العربي ، ضروب من الضعف ، وألوان من الخطـأ ، مردهـا الى مااعتور المجتمع العربي في هذه الفترة من تيـارات متباينة داخليـة وخارجية ، غريبة على طبيعته ، مما صبغ التأليف باصبـاغ شتى تنافي الموضوعيـة التاريخية ، يمتد بعض منها الى الدراسـات الاستشراقيـة التي تفاوتت في مقاصدها وغاياتها ، وفي مقدرة اصحابها على تبين الحقائق التاريخية العربية بكل ملابساتها الداخليـة المعينة على تفهمها ، ويمتد بعض منهـا الى النزعات الاقليميـة والاتجاهات التقليدية التي كانت تتحرك ضمن الوطن العربي لتجلو الحقائق التاريخية طبق منطلقاتها وعقائدها . دع عنك ضلال المنهج النقدي وغياب الحس التاريخي لدى كثيرين اقتحموا هـذا الميدان ولم يكونوا مؤهلين لـه ، فغامت عليهم صورة الحقيقة ، وحادوا في عملهم عن الجادة ، فكانـوا اسرى النظرات القديمة حينا ، والافكار المصنوعة حينا آخر .

ـ ان منطلقنا اليوم في كتابة التاريخ العربي يعتمد :

١ ـ الحرص على الحقيقة التاريخية ، وتوفير جميع العنـاصر والوسائل التي تؤدي الى استكناهها .

لقد تقدمت صناعة التاريخ في العالم ، بفضل الجهود الكبيرة التي شارك فيهـا علماء التاريخ والفلسفة ورجال الفكر ، واصبح المؤرخ اليوم ذو الموهبة والحس التاريخي اليقظ ، وبفضل ما اتيح له من وسائـل معينة ، اكثر قدرة على استعادة الماضي واستنطاقه ، والتعرف الى حقيقته ، ثم تصويره التصوير الحي ، وتبيين التيارات الفاعلة المؤثرة فيه .

ان امتلاك هذه النظرة الناقدة البصيرة التي تجمع بين الاصالـة والدقـة والتجرد الصارم والحس التاريخي والمعاناة الحية وصحـة الحكم في عرض تاريخنا العربي ، وتحليل التيارات التي حركته ، والكشف عن المؤثرات المتشابكة الداخليـة والخارجية التي خالطت نسيجـه ، وبيان مواطن القوة والضعف ، البطولة والتخاذل ، الابـداع والتقليـد (عن طريق وصف الواقع وصفا صادقا) ترتفع بصناعة التأريخ الـى المستوى الذي تتشوف له الاجيال العربيـة في قراءة تاريخهـا ، يتلألأ بنور الحق ، وبنور الحق وحده .

٢ ــ وحدة الامة العربية :

وهي الحقيقة الراسخة الهادية التي لابد للمؤرخ من ان يستنير بها في عمله ، وهي وسيلته في تفسير هذه الوحـدة الثقافية والحضاريـة الحيـة العميقة التي ربطت بين ابناء الوطن العربي . لقد ثبتت هـذه الوحدة على مر العصور ، ولم تفلح كل المحاولات لتفكيكهـا ، وتحطمت على صخرتها الصلبة كل الهجمات العدوانية التي رامت فصمها . ولن نذهب في تأييد رأينا الى استنطاق الماضي البعيد ، وما اكثر الشواهد فيه على صحة ماقلنا ، بل يكفي ان نستعرض الهجمة الشرسـة التي شنّها الاستعمار على الارض العربية منذ القرن التاسع عشر ، وان نتبين مختلف المؤامرات الحاقدة التي حاكها في الظلام ، وشتى الدعوات المضللة التي نفثهـا انصاره ، ليحول بين العرب وبين الوحدة هدفهم وغايتهم لتتضح لنـا الحقيقة ناصعة . ويوم يقدر للقلم العربي ان يتحرك في هـذا الاطار ليروي قصة الاستعمار في الارض العربية ، وما اقترفه من

جرائم ، ويتحدث عن اساليبه الماكرة ، ومبتكراته الشيطانيـة التي اصطنعها وروج لها ليفسد على العرب وحدتهم ، ويضللهم عنها ، ويشوه معالم الثقافة والحضارة العربيـة ليجعلها ثقافات وحضارات اقليميـة متناكرة ، يوم يتم ذلك تتراءى تلك الملحمـة العربية البطوليـة التي خاضتها جماهيرنا العربية في شتى اقطارها خوض الاستبسال ، السنين تلو السنين ، مقدمة التضحيات اثر التضحيات ، حتى تمكنت من ان تفسد على الاستعمار القبيح خططه المبيتة المنكرة ، وتدحر هجمتـه وعدوانه ، ويسلم لها ايمانها العميق الاصيل الصادق بوحدتها اي بحقيقتها .

٣ ـ الرؤية العميقة الشاملة المتوازنة :

وهو امر يتصل بالمبداين السابقين ، ويأتي تبعا لهما . اننا لا يصح ان ندرس الجزئيات دراسة تفضي بنا الى التخفف من النظرة الشاملة لتاريخ الامة العربية ، ويذهب بنا التعمق في النقطة الواحدة ، ومقدرتنا علـى التفصيل فيها المذهب الذي يمنحها من القوة والتأثير اكثر مما لها من نصيب في مجرى التاريخ . يجب أن يظل نصب أعيننا مجمل التاريخ العربي بكل عصوره وبكل اتساعه ، وان نعالج موضوعاته المختلفة المعالجة التي تنبثق دوما من هذا الاحساس ، حتى لانقع في ضلال النظرة الجزئية ، ونخطىء في تقدير الموضع الذي يحتله عملنا داخل الاطار العام .

ـ وبعد ، فما اشد حاجتنا اليوم ، الى انجاز كتابة تاريخ الامـة العربية ، على هدي منهج تاريخي نقدي سليم ، يعكس تشوفنا ، ويلبي نزوعنا ، تحشد له ، وتتعاون في اعداده الطاقات العربية الكفيـة القادرة في ارجاء الوطن العربي .

ان كتابة مثل هذا التاريخ الذي تتزين صفحاته بنبرة الصدق ، تصوغه ايدي مؤرخين مبدعين ، يحسنون استنطاق التاريخ ، وتتاح لهم رؤية الماضي رؤية حية ، ورزقوا موهبة التعبير الدقيق الفطن ، هو عمل من اجل الاعمال التي يجب ان نضطلع بها ، وان نتطلع جميعا الى انجازها على خير الوجوه واكفاها .

انها اولا تخدم الحقيقة التاريخية الخالصة ، وهو امر له شانه وخطره ، ويجب ان نسعى له ونجهد لتحقيقه . وهي ايضا فيما نراه الطريق الاكثر جدوى في حفز الاجيال العربية الى العمل والابداع ، وهي هي التي تنمي ، بصدقها ونزاهتها ، روح المجاهدة والداب لدى الاجيال العربية في سبيل الاحسن والارقى ، في سبيل تثبيت القيم الانسانية الخالدة ، قيم العدل والخير والمحبة ... اما التاريخ الذي يكتب بروح تجانب الواقع وتجافي الحق ، وتؤثر المبالغة في التمجيد والاطراء وتغضي عن المساوىء والهنات ، فانه يكون التاريخ العبء ، التاريخ الذي تنوء الاجيال بحمله ، وترزح تحت وقره .

ـ مثل هذه المعاني واشباه لها بشأن كتابة تاريخ الامة العربية كانت تساور المختصين والمهتمين بتاريخ العرب وهي التي دعت الى تشكيل لجنة تحضيرية بدمشق ، قامت بعد الاتصال والتشاور مع المختصين في مختلف الاقطار العربية بعقد ندوة في دمشق (٢٠ ـ ٢٢ كانون الاول١٩٧٧) شهدها نخبة من المؤرخين والمعنيين بالقضايا القومية ، وقد ناقشوا بروح الجد والمسؤولية مشروع اللجنة التحضيرية المقترح وورقة عمل للندوة ، وانتهوا الى تقارير والى توصيات كان من ضمنها « اصدار مجلة دراسات تاريخية ، تكون محكا للافكار ، وميدانا لعرض الآراء الجديدة كيما يثبت الصحيح منها بعد مناقشته » . ولقد مضى العمل بطيئا في مراحله الاولى. قامت لجنة الاشراف بطباعة كل ما تم في الندوة ، من عرض لفكرة كتابة تاريخ العرب في موسوعة تكون مرجعا شاملا ، وتقديم للمشروع المقترح وورقة عمل ، ثم اثبات كل ما انتهت اليه الندوة من تقارير وتوصيات ، واصدرته في كراس ، ووزعته على المختصين من المؤرخين ورجال الفكر ، والمهتمين بالقضايا القومية في البلاد العربية ، وشفعت كراسها بكتاب يوضح المكانة الهامة التي يحتلها مثل هذا المشروع الكبير ، واهابت بحملة الاقلام من رجال الفكر والتاريخ العرب ان يغذوا مجلة (دراسات تاريخية) ببحوثهم ودراساتهم ومقترحاتهم ، وكل ما يعين على اخراج هذا المشروع العظيم الى حيز التنفيذ .

ان صدور العدد الاول من مجلة (دراسات تاريخية) ، وهو باكورة عملنا ، يحمل في طياته كل تباشير التفاؤل والامل في ان تمضي المجلة الى غايتها مسددة الخطا ، في طريق قاصد ، ترفدها في مسيرتها العلمية اقلام الباحثين والدارسين من المؤرخين والمفكرين العرب ، يرون فيها المجال الرحب للتعبير عن ارائهم وافكارهم حول موضوع من اجل الموضوعات ، واجدرها بالاهتمام والعناية لما له من انعكاس كبير على مجمل حياتنـــا الانسانية والقومية .

ان تلاقح الافكار ومناقشة الاراء وتقليب النظرات على صفحـات المجلة ستكون حافزا محركا ، واداة عطاء لتنضم الجهود المبـــددة ، وتتقارب الافكار وتتعارف ، فيثبت منها ماهو جدير بالحياة والنمو ، وينتفي منها ماهو مصنوع ، لايستمد نسغه من تربة الحق والصدق .

نرجو ان تحمل الاعداد التالية من المجلة ايضاحات اكبر وتطبيقات اوسع لانارة الفكرة التي تنادي بها وتدعو اليها ، وان تتلقى من المؤرخين ورجال الفكر بحوثا ومقترحات ودراسات توازي عظم الفكرة التي صدرت المجلة لتبشر بها ، وتستكثر من دعاتها ومؤيديها .

د . شاكر الفحّام

كتابة تاريخ العرب ! لماذا ؟؟؟

د . أحمد بدر

رئيس قسم التاريخ بجامعة دمشق

دابت الجماعات البشرية والشعوب منذ اقدم العصور حتى يومنا هذا على توجيه الاهتمام نحو ماضيها ، فحفظت من احداثه كل ما يهمها رواية في الصدور او كتابة في السطور ، وتالف من كل ذلك ما نسميه بالتاريخ · ولا يمكن تفسير هذا الداب والاستمرار فيه الا بالضرورة الماسة والحاجة الملحة ، التي تحس بها الجماعات والشعوب احساسا يكاد يكون فطريا في أول الامر ، ثم يتبلور تدريجيا في مجال الوعي · فالتاريخ يجيب على تساؤلات الانسان الفطرية عن أصله واصل مجتمعه · وهو الوسيلة التي تبين للمجتمع البشري أن وجوده ليس عارضا وانما مستمرا من الماضي الى الحاضر ، وبأن الامر سيكون كذلك في المستقبل · ولعل الاهم من ذلك كله أن التاريخ يحدد هوية المجتمع بالمعنى الواسع لكلمة الهوية ، اي تحديد قدرات هذا المجتمع في حيز الامكان وقدراته في حيز الفعل ، مادام أحسن معيار وأكبر منبيء عن قدرات الفرد الحاضرة والمستقبلية ، افعاله ومنجزاته حتى لحظة اجراء القياس ·

الاستخدام النفعي للتاريخ :

وهكذا اعتبرت المجتمعات البشرية التاريخ أداة مفيدة فوظفتها في خدمة اغراضها وتلبية حاجاتها بعدما كيفتها بالشكل الذي يحقق لها اقصى ما يمكن تحقيقه من فائدة ، اذ جعلت مشاكلها ومعضلاتها الحاضرة محددة لمضمونه لديها ، وعرضته مقسما على فترات تحددها الحوادث الكبرى بالنسبة اليها ، واتخذت من مثلها واهدافها معايير نقد تقيس الاحداث والابطال عليها ·

في المجــال الاول ، مجال تحديد معضلات حاضر جماعة لمضمــون تاريخها ، يتوفر من الامثلة شيء كثير ، ومن الشواهــد لدى الامم عدد وفير فاذا بدأنا باليونان نرى هيرودوت يركز ، في اول مؤلف اعتبر تاريخا بالمعنى الصحيح ، على تبيان أوضاع كل من الشعبين الفارسي واليوناني ، وكان الشعبان آنذاك يعيشان مرحلة مجابهة مصيرية ، ويقوم توكيديدس بعده ، وفي فترة كانت المدن اليونانية تمر فيها بمرحلة مــن الصراع بين اثينــا واسبارطة للهيمنة على بلاد اليونان ، وتخضع كل منهما عــددا من دويلات هــذه البلاد بقدر قوتها ، فيذكر من أحــداث الماضي ما يوصله الى شرح العلاقــة بين الحــق والقــوة وبسط قانون الغلبة الذي يسود العلاقات بين الناس والجماعات والدول ويجعل العــدل متمثلا بخضوع الضعيف وسيادة القوي · أما عرب الجاهلية القبليــون ، الــذين عاشوا جو الصراع على البقــاء ، فقــد استذكروا من الماضي أنسابهم التي تؤكــد انحــدار أفراد القبيلة من صلب جــد واحــد · ولايخفى مافي ذلك من خلق تماسك قوي فيما بينهم ، ضروري لهم في معركتهم · كما استذكروا أيامهم والحروب التي خاضتها قبائلهم ، وفي ذلك ما فيه من أهمية ، يحفظ الامجاد وينمي الثقة في الافراد ويبين لهم أعــداءهم ويشير الى حلفائهم ·

وفي فترات الضعف وأزمان المحن التي تمر بها الشعــوب ، تأخــذ من الماضي ذلك الجانب وتلك الاحــداث التي تعطي درسا وتقــدم عظــة وتجسد المثل الذي ينبغي أن تحتذى ، كما فعل تيت ليف عند الرومان ، وقد عاصر تناحرا داخليا عنــد بني قومه وأنانية وتحاسدا وصلت الى حــد اغتيال المتنافسين على الزعامة بعضهم بعضا ، فكتب تاريخا لوطنه (روما) حشد فيه من الماضي صورا من التضحية والايثار والبطولة ، وما أدى اليه تمسك الرومان بالقيم الفاضلة مــن ارتقاء الوطــن وعظمته · ويزخــر تاريخنا العربي بشواهــد من هــذا النوع نكتفي منها بايراد عمل المؤرخ أبي شامة الــذي عاصر تفكك الــدولة الايوبية وما جره ذلك مــن تطاول الفرنجة على العرب المسلمين واحرازهم المكاسب علــى حسابهم ، فكتب كتاب « الروضتين في تاريخ الــدولتين » ارخ فيه لفترة بعيدة نسبيا عــن زمنــه لكنهــا محققة لقصده ، اذ تعرض في كتابــه لدولتي نــور الــدين زنكي وصلاح الــدين الايوبي ، عنــدما تحققت للقوى العربية والاسلامية وحــدتها في مواجهة الغزاة من الفرنجة ، وما أدت اليه هــذه الــوحدة من انتصارات وتحقيق للاهــداف ، فكان أبو شامة والحال كــذلك يرسم

لبني قومه طريق الخلاص وتجاوز الهزائم الى الانتصارات عبر توحيد القوى من جديد ٠

وتتجاوز معطيات الحاضر تحديد مضمون التاريخ لتؤثر أيضا في طريقة عرضه ٠ اذ يتخذ كل مجتمع لتقسيم الزمن الى فترات مبدأ مستوحى من واقعه ٠ وهكذا جعل العرب الهجرة مبدأ تاريخهم ، والمجتمعات المسيحية الميلاد ، واليونان أول ألعاب أولمبية ٠ وجعلوا الزمن فترتين ، قبل المبدأ وبعده ٠ وفي العصور الحديثة ، عصور هيمنة اوربة على العالم سياسيا واقتصاديا وفكريا ، قسم تاريخ الانسانية الى فترات واتخذ لتحديد كل فترة حدث كبير بالنسبة لاوربة ووسمت كل فترة بسمة خاصة تنطبق على أوربة دون سواها ، كالقول ان العصور الوسطى عصور تقهقر وظلام ، وهو أمر لا يصح على غيرها ٠ أضف الى ذلك ان تيارات نشأت في اوربة ، وهي في ذروة سلطانها وتحكمها في العالم ، جعلت تاريخ الانسانية وحضارة العالم دائرا في فلكها ٠ فمنها مبدأ الحضارة الانسانية واليها مآلها ، اذ بدأت بانجازات اليونان التي حفظها العرب المسلمون في العصور الوسطى ،ثم استعادت اوربة هذه الحضارة معبعض منجزات من الشرق الاقصى وأقاموا الحضارة الاوربية الحديثة التي عمت العالم ٠ فكأن اوربة والحال كذلك تضفي على الماضي وضع الحاضر وتجعل من تاريخها محور تاريخ العالم ٠

اخيرا يقدم الحاضر وحاجاته مقاييس النقد للاحداث الماضية وأبطالها وفي ضوئها تبرز أخطاء العظماء اضافة لامجادهم وقصور المؤسسات والمؤتمرات عن تحقيق الغايات رغم انجازاتها ، وفي هذا العمل حد من أهم سلبيات هذه الاداة المسماة بالتاريخ ، فأشخاص الماضي واحداثه تصبح بدونها اصناما معبودة ويحل تقليد الماضي محل إعمال العقل فيغدو التاريخ عبئا أكثر منه حافزا ٠

قد يقول قائل ان كل هذا وليد نظرة نفعية للتاريخ وقد عفى عليها التطور العلمي الآن ، بعدما اضحى التاريخ علما هدفه الوصول للحقيقة كهدف بحد ذاتها ، له منهجه الخاص كعلم قائم على تفسير الوثائق التاريخية ، التي تجمع حسب منهج خاص ، يستطيع المؤرخ العمل ضمنه بتجرد لهذا الموضوع الخارج عن الذات ٠

لكننا لو نظرنا الى الامر على صعيد الواقع لا على صعيد النظريات

المجردة ، اي الى الممارسة والى المؤلفات المكتوبة حسب هذا المنظور الجديد العلمي واللانفعي المزعوم ، نرى ان المنهجية روعيت فيجميع مراحل الصناعة التاريخية من توثيق كامل ، ثم نقد وعرض وتعليل وتحليل • لكنها من ناحية اخرى وظفت في خدمة موقف ايديولوجي أو التزام عقائدي عن طريق الموضوعات المبسوطة التي تختار بعناية كي يتم فيها تسليط الاضواء على جوانب محددة دون اخرى من الماضي ، بحيث تخدم اغراضا معينة وتدعم موقفا ايديولوجيا بالذات • ويكفي للتدليل على صحة ما نقول نظرة واحدة على المؤلفات ذات العلاقة بتاريخ العرب والصادرة باللغات الثلاث : العربية والفرنسية والانكليزية في فترة التطور العلمي هذه ، والنسبة العددية العالية التي تتمتع بها تلك المؤلفات التي تبحث موضوعات طائفية أو اقليمية ضيقة ، الامر الذي يدفع للتساؤل عن سر حظوة هذه الموضوعات بهذا الاهتمام الزائد دون غيرها من موضوعات تدخل ضمن اطار التاريخ العربي وتحتل مراتب اعلى في اي سلم اولويات او اهميات يمكن ان يوضع على اساس موضوعي •

من ناحية اخرى تبقى الموضوعية في علم التاريخ ، حتى على صعيد النظر ، هدفا مثاليا يستحيل تحقيقه ان لم نقل السير نحوه شوطا بعيدا • وينبعذلكمنطبيعة موضوعه وطبيعة معرفته•فطبيعة الموضوع انسانيةلايمكن فصلها عن الذات الانسانية كموضوعات الطبيعة والمادة • كما أن المعرفة التاريخية معرفة غير مباشرة ، باعتبار ان التاريخ علم قائم على تفسير الوثائق التاريخية ، وهكذا يكون الماثل أمامنا الوثيقة أو الاثر وليس الحدث الذي نؤرخه بذاته والذي لا يمكن اعادته للتأكد من صحة ما وصلنا عنه • وتبقى الوثيقة مختلفة عن الحدث لانها عبارة عما أدركه كاتبها عنه ، وتلعب في تكوين هذا الادراك ظروف ذاتية شتى • ويضاف الى الذاتية في كثير من الاحيان انتقائية أيضا ، إذ ان الكاتب لم يسجل الا ما رآه جديرا بالتسجيل من وجهة نظره • لذلك يمكن القول ، انه اذا كان التاريخ بحثا في نشاط الانسان في الماضي فمن المستحيل تسجيل كل نواحي هذا النشاط ، فيقتصر الامر على تسجيل ما هو هام أو ما هو جوهري • ومعيار الجوهري والهامشي أمر خلافي بين شخص وآخر ومن عصر لعصر •

صفوة القول اذن ، ان الجماعات والاقوام منذ العصور القديمة قد نظرت لماضيها وحفظت أو سجلت منه ما رأته هاما وضروريا ومفيدا

لها في ضوء واقعها ، وانها استخدمت من الاساليب والمناهج ما يساعدها على الوصول الى الهدف ويقربها من الغاية ·

فاذا كانت شعوب الارض طرا ، قد افادت من تاريخها ـ كما قدمنا ـ فأحرى بالامة العربية ان تولي ماضيها الاهتمام ذاته ، خاصة وانها واحدة من ندرة من الامم في العالم تمتعت بتاريخ ، جمع الى ايغاله في القدم واستمراره ، غناه بالتجارب والاشراق والتقدم ، الامر الذي جعلها تتبوأ مكان الريادة ومرتبة القيادة في مسيرة الانسانية على درب الحضارة في أكثر من فترة · ويمكن تحديد مدى استفادة الامة العربية من تاريخها فيما لو استعرضنا الواقع العربي من زاويتي معضلات الحاضر ومشكلاته ، وطموحات المستقبل ، وفيما اذا كان النتاج التاريخي المكتوب يفي بغرض المساعدة على حل مشكلات الحاضر وينير السبيل لتحقيق طموحات المستقبل ·

الواقع العربي :

يمر العرب الآن بمرحلة تأكد الذات القومية على صعيد الوعي والشعور والتطلع الى التعبير السياسي للوحدة القومية بانشاء دولة واحدة · لكن هذا الانتصار لفكرة الوحدة علىجميع المستويات لا يعني موت القديم ، بل يبقى ـ كما في التاريخ دائما ـ على شكل رواسب · وفي الوطن العربي من هذه الرواسب الشيء الكثير : منها ما يتجلى بالروح الاقليمية على درجات متفاوتة من السعة والضيق ، من اقليمية ضيقة لا تتجاوز اطار واقع التجزئة الذي خلفه الاستعمار ، الى اقليمية المنطقة ، واقليمية الاجنحة التي يحمل لواءها دعاة وحدة المغرب العربي أو وادي النيل أو سورية الكبرى · وراسب آخر يتمثل بالروح الشعوبية التي ظهرت منذ زمن بعيد واستمرت حتى عصرنا مع تغاير في جنسية دعاتها وتحوير في شعاراتها وتغيير لارديتها بحيث تلبس لكل حالة لبوسها من زمن لآخر · ومع ذلك يبقى جوهرها واحدا ، اذ تنكر على العرب كونهم امة وتنتقص من قدرهم وتوهم بوجود تناقض بين العروبة والاسلام في بعض الاحيان · وبين الرواسب تبرز من فترة لاخرى الطائفية أو العصبية العمياء للطائفة ، التي لم تكن في جذورها اكثر من مذاهب اعتقادية نادى بها فرد أو أفراد ثم تبنتها جماعات بسبب ظروف اقتصادية أو اجتماعية او سياسية منفردة او مجتمعة ، فضخمت من حجمها ومن

بروزها على مسرح الاحداث ، ثم لم تلبث الاضطهادات في عصور الانحطاط خاصة ان الجأت اتباعها الى التقوقع على انفسهم في مناطق محددة . وولد ذلك مع الزمن شعورا بشخصية متميزة . وغدا هذا الشعور شاذا ومرضيا في المجتمع عندما تخلف بالبقاء بعد زوال الظروف التي ادت لنشأته ، ثم بلغ مبلغ الخطر عندما ارتبط أحيانا بالمستعمر ودعا لمصلحته ـ وبدافع منه احيانا ـ الى تجسيد الشخصية الطائفية بكيان سياسي .

على الرغم مما تسببه هذه الرواسب من انقسامات في المجتمع الا انها تبقى غير ذات بال ، وهناك ما يماثلها في بعض المجتمعات الاخرى ، لكن ما يجعلها خطرة في هذه الفترة بالذات كون الامة العربية تجابه تحديات كبرى ، تتمثل بالتحدي الحضاري المتجة نحو طمس معالم الشخصية العربية وازالة خصوصيتها ، وتحدّي الوجود العربي باغتصاب قلبه واقتطاع الاطراف من أغلب جهاته . ومازال هذا التحدي قائما يهدد بابتلاع المزيد من القلب وما حوله واقتطاع المزيد من الاطراف .

أما الطموحات فتتجه نحو القضاء على هذه السلبيات من رواسب وتحقيق الوحدة العربية في جميع المستويات وتحرير ما اغتصب واسترداد ما سلب عبر استيعاب ما هو لازم وضروري من علوم العصر وتقنياته . وبقدر ما يتحقق من ذلك تتوافر الشروط الموضوعية الملائمة لممارسة الانسان العربي حريته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مما يفسح المجال رحبا لتفجير طاقاته وتأهيله لحمل الرسالة من جديد والاسهام في بناء الحضارة الانسانية واحتلال مكانته اللائقة في ركب الحضارة المتجه الى الامام .

هذا هو الواقع الراهن وتلك هي التطلعات المستقبلية ، فهل نجد فيما كتب عن تاريخ العرب ما يساعد على معالجة المعضلات وتحقيق التطلعات .

ما كتب في التاريخ العربي :

يمكن جمع هذا المكتوب في زمرتين كبيرتين ، التاريخ التراثي والدراسات الحديثة .

للعرب في المجال الاول تراث تاريخي ضخم انتج جله في العصور الوسطى ، ويعتبر بحق قمة لعصره من جميع النواحي : في جمع المصادر

ونقدها وفي سعة نطاقه في المكان حتى كاد يصبح تاريخا للعالم كله ، وفي الزمان لدرجة الطموح لسرد تاريخ الانسان منذ وجوده على سطح الارض الى عصر المؤلفين . ومع ذلك فان الاكتفاء به والوقوف عنده يعني الجمود بعينه ، لان ذلك يعني التخلي عن كل التقدم الذي احرزته الدراسات التاريخية في العصور الحديثة وبخاصة في مجال استخدام العلوم المساعدة . أضف الى ذلك ان تغير الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، وتباين القيم بين العصور ، يجعل هذا التراث كما هو عليه غير ملائم ليكون تاريخا في عصرنا . اذ ارتبط كل مؤرخ من مؤرخينا القدماء بحاجات مجتمع عصره ، فمن عاش دور الفعاليات القبلية اقتصر نطاق التاريخ عنده على مجال نشاط هذه القبائل ، وآخر عاش في ظل نعمة خلفاء فدار حديثه حول ما ارتبط بهم وأطنب في وصف عادات هؤلاء الخلفاء الشخصية وتبسط في ذكر اخبار حياتهم العائلية ، ورأى في مآدب ختان أولادهم والاحتفال بزفافهم امرا يستحق ملء صفحات في ذكر تفاصيله ، في حين لم يجد في حدث آخر كانشاء أول معمل ورق ، على سبيل المثال ، بكل ما يؤدي اليه من نتائج فكرية واقتصادية شيئا يستحق الذكر . وفريق اخر من هؤلاء المؤرخين عاش في اجواء الكتاب والموظفين الكبار فكانت نشاطاتهم ومؤامراتهم محور الاحداث التي بسطها وهيكلها .

من ناحية اخرى انطلق بعض المؤرخين في أحكامهم من منطلق متأثر بعصرهم ومنسجم مع انتمائهم الاجتماعي ، فقد عاشوا في جو يتمتع فيه الخليفة أو السلطان بسلطات مطلقة ويدور كل شيء بأمره . فعزوا كل الامور لهمم الفرد ونسبوا عظائم الاحداث لرغبة رجل وأمره وقراره الذي اتخذه بحرية ، وكأنه لا وجود لضغط أو لظروف محيطة ،من سياسية واجتماعية واقتصادية كان الامر والقرار نتيجة منطقية لها . اما تجاه الناس العاديين الذين كوّنوا الجماهير العريضة ، فكان كثير من هؤلاء المؤرخين لا يولونهم اهتماما الا عندما يتعلق الامر بعلاقتهم بالحكام ، وتدل التسميات التي يطلقونها عليهم على مدى الامتهان والازدراء الذي يكنونه لهم ، مثل « الغوغاء » « الاوباش » « السفلة » . كما اعتبروا تحركات هؤلاء فتنة حتى لو كانت لدفع ظلم أو رفع حيف وسموا زعماءها باسم « الخبيث » و « المارق » . ولا يخفي ما في ذلك من تناقض مع قيم العصر الحاضر ومفاهيمه اذ أصبحت الثورات من هذا النوع ذات قيمة سامية والقائمون بها قادة وروادا .

لم نقصد من ايراد هـذه الامثلة الى سلب المؤلفات التاريخية القديمة قيمتها · فهي رغم كل ذلك كنز ثمين ، الا انها ليست التاريخ المناسب الـذي ننشـده أو بتعبير آخر ليست بالاداة النافعة · بل هي المادة الخـام الاولى التي تصنع منها هـذه الاداة · ولكي تصبح التاريخ المنشود يجب الاستقاء منها واضافته لما ورد في المصادر الفقهية والجغرافية والاثرية كي نكمـل رسم الصورة للفعاليات والاحـداث التي نعتبرها هامة في ضوء حاجات الحاضر العربي ومستقبله ·

أما الـدراسات الحـديثة فجـلّ ما انتج منهـا واوائله كان مـن المستشرقين الـذين قـدّموا بعملهم خـدمات جلى للتاريخ العربي ، بما قاموا به من نبش آثار واكتشاف اصول وتحقيقها ، واتباع أساليب البحث الحديثة في كل مجالات التاريخ العربي السياسية والاقتصادية والفكـرية والفنية · لكـن ما يحـد من قيمة هذا العمل العظيم هـدفه الـذي حوله في بعض الاحيان الى أداة خطرة · فمن المعروف ان الاستشراق رافـق الاستعمار · ولم يكن هدفه المعرفة لذاتها ، بل معرفة الوطن العربي وأقطاره وشعوبـه معرفة شبيهـة بمعرفـة الطبيعـة للسيطـرة عليهـا أو التكيف معها ، فهي اذن معرفة تبغي الوصول لانجـع السبل في التعامل مع الوطن العربي ، تحييدا هنا وسيطرة هناك ، أو إثارة · ولا أدل على ذلك من كون أغلب الدراسات المتعلقة بقطر من الاقطار قام بها مؤرخون من البلد المستعمِر، ولعـل أهـم النـواحي التـي تتجلـى بهـا أخطـار هـذه الـدراسـات توجهات الكثير منها وانصرافها لتسليط الاضواء الساطعة على موضوعات التناقض في صفوف المجتمع العربي كالـدراسات المستفيضة عن الاقليات والطوائف الـدينية · ومثل هذه الابحاث في الخطر تلك التي تنمي النزعات الاقليمية كما يظهر في المؤلفات عن تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، حيث تبرز تناقضه مـع المشرق وتجعـل محـور تاريخـه الصـراع مـع المشرق للخـلاص مـن حكمـه · وأخيرا ، فان ما يـدعو للحـذر مـن عمل المستشرقين كون نسبة لابأس بها منهم يهودا تظهر صهيونيتهم ويصعدّون من دسهم بقـدر ما يحتـدم الصراع العربي الاسرائيلي ·

تـدخل في نطاق الـدراسات الحـديثة ايضا أعمال المؤرخين العرب الـذين انتظمتهم تيارات · ورغم تـداخل هـذه التيارات عنـد أكثرهم ، فقد غلبت على بعضهم نزعـة سلفية فلم يتجاوزوا فيما كتبوه عـن ماضي العرب جمع نصوص قـديمة ، لا على سبيل الاستقصاء ، بل بغاية استكمال

جوانب صورة معقولة ، كما لم يبذلوا كبير عناء في نقد وتحليل ما ينقلون ، أو يبذلوا جهدا لتجاوز المصنفات التاريخية التراثية بالمعنى الدقيق الى مصادر اخرى من علوم مساعدة ، واكتفوا اضافة لذلك بأخذهم عن الطريقة العلمية في البحث قضية التهميش ، رغم انها لا تقدم ولا تؤخر كثيرا وتبقى شكلية لانها كالاسناد في القديم ٠

أما التيار الآخر فقد سار على نمط الدارسين الاوروبيين منهجا وأسلوبا ، ثم تمايز أصحابه ، فمنهم من قلد تقليدا يكاد يكون أعمى دونما أي التزام أو انطلاق من موقف قومي أو فكري ، بحجة الموضوعية و « العلم للعلم » فقط ٠ ولهذا الفريق ، أبحاثه العلمية التي يسلط فيها الاضواء على أي موضوع من الموضوعات ، اختاره لمجرّد توفر مصادره لديه أو لكونه مكملا أو موسعا أو موضحا لبحث أو أبحاث تطرّق اليها مستشرق ما ٠ ومثل هذه الابحاث حتى لو استبعدنا ما قد يكون لها من اثر سلبي لا تفي بالغرض ٠ لانها كأبحاث أكاديمية لا تعرض الا لامور محدودة النطاق ضمن اطار التاريخ العربي ، وبالتالي فهي لا تحدد له مسارا ، ولا تصل حتى بمجموعها الى تغطية فترة هامة ٠ الا أن البعض الآخرممن حذا حذو المستشرقين في البحث أخذ من الاستشراق منهجه وطريقته فقط وخالفه في غايته واهدافه ، وذلك بتوظيف الابحاث لمنفعة قضايا العرب ٠ وهكذا جاءت أبحاثه في توجهاتها ومواضيعه في عناوينها ومضامينها معبرّة عن التوفيق بين الالتزام القومي ومقتضيات البحث العلمي ، مما جعل لعمله قيمة كبرى لا في تقديم معلومات جديدة وموثوقة فحسب ، بل لانه كان نموذجا يحتذى ومرشدا لاتجاه يمكن سلوكه وطريق يسهل على من يرغب اتباعه ٠ لكن هؤلاء كانوا قلة وكذلك انتاجهم ٠ أضف الى ذلك ان دراساتهم ككل الدراسات الاكاديمية لا تغطي حيزا كبيرا ولا تكفي بالتالي لتحديد مسار التاريخ العربي العام ٠

يدخل في نطاق هذه الدراسات الحديثة كتب تاريخ عامة ، منها ما هو معجمي كالموسوعات تعظم فائدتها وتجلّ خدمتها في تقديم معلومات تفصيلية ، لكنها لا تعطي خطا تاريخيا وهو ما يهمنا في هذا المجال ٠ اما كتب التاريخ العام فلا تعدو كونها مختصرات تفتقد الاساس العلمي لكونها لا تعتمد على مجموع الدراسات التفصيلية في التاريخ العربي ، كما أن نطاقها لا يقتصر على العرب فقط بل يشمل التاريخ الاسلامي كله ، ولهذه الاسباب ولاسباب اخرى متعددة فقدت هذه

الكتب غالبا وحدة الموضوع وخط البحث المتصل لنفس الظواهر المتماثلة · ورغم عناوينها الكبيرة بقيت مضامينها دراسات مختصرة لتواريخ دول عدة يصعب على الدارس أن يجد فيها الاساس الذي يتحكم في اختيار الظواهر التي تدرس في كل قطر أو دولة والتي كثيرا ما تتباين وتتغاير من دولة لاخرى · ورغم قلة عدد هذه المؤلفات وتدني مستواها العلمي الذي يبرز أكثر في المؤلف العربي منها ، فانها شديدة التأثير على الثقافة التاريخية العامة في البلدان العربية لانها غالبا ما تكون المصدر الاساسي لكتب التاريخ في التعليم العام ·

التاريخ المطلوب :

ما هو مكتوب عن تاريخ الامة العربية اذن يشكو من علل كثيرة ، فهو لا يغطي هذا التاريخ ولا يرسم له مسارا ، ولا تتوافر في قسم كبير منه ضرورات البحث العلمي ، وهو فوقذلك كله يستخدم أحيانا كأداة ضد الامة وأهدافها بدلا من أن يوظف في خدمتها ومعالجة مشكلاتها الحاضرة وتطلعاتها المستقبلية · ومن هنا تنبع الضرورة القصوى والحاجة الماسة لتلمس طريق مناسب لكتابة تاريخ عام للامة العربية يتعاون فيه الشكل والمضمون على تلافي الآثار الضارة لما هو مكتوب عن تاريخها ، ويحقق لها في الوقت نفسه الفوائد التي تتوخاها الامم من تاريخها القومي ·

يمكن للشكل أن يسهم في تحقيق الهدف من نواح شتى ، فمجرد كون التاريخ المكتوب عاما وتاريخ أمة يحدد مسارها عبر الزمن منذ الخطوات الاولى لتكونها حتى العصر الحاضر يعزز في الفكر دون شك فكرة الوحدة ويثبت في الذهن خصوصية هذه الامة وشخصيتها الحضارية المتميزة · ومما يساعد على الوصول الى الغاية ترتيب الوقائع لهذا التاريخ العام على أساس شرائح افقية زمنية تستعرض تاريخ الوطن العربي والعرب كأمة في فترة زمنية محددة تلو فترة ، وبذلك تصبح وحدات مادة التاريخ العربي الكبرى ظواهر متتالية ومتفاعلة ، الامر الذييتيح لنا تتبع جذور الوحدة العميقة بين أجزاء الوطن العربي رغم تباين السلطات الحاكمة · وعلى سبيل المثال اشتهرت سياسة التسوية الاسلامية بين عناصر الدولة بأنها من خلق العباسيين ، ولكننا نرى الاندلس الخاضعة للامويين في نفس الفترة تطبق فيها السياسة نفسها ،

حيث موالي الامويين يقيمون لهم فيها الدعوة ، وبعد انتصارهم وتأسيس دولتهم في الاندلس نرى جيشهم يتكون من عناصر متعددة ، أبناء القبائل العربية والموالي والمغاربة ، وطبقت نفس سياسة التسوية في مجال الوظائف المدنية أيضا ٠

من ناحية اخرى تتجلى فائدة وعلمية عرض مادة التاريخ العام للامة العربية على أساس الشرائح الافقية عند استعراض الترتيب على اسس اخرى ٠ فالترتيب على اساس قطري عمل غير علمي نظرا للارتباط الشديد بين أي قطر وأجزاء الوطن العربي الاخرى ، بحيث يصعب فهم بعض الظواهر أو تفسيرها دون التعرض لامتداداتها عبر الوطن العربي كله ٠ أما الترتيب على أساس السلالات فهو مناف للعلمية لانه منطلق من مقولة عفى عليها الزمان ، تقول بأن التاريخ من صنع عظماء الافراد ٠ كما انها لا تعكس لنا صورة حقيقية عن حياة الامة وتحدث انقطاعا في مسيرتها عبر التاريخ ، لان السلالات العربية الحاكمة انقطعت لفترة هنا وهناك ، مع اختلاف في طول أمد هذا الانقطاع بين منطقة واخرى ، في حين استمرت الامة ولم تنقطع فعاليات أبنائها في جميع المجالات حتى السياسية والحربية منها ٠ ونجد مثلا واضحا على ذلك في بلاد الشام حيث تحمل الشعب وتنظيماته العبء الاكبر في صد الهجمات المغولية عندما كان الحكم فيها للمماليك ، وفي المعارك الكبرى التي خاضتها قوى البلاد ضد الغزاة من فرنجة ومغول نلاحظ أن نسبة أبناء البلاد كانت كبيرة بحيث كونت الاكثرية الساحقة بين هذه القوى ٠

يتمتع المؤرخ بحرية واسعة عندما يتعلق موضوع عمله بالشكل أو بالعرض ، لكنه يفقد هذه الحرية عندما يتصل عمله بالمضمون اذ لا يستطيع ابتكار أحداث لم تقع ، كما انه عندما يفسر الحوادث لا يمكنه تحميل النصوص أكثر مما تحتمل دون ان يخلّ بالحقيقة خللا واضحا ٠ لذا ليس المرغوب بالنسبة لتاريخ الامة العربية تجاوز الحقيقة العلمية في البحث ، وانما بسط الوقائع موضوعيا ، وعرضها بالشكل الذي يخدم مصلحة حاضر الامة ومستقبلها في اطار الموضوعية ، كالتأكيد على الحقائق التي تخدم الهدف ، والرؤية المتبصرة للاحداث لتبيين مغزاها واكتشاف القيم الحقيقية وراءها في ضوء مفاهيم العصر والربط بين الوقائع التي يؤدي الربط بينها الى نتيجة تخدم حاجات الامة ومستقبلها ٠ وعندما تتعلق الواقعة بأمر ذي علاقة بسلبيات الحاضر العربي

كالحساسيات العقائدية والحزازات الاقليمية والتعصب فيهما ، تقلل طريقة العرض من درجة السلبية ، اذا ميز فيها بين الجذور البسيطة والتراكمات التي تجمعت فوقها مع الزمن والمبالغات التي اضافها المؤرخون للحوادث المتعلقة بها جيلا بعد جيل ٠ اما التفسير فمن الضروري أن يسير في نفس الاتجاه ، أي تفسير الاحداث والوقائع انطلاقا من الظروف المحيطة بها وليس من نظرية ثابتة ، وعند تكافؤ الادلة بالنسبة لتفسيرين لا ضير على الموضوعية من الاخذ بأقربهما لمصلحة حاضر الامة ومستقبلها ٠

تتضح هذه الافكار النظرية بشكل جلي فيما لو أوردنا بعض القضايا كأمثلة ٠ من هذه القضايا واحدة تمثل بعض الوقائع في تاريخ العرب التي تحتمل أكثر منتفسير وتترك للمؤرخ اختيار الاكثر نفعا لمصلحة الامة ٠ وتتعلق هذه بقضية الاجابة على التساؤل من هم العرب ؟ ومتى يبدأ تاريخهم ؟٠ وتنبثق أول مرحلة من الاجابة من ملاحظة واقع موضوعي هو تشابه يقرب من التماثل في لغات أكثرية ساكني الوطن العربي في القديم ، وادى هذا الى افتراض انبثاق هذه اللغات عن لغة أم مما يستدعي وجود شعب واحد تكلم بها ، وبحث عن موطن هذا الشعب وهنا تعددت التفسيرات . وشاع ورجح تفسير وينكلر وكايتاني القائل بأن موطن هذا الشعب هو الجزيرة العربية . فمنها انطلق في هجرات متعددة منذ القديم وعند ظهور الاسلام وخلال الفترة التي تلت ذلك ٠ وكان العامل وراء هذه الهجرات حلول الجفاف التدريجي في الجزيرة العربية بعدما كانت غزيرة المياه كثيفة النبات تكثر فيها الوحوش من فصائل عدة ٠ مثل هذا التفسير يبدو وكأنه متعلق بالناس لا بالارض وبالقوم لا بالوطن ٠ أو انه تفسير بدوي للامة بحيث تتحدد أرضها بمدى انتشارها ، فتضيق في فترة وتنبسط في فترة اخرى ٠ اضف الى ذلك ان هذا التفسير لا يجيب اجابة مقنعة على كل الاسئلة التي تطرح حول الاصول الاولى للعرب ٠ اذ ان التشابة اللغوي جزء من تشابه عام في جميع مظاهر حضارات سكان الوطن العربي في القديم فهل نستطيع أن نرد ذلك التشابة كله الى الاصل الذي انطلق من الجزيرة العربية ، علما انه انطلق في حالة بداوة وعلى فترات متباعدة هربا من القحط والجفاف نحو مناطق خصبة مروية ، وتزخر بالتالي بسكان متفوقين كما وكيفا ـ الى حد كبير ـ على المهاجرين ٠فلمن تكون الغلبة حضاريا ؟ يرجح منطقيا أن تكون للمتحضرين في أغلب النواحي ٠ اذا كان من الصعب رد التشابه

الكبير في مظاهر الحضارات الى الهجرة من الجزيرة العربية كعامل وحيد على الاقل ولا بد من البحث عن عوامل أخرى ، فما هي هذه العوامل ؟ هل نستطيع القول ان البيئة الطبيعية الواحدة التي ميزت أرض الوطن العربي مع بعض الخصوصيات في هذا المكان أو ذاك ؟ قد يساعد على هذا الافتراض ان القاعدة العامة المستخلصة من دراسة تاريخ الانسانية تقول : بأن حضارة الانسان نتاج تفاعل بين الانسان وبيئته ، ويكون النتاج لمصلحة البيئة وعلى حساب الانسان كلما كان بدائيا . وهذا يعني ان عامل الحسم بالنسبة لتلك العصور السحيقة في القدم بالنسبة للعرب هو عامل البيئة التي ستسهم وحدتها في خلق حضارات متشابهة . وقد زادت في هذا التشابه كما وكيفا عمليات الهجرة من مكان الى آخر ضمن اطار بيئة الوطن العربي الواحدة وتعدى نطاقها الهجرات من جزء الى آخر في جناحه الشرقي الى الهجرات من المشرق الى المغرب وذلك قبل ظهور الاسلام وعند الفتح وبعده بقرون عدة .

هذان هما التفسيران لواقعة بداية التاريخ العربي فبأيهما نأخذ ؟ هل نأخذ بالتفسير الاول الذي يجعل العرب هم سكان الجزيرة العربية الذين انطلقوا في هجرات الى الشمال اولا عبر العصور القديمة ، ثم انساحوا بعد الاسلام وعرّبوا منطقة الوطن العربي ، وفي هذه الحال ما هوية حضارات قديمة قامت على أرض الوطن العربي ، كحضارة السومريين في بلاد الرافدين وحضارة مصر القديمة ؟ والى من تنتمي ؟. أم نأخذ التفسير الثاني الذي ينطلق من الارض ومن البيئة الواحدة ، ولا يعلق أهمية على التسمياتويجعل كلمة « عرب » كلمة متطورة المضمون، أطلقها في الاصل بعض مجتمعات الوطن العربي على مجتمع آخر كعنوان لنمط بدوي وليس كأسم علم . وبالتالي فان المقصود بها بعد ذلك مغاير في مضمونه للمضمون الاول اذ أصبحت اسما عاما لمجموع هذه المجتمعات المقيمة على أرض الوطن العربي والتي انصهرت في كتلة واحدة عبر العصور وخاصة اثر تكون الدولة العربية الاسلامية وقيام الفتوحات . وينجم عن هذا التفسير لبداية التاريخ العربي ان كل الحضارات التي ظهرت على أرض الوطن العربي هي حضارات عربية .

لا شك أن الجزم ، لا بل حتى الترجيح ، في هذا المجال ، أي الاخذ بأحد التفسيرين منوط بعلماء الآثار وفقه اللغة المقارن وغيرهما من العلوم المساعدة المتصلة بالبحث في التاريخ القديم وما قبل القديم . ومع

ذلك فان المؤرخ يستطيع تقديم بعض الدلائل غير المباشرة على ارجحية الانطلاق من الارض في تحديد بداية تاريخ الامة العربية ٠ ولعل أكثر هذه الادلة وضوحا ترسخ العروبة بعد انتشارها في بقاع واسعة من الارض في بيئة الوطن العربي فقط وانحسارها عن سائر المناطق الاخرى بمرور الزمن ٠ فقد انتشر العرب خارج هذه البيئة الى الشرق من جبال زاغروس والى الشمال من جبال طوروس وفي أقصى الغرب عبر شبه الجزيرة الايبيرية ٠ فحكموا في هذه البلاد واستوطنت فروع من قبائلهم وعشائرهم بها وسادت لغتهم عليها ، ومع ذلك انحسر الوجود العربي بعد ذلك رغم بقائه عدة قرون بلغت في الاندلس ما يزيد عن ثمانية ٠

اذا كانت الواقعة السابقة من الوقائع الخلافية ، فان وقائع تاريخية ثابتة لا لبس فيها وتحتوي على ما يفسر الواقع العربي وما فيه من تطلعات وتدعم في الوقت نفسه هذه التطلعات اذا ما تم ابرازها والتنبيه عليها ٠ منها تلك الجذور القديمة ، للتطلع نحو التعبير السياسي عن الوحدة العربية بالدولة الواحدة ٠ اذ بالرغم مما هو شائع ومشهور في أغلب كتب التاريخ ٠ من ان الوحدة السياسية في التاريخ العربي لم تدم أكثر من مائتي عام ثم انفصمت ولم يبق منها سوى الوحدة الحضارية وبالتالي فان القاعدة في الحياة السياسية ــ حسب هذا الرأي ــ هي التجزئة والاستثناء هو الوحدة ٠ فاننا نجد جذور التطلع الوحدوي قائمة دوما ومستمرة ابدا ، وتتمثل باعتبار الوحدة مثلا أعلى سياسيا لا تستقيم الامور بدونها ، وقد انعكس ذلك ببقاء مؤسسة الخلافة هذا الزمن الطويل ، بصرف النظر عن مدى قوتها أو ضعفها ٠ وكذلك باحترام فكرة ومبدأ وحدة الخلافة ، الامر الذي جعل المستقلين بالولايات في المشرق والمغرب يسعون للحصول على تفويض من الخليفة بحقهم في حكم ما تحت ايديهم أما الذين لا يسعون الى ذلك من أمثال المنضوين تحت لواء مذهب ديني مناقض لمذهب الخليفة فانهم لا يحكمون بلدهم على اساس الانفصال عن سائر الاجزاء وانما يطرح كل منهم نفسه كخليفة بديل وصاحب الحق في حكم دولة الخلافة ، وهذا ما فعله قادة الخوارج في المغرب حيث اسسوا أكثر من دولة وكذلك الفاطميون ٠

اذا لم يتوفر للمثل الاعلى السياسي في الوحدة أن يتجسد على أرض الواقع في عدة فترات من التاريخ العربي ، فلا يخلو الامر من وجود وحدة عمل بين القوى العربية وخاصة في الامور المصيرية عند

مجابهة الخطر الخارجي ، كما في عملية الصراع على المتوسط بين العرب والبيزنطيين الذين سادوا هذا البحر لفترة طويلة ، وقطعوا طرق الاتصال البحري بين أجزاء الوطن العربي • اذ ردّ العرب على ذلك بعمل موحد على الرغم من التجزؤ السياسي على أرض الواقع ، وقام كل طرف منهم بانجاز جزء من هذه العملية الكبيرة ،عملية بسط السيادة العربية الاسلامية على المتوسط • وشارك بعضهم بعضا في معركة واحدة ضد العدو بالرغم مما بين السلطات السياسية من تنافر وعداء ، فالمطرودون من قرطبة احتلوا اقريطش وسدّوا على البيزنطيين منافذ بحر ايجة ، وانطلق الاغالبة من تونس ليفتحوا صقلية • وفي لحظة حرجة اوشك فيها جيشهم على الفناء انضم اليه اسطول اندلسي واسهم في تغيير الوضع وتسيير العملية الى نهاية مظفرة ، وذلك على الرغم مما بين الاغالبة وأمويي الاندلس من خلاف وتنافر •

من ناحية اخرى كانت الحياة الاقتصادية للوطن العربي تسير أيضا في اتجاه دعم عوامل التوحيد في الميدان السياسي اذ كوّن ما يشبه السوق الواحدة يقوم فيها بلد واحد بتزويد الوطن العربي بمادة تتوفر فيه كقيام الاندلس بتجهيز الزئبق ، وبمد الجناح الغربي للجناح الشرقي بالمعادن المستخرجة من أرضه أو المستوردة عن طريقه كالذهب •

كذلك لم تكن قضية وحدة المصير العربي حدثا عارضا استدعته ضرورات الردّ على الاستعمار الغربي ، بل كان لها جذورها في الماضي وتتجلى بكون أجزاء الوطن العربي قد مرت بمراحل واحدة منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر ، رومان فبيزنطيون فعرب مسلمون فعثمانيون فأوربيون توالوا على السيادة فيه • وفي فترات حاسمة من التاريخ كان ضعف جزء من الوطن العربي يلحق الاذى بالاجزاء الاخرى ، فسقوط جزر المتوسط في القرن الحادي عشر بيد الاوربيين مكن هؤلاء من القيام بحملاتهم على المشرق التي سموها بالصليبية ودعاها العرب غزو الفرنج • وبعد ذلك بعدة قرون أدت هزيمة المغاربة أمام الاسبان والبرتغاليين الى افساح المجال أمام الاخيرين كي يدوروا حول افريقيا ويقضوا على التجارة العربية في المحيط الهندي •

ننتقل بعد هذا الى قضية التأكيد على الوقائع التاريخية للعرب ذات العلاقة بالقيم الاخلاقية والانسانية التي تشغل حيزاً لابأس به من

التاريخ العربي ، وفي طليعتها ما سمي بالفتن التي شوّه عرضها لاسباب عدة ، من منطلقات المؤرخين القدماء ، الى تطبيق مناهج معينة بشكل آلي لدى بعض المؤرخين المحدثين · فقد نظر المؤرخون القدماء لحوادث الاقتتال كلها بمنظار واحد واعتبروها فتنا وخروجا عن الجماعة وعن الدين كذلك ، ونادى البعض في العصر الحديث بضرورة تحاشي ذكرها ما أمكن في كتابة التاريخ وحتى حذفها · لكن النظر اليها برؤية عصرية تؤدي الى نتائج مختلفة · اذ لا يمكن تصور مجتمع دون تناقضات وصراعات يكون أداتها اللسان حينا وحد السنان حينا آخر · ومن ناحية اخرى يبين لنا تتبع وقائع ما سمي بالفتن في عصور متطاولة من التاريخ العربي ان قسما منها فقط يستحق هذا النعت ، لكن الكثير منها كان نتاجا لتعلق مستمر بالحرية والاستعداد للبذل والتضحية حتى بالنفس في سبيل الرأي ، فهنا يحمل السلاح فريق ويقدم حياته دفاعا عن موقفه السياسي، وهناك يفعل الثاني ما فعله الاول دفاعا عما يعتقد انه عدل وثالث تعييه الحيل في رد ما يعتقد انه ظلم لحق به أو بجماعته فيمتشق الحسام لدفعه ·

أما في الميدان الحضاري فتبرز القيم بشكل أوضح واجلى ، كالانفتاح على المنجزات الانسانية والاقتباس منها ضمن اطار الحاجة ، ودون أن يجد المقتبس غضاضة في التصريح عما اقتبس واسناد الفكرة لصاحبها والاعتراف بالتقدير له ومشهور لقب المعلم الاول الذي سمى العرب به أرسطو · الا أن الانفتاح أضحى عرضة للتشويه لدى الكثيرين من المؤرخين المحدثين واصبح عندهم مرادفا للنقل ، وبالتالي انكار قدرة العرب على الابتكار ، وكاد البحث عن مصدر عند الآخرين لكل فكرة جديدة تظهر لدى العرب يصبح نهجا ثابتا لدى المؤرخين ، وذلك خلافا للمسلم به عند فلاسفة التاريخ منذ أيام الايطالي فيكو في القرن الثامن عشر ، بأن « ظهور فكرة ما في حضارتين مختلفتين سواء في زمن واحد أو في زمنين متباعدين لا يعني بالضرورة اقتباس احدى الحضارتين عن الاخرى ، بل غالبا ما يحصل ذلك نتيجة للتطور الذاتي » · وعلى الصعيد العملي نجد أمثلة كثيرة لهذا النهج ، ومنها الزعم بأن مذهب المرجئة يعود الى فكر بيزنطي ، مع أن تتبعا واعيا للتطورات السياسية والاجتماعية عند العرب في فترة نشوئها يدل على ان هذه الفكرة وليدة هذه التطورات التي انقسم فيها العرب الى فئات متناحرة يعتبر كل منها

الآخر كافرا ويجرد السيف لقتاله · وقد ادى ذلك بدوره وفي الوقت نفسه لظهور اناس تورعوا عن قتال اخوانهم في الدين ، ورأوا ان المبرر غير كاف وامتنعوا عن التقييم وتركوا أمره لله · وكذلك الامر في النزعة المساواتية التي برز على رأسها ابو ذر اذ عزاها البعض الى المزدكية الفارسية القديمة · علما بأن مراجعة نصوص تاريخ الفترة ، تبين ان هذه النزعة ظهرت بأشكال متعددة لدى اوساط واسعة من العرب ، وان أقوال ابي ذر ليست استعارة أو نقلا وانما تعبيرا عن رأي قطاع واسع من الناس ·

ان القضايا الكثيرة التي يحفل بها التاريخ العربي لا تقتصر على تلك التي تدعم ما هو ايجابي في الواقع العربي الحاضر وتخدم تطلعات المستقبل · فهذا التاريخ يحتوي على الكثير أيضا مما ينفع في معالجة الرواسب الضارة التي مازال بعضها حيا ، ولكن على درجات متفاوتة من القوة ، ويبرز واحد منها بين حين وآخر من مجال الكمون الى مجال الفعل ليعيث هدما وتخريبا وتقسيما وتفرقة في المجتمع · وتبدو الاقليمية والطائفية مثلا بارزا على مثل هذه الرواسب وعلى مدى اضرارها ، ومن شأن دراستها في واقع ظهورها وتطورها عبر الزمن ان تفقدها الكثير من قوتها الضارة واثرها المخرب · فاذا اتبعنا هذا النهج رأينا انها لم تكن في الاصل أكثر من موقف سياسي واجتماعي ، أو نزعة فكرية أو مذهبية لفرد أو جماعة قليلة العدد لا تلبث أن تنتشر ، والموقف والفكرة كلاهما لا ينتشران ولا ينبعان من فراغ وانما يثير وجودهما وانتشارهما ويدفع اليه واقع موضوعي بعناصره الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فيتولدا منه أو يظهرا كرد عليه · وفي الصراع الذي ينشب بين المهيمنين والمسيطرين في هذا الواقع وبين أصحاب النزعة أو الموقف من جهة اخرى تطرأ تحولات على الطرفين : الواقع والاطراف المتنازعة ، وتستمر سلسلة التطورات من خلال صراع المتضادات هذه ، وبالتالي تزداد التراكمات على الاشكال البسيطة للنزعة الاولى أو للموقف السياسي وتصل الينا بالشكل الاخير وقد اختلطت الاصول بالتراكمات وبمبالغات المؤرخين الذين نقلوا الاخبار جيلا بعد جيل ·

فاذا ما تتبعنا التطورات بدقة ووصفنا بعلمية خط سيرها اسهمنا في اضعاف اثر بعض الترسبات الضارة الى حد كبير ـ كتلك الحزازات

الاقليمية بين قبائل المغرب وحكام المشرق التي يحاول بعض المستشرقين احياءها ـ ما دامت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أدت لوجودها قد زالت · واذا ما بقيت بعض النزعات لارتباطها بمذهب أو عقيدة ، الا ان اثرها يحجم بحيث يزول كتناقض رئيسي ليصبح هامشيا في حياة أصحابه وحياة المجتمع · عند ذاك لا تثير الاحداث الماضية المتعلقة بالصراع بين أصحاب هذه النزعات وغيرهم في النفوس حقدا ولا شعورا بشخصية متميزة ، وانما شعورا بالاشفاق ، كما ننظر للمعارك الدموية التي جرت بين القبائل العربية قبل ظهور الاسلام وبعده بقليل · وتنكمش حدود التناقضات لتصبح شبيهة بتلك الفوارق الموجودة بين مدن متقاربة في قطر واحد أو بين أحياء متجاورة في مدينة واحدة ·



انتشار الإسلام في الخليج في زمن الرسول الكريم

ملاحظات ومنطلقات للدراسة

د. نبيه عاقل

عميد كلية الاداب بجامعة دمشق

ان مافي المصادر الأولية من معلومات حول موضوع انتشار الاسلام في الخليج زمن الرسول صلى الله عليه وسلم يعطي صورة قد تكون مرضية للمؤرخ الذي يكتفي من التاريخ بأن يكون عرضا لما يقع له من معلومات حول الحادث دون ان تثير هذه المعلومات في ذهنه التساؤلات التي لابد من جواب واضح عليها لتكون الصورة متكاملة الجوانب لايغشاها اللبس أو الغموض، او لتكون هذه المعلومات منطلقا في اشادة البنيان التاريخي المتين بكافة أبعاده ومستلزماته ، وجميع ما أحاط به من ظروف في الداخل والخارج أدت في نهاية المطاف الى اعطائه الشكل الذي اتخذه ، والذي كان لابد وأن يتخذه .

وليس بخاف ان السبيل الأول في الدراسة التاريخية ، سبيل تجاوزه الزمن ، ولم يعد الباحث المحدث مجرد منسق لما في مصادره من روايات حول الحادثة موضوع اهتمامه يعرضها امام قارئه وكأنه يقول له : اليك ما وجدت والمسؤولية على من قال . وكما أنه من الطبيعي ألا تكون الصعوبات والثغرات في المعلومات التي يصادفها الباحث في تاريخنا العربي الاسلامي واحدة ، فانه من الطبيعي أيضا ان تكون لكل باحث اهتماماته التي يحاول ان يعطيها نصيبا أكبر من جهده في البحث .

من هذا المنطلق في المنهج اردنا أن يكون حديثنا عن انتشار الاسلام في الخليج زمن الرسول الكريم صلوات الله عليه ، لا عرضاً لاحداث واخبار

يجدها كل من يستطيع الوصول الى المصادر الأولية التي تتناول الموضوع بالبحث ، ولكن محاولة في طرح بعض الملاحظات والمنطلقات التي نعتقد أنها اساسية في هذه الدراسة التي تقصد الى ازاحة بعض الغبار عما نسيه الذين سبق وكتبوا في هذا الأمر والى التذكير ببعض الملابسات والظروف التي أعطت أمر انتشار الاسلام في الخليج زمن الرسول المسار الذي اتبعه، والى اجلاء بعض ما في الروايات من غموض أو تناقض أو الاشارة الى ما لم نستطع أن نكشف ستره أو نصل فيه الى جواب .

ان ماهو متعارف عليه من أمر انتشار الاسلام في شرق الجزيرة العربية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة عالمية الدعوة اذ ان رسالة محمد بن عبد الله (هي للناس كافة) وليس لفئة أو شعب أو أمة . ويفرض هذا الا تكون خطى الرسول في هذا السبيل متعجلة ، اذ لا بد له من السير صعداً فيبدأ بعشيرته الاقربين ، وينتقل الى من يليهم في القربى والدار حتى يصل الى اطراف الجزيرة وما يليها من أمم ودول . كما أنه من الطبيعي الا يبدأ دعوته خارج الحجاز الا بعد استقامة عود دولته الفتية التي أقامها في يثرب التي غدت عاصمة الدولة الجديدة ومنطلق نشاطاتها في كافة الميادين . وتحدد المصادر (كابن سعد ، وابن هشام ، والطبري ، وابن حبيب ... وسواهم) . موعداً لهذا النوع من النشاط انصراف الرسول من الحديبية. وفي طبقات ابن سعد فصل خاص يحدثنا فيه عن رسل محمد ابن عبد الله بعد منصرفه من الحديبية الى ملوك وامراء الدول المجاورة والكتب التي حملوها اليهم ممهورة بخاتم الرسول ، والاجوبة التي عادوا بها . وعندي أن هذا الذي يقوله ابن سعد وتوافقه عليه بعض المصادر يحتاج الى شيء من التدقيق . لان مايذكره ابن سعد في طبقاته (جـ١ ، ص٢٥٨ ومابعدها) يبدو وكأنه عملية خطط لها تخطيطاً مسبقاً وحدد زمانها ورجالها ومهمة كل منهم قبل خروجه صلوات الله عليه الى الحديبية . ففي نص ابن سعد مايلي : « ... قالوا : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست ارسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وكتب اليهم كتباً .. فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد ، وذلك في المحرم سنة سبع وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه اليهم ... » وواضح من هذا النص أن الفاصل الزمني بين عودة الرسول من الحديبية وانطلاق الرسل الستة لايتجاوز بضعة أيام (نهاية ذي الحجة

سنة ٦ ، بداية المحرم سنة ٧) . وأمر كهذا لايهيأ في أيام قليلة ، اذا صح النص ، ولاسيما ان كل رسول أرسل الى قوم أصبح « يتكلم بلسان القوم الذين بعثه اليهم » وهذا أيضاً أمر لايتم بين يوم وليلة .

ومن مقارنة هذه الرواية برواية مماثلة عند الطبري نجد أن ابن سعد قد ادخل جزءاً من الرواية الاصلية بجزء تال فخرجت روايته مشوهة اذ أن الرواية الأصلية التي تتحدث عن بعث الرسول لهؤلاء الستة تذكر أن الرسول جمع أصحابه وقال الهم : « اني بعثت رحمة وكافة فأدوا عني يرحمكم الله ، ولا تختلفوا علي كاختلاف الحواريين على عيسى ابن مريم . قالوا : يارسول الله ، وكيف كان اختلافهم ؟ قال : دعا الى مثل مادعوتكم اليه ، فأما من قرب به فأحب وسلم ، وأما من بعد به فكره وأبى ، فشكا ذلك منهم عيسى الى الله عز وجل فأصبحوا من ليلتهم تلك ، وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بعث اليهم . فقال عيسى : هذا أمر قد عزم الله لكم عليه ، فامضوا » .

ثم يتابع الطبري حديثه فيقول : « قال ابن اسحق : ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، فبعث سليط بن عمرو ... وعمرو ابن العاص الى جيفر بن ُجلندى وعباد ابن ُجلندى الازديين صاحبي عمان .... » (الطبري ج ٢ ، ص ٦٤٥) .

وواضح من كل ذلك أن مايذكره ابن سعد من أن كل واحد من مبعوثي الرسول الستة « أصبح يتكلم بلسان القوم الذين بعثه اليهم » هو خلط بين ماجاء عن حواري عيسى في الرواية الاصلية وما ادعاه ابن سعد خطأ عن مبعوثي الرسول الستة. يضاف الى ذلك ان ذكر عمرو بن العاص بين موفدي الرسول الستة الى الملوك والامراء أمر لايستقيم والحقائق الثابتة ، لأن عمرواً لم يسلم الا سنة ثمان ، ولا يعقل أن يرسل وهو على الشرك ليدعو الى الاسلام . هذا فضلا عن انه اذا كان النص صحيحاً فالأمر يعني دونما شك أيضاً ان الإعداد لهؤلاء الرسل كان قبل التوجه الى الحديبية. ولست اشك بأن الظروف الداخلية لدولة الرسول في هذه الفترة السابقة للحديبية لم تكن تسمح له بأن يخطط لفتح حوار وجبهات خارج حدود الجزيرة وفي أطرافها في فترة لم تكن حتى الحجاز قد دانت له بشكل تام . ولهذا كله يظل في رأيي أن مايقوله الطبري من ان رسول الله قد ارسل رسله الى ملوك العرب والعجم فيما بين الحديبية ووفاته ، هو القول الأصح ، لأن فيه من

الواقعية والدقة مايتناسب والوضع الداخلي لدولة المدينة (انظر الطبري جـ ٢ ، ص ٦٤٥) .

وأياً كان فلست أريد هنا أن اناقش كامل محتوى نص ابن سعد هذا فقد قمت بذلك في موضع آخر (انظر كتابنا : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول . دمشق ١٩٦٩ ، ص ٥٣٧ وما بعدها) والكني أريد القول أن منطلقاً أساسياً من منطلقات دراستنا لانتشار الاسلام زمن الرسول لابد وأن يكون التلازم بين الظروف الداخلية لدولة المدينة والمراحل التي قطعتها الدعوة الى الاسلام داخل الحجاز وخارجه ، والأوضاع في المناطق التي وجه الرسول اليها الدعاة . وبذا تنتفي فكرة الزمن المحدد سلفا لانطلاق هؤلاء الدعاة التي يطرحها ابن سعد ، كما ينتفي انهم انطلقوا في وقت واحد الى مختلف الجهات . وينقلنا هذا الى وجوب تحديد مواقع القبائل التي وجدت زمن الدعوة الى الاسلام بالنسبة لمكة والمدينة من جهة ، والى استقصاء موعد تماسها الأول مع الاسلام من جهة اخرى .

انتشار الاسلام في شرق الجزيرة :

ولما كان بحثنا مقصورا على القبائل التي كانت تنزل فيما نسميه اليوم بالخليج العربي فاننا سنحدد بعض الحقائق الأساسية التي نعتقدانه لابد من اخذها بعين الاعتبار حين نبحث أمر انتشار الاسلام بين هذه القبائل بشكل عام وان ننتقل بعد ذلك لاستعراض مانجده في المصادر من اخبار علاقات الرسول الكريم بهذه القبائل وان نحاول عرضها على معايير النقد التاريخي .

وعندي ان الامر الاول الذي لابد من اخذه بعين الاعتبار هو انه لم يكن بين القبائل النازلة في جنوب وشرق الجزيرة العربية وبين الرسول الكريم أي اتصال مهم حتى مابعد فتح مكة ، كما انه لم يكن على رأس هذه القبائل زعماء لهم وزنهم في الحياة السياسية العامة للجزيرة ممن يمكن أن يشغل بالهم مايحدث في الحجاز وما قد يكون له من تأثير على زعامتهم او على تغيير الوجه السياسي للجزيرة ، وبالمقابل ايضاً لابد لنا وان نذكر أن هذا الأمر يصح على موقف الرسول من هذه القبائل فهي بعيدة عن منطقة نفوذه ولاتشكل خطراً مباشرا عليه . واغلب الظن أن قضية عدم وجود زعماء ذوي خطر أو مكانة على رأس هذه القبائل هو جزء من

قضية اعم تتعلق بالتدهور السياسي والسكاني الذي كان يغلب على هذا الجزء من الجزيرة العربية الذي كانت أجزاء منه تقع تحت النفوذ الاجنبي أو تتقاسمه مطامع اجنبية ، هذا فضلا عما كان فيه من اخلاط سكانية وأديان سنعرض لها فيما بعد . وهكذا فأن اهم ملامح سياسة الرسول تجاه هذه القبائل وهذا الجزء من الجزيرة العربية قبل فتح مكة كان الاسلوب الدبلوماسي (ان صح التعبير) لأن ارسال حملات وبعوث عسكرية كان أمرا غير ممكن أو معقول اذا أخذنا بعين الاعتبار القوة العسكرية والوضع الداخلي لدولة الرسول من جهة ، والمرحلة التي تمر بها في صراعها مع قريش الذي كان يهدد وجودها ، والذي لابد من حسمه لصالحها قبل ان تنصرف الى ماعداه من أمور تأتي في مرتبة تالية . ويمكن ان نقول بشيء من التأكيد أن هذا الاسلوب الدبلوماسي استمر كاسلوب في التعامل في الفترة القصيرة التالية لفتح مكة ، كما سنرى من خلال مابين ايدينا من نصوص .

ان استعراض مانجده من معلومات حول هذا في فتوح البلدان للبلاذري (ط . الطباع) وتاريخ الطبري (ط . أبو الفضل ابراهيم) والمحبَّر لابن حبيب (ط . ايلزه ليخشنشتنير)وابن سعد(ط. دارصادر) وابن هشام (ط . السقا) وسواها من المصادر يوضح بما لايقبل الشك أن اسلوب البعوث العسكرية الى قبائل منطقة الخليج وجنوب الجزيرة وشرقها بشكل عام لم يستعمل زمن الرسول اطلاقا ، وانه انما استعمل زمن أبي بكر وبعد أن قامت مشكلة الردة . وان ماجرى زمن الرسول كان يدخل ضمن نطاق العمل الدبلوماسي ويتمثل بشكل واحد تتفق عليه جميع المصادر وهو ارسال اشخاص من ذوي الدين والمقدرة على الافصاح والاقناع للدعوة الى الاسلام وشرح تعاليمه وما يستتبع الدخول فيه من حقوق وواجبات . وسأستعمل بعض هذه النصوص التي تفصح عن هذه الحقيقة لاناقش محتواها ، لا من هذه الزاوية فحسب، بل من بعض الزوايا الاخرى التي تثير بعض التساؤلات والاشكالات التي لابد من ابرازها أو ايجاد حل معقول لها .

يذكر البلاذري في فتوح البلدان في حديثه عن فتح عمان مايلي :«كان الأغلبين على عمان الازدُ ، وكان بها من غيرهم بشر كثير في البوادي ، فلما كانت سنة ٨ بعث رسول الله (صلعم) ابا زيد الأنصاري احد الخزرج وهو

أحد من جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وبعث عمرو بن العاص السهمي الى عبد وجَيْفَر ابني الجلَنْدي (خطأوصحيحه الجُلَنْدَى) بكتاب منه يدعوهما فيه الى الاسلام . وقال : ان أجاب القوم الى شهادة الحق واطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وابو زيد على الصلاة وأخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن . فلما قدم ابو زيـد وعمرو عمان وجدا عبداً وجيفراً بصُحار على ساحل البحر فاوصلا كتاب النبي (صلعم) اليهما فأسلما ، ودعوا العرب هناك الى الاسلام فأجابـوا اليه ورغبوا فيه ، فلم يزل عمرو وأبو زيد بعمان حتى قبض النبي . ويقال ان أبا زيد قدم المدينة قبل ذلك » (ص ١٠٣ ــ ١٠٤) ويقـول الطبـري حول الموضوع نفسه وبعد حديثه عن فتح مكة : « وفيها (أي سنة ثمان للهجرة) بعث رسول الله (صلعم) عمرو بن العاص الى جيفر وعمرو ابني الجلندى من الازد مصدقاً ، فخليا بينه وبين الصدقة ، فأخذ الصدقة من اغنيائهم وردها على فقرائهم ، وأخذ الجزية من المجوس الذين بها ، وهم كانوا أهل البلد ، والعـرب كانوا يكونون حولهـا . » (جـ٣ ، ص ٩٥) . ويذكر البلاذري في موضع آخر رواية اخرى عن الموضوع نفسه يقول فيها : « وقد قال قوم : ان رسول الله (صلعم) كان وجه أبا زيد بكتابه الى عبـد وجيفر ابني الجلندى الأزديين سنة ٦ ، ووجه عمروا في سنة ٨ بعد اسلامه بقليل .. وإن رسول الله (صلعم) قال لابي زيد خذ الصدقة من المسلمين والجزية من المجوس . » . (ص ١٠٥ ــ ١٠٦) .

ويتضح من دراسة هذه النصوص ان الرسول لم يرسل الى عمان سوى شخصين وان مهمتهما كانت الدعوة الـى الاسلام وشرح مبادئـه وتعليم الناس القرآن وتطبيق تعاليمه فأطاع من أطاع وخالف من خالف . وان من أطاع من العرب دفع الصدقة ، ومن اطاع من المجوس دفع الجزية وان ماتجمع من مال الاغنياء رد على الفقراء . وان هذا الامـر كان سنة ثمان للهجرة ، لأن عمروا لم يسلم الا في تلك السنة . وهذا مايدحض الزعم الذي نجده في رواية ابن سعد التي أشرنا اليها آنفا والتي تقول ان رسل وبعوث الرسول الى الملوك والامراء قد انطلقت بعد صلح الحديبية ، أي حين كانت مدن الحجاز كمكة والطائف ماتزال على الشرك ، وقبائل نجـد تهدد بالانقضاض عليه ، وهذا ما لا يستقيم أمام المنطق أو ما في الروايات من اخبار . ولابد لنا من التنبيه بأن هذه الروايات تشير بوضوح الى وجود

عناصر سكانية مختلفة في عمان في هذه الفترة بينهم العرب والمجوس . وان المجوس كانوا أهل البلد ، والعرب كانوا يكونون حولها . وان الفريقين لم يدينا بدين واحد ، وان ردود فعلهما تجاه الاسلام كانت مختلفة. وهذا أمر سنعود للتعليق عليه بشكل اوسع فيما يلي من بحثنا . كما علينا ان نلاحظ أن ماطلبه الرسول من مبعوثيه كان مقصورا على أن يقبل القوم الاجابة الى شهادة الحق واطاعة الله والرسول . واذا تم ذلك ، فأبو زيد باعتباره الصحابي القديم ومن حفظة القرآن ، فهو المسؤول عن الصلاة وأخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن ، أما عمرو وهو الذي لم يمض على اسلامه الا بضعة أشهر ، ولكنه الاداري المحنك ، فهو الأمير وواضح من كل ذلك ان مهمة الرجلين كما حددها الرسول كانت مهمة متواضعة تعتمد الاقناع لا الاجبار ، وترضى بما يقبله أهل عمان وتستبعد اكراههم على ما لا يرضون . وليس من شك في أن توقيت بعثة أبي زيد وعمرو بن العاص من الامور التي تدل على سعة أفق الرسول الكريم وبعد نظره . فقد اتت بعد فتح المسلمين مكة . ولفتح مكة ما له من دوي بين العرب ، الذين كانوا يعرفون مالهذا البلد من أهمية وما لقريش من نفوذ، فحين تدين مكة وقريش لمحمد ، فلا شك انه ذو مكانة وجاه ، وان قهره مكة واخضاعه سادتها من قريش لدليل ساطع على قوته ونفوذه وصدق رسالته . ولم تكن هذه السياسة الحكيمة التي تأخذ بأدق اعتبارالظروف الداخلية لدولة الاسلام واوضاعالقبائل التي يرسل اليها الرسول مبعوثيه للدعوة الى الاسلام قاصرة على منطقة الخليج فحسب ، بل كانت أسلوبه في التعامل مع جميع القبائل التي تنأى ديارها عن دياره ويريد لها أن تدين بالاسلام ، ودولته لم يشتد عودها بعد وتتهددها اخطار خارجية عديدة أهمها الخطر الذي تمثله بيزنطة على حدود الجزيرة في الشمال وفارسعلى حدود الجزيرة في الشرق وعبر الخليج . فقد كان صلوات اللهعليه فيبعض الظروف يقنعه اسلام فئة من قبيلة ما ، وأن تبقى فئات اخرى فيها غير مسلمة ، ولا يثنيه هذا عن تنظيم أمور هذه الفئة المسلمة ، بانتظار انيعم الاسلام بقية القبيلة . فابن سعد مثلا يحدثنا عن كتاب الرسول الكريمالى قيس بن سلمة بن شراحيل من قبيلة جعفي من اليمن الذي يقول له فيه : « إني استعملتك على مَران ومواليها وحَريم ومواليها ، والكَلاب ومواليها من أقام الصلاة وآتى الزكاة وصدّق ماله وصفّاه » (ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٣٢٥) . ومعروف انمران وحَريم والكَلاب بطون من جُعفي، فجعفي

لم تسلم بكاملها ، بل اسلم أفراد من بعض بطونها واستعمل الرسول قيس ابن سلمة على « من أقام الصلاة وآتى الزكاة وصدّق ماله وصفّاه » ، أي على من قبل منهم بتعاليم الاسلام . ومصادرنا حافلة بأمثلة شبيهة اتخذ فيها الرسول مواقف مماثلة ، مما لانرى ضرورة لتعداده . ويوصلنا كل ذلك الى إثبات حقيقتين أساسيتين في موضوع انتشار الاسلام في الخليج هما :

١ ــ ان الدعوة للاسلام في الخليج لم تأخذ شكلا منظما الا بعد فتح مكة وهذا لاينفي طبعا ان يكون ذكر الاسلام قد سرى في تلك المنطقة قبل ذلك وان أفراداً أو جماعات صغيرة قد دخلت فيه وآمنت برسالة نبيه .

٢ ــ لم يستعمل الرسول اسلوب البعوث العسكرية في دعوته الى الاسلام في تلك المنطقة ، وان رسله اليها كانوا من ذوي الباع العريض في الدين ومن ذوي الخبرة في ادارة الامور ، كما ان الرسول استعمل مايمكن أن نسميه في لغة عصرنا بسياسة الخطوة خطوة التي تهدف الى ايجاد نواة للاسلام بين القبائل النازلة هناك ومن ثم اتاحة الفرصة للاسلام كدين وكنظام في الحياة أن يثبت وجوده وقدرته على النماء واكتساب الانصار ، عن طريق القدرة الذاتية . وطبيعي أن هذا الاسلوب فرض نفسه على الرسول صلوات الله عليه اذا ما أخذنا بعين الاعتبار العوامل المختلفة والطابع الخاص للوضع البشري والجغرافي في تلك المنطقة .

ويتبين هذا الذي ذكرناه بشكل أكثر وضوحاً ودقة اذا ماتطرقنا لموضوع انتشار الاسلام بين القبائل النازلة في شرق الجزيرة وفي ماكان يطلق عليه اسم البحرين ، كما ترويه لنا المصادر المختلفة . واذا أخذنا بالتوزع الجغرافي للقبائل لوجدنا أننا اذا بدأنا بجنوب شرقي الجزيرة واتجهنا شمالا فان أولى القبائل التي لابد للتوقف عندها والحديث عنها هي قبيلة مَهْرَة بمكان يقال له جَيروت وعليه زعيم اسمه شخريت (من بني شخراة ، فرع من مهرة) وقسم يمثل الغالبية عليهم زعيم يقال له المُصَبَّح (من بني محارب ، فرع آخر من مهرة) (انظر ، الطبري جـ ٣، ص ٣١٦ ــ ٣١٧) . ويبدو ان الاسلام انتشر بين أقلية ضئيلة من الجماعة التي يراسها شخريت الذي مالبث ان ارتد ، أما القسم الاخر الذي يراسه المُصَبَّح « والناس كلهم معه ، الا ماكان من شخريت » (الطبري، جـ ٣، ص ٣١٧ » فقد رفضوا الاسلام وظلوا كذلك حتى كانت خلافة ابي بكر

فخرج عكرمة في جنده نحومهرة واقتحم عليها بلادها ،ودعا شخريت والقلة التي كانت قد آمنت وارتدت أن يرجعوا الى الاسلام ، فأجابه شخريت واستطاع عكرمة أن ينتصر على المَصَبَّح وان يجبره ومن معه من جموع مهرة على الانصياع . ويوضح هذا الذي يذكره لنا الطبري ، وسواه من المؤرخين ان مهرة ، وهي التي تسكن الجنوب الشرقي من الجزيرة وتمتد ديارها على النجد ورياض الروضة ، وساحل الخليج وبعض جزره ، ومنطقة ينعب وذات الخيم وسواها ، لم يصلها الاسلام الا في اخريات حياة الرسول صلوات الله عليه ، ولم يكن له فيها آنذاك أي وجود قوي . وظل حالها كذلك حتى كانت خلافة أبي بكر . ويبدو ان السبب الرئيسي لذلك هو بعد ديار مهرة عن المدينة وقلة مابينهما من صلات . كما يبدو ان اسلام الفئة القليلة من مهرة تم في عام الوفود ، اذ يذكر ابن سعد في طبقاته خبرا عن شخص من مهرة اسمه زهير بن قِرضم وفد الى رسول الله في ذلك العام وهو من منطقة الشحر التي كانت تنزلها فروع من مهرة ، « فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنيه ويكرمه لبعد مسافته ، فلما أراد الانصراف ثبته وحمله وكتب له كتابا » (ابن سعد،جـ ١ ، ص ٣٥٥) وقول ابن سعد هذا دليل آخر على صدق ماذهبنا اليه من أن سبب عدم انتشار الاسلام في تلك المناطق كان بعدها عن المدينة ، وان الرسول أراد أن يكرم المهري هذا بشكل خاص فحمله بالهدايا كما ذكر ابن سعد .

واذا ماانتقلنا الى قبيلة الازد التي كانت بعض بطونها تنزل في عمان والتي أسلفنا الحديث عنها لوجدنا ان مشكلة البعد الجغرافي عن المدينة هي المنطلق الاساسي الذي لابد من أخذه بعين الاعتبار حين نتحدث عن موضوع انتشار الاسلام بين بعض افرادها مع فارق واحد هو أن وضع بطون الازد التي كانت تنزل منطقة عمان قد سهل مهمة مبعوثي الرسول، اذ يبدو أن ازد عمان لم يكونوا جبهة واحدة ، يحكمهم زعيم أو شيخ واحد يدينون له بالطاعة . ويبدو أن جيفرا وأخاه عبدا (أو عباداً) كانا يتزعمان الفئة من الازد التي تقيم « بصحار على ساحل البحر . » (أي الخليج) (فتوح ، البلاذري ، ص ١٠٤) ، وانهما انما قبلا الاسلام لظروف داخلية أو ربما كانا هما اللذين اتصلا بالرسول بسبب هذه الظروف الداخلية (Watt - Muh. at Medina, ed. 1956, p. 131) علهما يجدان في الاسلام نصيراً لهما على أعدائهما من بقية بطون الازد المجوس الذين كانوا يساكنونهم . ويدّعي وات (Ibid - Loc. cit.) أن منطقة عمان كانت تمر في هذه

الفترة بمرحلة من الاضطرابات الاجتماعية ، وان هذا الوضع الداخلي هو الذي حدا بجيفر وعباد ان يستنجدا بالاسلام . على أن وات لايقدم أي حجة مقبولة لدعم وجهة النظر هذه ، ويذهب الى القول انه ربما كان السبب في ذلك الاضطراب الوضع المتردي الذي كانت تعاني منه فارس في هذه المرحلة من تاريخها . ورغم أن وات لم يقدم بين يدي فرضيته مايدعمها فإنا نرى أن في ادعائه شيئا من صحة . ولتوضيح وجهة نظرنا هذه لابد لنا من ان نذكر ببعض الحقائق عن الوضع الدولي آنذاك وصلات منطقة الخليج بفارس من جهة ، ومن جهة ثانية لابد لنا من العودة الى النصوص التي بين ايدينا والتي تتحدث عن التركيب السكاني لمنطقة عمان وما كان فيها من عرب ومجوس .

ولا بد لتوضيح النقطة الاولى من هذه النقاط الثلاث وهي قضية الوضع الدولي في هذه المرحلة ان نذكر ان فارس وبيزنطة كانتا منذ ان تسلم الامبراطور البيزنطي هيراكليوس عرش بيزنطة في صراع على السطلة استنفذ قوى الطرفين . ولكن الضربات المتلاحقة التي انزلتها بيزنطة بفارس منذ سنة ٦٢٣ م/٢ هـ كانت قد اضعفت فارس الى حد كبير . وقد استطاع هيراكليوس بعد أن صد الهجوم الآفاري على عاصمته سنة ٦٢٦ م/٥ هـ أن يوجه همه ويحشد قواه لضرب الفرس ضربة قاصمة . وفي خريف سنة ٦٢٧ م/٦ هـ سار هيراكليوس بجيوشه لمهاجمة العاصمة الفارسية . وفي كانون الاول عام ٦٢٧ م كان الامبراطور البيزنطي على أبواب نينوى . وفي هذا الموقع خاض الطرفان معركة كبيرة قررت مصير الصراع بين فارس وبيزنطة . فقد قضى البيزنطيون تقريبا على الجيش الفارسي وسجلوا نصرا كبيرا على اعدائهم . وتابع هيراكليوس بعد هذا النصر زحفه فاحتل في مطلع سنة ٦٢٨ م/ ٧ هـ مدينة داستفرد Dastagerd المدينة المحببة جدا الى قلب كسرى الفارسي وفر كسرى من المدينة . وفي ربيع سنة ٦٢٨ م / ٧ هـ تطورت الحوادث داخل فارس تطورا جعل القتال امرا لافائدة منه . فقد خلع كسرى وقتل ، واجلس على العرش ابنه كافاذرشيرو Kavad - Shiro (قباذ) . وعقد كسرى الجديد معاهدة مع البيزنطيين قبل فيها بما املوه عليه من شروط . وبنتيجة

هذه المعاهدة ضمنت بيزنطة عودة ماكان يخصها من أراض : كأرمينية والجزء البيزنطي من منطقة مابين النهرين وسورية ومصر ، التي عادت للتبعية البيزنطية ، كما كان الحال في السابق . وبعد شهور قليلة ، وحين كان قباذ على فراش موته ، عين الامبراطور البيزنطي وصياً على ولده الصغير ، وهكذا انقلب الحال ، فبعد ان كان كسرى يدعو هيراكليوس بعبده ، أعلن قباذ ان هيراكليوس هو سيد ابنه وسيد فارس. وعاد هيراكليوس بعد هذه الانتصارات الى عاصمته تتوجه اكاليل الغار ليستريح قليلا ثم عاد الى القدس ، ووسط مظاهر احتفال مهيب اعاد نصب الصليب المقدس الذي كان الفرس في حروب سابقة قد نهبوه ، واضفى بذلك صبغة دينية على حروبه ضد فارس . (من اجل العلاقات بين فارس وبيزنطة (انظر كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري ، ط . دمشق ١٩٧٠ ص ٨٩ ـ ٩٢) .

وهكذا فقد كان لهذا الانكسار الشنيع امام بيزنطة وللبلبلة الداخلية وما نجم عنها من سقوط حكم كسرى وقيام حكم كسرى آخر ، ووقوف فارس من بيزنطة موقف التابع من السيد ، الامر الذي توضحه وصية قباذ بأن يكون هيراكليوس الوصي على ابنه وولي عهده ، وعودة النفوذ البيزنطي الى منطقة مابين النهرين المتاخمة لمنطقة الخليج التي نحن بصدد الحديث عنها ، كلها من الامور التي لعبت دونما شك دورا حاسما في اضعاف النفوذ الفارسي في هذه المنطقة التي تنزلها قبائل عربية تدين بالولاء والسيادة لفارس من جهة ، كما تسكنها عناصر فارسية بينها وبين القبائل العربية نزاعات وصراعات . وقد يكون هذا الذي قدمناه مبررا لما أشار اليه وات واسماه Social unrest دون ان يقدم له مايبرره . كما اننا نستطيع ان نجد المبرر لهذا الاضطراب الاجتماعي في الضعف السياسي لدولة فارس الذي شرحنا بعضا من ظروفه فيما سلف . اما فيما يتعلق بالتركيب السكاني لهذه المنطقة ، فاننا نلاحظ ان المصادر تشير الى نوعين من السكان في منطقة عمان هما : العرب والمجوس ، وان « المجوس كانوا اهل البلد والعرب كانوا يكونون حولها » (الطبري ، ج ٣ ، ص ٩٥ ، البلاذري ص ١٠٦) وكانت بعثة ابي زيد الانصاري وعمرو بن العاص الى العرب فقط اما المجوس فلم يطلب منهم

سوى دفع الجزية (انظر البلاذري ، ص ١٠٤ والطبري ، ج ٣ ص ٢٩ ، وابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ وسواها) . وهذا مما يثير الانتباه لان المفروض ان تكون الدعوة للناس كافة وليس للعرب فحسب ، الامر الذي يجعلنا نعتقد ان مهمـة ابي زيد وعمرو بن العاص كـانت مهمـة محدودة من جهة ، او ربما كانت بناء على طلب من جيفر واخيه عباد كما ألمحنا آنفا ، لظروف داخلية كانت تعيشها قبيلة الازد ، لذا اراد هـذان الزعيمان ان يثبتا مركزهمـا بدعم من الرسول الذي كان قـد فرغ لتوه من فتح مكـة واخضع قريش وفشا ذكره بين قبائل العرب كزعيم لايقهر ، الى جانب ما له من صفة النبوة . وقد يؤكد زعمنا هـذا ان المصادر تجمع على بقاء عمرو وابي زيد في عمان الى ان قبض الرسول فعـادا الى المدينة (انظر البلاذري ، ص ١٠٤ ، الطبري ج ٣ ، ص ٢٥٨، ابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٦٣) . وبقاؤهما في عمان حتى موت الرسـول كان لدعم مركز جيفر وعباد اللذين يمثلان الجهة المؤيدة للرسول ضـد الحزب المعادي والذي كان يتزعمه لقيط بن مالك الملقب بذي التاج . ويبدو ان جيفرا وعبادا كانا يتزعمان منطقـة صحار في حين ان لقيطا كان يتزعم منطقـة دبا وهي كما يقول الطبري « المصر والسوق العظمى » (ج ٣ ، ص ٣١٥) ، الامر الذي يوضح ضعف مركز الفئة المسلمة التي كانت تسيطر على رقعة صغيرة هي منطقة صحار المتاخمة للبحر ، في حين ان الفئـة التي كانت يتزعمها لقيط كانت تسيطر على الرقعة الاعظـم والاهم . وطبيعي ان يظل جيفر وعباد على اسلامهما حتى كانت الردة ، وان يساعدا جيوش ابي بكر التي انطلقت لقتال المرتدين وكان النصـر لهما على عدوهما لقيط . على انه لابد لنا من الاشارة . ونحن في هذا الجزء من بحثنا الى مافي المصادر من اضطراب في الروايات تثير قلـق الباحث وتساؤلاتـه التي لايجد لهـا جوابا . ففي الطبري رواية وحيـدة لانستطيع تبين ماذا كان راويها هو الواقدي او ابن اسحق تقول ان الرسول بعث سنة ثمان للهجرة « عمرو بن العاص الى جيفر وعمرو ابني الجلندى من الازد مصدقا ، فخليا بينه وبين الصدقة . . . » (الطبري ، ج ٣ ، ص ٩٥) . وهـذه هي المرة الوحيدة التي نسمع فيها بـاسم عمرو بن الجلندى ، اذ ان كل الروايات الاخرى تتحدث عن عبد او عبـاد ابن الجلندى اخـي جيفر . وأمـر آخر يثـير الانتباه والتساؤل حـول

الموضوع نفسه هو مانقـرأه في الطبري أيضا واثناء حديثـه عن احـداث سنـة ١١ هـ وهو قوله : « حدثني السري ، قال حدثنا شعيب ، عـن سيف عن الحجاج عن عمرو بن شعيب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث عمرو بن العاص الى جيفر ، منصرفه من حجة الوداع ، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرو بعمان ... » (الطبري ، جـ ٣ ، ص ٢٥٨) . ولسنا نعرف ماإذا كانت بعثة عمرو هذه بعثـة ثانيـة الى جيفر ، اذ ان حجة الوداع كما هو معروف حدثت سنـة عشر للهجرة ، في حين ان جميع المصادر الاخرى تجمع على ان بعثة عمرو الى جيفر وعباد كانت سنة ثمـان وان عمرواً بقـي في عمان حتى وفـاة الرسول . وفي مكان ثالث ينقل لنا الطبري خبرا عن ابن اسحق يسمي فيه مبعوثي الرسول الى القبائل العربيـة والملوك الاجانب بمبعوثيـه الى « ملوك الخائنين » (الطبري ، جـ ٢ ، ص ٦٤٥) . وليس في سيـاق الخبر مايفهم منه ماإذا كانت هـذه التسمية هي صفة اطلقها راوي الخبر على هؤلاء الملوك ، أم ان الرسول نعتهم بذلك . واغلب الظن ان هذا الوصف من وضـع راوي الخبر ، وليس مـن كلام الرسول ، وانـه وصف متأخر لان الراوية المسلم اعتبرهم خونة لموقفهم من الاسـلام الدين الحق الذي لابد وان يقبل به كل الناس ، ومن لايقبل به فهو خائن حتما . وهذه ليست الا امثلة قليلة على مايجده الباحث في المصـادر من اضطـراب في الروايـات وتساؤلات لايجد لها جوابا مباشرا مقبولا .

اما اذا انتقلنا الى موضوع انتشار الاسلام بين القبائل التي كـانت تنزل في ما يسمى بالبحرين فاننا نلاحـظ ان الوجود الاسلامي في هـذه المنطقة (البحرين) كان اوضح مما كان عليه في منطقةعمـان . وكانت تنزل البحرين قبائل عربية عديدة أهمها : قبيلة عبد القيس وهي صاحبة الكثرة والعدد ، وفيها بعض من بكر بن وائل وتميم وسواها . وكانت أرض البحرين ، على ما يذكر البلاذري (الفتوح ، ص ١٠٦) ، تتبع مملكة الفرس ، وكان يسكنها الى جانب العرب أخلاط من الفرس والمجوس واليهود والنصارى ، ويبدو ان القبائل العربية كانت تنزل البوادي ، وان المجوس والنصارى واليهود كانوا ينزلون الحواضر (انظر البلاذري ، ص ١٠٧) ويبدو ان التبعيـة للفرس من جهة ، والتركيب السكاني المختلط من جهة اخرى كانا من اهم العوامل التي دفعت بعض عرب البحرين للاتصال بالرسول علهم يجدوا في

الاســلام خلاصا مما هـ م فيه من حكم اجنبي لارضهم واخلاط بشرية تزحم ديارهم وتخبط عقائدي يجعلهم في صراع بين مجوسية ونصرانيــة ويهوديــة ووثنية . ويفهم من رواية يذكرها ابن سعد ان صلــة الرسول بعرب البحرين كانت قبــل فتح مكــة . وان اول وفد من بكر بن وائل زار المدينــة واقام حوارا مع محمــد كان عــام الفتح (انظر ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٣١٤) . وكان بين رجالات هــذا الوفد من هم على النصرانية (المصدر السابق ، ص ٣١٥) فأسلموا وحسن اســلامهم ، ممــا يدل على وجود عــرب نصارى بين قبــائل شرقي الجزيرة والخليج قبــل الاســلام . كما ان بعضهم فــارق قومه وبــاع ماله وجاء الى المدينــة مسلمــا وملتجئا الى الرسول لينجو من الحــال المتردية التي آلــت اليها البحرين في هذه الفترة . (انظر ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٣١٥) . على ان مانجده من معلومات في مصادرنا عن البحرين وسكانها قليل ولا يلقى ضوءا كافيا على حالهــا الســياسية والبشريــة والاحداث الداخلية التي قامت فيهــا قبل الاسلام وفي فترة تنزل الوحي على الرسول الامين . على انه يمكن القول بشيء من التأكيد ان البحرين كانت منــذ حكم اردشير منطقــة صراع فارسي عربي وان عرب البحرين قبــل حكم أردشير كانوا من القوة بحيث تطلعوا الى تحرير عرب العراق من النير الفارسي (انظــر الطبري ، جـ ١ ، ص ، ٦٠٩ ــ ٦١١) لاسيمــا وان فــارس قبل اردشير كانت تمر بمرحلــة من التمزق والضعف بسبب من اوضاعها وانقساماتها الداخليــة من جهة ، وبسبب صراعها مــع بيزنطــة كما بينا آنفا من جهة اخرى . كما ان تاريخ عرب البحريــن مع حكام فــارس تاريخ حافل بالدماء . ففي عهــد سابور ذي الاكتاف حين كــانت بلاد العرب ، على مايقول الطبري : « ادنى البلاد الــى فارس ، وكانوا (أي الفرس) من احوج الامم الى تناول شيء مــن معايشهم وبلادهم لسوء حالهم وشظف عيشهم ، فسار جمع عظيم منهم في البحر من ناحيــة بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى انــاخوا على إبرشهر وسواحل اردشير خرّه وآسية ففارس ، وغلبوا أهلها علــى مواشيهم وحروثهم ومعايشهم واكثروا الفساد في تلك البلاد فمكثوا على ذلك من امرهم حينا ... » (الطبري ، جـ ٢ ص ٥٥) .

ولما بلغ سابور السادسة عشرة من عمره « انتخب الف فــارس من

صناديد جنده وابطالهم وتقدم اليهم في المضي لامره ، ونهاهم عن الابقاء على من لقوا من العرب ، والعرجة على اصابة مال ، ثم سار بهم فأوقع بمن انتجع بلاد فارس من العرب وهم غارّون ، وقتل منهم أبرَح القتل وأسر اعنف الاسر ، وهرب بقيتهم ، ثم قطع البحر في اصحابه ، فورد الخط ، واستقرى بلاد البحرين يقتل اهلها ولا يقبل فداء ، ولا يعرج على غنيمة . ثم مضى على وجهه ، فورد هجر ، وبها اناس من اعراب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس . فأفشى فيهم القتل . وسفك فيهم من الدماء سفكا سالت كسيل المطر ، حتى كان الهارب منهم يرى انه لن ينجيه منه غار في جبل ولا جزيرة في بحر ، ثم عطف الى بلاد عبد القيس فأباد اهلها الا من هرب منهم فلحق بالرمال ، ثم اتى اليمامة فقتل بها مثل تلك المقتلة ، ولم يمر بماء من مياه العرب الا عَورّه (١) ولا جب من جبابهم إلا طمّه » .. (الطبري ، ح ٢ ، ص ٥٧) وهذا الوصف لعلاقات فارس مع منطقة البحرين وما لقيت هذه المنطقة من ظلم وجور وتقتيل وتشريد على يد الفرس قد يكون فيه التفسير لبعض ما ذكرناه عن حال البحرين إبان انتشار الاسلام في الجزيرة . وفيه الجواب على سكنى القبائل العربية للبوادي وترك الحواضر لاخلاط السكان من غير العرب . كما ان فيه الجواب على محاولات عرب البحرين المبكرة للاتصال بالرسول الأمين علهم يجدون في ظل الاسلام الملاذ مما آلت اليه حالهم من ترد وانهيار . على انه تظل هناك أمور غامضة لانجد في مصادرنا جواباً شافياً لها . ومن ذلك مثلا قضية العلاقة بين من كانوا يسكنون منطقة هجر من الاعراب ومن كانوا يسكنون البحرين ولماذا تتحدث المصادر عن جهود الرسول في نشر الاسلام بين عرب هجر وعرب البحرين معا وضمن فصل واحد . فابن سعد مثلا يتحدث في فقرتين متلاحقتين عن رسالة الرسول الكريم الى صاحب « البحرين » ورسالته الى « صاحب » هجر (ابن سعد ، ح١ ، ص ٢٧٥) . والبلاذري يتحدث عن بعث الرسول للعلاء الحضرمي ليدعو أهل البحرين وأهل هجر الى الاسلام أو الجزية (البلاذري ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧) . فهل كانت هناك من رابطة أو صلة خاصة بين هجر والبحرين ؟ أم هل الأمر صدفة ودونما سبب ؟ اغلب الظن أن التفسير الممكن هو ان عرب كلا المنطقتين كانوا يخضعون للسيطرة الفارسية وان المقصود بصاحب البحرين

---

(١) عوره : (أي طمه وكبسه بالتراب) .

أو صاحب هجر هو الحاكم الفارسي على عرب هذه المنطقة أو تلك . على ان الذي يظل دونما حل هو ماتجمع عليه المصادر من أن حاكـم البحرين من قبل الفرس زمن الرسول كان المنذر بن ساوى وهو الذي وجـه اليه الرسول مبعوثه العلاء بن الحضرمي سنة ثمان للهجرة يدعوه وصحبه الى الاسلام ، إلا ابن سعد الذي ينفرد بذكر حديث عن كتاب أرسله الرسول الى شخص أسمه الهلال ويصفه بأنه كان صاحب البحرين (أبن سعد ، جا ، ص ٢٧٥) ويطلب اليه فيه أن يعبد الله وحده وأن يؤمن بالله ويطيع ويدخل فيالجماعة . دون أن يبين لنا شيئاًعن اخبار الهلال هذا ولا منطقة حكمه ولا نوعية صلته بالمنذر بن ساوى . وقد يكون من الممكن ان الهلال هذا لم يكن « صاحب » البحرين بمعنى حاكمها ، بل كان وجها بارزاً من وجهائها ، ظل على الشرك وأراد الرسول صلوات الله عليـه ان يرغبه في الاسلام ويضمه اليه .

ويبدو مما تذكره المصادر أن بعثة العلاء بن الحضرمي الى البحرين لاقت قبولا بين عدد كبير من العرب سكان البوادي « اما أهل الارض مـن المجوس واليهود والنصارى فانهم صالحوا العلاء » على الجزية اذ أخـذ من كل حاكم دينارا (البلاذري ، ص ١٠٧) ولم تكن الاستجابة لدعـوة العلاء عرب البحرين وهجر الى الاسلام استجابة شاملة . اذ يذكر العلاء ذلك ويقول : « بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم الى البحرين ،أوقال هجر . وكنت آتي الحائط بين الاخوة قد اسلم بعضهم فأخذ من المسلم العشر ومن المشرك الخراج » ، (البلاذري ، ص ١٠٨) الأمر الذي يوضح أن بعضهم قبل الاسلام ، وبعضهم ظل على الشرك ولم يؤد ذلك الى اصدار الرسول أمره بقتال من لم يسلم من أهل البحرين ، اذ يقول البلاذري انه « لم يكن بالبحرين أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال ، ولكـن بعضهم اسلم ، وبعضهم صالح العلاء على انصاف الحب والتمر »(البلاذري، ص ١٨) الأمر الذي يؤكد ماذهبنا اليه في مطلع بحثنا من أن الرسول في هذه المرحلة من دعوته وفي هذا الجزء من الجزيرة العربية استعمل الاسلوب الدبلوماسي والدعائي في الدعوة الى الاسلام . ولم يأخذ بأسلوب القوة سبيلا لنشر دين الله . وقد حدد الرسول في أحد كتبه الى المنذر بن ساوى من هو المسلم وما يترتب عليه ، ومن هو غير المسلم وما يترتب عليه ، اذ يقول له : من محمد النبي الى المنذر بن ساوى : سلم انت ، فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، أما بعد ، فان كتابك جاءني وسمعت مافيـه ، فمـن صلى

صلاتنا ، واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم . ومن ابى ذلك فعليه الجزية » (البلاذري ، ص ١١٠) . ويبدو أن العلاء بن الحضرمي لم يكن داعية فحسب ، بل كان مفوض الرسول الاداري في منطقة البحرين وهجر اذ مالبث بعد انتشار الاسلام بين فئة من عرب هذه المنطقة أن أخذ الزكاة ممن أسلم والجزية من المجوس واليهود وارسل ماتجمع لديه من مال وهو ثمانين ألفاً الى الرسول ، ماأتاه أكثر منه قبله ولابعده . ويبدو أن الرسول عزل العلاء عن ولاية البحرين في اخريات حياته وولاها أبان بن سعيد بن العاص بن أمية الذي ظل يليها حتى وفاة الرسول .وعاد أبانالى المدينة بعد وفاة الرسول ، وطلب أهل البحرين من أبي بكر أن يرد العلاء عليهم ففعل . (البلاذري ، ص ١١١) . ويفهم من نص يورده البلاذري أن كسرى كان قد نقل جماعة من الفرس واسكنهم هجر فيما عرف باسم « وضائع كسرى » وحاول العلاء أن يدخلهم في الاسلام ، ولكنهم رفضوا ، فأخذ منهم الجزية (البلاذري ، ص ١١١) . وتكمن أهمية النص فيما يتضمنه من اشارة الى عمليات نقل سكان متعمدة من الارض الفارسيةالى الارض العربية . ويبدو من الشرح الذييوردهابن منظور لكلمة « وضائع » التي وردت في نص البلاذري آنف الذكر ، التي يشرحهاابن منظور بقوله : « الوضائع والوضيعة : قوم كان كسرى ينقلهم من ارضهم فيسكنهم ارضا أخرى حتى يصيروا بها وضيعة ابدا ، وهم الشحن والمسالح » . نقول يبدو من هذا الشرح أن عمليات نقل عناصر بشرية فارسية واسكانها في مناطق حدود فارس مع البلاد الاخرى كانت من الأساليب التي تلجأ اليها فارس لتثبيت وجودها السياسي والعسكري في المناطق التي كانت لها فيها مطامع أو تخشى انتفاضها عليها ورفض سيطرتها ، وهذا الوجود البشري الغريب وما يكون قد مارسه من تسلط وارهاب ، كان من بين الاسباب التي جعلت عرب البحرين وهجر يهرعون الى المدينة علهم يجدوا في ظل دولتها خلاصاً مما هم فيه من حال يائسة وتسلط اجنبي ، على أن قضية الاسلام في البحرين زمن الرسول مرت في خلال السنتين اللتين تلتا فتح مكة وحتى وفاته صلوات الله عليه ببعض الصعوبات والازمات . وقد بلغت هذه الصعوبات ذروتها بوفاة المنذر بن ساوى التي جرت في نفس الفترة التي انتقل فيها الرسول الى جوار ربه أيضاً . وكانت أهم مظاهرها ضعف الحزب المسلم في البحرين وهجر بسبب وجود عدد من الزعماء القبليين المعادين للاسلام في المناطق التي تقع بين البحرين والمدينة

ساعدوا على ضرب الفئة المسلمة في البحرين وعدم تمكينها من اقامة امارة اسلامية هناك . وكانت بوادر امكانية اقامة مثل هذه الامارة قد ظهرت منذ أيام العلاء بن الحضرمي الذي استطاع جباية الزكاة والجزية ممن تبع الاسلام أو دخل في ذمة المسلمين من بقية العناصر السكانية كما اسلفنا . ولم يتأت للاسلام أن يمتن جذوره في هذه المنطقة كسواها الا بعد انتهاء محنة الردة بنصر مؤزر للاسلام في كافة بقاع الجزيرة ، اتاح لعرب الجزيرة المسلمين أن يتدفقوا كسيل هادر ليرفع رايات الاسلام على مختلف بقاع الارض .

بعد هذا العرض لاهم النصوص والروايات والاخبار التي نجدها في مصادرنا حول موضوع انتشار الاسلام زمن الرسول في منطقة الخليج ، ودراستها دراسة نقدية واستخلاص بعض المؤشرات التي توضح الخطوط العامة والاساسية لسياسة الرسول الكريم في نشر الاسلام في الجزيرة العربية بشكل عام وفي منطقة الخليج بشكل خاص . لابد لنا وان ننتقل لنناقش مايدعيه بعض المستشرقين المحدثين من ان الرسول الكريم كان يهدف من وراء ارسال بعوثه الى جنوب الجزيرة العربية وشرقها أهدافاً سياسية أكثر منها دينية وانه كان يسعى لاقامة تحالفات سياسية بينه وبين رؤساء القبائل النازلة في تلك المناطق اكثر مما كان يهدف الى نشر الاسلام. ويضيفون الى ادعائهم هذا أن مانجده في كتبه الى الامراء ورؤساء القبائل من حض على اقامة شعائر الدين ودفع الزكاة قد يكون مما اضافه الرواة المتأخرون لأنهم اعتقدوا أن سيرة حياة الرسول والاهداف التي كان يسعى اليها لابد ان اقتضت منه أن تتضمن كتبه مثل هذه العبارات . (انظر : (Watt - Muh. At Medina, p. 125 .

ان هذا الزعم زعم غريب وخطير ، فهو غريب لانه لم يبن على اية حقيقة أو نص أو رواية تاريخية . وهو خطير لأنه يحاول أن يجرد دعوة الرسول من محتواها الديني وينقلها من دعوة لنشر الاسلام الى دعوة لاقامة دولة محمد . والشق الأول من نقاشنا لهذا الامر الذي بنيناه على عدم وجود نصوص أو روايات تؤيد هذا الزعم ، يظل ناقصا اذا لم يثبت العكس وهو أن كل النصوص والروايات سواء مااستعملناه منها اثناء نقاشنا لموضوع انتشار الاسلام في شرقي الجزيرة والخليج ، أو مالم نتعرض له وهو كثير كثير ، يصر على عكس ذلك وهو أن الهدف الأساسي لبعوث محمد الى هذه القبائل وتلك المناطق كان حضها على الدخول في الاسلام كما ان

جميع مانجده في مابين أيدينا من مصادر حول موضوع الوفود التي قصدت المدينة في عام الوفود ومادار بينها وبين الرسول من نقاش واحاديث كان محوره الدعوة الى الاسلام والحض على التمسك بمبادئه وأوامره ونواهيه واظهار الشدة المتناهية في تطبيق تعاليمه ومبادئه . ولم يأت فيه ذكر لسياسة أو تحالف سياسي أو ماشابه . ولعل أفضل مثل يمكن أن نورده على ذلك هو النقاش الذي جرى بين الرسول الكريم وبين وفد قبيلة جعفي من أجل قضية دينية صغيرة ، وموقف الرسول الصلب من مبادىء الاسلام ونواهيه . يذكر ابن سعد أن قبيلة جعفي كانت تحرم أكل القلب في الجاهلية وان وفداً منهم وفد عليه صلوات الله عليه فيه رجلان منهم هما قيس بن سلمة بن شراحيل الجعفي وأخوه سلمة بن يزيد الجعفي ، وهما اخوان لأم فسألهما الرسول : « بلغني انكم لاتأكلون القلب ؟ قالا : نعم . قال : فانه لايكتمل اسلامكم الا بأكله ، ودعا لهما بقلب فشوي ، ثم ناوله سلمة ابن يزيد ، فلماأخذه أرعدت يده، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: كله ، فأكله ... ثم قالا : يارسول الله ان أمنا مليكه بنت الحلو كانت تفك العاني وتطعم البائس وترحم المسكين ، وانها ماتت وقد وأدت بنية لها صغيرة فما حالها ؟ قال ، الوائدة والموؤدة في النار ، فقاما مغضبين، فقال: إلي فارجعا فقال : وأمي مع أمكما ، فأبيا ومضيا وهما يقولان : والله ان رجلا اطعمنا القلب ، وزعم أن امنا في النار لأهل لان لا يتبع وذهبا ... فبلغ ذلك النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فلعنهما فيمن كان يلعن ... » (ابن سعد ، جـ ١ ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥) . ان انسانا لايقبل التنازل عن أي مبدأ من مبادىء دين الله مهما كان صغيرا كأكل القلب ومصير الوائدة والمؤودة ، ولو أدى ذلك الى غضب زعيمي قبيلة كبيرة كقبيلة جعفي ورفضهما الاسلام لايمكن أن تنزع عن دعوته الصفة الدينية وتبرز فيها الواجهة السياسية . هذا فضلا عن أن في مصادرنا تأكيداً لايرقى اليه شك على أوامره لمبعوثيه بهدم أصنام القبائل التي بعثوا اليها والتأكيد على تعاليم الاسلام وارشاد الناس الى أدق تفاصيل الدين ، لايحتاج الأمر هنا الى ذكر المصادر ومافيها من روايات حول هذا الامر فهي أكثر من أن تذكر في هامش .

أما الأمر الثاني وهو ماذكرناه من أن هذا الاتهام يحاول ان يجرد دعوة الرسول من محتواها الديني وينقلها من دعوة لنشر الاسلام الى دعوة

لاقامة دولة محمد فتبيان خطأه ومجافاتــه للصواب أمـر يعود السوء فهم المستشرقين الذين قدموا لقرائهم هذا الزعم ، لطبيعـة الدولة في الاسلام وصلة الدولة بالدين سواء أكان ذلك عن عمد ، أو لجهل وتقصير في فهم الصلة بين الدين والدولة في الاسلام ، ولست أراني بحاجة لأن أخـوض مفصلا في موضوع المبادىء وتأكيد حقيقـة ان الدين والدولـة في الاسلام متلازمان ومترابطان ترابطاً عضويا ومصيريا لأن الدين هو الاساس الذي تقوم عليه الدولة الاسلامية ، ولان الفارق الاساسي بين الاسلام والمسيحية هو انه في المسيحية هناك مؤسستان منفصلتان لارابطة بينهما في الاساس هما : الدولة والكنيسـة . وان الدولـة في المسيحية كانت موجودة قبـل الدين ، ثم جاء الدين كمؤسسـة مستقلة بعد صدور مرسوم ميلانـو سنة ٣١٢ من قبل قسطنطين الكبير الذي اعترف بالمسيحية دينـا شرعيا بين اديان الامبراطورية الرومانيـة فنشأت الكنيسة كمؤسسة مستقلة ، ثم مالبث أن قام تزاحم على السلطة بين الاباطرة البيزنطيين وبطاركة كنيسة القسطنطينية وتغلب الاباطـرة في هـذا الصراع واعتبروا أنفسهم سادة الكنيسة أول الامر ، ولكن حين قبل شارلمان بأن يأخذ تاج الامبراطوريـة من يد بابا روما « ليون الثالث » الذي وضع تاج الامبراطورية على رأس شارل الكبير (شارلمان) في كنيسة القديس بطرس في روما يوم الخامس والعشرين من كانون الاول سنة ٨٠٠ للميلاد بدأت مرحلة جديدة فيالعلاقة بين الكنيسة والدولةوظهرت مدرسةفي التفكير السياسي في الامبراطوريات المسيحية تقبل سيادة الكنيسة على الدولة . على أن هذه المدرسة لمتكن وليدة قناعة أو انتصار فكرة على فكـرة ، ولكنها كانت نتيجـة لظروف الصراع السياسي بين شقي الامبراطورية الرومانية الشرقي والغربي . كما انها كانت وليدة الصراع بين بابا روما وبطريرك القسطنطينية اللذين كان كل منهما يحاول اظهار تفوقه وزعامته ازاء خصمه .

وطبيعي انه ليس من أهداف هـذا البحث ان ندخـل في تفاصيل موضوع نظام الحكم في الاسلام والمسيحية والمقارنة بينهما وانما سقنا هذا الذي ذكرناه لنقول من خلالهانه بخلاف ماكانتعليه الحال فيالامبراطوريات المسيحية ، كان الدين عماداً الدولة محمد في المدينة وان كل تحرك سياسي قام به كان لايهدف الى استمرار الدولة لانها دولته ، ولكن لانها الدولة التي تعتمد الاسلام نظاما وتأخذ على عاتقها نشره وتقويته وتعميمرسالته.

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نفهم جهود الرسول لنشر الاسلام خارج حدود الجزيرة ، وكتبه للملوك والامراء خارج الجزيرة وتحركاته السياسية والعسكرية في مناطق الحدود التي كان بعضها يجاور منطقة نفوذ سياسي بيزنطي ، وبعضها يجاور منطقة نفوذ فارسي ، والاولويات التي كانت قوام سياسته في نشر الاسلام خارج حدود الجزيرة والتي اعتمدت أساساً لها الاخطار التي قد تتعرض لها دولة الاسلام . ولعل أهم هذه الاولويات في سياسة الرسول الخارجية كانت شعوره بعظم الخطر الخارجي الذي تمثله بيزنطة التي خرجت منتصرة في حروبها مع الفرس كما شرحنا انفا . واستطاعت ان تسترد ولاء العديد من القبائل العربية التي كانت تنزل على حدوده الشمالية بين الحجاز والشام لذا نراه يحاول في تلك الجبهة الا يكتفي بالبعوث والرسل بل يرسل قوات عسكرية تستطلع وتناوش وتقدر قوة العدو . ومن هذا القبيل يمكننا أن نذكر غزوة تبوك التي أمر فيها الرسول الناس بالتهيؤ لغزو الروم وذلك في ذي الحجة الى رجب من السنة التاسعة للهجرة ، والتي يذكر الواقدي في حديثه عن اسبابها ان جماعة من الأنباط يسميهم بـ « الساقطة » كانوا منذ الجاهلية يقدمون الى المدينة بالدقيق والزيت ليبيعونها لأهلها ، واستمروا على ذلك بعد تنزل الاسلام على قلب الرسول الامين .

وكان الرسول بعد هجرته الى المدينة يتلقى منهم اخبار الشام وما يجري فيها وما يهيأ ضده من قبل حكامها البيزنطيين . وهكذا كانت كما يقول الواقدي : « اخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الانباط » . (الواقدي ط مارسدن جونس ، جـ ٣ ، ص ٩٨٩ وما بعدها) وصادف ان قدم جماعة من هؤلاء الساقطة من الشام الى المدينة بتجارتهم ، واخبروا الرسول ان الروم قد جمعت جموعا كثيرة في الشام . وان هرقل قد أعطى جنده أرزاق سنة كاملة مسبقا ليستثير حميتهم لقتال المسلمين . وانه ضم الى جيشه جماعات كثيرة من قبائل لخم وجذام وغسان وعاملة وغيرها من قبائل الشام . كما ابلغوه ان هذه الجماعات قد زحفت الى البلقاء وعسكرت فيها بانتظار المسير الى المدينة لحرب الرسول . وقد دعا كل ذلك الرسول صلوات الله عليه ان يرأس بنفسه الجيش الذي اطلق عليه اسم جيش العسرة لظروف يعرفها الجميع وسار به الى تبوك حيث اقام مايقارب العشرين ليلة دون ان يدخل في قتال مع هرقل الذي كان في حمص انذاك . وليس يهمنا ان ندخل في تفاصيل

غزوة تبوك هذه ، ولكنا اردنا من التذكير بها ان نظهر الفرق بين مواقف الرسول في قضية الدعوة الى الاسلام ، بين شمال الجزيرة حيث يكمن خطر عاجل اضطره لاستعمال اسلوب القوة، وشرق الجزيرة أو جنوبها حيث كانت فارس في حال من الضعف والتردي ، وحيث كانت القبائل التـي وقعت تحت سيطرتها تتحين الفرص للخلاص منها .

فالامر اذن سواء في الشمال او الشرق لم يكن امر عقد محالفـات سياسية بقدر ما كان اختلافا في التكتيك اقتضته طبيعة الوضع السياسي والبشري والقوى المحلية والاجنبية ومالها من نفوذ في المنطقة التي يريـد الرسول ان يدعو الناس فيها بدعوة الاسلام . واذا اخذنا بالاضافة الـى كل ما ذكر ان الثورة العربية على الحكم الفارسي قد اطلت برأسها منـذ الجاهلية القريبة من الاسلام حين قامت موقعة ذي قار وما تحقق فيهـا للعرب من انتصار لوجدنا أن اسلوب الدبلوماسية الهادئة ، ان جـاز التعبير ، كان الاسلوب الذي يوفر للرسول ما اراده من اثبات للوجـود الاسلامي في شرقي الجزيرة وقرب سواحل الخليج دون ان يضطر لاستخدام القوة العسكرية التي قد تجبره ظروفه لاستخدامها في الشمال حيث يقيم الخطر البيزنطي على مسافة قصيرة من حدوده واستخدمها فعلا في غزوة تبوك كما المحنا . ثم ماكان بعده البعث أسامة بن زيد الذي لم يتـح له ان ينفذه لان المنية عاجلته . كما انه لابد من التنبيه الى الفارق في معاملة الرسول لمسيحيي الشمال ومسيحيي الجنوب والشرق. فما هو في المصادر حول هذا الموضوع يظهر للقارىء وكأنه كان للرسول موقفان مختلفان من المسيحيين العرب ؛ موقف متسامح مع مسيحيي جنوب وشرق الجزيـرة ، وموقف متشدد مع مسيحيي شمال الجزيرة . وانه مع الفئة الاولى كان متسامحا يقبل منهم الجزية . ولا يتشدد في اجبارهم على الاسلام . في حين انـه كان لا يقبل من مسيحيي الشمال الا الاسلام او السيف . ولعل التفسير المعقول لهذه الظاهرة ان صدقت او كان هناك ما يدعمها دعما كامـلا فيما بين ايدينا من مصادر ، هو ان مسيحيي الجنوب والشرق لم يكونوا مرتبطين بقوة سياسية اجنبية تدعمهم بل هم بقايا العرب الذين اعتنقوا المسيحية ابان الغزو الحبشي او نتيجة لبعض عمليات التبشير . امـا الذين اعتنقوا المسيحية من القبائل التي كانت تنزل شمال الحجاز وعلى تخوم بلاد الشام . فقد كانوا مرتبطين بقوة سياسية خارجية هـي الامبراطورية البيزنطية التي كانت تستخدمهم كأدوات لها في ضـرب

القوة العربية التي بدأت تنمو في الحجاز وتستقطب ولاء القبائل العربية المختلفة ، الامر الذي قد يؤدي الى الاضرار البالغ بمصالح بيزنطةالتجارية من جهة ، ويهدد نفوذها في هذه البقعة من العالم . واذا اردنا ان نجمل بعض الملاحظات التي تبدو للباحث في موضوع انتشار الاسلام في منطقة الخليج زمن الرسول ، وان نحدد بعض الظروف والاجواء والمنطلقات التي واكبت عملية انتشار الاسلام في هذا الجزء من الجزيرة لوجدنا انه لابد لنا من ان نأخذ ما يلي بعين الاعتبار :

اولا : ان معنى كلمة « انتشار الاسلام » معنـــى نسبي ، وليـس ضروريا ان تعني كلمة « انتشار الاسلام » في مجال البحث الذي قدمناه السيطرة الكاملة والتامة للاسلام على الرقعة من الارض التي كانت موضع حديثنا . ان قضية مدى نفوذ الرسول في الجزيرة العربية وقضية الايمان التام والكامل بالاسلام كدين وكنظام للحياة والجماعة قضيتان مختلفتان من حيث المدى الجغرافي . ففي حين انه يمكننا القول بشيء كثير من صدق ودقة انه منذ عام الوفود وحتى وفاته صلوات الله عليه ، كانت غالبيةعرب الجزيرة في شمالها وجنوبها وشرقها وغربها تدين بالولاء للرسول شخصيا وتقر بزعامته وسيادته وتعتبره سيد الجزيرة بلا منازع . كان الاســلام كدين لا يملك السيطرة التامة والكاملة الا على القبائل التي تنزل بين مكة والمدينة وبعض القبائل الاخرى . اما بقية القبائل الضاربة في ارضالجزيرة العربية ، فقد كان فيها مسلمون وكان فيها وجود للاسلام ولكن لم يكن الاسلام السيد الذي لاينازع او الدين الذي يعتنقه جميع الناسولايعارضه أي معارض .

ثانيا : ان قضية الردة هي الكاشف الحقيقي والمعيار الذينستطيع من خلاله ان نحكم على مدى انتشار الاسلام في قبيلة او منطقـــة ما . وبالرغم من انه لا يقع ضمن حدود هذه الدراسة التعرض لموضوع الردة، الا انه يمكننا القول ان هذه الحركة قد اوضحت بما لا يقبل الشك أن الاسلام كان قلعة صامدة في بعض المناطق وعند بعض القبائل ، وكـان وجودا ضعيفا بين قبائل اخرى . ولعـل أهم ماتكشف عنه الردة هو ان الاسلام كان بالنسبة للبعض حلقة في مسلسل التسلط السياسي والمالـي القرشي الذي تعود جذوره لما قبل الاسلام . حتى ان الطبري يقـول : « ان العرب بعد وفاة الرسول ارتدت عوام او خواص الا قريشا وثقيفا». (الطبري ، جـ ٣ ، ص ٢٤٢) .

وبالرغم مما في هذا الكلام من مبالغة ، ومن انه ليس من حدود هذه الدراسة كما اشرنا ، بحث الموضوع الردة ودلالاتها وما يمكن ان تشير اليه، فان قضية رفض السلطة القرشية تتمثل في اكثر من مجال مـن مجالات موضوع الردة . وقد عبر عنها خير تعبير الشاعر خطيل بن أوس اخي الحطيئة (او الحطيئة) على قـول اخر (انظر الاغانـي ، ط دار الكتب ، جـ ٢ ، ص ١٥٧) حين قال :

اطعنا رسول الله ماكان بيننا　　فيا لعباد الله ما لأبـي بكر
ايورثها بكـرا اذا مات بعده　　وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

هذا فضلا عن الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة والذين تنبأوا وادعوا الوحي او فهموا الدين فهما غير تام ولا عميق . الامـر الذي يوضـح ان انتشار الاسلام زمن الرسول الكريم كان يعني عند العديد مـن القبائـل والافراد قبول النفوذ السياسي للرسول من جهة ، وممارسة بعض طقوس الاسلام من جهة اخر . واذا اخذنا بعين الاعتبار قصر الفترة التي مضت بين اعتناق بعض القبائل والافراد الاسلام وبين وفاة الرسول لتوضح لنا ان ماندعيه من انه لم يكن للاسلام خارج الحجـاز زمن الرسـول نفس الوجود القوى الذي كان له داخل الحجاز ولا سيما بين القبائل التي كانت تنزل بين مكة والمدينة . ولست اريد ان اصل الى حد القول بان البعض كان يرى فيه بضاعة قرشية ، ولكن لابـد من التأكيد على الدور الكبـير الذي لعبه ابو بكر في تثبيت الاسلام في الجزيرة والخدمة الجلى التي أداها للاسلام بنتيجة الموقف الصلب الذي وقفه في وجه من ارتد او فرق بين صلاة وزكـاة .

ثالثاً : ولابد من ان نورد في هذه الملاحظات التي أردناها خلاصة لهذا البحث ان امر انتشار الاسلام في شرقي الجزيرة والخليج زمن الرسول قد تأثر بعدة امور اهمها :

آ ـ قضية البعد الجغرافي بين المدينة وبين هذه المناطق والمسافـة الشاسعة التي تفصل بينهما، وماادى اليه ذلك من تأخر انتشار الاسلام فيها.

ب ـ اعتماد الرسول اسلوب البعوث والـدعاة والذكر . والموعظة الحسنة ، وعدم اللجوء الى القوة او الدعم العسكري . وقد اوضحنـا

سبب ذلك آنفا وبينا الاولويات التي اعتمدها الرسول في سياسته لنشر الاسلام داخل الجزيرة وخارجها .

جـ ـ اعتماد الدعوة الى الاسلام بين قبائل هذه المنطقة على ماكان فيها من تناقضات وخلافات وفئات وتنازع على الزعامات والاكتفاء في هذه المرحلة بتثبيت وجود اسلامي من نوع ما، دون الالحاح على سيادة الاسلام لظروف داخل دولة الاسلام وبين القبائل شرحناها فيما سلف ، وكان هذا الاسلوب جزءاً من السياسة العامة التي اتبعها الرسول في نشر الاسلام والتي كانت تقوم على اساس الدبلوماسية والمراسلة والحجة والاقناع والاستفادة من الظروف دون اللجوء الى عرض العضلات أو المظاهرات العسكرية ، لأن الاسلام لم يهدف الى قسر الناس على التسليم به ، بل الوصول الى قناعتهم النابعة من ايمان بالقلب وممارسة بالفعل والانتظام في ظل دولة تقوم على اساس من تعاليمه .

د ـ قضية الاخلاط البشرية التي كانت تسكن هذه المنطقة من الجزيرة من جهة،ووجود اديان موحدة وغير موحدةذات جذور وارتباطات سياسية خارجية ، فرضت على الرسول اتباع سياسة في الدعوة الى الاسلام تختلف عن السياسة التي اتبعها مبعوثوه الى القبائل والمناطق الاخرى .

هـ ـ أدى كل ذلك الى أن نحى الرسول الكريم في دعوته الىالاسلام في هذا الجزء من الجزيرة العربية منحى عقد اتفاقات لها صبغة دينية وسياسية معا . وذلك إما عن طريق مبعوثيه الى هذه القبائل ، أو عن طريق الوفود التي جاءت منها اليه في المدينة . وقد أوضحنا ذلكفيحديثنا عن الاتفاقات التي عقدها مبعوثوه أو المطالب التي ضمنها رسائله الىزعماء هذه القبائل أو فيما ذكرناه عن وفودها اليه والمفاوضات التي جرت بينها وبينه وما كتب لها من عهود وكتب أمان .

رابعـاً : لابد من ربط موضوع انتشار الاسلام في شرقي الجزيرة بعامة ومنطقة الخليج بخاصة ، بموضوع الوضع السياسي والعسكري لفارس في هذه المرحلة من تاريخها وذلك على ضوء صراعها مع بيزنطة وما أصابها بنتيجة هذا الصراع من ضعفوتدهور في وضعها الداخلي منجهة، وعلى ضوء التحرك العربي العام المضاد لفارس منذ فترة ماقبل الاسلام

منذ أن كانت متسلطة على العراق وشرقي الجزيرة عامة واستيقاظ الوعي القومي العربي الذي توجته معركة ذي قار من جهة أخرى . ويقودنا كل هذا الى اقرار مبدأ التلازم بين الاسلام والعروبة واعتبار الاسلام السند الاساسي للعروبة وملجأها الامين . وقد جاءت الاحداث بعد ذلك التؤيد هذا الزعم حين كانت حركة الفتوح التي لايمكن أن نفصل فيها البعدالديني عن البعد القومي .

خامساً : يلاحظ الباحث لموضوع انتشار الاسلام زمن الرسول عامة انه كان له صلوات الله عليه موقف مـن نصارى جنوب شرقـي الجزيرة يختلف عن موقفه من نصارى الشمال . وهذا الموقف ناجم كما أوضحنا من الارتباطات السياسية لكلا الفريقين : ففي حين كان نصارى الجنوب والشرق يعيشون في ظل نظـام سياسي غير نصراني وبالتالـي لايمكن أن يكونوا عملاء لهذا النظام الذي تمثله فئة المجوس ، كان نصارى الشمال الركيزة الاساسيةللوجود السياسيالبيزنطي .وهذا في رأينا يفسر أمرين: أولهما ــ الاختلاف في الموقف الديني من كـلا الفئتين وسماحه لنصارى الجنوب والشرق بالبقاء على دينهم على أن يدفعوا الجزية ، وعدم موافقته على مثل ذلك الأمر بالنسبة لنصارى الشمال الامر الذي يتبدى في كتبـه الى ملوك وامراء وزعماء كلا المنطقتين وعدم الحاحه في الاولى على اسلام من كان على النصرانية أو سواها واختار البقاء على دينه ، اذ لاعليه سوى أن يدفع الجزية . أما نصارى الشمال فكان عليهـم أن يسلموا اذا كانوا عربا ، أو على الأقل الا يعمدوا أولادهم بالنصرانية . وثانيهما ــ قضيـة البعوث العسكرية التي سيرها الرسول الى القبائل المسيحية النازلـة في حدوده الشمالية (مؤتة ، تبوك ، بعث اسامة بن زيد) ، والتي لانجد لها مثيلا بالنسبة للجنوب والشرق .

وطبيعي أن يكون من مبررات هذه البعوث أيضا أن الوجودالمسيحي بين العرب النازلين في حدوده الشمالية كان قويا في حين انه لم تكن الحال كذلك بالنسبة للقلة من المسيحيين الذين كانوا في الجنوب والشرق .

وبعد ،فهذه بعض الامور والملاحظاتالتي أردتعرضها حول موضوع انتشار الاسلام في الخليج زمن الرسول صلوات الله عليه ، وأرجو إن لـم أكن قد وفيتها حقها او وفقت في عرضها ، أن تكون فاتحة دراسات اخرى تغني هذا الموضوع وتيسر ماغمض علي من جوانبه .

أُصولُ تبايُنِ مواقفِ الدُّولِ الأوربيّة
حيالَ المسألة السّوريّة (اللّبنانيّة)
١٨٦٠ ـ ١٨٦١

د . أحمد طربين
استاذ في قسم التاريخ بجامعة دمشق

نظرت دول اوربا الى قضايا الاقطار العربية باعتبار انها من فروع المسألة الشرقية التي تعني « مسألة اقتسام الاراضي التابعة للامبراطورية العثمانية » ٠

ومعلوم ان هـذه الاقطار العربية التابعة للدولة العثمانية كانت من اهم دواعي التنازع الـدولي الـذي استهل بنزول حملة نابليون بونابرت ارض مصر (١٧٩٨) ومسارعة انكلترا لمساندة العثمانيين ضده الى ان غادرت جيوشه مصر (١٨٠١) ٠ كـذلك كان لحملة محمـد علي على بلاد الشام ١٨٣٠ ـ ١٨٤٠ اثر عميق فيها ، فبعـد ان التزمت فرنسا جانب محمـد علي وانكلترا جانب السلطان كان من الطبيعي ان تجـد دعايات الفرنسيين وتحركاتهم صدى بين الموارنة ، ودعايات الانكليز وتحركاتهـم استجابة بين الـدروز ، مما جعل الموارنة مساعـدين لمحمد علي ، والدروز ثائرين عليه . وانتقل الصراع التقليدي بين فرنسا وانكلترا الى الجبهـة الـداخلية على شكل نزاع بين الموارنة والـدروز ، وبـذلك اضيف عامل جـديد لعوامل المنازعات القديمة ، وغـدا جبل لبنان بعد انسحاب الجيوش المصرية مسرحـا لابشع صور الفتنة الطائفيـة ومثارا للمكائـد الدوليـة (١٨٤٥ ـ ١٨٦٠) ٠ وفي غضون ذلك لم تكن السلطات العثمانية بعيـدة عـن التحريض على حوادث الجبل ، ولاسيما بعد ان امتـدت منها حركة الى دمشق ، لان الحكومة العثمانية لم تقلع عن سياستها التقليـدية وهـي ان تحل المشكلة بأن تبيـد اصل المشكلة ، وطبقت هـذه السياسة ايضا في تعاملها مع العصبيات الاخرى في البلقان والاناضول ٠

لقد تحركت الحكومة العثمانية قبل التدخل الدولي ، فأسرعت بارسال محمد فؤاد باشا وزير الخارجية بسلطات استثنائية الى سورية ، وتعمد معاقبة المسؤولين بسرعة وشدة ، فأعدم والي دمشق ونفى عددا كبيرا من اعيانها وشنق عددا اخر . واختص المسلمين ببطشه في مسعى لاذلالهم والقضاء على اعتزازهم ، وفي الوقت نفسه عمل على تحريك الطوائف واثارتها لمنعها من الاتحاد الوطني والمطالبة بتحقيق الاصلاح الجدي وهكذا مضى عهد طويل على حوادث الستين المؤسفة ، واعيان البلاد لا يرتفع لهم رأس. وتدخلت أوربا عسكريا في سورية بارسال حملة فرنسية الى بيروت فجبل لبنان ، اضافة الى تدخلها الديبلوماسي الذي تمثل بارسال لجنة دولية مؤلفة من ممثلي خمس دول اجتمعت في بيروت يوم ٥ تشرين الاول ١٨٦٠ ، وكانت مهامها :

١ ـ البحث في منشأ احداث سورية واسبابها وتحديد مسؤولية كل من زعمائها وانزال القصاص بهم .

٢ ـ تقدير الخسائر وايجاد الوسائل لتخفيف شقاء المنكوبين والتعويض عليهم .

٣ ـ اقتراح ما يجب ادخاله من تعديلات على نظام جبل لبنان الحالي لمنع تجدد الكوارث وتوطيد الامن والطمأنينة في سورية (١) .

وقد مثل الحكومة العثمانية في اللجنة الدولية وزير الخارجية محمد فؤاد باشا ، وناب عن الحكومة البريطانية اللورد دفرين ، وعن الحكومة الفرنسية المسيو بكلار قنصلها العام السابق في بخارست ، وعن الحكومة الروسية المسيو دي نوفيكوف مستشار سفارتها في الآستانة ، وعن الحكومة النمساوية المسيو دي فكبكر قنصلها العام في بيروت ، وعن الحكومة البروسية المسيو دي ريفوس ، سكرتير مفوضيتها في الاستانة . وبما ان خلافات اعضاء اللجنة الدولية كان مصدرها الشك المتبادل الذي كان يعكسه الموقف الدولي في اوربا ، لذلك فليس بد من تصوير موقف كل دولة من الدول الخمس تصويرا موجزا يكفي لادراك دوافع سياستها التي اتخذتها حيال بحث المسألة السورية (اللبنانية) في اجتماعات اللجنة الدولية ، وفي المفاوضات والمؤتمرات الدولية اللاحقة .

---

(١) انظر احمد طربين « أزمة الحكم في لبنان » دمشق ١٨٦٦ ، ص ١٥٦ .

وفي تناول تيارات السياسة الدولية التي اثرت على مواقف الدول الخمس ، تحسن العودة الى اوائل الثلاثينات ، حين عقد نقولا الاول قيصر روسيا معاهدة خنكار سكله سي مع السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٣٣) ، اعتبرها بالمرستون وزير الخارجية البريطانية آنذاك ضربة عنيفة موجهة اليه · وبالمرستون لم يكن يكره النظام القيصري وانما كان يكره مساحة روسيا الشاسعة وقوتها الضخمة وموقعها الجغرافي الذي يسمح لها بتهديد تركيا وفارس والهند · وزاد في قلق بالمرستون ان روسيا ستعتمد على النمسا في دعم سياستها حيال المسألة الشرقية · ذلك ان مترنيخ المستشار النمساوي كانت تقلقه انباء انتشار الروح القومية الثورية فيدويلاتالمانيا وايطاليا الشمالية والمجر ، فبدأ يلح علىقيصر روسيا وملك بروسيا بضرورة دعم(التحالف المقدس) · وفي اجتماع (منشنغراتز) وعد القيصر بمساعدة مترنيخ على أمل أن لا يعارض مترنيخ في اندفاع الروس نحو الآستانة ، ولكن المستشار النمساوي بدا له ان رغبات القيصر ليست خطرا مميتا بالنسبة لتركيا فحسب ، بل بالنسبة لوجود النمسا نفسها كدولة مستقلة ايضا (١) ولذلك فعندما سأله القيصر عن رأيه في الترك اجابه : « هل يعرض مولاي علي المسألة كطبيب او كوارث ؟! » وادرك القيصر حينئذ ان النمسا ستعارض دائما السياسة الروسية في المسألة الشرقية · وعندما استقالت وزارة الاحرار التي كان بالمرستون وزير خارجيتها ، وحلت محلها وزارة روبرت بيل Peel المعروف بميله للروس ، تصور القيصر ان المسألة التركية امسى حلها قريبا ، وخاصة بعد ان استلم اللورد ابردين وزارة الخارجية وهو المعروف بعدائه للترك . وفي مطلع عام ١٨٣٣ قام القيصر بزيارة رسمية للملكة فيكتوريا ، وتحدث الى ابردين عن (الرجل المريض) وقال انه لا يخشى احدا سوى فرنسا التي يتخوف من ان تطلب الكثير في افريقيا والبحر المتوسط وفي الشرق · وبعد ان لمح القيصر الى خطر المطامع الفرنسية المرتقبة في مصر سورية وفي البحر المتوسط ، اي في المناطق التي لا يمكن لانكلترا ان تسمح بالتفوق الفرنسي ،اتجه الى ابردين واشار الى وجوب تفاهم روسيا وانكلترا سلفا على تقسيم تركة (الرجل المريض) لمقاومة المطامع الفرنسية والنمساوية · واللورد بيل لم يكن يجهل ان القيصر ليس له مطمع في مصر ، بل كان همه

(١) Potiemkine (editeur) « Histoire de la Diplomatie » T. i. P. 416.

يتركز على القسطنطينية والمضائق والافلاق والبغدان . اما الدولة التي تطمع في امتلاك مصر ، فهي فرنسا . وغادر القيصر لندن مسرورا لأنه وجد اناسا اقل صمما من مترنيخ . ولكن فأله خاب لان انكلترا تهربت من ان تعبر عن رضاها بوثيقة مكتوبة .

ان ثورات عام ١٨٤٨ في اوربا اثارت مخاوف القيصر بادىء الامر، بقدر ما فتحت له فيما بعد آفاقا واسعة ليستفيد من موجة الاضطراب التي عمت القارة ، وليستثمر ما سيقدمه من معونة على الاخص للنمسا حيث تدخل لصالحها ضد المجر وضد بروسيا في (اولمتز) على أمل أن تساعده في حل المسألة التركية وفق هواه . الا ان تدخله الذي ساعد النمسا على تحقيق نصر حاسم في المجر والمانيا سيكون له اثره في سرعة انصرافها للاهتمام بشؤون البلقان والوقوف في وجه الزحف الروسي . ولم يدرك القيصر خطأه الا عام ١٨٥٤ ، ولكن لم يكن له بد من التدخل في ثورة المجر خوف انتقال عدواها الى بولونيا ، وخشية قيام حكومة قوية في المجر تهدد مطامع روسيا في البلقان . وكان بالمرستون شديد القلق من ان تنهار النمسا ، وكان يخشى ان تهاجم فرنسا شمالي ايطاليا لطرد النمسويين ، وان يتلو ذلك قيام الروس بابتلاع الشعوب السلافية والاقتراب من القسطنطينية ، ولذا فقد اغتبط كثيرا عندما وقف القيصر الى جانب النمسا ولم يسمح لفرنسا الثورة ان تتوسع . وفي مطلع عام ١٨٥٣ تحدث القيصر مع هاملتون سيمور السفير البريطاني في سان بطرسبرغ ، بشأن تقسيم تركيا ، وعرض عليه مصر وجزيرة كريت مقابل ان توضع الافلاق والبغدان والصرب وبلغاريا تحت الحماية الروسية . وفي ٩ شباط وصله رد جون رسل وزير الخارجية البريطانية وكان سلبيا تماما لان رسل كان كنظيره بالمرستون متشككا في السياسة الروسية الشرقية ، ولم يكن لديه ما يحمله على الاعتقاد بانحلال الدولة العثمانية قريبا .

وهكذا كان أمام القيصر حلان : الاول أن يطوي المشروع ، والثاني ان يلجأ الى القوة ، فيتقدم الى تركيا بمطالب تضمن لروسيا مركزا متفوقا، فاذا رفضت ، اشهر الحرب وحطم تركيا . بيد ان القيصر لو كان يعتقد ان فرنسا والنمسا ستقفان في صف انكلترا دفاعا عن تركيا ، لاختار الحل الاول ، لانه كان يعلم ان انكلترا لا تجرؤ على اعلان الحرب عليه دون ان يكون لها حلفاء .

ولم تكن مسألة المقامات المباركة في فلسطين هي جوهر النزاع الذي شجر بين فرنسا وروسيا ، فقد اعترف دروان دوليز وزير خارجية فرنسا بأنها لم تكن بالنسبة لحكومة الامبراطور الا اداة لتفكيك عرى التحالف القاري الـذي عمل منـذ حوالي نصف قرن على شل حركة فرنسا ، وعندما سنحت الفرصة اخيرا لبث بذور الشقاق في داخل هـذا التحالف القوي ، فالامبراطور عضّ عليها بالنواجذ (١) .

ان مساعي الامبراطور نابليون الثالث الحثيثة لفصل انكلترا والنمسا عن روسيا رافقها شوق شـديد لايجاد مصاعب في الشرق حتى ولو كان خلافا حـول المقامات المباركة · ذلك انه في الشرق تختلف مصالح هـذه الدول مع مصالح القيصر · وبالنسبة للقيصر كانت مسألة المقامات المباركة وسيلة ملائمة وشعبية لخلق نزاع لا مع فرنسا فقط وانما مع تركيا أيضا. وتدريجيا بـدأت هـذه المسألة ترتبط بمزاعم القيصر في حق روسيا بحماية جميع الرعايـا الارثوذكس في الـدولة العثمانية ، وهـذا يعني التـدخل الديبلوماسي في شؤون هذه الدولة . ولسـنا بصـدد ذكر بعثة منشيكوف ومناورات السفير البريطاني في الآستانة وايعازه بـرد مطـالب روسيا ، وحسبنا أن نذكر أن الحقد على نيقولا كان عاما في انكلترا وفرنسا على حد سواء · وما من حرب اجتمع لها من تأييدالجماهـير ما اجتمع لهذه الحرب ضد القيصر الذي ركبه الغرور بعـد قمع الحركات الثوريـة عـام ١٨٤٨ واعتقد بتفوق روسيا ، وكان يسرّه ان يتحـدى العالم اجمـع وان يقذف القفاز في وجهه · ونابليون الثالث نفسه وجـد في هـذه الحـرب فرصة لبعث مجـد فرنسا وتغطية تاجه بالغار والفخر (٢) ·

اما النمسا فمن جهة كانت تسعى لاقناع القيصر بالاتفاق مع تركيا بسرعة والجلاء عن المقاطعتين الدانوبيتين (الافلاق والبغدان) ، ومن جهة اخرى كانت تحاول مساومة انكلترا وفرنسا لتعرف ثمن اتخاذها موقفـا معاديا من روسيا · والنمسا التي كانت تخشى ان يطردها نابليون الثالث من لومبارديا والبندقية ، لم يخف عليها تهديد نابليون لسفيرها فيما لـو وقفت على الحياد ·

(١) Potiemkine, ibid., P. 434.

(٢) Renouvin « Histoire des Relations Internationales, T. 5. P. 289.

وبروسيا التي تشغل في الاتحاد الجرماني مركزا يلي مركز النمسا ، كان موقفها مختلفا تماما ، فانهيار تركيا ، لا ينتقص من مصالحها الحيوية، في حين انخصومتها معروسيا قد ينجم عنها فيما بعد تحالف فرنسي روسي يؤدي الى سحقها • وتساءلت بروسيا بلسان بسمارك ممثلها في الدييت الاتحادي عن مبرر اتخاذ موقف معاد من روسيا • أوليس كلما ضعفت النمسا قويت بروسيا ، واستقلت في سياستها ومقدراتها ؟ (١) وعندما طال حصار سباستبول كان هم الدولتين منصرفا الى توسيع التحالف واستعداء دول اخرى ضد روسيا ، فتضطر هذه لطلب الصلح وتنهي الحرب • ولما كانت اراضي دولتي النمسا وبروسيا تتاخم حدود روسيا ، فقد أصبح لهما اهمية رئيسية في الغزو السريع •

ان جهود روسيا للحصول على حيدة النمسا وبروسيا ، ومساعي انكلترا وفرنسا لجرها الى الحرب ضد روسيا ، كانت بالنسبة لنتيجة الحرب اكثر اهمية من العمليات العسكرية (٢) وقاد الحلفاء معركة ديبلوماسية ضد روسيا فكان النصر حليفهم ، واقترح وزير خارجية النمسا على بروسيا ان تتفق مع النمسا لدعوة القيصر نيقولا الى سحب جنوده من المقاطعتين الدانوبيتين ، ولم يجرؤ ملك بروسيا الذي كان يعاني من ضغط انكلترا وفرنسا ، على الرفض ، وقد غضب القيصر من هذا العمل ، ولكن سخطه على النمسا كان أشد • (٣) واضطر القيصر بعد نزول الحلفاء في (فارنا) ان يسحب جنوده من المقاطعتين الدانوبيتين ، وبرغم سقوط سيباستبول ، فقد رفضت روسيا الصلح ووصل بالمرستون الى رئاسة الوزرة البريطانية في شباط ١٨٥٥ ، ولم يكن تواقا لانهاء الحرب ، الا بعد ان يوجه الى روسيا ضربة قاصمة عن طريق اكتساب حلفاء جدد ضدها ، ودفع نابليون الى تعزيز جيشه • والديبلوماسية البريطانية لم تكن تكتفي بأقل من الاستيلاء على شبه جزيرة القرم اولا وتسليمها الى تركيا ، ثم الاستيلاء على القفقاس واسترجاع جورجيا وجميع القفقاس الجنوبي الشرقي واقامة دولة شركسية تكون تابعة للسلطان وانكلترا ، بقصد ان تكون حاجزا يسد طريق فارس أمام الروس (٤) •

---

(١) **Potiemkine, op. cit., pp. 439 - 440.**

(٢) Renouvin, op. cit., P. 293.

(٣) **Potiemkine**, op. cit., P. 447.

(٤) **Ibid., P. 452.**

ولكن نابليون الثالث لم يكن يرغب في مساندة قوة انكلترا لهذه الدرجة ، بل كان يرى ان روسيا تمثل ثقلا نافعا يمكن ان يقلب ميزان انكلترا نفسها ، ويرى ان اراقة الدم الفرنسي في القفقاس لحماية الهند من الغزو الروسي أمر غير مجد لفرنسا ، ولذلك كلف الكونت مورفي Morvy بالاتصال مع روسيا بصفة شخصية .

رحب غورتشاكوف سفير روسيا في فينا بمفاتحة فرنسا ، وقال للرسول ان التقارب المباشر بين روسيا وفرنسا في المستقبل وبعد عقد الصلح ، سيكون امرا مفيدا جدا للبلدين · وارتكب المستشار الروسي نسلرود منذ بداية المفاوضات السرية خطأ أساء الى كل المباحثات ، فقد اعلم فينا بمفاوضاته مع باريس ، وحينئذ ذعرت النمسا وانزعجت من اتفاق روسيا وفرنسا الذي قد يؤدي الى عزلها عزلا خطيرا · وأبلغ وزير الخارجية النمساوية نابليون بأن حكومته مستعدة للانضمام الى الغرب نهائيا ، ولتوجيه ما يشبه الانذار الى روسيا · ونتيجة ذلك سخط نابليون على مسلك نسلرود وقطع المفاوضات · (١)

ومهما يكن الامر ، فقد ضغطت بريطانيا وفرنسا على النمسا لتقوم بمسعى من شأنه ان يرغم القيصر على قبول الصلح ، ولجأتا الى سياسة التهديد والارهاب ، فقد قبلتا التفاوض مع (كافور) رئيس وزراء مملكة سردينيا في ٢٨ كانون الثاني ١٨٥٥ لمساعدته في المسألة الايطالية مقابل ١٥ الف جندي قدمتهم سردينيا للمساهمة في حرب روسيا · وفي الوقت نفسه افهمتا النمسا انهما ستعارضان اي حركة تقوم بها سردينيا في ايطاليا اذا تعهدت النمسا بمساعدة الحلفاء ضد روسيا · (٢) واسرعت النمسا في ١٦ كانون الاول لتوجيه انذار على شكل مقترحات خمسة الى روسيا كان رفضها يعني الحرب · وبعد بضعة ايام تلقى الاسكندر الثاني رسالة من ملك بروسيا كتبت بوحي من امبراطور النمسا ، وكانت رغم رفقها تنطوي على تهديد مباشر ، ودعوة لان يتبصر القيصر جيدا بالعواقب التي ستتعرض لها المصالح الروسية البروسية نفسها اذا رفضت المقترحات النمساوية · وهنا اضطر القيصر للرضوخ ، واتضح له ان النمسا ليست اقل عداء له من انكلترا · وبقي امله معلقا بفرنسا في مؤتمر الصلح المرتقب عقده في باريس ·

---

(١) Ibid., P. 453.

(٢) Renouvin, op. cit., P. 296.

افتتح مؤتمر باريس في ٢٥ شباط وانتهى بتوقيع معاهدة باريس في ٣٠ اذار ١٨٥٦ . وفي المؤتمر ركز الكونت أورلوف مندوب روسيا كل اهتمامه للتقرب من الامبراطور نابليون الثالث الذي بادله نفس الاهتمام منذ بداية الاجتماعات • وتحدث اورلوف في اول مقابلة جرت بينهما عن امكان اجراء تقارب وثيق بين روسيا وفرنسا اللتين لا تتعارض مصالحهما كثيرا . والواقع ان نابليون حصل على كل مارغب فيه ، فقد انقذ تركيا من السيطرة الروسية ، واكسب الجيش الفرنسي مجدا جديدا وثأر لسنة ١٨١٢ كما استطاع ان يوطد أركان عرشه ويحتل المقام الاول في أوربا • ومن ثم لم يكن لديه بعد ذلك كله مايطلبه من روسيا بعد ان عقد المؤتمر في باريس ولعبت فرنسا لاول مرة بعد عام ١٨١٥ دورا رئيسيا في تصريف الشؤون الدولية • وعرف الكونت اورلوف كيف يستفيد من الفتور الذي كان يتسم به غالبا تأييد فرنسا لحليفتها انكلترا اثناء البحث في فرض بعض القيود الثقيلة على روسيا فكان يتصلب ويرفض التوقيع لانه كان يعلم ان نابليون لا يرغب في متابعة الحرب ، وان انكلترا وحدها لن تتابع الحرب ، كل ذلك بمسرحية بارعة اتقن اخراجها فالفسكي ، وزير خارجية فرنسا ورئيس المؤتمر الذي كان يعرف تماما مشاعر امبراطوره الودية نحو روسيا وممثلها اورلوف •

ومع ذلك فقد كان لهزيمة روسيا في المسألة التركية نتائج هامة اذ خسرت بموجب معاهدة باريس ١٨٥٦ جميع المزايا التي حصلت عليها ابان قرن منذ معاهدة كوجك قينارجي (امتياز حماية الارثوذكس) ومعاهدة ادرنة (النفوذ المتفوق في المقاطعتين الدانوبيتين) • ولكن نتائج حرب القرم امتدت الى ابعد من المسألة الشرقية ، فقد تخلت النمسا تحت ضغط انكلترا وفرنسا عن سياسة التفاهم التي كانت تلتزمها مع روسيا منذ أمد طويل، فحكمت على نفسها بعزلة اضعفتها • اما انكلترا فقد نجحت سياستها في فرض المادة (١١) على روسيا وعلى الدول التي تمتلك سواحل البحر الاسود بخصوص حياد هذا البحر ، اي منع وجود سفن حربية وترسانات بحرية ، الامر الذي حرم روسيا من الوسائل التي كانت تستطيع بواسطتها ان تفتح المضايق وتهدد الدولة العثمانية • وبينما خسرت روسيا بسارابيا ، فان النمسا أبعدت عن المقاطعتين الدانوبيتين اللتين نالتا استقلالا ذاتيا ضمن السيادة العثمانية، وكانت النمسا ترجو ان لا يقرر المؤتمر اجراء تغيير في وضع هاتين المقاطعتين اللتين تحتلهما جيوشها • ولكن في ٢٧ اذار دعا رئيس المؤتمر فالفسكي فجأة مندوب النمسا ببرود الى احاطة المؤتمر علما بالموعد الذي تحدده

حكومته للجلاء عن المقاطعتين · وهكذا غادرت النمسا دون أن تنال من حلفائها ثمن انذارها الحاسم لروسيا · وقد ادرك اورلوف اكثر من مندوب النمسا معنى وجود كافور بين اعضاء المؤتمر · والحق ان كافور حقق كسبا معنويا حينما عرض امام الراي العام الدولي ناحيتين من المسألة الايطالية ، هما الدولة البابوية ، ومملكة نابولي ، وكل ذلك تم بموافقة نابليون الثالث · (١) والواقع انه اتضحت معالم التقارب الروسي الفرنسي في الجو السياسي لاروبا منذ توقيع معاهدة باريس ، هذا على الرغم من اختلاف موقف الدولتين من معالجة (الرجل المريض) ، ففي حين كانت روسيا ترغب في اعادة فتح ملف المسألة الشرقية وتعميم مبدا التدخل لصالح جميع الرعايا المسيحيين في السلطنة ، كانت فرنسا تفضل الاقتصار على المفاوضة بشأن مسيحيي سورية فقط اثناء مباحثات التدخل الدولي في اعقاب حوادث الستين .وفي اجتماعات لجنة بيروت الدولية كان ممثل روسيا يؤيد في معظم الاحيان اراء ممثل فرنسا ، ولكن عندما كانت تعرض مصالح الروم الارثوذكس على بساط البحث ، لم يكن المندوب الروسي يتقيد بهذا الوفاق ، فلا يقبل بأي تنازل ، ولا يؤيد زميله الفرنسي إلا بعد لأي ، وبفتور وتردد ملحوظين · ولم يهدف في الحقيقة إلا الى خلق المشاكل وايجاد الصعوبات امام الباب العالي ، واثبات ان حالة المسيحيين في السلطنة متدهورة ، وان على الدول الاوربية ان تتدخل جماعيا لدى الباب العالي لتلزمه بتنفيذ تعهدات ما بعد حرب القرم · فكان على انكلترا ان تساعد السلطان العثماني وتدعم مركزه ، لان خطورة مساعي روسيا لم تكن تخفي عليها · فان تدخلها في شؤون المسيحيين في السلطنة وفي شؤون تركيا الداخلية كان يؤدي الى نشوب الاضطرابات والفتن في الولايات العثمانية المختلفة ·

وفي جلسة ٢٨ شباط ١٨٦١ في البرلمان البريطاني ذكر أن البرنس غورتشاكوف وزير خارجية روسيا استوضح بصدد ما نشرته الصحف الاوربية عن دخول فرنسا وروسيا في حلف دفاعي هجومي ، فأجاب البرنس بأنه لا ينكر أنه يمكن أن يوجد تفاهم بين الحكومتين ، ولكن ما يمكن أن يقوله في شأنه أنه لا يتضمن شيئا يضر بمصالح انكلترا (٢)·

(١) Renouvin, op. cit., P. 297.

(٢) Hansard's Parliamentary Debates, vol CL x 1,P. 1093.

ويقابل هذا المحور الفرنسي الروسي ، المحور العثماني البريطاني وكان لا بد ان تصيب هذا المحور هزات طارئة نتيجة ضغط المحور الاول على الاستانة في بعض المسائل ٠ بيد ان موقف الدولة العثمانية رغم خطة التهرب والمواربة التي اتخذتها احيانا عندما كانت تصطدم خطط فرنسا وبريطانيا بعنف ، كان يتسم عموما بالتأييد والتعضيد لحليفتها بريطانيا التي كانت تضطر بين اونة واخرى لاشهار سلاح التهديد والوعيد على تركيا لوقوفها موقفا مترددا ملاينا من السياسة الفرنسية والروسية ٠

أما النمسا فكان موقفها يشبه الى حد ما موقف الحكومة العثمانية من انكلترا ، يتحكم فيه من ناحية عداء روسيا لها وحقدها الشديد عليها بعد حرب القرم ، وما تعرفه من نياتها التوسعية في امارات الدانوب وشبه جزيرة البلقان التي يقع بعض أقطارها في دائرة النفوذ النمسوي ، وتتعرض دائما للدسائس والمكائد الروسية ٠ ويتحكم فيه من ناحية اخرى عدم اطمئنانها الى فرنسا حليفة روسيا ، وخاصة بعد المغامرة الايطالية التي اندمج فيها الامبراطور نابليون الثالث ، فساعد مملكة سردينيا على تصفية نفوذ النمسا من دويلات ايطاليا الوسطى التي تحكمها بيوت مالكة موالية للنمسا ، وما فتىء يهدد لومبارديا والبندقية التابعتين لها ، وهدفه اضعاف النمسا الدولة المحافظة التي ترى وجوب التمسك بالوضع الارضي الراهن في أوربا بحسب معاهدات عام ١٨١٥ (١)٠

وعلى الرغم من ان السياسة البريطانية في ايطاليا بعد صلح فيلا فرانكا اتسمت بكثير من العطف على الحركة القومية الايطالية ، غير ان النمسا كانت تعلم تماما ان التأييد الديبلوماسي البريطاني لا يستطيع وحده أن يحقق شيئا ذا بال ، وانه يستهدف فقط الحلول محل فرنسا في توجيه مقدّرات شبه الجزيرة الايطالية ، للحيلولة دون ارتباط (ايطاليا الموحدة) بفرنسا ٠

وانكلترا برغم هذا الدعم الديبلوماسي الذي تعهدت به لرد كل محاولة ثأرية من جانب النمسا ، وبرغم تأييد الصحافة البريطانية للحركة القومية الايطالية ، فانها لم تكن ترغب حقا في ان تتم الوحدة الايطالية التي من شأنها أن تخل بالوضع السائد وفي توازن القوى في البحر

(١) De la Gorce « Histoire du second Empire » III, p. 165.

المتوسط (١) ٠ وكافور نفسه كان يدرك أن التأ ييد الدبلوماسي البريطاني غير كاف لتأمين سردينيا ضد خطر النمسا ، وان مساعدة فرنسا هي ضرورية لصد هذا الخطر ٠

يتبين من ذلك ان النمسا كان من مصلحتها ان تنحاز الى محور انكلترا وتركيا في المحافل الدولية الهامة ، لما يوجد بينها وبين المحور المذكور من اتفاق في كثير من الشؤون التي تمس مصالحها ٠ ولـذا ستقف ضد محاولات النيل من مبدأ مراعاة سلامة اراضي الدولة العثمانية في الشرق كي تحترم سيادة السلطان في المقاطعات الاوربية البلقانية ضد التدخل الروسي ودسائسه ٠ لدرجة أن المندوب النمسوي أعلن في الجلسة التاسعة التي عقدتها اللجنة الدولية في بيروت ، ان الطريقة الوحيدة الناجعة في اقرار السلم هي تعضيد الحكومة العثمانية في كل انحاء السلطنة بما فيها جبل لبنان ٠ ولكن ظل موقفها من المسيحيين الكاثوليك في الشرق ، هو موقف المؤيد العطوف ما امكن نكاية بفرنسا ، وسعيا لاحتلال مكانها في حمايتهم عندما تحين الفرصة ٠ ومعلوم انه بعد صلح فيلافرانكا عدلت النمسا موقفها المعادي من مسألة شق قناة السويس مسايرة لفرنسا ، واوعزت الى مبعوثها في الآستانة ليساند مباحثات السفير الفرنسي بشأنها ، ولكن مع الحرص على عدم ارغام الباب العالي على التصديق على امتياز القناة ، أو اثارة التعقدات السياسية ٠ (٢) ولكن سرعان ما بدلت النمسا موقفها وتخلت عن تأييد شركة قناة السويس لا لانها ادركت ان دعم فرنسا للشركة يستهدف تأكيد الصبغة الفرنسية لا الدولية للمشروع فحسب ، ولكن ايضا لاسباب نرى انها تتصل بمستقبل نفوذ النمسا في البلقان والدانوب ، وباحتياجها لتأييد بريطانيا لها في هذا الميدان ٠

---

(١) كتب اللورد رسل وزير الخارجية البريطانية الى الملكة فكتوريا : «حكمت النمسا ايطاليا منذ عام ١٨١٥ حتى ١٨٥٩ فلذا شكا الايطاليون لاسباب معينة من هذا النفوذ النمسوي ، فليس لدى بريطانيا ما يجعلها تخشى من هذا النفوذ على مصالحها ٠ ولكن اذا سيطرت فرنسا على الاساطيل المجتمعة في جنوا ونابولي ، فبريطانيا يمكنها ان تدافع عن ممتلكاتها في مالطة وكورفو وجبل طارق » .

(٢) Hallberg (Charles) The Suez Canal, New York, 1931, P. 172.

اما موقف بروسيا ، فهو موقف الحياد الـذي تمسكت بـه في حرب القرم وما بعدها ، وبما انها كانت اذ ذاك تأتي في آخر صف الدول الكبرى ، فانها رأت من الحكمة ان لا تتورط في انتهاج سياسة معينة بصدد مشاكل اوربا ٠ (١) ولذلك فانها رفضت التدخل في المسألة الايطالية برغم الحـاح كافور ، لانها خشيت انها اذا ايـدت مبدأ اعادة النظر جزئيا في معاهـدات ١٨١٥ ، ان تثير فرنسا من بعد مسألة الرين ٠ وموقف المندوب البروسي في اجتماعات لجنة بيروت الدولية كان خاليا من الغرض ، يتمشى كثيرا مع مقتضيات العـدل والمنطق ، ومع خطة الوفاق والوصول الـى تسوية يرضى عنها جميع المندوبين الاخرين ، وظلت المشاعر المسيحية تحركـه الى حـد كبير ٠

كان هذا هو الموقف الدولي عام ١٨٦١ ، عشية اجتماعات اللجنة الدولية في بيروت ، وقد استطاع المندوب العثماني فؤاد باشا ان يحول ببراعـة دون خرق اللجنة الدولية سيادة السلطان وصلاحيات موظفيه ، وكان يرى انها ينبغي ان لا تتمتع بسلطة قضائية وادارية ، بـل يكفي ان تكون مهمتهـا استشارية بحتة ٠

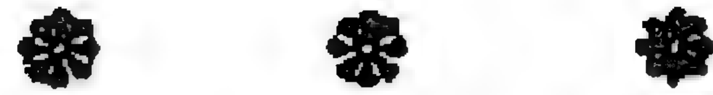
ولبلوغ ذلك كان عليه أن ينتهج الخطة التي كان الترك ينجحون بها في الغالب ، وهي التسويف والتأجيل والمراوغـة ، وبث الانقسام ، وتعويق اللجنة عن التقـدم في عملها ٠ ونحن نسجل للمنـدوب العثماني فؤاد باشا انه قـد نجـح في هـذا المضمار ايما نجاح ، واظهر مقـدرة ديبلوماسية فائقة ، وهو يومذاك في الخمسين من عمره ، له لحية تميزه خالطها الشيب ، جميل الطلعة تتوقد عيناه ذكاء وحيوية ، هـذا الى طلاقته باللغة الفرنسية ، وشهرته في القيادة العسكرية ، وخبرة تامة بشؤون اوربا وسياساتها ، وغـزارة في العلم وتفوق في المعارف والاطلاع ، على حـد قول كاتب معاصر لـه (٢) ٠

---

(١) Da la Gorce, op. cit., P. 165.

(٢) انظر ترجمة حياة فؤاد باشا في
Edwards (R.) La Syrie 1840 - 1862, Paris 1862, pp. 185 - 188.

بدات اللجنة الدولية اعمالها ، واضطر فؤاد باشا ان يتغيب عن جلساتها الاولى بداعي تدارك الامور في دمشق ، وتباطأ سير اللجنة ، وكان ينوب عنه ابرو افندي وهو ارمني كاثوليكي ، وكان ابرو كثير الاعتراض والانتقاد ، يحافظ بشدة على نظرية سيادة السلطان ، وينبري للاحتجاج على تجاوزات المندوبين حدود مهمتهم . فاذا جوبه بآراء تخالف اراء السلطات التركية ، او تثير شبهة في سلوك الحكومة او احد وكلائها أكد انه لم يتلق أية تعليمات بعد ، واجتنب كل مناقشة تحسم الموضوع . وابرو في ذلك كله يتبع تعليمات رئيسه الذي كان تارة مستقيما واضحا وتارة مراوغا داهية ، واستطاع بذلك أن يحد كثيرا من صلاحيات اللجنة التي ادعتها لنفسها بضغط من اوربا ، ويقيد نشاطها . تجلى ذلك اثناء بحث المسألتين المهمتين اللتين دار حولهما جدل حاد وهما معاقبة المسؤولين عن حوادث الستين وتنظيم تعويضات المنكوبين ابان تلك الحوادث . كانت اللجنة ترغب في ان يكون لها دور الاشراف على الاحكام الصادرة ضد المتهمين والجناة ، فلم تستطيع ان تلعب هذا الدور الا بصعوبة بالغة وكانت ترغب في أن تشترك بتحديد مبلغ التعويض المستحق للمنكوبين ، ولكن الباب العالي هو الذي حدد هذا المبلغ في النهاية .



مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية
في بلاد الشام
من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر

د . عبد الكريم رافق

أستاذ في قسم التاريخ بجامعة دمشق

لعب الجيش العثماني دورا هاما في الامبراطورية العثمانية ، سواء في تدعيم سلطتها او في تقويض اركانها ، وتالف من انواع من الجند ، منها السباهية (الفرسان) ، الذين منحوا الاقطاعات ، والانكشارية (المشاة) ، اصحاب المرتبات . وبالاضافة الى هاتين الفئتين ، برزت في بلاد الشام ، وفي غيرها من الولايات ، قوات مرتزقة استخدمها الثائرون على الدولة ، منذ مطلع القرن السابع عشر ، ثم اعتمدتها الدولة نفسها ، منذ القرن الثامن عشر ، حين تقاعست القوات النظامية عن دعم سلطتها . وادت الحاجة للقوات المرتزقة الى كثرة اعدادها ومصادر تجنيدها وتنوعها .

واستغل السكان العرب في بلاد الشام انهيار انظمة الجيش العثماني فتسربوا الى عدد من وحداته ، وصبغوها بالصبغة المحلية ، ففدت تخدم المصلحة المحلية ، باكثر من المصلحة العثمانية .

ونتج عن هذا الاندماج آثار اقتصادية واجتماعية ، ايجابية وسلبية . وتعالج هذه الدراسة الوحدات العسكرية العثمانية في بلاد الشام ، وكذلك نماذج من طرق القتال التي اعتمدتها هذه القوات ، وانواع الاسلحة التي استخدمتها ، ومصادرها ، كما تعالج جاهزية القوات القتالية ومدى فعاليتها ، ونشاطاتها الاقتصادية والاجتماعية .

١ ــ القوات العسكرية :

أ ــ الانكشارية : اقام العثمانيون في مراكز الولايات والقلاع فرقا من

الانكشارية للدفاع عنها . والتسمية مشتقة من الكلمتين التركيتين (Yeni çéri) ، وتشيران الى الفرق الجديدة تمييزا لها عن الفرق القديمة من الفرسان (السباهية) ، أصحاب الاقطاعات . وقد حرفت الكلمة التركية بالعربية الى ينيجرية ، وشاعت على أنها انكشارية . وكان السباهية من الفرسان ، اما الانكشارية فمشاة . ونظرا لعدم تعرض بلاد الشام ، بعد احتلال العثمانيين لها ، الى عدوان خارجي، فقد انصرف الانكشارية فيها الى تعاطي الاعمال التجارية مما شجع التجار المحليين على الانخراط في صفوف الانكشارية ، للافادة من امتيازاتهم . وقد وجه السلطان العثماني في ٤ جمادى الاول ٩٨٥ ٢٠ تموز ١٥٧٧ فرمانا الى والي دمشق يأمره فيه أن يعين في الوظائف التي تشغر في طائفة الانكشارية ، اناسا من الروم (أي من العثمانيين) ، وليس من المحليين والاغراب ، كما كان يحدث ، وذلك في محاولة للحفاظ على الصبغة العثمانية للانكشارية ، وبالتالي لتأمين الانضباط في صفوفهم وتوجيه ولائهم للمصالح العثمانية وليس للمصالح المحلية . ولكن الفرمان لم يطبق بحزم ، واستمر المحليون والاغراب ينتسبون الى صفوف الانكشارية . وانعكس هذا الانتساب في الاسماء غير التركية التي بدات تظهر بين أسماء الانكشارية . وأبدت هذه العناصر غير الرومية ميلا لابتزاز المال من الاهلين ، وروعت سكان الريف في ولاية حلب الغنية ، حيث ذهبت فرقة منهم كل سنة لمساعدة جباة الضرائب (الملتزمين) في جمع الاموال ، او لممارسة ذلك بأنفسهم ، مما اضطر والي حلب ، في اواخر القرن السادس عشر ، الى طردهم بالقوة (١) .

وتميزت العلاقة بين طائفة الانكشارية في دمشق والسلطة

---

١ ـ انظر محمد الامين المحبي ، خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٨٦٩/١٢٨٤ (تصوير مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٦) ، جـ ٢ ، ١٢٩ ، جـ ٣ ، ١٥٦ ، ٢٩٩ ، ٤١٧ ـ ٤١٨ ، ٤٢٧ ـ ٤٢٨ ، جـ ٤ ، ٤٤٩ ـ ٤٥٠ ؛ محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، ٤ اجزاء ، بولاق ، ١٣٠١ (تصوير مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٦٦) ، جـ ١ ، ١٦٦ ، جـ ٢ ، ٦٣ ؛ كامل الغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ اجزاء ، حلب ١٩٢٢ ـ ١٩٢٦ ، جـ ٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٩ ؛ محمد راغب الطباخ ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ اجزاء ، حلب ، ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ ، جـ ٣ ، ٢١٩ .

العثمانية الممثلة بالوالي ، ولقبه الباشا ، بالقوة او بالضعف ، حسب موقع كل منهما . فحين كانت السلطة المركزية قوية ، كما في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ــ ١٦٤٠) ، بطش بزعماء الانكشارية المتمردين . وفي الفترة التي تلت عهد السلطان مراد الرابع اضطرت الدولة للاعتماد على زعماء انكشارية دمشق في قيادة قافلة الحج الشامي الى الحجاز ، وعينتهم بهذه المناسبة ، حكاما على واحد أو أكثر من صناجق ولاية الشام ، حيث احتفظوا بالقوات التي وضعت تحت تصرفهم لحماية الحج فيها ، وحيث جمعوا الضرائب (الميري) لتمويل القافلة . وقد تم ذلك نظرا لضعف او زوال الامراء المحليين من حكام صناجق ولاية الشام الذين عهد اليهم ، قبل ذلك ، بإمارة الحج . ولكن قضاء فخر الدين المعني الثاني ، امير جبل لبنان ، اثناء توسعه ، على هؤلاء الامراء او اضعافهم ، جعل الدولة ، بعد الفراغ الذي احدثه قتلها لفخر الدين في عام ١٦٣٥ ، تلجأ لتعيين الانكشارية امراء للحج لان المبادرة السياسية على ولاية الشام انتقلت الى القوى المتواجدة في دمشق . وملأ الانكشارية بعضا من هذا الفراغ .

وأدى ازدياد نفوذ الانكشارية وبروز زعماء مشهورين من بين صفوفهم ، مثل كيوان ، وعلي بن الارناؤوط وحسن التركماني (ذكر مثلا أن افراد أسرة حسن التركماني شكلوا مع اتباعهم حوالي ربع عدد الانكشارية في دمشق (١)) الى تأليب الدولة عليهم ، بعد ان ايدوا والي حلب ، ابازه حسن باشا ، في ثورته على الدولة في عام ١٦٥٦/١٠٦٧ ــ ١٦٥٧ ، فالتفتت اليهم ، بعد القضاء على ثورة حسن باشا ، المعروفة بالحسنية ، وبطشت بزعمائهم في عام ١٠٦٩ / ١٦٥٨ ــ ١٦٥٩(٢) . وابدت الدولة آنذاك ، على اكثر من صعيد ، نشاطا ملحوظا في عهد الوزراء

---

١ ــ المحبي ، ج ٣ ، ٤٣٧ ؛ المرادي ، ج ٢ ، ٦٣ .

٢ ــ المحبي ، ج ٢ ، ٧٨ ــ ٧٩ ، ٤١٨ ، ج ٤ ، ٣١١ ؛ محمد بن جمعة ، الباب الرابع والسبعون في ذكر الباشات والقضاة بدمشق المحمية (من) زمن مولانا السلطان سليم خان عليه الرحمة والرضوان ، مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 9785 we. II. 418 انظر الاوراق ، ١٤ ب ــ ١٥ ب ، وهذه النسخة اكمل من النسخة الاخرى في مجموعة برلين ، برقم 9785 Spr. 188 التي نشرها د. صلاح الدين المنجد في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ١٩٤٩ ؛ وانظر : الطباخ ، ج ٣ ، ٢٦٨–٢٧١ .

العظام من آل كوبريلي (١٦٥٦ ــ ١٦٧٦) . وارسلت فرقا انكشارية جديدة الى دمشق ، تميزت بالولاء للادارة المركزية ، وعرفت بالقابي قول (ابي عبيد الباب ، وهو باب السلطان) ، وتمركزت في القلعة وعلى السور وعند ابواب المدينة . واخرجت الطائفة الانكشارية اليرلية من هذه المراكز واوكل اليها نظريا حراسة منازل الحج . وهكذا اصبح في دمشق طائفتان انكشاريتان : الانكشارية اليرلية ، اي المحلية ، التي أصبح معظم أفرادها من السكان المحليين ، والانكشارية القابي قول ، التي بقي ولاؤها للادارة المركزية(١) . وكانت القابي قول ترفد، بين الفترة والاخرى ، بفرق جديدة لتدعيم ولائها للادارة المركزية. وزاد هذا الامر في عدائها للانكشارية المحلية التي كانت تهتم بمصالحها. ومما أزم العلاقة بين الطائفتين أن الباشا استخدم القابي قول للبطش بزعماء اليرلية ، كما ان محاولة بعض أفراد القابي قول دخول ميدان التجارة المحلية اكسبهم عداء اليرلية الذين احتكروا هذه التجارة . وعرفت اليرلية بدولة دمشق نظرا لتسلطها في المدينة ، فيما عرف القابي قول بدولة القلعة . وكان تاريخ دمشق بين عامي ١٦٦٠ و ١٨٢٦ (سنة الغاء الانكشارية) حافلا بالصراع بين الطائفتين .

ولو استعرضنا أسماء الطائفة الانكشارية التي تسرب اليها المحليون والاغراب بالتدريج الى ان سيطروا عليها ، لوجدنا ان هذا التسرب قد انعكس في اسماء زعماء الانكشارية . فحين مدت الطائفة الانكشارية في دمشق سيطرتها الى ريف حلب في أواخر القرن السادس عشر ، برز بين زعمائها آق يناق ، قره يناق ، خدا وردي ، وحمزة الكردي . وتمثل هذه الاسماء العناصر الغريبة ، من تركمانية وكردية ، التي سيطرت على طائفة الانكشارية . وحين بطش بهؤلاء الزعماء برز بعدهم أخرون مثل حسن التركماني ، علي بن الارناؤوط ، كيوان ، وعبد السلام المرعشي . وفتكت الدولة بهؤلاء الزعماء أيضا، وبرزت في أعقاب ذلك، بعد عام ١٦٦٠، عناصر محلية دمشقية في زعامة الانكشارية مثل صالح أغا ومحمد اغا من آل صدقة ، وسليمان أغا وموسى أغا من آل الترجمان ، وخليل آغا طالو .

---

(١) انظر تفاصيل اخرى عن ذلك في كتابنا :
The Province of Damascus, 1723 - 1783, Beirut, 2nd edition, 1970, pp. 26 - 35.

وبعد حوالي قرن من ذلك سيطر الدمشقيون بكثافة على الانكشاريةاليرلية التي أخذت تدافع عن مصالحهم ضد الولاة العثمانيين الظالمين وضد القوات الغريبة التي استخدمها هؤلاء لكبحهم . وذكر الاخباري الدمشقي حسن الشهير **بابن الصديق** ، في مؤلفه : **« غرايب البدايع وعجايب الوقايع»(١)**،الذي أرخ فيه لعام ١١٨٥/١٧٧١ ـ ١٧٧٢ ، حين غزت قوات علي بك المملوكي،حاكم مصر،دمشق ، الاسماء التالية بين أصحاب الرتب العليا في طائفة الانكشارية اليرلية : فارس العضم ، أحمد العضم ، حسين ومحمد القطيفاني ، اسماعيل البكري ، علي خير ، حسن الحواصلي ،علي الحيدري ، محمد وعلي اقبيق ، عمر القباني ، احمد شحادة ، محمد السقباوي ، اسماعيل البيطار ، محمد بكداش ، أمين شيخ السروجية ، علي وحسين وصالح الشاويش ، ياسين ومحمد الصواف ، حسن شبيب، ابراهيم عابدون ، مصطفى الدوجي ، بكر ميرو، عبد الله سكر ، ومصطفى السقباوي . وكان معظم هؤلاء من كبار تجار الحبوب في حي الميدان وحي سوق ساروجا ، معقلي الانكشارية اليرلية في دمشق . وكان أغاالانكشارية انذاك يوسف بن جبري .

ولم يحدث مثل هذا التطور ، على مستوى تسرب العناصر المحلية الى الطائفة الانكشارية والسيطرة عليها ثم ارسال طائفة انكشارية اخرى . في ولاية حلب اذ بقيت طائفتها الانكشارية ممتنعة على سيطرة العناصر المحلية ، نظرا لقرب حلب من مركز السلطنة ووقوعها بمتناول قواتها ، ومرور القوات العثمانية فيها في طريقها الى الجبهة الصفوية ، مما زاد في فرض النفوذ العثماني فيها . ولكن سكان حلب لم يعدموا منظمة محلية لابراز نفوذهم من خلالها ، وبالتالي للدفاع عن مصالحهم ، فقام الاشراف، بقيادة نقيب الاشراف ، بالدفاع عن المصالح المحلية ضد العثمانيين المثلين بالانكشارية . ومن هنا الاصطدامات الدامية بين الاشراف والانكشارية في حلب(٢) ، وأهمية الدور الذي لعبه أشراف حلب الى درجة حيَّرت معها الباحثين بقوتهم وكثرة أعدادهم . ولا يعني هذا أن الاشراف لم يكن لهم وجود أو نفوذ في دمشق ، ولكنهم لم يلعبوا دورا سياسيا وعسكريا بارزا

---

١ ـ مخطوط في مجموعة برلين ، برقم . 9832. We II. 417، انظر ظهر الغلاف الاول والورقة ١ ب .

٢ ـ انظر مثلا الموقعة المروعة عند جامع الاطروش في رمضان ١٢١٢ \ شباط ١٧٩٨ التي ذهب ضحيتها مئات من الاشراف ، الطباخ ، جـ ٣ ، ٣٧٠ ـ ٣٧٢

فيها ، كما فعل نظراؤهم في حلب ، لان سكان دمشق وجدوا في الطائفة الانكشارية اليرلية متنفسا لقوتهم . ودعم اشراف دمشق وشبان الحارات الانكشارية اليرلية في الدفاع عن المصالح المحلية التي كانت القاسم المشترك بينهم . وأشارت المصادر المحلية الى تجمع القوى هذا باسم ابناء دمشق .

واختلفت التقديرات حول عدد الانكشارية في الشام ، وقد ذكر ان عدد انكشارية دمشق ، حين ثار حاكمها جان بردي الغزالي على العثمانيين في عام ١٥٢٠ ، قد بلغ مائة وخمسين بما فيهم من فقهاء وصوفية(١) . وقدر عدد الانكشارية القابي قول ، حين ارسلوا الى دمشق في عام ١٠٦٩ / ١٦٥٨ ــ ١٦٥٩ ، بالفين(٢) في حين ذكر مصدر آخر انهم ثلاثمائة(٣).وفي عام ١١٨٤/١٧٧٠ ــ ١٧٧١ قدر عدد القابي قول بالفين(٤) وكان عدد اليرلية آنذاك الفين وسبعين بالاستناد الى قوائم اسمائهم التي دفعت الرواتب على اساسها(٥) . ولكن هذه القوائم لا تعتبر مقياسا صحيحا للعدد الفعلي،نظرا لان الرواتب كانت تصرف للاطفال والمسنين ، وحتى للمتوفين . وقدر انكشارية حلب في تلك الفترة بثلاثة الى أربعة الاف(٦) .

ب ــ **السباهية** : تصرف العثمانيون ، بعد فتحهم بلاد الشام ، باراضي الدولة (الاراضي الاميرية) التي آلت اليهم من السلطنة المملوكية، فأعطوا معظمها على شكل اقطاع بانواعه الثلاثة : الخاص ، ويقدر وارده بما يزيد على مائة الف اقجة (وحدة نقدية فضية) ، واعطي الى افراد الاسرة المالكة وكبار الموظفين أو الحق بمناصب الولاة وغيرها لينفق من وارده على أصحابها ، والزعامت ، ويزيد وارده عن عشرين الف اقجة ،

---

١ ــ محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، جزءان ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ ، جـ ٢ ، ١٢٤ .
٢ ــ ابن جمعة ، مخطوط برلين رقم (٩٧٨٥) ، الورقة ، ١٥ ب .
٣ ــ المحبي ، ج ٤ ، ٣١١ .
٤ ــ حسن بن الصديق ، الورقة ، ٢٨ ب .
٥ ــ المصدر السابق ، الورقة ، ١١٠ ب .
6. Archives Nationales (Paris), Affaires Etrangères, B' 94 : Alep, 16 avril 1777.

واعطي للضباط، والتيمار الذي قدر وارده بأقل من عشرين ألف أقجة ووزع على افراد الجيش من الفرسان السباهية ليكون معاشا لهم . وما زاد عن حاجة الفرسان من الواردات جندوا به الاتباع . وعرف مجموع افراد هذا الجيش الذي أعطي الاقطاع ، من نوعي زعامت وتيمار ، بالسباهية . وكان هؤلاء أقدم فرق الجيش العثماني . ولم يكن الاقطاع العسكري بالشيء الجديد اذ شاع أمره منذ عهد السلاجقة بغية ربط المقاتل بالارض ليدافع عنها اذ لم تكن له آنذاك من قضية ، عصبية أو دينية ، ليتعلق بها .

ويلاحظ من تفحص قوائم السباهية في بلاد الشام في القرن السادس عشر ان معظمهم كان من اصل كردي أو مملوكي . وعرف قائد السباهية بآلاي بك . ووجد الاي بك في كل صنجق (وحدة ادارية يرفع صاحبها الصنجق أي العلم أمامه) من صناجق الولاية . وجاء في مجموعة القوانين (قانون نامه) التي صدرت في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) ، التي قسمت بموجبها بلاد الشام ، ان عدد القوات السباهية في كل من ولايات الشام وحلب وطرابلس ، هو ٥٠٠ر٥ (١) وذكر الكاتب عيني علي العثماني ، وتنطبق الارقام التي اوردها على الربع الاخير من القرن السادس عشر ، ان عدد السباهية في الولايات الثلاث قد بلغ ٢٦٣ر٨(٢) ولو اضفنا الى هذا الرقم عدد السباهية في ولاية الرقة التي تبعت ، جغرافيا وتاريخيا ، بلاد الشام لاصبح عدد السباهية في بلاد الشام ٤٢٩ر١٠ من مجموع قدره ٥٣٥ر١٢٠ للامبراطورية بكاملها(٣) . وقد ذكر بول ريكو ، سكرتير السفير الانكليزي في استانبول ابان سلطنة محمد الرابع (١٦٤٨ ــ ١٦٨٧) ، ان عدد السباهية في ولايات الشام وحلب وطرابلس والرقة بلغ ٧٧٦ر٧(٤) وينطبق هذا على الفترة التي

---

1. Evliya Efendi (Chelebi), **Narrative of Travels**, Translated from Turkish by Joseph von Hammer - Purgstall, 2 vols., 1834, 1846, vol. I, pt. i; pp. 101 -102 .
2. Ayn-i Ali, **kavanin-i al-i Osman**, in M. Belin « Du Régime des fiefs militaires dans l'Islamisme », **Journal Asiatique**, XV (1870), pp. 273-278.
3. **Ibid.**
4. Ricaut (Rycaut), **Histoire de l'état présent de l'Empire Ottoman**, 2 vols., Cologne, 1676, vol. II, pp, 14 - 21.

سبقت عام ١٦٦٠ التي استحدثت فيها ولاية رابعة في بلاد الشام هـي ولاية صيدا .

وطبيعي ان عدد السباهية النظري لا ينطبق مع الواقع لان محظورهم الرئيسي تعلقهم بالارض الى درجة انهم تهربوا من الخدمة العسكرية . وقد سمحت الدولة لهم بدفع مال البدل لقاء الخدمة . وذكر م. جيراردان في مذكراته بتاريخ ١٦٨٧ ان عدد السباهية الفعلي لولايات دمشق وحلب وطرابلس بلغ ١٤٠٠(١) .

ونتج عن تقلص عدد السباهية ان استعادت الدولة الاقطاعات التي شغرت ، ولـم تعطها لسباهية جـدد . وانعكس ذلك على تقلص دائرة الدفترآميني التي كانت تعنى بشؤون الاقطاع، فضغطت وظائفها ونفقاتها.

وعهد الى السباهية بالمحافظة على القلاع في طريق الحج ، وذلك قبل أن يعهد الى الانكشارية اليرلية في عام ١٦٦٠ بهذه المهمة . ولم تكن لهم واجبات محددة بعد ذلك . واستعين بهم في وقت الازمات ، واستثير حماسهم الديني ، لا واجبهم العسكري ، في القتال ، مما يدل على تدني كفاءتهم وأهميتهم العسكرية . وأدى دفعهم البدل النقدي (٢) الى تضاؤل اهميتهم العسكرية .

ج ـ **القوات المرتزقة** : حـين كانت السلطة العثمانيـة قويـة في بـلاد الشـام ، كما في غـيرها . في القـرن السـادسـ عشـر ، لعبت القـوات النظاميـة دورا هامـا في تدعيـم هـذه السـلطة واخضـاع الشعوب لهـا . وعنـدما سـاءت الاوضـاع الاقتصادية في الدولـة العثمانيـة ، بـدءا من النصف الثانـي مـن القرن السـادسـ عشـر ، انخفضت قيمة العملة ، واثر ذلك على أصحاب المرتبات ، ومنهم الجنود ، فلجأوا الى الابتزاز وفرض الضرائب لتعويض القيمة المنهارة لمرتباتهم . وحين حاولت الدولة منعهم عن ذلك تمردوا عليها . وهكذا حدثت سلسلة

---

1. Belin, « Du Régime », J.A. XV (1870), pp. 290 - 291.

٢ ـ محمد خليل المرادي ، مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد ، مخطوط في المتحف البريطاني بلندن ، برقم Or. 4050 الاوراق ، ٤٢ أ ، ٤٢ ب .

من الثورات العسكرية في مختلف الولايات العربية بدءا من مناطق الاطراف في اليمن ، ومرورا بمصر وبلاد الشام والعراق ثم شمال افريقية وسرعان ماحذا الامراء المحليون حذو العساكر في التمرد والثورة على الادارة العثمانية ، وتمثل ذلك في بلاد الشام بثورتي علي باشا جانبلاط فيمنطقةكلس ــ حلب،في العقد الاول منالقرن السابع عشر ، وفخر الدين المعني الثاني في جبل لبنان في الثلث الاول من ذلك القرن . واتسعت قاعدة التحدي والثورة على العثمانيين في القرن الثامن عشر فبلغت القواعد الشعبية في الارياف والمدن . ونظرا لتفكك الجيش العثماني الرسمي ، من سباهية وانكشارية ، خولت الدولة الولاة استئجار قوات مرتزقة لمساعدتهم في تصريف شؤون الدولة . ولجأ الامراء المحليون بدورهم الى استئجار هذه القوات لدعم سلطتهم في وجه الدولة . ووجدت أنواع متعددة لهذه القوات المرتزقة على مر الزمن واهمها :

١ ــ **السكبان** : وكانوا أول من برز من هذه القوات في بلاد الشام ، وذلك في خدمة علي باشا جانبلاط ، الامير الكردي الذي ثار في منطقة كلس ــ حلب في عام ١٦٠٥ ، وحاصر دمشق في العام التالي ، ثم قضت عليه الدولة ، وفي خدمة حليفه الثائر أمير جبل لبنان فخر الدين المعني الثاني (١٥٩١ ــ ١٦٣٥) .

وكلمة سكبان فارسية الاصل تتألف من مقطعي سك وتعني الكلب ، وبان وتعني الحامي . والسكباني في الاصل « يحمل البندقية على ظهره ويقود الكلب في ساجوره ويمشي امام الامير أو الكبير ، حين يسير الى الصيد »(١) ثم اطلقت الكلمة على الذين يبيعون خدماتهم القتالية لقاء المال . وسكمان التركية تحريف لكلمة سكبان .

ولا يعرف المكان الاصلي للسكبان . ويقول فون هامر انهم خليط من الناس من كل البلدان(٢) ويستفاد من عبارات متعددة للاخباري ــ

---

١ ــ الحسن البوريني ، تراجم الاعيان من ابناء الزمان ، صدر منه جزءان ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٧ ، ١٩٦٣ ، انظر : جـ ٢ ، ٢٥٩ .ولم يتم تحقيق هذا المخطوط .

2. Joseph von Hammer - Purgstall, **Histoire de L'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'a nos jours,** 18 vols., trad. de l'allemand par J.J. Hellert, Paris, 1835 - 43, XI, 398 - 9, XII, 402.

المترجم الدمشقي الحسن البوريني (المتوفى عام ١٦١٥) ان السكبان في بلاد الشام من اصل رومي ، أي من المنطقة الواقعة ماوراء طوروس والفرات ، وانهم ظهروا في بلاد الشام لاول مرة في صنجق نابلس ، التابع لولاية الشام ، وذلك في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، في خدمة الوالي العثماني الذي استخدمهم لاخضاع سكان نابلس (١) . ثم شاع استخدامهم ، في الربع الاول من القرن السابع عشر ، من قبل الامراء الثائرين في بلاد الشام . وقد وصف السكبان بانهم متمرسون في فنون القتال (٢) .

واستفيد من السكبان في بلاد الشام في حماية القلاع وفي الخدمة كمشاة وفرسان (٢) . وسمح أحيانا للمتزوجين منهم بايواء أسرهم في القلاع . وحين استخدم أحد الامراء أعدادا جديدة منهم اشير الى هؤلاء بانهم الطائفة الجديدة ، بينما اشير الى القدامى منهم بالطائفة القديمة . وتألف السكبان من فرق متعددة يقود كلا منها قائد برتبة بلوك باشي . وكانت أعداد السكبان كبيرة اذا ماقورنت باعداد القوات المرتزقة الاخرى . وذكر أن فخر الدين المعني الثاني كان فيخدمته منهم ، بعد معركة عنجر في ١٦٢٣ التي اسر فيها والي دمشق مصطفى باشا ، حوالي ثلاثة آلاف (٤) . واستخدم منافسه ، يوسف باشا سيفا ، والي طرابلس، مثل هذا العدد (٥) . وذكر البوريني انه كان في خدمة علي باشا جانبلاط عشرة آلاف من السكبان (٦) .

ويبدو أنه لم يكن للسكبان قائد أعلى ، بل قادة فرق ، بلوكباشية ، اختير أحدهم أحيانا ليكون قائدا لهم برتبة سردار . واشير الى المرتبات التي تقاضوها بالعلائف (مفردها علوفة) ، ودفعت شهريا . وأعطي

---

١ ـ البوريني ، جـ ٢ ، ٢٥٩ .

٢ ـ المصدر السابق ، جـ ٢ ، ٢٨٤ .

٣ ـ أحمد الخالدي الصفدي ، تاريخ الامير فخر الدين ، تحقيق أسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، بيروت ، ١٩٣٦ ، ص ٣١ ـ ٣٢ ، ٥٢ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٩ ، ١٢٩، ١٤٨ .

٤ ـ الصفدي ، ١٥٢ .

٥ ـ البوريني ، جـ ٢ ، ٢٨٤ .

٦ ـ المصدر السابق ، جـ ٢ ، ٢٧١ .

السكبان ، بالاضافة الى ذلك ، اعطيات ، دعيت بخشيش ، وتجاوزت احيانا قيمة مرتبهم . وذكر ان من عادة كل فرقة من السكبان ان تجمع الغنائم على حدة ، ومن ثم تبيعها ، ويقتسم افرادها ثمنها (١) . واذا لم يسيطر مستأجر السكبان عليهم فسرعان ماينقلبون الى فوضويين يروعون السكان المحليين ، وخاصة سكان الريف (٢) .

٢ ـ اللاوند : استخدمت هذه التسمية في الاصل للبحارة ، وذلك تحريفا لكلمة « ليفانتينو » التي اطلقت من قبل البنادقة على الشرقيين (من المشرق اي الليفانت) الذين استخدموا في اسطولهم . واطلق العثمانيون على بحارتهم الاوائل تسمية لاوند (Levend) التي استعاروها من البنادقة وحرفوها بدورهم . وعندما تمرد هؤلاء البحارة من اللاوند ، وسرحوا ، واستبدلوا باخرين ، اطلقت الكلمة على المتمردين ، ثم عرف بها المرتزقة الذين باعوا خدماتهم (٣) .

وكان اللاوند من الفرسان بصورة رئيسية، وجندوا ، مثل السكبان، من بلاد الروم . و في القرن الثامن عشر اقترن اسم اللاوند في دمشق بالاكراد ، ومن هنا القوات التي عرفت آنذاك بلاوند الاكراد (٤) . وذكر اللاوند ، الى جانب السكبان ، في خدمة فخر الدين المعني الثاني .

وتراس اللاوند قائد عرف بالاغا ، واقاموا في دمشق في خان عرف بخان اللاوند نسبة لهم . وقامت الدولة العثمانية بعدة محاولات في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، للقضاء عليهم . وتمكن من أفلت منهم من الالتحاق بخدمة محمد باشا العظم والي دمشق (١٧٧١ ـ ١٧٨٣) واحمد باشا الجزار والي صيدا (١٧٨٥ ـ ١٨٠٤) .

---

١ ـ الصفدي ، ١٥٢ .

٢ ـ سجلات محاكم حلب الشرعية ، سجل رقم ١ ، ص ١٩ ، الوثيقة ذات التاريخ ١٤ رجب ١٠٣٣/ (٢ آيار ١٦٢٥) ، سجل رقم ٢٣ ، ص ٢٨٥ ، الوثيقة ذات التاريخ ٢٩ ربيع الاول ١٠٩٩ / (٢ شباط ١٦٨٨) .

3. - H. A. R. Gibb and H. Bowen, **Islamic Society and the west**, Vol. 1, 2 parts. London, 1950, 1957, L. i. 98,99.

٤ ـ أحمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ ـ ١١٧٥ هـ ، تحقيق د . احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٢ ، ١٩٨ .

واستخدم ولاة دمشق اللاوند في حملاتهم العسكرية . كما ان اللاوند كثيرا ما اشتبكوا مع قوات منافسة لهم مثل الدالاتية والمغاربة واليرلية(١) .

٣ ــ **الدالاتية** : مفردها دالاتي ، وهي مشتقة من الكلمة التركية (Deli) وتعني الاهوج أو الطائش . وعرفت هذه القوات بالدالاتية بسبب اندفاعها وطيشها . واستخدمت أول الامر من قبل والي روميلية في مطلع القرن العاشر الهجري أي السادس عشر الميلادي . ودب الفساد في صفوف الدالاتية في القرن الثامن عشر ، وجندوا انذاك من اتراك الاناضول والكرواتيين والبوسنيين والعرب . وعرف قائدهم بلقب دلي باشي . وكان لهم في دمشق ، على غرار اللاوند والمغاربة ، خان خاص بهم عرف بخان الدالاتية .

واعتمد ولاة الشام على الدالاتية في حملاتهم وفي حماية قافلة الحج، واستخدموهم كذلك في كبح اليرلية . ولم يؤمن جانب الدالاتية باستمرار، وكثيرا ماروعوا الاهلين ، وتسببوا في الفساد الاخلاقي في دمشق (٢) .

٤ ــ **التفنكجية** : تعني هذه الكلمة حملة (التفنك) أي البارودة ، ومعظمهم من المشاة . وقد اشتهروا في بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، وكان يقودهم التفنكجي باشي . ولا تعرف بالتأكيد المناطق التي جند منها التفنكجية . ويلاحظ أن التفنكجي باشي في عهد والي دمشق أسعد باشا العظم (١٧٤٣ ــ ١٧٥٧) كان بغداديا(٣) ، كما أن التفنكجية انحازوا الى جانب البغدادية والموصلية في صراعهم مع الاكراد في دمشق(٤) ، مما يوحي باصل مشترك بين الطرفين .

وقد عهد الى التفنكجية باقامة الامن في دمشق ، كما انهم كلفوا في أوقات الازمات بمهام عسكرية خارج دمشق . وكانوا ، على وجه العموم، أكثر انضباطا ، وأقل تمردا ، من القوات العسكرية الاخرى ، ولكنهم كانوا أقل اهمية عسكرية منها .

---

١ ــ المصدر السابق ؛ ابن الصديق ، الورقة ، ٤٧ آ .

٢ ــ البديري ، ص ٨٧ ، ٩٦ ، ١٠٦ ؛ ابن الصديق ، الاوراق ، ٤١ آ ، ٤٢ ب .

٣ ــ ميخائيل بريك ، تاريخ الشام ١٧٢٠ ــ ١٧٨٢ ، تحقيق قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٠ ، ص ١٤ ــ ١٥ .

٤ ــ البديري ، ١٤٨ .

٥ ــ **المغاربة** : كانت هذه القوات من المشاة بصورة عامة ، وقلة منها من الفرسان . وقد جندوا ، بوجه عام،من الجزائر وتونس . وتواجد المغاربة في بلاد الشام قبل الحكم العثماني بوقت طويل ، ويذكر أن زاوية للمغاربة بنيت في دمشق في عام ١٣٩٩/٨٠٢ ــ ١٤٠٠ ، مما يدل على أن جالية مغربية وجدت فيها ، كما وجد مثل ذلك في القدس وطرابلس . وذكر الشيخ عبد الغني النابلسي زيارته في القدس لجامع المغاربة ، وذلك في ربيع الاول ١١٠٥\تشرين الاول ــ تشرين الثاني ١٦٩٣ (١) .

ومما تجدر ملاحظته أنه وجد سبع طوائف من المغاربة في دمشق في القرن الثامن عشر ، رأس كل طائفة منها شيخ مسؤول أمام شيخ المشايخ ، وهو رئيس المغاربة الاعلى في دمشق . وأسماء هذه الطوائف هي : الفاسية ، الجزائرية ، السوسية ، التونسية ، الطرابلسية ، الدراوية والمراكشية . وعمل المغاربة المقيمون في بلاد الشام حراسا في الخانات والحارات والاسواق ، ومراقبين في البساتين والحقول المجاورة. وكان شيوخ الطوائف وعلىرأسهم شيخ المشايخ ، مسؤولين أمام السلطات العثمانية عن سلوك أفراد طوائفهم . والعسكريون من المغاربة خضعوا لآغا المغاربة ، واذا ماتركوا الخدمة العسكرية أصبحوا في عهدة شيخ الطائفة التي ينتمون اليها (٢) .

ومع أن المغاربة أقاموا في بلاد الشام بغية المجاورة أو طلب العلم أو التجارة ، فان تواجدهم كطائفة عسكرية لها شأنها ، ولعبت دورا هاما في بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، يثير الاهتمام ويستلزم التفسير . فمن الصحيح ان ازدياد اعتماد الولاة في ذلك القرن على القوات المرتزقة ادى الى ازدياد أعداد هذه القوات ، ولكن التدفق المستمر للمغاربة الى المنطقة آنذاك لا يوازيه تدفق أية قوات أخرى ، والسؤال لماذا تدفق المغاربة الى بلاد الشام وكيف استخدموا فيها .

---

١ ــ عبد الغني النابلسي ، كتاب الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، مخطوط في مكتبة جامعة كيمبردج ، برقم Q q 300 ، انظر الورقة ، ٩٤ آ .

٢ ــ انظر حول هذه الطوائف وتنظيماتها : سجلات محاكم دمشق الشرعية ، سجل ٥٩ ، ص٢٢٠ ، الوثيقة ذات التاريخ ١٠ رمضان ١١٤١ \ (٩ نيسان ١٧٢٩) . وانظر كذلك : محمد بن طولون ، أعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الكبرى ، تحقيق محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ص ١٠٢ هامش ١ .

ان تدفق المغاربة الى بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، عن طريق صيدا بصورة رئيسية ، يدل على أنهم اتوها عن طريق البحر . ويتفق هذا مع اشتهار المغاربة كغزاة بحر . وليس هناك مايدل علـى أن جميع قوات المغاربة كانت من أصول مغربية . وكثيرا ماضمت أسرى حرب من جنسيات مختلفة ، ولكن عناصرها الرئيسية وقياداتها كانت مغربية . ويفسر توافر هـذه القوات الاضافيـة في المغرب ، وخاصة الجزائـر ، باسلوب التجنيد الذي اتبعه داي الجزائر اذ كان يرسل سفنه كل خمس أو ست سنوات الى المشرق ، وخاصة الى ازمير وقرمان على الساحل الغربي للاناضول ، لتجنيد القوات منها . ولم يسمح في الجزائر لابنـاء هؤلاء المجنديـن (الذين عرفوا بالكولوغلـي) بالانتساب للجيش الا في حالات خاصة . وهكذا وجد عدد من أبناء المجندين العاطلين الذين تطلعوا خارج الحدود الى فرص العمل . ونظرا لاصولهم المشرقية والحاجة الى خدماتهم في بلاد الشام ، حيث انعدم الامن في القرن الثامن عشر ، فقـد توجهوا الى تلك البلاد ليبيعوا خدماتهم ، كما توجهوا الـى مصر حيث استخدمهم علي بك المملوكي في جيشه(١) .

وقد وجد للجنود المغاربة خان خاص بهم في دمشـق عرف بخان المغاربة . وأشركهم الوالي في حملاته وفي حماية قافلـة الحج . وكثيرا ما اصطدمت قوات المغاربة في دمشق باللاوند والقابي قول وأحيانا بالوالي نفسه .

ولم يقتصر استخدام قوات المغاربة على ولاة دمشق،بل استخدمهم أمير جبل لبنان وظاهر العمر . ووجد المغاربة ، في أكثر من مناسبة في جبهتين متقاتلتين ، كما حدث مثلا ، حين هاجمت قوات علي بك دمشق في حزيران ١٧٧١ وكان في صفوفها مغاربة ، كما وجـد مغاربـة ضمن القوات المدافعة عن دمشق .

---

١ ــ انظر حول أوضاع التجنيد في الجزائر :

Venture de Paradis, **Alger au XVIIIe Siècle,** ed. E. Fagnan, Alger, 1889, pp. 57 - 96.

وانظر أيضا كتابنا : **The Province of Damascus,** pp. 39 - 41

د ـ القوات الرديفة المحلية : تشتمل هذه القوات ، بصورة رئيسية ، على المجندين من القرى والمدن والقبائل البدوية . ومما تجدر ملاحظته أن الزعماء المحليين ، مثل المعنيين والشهابيين وآل سيفا وآل عساف وآل الحرفوش وآل علم الدين والمتاولة والزيادنه وغيرهم ، اعتمدوا ، بالدرجة الاولى ، على دعم أسرهم ، وأبناء مذهبهم ، ومؤيديهم من الحزبين القيسي أو اليمني . ولكن مثل هذا التأييد لم يقو على مجابهة الجيوش العثمانية المنتظمة ، لان صاحب الاسرة ، بعد بضعة أيام من القتال مع الامير ، تنتهي فيها مؤنته ، كان يهتم بالعودة الى اسرته وأرضه . ولذلك عمد الزعماء المحليون الذين استمروا في الحكم فترات طويلة نسبيا الى استغلال موارد مناطقهم واستئجار القوات المرتزقة لدعم سلطتهم .

واشير الى قوات الدعم المحلية باسم العشير . واذا ماساهمت منطقة ما بقواتها الى جانب أمير ما عرفت هذه القوات باسم المنطقة التي خرجت منها ، مثل الشوافنة ، نسبة الى الشوف(١) . ولم تكن مثل هذه القوات لتتلقى مرتبات من الامير الذي دعمته ، واقتصر عطاؤه لها على اعطيات مالية أو عينية لتكريمها ، وكانت تدعمه لاسباب اسروية أو حزبية أو غيرها .

وقد عمد الولاة العثمانيون الى تجنيد القوات من بين الفلاحين ، وطالبوا سكان القرى بتقديم المؤونة والمرتبات لهم . وذكر ان والي دمشق في صيف عام ١٧٤٣ ، بعد انقضاء موسم الحصاد كما يبدو ، أمر القرى المجاورة لدمشق بتقديم عشرة أنفار كل منها ، ليساهموا في اقامة النظام والامن في المنطقة(٢) . وبعد ثلاثة أعوام ، وفي الصيف ايضا ، أمر والي دمشق القرى حتى حدود معرة النعمان ، بتقديم خمسة عشر نفرا كل منها ، والتكفل بتموينهم ، لمساعدته في حملته على جبل لبنان(٣) .

---

١ ـ الصفدي : ٣٥ ، ٣٨ ، ٥٣ .

٢ ـ البديري ، ٤٢ .

٣ ـ المصدر السابق ، ٩٧ .

وفي الحالات الطارئة استنفر سكان المدن ، وحملوا السلاح للدفاع عن مدينتهم ، أو عن قافلة الحج ، اذا ماتعرضت الى عدوان (١) . وكثيرا مالعب شباب الاحياء والحرفيون ، وهم من أصحاب البأس ، دورا هاما في الدفاع عن بلدهم . وكانوا يحملون السلاح ، بمعرفة الدولة ، لانها كانت مستضعفة في القرن الثامن عشر وغير قادرة على حماية السكان المحليين .

ولعب البدو ، وكان يشار اليهم بتسميات عرب وأعراب وعربان ، دورا هاما في بلاد الشام في العهد العثماني . فقد سيطروا على المنطقة الواقعة شرقي خط يمتد من حلب الى العقبة . وتسربت القبائل الصغيرة الى داخل المناطق الزراعية ، فمنها ماستقر ومنها ماهدد الاستقرار والزراعة ، أما القبائل الكبرى فكان مجالها بادية الشام . وقد سيطرت مجموعةقبائل الموالي في البادية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ثم حلت مكانها ، منذ مطلع القرن الثامن عشر ، مجموعة قبائل العنزة التي قدمت من الجزيرة العربية ، بسبب زيادة السكان فيها، وقلة الموارد الاقتصادية ، وضعف قبائل الموالي مما شجع العنزة على مهاجمتهم . وكان للحركات الموسمية للقبائل دور هام في ممارسة الضغط على السكان الريفيين وعلى السلطات العثمانية . ففي الربيع ، حين تنتشر القبائل من وسط البادية الى الاطراف ، تبعا لانتشار الكلأ ، كانت تضغط على القبائل الصغيرة المتواجدة على أطراف البادية ، فتقوم هذهبالتسرب الى الداخل ، مما يضر بالزراعة ويؤدي الى اصطدامها بالمزارعين .

وقلما تحالف البدو مع السلطات العثمانية ، وكثيرا ما ثاروا على هذه السلطات أو دعموا الثائرين عليها . ولجأ العثمانيون ، في محاولة منهم لتطبيع البدو ، الى الاعتراف بزعامة كبيرهم شيخا أو أميرا للبدو في المنطقة التي يسيطر عليها ، واسبغت الدولة عليه الاعطيات والتكريم لتنفيذ سياستها بواسطته . وكثيرا ماتحكم البدو بخطوط المواصلات ، وخاصة منها طريق الحج والطرق التجارية التي تربط بلاد الشامبالعراق ومصر ، ولهذا وجب على الدولة ان تتعامل معهم بكل حذر .

وكثيرا ماعمد الامراء المحليون الى طلب دعم البدو لسلطتهم ، كما فعل ، مثلا ، ظاهر العمر ، الذي سيطر في منطقة صفد ـ طبرية ، في

---

١ ـ المصدر السابق ، ٢٠٥ ـ ٢٠٧ ؛ ابن الصديق ، الاوراق ، ٤٦ ب ـ ٤٧ آ .

الربع الاول من القرن الثامن عشر ، ثم مد سلطته على عكا وحيفا ، ومعظم فلسطين ، وأنشأ امارة عربية ، خضعت اسميا للعثمانيين ، واستمرت حتى مقتله في عام ١٧٧٥ . وقد اعتمد على قبائل بني صخر وبني صقر والسردية وغيرها ، وتزاوج معها لتدعيم حكمه .

ومن القوات الاخرى التي لعبت دورا هاما في بلاد الشام المماليك الذين بلغ استخدامهم الذروة في عهد والي صيدا أحمد باشا الجزار. وكان الجزار مملوكا في الاصل ، واصطنع جيشا من المماليك ليدعم بهم سلطته . وبعد وفاته في ١٨٠٤ خلفه أحد مماليكه سليمان باشا ، في حكم ولاية صيدا . ولا علاقة لمماليك الجزار بالمماليك الذين اشتهروا آنذاك في مصر أو في بغداد ، سوى بالاسم وطرق التجنيد والتدريب . وكانت كل كتلة منهم مستقلة عن الاخرى . ولكن مما يلفت الانتباه سيطرة هؤلاء المماليك الاغراب ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، في كل من مصر وبلاد الشام والعراق ، مما يدل على ضعف السلطات العثمانية ، الامر الذي أتاح لهؤلاء المغامرين الاغراب من المماليك التحكم في هذه الاقطار(١) .

٢ ـ الامكانات العسكرية للقوات العثمانية في بلاد الشام :

لاتوجد معلومات دقيقة حول مستوى تدريب هذه القوات . ونظرا لكون انضباطها وفاعليتها القتالية متدنيين ، فمن الممكن القول إن تدريبها ، كان هو الاخر ، ضعيفا في أحسن الحالات . يضاف الى ذلك أن عددا من غير المؤهلين ، من المسنين والاطفال ، انتسبوا الى طائفة الانكشارية للتمتع بالمرتب (٢) . كما أن القلاع التي يفترض أن يتم التدريب فيها لم تكن مراكز عسكرية بالمعنى الصحيح ، اذ أصبحت مراكز تجارية للعسكريين والمدنيين على حد سواء . ومع ذلك ، أقيمت الاستعراضات العسكرية قبيل التوجه الى الحملات ، كما حدث ، مثلا ، في ساحة

---

١ ـ للحصول على معلومات أكثر حول المماليك في هذه الاقطار ، انظر كتابينا : بلاد الشام ومصر ، ١٥١٦ ـ ١٧٩٨ ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٦٨ ، والعرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ، دمشق ، ١٩٧٤ .

٢ ـ انظر ، مثلا ، ابن الصديق ، الاوراق ، ٢٥ ب ، ١١٠ ب .

المرجة بدمشق ،أو بمناسبة سفر قافلة الحج .

وتوزعت القوات الانكشارية على فرق أطلق على احداها بالتركيــة « اورطه » وأحيانا « اوضـه » ، اي غرفة ، نظرا لاقامة الاورطة في غرفة ، أي مهجع . وبسبب الفوضى التي أصبحت عليها الاورطة في أواخر عهد الانكشارية ، فقــد أطلقت لفظة الاورطــة على مجموعــة من الاشــرار العابثين بالنظام . وانتظم السباهية الفرسان في فرقة اطلق عليها الآي ، وترأسها الآلاي بك ، في حين عرف قائد الانكشارية بالاغا .

وانتظم الجنود وراء حامل العلم ، أي البيرق ، وعرف هــذا تبعا لذلك بالبيرقدار ، واشير الى جماعته اختصارا بالبيرق . واختلف عدد القوات التي تألف منها البيرق ، من مكان الى آخر ، ومن زمن السلم الى زمن الحرب . وذكر ان عدد البيرق في دمشق في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، كان حوالي خمسين شخصاً (١) ، في حين ذكر ان عدده ، في النصف الثاني منه ، بلغ عشرة انفار (٢) .

واستخدم الجنود ، أثناء الحملات ، الطبول والابواق ، كما هتفوا بالشعارات الدينية المناسبة ، وباســم السلطان أو الامــير ، لتحريض الفعالية القتالية واستثارة النخوة لدى الافراد .

وأدى عــدم تعرض بلاد الشام الى عدوان خارجي ، بعــد احتلال العثمانيين لها ، الــى تقاعس القوات العثمانية فيها . كما أن تســرب السكان المحليين الى الطائفة الانكشارية،التي عرفت باليرلية ، تبعا لذلك، جعل هذه القوات تدافع عن مصالحها المحلية بأكثر مما تدافع عن مصالح الدولة . ولهذا لم تكن للانكشارية الدمشقية ، مثلا ، رغبة بقتال فخر الدين المعني الثاني الذي ثار على الدولة . ونتج عن عدم تقيد الانكشارية اليرلية بالاوامر العثمانية الى ظهور فئة من بينهم ، تمردت حتى علــى

---

١ ـ محمد بن كنان ، الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر والف ومية ، جزءان مخطوطان ، مجموعة برلين ، الارقام : 9479. we. II. 1114, 9480, we. II. 1115 انظر : ج ١ ، الورقة ، ٧٢ ب .

2 - C. F. Chasseboeuf, Comte de volney, **Voyage en Egypte et en Syrie**, ed. J. Gaulmier, Paris, 1959, p. 235.

رؤسائها ، وعرفت بالزرب أو الزرباوات ، كما أشار اليهم أحمد البديري الحلاق . والتسمية تركية ذات أصل يوناني (zorba) ، تعني الفوضوي .

ولم تكن القوات المرتزقة باحسن تنظيما ، أو طاعة ، أو فعالية عسكرية من القوات الاخرى ، بل مجرد أرقام للاخافة أكثر منها للنصر . وكان همها الرئيسي الحصول على أجورها وما تتوقعه من غنائم . وحين هاجمت قوات علي بك المملوكي ، بقيادة محمد بك أبي الذهب ، دمشق، واستولت عليها في ٨ حزيران ١٧٧١ ، لمدة عشرة أيام ، اخرجت القوات المرتزقة ، التي استؤجرت للدفاع عنها ، الى ساحة المعركة بالعصا ، وسرعان ماأرتدت لتنهب أحياء دمشق(١) .

ولم تكن هذه القوات الوحيدة التي تهمها الغنائم . فقد عمد بعض ولاة دمشق الى توقيت حملاتهم على المتمردين في الريف التابع لهم أثناء فترة الحصاد ، في محاولة مدروسة للاستيلاء على الغلال وبيعها لحسابهم وليس لغرض استراتيجي صرف في تدمير موارد العدو(٢) .

ولم يكن تنوع القوات العثمانية مصدر قوة لها ، ولم تتنافس فيما بينها بشكل بناء ، أو تتبارى في اثبات قدرتها . وقد أوجد هذا التنوع منافسة مميتة بين الفئات العسكرية الى درجة أن الاختلاف والاقتتال كثيرا ما وقعا بين هذه الفئات أثناء خروجها في الحملات ، مما عطل فعاليتها (٣) . ولم تكن فكرة الوطن والوطنية قد ظهرت بعد ، اذ أن هذه المفاهيم قد شاعت في القرن التاسع عشر . كما أن فكرة الجهاد لم تكن واردة هي الاخرى نظرا لان أعداء الدولة ، من ثائرين ومتمردين ، كانوا هم أيضا مسلمين،وأكثر ماوصم به أعداء الدولة أنهم خوارج . واستحثت السلطات العثمانية الجنود والشعب للدفاع عنها باسم الطاعة لله ورسوله والسلطان العثماني،وأفلحت هذه الدعوى في حث السكان على نجدة قافلة

---

١ – انظر تفاصيل ذلك في مخطوط : حسن الشهير بابن الصديق ، غرايب البدايع وعجايب الوقايع .

٢ – انظر مثال ذلك البديري ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ؛ بريك ،٤٥ ، ٤٩ .

٣ – انظر نماذج من ذلك في ابن الصديق ، الورقة ، ١٧ ب ، ٤٣ ب .

الحج حين تعرضها للمخاطر . وغالبا مانشر محمل الحج لينضوي المتطوعون تحته لانقاذ القافلة . ولكن طاعة الشعب لم يسهل الحصول عليها لشن الحملات العسكرية ، وحين تعرض افراد الشعب للقتل . ونلاحظ أن الدولة ، في فترة القوة ، في القرن السادس عشر ، كانت تأمر فتطاع ، ثم قامت ثورات العساكر والامراء ضدها في القرن السابع عشر ؛ وانتشرت الثورات في القواعد الشعبية في القرن التالي . ولم تعد الدولة العثمانية ، بفساد ادارتها ، وولاتها ، وجيشها ، تستقطب ولاء السكان المحليين ، فعمد هؤلاء الى الانتماء لمنظماتهم الشعبية ، كالنقابات الحرفية وتنظيمات شباب الاحياء ، ونقابات الاشراف ، وغيرها للدفاع عن مصالح الشعب ضد الظلم والابتزاز الذي مارسة الموظفون العثمانيون .

٣ ـ اسلحة القوات العثمانية في بلاد الشام :

استخدم تعبير « ذخيرة » ، في بلاد الشام للدلالة على مؤونة الجيش، من قمح وشعير وبقسماط (ألواح من الكعك الجاف) وغيره . واستخدمت آنذاك الكلمة التركية « جبخانة » للدلالة على السلاح ومستلزماته .وأشير الى البندقية (وهي مشتقة من كلمة بندق الذي شابهه الرصاص باستدارته) بالكلمة التركية تفنك ، وعرف حاملها بالتفنكجي . واستخدمت ، أحيانا ، كلمة بارودة ، أو بارود ، للدلالة على البندقية . وعرف حامل البندقية بالبواردي أو باختصار ، بارود. أما البارودي فهو صانع البارود والبندقية وبائعهما . واستخدم تعبير (بندقجي) لصانع البندق ، والبندقية ، وبائعهما . واشير الى قنبلة المدفع ، وهي اما من الحجر او الحديد ، باسم قنبرة او قلة (جمعها قنابر وقلل) ، وعرف صانعها بالهواويني ، لاستخدامه الهاون في صناعتها . وكان الغرض منها هدم ما تقع عليه .

وتنوعت الاسلحة التي استخدمتها القوات العثمانية في بلاد الشام ، وتراوحت من الخنجر الى مدفع الميدان الذي جرته الحيوانات. واشتملت على الفأس ، والبلطة ، والدبوس ، بالاضافة الى السيوف ، على أنواعها ، والرماح . ومن الاسلحة النارية الطبنجة (واستخدم هذا التعبير التركي بالعربية ايضا) ، والبارود الطويل ، وهو بندقية ذات نصل طويل ، استخدمت ، كما يبدو ، في بلاد الشام ، في النصف الثاني

من القرن الثامن عشر ، من قبل التفنكجية . ولم تفد التروس في صد الاسلحة النارية ، لان هذه كانت تثقبها (١) . ومع ان البدو استخدموا الاسلحة النارية ، فان سلاحهم التقليدي ، المقلاع ، كان شديد الفعالية لحذقهم في استعماله . وكانوا عادة يربطونه على خصورهم .

وفي معارك المواجهة والالتحام تخلى العساكر ، في العادة ، عن اسلحتهم النارية ، لعدم توفر الوقت لحشوها واشعال فتيلها ، واستخدموا السيوف . والسيف الجيد كان ذا قيمة عالية ، وقدر ثمنه بضعف قيمة البندقية(٢) . ولا غرابة ان الدولة كانت تقدمه لكبار القادة حين تكريمهم ، على العادة القديمة . ويدل هذا على احترام السيف لدى العرب والمسلمين،على حد سواء،منذ ان كان الفرسان عماد الجيش.ورغم ان العثمانيين بنوا امجادهم العسكرية وكسبوا فتوحاتهم بحسن استخدامهم للسلاح الناري ، الذي الم يجارهم اعداؤهم ، من صفويين ومماليك ، في استخدامه ، بقي السيف يتمتع بتكريم كبير لديهم(٣) .

وكان على الفرسان ، الذين استخدموا السلاح الناري ، ان يترجلوا

---

١ ـ كامل الغزي ، جـ ٣ ، ٢٨٣ ؛ ابن الصديق ، الورقة ، ١٠ أ .

٢ ـ سجلات محاكم دمشق الشرعية ، سجل ٥٧ ، ص ٧ ، الوثيقة ذات التاريخ ١ ذي الحجة ١١٣٥ / (٢ ايلول ، ١٧٢٣) ، ص ٨ ، الوثيقة ذات التاريخ ١٦ ذي القعدة ١١٣٥ / (١٨ آب ١٧٢٣) .

٣ ـ نذكر بهذه المناسبة المحادثة التي جرت بين الامير المملوكي كرتباي والسلطان سليم الاول العثماني ، عقب احتلال العثمانيين مصر ، ومثول كرتباي الاسير امام السلطان سليم ، قال كرتباي لسليم : « انت اتيت لك عساكر من اطراف الدنيا من نصارى ومن روم وغيرها وجئت بهذه الحيلة التي تحيلت بها الافرنج لما ان عجزوا عن ملاقاة عساكر الاسلام وهي هذه البندقية التي لو رمت بها امراة لقتلت بها كذا كذا انسانا ونحن لو اخترنا الرمي بها ما سبقتنا اليه ولكن نحن قوم لانترك سنة نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) وهي الجهاد في سبيل الله بالسيف » ، انظر : احمد بن زنبل (الرمال) ، (تاريخ مصر) ، مخطوط في المكتبة الوطنية في ميونيخ ، برقم Cod. Arab. 411 ، الورقة ، ٤٥ آ .

ليحسنوا استخدامه (١) . وفي أواخر الخمسينات من القرن الثامن عشر ، ادخل عبد الله باشا الجتهجي نوعا خفيفا من المدافع ، عرف بالشواهي ، حمل على ظهر الجمال ، واستخدمه عنصر راكب واحد . ومن مميزات هذا السلاح ادارته بسهولة الى الجانبين ، مما اعطى مرونة في التسديد (٢) .

واستخدمت المدافع ، التي ترمي عادة القنابر الحجرية او المعدنية، في تهديم اسوار المدن والقلاع ، او في نسف المتاريس في الشوارع ، او في قذف تجمعات العدو . واثناء حصار المدن كانت تدعم الاسوار من الداخل بالخشب والحجارة والتراب . ومع ذلك ، لم تقو هذه على الصمود في وجه المدافع الجيدة (٣) .

ولم تكن جميع المدافع في حالة جيدة ، كما انها لم تستخدم جميعها بمهارة . ومثال ذلك المدفع الذي اخذ من قلعة صيدا واستخدمه العثمانيون في حصار قلعة ارنون ، الخاضعة لفخر الدين المعني الثاني، وكان « كبره خارج عن الفهم وفي حال وصوله ضربوا به مرتين وانفزر وتعطل أمرهم حيث انكسر » (٤) . وتبدو قلة المهارة في استخدام المدافع في محاولة محمد بك ابي الذهب ، قائد القوات المملوكية ، اخضاع قلعة دمشق ، التي بقيت موالية للعثمانيين ، بعد احتلال المماليك المدينة في ٨ حزيران ١٧٧١ . فمن تسع وعشرين قنبرة اطلقتها مدافعه على القلعة اصابتها خمس قنابر فقط اصابات مباشرة . ويصف ابن الصديق ذلك بقوله « ضرب قنبرة على القلعة علة الى الجو ووقعت بيت الترجمان فضرب الثانية فوقعة في القباقبية وضرب الثالثة وقعة في حارة اليهود فضرب الرابعة فوقعة بيت القطب ... (ثم عاد) .. فأمر الطوبجي ان يضرب القنابر بالليل فضرب خمسة وعشرين قنبرة

---

١ ـ الصفدي ، ١٨٧ ، انظر وصفا للبندقية ، ووزنها ، وحشوها ، وطريقة التسديد بها في أواخر الخمسينات من القرن السابع عشر في كتاب :
Jean de Thévenot Relation d'un voyage au Levant, 3 vols., Paris 1664 Vol. I, p. 138.

٢ ـ البديري ، ص ، ٢١٨ ، ابن جمعة ، تحقيق المنجد ، ٨٢ .

٣ ـ ابن الصديق ، الورقة ، ٤٦ آ .

٤ ـ الصفدي ، ١٦٠ ـ ١٦١ .

منها ثلاثة في القلعة وستة وقعوا في الخندق وثنتين وقعوا في الاموي وواحدة بيت مروان بيك وواحدة بيت السيد احمد ابن زميته وواحدة وقعت في حنك البوابة شيت باب البريد وواحدة وقعت قبال بيت ابن القباني في طريق السلطاني » (١) . وذكر ايضا أن عثمان باشا الكرجي والي دمشق ، الذي كان في يافا عند غزو قوات علي بك المملوكية لبلاد الشام في ١٧٧١ ، تراجع عنها باتجاه دمشق ، ورمى بمدفعين كانا بصحبته في بئر لان ثقلهما اعاق سرعة تراجعه (٢) . وعندما لم تكن هناك من حاجة لاستخدام المدافع فانها وضعت في القلعة . ولم يقتصر استخدام المدافع على القتال اذ كانت تطلق ، بدون قنابر ، في المناسبات ، كاعلان صوم رمضان ، او للاحتفال بنصر ، او لاعلان قدوم زائر كبير او انباء سارة . ويشار الى النار هذه بأنها « شنك » ، وهي محورة عن التركية « شنليك » .

ولم يسمح للقوات النظامية بحمل سلاحها الا في اوقات الحرب . أما القوات المرتزقة فحملت سلاحها معها ، لانها كانت تبيع خدماتها . وبازدياد فوضى القوات وعدم الامن ، في القرن الثامن عشر ، حملت معظم القوات سلاحها معها . وبلغ الامر ، في ذلك القرن ، ان الحرفيين حملوا السلاح(٣) ، للدفاع عن أنفسهم ازاء انعدام الامن . وتسابق الناس آنذاك لاقتناء السلاح وحمله .

وكانت شحنات الاسلحة والذخيرة تصل بلاد الشام من اوروبا ، وخاصة ايطاليا ، او من استانبول ، بطريق البحر ، وذلك اما للاستعمال المحلي ، او لنقلها الى الجبهة مع بلاد فارس . كما انه جرى تصنيع بعض الاسلحة محليا . ومن الاسلحة المصنعة محليا السيوف وغيرها من السلاح الابيض ، ومستلزمات الخيول ، من نعال ومسامير وغيرها ، وكذلك البنادق . واستخرج الحديد من امكنة متعددة في بلاد الشام ، وخاصة في جبل لبنان (في البترون ، وكسروان ، والمتن ، وعكار) ، وكذلك في حوران ، قرب عجلون ، وفي جبل الاقرع ، وضواحي حلب . وكانت صناعة الحديد في لبنان ناشطة جدا في القرن التاسع عشر ،

---

١ ـ ابن الصديق ، الاوراق ، ٥٨ آ ـ ٥٨ ب .
٢ ـ المصدر السابق ، الورقة ، ١٧ ب .
٣ ـ البديري ، ٢٣٤ .

ونافست الحديد الاجنبي (١) . وقد استورد الى بلاد الشام ، في القرن السادس عشر ، الفولاذ الهندي ، على شكل قضبان ، واستخدمته طائفة الخناجرية والسيوفية في حماه (٢) . وبادخال الحديد السويدي الى بلاد الشام في القرن التاسع عشر اصيب الانتاج المحلي بضربة كبيرة .

وقبيل استغلال مناجم الفحم في بلاد الشام ، ابان حكم محمد علي باشا الالباني (١٨٣١ ـ ١٨٤٠) ، استخدمت الاشجار في صهر الحديد واستخراجه . ولجأ امير جبل لبنان ، بشير الثاني الشهابي (١٧٨٨ ـ ١٨٤١) ، الى السخرة ، أي مصادرة الناس بالقوة وبدون اجرة ، لتشغيلهم في انتاج المعادن .

وعرف صانع البنادق والرصاص (البندق) في دمشق باسم البندقجي ، وكان يقوم بعمله سرا في منزله خوفا من السلطة . ويباع البارود في دكاكين متفرقة في انحاء المدينة ، وليس ، كما يمكن الظن ، في سوق السلاح . ووجود هذا السوق سابق على استخدام السلاح الناري في العهد العثماني . وكان في الاصل يبيع الاسلحة المعدنية البيضاء ، كالسيوف والرماح والخناجر وغيرها . ولم يمكن بيع البارود فيه نظرا لامكانية اشتعاله وسرعة انتشار ناره وانفجاره ، ولهذا توزعت دكاكين بيعه على انحاء المدينة ، عند بواباتها ومداخلها الخارجية ، حيث يتلقف اصحاب الدكاكين البارود من القرويين الذين يأتون به الى المدينة لبيعه .

ويبدو ان صناعة البارود لم تكن ممنوعة على الشعب ، لان استخدام البارود لم يقتصر على الاسلحة . فقد استخدم في المقالع والاعياد ، كما ان ملح البارود استخدمه الصياغ في اعمالهم . وتجري صناعة البارود في الريف على اسس بدائية موغلة في القدم . ونتج عن

---

١ ـ عيسى اسكندر المعلوف ، دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف ، بعبدا ، ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ ، ص ، ٥١٣ ـ ٥١٤ ؛ الاب لويس شيخو ، « المناجم في الدولة العلية » ، مجلة المشرق ، جزء ٥ (١٨٠٢) ، ص ٧٧١ ـ ٧٧٢ ؛ الاب هنري لامانس ، المعادن في لبنان ، المشرق ، جزء ٨ (١٩٠٠) ، ص ٩٤٤ ـ ٩٤٥ .

٢ ـ انظر : عبد الودود محمد يوسف ، « طوائف الحرف والصناعات » ، مجلة الحوليات الاثرية ، دمشق ، ١٩ (١٩٦٩) ، ص ٩٩ .

ايواء الاغنام ، وخاصة الماعز ، في الكهوف في الشتاء ان تفاعل بولها مع الحجر الكلسي ، وتشكل عن ذلك ، بفعل الحرارة التي تصدر عن هذه الحيوانات ، طبقة من نترات البوتاسيوم على جدران وارض الكهف . وعندما تكون الرطوبة والحرارة عالية ، فان سمك هذ الطبقة يبلغ عدة سنتمترات ، ويمكن رؤيتها متدلية في الكهوف ذات الجدران العالية. وتجمع هذه المادة ، ثم تنقى ، عن طريق وضعها في اوعية خشبية ، توضع في حلل ممتلئة بالماء ، ثم تعرض للشمس او للتسخين ليصار الى فصل الاوساخ عن نترات البوتاسيوم . وتعادالعملية أكثرمن مرةللحصول على مادة نقية عرفت بملح البارود ، وتوضع ، من ثم ، في أوعية خشبية.

ولصناعة البارود يمزج ملح البارود بمسحوق الفحم ، الذي يستحصل عليه بصورة افضل من شجر الصفصاف ، وبكمية من الكبريت، الذي كان يستخرج بكميات جيدة من منطقة رأس العين ومن مغارة شحيرة ، شمال شرقي تدمر . وتكون نسبة هذه المواد الممزوجة : ٧٥ ، ١٥ ، ١٠ بالمئة على التوالي (١) . وتختلف النسب وفق نوعية البارود المراد انتاجه واهداف استخدامه . ويخلط المزيج ببعض الماء ، لتحاشي الانفجار . ثم يدق ، بواسطة مطارق خشبية طويلة ، مثبتة على نابض ، لتمكين الدقاقين من ان يكونوا على بعد مناسب خشية اي انفجار. ودقاق البارود ، بزنوده القوية ، مشهور في الادب الشعبي (٢) . ثم يمد المزيج على شراشف ، ويجفف ، متحولا الى قطع صغيرة ومسحوق ، وهو مايعرف بالبارود . وينخل البارود بعد ذلك ، فالناعم منه يستعمل في البنادق ، والاكثر خشونة في المقالع او الحاجات الاخرى . وللتأكد من جودة البارود يوضع القليل منه في راحة اليد ويشعل ، فان احترق

---

١ ـ انظر حول هذه النسبة : مجلة المقتطف ،المجلد الثاني (١٨٧٧) ، ص ٤٧ .
وقد ذكر الرحالة بوركهاردت ، الذي وصف عملية صناعة البارود في قرية شمرا ، في حوران ، التي زارها في عام ١٨١٠ ، ان المقادير هي بنسبة : جزء من الكبريت ، مقابل خمسة ونصف من ملح البارود ، وجزء من فحم الصفصاف . انظر وصفه :
J. L. Burckhardt, **Travels in Syria and the Holy Land**, London, 1822, pp. 114, 250.

٢ ـ تفضل الاستاذ شفيق الامام ، محافظ متحف التقاليد الشعبية في قصر العظم بدمشق ، فافادني بهذه المعلومات القيمة . فله جزيل شكري ، وتقديري لعلمه .

الى الاعلى فهو جيد ، وان احرق اليد فهو رديء .

وقد وجدت كهوف عدة في مختلف مناطق بلاد الشام أوت اليها الاغنام والماعز ، كتلك المتاوجدة مثلا في مناطق حلب ، حماه : صيدنايا ، معلولا ، رنكوس ، حوران ، جبل الدروز . ووجد في حماه ، حيث تكثر الاغنام ، مصنع رسمي لانتاج البارود تأسس في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦)،وعمل فيه ستون عاملافي فترة أوجه ، واستخدم انتاجه في تموين قلاع حماه وحلب وطرابلس وارواد. وقدر انتاجه قبل عام ١٥٩٢ بواحد وخمسين قنطارا في العام ، ثم تناقص عدد العمال والانتاج في أواخر القرن السادس عشر . وذكر أن أحمد باشا الجزار ، في نهاية القرن الثامن عشر ، طلب كميات من بارود حماه لاستخدامها في القتال ضد نابليون بونابرت (١) .

وجاء في رواية الرحالة بوركهاردت الذي زار بلاد الشام في العقد الثاني من القرن التاسع عشر ، ان عدة قرى في حوران زودت دمشق بالبارود ، منها قرية شعرا التي ارسلت سنويا لدمشق مائة قنطار . وذكر بوركهاردت أيضا أن منطقة اللجاه كانت تنتج البارود الذي بيع في دمشق وعكا وطبرية (٢) .

وذكر ان مصنعا لانتاج البارود قد وجد في دمشق في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لسد حاجات الانكشارية(٣) . ووجدت طائفة (نقابة) لاصحاب حرفة البارودية في دمشق آنذاك(٤) . ومن

---

١ ـ انظر حول مصنع بارود حماة : عبد الودود يوسف ، « صناعة البارود في حماة في القرن السادس عشر » ، مجلة الحوليات الاثرية (دمشق) ، مجلد ١٨ ، ص، ٦٧-٨٢ ؛ وانظر للمؤلف نفسه : « ارتباط لواء حماة بمقاومة حملة نابليون على مصر وسورية » ، مجلة الحوليات الاثرية ، مجلد ١٧ ، ص ، ٣٤-٦٨ .

(٢) انظر : Burckhardt, pp. 115, 214.

٣ ـ فخري البارودي ، مذكرات البارودي ،جزءان،دمشق ، ١٩٥١- ١٩٥٢ ،ج١،٩.

٤ ـ انظر مقالنا :

« The law - Court registers of Damascus with special reference to craft corporations during the first half of the eighteenth century », dans **Les Arabes par leurs archives (XVIe - XXe)**, par J. Berque at D. Chevallier, éditions du CNRS, Paris, 1976, pp. 141 - 159.

الممكن ان افرادها عملوا في انتاج البارود والبنادق ، التي شاع اقتناء الناس لها في القرن الثامن عشر . وفرضت الدولة في منطقة حمص على القرويين ، في أوائل ذلك القرن ، ان يقدموا لها بندقية عن كل فدان ، في محاولة منها لجمع السلاح واقامة الامن في الريف(١) .وكان التجار الاجانب يزودون السكان المحليين بالبنادق . وقد اتهم التجار الفرنسيون بتزويد ظاهر العمر بالبارود والرصاص (٢) .

٤ ـ النشاطات الاقتصادية والاجتماعية للقوات العثمانية :

قام الانكشارية في بلاد الشام بنشاطات اقتصادية متنوعة ، فتعاطوا الربا ، وانتسبوا الى الحرف ، وعينوا كملتزمين لجمع الضرائب ، أو مساعدين للملتزمين ، كما عينوا متولين وناظرين على الاوقاف ، وشغلوا وظيفة المحتسب ، وعملوا في مصلحة الجمرك في حلب . وسيطروا ، في حلب ايضا ، على طائفة القصابين التي كانت تتمتع بثروة كبيرة ، كما عين احد افرادهم هناك شيخا لطائفة الصاغة . وعلى غرار معاصريهم من الاعيان ، اتخذ الانكشارية المماليك ، مما يدل على اهمية ثروتهم ومكانتهم الاجتماعية . وأهم عمل قام به الانكشارية في حلب اعطاء القروض للسكان ، بما فيهم اليهود والفرنجة . ونشطوا في هذا المجال في الريف حتى حدود سلقين وحارم التابعتين لولاية حلب . واستخدم الفلاحون بعض هذه القروض في تسديد الضرائب للدولة . وكثيرا ما اعطى الانكشارية الفلاحين القمح والشعير بموجب قروض عقدوها معهم . ومقابل ذلك رهن الفلاحون الارض أو غلالها حتى ايفاء ديونهم ، واشير الى هذا الدين في سجلات المحاكم الشرعية بانه دين شرعي . وكانت مدته عادة من ثمانية الى عشرة اشهر ، يمكن تمديدها . وغالبا ما استملك الانكشارية اراضي الفلاحين الذين قصروا في الوفاء بديونهم . ونظرا لاتساع مجال نشاطهم الاقتصادي ، عمد الانكشارية الى استئجار

---

١ ـ انظر : مذكرات احد ابناء حمص عن حمص (او تاريخ مدينة حمص ١١٠٠ ـ ١١٣٥/ (١٦٨٨ ـ ١٧٢٢) ، مخطوط في الجامعة الاميركية ببيروت ، برقم ٩٥٦ ، انظر : ص ٣٥٢ . وقد حقق هذا المخطوط السيد عمر العمر ونال عليه شهادة الماجستير في تاريخ العرب الحديث والمعاصر من جامعة دمشق في عام ١٩٧٦ .

2 - Affaires Etrangères, Mémoire B' 420 : Istanbul, 1 mai, 1743.

الخانات في حلب ، كما وظفوا اموالهم باستئجار البيوت والاراضي والمنتجات ، وكذلك الطواحين (١) .

ونتج عن انشغال الانكشارية بالقضايا الاقتصادية عزوفهم عن القيام باي نشاط عسكري على ساحات المعارك ، ولهذا كانوا يماطلون في السفر في الحملات ، واذا ما سافروا تلكأوا في القتال وانسحبوا . ويلاحظ ان نشاط الانكشارية الاقتصادي في الريف بدأ يتضاءل منذ حوالي منتصف القرن السابع عشر بسبب فقر الريف ، واندثار عدد كبير من القرى نتيجة ابتزاز الانكشارية لاموال سكانها ، وكثرة تعدي البدو عليها. وتمركز نشاط الانكشارية في القرن الثامن عشر في المدن بصورة رئيسية ، فاحتكروا الحبوب ومواد غذائية اخرى . وفي دمشق سيطر الانكشارية اليرلية على حي الميدان الذي يعتبر الشريان الاقتصادي لدمشق وعنبر حوران والذي كانت تمر فيه قافلة الحج الشامي حيث تزود بالمواد الغذائية وتحصل على احتياجاتها الاخرى ، مثل وسائل النقل . ومن هنا كثرة بايكات الجمال في ذلك الحي . وحاول الانكشارية القابي قول ، بدورهم ، الانتساب الى الحرف والقيام بنشاط اقتصادي ، مما اثار حفيظة اعدائهم اليرلية ، وزاد من العداء بين الفريقين .

اما القوات المرتزقة فكانت عنصر فوضى وارباك للحياة الاقتصادية بسبب ابتزازهم المال من سكان المدن والارياف على حد سواء ، وكذلك عبثهم باقتصاد الريف حين طردهم من المدن بعد انتهاء خدمتهم فيها . وكثيرا ما تعاضدت فئات السكان المحليين لمجابهة هذه القوات وطردها ان امكن .

ونتج عن اندماج الانكشارية بالسكان المحليين ان كثيرا من الانكشارية تزاوجوا مع هؤلاء السكان ، واقاموا في بلا دالشام ، واصبح عدد منهم ومن ابنائهم من علمائها المشهورين . ولكن صورة الفوضى التي رسختها القوات العثمانية في نفوس الاهلين دامت لفترة طويلة . واصبحت كلمة انكشاري مرادفة لفوضوي حتى ما بعد القضاء على الانكشارية في الامبراطورية العثمانية في عام ١٨٢٦ على يد السلطان محمود الثاني .

---

١ ــ تغص سجلات المحاكم الشرعية في حلب ودمشق باخبار النشاط الاقتصادي للانكشارية .

وقد تعاظمت النتائج السلبية لتواجد القوات العثمانية في بلاد الشام ، من الناحية الاجتماعية ، في القرن الثامن عشر ، بسبب ضعف رقابة الدولة عليها ، وفاقت جميع ايجابيات وجودها . ويذكر أن أمير الحج الشامي عين ، في القرن السادس عشر والنصف الاول من القرن السابع عشر ، من بين الامراء المحليين ، الذين كانوا حكاما لصنجق أو اكثر من صناجق ولاية الشام ، وهذا يعنى انه أقام والقوات التي وضعت تحت تصرفه لحماية قافلة الحج في مركز حكمه خارج دمشق . وحين حان موعد خروج الحج اتى مع قواته الى قبة الحج خارج دمشق ، وتسلم الامارة دون أن تدخل قواته دمشق وتزعج أهلها . وحين اضعف هؤلاء الامراء المحليون وقضي على بعضهم بنتيجة حروب فخر الدين المعني الثاني لهم ، عمدت الدولة الى تعيين انكشاريين من دمشق أو موظفين عثمانيين امراء للحج ، وعهدت اليهم بحكم صنجق او اكثر في ولاية الشام ، كما كان الامر بالنسبة للامراء المحليين . وحين لم يعين الانكشاري أو الموظف ، أمير الحج ، حاكما لصنجق أقام في دمشق مع القوات التي خصصت لحماية القافلة . واصبح الحال كذلك حين بدء بتعيين ولاة دمشق امراء للحج في الربع الاخير من القرن السابع عشر . ونتج عن الظلم الذي مارسته هذه القوات ، ومعظمها مرتزق غريب ، في دمشق ، ان طلب كبير علمائها ، جد الاسرة المرادية ، مراد المرادي ، من السلطان العثماني « برفع امارة الحج عن دمشق وعودها الى حكام القدس وعجلون وتلك البلاد كما كان الامر في الزمن السابق لاضمحلال حال دمشق بسبب ذلك فان دمشق من حين صارت امارة الحج عليها زال رونقها وكثر الظلم بسبب ذلك فيها وزالت محاسنها وعمت الشدائد بها »(١) . وبالفعل رفع السلطان الامارة عن دمشق وعين أميرا تلك السنة ، ١١٠٢/١٦٩٠ ، شريف مكة المعزول يحيى بن بركات ، واعطاه حكم صنجق القدس ، حيث اقامت قواته . ولكن مهاجمة البدو للقافلة تحت امرته ، وعزل يحيى ، في اعقاب ذلك ، اعاد الامارة الى دمشق حيث بقيت طيلة الحكم العثماني لان واليها تسلم امارة الحج باستمرار .

ونتج عن تواجد الجنود في دمشق باعداد كبيرة لحماية الحج، وبقائهم فيها بعد ذلك ، اضطراب الحياة الاجتماعية نظرا لضعف هيبة الدولة

---

١ ـ انظر : المرادي ، مطمح الواجد ، الورقة ، ٣٧ ب .

العثمانية . والى جانب ظهور الزرباوات في صفوف اليرلية الذين روعوا الاهلين وزعمائهم ، فقد تكاثر وجود الجنود المـــرتزقة ومعظمهم مــن الفوضويين . وكثرت (بنات الخطا) ، تبعا لذلك،برفقتهم .ووصفأحمد البديري الحلاق في مذكراته اخبارهن وما سببنه من انهيار في الاخلاق العامة . ومن أسباب تكاثر (بنات الخطا) هؤلاء ، الضائقة الاقتصاديةالتي شملت دمشق في القرن الثامن عشر والتي ادت الى حوادث متعددة من الانتحار ، إما لضيق ذات اليد أو حزنا على انهيار الاخلاق العامة .

وكانت نتيجة الصراع بين القوات العثمانية ، بعضها مع بعـض ، وتعديها على السكان المحليـين ، وعجز السلطات الحاكمـة عن توفـير الحماية للسكان ان عمد هؤلاء الى منظماتهم الشعبية ، مثل الانكشارية اليرلية والطوائف الحرفية ، ونقابات الاشراف ، ومشايخ الحـارات ، وابناء البلد ، للدفاع عنهم . ولكثرة ما اعتاد السكانعلى رؤية المظالم فقدوا الحس بالعدل . وقد ذكر البديري في احداث عام ١٧٤٨/١١٦٢ ،بمناسبة عزل قاضي دمشق العثماني ، « ولما كان لايأكل الرشوة ولا يميل فيدعوى مالت اهل الشام عليه مع زوجته حتى سعوا بعزله »(١) . وفي مناسبـة اخرى وصف الاخباري الدمشقي موقف سكان دمشق من واليهم عبد الرؤوف باشا (١٨١٧ ــ ١٨٣١) بقوله : « ومن عدله الزابد طمعت فيه أهل الشام »(٢) .

١ ــ البديري ، ١٣٢ .

٢ ــ ميخائيل الدمشقي ، تاريخ حـوادث الشام ولبنان ، ١٩١٧ ــ ١٢٥٧ / ١٧٨٢ ــ ١٨٤٢ ، تحقيق لويس معلوف ، بيروت ، ١٩١٢ ، ص ٤٩ .

الحركة العربية
خلال الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها
١٩٣٩ ـ ١٩٥٢

د . خيرية قاسمية

استاذة مساعدة في قسم التايخ بجامعة دمشق

لقد كان للاحداث التي تلت الحرب العالمية الاولى في المنطقة العربية، من اجراء التقسيمات السياسية ورسم الحدود وعدم تحقيق الاستقلال واطماع بريطانيا وفرنسا والصهيونية اثرها الفعال على مجرى الحياة السياسية وعلى اهداف الحركة العربية طيلة الفترة بين الحربين ، كما اثرت على صياغة اوضاعنا الحاضرة . ذلك ان تسويات مابعد الحرب التي جرت بطريقة مغايرة لما قطع للعرب من تعهدات قد هددت الفكرة القومية التي انتشرت قبل الحرب العالمية الاولى ، التي تؤمن بوجود امة عربية ترتكز على لغة وتراث وتاريخ وتطلعات ومطالب مشتركة ، ونشأت نظم سياسية مختلفة كان من شأنها ان تؤدي الى تجزئة الحركة العربية . وشجع هذا الاتجاه الحكم الاجنبي وبعض القيادات المحلية . وكافحت الفكرةالقومية لتتجاوز الحدود الضيقة ، وتحاول الابقاء على فكرة الوحدة حية ، وشغل هذا السعي الجماهير وقادة الفكر وزعماء النضال القومي رغم انصراف اجزاء الوطن العربي المتعددة الى قضايا استقلالها الوطني الذي هو وليد ظروفها الخاصة .

ويمكن القول اجمالا ان الحركة العربية في الفترة بين الحربين ، ورغم ماتعرضت له من نكسات وتراجعات استطاعت ان تفرض نفسها كحقيقة واقعة فوضعت نظريتها القومية ، وواجهت خطرين مترابطين ؛ التجزئة والاحتلال وحققت عددا من المكاسب على الصعيدين النضالي والقومي

الى ان اندلعت الحرب العالمية الثانية لتوجه الحركة العربية نحو مسار جديد تبعا للتغيرات المستجدة .

١ ـ سنوات الحرب العالمية الثانية وأثرها على الحركة العربية :

لم تكن الاوضاع العربية عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية توحي بالتفاؤل للفئات الوطنية ، اذ بعد ربع قرن من الكفاح من اجل الاستقلال والوحدة ، كانت القوات الاجنبية لاتزال تسيطر على المنطقة العربية بأسرها اما مباشرة او من خلال معاهدات تضمن مصالحها الحيوية خلف واجهة الحكومات المحلية . ورفضت بريطانيا تقديم أي تنازلات بشأن فلسطين ، رغم توقف اعمال الثورة بعد اعلان الحرب ، واثار وصول تشرشل للرئاسة مخاوف العرب لانه معروف بميوله الصهيونية، واستمر اليهود في تعزيز مواقعهم في فلسطين عن طريق الهجرة غير المشروعة والتدريب العسكري . ووجدت فرنسا في ازدياد التوتر العالمي فرصة التقوية قبضتها على مناطق احتلالها في سورية ولبنان وحتى بعد اجتياح المانيا لاراضيها في حزيران ١٩٤٠ ظلت تسيطر عسكريا بقواتها الموالية لحكومة فيشي التي قامت في ظل الاحتلال النازي . واعلنت السلطات الفرنسية في سوريا ولبنان انها مصممة على « حمل رسالتها في شرقي المتوسط » ، وكذلك فقد حذرت بريطانيا من ان تستخدم سورية ولبنان قاعدة لأية دولة معادية .

وكان اهتمام بريطانيا بتأمين وجودها في المشرق العربي بالغا وقررت في منتصف عام ١٩٤٠ ان يكون الدفاع عن قواعدها في المنطقة تاليا في الاهمية للدفاع عن الجزر البريطانية ، وتحولت المنطقة العربية الى ميدان لحرب لامصلحة لشعوبها فيها وتمركزت فيها جيوش الحلفاء بحيث جعل انتفاضها امرا اقرب الى المغامرة ،كما وضع اقتصادها وطرق مواصلاتها وخدماتها تحت تصرف قوات الحلفاء .

وقد اتخذ العرب موقفا سلبيا من مجهود الحلفاء الحربي ، كما ان الضائقة الاقتصادية زادت من مخاوفهم ، بالاضافة الى عدم ثقتهم بأن انتصار الحلفاء كفيل بتحقيق اماني العرب القومية ، وكان عدد المستعدين للوثوق بوعود الحلفاء قليلا ، وزادهم استياءً ما عانوه خلال

سنوات ماقبل الحرب . وكانت المحصلة الطبيعية لذلك تصاعد الاتجاهات القومية وخاصة لدى العناصر المناضلة الشابة وتطلعها الى اساليب عمل جديدة ، ومصادر بديلة للدعم .

واصبح العراق المركز الحقيقي لهذه الاتجاهات الجديدة ، وكان العراق منذ سنوات ماقبل الحرب يتمتع بحرية في العمل تفوق غيره من الاقطار العربية ويعود ذلك لنيله نوعا من الاستقلال الذاتي وتوفر نواة جيش مدرب ، وكذلك فقد لجأ اليه قبل الحرب عشرات من السياسيين كموظفين ومعلمين .

وفي تشرين اول ١٩٣٩ ، قدم الى بغداد مفتي فلسطين من مقر اقامته الجبرية في لبنان وعزز قدومه من اتجاه الحركة القومية المعادية لبريطانيا ، ودعم موقف المفتي مجموعة من الضباط العراقيين بقيادة صلاح الدين الصباغ . وبتولي رشيد عالي الكيلاني لرئاسة الوزارة ٣١ آذار ١٩٤٠ وصلت الحركة اوجها . وفشلت تحذيرات مدرسة نوري السعيد الموالية لبريطانية من خطر الاتجاهات المتطرفة وحاول الضغط على الحكومة البريطانية لاصدار تصريح واضح يضمن تنفيذ التعهدات السابقة بشأن الحكم الذاتي في فلسطين وسورية ، ويظهر العطف على آمال العرب بالوحدة ، ولكن الحكومة البريطانية كانت تستبعد تقديم تنازلات سياسية وترى البديل في تعزيز النشاطات الدعائية .

وبدأت الفئات القومية في العراق تتطلع الى قوى المحور لنيل الدعم والمساعدة بصفتها حليفة محتملة في الصراع المقبل من اجل التحرر القومي ، خاصة وان انهيار فرنسا ودخول ايطاليا الحرب قد اعطى انطباعا مؤكدا بنصر المحور . وتشكلت في بغداد لجنة عربية قررت اجراء الاتصالات مع قوى المحور ووضع اسس للتعاون المقبل . وخلال جميع الاتصالات كانت اللجنة تسعى للحصول على دعم لمطالب محددة ، توضح طبيعة الحركة القومية في تلك الفترة ، هذه المطالب هي ، اعتراف المحور باستقلال البلاد العربية استقلالاً تاما سواء تلك التي استقلت سابقا او تلك التي لاتزال تحت الانتداب او الحماية او الاستعمار، تعهد المحور بالاعتراف بحق البلاد العربية باقامة وحدة قومية والامتناع عن فرض أي انتداب على المنطقة ، عدم الاعتراف بالوطن القومي اليهودي

ودعم حق العرب لايجاد حل عادل للقضيـة الفلسطينية وفقا للامـاني العربيـة ، رفض أي مخطط لقوى المحور لفرض نفوذ في مصر والسودان والاعتراف باستقلال البلدين ، منح المصالح الالمانيـة الافضلية في استثمار بترول العراق ، التمسك بالحيـاد المطلق ، العمل على اشعال ثـورة في فلسطين والاردن عن طريق سوريـة على ان تمدها مخازن سـلاح الجيش الفرنسي الموجودة هناك .

وفي جميع الاتصالات مع قوى المحور جرى التركيز على ضـرورة الحصول على تعهـد مزدوج يدعم استقـلال ووحدة العرب ، فقـد كان الوضع العـام يشبه الوضع الذي رافق ثورة ١٩١٦ ، الا ان القوميين العرب كانوا اكثر حيطـة فأصروا على اخذ تعهدات واضحة ومحـددة تشمل كل اقطار آسيا العربية بالاضافة الى مصر والسودان . ورغـم شكوكهم بالمخططات الايطاليـة ، كانوا على ثقـة « على الاقل » بامكانية التوصل الى حل مناسب للقضيـة الفلسطينيـة عند انتصار المحور ، والذي بدا مؤكدا بعد انهيار فرنسا .

ومع ان قوى المحور كان يهمهـا الحصول على موطىء قدم لهـا في منطقـة الشرق العربي لتهديد المصالح الحيوية البريطانيـة ، الا ان المانيا احجمت عن القيـام بدور فعال في المنطقـة ، لعدم تأكدها مـن قوة العناصر المعاديـة لبريطانيا من جهة ، وكي تتيح لايطاليا مهمة القيام بهـذا الدور . وفشلت ايطاليا في الحصول على نفوذ لها في المنطقـة لتخوف العرب من نواياهـا التوسعيـة . وعلى اثر التراجعات الايطالية على الجبهـة الليبيـة قامت المانيـا باصدار بيان مشترك مع ايطاليا في تشرين اول ١٩٤٠ صيغ بعبارات عامة ليست ملزمة حول العطف على نضـال العرب من اجل التحرر ، وكان البيان ادنى بكثير من المطـالب العربيـة . ومنذ كانون اول ١٩٤٠ تولى الالمان المسألة بكاملهـا بعد ان دعمت بريطانيا مركزها في مصر وزاد ضغطها على حكومة رشيد عالي الكيلاني ، فكان ان وضعت وزارة الخارجية الالمانية مذكرة اكدت فيهـا رغبة المانيا القيام بدور رئيسي في المنطقـة العربية والى انها تجد في القومية العربية حليفا طبيعيا ، الا ان ايطاليا ظلت على موقفها في رفض الاعتراف بحق العرب بالاستقلال والوحدة .

وتطورت الامور داخل العراق بسرعة ، ففي نيسان ١٩٤٠ قامت حكومة قومية برئاسة رشيد عالي الكيلاني تساندها مجموعة مخلصة من الضباط وابعدت العناصر الموالية لبريطانيا . وكانت هذه الحركة غاية ما وصل اليه المد القومي العربي في هذه الفترة واول محاولة جادة للتخلص من السيطرة الاجنبية . وفشلت الحركة لتدخل بريطانيا العسكري السريع في ايار ١٩٤١ . ورغم مشاعر التأييد التي ابدتها المانيا لدعم الحركة ماليا وعسكريا لم تصل التعزيزات العسكرية في الوقت المناسب لانشغال المانيا باليونان وكريت من جهة ولان العراق كان بعيدا عن المجال الجوي الالماني بسبب حياد تركيا .

مع ذلك فقد كانت الحركة اول ثورة عربية قومية منذ الحرب العالمية الاولى تحدت بريطانيا وتحدت الوضع القائم الذي يكرس التجزئة العربية . ولعبت فيها الفئات القومية في سورية وفلسطين دورا فعالا في اتخاذ القرار واسلوب العمل ، كما دعمها الرأي العربي في كل مكان لاتجاهها الوحدوي . وكان لاخفاق الحركة اثر بعيد في اتخاذ العرب موقفا سلبيا من الحلفاء اثناء الحرب . وقد يكون ضعفها ناجم عن عدم تقدير لحجم قوتها الفعلية ، ومبالغتها في الاعتماد على الدعم الالماني .

وبالنسبة لبريطانيا فقد أكدت لها المؤازرة التي لقيتها الحركة من العرب خارج العراق ، ضرورة ارضاء بعض الاماني القومية بطريقة ما . وكانت قيادة الحركة القومية العربية قد اخذت تنتقل تدريجيا ، الى مصر التي بدأت تلعب دورا اكثر وضوحا في الحركة العربية . ولذا يرى البعض في اخفاق حركة رشيد عالي الكيلاني نهاية لطور « بروسيا العرب » اي الدور العراقي في قيادة الحركة القومية .

٢ ـ ظروف انشاء جامعة الدول العربية :

في الفترة بين الحربين بنت بريطانيا سياستها تجاه تطلع العرب نحو الوحدة على تناقض غريب ، فهي من جهة ترى في قيام وحدة عربية او اتحاد خطرا حقيقيا يهدد المصالح الاجنبية والبريطانية بوجه خاص ، ولذا قاومت كل محاولات الاتحاد بين العرب بعد ١٩٣٠ ووجدت

ان تعزيز القوميات المحلية اقل خطرا . وكان الاعتقاد السائد لدى اوساط الحكومة البريطانية ان السيطرة البريطانية على عدد من الدول اسهل منه على اتحاد عربي ، لان العرب اكثر قابلية للتحكم فيهم لو ظلوا متفرقين . ولكنها من جهة اخرى نرى بأن الحركة الوحدوية لها شعبية وجاذبية وانها اصبحت ظاهرة لايمكن تجاهلها وليس من الحكمة معارضتها علنا او مناصبتها العداء ، بل يمكن اظهار العطف عليها طالما ظلت حلما او اقتصرت على التنسيق والتضامن في حقول الثقافة .

وقد دلت دراسة اجرتها وزارة الخارجية البريطانية ١٩٣٩ لاعادة تقييم السياسة البريطانية تجاه الوحدة استحالة تحقيق أي نوع من الاتحاد العربي ، رغم كل اواصر الترابط في اللغة والثقافة والدين والاحساس المتزايد بالتلاحم العربي ، والنقمة على التجزئة وسرعة انتقال الافكار ، وانتشار التعليم . وتعليل ذلك كما تقول الدراسة ، هو التنافس بين الاسر الحاكمة وعدم اتفاق العرب على شكل الوحدة ، وعلى زعامتها في المستقبل بالاضافة الى المعارضة الفرنسية والتركية والصهيونية ، ففرنسا تمانع في دخول سورية اي اتحاد عربي ، كما ان تركيا تعترض على قيام دولة عربية موحدة على حدودها وكذلك يتعذر قيام وطن قومي لليهود في فلسطين في حال انضمامها لدولة عربية موحدة .

وحتى عام ١٩٤١ كان خلاصة الموقف البريطاني ، والذي عبرت عنه وزارة الخارجية وممثلو بريطانيا في المنطقة ، في صالح الحجج الداعية لعدم تأييد قيام اتحاد وحتى لو لم تكن هناك معوقات خارجية أو داخلية (التنافس بين الاسر) ، لانه لم يكن من المحتمل ان ترغب بريطانيا تشجيع الافكار الوحدوية او الترويج لها او اتخاذ مبادرة التعاطف مع فكرة الوحدة ، لان دولة عربية موحدة تشمل على الاقل آسيا العربية ، ستكون اقل انقيادا للنفوذ البريطاني من عدد من الدول الاصغر والاضعف .

لذا فان انشاء جامعة الدول العربية لم يكن بوحي بريطاني او بمبادرة بريطانية ، بل ساهمت اربعة عوامل رئيسية في خروج الفكرة الى حيز الوجود :

أ ـ الحركة القومية العربية بكل ما تتضمنه من اواصر اللغة والتراث والجوار ووحدة النضال ضد التجزئة والاحتلال . ورغم كل ماتعرضت له الحركة القومية من نكسات في الفترة بين الحربين الا انها فرضت نفسها كحقيقة واقعة جاءت لتبقى ، وشهدت الفترة الذهبية من المد القومي بين ١٩٣٦ ـ ١٩٤١ اشتداد الدعوات التحررية والتوحيدية وانتشار الافكار القومية وتنقل العاملين في حقل الوحدة وزاد من تأجج الافكار ازدهار الدعوات القومية في اوربا واشتداد الخطر الصهيوني وما احدثه رد الفعل العربي من تعميق للوعي القومي ، ثم انشغال الغرب بالتحضير للحرب ، ومن ثم خوضها ، كل ذلك جعل العرب يتحسسون بأهمية مكانتهم ، وفرضت على جميع القوى الخارجية ان تأخذ في حسابها حقيقة الحركة القومية الوحدوية ، عند صياغة سياستها تجاه المنطقة .

ب ـ الدور المتزايد الذي بدأت تتخذه مصر في القضايا العربية بعد ١٩٣٦ ، حيث عادت للاهتمام بميحطها الطبيعي في الساحة العربية . وكانت خطة بريطانيا حتى ١٩٤٢ هي ابعاد مصر عن الارتباط بأي اتحاد عربي واشغالها بقضايا داخلية ، وابقاء اهتمامها بالقضايا العربية نظريا ، كما نصح بذلك مايلز لامبسون السفير البريطاني في القاهرة . ولكنها رأت صعوبة ابقاء مصر بعيدة من الاهتمام بالقضايا العربية التي اخذت تلعب دورها في السياسة المصرية وخاصة تجاه قضية فلسطين ، فأوقفت بريطانيا مساعي نوري السعيد عام ١٩٤٢ لاتخاذ خطوات جادة نحو اتحاد سورية والعراق نظرا لما أثارته من مشاكل واعتراضات ، ولم تعارض في انتقال الزعامة العربية في مشاورات الوحدة الى مصر ، نظرا لان مصر بابتعادها التقليدي عن القضايا العربية وانشغالها بمشاكلها الداخلية كانت بعيدة عن تنافس الاسر الحاكمة ، بالاضافة الى ان مصر كانت مؤهلة للعب هذا الدور نظرا لمكانتها في الوطن العربي .

جـ ـ الظروف الدولية التي اكتنفت سني الحرب حيث اشتد الصراع بين الحلفاء ودول المحور وتحولت المنطقة بموقعها الاستراتيجي الى احد ميادينه الرئيسية . واصبحت قضيتا التحرر والوحدة لشعوبها محور التركيز فيما سمي « بالحرب الدعائية » التي حاول من خلالها

اطراف الصراع استقطاب شعوب المنطقة باصدار التصريحات والوعود المتعاطفة مع الآمال العربية .

د ـ ادراك السياسة البريطانية المتزايد ضرورة التعامل مع المنطقة كوحدة متكاملة بسبب ضرورات الحرب التي فرضت عليها مزيدا من الاعتماد على موارد المنطقة الذاتية في اطار خطة شاملة للتكامل الاقتصادي . ومن جهة اخرى ادراك بريطانيا قوة الحركة العربية باعتبارها من حتميات التطور السياسي لدول المنطقة ، خاصة بعد ازدياد الحاجة لاستخدام الدعم العربي في مرحلة الحرب خوفا من تهديد مركز بريطانيا الاستراتيجي ولتهدئة الآثار المعاكسة لقمع حركة رشيد عالي الكيلاني . وشعرت بريطانيا بعدم جدوى معارضة التطلعات العربية نحو الوحدة والتصدي لها ، بل محاولة توجيهها وفق اتجاهات موالية لحكومة جلالته واتخاذ موقف متعاطف معها في محاولة للالتفاف حولها واستغلالها لخدمة مصالحها الاستراتيجية .

هذا ما أكدته مذكرة ايدن (وزير الخارجية) ١٩٤١/٥/٢٧ تحت عنوان (سياستنا العربية) بأنه « نظرا لان العرب متفقون عموما على ان قيام نوع من الاتحاد العربي هو امر مرغوب فيه فلا ينبغي معارضة هذه الآمال المبهمة ، بل ويجب انتهاز كل الفرص للاعراب علانية عن تأييدنا لها » . وبعد يومين صدر تصريح ايدن (وكانت ثورة رشيد عالي الكيلاني قد احبطت) وخلاصته ان بريطانيا تعتبر تدعيم الروابط السياسية والثقافية والاقتصادية بين الدول العربية امرا طبيعيا وسليما وستعطي تأييدها التام لاي مشروع يحظى بالموافقة العامة في هذا الصدد . ورحب الزعماء العرب بالتصريح رغم انه لم يعكس تحولا ايجابيا جديدا في السياسة البريطانية ويستند الى تصور سلبي لفكرة الوحدة ، فضلا عن انه اهمل الاشارة للقضية الفلسطينية ، والتي كانت بريطانيا تعتبرها عاملا له اهميته في سياستها تجاه المنطقة ، وانها تمثل القضية الرئيسية في طريق اية محاولة لتأمين المصالح البريطانية وكسب ود العرب .

وقد وضعت لجنة وزارية بريطانية تقريرا تاليا بعنوان : (الاتحاد العربي) في ١٩٤٢/١/٩ كان اشمل وادق دراسة للسياسة البريطانية

تجاه المنطقة وحصيلة آراء الدوائر المعنية بشؤون العرب ويعكس اتجاهات السياسة البريطانية خلال الحرب . يسرد التقرير أولا وجهة النظر المؤيدة لاتخاذ بريطانيا المبادرة بانشاء اتحاد عربي من اجل تسوية المشكلة الفلسطينية من جهة ، ولدعم النفوذ السياسي والوجود العسكري البريطاني من جهة اخرى . الا ان التقرير يرجح الجانب السلبي المعارض للاتحاد لان الاتحاد لايمثل هدفا ثابتا او حقيقيا للدول وللشعوب العربية ، ولا ينبغي اعتباره من بين الاهداف السياسية لحركة القومية العربية . ولكن نظرا لمصالح بريطانيا الاستراتيجية وضرورة استمرار قواعدها ، واحتمالات الخطر الذي قد تتخذه الحركة العربية من العداء ضد بريطانيا وفرنسا واليهود يرى التقرير عدم اتخاذ موقف سلبي تجاه الحركة ومحاولة اظهار التعاطف معها مع العمل على توجيهها قدر الامكان لما يحقق مصالح العرب ولا يمس المصالح البريطانية واوصى التقرير بما يلي : عدم اتخاذ الحكومة البريطانية المبادرة لانشاء اتحاد عربي . عدم فرض أي نوع من الاتحاد على العرب . اظهار التعاطف مع آمال العرب في الوحدة حتى يمكن ضمان اتخاذ حركة القومية العربية مسارا غير متطرف، ومع استبعاد كافةالاشكال السياسية للاتحاد (جميع دول المشرق ، دول المشرق عدا السعودية ، سورية الكبرى ، التعاون السياسي بين دول المشرق في اطار معاهدة اخوة)
فانه ينبغي تشجيع كافة اشكال التعاون الثقافي والاقتصادي بين دول المنطقة .

ويمثل هذا التقرير خلفية تصريح ايدن في ايلول ١٩٤٣ الذي اكد فيه تعاطف بلاده مع فكرة القومية العربية ، واعتقاده في الوقت نفسه ان المبادرة يجب ان تأتي من العرب انفسهم وانه حتى الآن لم تتم صياغة مشروع يحظى بالرضاء التام وان الموضوع معقد تتغاير بشأنه وجهات النظر الوطنية .

وانتهت مشاورات النحاس باشا (مع الدول العربية المشرقية وبعضها مستقل والبعض الآخر مرتبط بمعاهدة) في وقت اسرع مما قدرته بريطانيا ، اذ كانت تطلب ارجاء البت فيها الى مابعد الحرب بحجة ان المشاورات لم تكشف عن وجود قدر كاف من نقاط التفاهم حول الصيغة المقبولة للتعاون . وكان صدور بروتوكول الاسكندرية

١٩٤٤/١٠/٧ المؤسس لجامعة الدول العربية مفاجأة لكثيرين في وزارة الخارجية البريطانية وعلق احدهم « بأن البروتوكول قد مضى الى ابعد مما توقعنا أن تتمخض عنه مشاورات النحاس » . وابرم الميثاق في ١٩٤٥/٣/٢٢ ، وكان اهم الاحداث السياسية التي شهدها الوطن العربي في الاربعينات .

ورغم كل ما قيل بأن قيام الجامعة بالصورة التي حددها ميثاقها هي مجرد منظمة للتعاون والتنسيق بين اقطار عربية مستقلة اشبه بمنظمات التعاون الاقليمي ولا سلطة فعلية لها على الدول المشتركة فيها، وهي بذلك تمثل قصورا في التفكير وقضاء على آمال تحقيق الوحدة الكاملة ، رغم كل ذلك تبقى الحقيقة التالية : وهي انها ادخلت في الوعي العربي فكرة أن مشاكل العالم العربي متشابكة ، وانها لايمكن حلها الا بالعمل الجماعي والتعاون الوثيق والوحدة .

٣ ـ قضية فلسطين واثرها في تطور الفكر القومي بعد الحرب العالمية الثانية :

خلال الحرب العالمية الثانية اسدل ستار محكم على فلسطين ، وكانت الظروف المواتية كلها بجانب الصهيونيين ، فتفوقوا من حيث التسلح والتدريب والتنظيم في حين كان بطش الدولة المنتدبة قد فتت قوى ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ . وكان على الجامعة العربية منذ تأسيسها أن تولى القضية اكبر اهتمامها ، وقد جاء في القرار الجماعي لبروتوكول الاسكندرية « أن فلسطين ركن مهم من اركان البلاد العربية وان حقوق العرب لايمكن أن تمس من غير اضرار بالسلم والاستقرار بالعالم العربي »،وافرد ملحق خاص لفلسطين فيميثاق الجامعة . ومنذ اعلان الميثاق اصبحت جامعة الدول العربية هي الناطقة باسم فلسطين دوليا وعربيا وتدعم كفاحها سياسيا وعسكريا .

وقد قدر لمصير فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية ان يكون مصدر قلق واهتمام لجميع العرب في سائر ارجاء المنطقة ، وكانت بريطانيا بعد الحرب قد عادت الى سياستها التقليدية في لجان التحقيق والمؤتمرات (لجنة التحقيق الانجلو ـ امريكية ومؤتمر لندن ١٩٤٦) لتسوية القضية

الفلسطينية. ودخلت الولايات المتحدة بثقلها لدعم دعوى اليهود باقامة وطن قومي رغم تزايد المصالح الامريكية في الوطن العربي . وعملت الدول العربية على نحو جماعي لدعم الحق العربي في فلسطين عبر مؤتمرات قمة (مؤتمر انشاص أيار ١٩٤٦) أو عبر مجلس جامعة الدول العربية (مؤتمر بلودان وبيروت وعاليه من ايار ١٩٤٦ ــ تشرين ثاني ١٩٤٧) وصدرت مقررات علنية وسرية تؤكد على صيانة عروبة فلسطين واظهار خطر الصهيونية على الامة العربية والعمل على استقلال فلسطين ووجوب حمايتها من الهجرة وتسرب الاراضي ، ولم يكن لهذه القرارات مردود عملي في وقف تنفيذ سياسة الوطن القومي اليهودي .

ولما فشلت بريطانيا في فرض حل للقضية اعلنت تخليها عن الانتداب واحالة القضية على الامم المتحدة في نيسان ١٩٤٧ ، وهي خطة لتنفيذ مشروع تقسيم قديم ، وفي ٢٩ تشرين ثاني اصدرت غالبية الدول قرارها بالتقسيم ، ولعبت الولايات المتحدة دورا رئيسيا في تأمين اكثرية الثلثين المطلوبة في الجمعية العامة . وبعد اتخاذ قرار التقسيم تفجر العنف داخل فلسطين . ومع أن الاستعداد للصراع كان غير متعادل سياسيا وماليا وعسكريا فان رد الفعل كان عنيفا ضد أعلان قيام دولة الكيان الصهيوني داخل فلسطين وخارجها لان قرار التقسيم يتعارض مع الاماني القومية للامة العربية . وقررت جامعة الدول العربية تقديم الدعم العسكري الى اهل فلسطين دفاعا عن عروبة فلسطين ولمقاومة انشاء الدولة اليهودية بالقوة . وفي ١٥ أيار ١٩٤٨ ومع نهاية الانتداب البريطاني اعلن قيام الكيان الصهيوني وتدخلت الجيوش العربية وكان مصير الحرب معروفا : اذ بالاضافة الى الخلل الواضح في توازن القوى من حيث التنظيم والتعبئة العسكرية لم تكن الحملة العربية منسقة بين الجيوش المختلفة ، كما ان الدول العربية كانت اما حديثة الاستقلال او واقعة تحت سلطة الاستعمار فلم تكن على مستوى المسؤولية القومية . وتم فرض الامر الواقع في ١٩٤٩ باتفاقات هدنة عقدت باشراف الامم المتحدة بين كل دولة عربية على حدة وبين اسرائيل . وغدا أكثر من مليون عربي في عداد اللاجئين .

ولاول مرة منذ حروب الفرنجة تقوم دولة اجنبية معادية ، او بالاصح كيان مصطنع ، وسط الوطن العربي فتحطم وحدته الجغرافية والبشرية الى قسمين متباعدين وتحول دون الاتصال بينهما وتهدر

بالسيطرة عليه سياسيا واقتصاديا ، وتكون الى جانب ذلك حليفا طبيعيا للدول الغربية التي لها مصالح قائمة في الوطن العربي ، والتي اصبحت قادرة ، بمساعدة الكيان الجديد ، ان تهدد بسهولة اية حركة عربية تحررية تنطلق في أي بلد عربي مجاور .

لقد طرأ على فكرة القومية العربية تغير كبير تحت ضغط كارثة فلسطين ، فقد كان لانشاء دولة اسرائيل وهزيمة الجيوش العربية وما تبعها من اذلال وتشريد السكان العرب اثر عميق في التفكير القومي وغدت رمزا لجميع مظاهر الضعف التي يعاني منها الوطن العربي من استعمار وتخلف وتجزئه . وجاء رد الفعل الحقيقي للنكبة شعبيا قبل ان يجيء رسميا ، فازدادت حدة المشاعر العربية من الغضب والمرارة وجرت الاضرابات والمظاهرات في حملة ضغط شعبي على الحكومات لمواجهة التحدي الصهيوني ودعم نضال الشعب الفلسطيني لاسترداد حقوقه ، بعد ان اثبتت هذه الحكومات عجزها امام قوة « اسرائيل » والقوى الاستعمارية الداعمة لها ، وغير قادرة على تخطي العجز . وكان هناك ادراك تام بان استمرار وجود « اسرائيل » يعني استمرار الوجود الامبريالي في كل الارض العربية . وولد هذا الوضع احراجات للانظمة العربية وساد التوتر وعدم الاستقرار ارجاء كثيرة من الوطن العربي وفي كل مكان بدأ الاضمحلال التدريجي لنفوذ الصفوة الحاكمة التي لم تقم بدور فعال .

وبشكل عفوي تشكلت منظمة سرية شبه عسكرية اطلقت على نفسها كتائب الفداء العربي من مجموعة من الشباب المتحمس من سورية ولبنان وفلسطين والعراق ومصر من الذين شهدوا الهزيمة ووجدوا في الكيان الاسرائيلي تهديدا مستمرا للاهداف القومية وتأثروا بمختلف المبادىء الثورية الاوروبية وتجارب الحركات الثورية العربية وقامت أفكارهم على العداء للصهيونية وللغرب ، وتقديس العنف السياسي . وكانت مهمتهم كجماعة ضاغطة التأثير على الصفوة الحاكمة لرفض أي صلح . ومع أن المنظمة لم تدم طويلا الا انها ساعدت على تسليط الضوء على القضية وساعدت الى حد ما على رفع المعنويات .

وفي اوساط المثقفين العرب اصبحت القضية محور اهتمام النشطين سياسيا من منطلق الرابطة بين القضية الفلسطينية والقضية العربية فقضية فلسطين هي مسألة في صميم القومية العربية وهي أفدح ظلم حل

بالامة العربية في التاريخ . واصبحت في برامج الاحزاب والتيارات والحركات القومية التي بدات تشق طريقها في الاربعينات مع ازدياد المد الذي شهدته الحركة القومية (حزب البعث ، وحركة القوميين العرب)، وهي احزاب وحركات عقائدية تسعى لتحقيق اهداف الامة العربية وخلق الانسان العربي تخاطب الجيل الجديد وتؤمن بالتغير الشامل والجذري في الجبهة الداخلية ، وتناهض الصهيونية والاستعمار فيالجبهةالخارجية. وقد توالدت لديها قناعة تامة بأن عملية التحرير الكامل لايمكن أن تتحقق الا من خلال الوحدة فقد ضاعت فلسطين بسبب ضعف الدول العربية وتجزئتها والنفوذ الاجنبي .

ولونت النكبة تلك الفترة بمزيج من الندم والمرارة والشعور بالعجز ودعوة لرفض الواقع مع الاحتفاظ بالوعي الفلسطيني وحضور القضية الفلسطينية . كما انطلقت مجموعة تصورات لتفسير اسباب النكبةونتائجها والبحث الجدي عن وسائل الخروج من دائرتها ، وهي تصورات زادت الوعي القومي عمقا ووضوحا فهناك التصور التآمري الذي فسر الهزيمة على انها نتيجة تآمر بين الصهيونية والدول الكبرى او انها تآمر بين بعض المسؤولين عن تسليح الجيوش العربية . وهناك التصور التكنولوجي الذي عزا الانتصار الى حيازة الصهيونية للاسلحة الحديثة وعدم توفرها لدى العرب . وكل هذه التصورات افترضت التوحيد العربي؛فالمجابهةالحقيقية لقوى العدوان الصهيوني تتطلب حشد الطاقات العربية .

وكان من بين من عالج هذا الموضوع من المفكرين قسطنطين زريق في كتابه معنى النكبة ١٩٤٨ ألح فيه على ان خطر التوسع الصهيوني أهم ما يواجه العرب اليوم ، وان لاسبيل لهم الى صده الا ببذل كل مايملكون من قوة وهذا يقتضي منهم تحويل كيانهم تحويلا تاما . وهو يرى انالسبب الاساسي لهزيمة العرب وللخطر المحدق بهم انما هو عدم وجود امة عربية بالمعنى الصحيح . ولابد من تغيير أساسي في حياة العرب وتفكيرهم يفضي بهم الى انشاء دولة موحدة متطورة اقتصاديا واجتماعيا بحيث يصبح العرب جزءاً من العالم الذي يعيشون فيه ، بأساليبه التقنية المادية وطرق تفكيره العلمي ، ولا يحقق هذا الامر الا نخبة مثقفة تستطيع ان تنظر الى نفسها والى العرب بالوضوح والتواضع اللذين لاينجمان الا عن فهم حقيقي للتاريخ .

وقد اعرب موسى العلمي في كتابه « عبرة فلسطين » ١٩٤٩ عن آراء مماثلة فسرد الاخطاء التي ارتكبها العرب في معالجتهم للقضية الفلسطينية ، كتقصيرهم في اعداد العدة ، وعدم اتحادهم ، وعدم تفهمهم بوضوح لما ستكون عليه الحرب وعدم الجد في خوضها . لكنه انصرف من جهة اخرى الى الكشف عن مصادر الضعف الكامنة ، بوجه عام ، وراء هذه الاخطاء ، كعدم وجود وحدة دائمة وثابته فيما بينهم والخلل في اجهزة الحكم ، وغياب الوجدان السياسي عند الشعوب العربية ، وفقدان الاتصال بينها وبين حكوماتها . ثم يقول انه لاقدرة للعرب على صد التوسع الصهيوني الا بالوحدة الحقيقية بين بلدان الهلال الخصيب اولا وباصلاح انظمة الحكم اصلاحا يجعل منها انظمة دستورية حقه ، يوجه العقل سياستها ، والعلم ادارتها وتعنى بخير الشعب ويكون فيها الحق في الحرية وفي العمل والامن والخدمات الاجتماعية معترفا بـه . اذ لايمكن ان يكون ثمة أمة بالمعنى الحقيقي الا اذا كان فيها للشعب ما يملكه ويدافع عنه .

وقد وضع قسطنطين زريق وموسى العلمي ثقتهما ، عند تفصيل وسائل تحقيق هذه الاصلاحات ، في النخبة المخلصة العاملة على خلق رأي عام متنور وعلى استخدامه لتحقيق الاصلاح سلميا . في حين يرى ادمون رباط انه لم يعد بوسع النخبة القومية البورجوازية ، التي افلتت السلطة من يدها ، ان تزود الامة بزعمائها . ويذهب فايز صايغ الى ان انشاء قومية عربية موحدة لن يتم بوسائل سياسية صرف ، بل لابد من تغيير اجتماعي اساسي ، اذ لا تتحقق الوحدة الا بالقوة الدينامية المتفجرة من مثل هذا التغيير .

٥ ـ رياح التغيير :

ظلت السلطة السياسية لفترة طويلة في الوطن العربي في ايدي نخبة حاكمة تمثل « الجيل القديم » وهذه النخبة هي التي انصرفت في الفترة بين الحربين الى قضية التحرر الوطني ، ونادت بالفكرة القومية وتبنت الانظمة الغربية في الحكم . الا انه في اواخر تلك الفترة بدأت هذه النخبة تفقد دورها القيادي فهي قد عجزت عن مستوى المواجهة ضد الاستعمار اما بدافع الضعف والتخاذل أو لانها اخضعت المصالح العامة للمصالح الخاصة وشغلتها القضايا المحلية في كثير من الاحيان عن القضية القومية ، كما ان

الكثير منها قد اساء استعمال الانظمة الديمقراطية . وفي خضم العمل السياسي انصرفت عن قضايا الاصلاح الاجتماعي وعن اعداد الجيل اللاحق لتحمل مسؤولياته .

ولم يكن غريبا ان يبحث الشعب العربي عن قيادة متنورة قادرة على انجاز توقعاته من بين صفوف « الجيل الجديد » الذي بدأ يتكون منذ أواخر الثلاثينات والاربعينات على نطاق محدود (الاهالي وعصبة العمل القومي والبعث) ، ويزداد نمو هذا الجيل بعد الحرب العالمية الثانية ويوصف هذا الجيل مرة بانه جيل المثقفين ومرة اخرى بانه طبقة وسطى جديدة ، ولكن كلا هذين الوصفين لا يعتبران تعريفا صحيحا . ذلك لان هؤلاء الشباب كانوا يمثلون مختلف المهن والخلفيات الاجتماعية ، جاء معظمهم من الطبقات العادية وآثر بعض الذين تحدروا من طبقة عليا ان ينتموا الى هذا الجيل ، وقلة منهم تعتبر ثرية الا الذين ورثوا عن آبائهم وتتكون غالبيتهم من مفكرين واصحاب مهن حرة معظمهم تلقى العلم في مدارس وجامعات غربية أو محلية قائمة على اسس غربية ، وكذلك من بعض ضباط الجيش والموظفين ، والصبغة العامة التي تجمعهم انتماؤهم الى الجيل الجديد الطامح الى حمل المسؤولية عن الجيل القديم ، ذلك الجيل الذي افرز الحكام الحاليين في الوطن العربي ويقاوم التغيير ، وهدفهم النضال لمصلحة الشعب عموما ولمصلحة الطبقة الدنيا بوجه اخص .

وكانت القضايا التي تشغل اهتمام الجيل الجديد ويتوق الى احداث التغيير فيها كثيرة منها :

أ ـ الاستقلال القومي وحقوق السيادة :

رغم ان الامبريالية قد تقلصت بعد الحرب العالمية الثانية الا أن النفوذ الاوروبي مازال موجودا في اجزاء كثيرة . ولم يقع تبدل في مركز بريطانيا المسيطر في معظم الدول العربية بعد انقضاء سنوات الحرب . وهناك خطر جاثم مهدد باستمرار السيادة العربية يجعل الوطن العربي ميدانا للصراع الدبلوماسي بين الدول العظمى نتيجة الحرب الباردة بين الكتلتين الشرقية والغربية . ولم تعد وسائل التنظيم والعمل القديمة ترضي الجيل الجديد بعد اقتناعه بأن المتحكمين من الساسة المحافظين

عاجزون عن محاربة الاستعمار لانهم في الحقيقة ادوات يستخدمها الاستعمار اما بمشيئتهم لحماية مصالحهم او رغما عنهم ، وانظمة الحكم المتداعية عاجزة عن تقرير سياستها الخارجية ولا تزال تعتمد على القوات الاجنبية والاموال الاجنبية والدعاية الاجنبية لتنفيذ اغراضها ، وتتطلع فرادى الى الدول الغربية ، وخاصة بريطانيا ، مناشدة عونها في نزاعاتها ومنافساتها . ويحرص الاستعمار من جهته أن يدعم الفئات التي تضمن مصالحه ، وان يسيطر على الاتجاهات داخل المحيط العربي ويعدلها ويوجهها . وحتى الانظمة التي اتفقت على معارضة النفوذ الاجنبي حافظت على علاقات وثيقة مع الدول الغربية على اساس المصلحة المتبادلة .

ب ـ قضية الوحدة :

فالقيادات المحافظة قد انصرفت ، رغم اهتمامها المبدئي بالوحدة العربية ، الى القضايا المحلية ، دون ان تقوم باي محاولة جادة منظمة في سبيل التربية السياسية القومية . وبعد ان حصل كثير من الاقطار العربية على الاستقلال السياسي بعد الحرب الثانية تكرست الاوضاع القطرية في المنطقة ، ووجدت الفئة الحاكمة نفسها في وضع ترسخت فيه مصالحها الحيوية ضمن الحدود القطرية واصبحت هي المستفيد الاول من حالة التجزئة . بل وانكفات تجارب الافكار الوحدوية التي انبعثت عن التحرك السياسي للجيل الجديد ، مستعينة تارة بحلفائها الغربيين وطورا بالدعوة الى مشاريع بديلة للوحدة العربية للاحتيال على الحركة الوحدوية .

ج ـ انظمة الحكم السياسية :

فقد ساء الجيل الجديد فساد الحكومات وعجزها عن العمل وشلل البرلمانات الخاضعة لاهواء القصور والسفارات وفشل الانظمة الديمقراطية في الارتفاع الى مستوى التوقعات واحتكار السلطة من جانب الطبقة الحاكمة التقليدية .

د ـ القضايا الاجتماعية والاقتصادية :

فقد كان الجيل الجديد متشبعا بروح الاصلاح الاجتماعي . صدمته

احوال الفلاحين السيئة وازدياد الشقة بين طبقة الجماهير والاثرياء ووقوف ذوي المصالح الى جانب السلطة ، وتعاطف مع الشعب في تململه من الاحوال الاقتصادية والاجتماعية السيئة ويأسه من تحسن الحال .

وجاءت اهداف الجيل الجديد مزدوجة فهي ترمي الى انهاء الارتباطات الاجنبية المهينة والنفوذ الغريب وتحرير الوطن العربي وعزله عن المصادمات بين الدول العظمى والقيام باصلاحات داخلية تستخلصها من ايدي المتنفذين من الزعامة المحافظة ، لتصاغ بعد ذلك الوحدة العربية المنشودة .

وكان الجيل الجديد يرقب وينتظر ، ويشترك في الانتفاضات التي جرت بعد الحرب ويعقد الاجتماعات ، وينتمي الى مختلف الاتجاهات العقائدية ويشارك في أحزاب قومية تواجه خطر ازدياد النفوذ الاجنبي وتتبنى افكار العدالة الاجتماعية (توزيع الثروة والضمان الاجتماعي والحد من ملكية الارض) وتطالب بالحرية السياسية وتضع في اهدافها مناهضة الاستعمار وتحقيق الوحدة العربية . مع ذلك لم يحدث تبدل في كيان السلطة والزعامة ، ولم يصل اصحاب هذه الاتجاهات الى السلطة لتنفيذ خطتهم كما لم ينفذوا الى البرلمانات وعجزوا عن المشاركة في الميدان السياسي الذي كان خاضعا لسيطرة السياسيين القدامى .

وفشل الجيل الجديد في التأثير على الجيل القديم وفي مباشرة الاصلاح بالطرق السلمية لان التغيير يهدد موقع النخبة الحاكمة بالخطر ، والاساليب التقليدية هي خير حارس لمصالحها ، فقاومت التغير بالقوة ولجأت الى الاضطهاد مرارا وهي ترى الجيل الجديد يتحدى مواقعها ، بدعوى المحافظة على الامن العام وقمع العنف . وعزز هذا من الانطباع السائد بان الجيل القديم لم يكن مهيأ للتكيف مع الظروف الجديدة .

وجاءت نكبة فلسطين لتزيد الحاجة الى التغير لتحقيق اهداف ثلاثة ، الاستقلال والاصلاح الاجتماعي والوحدة : فالسلطة الاجنبية المتمثلة في بريطانيا هي التي اصدرت الوعد وهي التي رفضت حق تقرير المصير لعرب فلسطين ودعمت الصهيونية ، ثم غسلت يديها اخيرا ، وبرهنت العهود الرجعية عن ضعفها وعجزها وفسادها وفشلت في قهر العدو . كما كشفت الهزيمة المنافسات بين زعماء العرب ووجوه الضعف في الشعب

العربي الذي عجزت جيوشه عن خوض المعركة بصورة متناسقة .

في الفترة التي تلت النكبة حيث المنطقة العربية في حالةغليان والشعب يشعر بخيبة أمل ويبحث بلا أمل عن بوادر تغيير في الوطن العربي ،استمرت الهياكل القديمة من الحكومات بمنافساتها التقليدية وفسادها وظلمها ، واستمر الضغط الاجنبي من جهات مختلفة .

كيف يمكن للجيل الجديد ان يحدث التغيير في مجتمع لم يكتمل بعد وعيه السياسي ، ولا يزال يعاني الى جانب الصراع ضد القوى الاستعمارية والتجزئة ، من كل مشاكل المجتمعات المتخلفة ؟ لم يكن باستطاعة هذا الجيل ان يعتمد على الطبقة الوسطى لان نموها كان بطيئا بعد الحرب العالمية الثانية وكذلك لم يكن للفلاحين والعمال ثقل واضح ، فكان لابد له من قوة تستطيع أن تحقق التغيير المنشود .

ولم تكن الجيوش قد لعبت دورا في شؤون السياسة قبل الحرب العالمية الثانية باستثناء العراق . لانه في البلدان العربية التي سمح فيها بانشاء جيش وطني بقي الجيش محكوما بمعاهدات وشروط تضمنت عدم خروجه عن ارادة الادارة الاستعمارية .وكانت المشاعر التي تعمل في صفوف الشعب تعتمل في صفوف القوة المسلحة ، والضباط الصغار بوجه خاص، الا ان ضعف الحركة الشعبية وقوة الجيش النسبية جعلت القوى العسكرية أقدر على المبادرة . وينتسب الضباط الصغار الذين عملوا في حقل السياسة الى ما سُمي « بالجيل الجديد » قاسموهم أفكارهم وآمالهم وراقبوا طويلا وبعين يقظة التطورات السياسية مبتعدين عن الضباط الكبار المنتمين الى الطبقة العليا والمرتبطين بمصالحها والذين حاولوا ابقاء الجيش مواليا للنظام .

ويقول احد مراقبي الحياة السياسية العربية « ان طبقة الضباط العرب النبهاء غدت مستودع القوة السياسية الواعية في وقت كانت فيه الطبقة الحاكمة التقليدية قد افلست ، ولم تكن القوى الاخرى النامية قد تبلورت بعد ، فاخذت الجماهير ترى بالفعل في هذه طبقة « المخلص المنتظر » . واصبح الجيش هو القادر على مساندة الحركة الشعبية في صراعها مع الرجعية وهو الوحيد الذي يستطيع الصمود امام مؤامرات

الاستعمار والنفوذ الاجنبي ، ومواجهة الصهيونية ، والقادر بمعونة المدنيين ذوي السمعة الوطنية على تحقيق التغييرات الاجتماعية والاقتصادية .

مصادر البحث :

أرسكين تشايلدرز : الحقيقة عن العالم العربي ، لندن ١٩٦٠ ، بيروت (مترجم) .

أنيس صايغ : كلمة المستقبل العربي ، افتتاحية المستقبل العربي (مركز دراسات الوحدة العربية بيروت) نوفمبر ١٩٧٨ .

البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ، لندن ١٩٦٢ ، مترجم بيروت ١٩٦٨ .

جورج انطونيوس : يقظة العرب ، لندن ١٩٣٩ ، مترجم بيروت طبعة رابعة ١٩٧٤ .

حازم نسيبه : القومية العربية ، فكرتها وتطورها نشاتها ، نيويورك ١٩٥٦ ، مترجم بيروت ١٩٥٩ .

الثورة العربية الكبرى ومستقبل العمل القومي ، دراسات في الثورة العربية الكبرى) عمان ١٩٦٧ .

خيرية قاسمية : الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨ – ١٩٢٠ القاهرة ١٩٧١ .

ساطع الحصري : الاقليمية جذورها وبذورها بيروت ١٩٦٤ طبعة ثانية .

عبد العزيز الاهواني : ازمة الوحدة العربية ، بيروت ١٩٧٢ .

مجيد خدوري : الاتجاهات السياسية في العالم العربي، جون هوبكنز، ١٩٧٠ ، مترجم بيروت ١٩٧٢ .

ناجي علوش : الثورة والجماهير بيروت ١٩٧٣ طبعة ثالثة .

وليد قزيها : فكرة الوحدة العربية في مطلع القرن العشرين ، المستقبل العربي نوفمبر ١٩٧٨ .

القومية العربية في مرحلة مابين الحربين العالميتين، المستقبل العربي يناير ١٩٧٩ .

Agwani; Mohammed Shafi., The united States and the Arab world 1945-1952. Muslim University, Aligara India.

Crym, Bartley, Behind the silken Curtain, New York, 1947.

Gomaa, Ahmed M., The Foundation of the Leagure of Arab studies, London 1945.

khadduri, M. Independent Iraq : A study in Iraqi Politics, 1932 - 1953. Oxford, 1960.

Marlow, J., Arab Nationalism and British Imperialism, London, 1961.

العرب في شرق إفريقية
جزر القمر

عبد الرحمن بدر الدين

الموجه الاول للتاريخ في وزارة التربية

مقدمة :

خرج العرب المسلمون من جزيرتهم يحملون رسالة التوحيد ، محررين الاقطار المجاورة لهم من نير الاجنبي واثم الشرك ، وقد وصل هؤلاء الكماة في فترة وجيزة الى حدود الصين شرقا وشواطىء الاطلسي غربا ، واصبحت حضارتهم منارة للعالم يقتبس منها ويهتدي بهديها ٠

الا أن التواجد العربي وانتشار الدين الاسلامي تعدى تلك الحدود ولم يتوقف مع توقف عملية الفتح ، بل ان انتشار الدين والتسرب العربي استمرا بعد ذلك لعدة قرون متبعين الطرق التجارية التي كانت قائمة طيلة العصور الوسطى وشطرا من العصور الحديثة٠ ولقد انتشر الاسلام في جنوب شرقي اسيا ، حمله تجار يمنيون وحضارمة ، كما انتشر في وسط وغربي وشرقي افريقيا ، واسهم في حمله العرب المغاربة في غرب افريقيا والعمانيون والحضارمة واليمنيون في شرقيها فتأسست امارات ودول تدين بالاسلام وتحكم من قبل اسر عربية عريقة (الفونج ، زنجبار ٠٠) وكان الساحل الشرقي لافريقيا موطن استيطان للعرب القادمين من شبه الجزيرة ، فأثروا في تكوين سكانه العرقي ، وصبغه حضارته بحضارة عربية اسلامية ، ونشرو الدين الاسلامي بين سكانه ٠ وبذلك أصبح معظم سكان الساحل يتكلمون اللغة السواحلية التي هي مزيج من اللغة العربية ولغة البانتو الافريقية ، كما تطبعوا بالعادات والتقاليد الاسلامية وظهر منهم المتحمسون لهذا الدين فعملوا على نشره في الجزر القريبة منهم ، ومن اهمها جزر القمر مدار بحثنا في هذا المقال ٠

يتداول سكان هذه الجزر اسطورة قديمة توارثوها عن اجدادهم تقول : ان نفرا من الجن تآمر على بلقيس ملكة سبأ وسرق عرشها وخبأه بين حمم بركان كارتالا Carthala الموجود في جزيرة القمر الكبرى ، ولما يأست الملكة من العثور عليه ، لجأت الى صديقها الملك سليمان طالبة منه ان يأمر اعوانه بالتفتيش عن العرش واعادته الى عاصمة ملكها ثم تستطرد الاسطورة فتقول ان سليمان جاء بنفسه الى تلك الجزر مدللا بذلك على مدى اهتمامه بالامر · وامر باعادة العرش الى صاحبته ، بيد

انه دهش مما راه من مناظر بديعة اخاذة : اشجار باسقة ، وطيور ملونة مغردة ، ونباتات تنبعث منها روائح ذكية ، بالاضافة الى زرقة السمـاء الصافية والتي تحاكي زرقة البحر المحيط بتلك الجزر والتي ينعكس علـى صفحتها ليلا ظلال من اللهب المتراقص والمنبعث من بركان كارتالا • كل ذلك جعل سليمان يقرر الاقامة بعض الوقت في احضان هـذا الفردوس الـذي لم تمتد اليه يـد الانسان بعـد ، متناسيا مالديه مـن أعمال ومهام ، مؤثرا الاستمتاع والاستراحة في احضان الطبيعة البكر التي لم ير مثيلا لجمالها في مختلف اصقاع الارض •

تلك هي الاسطورة التي يتداولها سكـان جزر القمر ، ولقد عبـر واضعوها وبشكل موجز عما تتصف به هذه الجزر من جمال ساحر ،يندر وجوده في جزر المحيط الهندي وسواحل افريقيا الشرقية • وفي الواقـع ان الزائر لهـا يقف مشدوها امام روعة الطبيعة بحلتها الخضراء الدائمة والروائح العطرة المنبعثة من ارجائها ، بالاضافة الى تأرجح بصره بين القمم العالية ، وبخاصة قمة جبل كارتالا، Carthala حيث يجثم البركان الذي يحمل هذا الاسم على ارتفاع ٢٣٦١ مترا في جزيرة القمر الكبرى والذي ينبعث من فوهته الدخان بشكل دائم وبين زرقة مياه المحيط الصافية التي تتكسر أمواجها على الارصفة المحيطة بهذه الجزر والتي تجعل اقتراب السفن الكبيرة منها فيه الكثير من المغامرة وبحكم المستحيل •

السمات الجغرافية لجزر القمر :

يتألف ارخبيل جزر القمر من أربعة جزر متفاوتة في المساحة وعـدد السكان ، وهي :

- جزيرة القمر الكبرى ومساحتها ١١٤٨ كـم٢ وعـدد سكانهـا نحو ٠٠٠ر١١٨ نسمة •

- جزيرة موهيلي Moheli مساحتها ٢٩٠ كم٢ وعدد سكانها نحو ٠٠٠ر١٠ نسمة •

- جزيرة انجوان Anjouan ومساحتها ٤٢٤ كم٢ وعدد سكانها نحو ٠٠٠ر٨٣ نسمة •

- جزيرة مايوت Mayothe ومساحتها ٣٧٤ كم٢ وعدد سكانها نحو ٥٠٠ر٣٢ نسمة •

وهذه الجزر بمجموعها تقع الى الشمال من قناة موزانبيق بيـــن حطي عرض ١٢ ـ ١٤ درجة جنوب خط الاستواء فـي حين يمر خط طول ٤٤ مـن وسط جزيرة انجوان ثانية جـزر الارخبيل مـن حيث المساحـة وعدد السكان • تبلغ مساحة هذه الجزر نحو ٢٢٣٦ كم٢ بينما يصل عدد سكانها الى ما يقرب من ٢٥٠ر٠٠٠ نسمة فيكـون متوسط الكثافـة ١٠٤ شخصا في الكيلو متر المربع الواحد (١) •

ان اقرب جزر القمر الى الساحل الافريقي الشرقي هي جزيرة القمر الكبرى grande comor اذ تبعد عنه بحوالي ٣٠٠ كم ، بينما تفصل مياه المحيط جـزيـرة ما يـوت ، وتقـع في أقصى جـزر القمر نحـو الشرق ، عن ساحل جزيرة مدغسقر بمسافة مماثلة ، وتعتبر هذه الجزيرة اقدم جزر الارخبيل تكونا واكثرها تأثرا بعوامل الطبيعة حتى اصبحت جبالها اشبه بهضاب قليلة الارتفاع وتربتها اكثر عمقا وخصوبة من ترب الجزر الثلاثة الاخرى • بينما نجـد ان جزيرة القمر الكبرى احـدث تشكلا اذ تصل قمم جبالهـا الى ٢٤٠٠ م وتربتها اقل عمقا وخصوبة من ترب بقية الجـزر • وجزر القمر عامة مغطاة بصخور بركانية سوداء تحيل بعض مناطقها الى أراض جرداء قاحلة غير صالحة للزراعة بسبب انتشار الكتل الصخرية الصلدة الكتيمة على سطحها ، كما يتصف مناخ الجزر بالرطوبة الشديدة والحرارة المرتفعة التي تتراوح بين ١٨° ـ ٣٣° ويتعاقب عليها فصـلان رئيسيان هما فصل الجفاف ويمتد من شهر نيسان وحتى شهر ايلول وتهب عليها خلاله الرياح التجارية Alizé بينما تسيطر في الفصل المطير والممتد من تشرين الاول وحتى شهر آذار الرياح الموسمية ، وتصل فيه درجتي الحرارة والرطوبة الى حدهما الاعظمي مما يجعل الجو ثقيلاخانقا من العسير تحمله ، وتجتاح الجزر في هذا الفصل زوابع واعاصير تسبب في بعض الاحيان الكثير من المآسي والدمار وتزهق أرواح العـديد مـن السكان • ويبلغ المعدل السنوي للامطار نحو ٣ م الا أن هـذا الرقم متفاوت بين جزيرة واخرى حسب موقعها الجغرافي وتعرضها للرياح القادمة اليها•

(1) La grande Encyclopédie - Larousse, Vol. 5.

شيء من التاريخ :

يكتنف الغموض التاريخ القديم لهذه الجزر من كل جوانبه ، ولم يتمكن الباحثون والمنقبون عن الاثار والوثائق من العثور على ما يضيءلهم الطريق لمعرفته · ولا يعني هذا ان تلك الجزر لم تكن مأهولة في سالف العصر وان سكانها لم يخلفوا وراءهم بعض منشأتهم وادواتهم ، بل انه من المعقول جدا ان اندفاعات البراكين وما تحمله من حمم مدمرة قضتعلى تلك الادوات والمنشآت فطمست بذلك معالم التاريخ القديم لهذه الجزر · اما تاريخها في العصور الوسطى فان المصادر اليونانية والرومانية لا تأت على ذكره ، بينما نجد الجغرافي العربي ياقوت الحموي المتوفى سنة ١٢٢٨ يذكر في معجمه تحت اسم القمر ما يلي :

« القمر جزيرة في وسط بحر الزنج ، ليس في ذلك البحر اكبر منها، فيها عدة مدن وملوك ، كل واحد يخالف الاخر ، ويوجد في سواحلها العنبر وورق القماري وهو طيب يسمونه ورق التانبل ويجلب منها الشمع أيضا (١) » ·

من الواضح ان هذا الوصف ينطبق على جزيرة مدغسقر الواقعة الى الشرق من جزر القمر الحالية ، فهي اكبر جزر بحر الزنج كما يصفها ياقوت ، ومن المحتمل ان هذه التسمية كانت تطلق على جميع الجزر الواقعة الى الشرق من قناة موزانبيق ولكنها ما لبثت ان اقتصرت مع الزمن على الجزر الاربعة المعروفة حاليا بهذا الاسم ·

وتذكر بعض المصادر التاريخية ان عبد الملك بن مروان ارسل بعثة الى الساحل الشرقي لافريقيا ، وصل أفرادها الى ممباسة وعاشوا فيها الى جانب سكانها الاصليين ، وما لبث ان لحق بهم أعداد كبيرة من جنوب شبه الجزيرة العربية ، أخذوا يعملون للسيطرة على الساحل الشرقي فأسسو مدينة كلوة عام ٣٦٥ هـ / ٩٧٦ م ، وشمل نفوذهم جزر زنجبار وممباسة وبمبا (٢) · ومن المؤكد أن قسما منهم تسرب الى الجزر

---

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ط · صادر ، بيروت ١٩٧٥ ، الجزء ١٦ ، ص ٣٩٧ ·

(٢) عبد الكريم الغرايبة ، دراسات في تاريخ افريقيا العربية ، ١٩١٨ ـ ١٩٥٨ ·

القريبة من الساحل وسيطروا عليها واسموها باسم جزر القمر · ويعتقد بعض الباحثين ان هذه التسمية جاءت للتدليل على جمال تلك الجزر ، اذ ان العرب يقولون عن الشيء الجميل انه كالقمر ، بينما يظن اخرون ان التسمية تدلل على البعد وعدم امكانية الوصول اليه فيقولون بعيد بعد القمر ، وراي ثالث يؤيده سكان هذه الجزر وهو ان التسمية جاءت نسبة الى قُمْري وجمعها قُمُر ، وكلمة قمري تعني نوع من الحمام الذي يكثر في هذه الجزر مما جعل المارين بجوارها يقولون انها جزر القمر ، أي ذلك النوع من الحمام الذي يكثر فيها ، وما ان بدأ البرتغاليون عصر الاكتشافات الجغرافية حتى اصطدموا بالنفوذ العربي في الساحل الشرقي لافريقيا ، فعمدوا الى انشاء قواعد استعمارية لاساطيلهم في المحيط الهندي والخليج العربي لتأمين خطوط مواصلاتهم الى الهند ، كما اخذت السفن الاوربية من انكليزية وهولندية وفرنسية تجوب المحيط الهندي في طريقها الى بلاد التوابل باحثة عن مراكز لاساطيلها وقواعد لقواتها لتؤمن خطوط مواصلاتها الى مستعمراتها في الشرق الاقصى والهند · وكانت هذه السفن تحازي في الغالب جزر القمر وتشتري منها ما تحتاج اليه من مواد تموينية · وقد جاء في تقرير كتبه ضابط هولندي يدعى Van Broecke عام ١٦١٤ ، وصفا لجزيرة انجوان التي حل بها بتكليف من قائده ولغرض تمويني ما يلي : (١) ·

« بعد ان اجتزنا رأس الرجاء الصالح في ٣ مايس ١٦١٤ ، ابحرنا ما بين مدغشقر وشاطيء سفاله Sofala حتى جزر القمر مارين امام موزانبيق · وفي ٣ حزيران القينا المرساة أمام جزيرة Answannij (انجوان) وارسلني قائدنا الجنرال Gerard Reynst في الغداة الى الجزيرة حاملا هدية للملك Mogné - Fané وطالبا منه السماح بشراء بعض المواد الغذائية · لقد استقبلت مندنزولي من قبل الملك نفسه الذي كان عربي المولد وقادني الى قصره باحتفال تخلله الطبل والزمر واعطاني ١٢ بقرة و ١٠ خراف و ٢٠ دجاجة وفاكهة ممتازة · ثم عقدت اتفاقا معه حول تحديد اسعار البقر الذي نرغب بشرائه وعدت لاعلم الجنرال بنبأ اتفاقنا ، فأرسلني

---

(1) Robert Laffont; Les mémoires de l'Afrique des origines à nos jours, p. 342.

الى الجزيرة ثانية فقصدت مدينة Demonjo (دوموني حاليا Domoni) حيث تعيش ملكة جزر القمر Mollanna Allachorre وزوجها عيسى Haissa وقد استقبلتني استقبالا حسنا وانزلتني في بيت أحد سادة المدينة ، وما ان علم السكان بهدفي من الزيارة حتى اخذوا يعرضون علي مختلف منتجاتهم كالبقر والخراف والماعز والدجاج والارز الابيض والدخن والفول والفواكه ٠٠٠٠٠ وقد قايضت الملكة باعطائها ورقا للكتابة مقابل البقر الذي حصلت عليه ٠٠٠٠ وفي جزيرة انجوان اربعة مدن كبيرة محصنة ومحاطة بأسوار و ٣٤ قرية ٠والسكان اصحاب امزجة فرحة مستبشرة وهم جميعهم مسلمون ويوجد في الجزيرة العديد من المساجد وزعماؤها من اصل عربي ٠٠٠٠ ويجلب اليها العبيد من أرض الكاهن يوحنا Prêtre - jean والحبشة ومدغسقر وهم خدم ممتازون لا يكلف الحصول عليهم غاليا وانجوان جزيرة كثيرة الخصب فيها الكثير من المياه التي تنحدر من الجبال ويزرع فيها كل انواع الفواكه وجوز الهند كما تكثر فيها الطيور كالطواويس والحجل والببغاوات ٠ ٠ ٠ ٠ ويبحر سكان الجزيرة في موسم الرياح الموسمية الى جزيرة مدغسقر بسفنهم الخالية من المسامير الحديدية ، وانما تشد دفوفها الى بعضها البعض بواسطة خيوط مصنوعةمن اليافجوزالهند ويشترون من تلك الجزيرة الارز والدخن والعنبر والعبيد حيث ينقلون هذه البضائع الى البلاد العربية عبر البحر الاحمر ليبادلوا بها بالاقمشة القطنية والافيون ٠

ويختم Van Broecke تقريره بقوله ٠٠٠٠ ان هذه الجزيرة تضم نحو عشرة ملوك صغار يستقر العداء فيما بينهم وهم في حروب دائمة ٠ تلك هي مقتطفات من تقرير ذلك الضابط الهولندي ، وهي تشير صراحة الى وجود العنصر العربي في تلك الجزر كما تؤكد ان الديانة السائدة فيها هي الديانة الاسلامية ، وانها كانت تحتوي على ثروات حيوانية ونباتية كثيرة ورخيصة الثمن وان ربابنة السفن كانوا يؤمونها للتزود بالمؤن وما يحتاجون اليه في سفرهم الطويل ٠

ان الدراسات الايتنولوجية واللسانيات Languistique والروايات المتناقلة شفاها كلها تشير الى وجود قرابة عرقية بين سكان هذه الجزر وسكان الساحل الشرقي الافريقي ، اذ ان سكان هذا الساحل يتكلمون اللغة السواحلية بينما يتكلم القمريون لهجة من لهجاتها بالاضافة الى

الكثير من الكلمات العربية المليئة بها · ويذهب الاب الفرنسي Sacleux الى القول : ان السكان الاول للجزر كانوا من اصل فارسي ومن مدينة شيراز بالذات اعتمادا على بعض المعلومات التاريخية التي تؤكد مجيء قادمين جدد اليها حوالي عام ١٥١٠ من اصل شيرازي ، وان اسلافهم كانوا قد غادروا بلاد الفرس بسبب اضطهادات مذهبية في عهد الاسرة الصفوية ، اذ انهم لم يقبلوا الاخذ بالمذهب الشيعي بديلا عن مذهبهم السني (المدرسة الشافعية) مما جعل السلطات الفارسية انذاك تضيق عليهم الخناق وتطاردهم ، فلجؤوا الى حضرموت ثم هاجروا الى الساحل الشرقي لافريقيا بعد ان كانوا قد اختلطوا بعرب الحجاز واليمن· واقاموا على طول الساحل وبخاصة في مدينتي كلوة kiloa وباتا Patta وهاجر فيما بعد بعض احفادهم الى جزر القمر تحت امرة احد زعمائهم المدعو محمد الثوماني والذي اشتهر باسم محمد عيسى واتخذ من جزيرة القمر الكبرى موطنا له · بينما اتجه مساعده الاول المدعو حسان نحو جزيرة انجوان وجعلها مقرا له والثاني ويدعى عثمان نحو جزيرة مايوت وجعلها مركزا لنشاطه · لقد عمل هؤلاء الثلاثة مع ابنائهم واتباعهم على نشر الديانة الاسلامية ، فاعتنق القمريون الاسلام واتخذوا المذهب السني مذهبا لهم ، وذلك بتأثير هؤلاء الدعاة الذين اصبح احفادهم فيما بعد يشكلون طبقة ارستقراطية تزعمت الجزر وسيطرت عليها حتى مجيء الغزو الاوربي واخضاعها لحكمه ·

لقد تعرضت الجزر قبل احتلالها رسميا من قبل فرنسا الى الكثير الغزوات الاجنبية التي كانت تحمل معها الموت والدمار ، فلقد غزاها البرتغاليون ، كما غزاها القراصنة الذين طردوا من منطقة جزر الانتيل فنقلوا نشاطهم الى مياه قناة موزانبيق · وفي عام ١٧٨٠ بدأ قراصنة مدغشقر يشنون غارات متواصلة على الجزر بغية السلب والنهب فكانت غنائمهم تتألف في الغالب من العبيد ، والنساء ، والبقر الهندي zebus وقد استمروا في تعدياتهم نحو اربعين عاما ، ولما كانت هذه الجزر مفككة انذاك لا تخضع الىحكم موحد ، لذا كان على سلطان كل جزيرة ان يدافع عن جزيرته بمعزل عن السلاطين الاخرين ، وهذا ما اطمع بهم القراصنة وبخاصة قراصنة مدغسقر الذين احتلوا جزيرة مايوت وجعلوها مركزا لنشاطهم يشنون منها غارات مفاجئة على الجزر الاخرى باعثين الذعر

والرعب فيها حتى احتلال الفرنسيين لهذه الجزيرة عام ١٨٤١

لقد جاء احتلال جرز القمر اثر تجريد فرنسا من معظم مستعمراتها مما جعل ضباط الاسطول الفرنسي العامل في المحيط الهندي يفتشون عن مناطق جديدة تعوضهم عن خسارة بلادهم في هذا المحيط وبخاصة بعد سلبهم جزر موريس اثر معاهدة فيينا ١٨١٥ ، ولقد وجدوا الفرصة سانحة للتدخل في النزاع الذي كان مستعرا بين قراصنة مدغشقر من جهة وسلطان جزيرة انجوان الموالي للانكليز من جهة ثانية ، وقد وافقت الحكومة الفرنسية على احتلال جزيرة مايوت بحجة مطاردة القراصنة ومكافحة تجارة الرقيق التي وضع مؤتمر فينا حدا لها · وفي عام ١٨٤٢ بسطوا نفوذهم على جزيرة موهيلي واقصوا ملكتها فاطمة دجومبيه Fatima Djombé عن عرشها ، وعينوا مكانها سيدة من اصل كريولي تدعى Madame Droit الا انهم ابعدوها عن الحكم سنة ١٨٥١ · ثم تابعت فرنسا احتلال الجزيرتين الاخريين ، واعلنت سنة ١٨٨٦ حمايتها على جزر القمر بكاملها (١) ، وما لبثت ان الغت الحماية سنة ١٩١٢ واعتبرت الجزر مستعمرات فرنسية ، ثم الحقتها في مطلع الحرب العالمية الاولى بحكومة مدغسقر الاتحادية · وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية اعتبرت فرنسا هذه الجزر من ممتلكاتها فيما وراء البحار وسمحت لها بتشكيل مجلس للشيوخ واخر للنواب · وفي سنة ١٩٦٢ منحت الجزر الاستقلال الداخلي واصبح النائب القمري في البرلمان الفرنسي سابقا سعيد محمد الشيخ رئيسا لحكومة الجزر فاتخذ من مدينة موروني Moroni في جزيرة القمر الكبرى عاصمة للبلاد · وبدأ القمريون بتشكيل أحزاب سياسية برز منها حزبان هما : حزب التجمع الوطني للشعب القمري ، وحزب الاتحاد الديقراطي للقمريين ، أخذا يتنافسان للسيطرة على مقاليد الحكم ، وبعد وفاة رئيس الحكومة سعيد محمد الشيخ خلفه الامير سعيد ابراهيم في فترة حرجة من تاريخ البلاد ، ازداد فيها الصراع السياسي وساءت الاوضاع الاقتصادية ، ثم انتخب في ٢٤ كانون الاول ١٩٧٢ عضو مجلس الشيوخ احمد عبد الله رئيسا لحكومة الجزر وتم له ذلك اثر زيارة قام بها الى فرنسا واجتماعه مع الرئيس جورج بومبيدو واتفاقهما على

---

(1) Bernard Gerard Delroisse, Les Comores.

اجراء استفتاء لسكان الجزر لمعرفة رغبتهم في الاستقلال او البقاء تابعين للجمهورية الفرنسية ، وتم ذلك في ٢٢ كانون الاول ١٩٧٤ فجاءت النتيجة مؤيدة للاستقلال واعلن الرئيس أحمد عبد الله استقلال الجزر الاربع في ٧ تموز سنة ١٩٧٥ وانتخبه السكان رئيسا للدولة ٠

كا على الرئيس الجديد ان يبدا بانشاء الاطر الضرورية للدولة ، وان يواجه المشاكل العاجلة التي نشأت عن انسحاب الفرنسيين وتسليمهم مقدرات الحكم في الجزر للقمريين عدا جزيرة مايوت ٠ الا انه اطيح به في ٥ اب ١٩٧٦ اثر انقلاب عسكري رفع الى سدة الرئاسة السيد علي صويلح رئيس الاتحاد الديموقراطي للقمريين ، الذي لاقى معارضة قوية من السلطة الفرنسية في جزيرة مايوت والتي كانت تحرض سكان الجزيرة وتشجع اقلية من الكريول على الانفصال عن دولة القمر ، حرصا على مصالح بعض الراسماليين الفرنسيين الذين يملكون مزارع واسعة للنباتات العطرية في هذه الجزيرة ٠ اما الرئيس السابق فقد لجأ مع بعض اعوانه الى فرنسا حيث بدا يتدبر الامر للعودة الى بلاده منتصرا وتم له ذلك اثر انقلاب قام به بعض المرتزقة وبزعامة احد الفرنسيين المقيمين في جزيرة مايوت ١٩٧٨ قتل فيه الرئيس صويلح وبعض اتباعه ٠ وفي الواقع ان الصراع بين الحزبين لا يقوم على اسس ومباديء سياسية بل يكمن وراء الشعارات مصالح شخصية بحتة وارتباطات مع بيوتات مالية اجنبية ٠ فلقد كان يمثل جزر القمر في اوربا سفير جوال يحمل الجنسية الفرنسية، متهم في نزاهته وولائه لهذه الجزر ولكنه مرتبط بها بما يملكه فيها من أراض ومزارع يستغلها لحسابه الشخصي ٠

الحياة الاجتماعية في جزر القمر

لا يشكل سكان ارخبيل جزر القمر وحدة عرقية متجانسة ، بل هم خليط من اجناس مختلفة ويتضح ذلك من سحنهم ولون بشرتهم ، ومن الممكن ان نميز خمسة اجناس رئيسية وهي :

١ ـ **العرب** : وقد جاؤوا من جنوب شبه الجزيرة العربية ومنطقة

الخليج وضفاف البحر الاحمر ، وهم يشكلون من الناحية العرقية اهم الاجناس المتواجدة في الجزر ، كما انهم يعتبرون الطبقة الارستقراطية والحاكمة ، ويتمتعون باحترام بقية المواطنين اذ نشر اسلافهم الاسلام بين السكان القدماء واعطوهم الحروف العربية لاستخدامها في كتابة لغتهم الوطنية ٠

٢ ـ Oimatsaha ويرجع هؤلاء في اصولهم الاولى الى جزر الهند الشرقية وهم يتمركزون في المرتفعات الجبلية لجزيرة انجوان ويتصفون بالبشرة السمراء والشعر الاملس او المجعد حسب درجة التهجين والانف المقوّس والجبهة المتراجعة ٠

٣ ـ Les Makoas وهم من اصل افريقي انتقل اجدادهم من الساحل الشرقي لافريقيا الى الجزر كرقيق يعملون في البيوت والمزارع ثم تكاثروا فأصبحوا يمثلون فئة لا بأس بها من السكان من حيث العدد ٠

٤ ـ Les Cafres وهم احفاد السكان القدامى لهذه الجزر ، يرجعون بأصولهم الى البانتو Pantous الافارقة ويعتبرون اقلية بالنسبة لبقية الاجناس ٠

٥ ـ المدغسقريون ويقيمون بشكل خاص في جزيرة مايوت ، قدموا اليها زمن الهجرات ونشاط القراصنة ، ومعظمهم مهجنون يطلق عليهم اسم الكريول Criole ان جميع سكان هذه الجزر مسلمون محافظون عدا أقلية ضئيلة من الكريول في جزيرة مايوث اعتنقت الديانة المسيحية بتأثير المبشرين الفرنسيين وبتشجيع من الحكومة الفرنسية ٠ وتنتشر المساجد في جميع أنحاء الجزر ويزيد عددها على ٦٠٠ مسجد وهي تغص بالمصلين في أيام الجمع وشهر رمضان ٠ والحج مطمح رئيسي للاغنياء من السكان اذ يكسبهم احترام عامة الناس وثقتهم ، كما أن اتباع الطرق الصوفية شائع بينهم ، ولعل الطريقة الشاذلية هي التي تحظى بأكبر عدد من المريدين والقمريون يقدسون قبر محمد التوماني المدفون في جزيرة القمر الكبرى لانه أول من نشر الاسلام في هذه الجزر فيفدون لزيارة قبره والتبرك به ٠

ان الاسرة لدى القمريين تقوم من حيث المبدأ على نظام تعدد الزوجات ، وعلى والد الفتاة أن يهيىء لابنته بيتا أو كوخا حسب امكانياته المادية لسكنى الزوج فيه ، الذي من واجبه أن يكون عادلا بين زوجاته وأن يرعى أولاده ويعمل على اسعادهم ، كما أن عليه أن يوزع ثروته واملاكه على اولاده وازواجه قبل وفاته ، ولدى القمريين تقليد يسمونه الزواج الكبير يحرص كل مواطن على تحقيقه ليحسن من مركزه الاجتماعي ويكسب احترام الآخرين • ويتم هذا الزواج بأن يقوم القادر عليه بتجديد عقد زواجه من امرأة على عصمته أو بالزواج من فتاة جديدة تنضم الى زوجاته الاخريات • ولا بد من فترة استعداد قد تطول الى عشر سنوات أو أكثر بسبب ما يكلفه هذا الزواج من نفقات مادية باهظة، ، وهذا يتطلب مؤازرة جميع أقارب العريس وأبناء عشيرته •

تبدأ خطوات الزواج بأن يستشير الزوج العرافين فيمن يريد الزواج منها ، وهل سيكون ذلك في مصلحته في المستقبل ولسعادة اسرته وقبيلته ثم يرسل بعض الهدايا لاسرة العروس يعقبها زيارة مع ثلة من أقاربه لتقديم المهر لابيها • ومن ثم يحدد يوم الزفاف الذي يكون في الغالب يوم جمعة ، وتبدأ الاحتفالات بمواكب طويلة يشارك فيها جميع أبناء القرية وتستمر ثلاثة أيام ، لايألوا خلالها الموسيقيون جهدا في اظهار قدراتهم الغنائية والموسيقية وتقام المآدب كل يوم وتنفق الاموال الطائلة للتعبير عن الكرم من ناحية وتأكيدا لملاءة العريس المادية ، وفي اليوم الثالث يخرج العريس من داره مع أقاربه وأصدقائه في موكب كبير متجهين نحو بيت الزوجية المقبل حيث تكون العروس وأمها بانتظاره ، ويتقدم الموكب شاب يحمل على رأسه صينية مكشوفة تحتوي على الحلي والمجوهرات والهدايا التي قدمها العريس لعروسه •

وما ان يصل الموكب الى بيت العروس حتى يأخذ أفراده بالانصراف تاركين العريس عند عروسه لوحدهما ولمدة تسعة أيام لا يحق للزوجة خلالها أن تغادر بيتها ولها أن تستقبل صديقاتها المباركات لها بالزفاف ، بينما لا يحق للزوج أن يظهر أمامهن وعليه أن يبقى مختبئا في غرفة مجاورة • وما ان تنقضي هذه الايام التسعة حتى تعود الحياة الى مجراها الطبيعي فتنصرف العروس الى عملها في البيت أو الحقل ، كما ينصرف العريس الى عمله السابق •

ان الزواج الكبير في نظر القمريين يعطي صاحبه امتيازات كثيرة لا تقل عن الامتيازات التي يحصل عليها الحاج الى بيت الله الحرام ٠ فلصاحبه الحق في المشاركة في مجلس الاعيان ، الذي يبحث كل الامور الهامة المتعلقة بحياة سكان المدينة أو القرية ، كما باستطاعته أن يكسب ثقة التجار والمولين والشركات فيستدين منهم مبالغ طائلة يوظفها في أعماله الزراعية أو التجارية ، كما تتغير نظرة المواطنين اليه فتصبح كلها تجلة واحترام يشيدون بأفضاله ومآثره في مجالسهم الخاصة وفي أسواقهم هذا بالاضافة الى أن من حقه أن يكون ضمن المصلين في الصف الاول في المسجد ٠٠٠ الخ ٠

ان هذه الميزات التي حصل عليها سيكون لها تأثير مباشر على أقاربه وعشيرته ومن هنا جاء حرصهم على الاسهام بأموالهم لتحقيق هذا الزواج مؤملين الفائدة المادية والشرف والجاه من ورائه ٠

ان هذا النوع من الزواج لايزال معمولا به في معظم جزر القمر ، ولكنه أخذ يتلاشى بعض الشيء في عاصمة البلاد موروني ، كما أخذت ظاهرة تعدد الزوجات تجد بعض المعارضة والنقد في صفوف القمريين المثقفين ٠

أوضاع جزر القمر الاقتصادية :

تعتمد هذه الجزر في حياتها الاقتصادية على ما تصدره من خلاصة العطور حيث تزرع مساحات واسعة من النباتات العطرية مثل الفانيلا ، اللانج لانج ، القرنفل ، الياسمين ، الحبق ٠٠ الخ ٠ وتملك الشركات الفرنسية جميع مصانع التقطير الموجودة في هذه الجزر ، كما تعتمد الجزر على بعض ما تنتجه من القرفة ، والكوبرا والموز والقهوة ٠ ولما كانت قيمة الصادرات لا تفي بحاجتها لذا فانها تستفيد من الاموال التي يرسلها أبناؤها في الخارج الى ذويهم ويبلغ عدد هؤلاء المغتربين نحو خمسين الفا في جزيرة مدغشقر واربعين الفا في زنجبار ، هذا بالاضافة الى المساعدات المادية والعينية التي تأتيها من دول الجامعة العربية ومن منظمة الشعوب الناطقة باللغة الفرنسية ٠

لقد استغلت فرنسا الوضع الاقتصادي السيء وأخذت تمارس ضغوطا مختلفة بعد ان حصلت الجزر على استقلالها بغية الابقاء على الثقافة والمصالح الفرنسية ، فامتنعت مثلا عن تزويد البلاد بما تحتاج اليه من مدرسين في العام الدراسي ١٩٧٥ وبذا تعطلت الدراسة في المرحلة الاعدادية في ذلك العام . مما ألجأ المسؤولين الى الاستعانة بمنظمة الشعوب الناطقة بالفرنسية التي أمدتهم في العام التالي ببعض المدرسين والذين تنقصهم الخبرة والكفاءة العلمية مشترطة أن تكون المعونة لمدة عام واحد . وقد دفع ذلك بالمسؤولين للاستعانة بالجامعة العربية التي وعدتهم بتلبية طلبهم مؤملة أن يتبنى القمريون اللغة العربية كلغة رسمية للبلاد ، ولكن فرنسا هددت بأنها لن تعمل على حل مشكلة جزيرة مايوت التي لا تزال بحوزتها اذا ما تم الامر . وكان من نتيجة ذلك أن أقر القمريون الاستمرار باعتبار اللغة الفرنسية كلغة أولى في التعليم وأن تأتي اللغة العربية كلغة أجنبية في المدارس .

والقمريون اجمالا متدينون يرسلون أطفالهم منذ سن الرابعة الى الكتاتيب التي تنتشر في جميع القرى وبأعداد كبيرة ، ويشرف عليها بعض المتدينين من الرجال أو النساء ، يجدون من واجبهم الدينيتعليم هؤلاء الاطفال قراءة القرآن وأمور دينهم والاحرف العربية ، وان كانوا هم انفسهم لا يفقهون معنى ما يقرأون واذا ما بلغ الطفل السابعة أو الثامنة من العمر أرسله ذووه الى المدرسة ان توفرت في منطقتهم ليبدأ تحصيله العلمي والتعليم في مختلف مراحله مجاني وتقوم الدولة بالانفاق على المدارس الداخلية التي يتألف معظم طلابها ممن لا تتوفر في قراهم مدارس تؤمن لهم التعليم ، وهذا ما يزيد في الاعباء المالية للدولة .



مُلوكُ أوغاريت مِنْ خِلالِ الوَثائِق
لمحةٌ عن تاريخ أوغاريت

د . علي أبو عساف

ان المادة المتوفرة لكتابة تاريخ مملكة اوجاريت الزاهرة قسمان : الآثار العمرانية والمصنوعات بمختلف أنواعها ، والآثار الكتابية .

أما الاولى فتستخدم للتعريف بالتاريخ الحضاري للمدينة ، والكتابية للتاريخ السياسي للمملكة . وبما ان الاخيرة تعود الى القرنين الرابع والثالث عشر ق.م ، فهي تلقي الضوء على تاريخ المدينة خلال هذين القرنين فقط . لذا فالمعول عليه في كتابة تاريخ المدينة قبل ذلك هي الآثار المادية وبعض المعلومات المستقاة من مصادر اجنبية كالحثية والمصرية .

وبما اننا لانرغب في كتابة تاريخ شامل لمملكة اوجاريت ، نكتفي باستنطاق الوثائق الكتابية التي بين أيدينا ، الاجنبية والمحلية ، في كتابة هذا الموجز .

ولا بد هنا من تقسيم تاريخ اوجاريت الى دورين :

١ ــ الدور الذي يسبق القرنين الرابع والثالث عشر ق.م :

كانت اوجاريت على صلات وثيقة مع جيرانها فيما وراء البحار وفي الداخل . فقد اكتشفت فيها آثار مصرية من عصر الامبراطورية الوسطى (٢٠٥٢ ــ ١٦١٠ ق.م) اهمها منحوتات لزوجة الفرعون زيزتروس الثاني (١٨٩٧ ــ ١٨٧٩ ق.م) وللملك امنمحت الثالث (١٨٤٠ ــ ١٧٩٢ ق.م) (١) . وان دلت هذه المكتشفات على شيء فانها تدل على قيام

علاقات صداقة بين حكام اوجاريت وحكام مصر وحاشيتهم . وقد أرسل المصريون هذه المنحوتات الى اوجاريت للتقرب منها والحصول على بركة اربابها ، والتمهيد لبسط النفوذ السياسي عليها . ولكن لاشيء يثبت وقوع هجوم مصري في تلك البقاع .



ناقرة الدف قطعة عاجية ، اسلوب مصري .

هذا ماكان من امر اوجاريت ومصر ، أما عن علاقة اوجاريت مع الدول الكنعانية في الداخل ، فلا تزال سرا مجهولا . وقد قدمت الينا محفوظات قصر ماري وثائق قليلة جدا ، تحوي معلومات بسيطة ، ولكنها ممتعة تعود الى النصف الاول من القرن الثامن عشر ق.م (٢) . ويستدل منها ان صلات تجارية وثيقة كانت قائمة بين اوجاريت من

جهـة وحلب وماري من جهة اخرى . ويبدو ان علاقة اوجاريت بحلب كانت اوثق من علاقاتها بماري . ونذكر في هـذا الصدد ان ملك يمحاض ـ التي كانت عاصمتها حلب ـ عمـورافي الاول قـد أعلم سمرليم ملـك ماري برغبة امير او شيخ اوجاريت في زيارة ماري لمشاهدة قصرهـا العظيم الذائع الصيت . ونستدل من هـذا أن حكام أوجاريت في القرن الثامن عشر لم يكونوا بعد قد لقبوا ملوكا ، كما انه لم يكن لديهـم قصور كأخوانهم في ماري ويمحاض . ولم تكشف التنقيبات الاثرية في أوجاريت عما يخالف هذا الاستنتاج .

ونحن وان كنا لانعرف اسم هـذا الامير ، فاننا نقرأ على ختم من عصر خلفه ، يسمى ختم السلالـة المالكة ، واستعمله ملوك اوجاريت جميعهم ، اسمي الملكين يقارو وابنه نقم هدد الذين حكما بصورة تقريبية خـلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن السابع عشر (٣) . والثابت من استعمال الختم الملكي من قبل ملـوك أوجاريت الذين حكموا بعد هذين الملكين ، انهما ، او بالاحـرى أن يقـارو هو مؤسس السلالة الحاكمة التي نعرفها .

لم تقتصر صـلات اوجاريت التجارية عبر البحار على مصر ، بـل شملت ايضا العالم الايجي وقبرص . وكانت الطرق التجارية البحرية بينهم خاليـة من المخاطر والمعوقات . اذ لم تكن هناك دول قوية علـى الشواطىء بين اوجاريت والعالم الايجي تهـدد او تعيق حركة التبـادل التجاري بينهم . ولا شك ان الجبل الاقرع شمالي اوجاريت كان بمثابة منارة للسفن المبحرة نحوها وخاصة قبرص .

وبعـد ازدياد نفوذ مدينة الـلالخ في سهل العمـق قبيل منتصف الالف الثانية ق.م وانتقال مركز السلطـة من حلب اليها ، نشأت في القصر الملكي بها دار محفوظـات حوت بضع وثائق تحدثنـا عن استيراد اللالخ لمـادة الصوف من اوجاريت (٤) . ويبدو انه بعد سقوط مـاري قـد توطدت علاقات اللالخ واوجاريت التجاريـة اكثر فأكثر . ولكننا لانعلم حجم المبادلات التجاريـة بينهما بدقة . وبحكم التجاور بـين الدولتين ، وتوسع كل منهما باتجاه الاخرى بدأتا بتنظيم علاقاتهمـا على أسس محـددة مدعمة بوثائق واتفاقـات ، يقضي بعضهـا بتسليـم المجرمين والفارين والسـارقين . ونذكر هنا برسالة من ملك اللالخ نقميبا



آنية من العالم الايجي تشهد على قوة العلاقة بين اوجاريت وهذا العالم •

الى عبيرا ملك اوجاريت يعلمه فيها ان احد الخدم قد فر من اللالخ ومعه ثلاثة خيول ، ومن المحتمل انه قصد اوجاريت . لذا يرجوه أن يأمر بالقبض عليه واعادته الى اللالخ (٥) .

لم تكن يمحاض القوة السياسية الوحيدة في الشمال التي كانت تتعامل معها أوجاريت ، فقد ظهرت على المسرح السياسي ، الدولة الميتانية الى الشرق من الفرات وحاولت بسط نفوذها على الاراضي الواقعة غربيه ، مثل حلب واللالخ وحتى أوجاريت . والواقع اننا لانعرف كنه العلاقات بين اوجاريت والميتانيين الحوريين على وجه الدقة . ولكن يبدو انها كانت عادية ولم تكن ثمة عداوة بينهم .

وبوصول السلالة الثامنة عشر (١٥٧٠ ــ ١٣٤٥ ق.م) الى الحكم في مصر تعزز النفوذ المصري في بلاد الشام كلها ، وشد ملوكها الرحال الى بلاد الشام تصديا للحثيين والميتانيين لمنعهم من بسط نفوذهم وسيطرتهم الكاملتين عليها . وقد حرصوا على أن تكون اوجاريت لموقعها الستراتيجي الممتاز في صفهم ، واحتفظوا بحامية عسكرية فيها خلال عهد توت موسيس الثالث (١٥٠٢ ــ ١٤٤٨ ق.م) وامنوفس الثاني ١٤٤٨ ــ ١٤٢٢ ق.م(٦).

٢ ــ اوجاريت في عصرها الذهبي :

يمتد العصر الذهبي لاوجاريت من ١٤٠٠ ــ ١٢٠٠ ق.م تقريبا . وخلال هذين القرنين شهدت بلاد الشام صراعات داخلية سببتها أطماع الحثيين والميتانيين فيها ، ومحاولتهم بسط نفوذهم عليها أو على جزء منها . وتصدي ملوك مصر لهاتين القوتين الكبيرتين في الشمال ومحاولتهم منعهما من تحقيق أهدافهما . فانحاز اليهم بعض الحكام وعاداهم البعض الآخر .

ولابد من الاشارة هنا الى أن بلاد الشام قد تمتعت ، في النصف الاول من الالف الثانية ق.م ، بالاستقرار السياسي ــ على عكس ماجرى في النصف الثاني ــ فقامت فيها دول ودويلات كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر أوجاريت ، اللالخ ، قادش ، آمورو ، جبالا (جبيل) مجدو ، أوفه ، ... الخ . ولم تقم وحدة سياسية بين هذه الدول تجمع شملها ، فبقيت مجزأة ، فالوحدة السياسية هي القبيلة ، التي استقرت في بقعة معينة من بلاد الشام ، واتخذت في تلك البقعة مدينة ملائمة عاصمة لها . ولم تكن هذه الوحدات السياسية على درجة متساوية من القوة ، كما انه لم يطل بها الزمن حتى سقطت في أيدي الدول القوية المجاورة .

وكان لهذا الوضع ، وحرمان بلاد الشام من حكومة مركزية قوية ، كما في بابل وحتّي ومصر ، أثر كبير في تطورها السياسي والحضاري ، كما سنرى من هذا العرض الموجز لتاريخ أوجاريت ، وأعمال ملوكها الذين اهتموا بالعمران وتنشيط التجارة والزراعة ومختلف أنواع الفنون والآداب ، فاطلقنا بحق على هذه الحقبة العصر الذهبي .

شهد العصر الذهبي الاوجاريتي عدة ملوك كان أولهم عمم ثتمر أي عم استمرى ، ويعني استمرى الشعب . والواقع أن أخبار هذا الملك لم تصل الينا من وثائق عصره ، بل من وثائق خلفه . وفي هذه الوثائق اشارات واضحة تدل على ان الملك عم ثتمر قد اقام علاقات ودية مع الحثيين والمصريين ، وكان على خلاف مع العموريين في الجنوب الذين استقروا في السهول الممتدة بين طرطوس شمالا وطرابلس جنوبا وكانت عاصمتهم سميرا على نهر الابرش .

خلف عم ثتمر على العرش ولده نقم أدد أو نقم هدد الثاني قبيل منتصف القرن الرابع عشر ق.م ويعني اسمه قام هدد ، أو قائم هدد ؛ أو قيم هدد . ونحن نفضل التفسير الاخير ، ويقابله في العربية قايم الزمان .

وقد اكتشفت في دار المحفوظات الاوجاريتية الملكية وثائق كثيرة عن عصر هذا الملك ، سياسية واقتصادية وأدبية . ويستدل منها أنه عاصر الملك الحثي شوبي لليوما (١٣٨٠ ـ ١٣٤٦ ق.م) ، وكل من الفرعونيين امنوفس الرابع ١٣٧٧ ـ ١٣٥٨ ق.م و توت عنخ آمون ١٣٥٨ ـ ١٣٤٩ ق.م . وأهم من ذلك كله أنه عاصر الملك العموري القوي آزيرو الذي بسط نفوذه على ساحل بلاد الشام من مملكة جبالا (جبيل) في الجنوب الى حدود مملكة أوجاريت في الشمال ، وذلك في الربع الثاني من القرن الرابع عشر ق.م (٧) . وفي هذا الوقت كانت أوجاريت دولة تجارية ولم تكن دولة عسكرية كجارتها الجنوبية القوية العمورية . لذا كان أول عمل لنقم هدد هو التقرب من آزيرو ومصاهرة العموريين ، وبالتالي التوصل الى اتفاق معهم على عقد معاهدة كان فيها آزيرو الطرف الغالب ونقم هدد الطرف المغلوب . وقد تعهد آزيرو بنجدة اوجاريت في حال وقوع هجوم عليها وعلى دولة سيانو في سهل جبله . ومقابل ذلك دفعت أوجاريت لآزيرو خمسة آلاف مثقال فضة (٨) .

وكان الحثيون في الشمال يتحينون الفرص للتوسع نحو الجنوب في بلاد الشام . وأدرك أمراء أواسط بلاد الشام ، وهم حكام بلاد موكيش ونوخشي الممتدتين من سهل العمق في الشمال الى أراضي الوعر غربي حمص ، الخطر وسعوا لتكتيل وتجميع الحكام الآخرين للوقوف في وجه

الحثيين . ويبدو أن اوجاريت قد فضلت البقـاء خارج دائرة الصراع ، فكسبت عداء موكيش ونوخشي ورضاء الحثيين . وتقديرا لهذا الموقف عرض شوبي لليوما على نقم هدد عقـد معاهدة دفاعيـة بينهما ، يقوم الحثيون بموجبها بنجدة اوجاريت في حال تعرضها للهجوم (٩) . وبذلك ضمن الحثيون لانفسهم حق التدخل والتوسع في بلاد الشام . وعنـدما هاجمت موكيش ونوخشـي اوجاريت تقـدم الحثيون ، واحتلوا أراضي البلدين ، وكسبوا غنائـم كثيرة لـم يأخذوها الى حثي بل قدموهـا لنقم هدد ؟ ! .

ومن خلال المعاهدة والاتفاقات الثنائية التي تلتها ، والتي نظمت العلاقات بين اوجاريت والحثيين ، نسـمع لاول مرة عن خط سير الحدود الشمالية الشرقية لاوجاريت ، والتي امتدت من ادلب الى الروج فجسر الشغور وبداما وأردو والبدروسية فجبل الاقرع(١٠) . أما حدودهـا الشرقية والجنوبية الشرقية فلا نعرف عنها شيئا . وبالتأكيد لم تصل الى أفاميا التي كانت تابعة لنعيا . وفي الجنوب امتـدت حدودها حتى منابع نهر السن .

حكم نقم هدد فترة طويلـة من الزمن . وفي عهـده ألفت أساطير أوجاريت ، وكان مهتما بالادب والثقافة كاهتمامه بالسياسة كملك . وبعد موته خلفه ابنه أرخلبا الذي حكم حوالي السنتين فقط ، ولم يترك لنـا سوى بضع وثائق . وان كانت فترة حكمه القصيرة هذه عادية ، الا أنها دعتنا للتساؤل فيما اذا كان هذا الملك قد مات ، أم أنه اعتزل الحكـم لسبب ما ؟ ، خاصة واننـا نعلم بأنه لم يكن على علاقـة طيبة وجيـدة بالحثيين (١١) .

ومهما يكن الامر فقد اعتلى العرش بعد أرخلبا أخوه نقم عفا ، الذي ترك لنـا وثائق هامـة . وكان اعتلاؤه العرش في السنة التاسعة لحكم مورشيلي الثاني الحثي (١٣٤٥ ــ ١٣١٥ ق.م) وعاصر من الملوك الحثيين موفاتلي (١٣١٥ ــ ١٢٩٠ ق.م) ، مورشيلي الثالث (١٢٩٠ ــ ١٢٨٣) وختوشيلي الثالث (١٢٨٢ ــ ١٢٥٠ ق.م) ، وتوفي خـلال السنوات الاخيرة لحكم ختوشيلي الثالث(١٢) .



الـرب ايـل
كبير مجمع الالهه
في اوجاريت

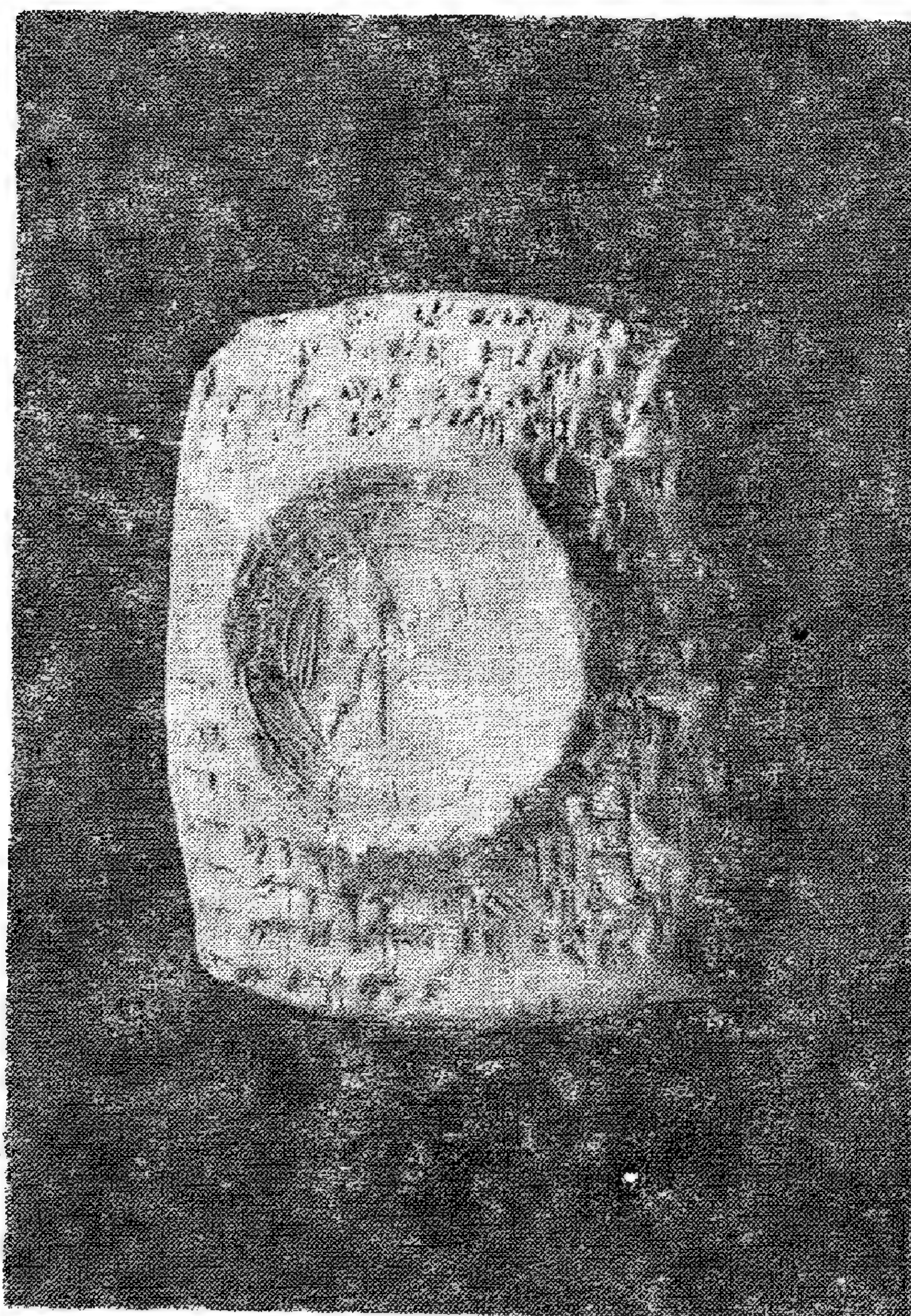
عقد نقم عفا معاهدة مع مورشيلي الثاني الحثي . ويبدو من هذه الواقعة أنه لم يلتزم بالمعاهدة التي أبرمها والده نقم هدد مع شوبي لليوما، مما دعا الملك الحثي مورشيلي لان يعتقله وينقله من اوجاريت الى عاصمة الحثيين خاتوشا . ثم اعاده الى عرشه بعد ان كبلـه بمعاهدة جديدة

قاسية ، أوجبت على أوجاريت دفع الجزية ، وتقديم المعونات العسكرية والمادية للحثيين ، والالتزام بعدم التعاون مع أعدائهم ، الى جانب تعهد ملك أوجاريت بالسفر سنويا الى بلاد حثي لتقديم الولاء لملكها .

ليس ماذكرته أعلاه هو النتيجةالوحيدة لتمرد نقم عفا على الحثيين،

بل توجد نتائج أقسى وأمر . فقد قلصوا حـدود أوجاريت الجنوبية ، وأخرجوا دولتي سيانو واشناتو الواقعتين بين نهن الروس والسن ، مـن اراضي اوجاريت وربطوها بنائب الملك الحثي الذي اصبح المشرف الوحيد على شؤون بلاد الشام الشمالية (١٣) .

ورغم هذا كله قدم نقم عفـا العون العسكري للحثيين في معركـة قادش ، واحتفظ مع ذلك بعلاقات تجارية مع مصر .



رقيـم انيتشوب
نمـوذج مـن الرسـائل المتبادلـة بـين الحثيـين والاوجاريتيين .
رسالة انيتشوب الى عمشتمر الثاني .

تربع على عرش اوجاريت بعد وفاة نقم عفا عم ثتمر الثاني (انظر شرح الاسم بالنسبة الى عم ثتمر الاول) . وفي عهـده وقعت أحـداث

سياسية هامة نقلت الينا بواسطة الرقم الكثيرة التي دونت عليها رسائل وقوانين ومعاهدات .

اعتلى هذا الملك العرش وهو صغير نسبيا ، ولكنه كان متزوجا بابنة الملك العموري بن تشينا . وعاصر الملك الحثي ختوشيلي الثالث (١٢٨٢ ــ ١٢٥٠ ق.م) خلال أواخر سني حكمه ، ويبدو أنه توفي خلال حكم تودخليا الرابع (١٢٥٠ ــ ١٢٢٠ ق.م) ، من كل هذا يبدو أن هذا الملك قد حكم خلال الربعين الثالث والثاني من القرن الثالث عشر ق.م . وساد السلام ربوع بلاد الشام خلال هذه الفترة بعد أن قررت الدولتان المصرية والحثية ، وبعد معركة قادش الشهيرة ، وقف جميع الاعمال الحربية بينهما والاعتراف بالوضع الراهن الذي كان قائما آنذاك في بلاد الشام .

لقد حافظ عم ثتمر على المعاهدات والمواثيق التي أبرمها أسلافه مع الحثيين ، وظل تابعا مخلصا لهم . ولكن عندما وقع الصدام بين الحثيين والاشوريين في عهد الملك الاشوري سلما نصر الاول (١٢٧٣ ــ ١٢٤٤ ق.م) ، تمنع عن تقديم العون العسكري للحثيين ، وقدم عونا ماديا بدلا عن ذلك . ومن المحتمل أن يكون الدافع لهذا الموقف التقدير الجيد للموقف ، وتكهن عم ثتمر بأن كفة الآشوريين لابد راجحة في النهاية . وبنفس الوقت فهو لم يغضب الحثيين ، اذ قدم لهم العون المادي الذي لايقل أهمية عن المقاتلة في صفوفهم . والجدير بالذكر أن عونه المادي قد زاد عن المبلغ الذي حددته الاتفاقات بينهم .

أما بالنسبة للسياسة الخارجية فقد تولى الملوك الحثيين الفصل في النزاعات التي كانت تنشب بين أوجاريت وجاراتها ، وكلهم خاضعون بشكل أو بآخر للنفوذ الحثي . وقد بينت لنا الوثائق أن نزاعات عدة وخلافات كثيرة نشبت بين أوجاريت وجارتها الجنوبية سيانو . ومن هذه الخلافات مثلا ان مواطنين من دولة سيانو اعتدوا على مواطنين من دولة اوجاريت . وقضى في هذا النزاع نائب الملك الحثي المقيم في كركميش وأمر ملك سيانو بأن يقسم اليمين على أن أياً من مواطنيه لم يقدم على مثل هذا العمل اذا لم يظهر الفاعل(١٤) .

قلنا ان عم ثتمر قد صاهر الملك العموري بن تشينا . أي تزوج من

ابنته ، ولكن مالبث أن طلقها ، لانها ارتكبت خطيئة لانعرف نوعها . وقد أدى هذا الطلاق الى تعكير صفو العلاقات بين أوجاريت وعمورو ، وشكت الدولتان أمرهما الى الملك الحثي بالذات ، وليس لنائبه في كركميش ، لان الامر خطير . لقد أوعز هذا الملك بتثبيت الطلاق ، وأمر أن تغادر المطلقة أراضي أوجاريت مصطحبة معها كل الهدايا والجهاز التي أحضرتها معها من عمورو وقت الزفاف . والممتع في هذه القضية هي الكيفية التي حلت بها قضية الاولاد ، وخاصة مشكلة الابن الاكبر ولي العهد أترشروما . يبدو أن ولي العهد كان له من العمر مايمكنه من الاختيار ، لذا وضع أمام اختيارين : اما أن يلحق بأمه ويتنازل عن ولاية العهد في الحاضر والمستقبل أو أن يترك أمه ويبقى في اوجاريت فيحتفظ بولاية العهد . وفي هذه الحالة لايحق له بعد وفاة والده استدعاء أمه وتنصيبها من جديد والدة الملك أو الملكة الام . واذا فعل عزله الملك الحثي . والطريف هنا أنه اختار الشرط الاول(١٥) .

ليست هذه هي المشكلة الداخلية الوحيدة التي يحلها الملك الحثي ، فغيرها من المشاكل كثير . ونضرب هنا مثالا عليها . لقد تدخل الملك الحثي تودخليا الرابع (١٢٥٠ ـ ١٢٢٠ ق.م) في حل النزاع الذي نشب بين عم ثتمر من جهة واخويه خشم شروم وأراد شروم ولدي المدعوة (اخت ملكو) العمورية . وان كنا لانعرف فيما اذا كانت هذه هي أم عم ثتمر أم لا، فاننا نرجح من وصف خشم شروم وآراد شروم بأنهما ولدا (أخت ملكو) ، انها لم تكن أمه . والا فلا حاجة لتعريفهما بأنهما ولدا فلانة . لقد حاول الاخوان ازعاج عم ثتمر وعزله عن العرش لسبب نجهله ، ولكننا نفترض بأن له علاقة بطلاق زوجة عم ثتمر العمورية وهي من اخوالهم . وفي هذا النزاع قضى الملك الحثي ، وفي هذه القضية العائلية البحتة ، بأمر الاخوين بأن يرحلا عن أوجاريت الى قبرص ، ويأخذا حصتهما من الميراث نقداً ، ولا يعودا البته الى اوجاريت ، ويتعهدا بذلك .

تسلم الحكم بعد وفاة عم ثتمر ولده ابي رانو ، الذي لم يترك لنا سوى وثائق قليلة جدا ، والذي لم يحكم سوى عدة سنوات في الربع الثالث من القرن الثالث عشر ق.م(١٦) .

يبدو أن ابي رانو لم يكن كاسلافه ليخضع للحثيين ، ويتمسك بالماهدات والمواثيق التي كبلوا بها أوجاريت . ولعل الظروف التي سادت

المنطقة آنذاك ، مثل تعاظم قوة الاشوريين ، وظهور خطر شعوب البحر ، قد ساعداه على ذلك . وعلى أية حال فانه لم يقم بالزيارة المطلوبة الى عاصمة الحثيين ليقدم الولاء والطاعة للكهم حتى يعترفوا به ملكا على بلاده . ولهذا السبب كتب اليه الامير الحثي فخولوي معاتبا ، لائما اياه لعدم احترامه للمواثيق والمعاهدات ولعدم قيامه بالزيارة المطلوبة .

لاندري بعد هذا العتاب واللوم ، فيما اذا كان أبي رانو قد زار ختوشا عاصمة الحثيين . وعلى كل حال فقد استمر على موقفه وتنصله من تنفيذ التزامات أوجاريت حيال الحثيين ، كما نقرأ في رسالة وجهها نائب الملك الحثي المقيم في كركميش الى أبي رانو معاتبا اياه على تقاعسه في نجدة الحثيين عسكريا . ومن نظرة متفحصة للاحداث التي كانت جارية في المنطقة آنذاك ، يبدو أن النجدة التي كانت مرغوبة من الحثيين هي لصد الآشوريين الذين أخذوا يتوسعون غربا .

رغم هذه المواقف التي اتخذها ابي رانو ، نرى أن نائب الملك الحثي المقيم في كركميش لايزال يتدخل في رسم حدود دولة اوجاريت ، وخاصة الجنوبية،عندما ينشب الخلاف،ويتدخل في حل النزاعات الاخرى أيضا . ولا ندري فيما إذا كان هذا التدخل هو وساطة عادية بين دول كانت تحت الوصاية الحثية ؟ ! أم أنه يدخل ضمن اختصاصات الحثيين في حل النزاعات بين هذه الدول ؟ ! .

بعد وفاة ابي رانو خلفه على العرش نقم هدد الثالث ، الذي كان حكمه قصيرا . ولم يترك لنا وثائق هامة سوى عدة وثائق تتعلق بمعالجة بعض الامور القانونية من قبل ملك كركميش .

بعد نقم هدد وصل الى العرش عمورافي ، الذي كان آخر ملك حكم في أوجاريت عند نهاية القرن الثالث عشر ق.م ، حيث غزت شعوب البحر اوجاريت وأحرقوها . والدليل المادي على أن هذا الملك قد شهد نهاية المملكة وخرابة المدينة هو العثور على رقم طينية خاصة به في الموقد الذي كانت تشوى به ، ولم تستخرج لان الكارثة كانت قد وقعت(١٧) .

وقبل وقوع الكارثة أرسل الملك الحثي ، الذي تعرضت بلاده هو الاخر للغزو ، بطلب النجدة العسكرية والمعونات المادية من اوجاريت ، فحصل عليها ، ولكنها لم تجد نفعا ، فالغزو كان أكبر من أن يقاوم .

اذ تعرضت سواحل بلاد الشام جميعها للغزو ، ولم تقف اوجاريت مكتوفة الايدي حياله . فقاومته ودمرت أنساق الغزو الاولى ، وأحرقت سفنها. وطلبت كذلك من قبرص اعلامها فيما اذا كانت هناك سفن أخرى مبحرة نحوها . لكن يبدو أن الغزو والغزاة لايقاومون من أية دولة من دول بلاد الشام منفردة ، فوقعت الكارثة ، وسقطت أوجاريت ، وأثبتت التنقيبات الاثرية أن المدينة قد أحرقت وفر منها سكانها الى الابد .

ملاحظة : آثرنا كتابة اسم (Ugarit, Ougarit) بحرف الجيم (اوجاريت) . وذلك لان اهل المدينة كتبوا اسم مدينتهم بهذا الحرف .

الحواشي :

١ ـ Ugaritical (1939) 20 ff.
٢ ـ G. Dossin, Ugaritica 1 (1930) 16, Fig. 10
٣ ـ Ugaritica III (1956) 66ff. Fig 22
٤ ـ H. klengel, Geschichte Syriens I m2. Jabrts. Teil23, s. 334
٥ ـ J. Naugayrol PRU IV, 28.
٦ ـ انظر رقم ٤ ص ٣٣٦ .
٧ ـ انظر رقم ٤ ص ٣٤٨ .
٨ ـ انظر رقم ٤ ص ٣٤٩ .
٩ ـ انظر رقم ٤ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .
١٠ ـ J. Nougayrol, PRU IV, 15 Ugaritica
١١ ـ انظر رقم ٤ ص ٣٥٨ .
١٢ ـ انظر رقم ٤ ص ٣٥٩ ـ ٣٦١ .
١٣ ـ انظر رقم ٤ ص ٣٦٤ ـ ٣٧٣ .
١٤ ـ انظر رقم ٤ ص ٣٨١ .
١٥ ـ J. Nougayrol, PRU IV 125.
١٦ ـ انظر رقم ٤ ص ٣٩١ ـ ٣٩٦ .
١٧ ـ انظر رقم ٤ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٧ .

في هـذا العـدد :

دراسات تاريخية

مجلة علميّة فصليّة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

مدير التحرير ناظم كلّاس

العدد الثاني ، رمضان ١٤٠٠ هـ/حزيران «يوليو» ١٩٨٠ م

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب
جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية

ثمن العدد

سورية	٣٠٠ ق.س	السعودية	٦ ريالات
لبنان	٣٠٠ ق.ل	الامارات العربية	٥ر٧ دراهم
الأردن	٣٠٠ فلس	مصر العربية	٤٥٠ مليمة
العراق	٦٠٠ فلس	ليبيا	٤٥٠ مليمة
الكويت	٤٠٠ فلس	تونس	٦٠٠ مليم
عدن	٦٠٠ فلس	الجزائر	٦ دنانير
البحرين	٦٠٠ فلس	المغرب	٦ دراهم
قطر	٦ ريالات	السودان	٧٥٠ مليمة

في هذا العدد

تنويـــه

- ☐ الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبها
- ☐ تـرتيـب البحـوث يخضـع لضـرورات فنيـة

عود على بدء

د. شاكر الفحام

في مجلس ضم نخبة من المثقفين والقراء المعنيين بالقضايا القومية والتاريخية أفضى بنا الحديث الى ذكر مجلة (دراسات تاريخية) ، وبدأ الحاضرون حواراً طرحت فيه آراء وأفكار تناولت هدف المجلة وغايتها ، وناقشت ضرورتها ودواعي صدورها ، وعرضت لما تضمنه عددها الأول من مقالات • وتشقق بنا القول ، والحديث ذو شجون ، الى مناح وجوانب شتى أثارها من مكامنها الحوار والنقاش ، يتصل بعضها بجوهر الموضوع، ويلامس بعضها أطرافه • وامتد نَفَسُ الكلام وتعددت المواقف : ما بين مشجع متفائل يدعو الى العمل الجاد ومواصلة السير ، الى متسائل مستفسر قد تراءت له العقبات الجمة التي تعترض الطريق ، أو التبعات الثقال التي يتطلبها تحقيق مثل هذا الهدف الكبير ، فالى مثبط لم تقنعه الفكرة ولم تتبين له جدواها ، أو لم يرضه توقيت صدورها ، فهو يعدد لك وينفض أمامك جملة الأسباب والعوائق التي يراها جديرة بالتقدير ، بل لعلها تقف في رأيه حائلا دون المتابعة والمضي قدماً لبلوغ الغرض •

ولاح لي أنها فرصة ثمينة أن أضم ما تفرق من هذه الأحاديث ، وأعرضه لقراء المجلة مرتباً منسقاً مهذباً ، ليروا رأيهم في هذا الحوار ، وليغنوه بمشاركتهم وكلماتهم ، عملا بالحكمة القائلة : « ربَّ مبلَّغ أوعى من سامع »(١) • وهل أحب الينا من أن نتلقى من رجال الفكر وحملة الأقلام ، ونحن في أول الدرب ، نوراً يسعى بين أيدينا ، يهدينا الى سواء السبيل ؟ واذا كان قد أسعدني شيء فهو هذا الحوار الحي الخصب يتلاقى عليه أهل المجلس ، لا تثيرهم عصبية ، ولا يستفزهم الف لفكرة ، أو

★ اعتمدنا الترجمات العربية في جميع الشواهد المستمدة من مؤلفات كتبها اصحابها بغير العربية• ولم تكن العودة الى المصادر في اغلب المواضع لتعزيز راينا فحسب بقدر ما كانت لرغبتنا ان يشاركنا القارىء في الاطلاع على راي المؤلفين في المساق الذي ورد في هذه المصادر •

يتملكهم هوى ، ولا يستبد بهم حب مغالبة، وانما هو الرأي يبسطه صاحبه ، والوجهة يدافع عنها ليصل الى الحق في القضية • ألا ان نهر المعرفة العظيم انما يتغذى بهذه الروافد الصغيرة التي تمده بمائها على طول الطريق •

لا أزعم أني استوفيت في كلمتي هذه كل ما قيل في المجلس ، فذلك فوق وسعي وطاقتي ، ولكني لخصت رؤوس المسائل التي قالوا ، وأوجزت وشذبت حيث أفاضوا وأطالوا ، مغضياً عن التفاصيل والجزئيات التـي ينطلق بها القول في حديث وحوار ، مكتفياً بما هو رئيس وأساسي من الأفكار التي تناولت جوهر الموضوع • وقد آثرت أن أسلك طريق السرد في العرض ما استطعت ، لا طريق الحوار وما يقتضيه من مسألة وجواب ، لأن مقصدنا أن نتطرق الى جميع الأفكار الأساسية التي ألمَّ بها المجلس، وأن نضم اليها من التفسير والشـرح ما يكشف عن جوانبها ، وينيـر من آفاقها ، حتى تبدو لمطالعها واضحة جلية • والسرد في هذا المجال يعين على ما نريد من هذه الاضافات والتنقيحات والعودة الى المصادر والتوثيق ، والتي تساعد في تجلية الغرض الذي نسعى له ونرمي الى تحقيقه • واذا كان لي من شيء أضيفه فهو أن طبيعة الحوار في المجلس ، وطريقة مناقشة المسائل المثارة اقتضتني بعض التكرار في العرض ، لـم أستطع تفاديـه والتفلت منه ، ولم أقو على التغلب عليه • ولعل مما يشفع لي أني بذلت ما قدرت ليكون مثل هذا التكرار في أضيق حدوده •

– ١ –

وأبدأ بموضوع التأليف في التاريخ ، وذكر التقدم الذي أحرزتـه الدراسات التاريخية في الغرب ، على أيدي كبار المؤرخـين والفلاسـفة والمفكرين الذين خطّوا طرائق النقد التاريخي ، وسنّوا مناهج البحث ، ووضعوا الأسس التي يتم بها الافادة من المصادر التاريخية : من الآثـار والمخلفات والوثائق والنصوص التاريخية ، لتكوين رؤية لأحداث التاريخ بصيرة ، تمكن من استشفاف روح الماضي واحيائه • ثم مضوا في طريقهم صعداً ، يبحثون وينقبون وينقدون ويؤصلون حتى بلغوا في عملهم شأواً بعيداً سمح لهم أن يعد القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين عصر نهضة الدراسات التاريخية(٢) • وقد هيأ ذلك كله أن يكتب تاريخ الغرب كتابة جديدة ناقدة ، أفادت من علوم معينة شتى ، لتغدو أعمق نظراً ، وأرحب أفقاً ، وأجود استنباطاً ، وأكثر صدقاً وموضوعية ، تتبين التيارات المستسرة التي تفعل فعلها في الحياة وفي صنع التاريخ ، وتكشف عن الخبايا

الخفية التي تتجلى عنها الأحداث والوقائع · وما زال علماء الغرب : مؤرخوه ومفكروه وفلاسفته يتابعون مسيرتهم في استكمال ما يريدون من تأصيل المعرفة التاريخية ، ومن الارتقاءبصناعة التاريخ ، وبيان ما يتطلبونه في المتمرس بها من دقة الملاحظة ، ورهافة الحس التاريخي ، والقدرة على تذكر الماضي التذكر الحي واستحضاره ، وموهبة التوقف عند المهم ، وصحة الاستنتاج ، وصدق التأويل ، مستفيدين في أعمالهم من مبتكرات العلوم ، واختراع الأدوات ، وتطور المعرفة الانسانية وتكاملها ، مستعدين أبداً أن يعيدوا نظراً فيما كانوا أثّلوه من طرائق النقد ومناهج البحث التاريخيين ، على هدي ما ينتهون اليه في مدارساتهم من كشف جديد ، كي تستجيب تلك الطرائق والمناهج لما رسموه لأنفسهم من مثل أعلى في الصدق التاريخي ، والحقيقة التاريخية يؤملون بلوغهما(٣) · وهكذا تألقت الكتب التي تقص تاريخ الغرب في دراسات ناقدة ، غاية في العمق ، تجلو لنا الماضي ، لا أحداثاً مفردة جامدة ، بل حياة نابضة يتحرك فيها الأحياء ، وتتبين لنا حوافزهم ودوافعهم بكل تعقدها وتشابكها · ان مثلا جديداً أعلى لكتابة التاريخ قد بدأ مؤرخو الغرب المحدثون يستشرفونه ويستوحونه · وما أبعد الفروق ، وما أشد التغاير بينه وبين المثل الأعلى الذي كان يستشرفه المؤرخون القدماء السابقون وهم يكتبون التاريخ :

ولكن الغرب الذي نجح النجاح الكبير في كتابة تاريخه على أحدث نظرات النقد ومناهج البحث التاريخيين ، وما يزال يكتبه ، يرجو أن يبلغ به مرتقى فوق ما بلغ ، قد حالت أسباب شتى وملابسات كثيرة دون نجاحه النجاح المرجو وهو يكتب تاريخ العالم · كان شعوره أنه سيد هذا العالم وقطبه، قد تمكن منه ، ثم تسلط عليه تسلطا حال بينه وبين الرؤية البصيرة ، والنفاذ الى حقائق تاريخ هذه الشعوب التي قهرها سياسياً وفكرياً واقتصادياً(٤) ، ففاجأنا بمزق وأسمال سماها تاريخ العالم ، لا تمثل في الحق الا نظرته الى هذه الشعوب التي غلبها واستطال عليها وود لو سحقها · يقول ارنولد توينبي : « ومن الحوافز التي دفعت الكاتب دفعاً الى ولوج هذه الدراسة ثورته على ما اصطلح عليه الناس وشاع في الغرب حديثاً وهو اعتبار تاريخ المجتمع الغربي كأنه التاريخ بصفة عامة، وقد بدا للمؤلف أن هذا الاصطلاح نشأ عن وهم التركيز على الذات ، وهو وهم وقع فيه أبناء الحضارة الغربية ··· »(٥) · ويقول ول ديورانت :

« في هذه اللحظة نرى أن التعصب الاقليمي الذي ساد كتابتنا التقليديـة للتاريخ التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان ، وتلخص آسيا كلها في سطر واحد ، لم يعد مجرد غلطة علمية ، بل ربما كان اخفاقاً ذريعاً في تصوير الواقع ، ونقصاً فاضحاً في ذكائنا »(٦) • وكان تململ العالم لهذا الاجحاف الذي أنزله الغرب به ، وكان تذمره مما مُني به من الاهمال والاستخفاف والزراية يزدادان حدة ومرارة على الأيام ، وبلغ الأمر حداً دفع بمنظمة اليونسكو أن تتصدى لاعداد تاريخ عام لافريقيا يزيل بعض ما نابها من حيف مؤرخي الغرب وجورهم(٧) • وكان حظ العرب من هذا الحيف في كتابة تاريخهم أوفى الحظوظ • ولا يسمح المقـام بسرد الأسـباب واسـتقصاء الدوافع التي أدت الـى ذلـك وحملت عليـه(٨) ، ولا أن أفيض بالأدلـة والشواهد التي تؤيد هذا الاتجاه المريب ، وتؤذن بما اكتنف تاريخ العرب من ظلم وتنقّص بخساه حقه ومكانته على أيدي مؤرخي الغرب الذين أرخوا لبلادهم وحضارتهم ، فوفقوا وأحسنوا ، ثم جمحت بهم الأهواء حين عرضوا لتاريخ العرب(٩) ، فكانوا « يتعصبون على العرب تعصباً صريحاً في كثير من الأحيان »(١٠) • بقي علي أن أذكر أني أتحدث عن الغرب بعامة ، الغرب الاستعماري الذي سخر شعوب الأرض قاطبة لاستغلاله واستنزافه ، وكان له مفكروه وعلماؤه الذين أشرعوا أسنة أقلامهم لينصروا باطله ، ويؤيدوا عدوانه ، وراحوا يزينون في كتاباتهم أعماله السيئة الخبيثة ، ويبشرون بمزايا حضارته وحسناتها ليطمسوا حضارات الشعوب ،ويشوهوا محاسنها ، ومضوا في عناد وغرور يدافعون عن شروره وآثامه ، وما أنزله بأبناء الشعوب المستعمرة من ذل واضطهاد وقهر ، تلك الشعوب التي كانوا يصغرون من شأنها ، ويحتقرون حضارتها ، ويعملون على ازالـة كل مقوماتها « ان الغرب كان كبير المعتدين في العصور الحديثة »(١١) • ولكنني لن أنسى أن ثمة ثلة كريمة من علماء الغرب ومن مستشرقيه عرضوا لتاريخ العرب بروح النصفة والنزاهة والحيدة ، وشاركوا في بعث التراث العربي وفي دراسته ، وأخلصوا للحق في عملهم ، ولن ينكر منكر فضلهم ، أو يخفي حسناتهم ، أو يجحد صنيعهم • انهم قلة نتمنى لها أن تزداد وأن يعلو صوتها على الأيام ، وانَّنا نكبر فيهم الروح العلمية التي تحلّوا بها ، ونقدر لهم تفانيهم في سبيل الوصول الى الحق ، وان كنا لا نوافقهم دائماً على ما ينتهون اليه في دراساتهم ، اذ يبدو لنا في الحين بعد الحين وكـأن الموازين القسط قد اختلت في أيديهم • وأكتفي بمثل واحد أسوقه في هذا الصدد ، كان آخر ما مر بي ، فيه الشاهد لما وراءه من أمثلة مشابهة • لقد

أثارتني حادثة الاعتداء الصهيوني على رؤساء البلديات في فلسطين اثارة بالغة(١٢) ، وطفقت أردد الفكر في هذه العقلية الاجرامية التي تميز بها رؤوس الصهيونية واسرائيل ، لا يكاد يضارعهم فيها سواهم ، وأتقصى جذورها التاريخية ، وأمسكت بالتوراة أقلب النظر في هذه الصحائف المسطورة في مثل سفر العدد وسفر تثنية الاشتراع وسفر يشوع تفيض حقداً أسود ، وتتفجر غيظاً وقسوة ٠ وساءلت نفسي : أي عقيدة هذه التي تدعو الى قتل الآمنين الوادعين ، والى التدمير والاحراق ، لا تعرف غير السيف والدماء ، ظامئة أبداً الى الجريمة لا يروى ظمؤها ، ولا ترضى لأتباعها ومعتنقيها أن يقيموا بناءهم الا على جماجم الشعوب(١٣) ؟ ولجأت الى كتاب (قصة الحضارة) لول ديورانت لأقرأ صفحات في تاريخ هذه الشعوب التي بطش بها اليهود وأرادوا ابادتها ، وتدمير مدنها وقراها ٠ وجدته خص اليهود في عهدهم الأول بالباب الثاني عشر من مجلده الأول موزعاً على سبعة فصول(١٤) ٠ وكأنه حين كتب ما كتب قد خشي أن يكون أخطأ الفهم فأساء لتاريخ اليهود من حيث لا يشعر ولا يريد ، فعرض على الأستاذ هاري ولفنسن في جامعة هارفرد ما كتب ، واستجاب لتصحه وتصحيحه(١٥) ٠ ولكنه لم يفعل مثل ذلك حين كتب تاريخ العرب وشعوب الشرق الأدنى وتاريخ المسلمين ، ولم ير العودة الى أستاذ مختص يفاوضه الرأي فيما كتب ، وفيما انتهى اليه من أحكام ، بل أباح لنفسه أن يستقل بالعبء وحده ، مع أنه بحكم نشأته وثقافته وحياته أدنى الى فهم حياة اليهود ومعتقداتهم وحضارتهم منه الى فهم حياة شعوب الشرق الأدنى والعرب والمسلمين ٠ لا أريد أن أتوقف من كل ما قرأت في الباب الثاني عشر من مجلده الأول الا عند قوله يصف ما أنزله اليهود الذين هاجموا فلسطين بخصومهم الكنعانيين من سكان البلاد الذين حرثوا الأرض وزرعوها وعمروها فأحسنوا عمارتها : « وقتل (اليهود) المهاجمون أكثر من استطاعوا قتلهم من الكنعانيين ، وسبوا من بقي من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهاراً ، وكان هذا القتل كما تقول نصوص الكتاب المقدس : (فريضة الشريعة التي أمر الرب بها موسى) ، و (زكاة للرب) ٠ ولما استولوا على مدينتين من المدن قتلوا من أهلهما اثني عشر ألف رجل ٠ ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الاسراف في القتل والاستمتاع به ، ومثل هذه السهولة في تعداد القتلى الا في تاريخ الآشوريين ٠٠٠ أما يشوع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الثاني ، وهو أن أكثر الناس قتلا هو الذي

يبقى حياً • وبهذه الطريقة الواقعية التي لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة »(١٦) • وتلفت بعد ذلك أريد أن أقرأ تاريخ تلك الشعوب التي قاومت ببسالة أولئك اليهود الذين جاءوها غزاة معتدين غاصبين ففاجأتني هذه الكلمات : « وليس من اليسير أن ندخل هؤلاء المؤابيين ، والكنعانيين ، والعموريين (الاموريين) ، والادميين ، والفلسطينيين ، والآراميين في سجل البشرية الثقافي ••• ولكن الدهر لا يحتفظ بأسماء هذه الشعوب لما قامت به هي نفسها من الأعمال الجليلة بقدر ما يحتفظ بها لأن أصحابها مثلوا دوراً ما على مسرح فلسطين الفاجع »(١٧) • هذا كل ما استحقته هذه الشعوب التي بنت حضارة الانسان في فلسطين خاصة وفي بلاد الشام عامة • لم يكن للكنعانيين العظام سكان فلسطين والساحل الشامي الذي عمت مدنيتهم البحر المتوسط ، وتلألأت قرطاجة التي كانت مهاجرهم لؤلؤة هفت اليها القلوب ، ولا للآراميين موئل الثقافة في الشرق الأوسط قروناً ، اصطنعت لغتهم الجميلة البليغة الشعوب الممتدة من الهند الى أقاصي النيل(١٨) ، لم يكن لهؤلاء الكنعانيين والآراميين مكان في كتاب ول ديورانت المؤرخ المتفتح الذهن ، الواسع المعرفة ، الذي روى قصة حضارة الانسان ، والذي ألقى عن كاهله رداء « التعصب الاقليمي الذي ساد كتابة التاريخ التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان » ، ولكنه أفرد لليهود في عهدهم الأول نحو ثمانين صفحة من كتابه (الترجمة العربية) • هل مر بك مثل هذا الظلم الفادح ، أين النداء الحكيم : (وزنوا بالقسطاس المستقيم)(١٩) الذي تظاهر باتباعه وهو يبدأ كتابه ؟ لقد اضطرب ميزانه وجار عن القصد وما عدل(٢٠) • اني عرضت هذا المثل ، استقيته من مؤرخ غربي عرف بنظرته الشاملة ، وادراكه الوحدة في الحياة الانسانية ، وعرضه التاريخ على نحو تركيبي يصور مجموعة عناصر ثقافة الأمة مشتبكة(٢١) ، وحاول جهده ألا يتحيز ولا يتعصب • ولكنه بحكم نشأته وثقافته وبيئته ومواريثه الأخلاقية والدينية والاجتماعية لم يستطع الا أن يجور عن القصد وينحاز ، وهو يؤرخ لهذه المنطقة العربية وشعوبها • ولقد طالعتني في كتابه المذكور أشباه ونظائر لهذا الانحراف كثيرة • ان اليهود الذين اجتاحوا هذه المنطقة ، وعرفوا بجحدهم حق أهلها ، وتنكروا للصدق فيها ، لم يبلغوا مثل هذا الموقف من شعوب المنطقة ، ومن مواريثها الحضارية حين أرخوا لها في توراتهم • لقد تنكرت التوراة حقاً للكنعانيين والفلسطينيين

من سكان البلاد فجعلتهم غرباء من ولد حام بن نوح(٢٢) ، وتنكرت للشعوب الأخرى التي سكنت فلسطين أو خالطتها أو جاورتها • ولكنها لم تستطع أن تجحد كل شيء • ذكرت أن تخوم الكنعانيين من صيدون وأنت آت نحو جرار الى غزة ، وأنت آت نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم الى لاشع(٢٢)، اعترفت أن يبوس (أورشليم) ظلت مدة طويلة بعد اجتياح اليهود أرض فلسطين مدينة اليبوسيين ، خالصة لهم ، ليس فيها أحد من بني اسرائيل(٢٣) وقال حزقيال : « قال السيد الرب لأورشليم : معدنك ومولدك من أرض الكنعانيين ، وأبوك أموري ، وأمك حثية ••• ان أمكن حثية ، وأباكن أموري »(٢٤) • لقد تناسى ول ديورانت كل المواريث الحضارية التي أخذها العبرانيون عن جيرانهم الأموريين والفلسطينيين والكنعانيين والآراميين ، وعن غيرهم من الشعوب التي خالطتهم أو جاورتهم ، وسمح لنفسه أن يتناسى تلك الشعوب فلا يذكر عنها شيئاً في كتابه(٢٥) • لا أريد أن أظلم ول ديورانت ولا أن أتجنى عليه• انه ابن الثقافة الغربية ، الابن الوفي لها : « ان للعالم الغربي وحدته في هذا التراث : في المسيحية ، وفي المدنيات القديمة لليونان والرومان والعبرانيين ، التي نمد نسبنا اليها بفضل ألفي سنة من المسيحية ••• ان هذه الوحدة القائمة على العناصر المشتركة للثقافة هي الآصرة الحق بيننا على مدى قرون طويلة ••• تلك الخيرات التي نشترك في الأمانة عليها : تراث اليونان والرومان والعبرانيين ••• »(٢٦) • أم تراه أهملنا لأننا أهملنا أنفسنا ولم نكتب تاريخنا • أخشى أن يكون في عمله مصداق لقولة جذيمة الأبرش : « دعوا دماً ضيّعه أهله »(٢٧) • أفلا يكون هذا حافزاً آخر من حوافز عدة تدفع لكتابة موسوعة التاريخ العربي بنظرة شاملة حية منصفة ورشيدة •

– ٢ –

ويبدو سؤال عريض : وماذا صنع المؤرخون والمفكرون العرب لكتابة التاريخ العربي ؟ وهل هناك ضرورة داعية تهيب بهم أن يتلاقوا ويتعارفوا ليكتبوا تاريخ العرب وفق الأسس التي أرساها منهج البحث التاريخي الحديث ؟

ونقول : لقد هب العرب من سباتهم على أصوات مدافع نابليون تدك القاهرة • ولم يكن العرب أحراراً حين فاجأهم الاستعمار الغربي • وقدر لليقظة العربية أن تبدأ حركتها صراعاً في داخل الدولة العثمانية لتأكيد

الذات العربية ، وقراعاً لمطامع الاستعمار الذي أعد عدته للهيمنة على الأرض العربية ، وبدأ خطوته الغادرة الأولى حين استولى على الجزائر وعدن ، وفي أقل من قرن كان قد بسط سيطرته وسلطانه على الوطن العربي يتصرف في مقدراته(٢٨) · وكافح العرب الكفاح المرير في سبيل حريتهم وفي سبيل تقدمهم · خاضوا معركة العلم والتعلم ، ومعركة التحرر ، ولم يكن بد من أن تحمل الكتب المؤلفة في التاريخ طابع هذه المرحلة النضالية ، وقد تفاوت حظها قرباً وبعداً من الروح العلمية والصدق التاريخي تبعاً للمقاصد والغايات التي كانت تتوخاها ، أو التي فرضت عليها سلطانها · لقد استلهم دعاة القومية العربية التاريخ في مؤلفاتهم وكتاباتهم فتحدثوا عن مجد العرب ، وعن مآثر الحضارة العربية الزاهرة لتكون للأجيال العربية منار هدى ، وقدوة سلوك ، وحافز نضال · وكان للتجزئة السياسية البغيضة التي فرضها المستعمر قسراً على البلاد العربية آثارها في التأليف التاريخي ، فظهر كثير من الكتب التاريخية التي تصدت لمعالجة تاريخ كل قطر من الأقطار العربية ، وكأنه وحدة مستقلة على مدى الأزمان · دع عنك تلك النزعات الاقليمية الشريرة التي بثها المستعمرون وأنصارهم ، ونادوا بها ، ودعوا اليها ، وصدر بتأييدها كتب تنضح حقداً على العروبة ، وتنفث سما · ولم يكن بد من أن تجد العقائد المختلفة ، والمذاهب السياسية في شتى اتجاهاتها صداها في التأليف التاريخي ، فسلك كل حزب منهجاً في الكتابة يعزز دعواه ، وينصر مذهبه ، ويؤيد قضيته · ثم كان للمستشرقين الذين أكبوا على التراث العربي ، ولاضرابهم من مؤرخي الغرب وباحثيه مؤلفاتهم التي حملت بصماتهم ، وعبرت عن اتجاهاتهم وأهوائهم ، وتفاوت حظها من الصدق تفاوت أصحابها يتدرجون في مواقفهم : ما بين متعصب حاقد قد أعمته عن الحقيقة أهواؤه الاستعمارية ، أو موروثه الديني المتخلف عن القرون الوسطى ، الى منصف يتحلى بالروح العلمية ، ويتصف بالنزاهة وسلامة القصد ومحبة الحق ، ويعبر عمله عن تعاطفه الصادق مع هذه الحضارة العربية العظيمة ، وان لم يكن الموفق دائماً لتبين قسمات وجهها على ما بذل وجهد ·

لم يتح للعقل العربي أن يتفتح حراً طليقاً ، يتلقى المعرفة من منابعها ليبدع ، كما كان حال اليابان في نهضتها ، بل شق طريقه في زحام الكفاح من أجل الحرية والوحدة والتقدم ، وعانى من العقبات والمشاق ما يكافىء ضراوة الاستعمار الذي كان يخاصمه وهو في أوج عنجهيته

وجبروته · واستطاع العقل العربي أن يرسي دعائم النهضة العلمية في البلاد العربية ، وقامت الجامعات والمؤسسات والمراكز العلمية في أرجاء الوطن العربي تؤدي مهمتها · وكان للتأليف التاريخي حظه الطيب في هذه النهضة · قام مفكرون ومؤرخون قوميون يعالجون القضايا العربية القومية ، مما خلق المناخ الفكري القومي العربي ، وبدد الضياع الذي نادت به النزعات الاقليمية والتقليدية والأممية · وقام مؤرخون باحثون يضعون الأسس ، ويرسون الدعائم للتأليف التاريخي على هدي منهج نقدي تاريخي ، يسترشد بحصيلة التجربة الانسانية في ميدان الكتابة التاريخية(٢٩) · وصدرت كتب وبحوث تاريخية هامة ومبتكرة ، اضطلع بها علماء مؤرخون استلهموا هذه النزعة العلمية الجديدة التي تكتب التاريخ العربي في اطار رؤية جديدة شاملة ، رائدها الصدق التاريخي ترى فيه وحده الجمال الذي تنشده ، والحق الذي تسعى اليه ، والخير الذي تبتغيه ·

وبعد ، فما دامت تباشير التأليف التاريخي قد بدأت تؤتي ثمارها ، وانطلقت الخطوات الأولى الرائدة في طريق المعرفة التاريخية العربية ، فهل بعد ضرورة لمثل هذه الدعوة التي تنادي بتكاتف جهود المؤرخين الباحثين لكتابة التاريخ العربي ؟ وأجيب بنعم · لقد كتب تاريخ الغرب المرات تلو المرات ، تضافرت الأقلام منذ عصر النهضة على تسطيره واعادة كتابته طبقاً لما تقتضيه سنة التطور العلمي وطرائق البحث · أما تاريخ العرب فلم يكتب بعد على النمط الذي تتطلبه منهجية البحث التاريخي · لم يتح بعد للمؤرخين العرب الوقت الكافي لمثل هذه الكتابة العلمية ، وعليهم أن يسابقوا الزمن ، ويطووا المراحل التي قطعها الغرب في مئات السنين منذ عصر النهضة حتى قدر له أن يكتب تاريخه · ان للتاريخ العربي من الامتداد والاتساع في الزمان والمكان ما يستدعي حشد الطاقات والخبرات تعمل بكل الجهد والصبر لتتمكن من اصدار هذه الموسوعة في التاريخ العربي · ولا بد لانجاز مثل هذا المطلب العظيم من وضع خطة علمية دقيقة تنسق العمل وتوفق بين الجهود ، وتحول دون التبدد في القدرات ، وتمنع الفوضى والخلل · من أجل هذا كله كانت هذه المبادرة العلمية التي ترمي أول ما ترمي اليه أن يكتب تاريخ العرب القومي دون اضاعة في الوقت ودون هدر في الجهود ، وما أعظمه عملا رائعاً رائداً في ميدان التأليف التاريخي العربي · كان الأسى يملأ قلبي دائماً وأنا أفاجأ بتجاهل الغرب

في مؤلفاته الكبرى لدور الحضارة العربية أو انتقاصه من شأنها ، وكنت أتطلع بعين الأمل الى اليوم الذي تكتب فيه الموسوعة التاريخية العربية بكل أجزائها وفصولها الكتابة التاريخية الناقدة ، تنبض بالحياة ، تحدثنا الحديث الصادق ، لعلها ترد الحق ، أو بعض الحق الى أهله ·

ولكن ، هل نريد أن تقول هذه الموسوعة التي نتطلع اليها كلمة الفصل في التاريخ العربي ؟ ما أظن أحداً يطلب ذلك أو يريده · انها المنطلق الذي لا بد منه ، والمتكأ الذي لا مندوحة عنه ، تضع بين يدي العربي ، وبين يدي العالم صورة تاريخ هذه الأمة العربية من خلال رؤية شاملة بصيرة ، ستغذيها من بعد وتجددها البحوث والدراسات ، وستتلوها من بعد دراسات وبحوث لا تتوقف ، فما عرف العلم التوقف · وشعار المعرفة : « كم ترك الأول للآخر » يحفز الهمم دائماً لتطور وتكتشف وتتقدم · وما أكثر الأسباب التي تدعو الى تجدد الدراسات التاريخية · تتجدد كلما تقدمت طرائق البحث التاريخي ، بسبب تطور المعرفة الانسانية ، وظهور اتجاهات فكرية ومذاهب فلسفية جديدة ، أو بسبب تقدم المبتكرات والمكتشفات العلمية ، واختراع الأدوات التي تستعين بها الدراسة فيما يسمى بالعلوم المعينة المساعدة · وتتجدد أيضاً كلما اطلعنا على صفحة جديدة من صفحات التاريخ كانت مطوية مجهولة · وما أكثر الكشوف التي تطالعنا بوجوهها على مر الأيام في العالم ، وفي البلاد العربية فتغير مما كنا علمناه ، وتزيد معرفتنا بتفاصيل عن الماضي كانت مجهولة ·

لقد قدر للانسانية في العصر الحديث أن تحظى بكشوف عظيمة رائعة ، أتاحها لها التنقيب والبحث العلمي ، ما كان يحلم بمثلها المؤرخون السابقون · يقول ارنولد توينبي وهو يتحدث عن حظ الانسانية فيما تم لها من كشوف جديدة : « ولقد ذهب في الآفاق صيت العلماء الفرنسيين الذين جاءوا الى مصر مع نابليون ، بفضل كشف فذ (هو حجر رشيد) ألقى مزيداً من الضوء على قضايا التاريخ ، قدموه للمجتمع الغربي الحديث النهم الى التطلع لغزو المجهول · فكان أن بعثت الى الوجود في العالم القديم منذ ذلك التاريخ ما لا يقل عن احدى عشرة حضارة بائدة ، عفّى عليها الزمن ، هي الحضارات : المصرية ، البابلية ، السومرية ، المينووية ، الحيثية ، بالاضافة الى الثقافة السندية ، وثقافة شانغ ، يضم اليها الحضارات : المايانية والياكوتية والمكسيكية والانديانية في العالم

الجديد »(٣٠) . ويقول ايمري نف : « ووسعت الكشوف الأثرية التي تمت طوال الخمسين سنة التالية في مصر وكريت وآسيا الصغرى وأمريكاالوسطى دائرة معرفتنا بالحضارات المندثرة »(٣١) . ويقول يسبرز « أعادت الحفريات أمامنا عوالم منسية . وصارت لغات ونصوص مجهولة تحدثنا منذ اليوم . وان رسوم الكهوف والتماثيل المنحوتة والأدوات لتخبرنا عن حقب لم تعرف الكتابة قط »(٣٢) . هل يعلم أحد ما يسفر عنه اكتشاف أوغاريت وايبلا من معلومات جديدة تغير في الصورة التاريخية المعروفة لشعوب بلاد الشام والبلاد المجاورة ؟ ثم هل يعلم أحد ما يسفر عنه التنقيب في البلاد العربية من كشوف جديدة في المستقبل ؟ أعود فأؤكد أن التاريخ لا يكتب مرة واحدة ، وان عوامل شتى تدعو الى اعادة كتابته لجلاء صورة الماضي على حقيقته : معرفة وقائعه المعرفة الصحيحة وادراك العوامل المحركة فيه . هذا المثل الأعلى في الصدق التاريخي الذي ينشده المؤرخ يحفزه دائماً الى تدقيق عمله واعادة النظر فيه ومراجعته على هدي ما يكتسبه من معرفة وخبرة ومعاناة يقدمها له عصره وجيله . ولن نجاوز الحق ولن نكون مبالغين اذا قلنا : ان لكل عصر تاريخه . اننا مع هنري جونسون في كلمته : « ومن النظريات المسلم بها الآن أن كل عصر يجب أن يعيد كتابة التاريخ الذي كان قد كتب في العصور السابقة ... وقد كان دائماً في تاريخ التاريخ كعلم مستقل تاريخ جديد ، جديد في تصحيحه للحقائق القديمة ، جديد في كشفه للحقائق الجديدة ، جديد في اختياره للحقائق ، جديد في قواعده العامة وفي تأملاته وفي تصوراته ... »(٣٣) . واننا مع ادوارد كار في اجابته عن سؤال ما التاريخ : « انه عملية مستمرة من التفاعل المتبادل بين المؤرخ ووقائعه، وحوار لا ينتهي بين الحاضر والماضي »(٣٤) . ولكن نقطة البدء في تقدم كتابة التاريخ العربي وتجدده وتحسنه هو كتابة الموسوعة العربية التاريخية . انها توفر الاساس الضروري لكل كتابة مقبلة في التاريخ ، منها يبدأ كل تطوير ، وبها يتيسر كل تجديد .

ان بين أيدينا التراث العريض ، والكثير الكثير مما خلفه الأجداد في مختلف ميادين المعرفة . وان الواجب العلمي، وان الواجب القومي يدعواننا جميعاً أن نضم الجهود ، لننهض بأعباء هذا العمل العلمي العظيم ، ولنضع بين أيدي أجيالنا الناشئة تاريخ الأجداد ، وقد كتبناه بنظرة ناقدة مستبصرة جادة ، وبعد قراءة جديدة ، نستنطق بها الآثار والنقوش

وما يتصل بها من مخلفات ، ونتفهم بها الوثائق والمؤلفات ، مستعينين في سبيل ذلك بكل مسعف مفيد من العلوم المساعدة والأدوات المبتكرة التي تؤازر المؤرخ في انجاز مهمته على وجه أقرب الى العلم وأرضى للحق ، مزودين في عملنا بتجربة الحاضر الواسعة ، ومماناة وقائعه بعمقها وغناها وتنوعها ، لتتمثل لنا صورة الماضي العربي ، نستعيدها (على هدى المصادر المتوفرة ، وضمن طاقة المؤرخ) بملامحها ، ومظاهر نشاطها وحركتها على مدى الأجيال المتلاحقة ، نستمدها من هذه الأمشاج الموزعة في المخلفات والوثائق والمؤلفات التاريخية ، في الشرائع والقوانين ، في النظم الاجتماعية والاقتصادية ، في الشعائر الدينية ، في الطرائق والأنماط المتخيرة لمواجهة الطبيعة واخضاعها واستخدامها ، في الفنون ، في طرز البناء والعمارة ، في الشعر والنثر ، في الموسيقى والغناء ... لنعيدها خلقاً سوياً ، تتلألأ بنور الحق ، ويشرق محياها بسيما الصدق .

ثم ان هذه الدعوة لكتابة التاريخ العربي لا تعني التزمت والانغلاق، بل تتضمن التفتح على العالم والالتقاء به ، فلن يكتب تاريخ العالم بمعزل عن المسيرة الانسانية بله مسيرة الجيران . لقد كانت الحضارة العربية نموذجاً من النماذج الفريدة للتفتح والسماحة والأخذ والعطاء ، « بعثت بالحنيفية السمحة »(٣٥) . ولن يكتب التاريخ العربي ، ولن تستطاع كتابته ، الا في هذا الجو الفسيح من السماحة والتفتح والتلاقي والتفاعل مع مسيرة الشعوب في ظلال التاريخ . ما أبعدنا عن أن ندعو لكتابة تاريخ منعزل متعصب ، أو نفكر في ذلك . ما أبعد ذلك عن الروح العربية ، المفعمة بالتفاؤل والايمان بالتقدم والتعاون بين الأمم والتي يصدق عليها كل الصدق أن تقول فيها انها ترى أن « الانسانية هي الوحدة التي يدور حولها التاريخ ، لأن تضامن البشرية يجعلها مشتركة في الخبرة التي تكتسبها الأجيال السابقة . وكل مجهود يرمي الى عزل فئة من الناس خارج تاريخ الانسان انما يكون نتيجة عمل أبتر »(٣٦) . وأكتفي للتدليل على ذلك بالقريب القريب ، أكتفي بكلمة الجاحظ سيد كتّاب العربية : « ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم تكن ندركه الا بهم، لقد خسئ حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا الى المعرفة... وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا . على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة

أكثر مما وجدنا ٠ فما ينتظر العالم باظهار ما عنده ، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم »(٣٧) ٠ انها الدعوة المتفائلة بالانسان ومثله وقيمه ، ترى في التعاون بين الأمم وحضاراتها سبيل الانسان في التقدم والرقي واغناء المعرفة ، كما أن قولته : « ما على الناس شيء أضر من قولهم : ما ترك الأول للآخر شيئاً »(٣٨) مثل لايمانه بقدرة الانسان على الابداع والاختراع والخلق ٠ ان في كلمتي الجاحظ غنية مما عداهما في التدليل على تفاؤل الانسان العربي بالمستقبل ، وايمانه بالتقدم وان التعاون بين الأمم سبيلنا في التمكن من اكتشاف المجهول ، والتعرف على أسرار الكون ، وزيادة سيطرتنا عليه ٠

وليست هذه الدعوة لكتابة التاريخ العربي قاصرة على المؤرخين والمفكرين العرب لا تعدوهم الى سواهم ، بل هي الدعوة العامة لكل مؤسسة علمية أنى كانت ، ولكل باحث ملأت قلبه القناعة بالفكرة ، واطمأن الى جدواها ، ويحس في نفسه القدرة على المشاركة في هذا الموضوع الهام في حياة أمتنا العربية ، ويدرك آثاره البعيدة في تطورها الثقافي والفكري والعلمي ٠

أحبب بها دعوة رفيقة هادية ، تهيب بنا أن نسارع الى كتابة موسوعة التاريخ العربي ضمن هذه المنظورات والحوافز العلمية والقومية ٠ ما أجمل أن يكون لنا تاريخنا القومي ، وما أسعدنا حين تكتحل عيوننا برؤية الموسوعة التاريخية العربية قد اكتملت ٠ اني أراها رسالة قومية لا بد أن ننهض بها ، واني أراها رسالة علمية يجب أن نبادر جميعاً لانجازها ٠ انها رسالة جديرة بأن تبعث فينا كل حماستنا وكل اندفاعنا ، وأن تثير فينا كل صبوتنا وكل فتوتنا ٠ فلنقبل على أدائها والاضطلاع بها والفرح ملء نفوسنا ٠ لقد ناط بنا القدر أن نقوم بهذه المهمة القومية والعلمية ، وما أحلاه قدراً ٠

ـ ٣ ـ

ورأى متحدث أن الدعوة لكتابة التاريخ العربي في هذا الوقت لم تراع المرحلة التي تمر بها الأمة العربية ، مرحلة الخطر الأكبر في حياتها ، تواجهه موزعة القوى ، على غير أهبة ولا استعداد ، تحيط بها أحوال

صعبة بالغة الصعوبــة ، وتلح عليهــا مطالب أساســية لا بد من تلبيتهــا والاستجابة لها · لقد حشدت الامبريالية وعلى رأسها الولايات المتحــدة الأميركية وربيبتها الصهيونية كل قواها الشريرة لتشن على الوطن العربي أعتى غاراتها وأقساها عدواناً · انها معركة الامبريالية الفاصلة ، بكــل ما تتضمنه مثل هذه المعركة من شراسة وقسوة ، تريد أن تمزق الوطــن العربي ، أن تنهب خيراته ، أن تشتت أبناءه ، أن تلقيهم في التيه ، يتيهون في الأرض ولا يهتدون ، أن تقتل في النفس العربية اباءها وعزتها وشممها وشموخها ، أن تنتزع منها كل أمل وكــل توق وكل تشوف وكــل نزوع الى الوحدة العربية ، أن تحرك كل النزعات الضالة، وكل الأهواء المنحرفة لتفرق وتبدد حتى لا يكون لقاء ولا اجتماع · لقد صممت الامبرياليــة أن تقضي على وجود الأمة العربية ، فلا يبقى من هــذه الأمة الكريمــة العريقة الأصيلة الا شراذم مقطعة الأوصال ، وجماعات موزعة مبلبلة ، ودويلات مستضعفة مفككة قد دب اليها داء التخاذل والوهن ، وتفرقت بها الأهواء ، يناصب بعضها بعضاً العداوة والبغضاء ، ويقتتلون دون رحمــة ولابقيا ، بأسهم بينهم شديد ·

اذا افترقــوا عن وقعــة جمعتهــم   لأخــرى دماء مــا يطــل نجيعهــا

شواجــر أرمــاح تقطــع بينهــم   شواجر أرحــام ملــوم قطوعهــا

وان المهمة الأولى التي علينــا النهوض بهــا أن تتجمع كل القــوى العربية ، وكل العقول والأقلام الخيرة لتخوض معركة الانقاذ والخلاص · واجبنا اليوم أن نعمل ونجهد حتى يتبين العرب كل العرب ما يراد بهم وما يخطط لهم ، وحتى يدركوا الادراك العميق مــا تبيته لهم الامبرياليــة الأميركية والصهيونية من شــرور الاستئصال والتمــزق والفناء ، كــي يستفزهم ذلك أن يجمعوا قواهم صفاً واحداً لمواجهة هذه المعركة التــي تأجج أوارها ، وأن يتراصوا فيما بينهم لاحبــاط خطة الغدر اللئيمــة التي أعدتها الامبريالية والتي يلوح للرائي وكأنها في طريق النجاح · ان ذلك خير لهم وأبقى من أن يبددوا طاقاتهم وقواهم في أعمــال متعــددة تحتمل الانتظار ازاء هذا الخطر الداهم الجسيم ·

ـ والحق أن الأمة العربية تواجه خطراً ماحقاً لم تتعرض له ، ولــم تعرف شبيهاً له طوال حياتها الماضية ، على كثرة ما حل بها وما نابها من

كوارث ومصائب على مر الأيام . انه خطر الفناء أعدت له العقول الشريرة الشيطانية لتدمر هذه الأمة العربية ـ صانها الله وحفظ عليها وحدتها ـ تدميراً لا يبقي ولا يذر . انه الحق كل الحق لا مرية فيه ولا خلاف . ولكن ، أليس دعوتنا وعملنا جزءاً من هذه المعركة الضارية التي تصب حممها علينا ؟ ان الغرب حين خاض معركته الاستعمارية في بلادنا قد خاضها في كل الميادين ، واستطاع بوسائل شتى اصطنعها أن يعبث بتراثنا ، وأن يشوه تاريخنا ، وأن ينال من حضارتنا وثقافتنا ، وأن يشكك بقيمنا ومثلنا وأخلاقنا ، وأن يضائل من دورنا في المشاركة الحضارية الانسانية ليحط من شأننا ، ويضعف من ايماننا بذاتنا وأمتنا وقدراتنا فلا نقوى على المقاومة والجلاد . غايته التي يرمي اليها أن يزرع اليأس والقنوط في نفوسنا ، أن يثبط من عزيمتنا ، ويفلل همتنا ، فنستسلم له دون تأب ، ونلقي بأيدينا لما يراد بنا خاضعين خانعين ، لنظل قابعين على هامش التاريخ ، لا نشارك فيه ولا نصنعه . أفليس من مهامنا الأساسية في هذه المعركة التي يؤرث الاستعمار الأميركي والصهيوني نارها ، والتي يجب علينا أن نخوض غمارها في جميع جبهاتها أن نرفض الاستسلام لأكاذيب الغرب ، ونأبى التسليم بما قاله في حق أمتنا وحضارتنا وتاريخنا ، وأن نعيد النظر لنقرأ تاريخنا بكل صفحاته : المتألقة الزاهية ، والداكنة الباهتة ، قراءة جديدة متبصرة ، على هدي النهج العلمي النقدي الذي أرساه علماء التاريخ ورجال الفكر الكبار . لقد خلف لنا الأجداد مادة ووثائق ومؤلفات وفنوناً وصناعات وآداباً لعلها من أغنى الثروات التي تعين المؤرخ في عمله . ونحن على ثقة من أن الأيام المقبلة حافلة بالجديد الغني من المكتشفات والوثائق والمؤلفات التي تنير جوانب من تاريخنا جديدة ، وتطل على آفاق كانت لنا مجهولة . ولكن هذه الثروات الثمينة الغالية التي خلفها الأجداد لها حسناتها ومزاياها ولها عيوبها وآفاتها . انها ابنة عصورها ، موسومة بطابعها ، تحمل أهواءها ونزعاتها ، وفيها خيرها وشرها . وليس هنا موضع الحديث عن المحاسن والمساوىء التي تكتنف تلك المادة التاريخية ، فذلك من شأن الباحث المؤرخ ذي الرؤية البصيرة ، والحس التاريخي ، والنظرة الناقدة النافذة ، والموهبة الفذة في التهدي الى المهم من الأحداث ذي الدلالة ، يسترشد في عمله بحصيلة ما أسفرت عنه مذاهب النقد التاريخي ، وما انتهت اليه رؤى الفلاسفة واتجاهات المفكرين ، فهو يستوحيها ويستمد منها ، ويمضي في كتابة التاريخ العربي على هدى

منها وبصيرة ، بعقل عالم عميق الادراك ، محيط ، متفتح على أنواع المعارف ، ومخيلة شاعر مرهف الحس صادق الحدس ، وقد امتلك رؤية موحدة لتاريخ بلده ، وعرف موقعه الحق من تاريخ العالم ، تفتنه الحقيقة وتستأثر به ، ويؤرقه هم الوصول اليها ، فهو بادي الحماسة ، قوي العزيمة ، شديد الاندفاع في عمله ، يصطنع الأساليب والقواعد العلمية ويتقيد بها ، ويقلب الوسائل المختلفة ليفهم الوقائع التاريخية على وجهها الصحيح ، ويتبين الأحداث على حقيقتها ، ثم يسطر التاريخ العربي كما تبدى له حقاً وصدقاً .

فاذا كنا نحب لتاريخنا أن يكتب على حقيقته ، واننا لنحب ذلك ونؤثره ، لأن أجمل ما في الحياة أن نتعرف الى الحق ، فان حافزاً آخر ينضم الى سابقه ، يحدونا أن نسارع في انفاذ ما نحب ونؤثر وهو أن تاريخنا الذي لم يكتب بعد على حقيقته قد أنشب فيه الغرب مخالبه افساداً وتمزيقاً ، وأفاد من عيوب المؤلفات القديمة ليسوّد صفحات هذا التاريخ ، ويشوه معالمه ، ويفسد قيمه ، يبغي من وراء ذلك أن يفقدنا الثقة بماضينا ، لنفقد الثقة بأنفسنا ، ويتسرب اليها الوهن واليأس . ما أسعدنا يوم نستطيع أن نقلب صفحات الموسوعة التاريخية العربية ، نتنزه في رياضها ، ونتعرف ماضينا يتلألأ بنور الحق ، وبنور الحق وحده . تحضرني دائماً كلمات يعقوب بركهارت في كتابه : (أفكار في تاريخ العالم)، يقول : « يجب على العقل أن يحول ذكريات تنقله خلال عصور العالم الى شيء يملكه ، فما كان ذات يوم فرحاً وحزناً يجب أن يصبح اليوم معرفة ... ان دراستنا ليست حقاً وواجباً فحسب . انها حاجة قصوى ، انها حريتنا بادراكنا العبودية العامة وتيار الضرورات »(٣٩) . وما أشد أمنيتي أن نطبق ذلك في كتابة تاريخنا العربي ليصبح لنا كل ما مضى من وفاق وخصومة ، وتلاق وافتراق ، وسلم وقتال ، معرفة ترفعنا الى جو الحرية والعمل للمستقبل ، بدل أن نظل مستعبدين موقرين بأعباء ما جرى في الماضي . لعل كتابة التاريخ كتابة صحيحة وسيلة من أفضل الوسائل تهدينا الى ذواتنا ، وتحفز فينا الهمة أن نندفع لبناء مستقبل أفضل . أسمح لنفسي هنا أن أستعير كلمات ارنست كاسيرر أدلل بها على ما أردت من بيان ما لكتابة التاريخ العربي من شأن كبير في حياتنا . يقول : الفن والتاريخ أقوى أداتين تعينان على البحث في الطبيعة الانسانية . ماذا كنا نعرف عن الانسان دون عون من هذين المصدرين

للمعرفة ؟ ··· ولكي نجد هذا الانسان (الفرد الواقعي) لا بد من أن نذهب الى المؤرخين الكبار والشعراء العظام ··· ليس الشعر محض محاكاة للطبيعة ، ولا التاريخ سرداً لأعمال وأحداث ميتة · الشعر والتاريخ كلاهما قانون معرفتنا الذاتية ، وأداة لا غنى عنها لبناء عالمنا الانساني »(٤٠) · من منا لا يتمنى أن يعرف ذاته ، وأن يقع على الصدق التاريخي وهو يتملى قراءة التاريخ · اني لأنتظر ، باللهفة والشوق ، اليوم الذي أقرأ فيه تاريخ بلادي وقد كتبته أيد نزيهة وعقول بصيرة استشفت روحه وتمثلت مآتيه ، وعاشت مع صانعيه ، وأحسنت التعرف الى حضارته ، كتبته لا بروح التشاؤم أو التفاؤل ، ولا بروح التمجيد والاشادة أو التجريح والتقليل ، ولكن بروح المعرفة وحبها والتعلق بها ·

ما أجملها فرحة غامرة أن يطالعك الماضي ، ماضي أمتك ، حياً يتحرك على صفحات كتاب ، يقص عليك بالصدق أنباء ما سلف ، دون تزيد أو مبالغة ، ويقفك على الحقيقة دون توشية ولا أصباغ · انه حقاً التاريخ الخلاب ، يطلعك على ذاتك ، ويعرفك بنفسك ، ويجعلك أكثر انغراساً في أرضك ، في تربتك ، وأشد تعشقاً لوطنك · وهل ينفصل الحاضر عن الماضي(٤١) ؟ « اننا لا نستطيع أن نعيش وأن نعمل وأن نساير الزمان الا اذا احتفظنا بالتضامن الوثيق مع الماضي ··· وبدون التاريخ لا تستطيع مجموعة من الناس التعرف الى شخصيتها ، ولا يتكون عندها وعي يجمع تراثاً مشتركاً جديراً بانتباه الناس · لا يقي الناس من النسيان سوى التاريخ ،وبدونه لاتنسجم الأجيال المتعاقبة كأنها رجل واحد تلقنه الدهور دروساً دائمة ، على حد تعبير باسكال · لذلك نصم بالهمجية تلك الشعوب التي تفتقر أشد الافتقار الى ذكريات ماضيها ، وتنحصر أساليبها المعيشية في بعض ممارسات تقنية لا يجدون لتحسينها سبيلا بسبب ما يجهلون من أصولها التاريخية العميقة الجذور »(٤٢) · مثل هذا التاريخ يبدو لي كأنشودة أحن الى سماعها ، أتمنى أن أتغنى بها· تستخفني ، وأنا أطالع بعض صفحاته هزة طرب كتلك التي أحسها وأنا أترنم بملحمة جميلة من ملاحم الشعراء الخالدين · ألم يقل رانكه من قبل وقد شاهد روايات والتر سكوت : ان الحقيقة التاريخية أجمل كثيراً وأمتع كثيراً من القصص الرومانسي(٤٣) ·

اني أرى أن الدعوة لكتابة موسوعة التاريخ العربي تستجيب لدواعي المرحلة النضالية القاسية التي تمر بها الأمة العربية ، بل هي سلاح ماض

من أسلحة هذه المعركة يفل من السلاح الكاذب الذي شهره عدونا علينا ، بل ويعزز قوانا ، ويشد من عضدنا · انها دعوة علمية وقومية ونضالية في آن واحـد ·

– ٤ –

ويتشقق عن هذا السؤال الذي بدأنا به الفقرة الثالثة سؤال ثـان يجاوره يقول : أليس من الخـير أن نتطلع الى بنـاء المستقبل ؟ مالنـا وللتاريخ ؟ مالنا وللماضي ؟ هذا الماضي الذي يختلط فيه الحسن بالسيء، وتتراءى فيه الى جانب الصحائف البيض صحائف سود تمـور بالقسوة والتعصب والجهل والجمود · لندع كل ما يشدنا الى الماضي · وهل تاريخ الأمم الا مزيج من الكبرياءوالتعالي والغطرسة والأكاذيب والتمجيد التي يمليها الغرور القومي والأثرة والتعصب المقيت ؟ لننس الماضي ولنطـو بساطه بكل ما فيه ، ولنتجنب نبش ما يثير العداوة والحزازات · اننـا شعب عاطفي تستثيرنا الذكريات ، وتفعل في نفوسنا فعلها الكبير ، فلنمض الى الأمام ، ولنول وجوهنا شطر المستقبل ، ولننطلق بكل العزم تحدونا الرغبة الصادقة والارادة المصممة لبناء حياتنا المقبلة بناء يلبي مطامحنا ويستجيب لتطلعنا · لا نريد ماضياً عبئاً يبهظ كاهلنا ويعوق اندفاعنا · وأي عبء أثقل من تاريخ يجرنا الى الخلف ، ويحبب الينا الاستراحـة في ظلاله ، ويحجب عنا رؤية المستقبل ومطالبه ، ويصرفنا عن الدأب في سبيل التقدم والابداع لنحتلمكانتنا بين شعوب الأرض التـي سبقتنا في مضمـار الحضـارة ؟

ان مثل هذا السؤال أو التساؤل ليذكر بثلة من الفلاسفة والمؤرخين نظروا الى التاريخ نظرة متشائمة ، وحكموا عليه الحكم القاسي · يرى نيتشه في كتابه (أفكار في غير أوانها) أن الحس التاريخي خطر كمين في الحياة الحضاريـة ··· وان التاريخ يعـوق طاقـات الحياة ، وبافـراط التاريخ أصبحت حياتنا كسيحة منحطة ، لأنه يعوق الدافع القوي الـى أعمال جديدة ويشل العاملين · ان الحس التاريخي الجامح اذا اندفع الى نهايته المنطقية اقتلع جذور المستقبل(٤٤) · ويقول بول فاليري : « التاريخ أخطر العقاقير التي استحضرتها كيمياء العقل · ان خواصه معروفة جيداً: انه يثمل الشعوب ويولد فيها شتى الأحلام والذكريات الخاطئة ، ويبالغ في رد فعلها ، ويبقي جروحها القديمة حية لا تندمل ، ويزعجها في راحتها ، ويذهب بها الى هذيان العظمة أو الى هذيان الاضطهـاد ، كما يجعـل

الأمم فظة لا تحتمل ، ومتفطرسة متكبرة »(٤٥) ٠ ولعل المفكرين الفرنسيين اندره جيد وجول رومان لا يبعدان كثيراً عن مثل هذا الموقف حين أشاحا بوجهيهما عن التاريخ اعراضاً وازدراء(٤٦) ٠

ـ لعل من المستحسن أن نمضي بالحوار في هذه المسألة الى نهايته التي بلغها قبل أن نبدأ الاجابة ٠ لقد حرك الحوار أحد المتحدثين ليتناول مضمون تاريخنا الماضي، يعرضه كما عرفه وتراءى له من قراءاته طالباً وشاباً ٠ كان يتسخط الماضي العربي ، ماضي الخلفاء والملوك ومن يلوذ بهم من الوزراء والبطانة ، ويندد باساءاتهم ، ويتكره فعل المؤرخين الذين صاغوا الثناء عليهم كذباً ورياء ، يرميهم كلهم بكلمة أحدهم وقد سئل عما يعمله فقال : « أباطيل أنمقها ، وأكاذيب ألفقها »(٤٧) ٠ وكان يذكر بتبرم وأسى تلك الخلافات الماضية وما جرت اليه من اقتتال وحروب ، ومن تناكر وتنافر ، وانقسام وفرقة أعقبت ضعفاً وذلا ٠ ثم يشتط به الحديث لينتقل الى التسخط على العلوم والفنون والآداب العربية التي لم تجار مبدعات الأمم العظيمة ومبتكراتها ، وغلب عليها النقل والتقليد ٠ وكان يرى من الخير أن نسدل الستار الكثيف على الماضي حتى لا تصيبنا عدواه ، وينتقل الينا عقمه وجموده ٠ اننا نناضل من أجل الوحدة والحرية والتقدم للتخلص من موروث الماضي المتخلف ولا نريد أن ننظر الى الوراء خشية النكوص ٠

ـ وأبدأ قولي بأن التاريخ خدين الأمم والشعوب ٠ وهل تجد شعباً لا يقص عليك حكاية تاريخه ولو أوغلت في الخرافة والأسطورة ؟ ان أول ما يلفت النظر أن شعوب الأرض التي شاركت في صنع مدنية الانسان قد عنيت بتواريخها وتناقلتها ، وسمت لتخليد مآثرها ، كما عنيت بمعرفة تاريخ الشعوب التي تدنو منها أو تبعد عنها ، بذلت في ذلك وسعها ، ونال التأليف التاريخي جانباً من اهتمام الأمم ، وحظاً من رعايتها ٠ وظل ذلك ديدنها على مر الأيام والدهور ٠ ثم كان أن طفت العناية بالتاريخ والاكثار من التأليف فيه في القرن التاسع عشر والقرن العشرين طغياناً ما عرفته البشرية من قبل « ان حرية البحث التاريخي وتوفر وسائله زادت زيادة ضخمة في القرن التاسع عشر ، كما أن ما اجتمع له من الفرص تواصلت زيادته بغير انقطاع ٠ وأهم ظاهرة نتبينها في الدراسات التاريخية العصرية ليست مناهجها ، وانما هي مجالها الضخم الاتساع »(٤٨) ٠ بل ان الشعوب التي حرمت من تاريخ طويل حافل تجهد وتجاهد لتصنع لهاتاريخاً وماضياً ٠

ان هذه الظاهرة توحي بالحاجة العميقة الأصيلة الى التاريخ التي تستشعرها الشعوب ، وأنها لا تستغني عنه(٤٩) • واذا تجاوزت الحديث عن طبيعة التاريخ البشري وعن المعنى أو المعاني التي له ، اذ أنها ليست من همي في هذه العجالة(٥٠) ، فلا بد من أن أشير الى أن كثيراً من الذين يتحدثون عن التاريخ المبىء همأولئك الذين ما زالوا أسرى النظرة القديمة الى التاريخ ، يرون في التايخ سير ملـوك وأباطـرة ، وسلاسل حـروب ومنازعات ، ومعارض تمجيد لقوم واستخفاف بآخرين ، لم يتبينوا بعد الخطوات الفسيحة الناجحة التي خطاها التأليف التاريخي•لقدتحققت نقلة كبيرة في الميدان التاريخي ، وأصبح المدى الذي قطعه مؤرخو الغرب في صناعة التاريخ بعيداً حين نريد الموازنة بين مؤلفاتهم والمؤلفات التـي كتبها مؤرخو اليونان والرومـان ومؤرخو القـرون الوسطى • لم يبـق التاريخ أحداثاً تتوالى تحكي رغبات الملوك والطغاة ، ولا سير الزعمـاء والرجال المظمام ، ولكنه تاريخ الحضارة ، حضـارة الانسان ، يعنـي بحياة الجماهير التي صنعت التاريـخ ،(٥١) ، ويكشف عـن تيار الحيـاة المستمر الفاعل المؤثر في الأحداث ، ويهتم بدراسة جوانب الحياة المختلفة التي تكون بمجموعها وحدة متلاحمة لا تقبل الانفصام • نقرأ في التاريخ قصة الفكر ، وجهود الانسان في تشييد الحضارة • ويعرفنا المؤرخ برؤيته البصيرة ، وفطرته التاريخية المدركة ، وموهبته اللماحة ، وقدرتـه على التقصي ، ومهارتـه في الاسـتنباط ، المعاني الكامنـة وراء الأحـداث والظواهر • قد تلمح عينه النافذة قناة من قنوات الري ، أو سداً مهدماً ، فيستوقفه ذلك ويستأثر باهتمامه مثل ما يستوقفه قصر الحمراء أو جامـع قرطبة ، ويستخرج منه معاني حضارية تدلنا على جهود الانسان العربـي وطريقته التي اصطنعها في الري والزراعة • لقد أصبحت مهمة المؤرخ الأولى فهم الدلالـة الانسانيـة للأثـر ، « أن يجـد الانسان خلف كـل وثيقـة »(٥٢) • أليس مثل هذا التاريخ الحضاري الذي يحكي قصة معاناة الانسانية خلال مسيرتها الطويلة ، ويعرض التضحيات والجهود التـي قدمتها في سبيل التقدم والرقي ، وسيلة بالغة الجدوى في تثقيف الانسان ، وفي اغناء فكره ؟ ألا يساعده في تبين الطريق الصاعـد الذي تسير فيـه الحضارة الانسانية ، وفي التعـرف الى أسباب السقوط والتـردي ، أو التوقف والجمود • ألم يختر مؤرخ عربي لكتابه عنوان (تجارب الأمـم) للتدليل على الدور الكبير الذي يضطلع به التاريخ ، حين يعرفنا كيف عاش الناس قبلنا ، والتجارب التي عانوها ، ممـا يضيف خبرة الى خبرتنـا

« وهكذا نعيش أعماراً كثيرة اذ نحن نضيف الى عمرنا أعمار من سبقنا من الناس »(٥٣) . « ان فهماً جديداً للماضي يمنحنا في الوقت نفسه استشرافاً جديداً للمستقبل ، وهذا بدوره يغدو حافزاً في الحياة الفكرية والاجتماعية »(٥٤) . لقد تحدث المؤرخون والمفكرون والفلاسفة على مدى الأيام عن فوائد التاريخ وعظيم جدواه ، ولن نردد هنا ما قالوه في هذا الباب(٥٥) . ولكن لعله يحسن أن نشير هنا الى أن بعض المؤرخين قد يسيئون استخدام التاريخ ، ولا يلتزمون بالقواعد والسنن التي تتطلبها كتابته ، ومثل هؤلاء المؤرخين الذين يتنكرون لواجبهم ، ولا يؤدون الأمانة التي نيطت بهم ، يقدمون في مسلكهم المعوج ، وجنوحهم عن الطريق السوي ، المآخذ التي يعاب بها التاريخ ، وهو منها براء . يقول جوزف هورس : « قد ينحرف بعض المؤرخين عن سواء السبيل ، اذ يحكمون نظرياتهم على تيار الحوادث ، ويفسرونها بما يشاء لهم هواهم . حينئذ يقع الخطأ على المؤرخين لا على التاريخ . وهم في ذلك يسيئون الى نظريتهم بدلا من أن يخدموها . وقد كثر عدد الذين نبذوا التاريخ لعدم تمييزهم بينه وبين المؤرخين ، وكان من جملة هؤلاء بول فاليري نفسه في (الاتهامات) الشهيرة التي وجهها الى التاريخ »(٥٦) .

ـ ان مثل هذه النقلة الكبيرة في كتابة التاريخ التي تمت في الغرب ، لم تجد ما يماثلها في التاريخ العربي . ما زلنا نعاني من هذا العجز الواضح في رسم الصورة الصحيحة لتاريخنا التي تتطلبها مناهج النقد التاريخي ، وما زلنا نفتقد الأقلام التي تنصرف لمعالجة تاريخ الأمة العربية على هدي الطريقة التاريخية العلمية . نعم ، ان هناك محاولات جديدة في ميدان كتابة التاريخ العربي موفقة ناجحة ، أفضت الى جملة دراسات تاريخية تستجيب لمتطلبات المرحلة، ولكنها قليلة متفرقة نرجو أن تكون تباشير الصبح الذي نتطلع اليه . ان مبادرة جامعة دمشق في الدعوة لكتابة التاريخ العربي انما تنبثق من شعورها بالتبعة العلمية وبالتبعة القومية التي يجدر بنا أن نضطلع بها في هذا الميدان العلمي الهام .

هل يمكن ، وهذه نظرتنا الجديدة التي ندعو اليها في كتابة التاريخ العربي ، أن يكون التاريخ عبئاً يبهظنا بأثقاله ، ويشل حركتنا . ان هذه النظرة الانسانية الحضارية التي ندعو اليها وتتمسك بها في كتابة التاريخ العربي لن تكون الا حافزاً يحدونا للعمل ، ويستثير فينا الرغبة للحاق بركب الحضارة ، ويدفع بنا الى التقدم والابداع وبناء المستقبل المشرق.

لن أفيض في تفصيل هذه النقطة الهامة ، فقد سبق الى معالجتها المعالجة الضافية واستوفى جوانب القول فيها الأستاذ الدكتور قسطنطين زريق في كتابه الشهير : نحن والتاريخ(٥٧) ، « فعسى أن تكون علاقتنا بالتاريخ علاقة تفاعل ايجابي مستمر ، وعسى أن تكون تحدياته لنا دوماً حافزة مستثيرة ، وردودنا عليها رفيعة مبدعة ، وعسى أن نتمكن في هذا الظرف العصيب من حياتنا من أن نرد على تحديه الضخم بأصفى ما نمتلك من فكر ، وأنفذ ما نقدر عليه من عمل ، وأروع ما نحن أهل له من خلق وابداع »(٥٨) ٠

– وتبقى لي كلمة أهمس بها لأولئك المتشائمين الذين تحدثوا عن التاريخ العربي بتسخط ، وألقوا على تراثهم العظيم نظرة استخفاف ٠ ان مثل هذا الموقف يعود جله في رأيي الى أمرين :

أولهما الطريقة الخاطئة المتبعة في كتابة التاريخ العربي ، وعمودها أعمال الملوك والأمراء السياسية ومنازعاتهم وحروبهم ، لا يشفع بها وصف الجهود المثمرة الطيبة التي بذلتها جماهير العلماء والأدباء والفنانين والصناع والعمال والفلاحين في تشييد الحضارة العربية في المجالات المختلفة ، وهي طريقة تسللت الى الكتب المدرسية أيضاً ، فخلفت في نفوس الناشئة بتجاهلها الموقف الحضاري العربي جملة ، واغراقها في تفاصيل النزاع والتخاصم والتنافس بين الأمراء والحكام مثل هذا الانطباع السيىء ٠ ولعل مما عزز مثل هذا الموقف وقوّى أثره سهولة اطلاع الشبان على كتب التاريخ العربية القديمة التي عنيت أول ما عنيت بأخبار الملوك والرؤساء طبقاً لما فرضته طبيعة المرحلة السابقة في منهج كتابة التاريخ ، يضم الى ذلك الأسلوب الذي كان ينهجه بعض الأدباء والشعراء في التجني على عصرهم ، والتشكي من سيئات جيلهم ، تعبيراً عن تذمرهم ، وتنفيساً لكربهم ٠ كل هذا سمح لمثل هذه الأفكار الخاطئة أن تتسلل الى نفوس الناشئة العربية التي أُشربت حب المثل العليا ، وتطلعت الى الحق والعدل ، فهم يتداولونها فيما بينهم وكأنها أمر مسلم لا يرقى اليه شك ٠

والأمر الثاني : الكتابات الحاقدة المضللة التي ألفها الباحثون الغربيون والمستشرقون بوحي من الاستعمار ، ودفاعاً عن مصالحه ، والتي ارتدت في ظاهرها ثوب البحث العلمي لتقنع المقول ، وتتسرب في النفوس ،

وقد نالوا في كتاباتهم من العقل العربي والثقافة العربية والحضارة، فرموا العقل العربي بالعقم والتقليد والعجز عن الابداع ، وجعلوا التاريخ العربي معرض أحداث تافهة ، تتحكم في مسيرته الأهواء، لا الأفكار والعقائد والنظم والشرائع • وبالغوا في اظهار الخصومات والتنازع والاقتتال بين العرب ، وأطالوا في وصف الملل والنحل ، وكبروا الصغير ، وكثروا القليل ، ووقفوا فأطالوا الوقوف عند الحدث الشاذ والأمر النادر يريدون أن يجعلوا منهما الشائع والمألوف في المجتمع العربي ، ليخلصوا من ذلك كله الى مفهومات عجيبة غريبة عن الأمة العربية وجبلتها وسجاياها ، من مثل أن الشقاق طبع فطر عليه العرب ، وفهموا كلام ابن خلدون على غير وجهه ليعززوا رأيهم • واقتبس عدة من الباحثين العرب مثل هذه الأقوال ، قصد اليها بعضهم قصداً ، واغترف منها بعض دون أن يدرك مراميها البعيدة ، مما أتاح لها أن تجد شيئاً من القبول لدى فئات من الفتيان والشبان العرب • وساعد على مثل هذا القبول الواقع المر الذي تعيشه الأمة العربية التي فرضت عليها الامبريالية التجزئة البغيضة والتخلف ، وقاومت بضراوة كل محاولاتها من أجل التوحيد وأحبطتها(٥٩) •

ـ اني ، والحق أقول ، لم أفاجأ بما قاله صاحبي وهو يحاورني متسخطاً على التاريخ العربي ، وان أحزنني قوله ، فقد كنت سمعت مثله من أبناء قومي غير مرة • بل ان مثل هذه الأفكار يعود الى زمن أقدم ، وقد عرض لمثله الأستاذ الكبير ساطع الحصري في محاضرة له ألقاها في نادي المثنى ببغداد ، وتحدث عن أولئك الشبان الذين ينظرون الى التاريخ العربي باستخفاف ليستخرجوا منه أحكاماً تثبط العزائم ، وتؤدي الى اليأس والقنوط • وبين بعد ذلك بحصافة الحكيم واطلاع المؤرخ ومعاناة المفكر القومي خطأ تلك النظرة المتسرعة التي لم تبن على أساس من الحق والواقع • ولقد كفاني فيلسوف القومية العربية الاجابة عن هذه الفكرة ، وقال فيها الكلمة الفصل(٦٠) •

ألا يدعونا مثل هذا الموقف الخاطىء تقفه فئات من ناشئتنا العربية ازاء تاريخنا أن نسارع في الدعوة لكتابة موسوعة التاريخ العربي ، تتكاتف في اخراجها جهود جميع المؤرخين العاملين في هذا الميدان ، وتتلاقى على صياغتها العقول الذكية المؤمنة بأمتها وتاريخها ، لتكون أحد المنجزات العلمية الهامة في نهضتنا الثقافية الحاضرة •

ويقتضيني البيان أن أقف قليلا عند كلمة قالها أحد المفكريـن : « على كل أمة أن تنسى قسماً من تاريخها »(٦١) · ان موسوعة التاريـخ العربي لن تهمل ولن تنسى · ستكون مخلصة لـروح المنهج العلمـي ، ففيه نجاة لها ، ونجاح في تأدية رسالتها ، وتحقيق هدفها · وهذا لا يمنع أن يكون للمؤرخين والمربين الكبار ، الذين يؤلفون الكتب المدرسية لطلاب المرحلتين الابتدائية والثانوية طريقتهم في التأليف المدرسي ، يستوحـون فيها مبادىء التربية القومية والعلمية ، حين يقرون مناهج مادة التاريـخ وأسلوب كتابتها والغاية المتوخاة منها(٦٢) ·

— ٥ —

وقال قائل : ان كتابة موسوعة التاريخ العربي شيء جميل مستحب ، نقابله بالرضا والترحيب · ولكن ، هل يحسن ببلد ناشيء نامٍ من بلدان العالم الثالث أن يتصدى له قبل أن يستكمل المقومات العلمية الضرورية التي تتطلبها النهضة · ان مثل هذا الموضوع يأتي في نهاية سُلم الأفضليات التي نعمل بدأب لتحقيقها · ان على العالم الثالث ، بمختلف بلدانـه ، أن يجهد ويجاهد لتثبيت دعائم النهضة العلمية التقنية ، واللحاق بالركب العالمي المتحضر ، بعد أن عانى ما عاناه من السيطرة الاستعمارية الغاشمة التي نهبت ثرواته وأرزاقه ، واستنزفت موارده ، وسلبته خيرة أبنائـه قتلا وسجناً وتشريداً في الماضي ، واغراء بالحياة الرخية والعيش الهنيء خارج وطنه في الحاضر · علينا أن نبذل المزيد من العرق والجهد ، ونتفرغ للعمل في المختبرات والمصانع ، ونعكف على البحث العلمي عكوف عابـد ناسك ، من أجل تحقيق التقـدم العلمي والتقني والصناعـي ، وسيلتنا الأولى لتلبية حاجات المواطنين الضرورية ثم الكمالية من بعدها · يجب أن نوجه الاهتمام ونشحذ العـزم لبلوغ الهدف في هـذه المهمة الوطنيـة الغالية ، وأن نوفر كل نفقة نستطيعها لنمضي في هذا الطريق حتى نرسي الأسس الوطيدة لمجتمع الكفاية والعدل · ويأتي بعد ذلك كله التفكيـر في كتابة موسوعة التاريخ العربي · فهناك المهم وهناك الأهم ، وتطوير الحياة العلمية هو الأهم لأنه الطريق الوحيد لمجتمع الكفاية والعدل الذي يفضي بنا من بعد الى مجتمع الازدهار والرفاهية ·

— لعل قارئي يدرك لأول وهلـة ضعف الفكـرة ووهن سندهـا ، وما دفعني الى اثباتها الا الحرص على الالمام بكل الأفكار التي طرحت

في المجلس وتناولها شهوده بالنقاش والبحث • ان من أبرز سمات التقدم الانساني الشمول ، لا يقتصر على ناحية واحدة يقف عندها ، لا يعدوها ، بل يمتد الى جوانب الحياة الأخرى • فاذا حقق الانسان فتحاً من فتوح العلم والمعرفة في ميدان من ميادين الحياة استدعى ذلك بالضرورة أن يتبعه على التو ، أو على مهل ، تقدم في الميادين الأخرى ، فتلك سنة الحياة الانسانية التي مضت عليها • ومن الحق أن وسمت عصور في تاريخ الحضارة بسمات خاصة عرفت بها فقيل : عصر الايمان ، وعصر النهضة (أو البعث) ، وعصر التنوير (أو العقل) ••• ، وقيل : عصر البخار وعصر الكهرباء وعصر الثورة التكنولوجية ••• ولكنها السمة الغالبة تكتفي بالصفةالفكرية التي رجحتعلى سواهافي العصر فسمي بها، أو تذكر أبرز حدث (اختراع) اهتدى اليه الفكر الانساني وكشف عنه في عصر من العصور فسمي به تنويهاً لا قصراً ، فالحياة أرحب من أن تضيق ليقف تقدمها عند جانب واحد لا تتجاوزه ، بل لعلها لا تقبل الا أن يتم التقدم في مختلف الجوانب • نعم ان التقدم قد يسرع في جانب ، ويبطيء في جانب ، يستجيب في ذلك لحاجات المجتمع ومتطلباته ، ولمبدعات العقل ومنطلقاته ، ولكن الحياة ، في كل حال ، لا تهمل جانباً من جوانب التقدم ، أو تغض الطرف عنه حتى يذوى ويذبل • وما دام التقدم دين الحياة وديدنها فلن يمضي في طريقه القاصد الا اذا شمل جميع جوانب المعرفة • وبعد ، فهل عرفت الدنيا أمة نهضت وبلغت أوج ازدهارها العلمي والصناعي دون أن يرافق نهضتها العلمية نهضة في الجوانب الانسانية : في الفنون الجميلة ، والآداب ، والموسيقى ، والعلوم الانسانية •••

ان كتابة التاريخ العربي كتابة عصرية مستوحاة من مناهج النقد التاريخي ، تجلو حقيقته ، وتزيح هذه الأقنعة التي تحجب وجهه لأمر في صميم التقدم والنهضة ، وهي الى ذلك تورث القراء الذين يصاحبون المؤلف ويتابعون معاناته ، النزاهة الفكرية والشجاعة الخلقية ، وهما ما هما رتبة ومكانة في أخلاق الشعوب • دع عنك ما يخلفه التاريخ في نفوس الأجيال العربية الناشئة • انه يبعث الحماسة ويطلق الطاقات الكامنة الحبيسة • ولا ينكر أحد ما للحماسة والاندفاع من بعيد الأثر في التقدم والابداع وصناعة المستقبل المشرق الزاهر •

- ٦ -

وبقيت بعد ذلك تساؤلات ترى أن المشروع بالغ الضخامة ، واسع الجنبات تقف أمام تحقيقه الوثائق الجمة التي قد نعجز عن تذليلها والتغلب عليها ، ومن الخير ألا نقدم على مثل هذا المشروع وهذه آفاقه الممتدة • لقد جرت محاولات سابقة لتحقيق مثل هذا المشروع المحبب الى قلب كل عربي ، فوقفت في طريقها الصعاب والعقبات ، ولم يقدر لها النجاح • والحكمة العربية تقول : « السعيد من وعظ بغيره »(٦٣) • والحق أن ندوة دمشق (٢٠ ـ ٢٢ كانون الأول ١٩٧٧) ليست أول من فكر ودعا الى اعادة كتابة تاريخ العرب ، وان كانت هي الأولى ، فيما يبدو لي ، التي تناولت الموضوع في جدية بالغة ، ودراسة معمقة ، ورسمت له خطوطاً أساسياً ، وارتضت ، بعد مناقشات غنية المحتوى ، أن « تجري كتابة تاريخ العرب ضمن منظورات ثلاثة هي : المنطلق الوحدوي ، والفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد بأسلوب البحث العلمي »(٦٤) • لقد كان اعادة كتابة تاريخ العرب طبقاً لمناهج النقد التاريخي الحديث حلم جيلنا العربي ، وبديه أن تتكاثر المقترحات الفردية والجماعية التي تقدم في هذا المنحى ، تأمل أن تقوى على تلبية هذه الرغبة العميقة في نفوس الجيل ، وأن تنجز هذه المهمة المظيمة العلمية والقومية والنضالية في آن واحد • ولئن لم يقدر لهذه المقترحات أن تبلغ الهدف ، وتحقق الغاية التي تصبو اليها ، ان هذا كله لا ينهض دليلا للتشكيك في صحة الفكرة ، أو لاثبات العجز عن تحقيقها ، بل لعله يزيدنا ايماناً وحماسة لمتابعة الخطا كي نبلغ الهدف ، ولعله يغني تجربتنا حين نتبين الأسباب العميقة التي حالت دون انجازها في الماضي • ما زلت أذكر ذلك الصباح الجميل ، حين كنت أستمع الى اذاعة القاهرة وهي تعلن أن السيد كمال الدين حسين وزير التربية في الجمهورية العربية المتحدة قد شكل لجنة تضم من بين أعضائها الأستاذ ساطع الحصري والدكتور طه حسين لتعيد كتابة التاريخ العربي • هزني النبأ ، وملأتني الفرحة ، ولم أتمالك نفسي فأسرعت مهرولا الى فندق أستاذنا ساطع الحصري(٦٥) أستطلعه جلية الخبر ، أستثبته ، أريد أن أستمع منه ما يشعرني بالطمأنينة ، ما يثلج صدري ببرد اليقين • ها هو ذا حلم جميل من أحلام شبابنا ، أمل ناضر من آمال جيلنا يتحقق • كنت في سعادة غامرة وأنا أتحدث الى أستاذنا الكبير ساطع الحصري المفكر المؤرخ نظّار القومية العربية ، تتدفق كلماتي دون توقف ،

أشيد وأنوه بأن ملحمة بلادي العظيمة ستكتب وتدون · وهل أطرب لي ولجيلي من أن نقرأ تاريخ الأمة العربية مسطوراً في كتاب، صاغته اليد الماهرة الصناع، يد مؤرخ يتشوف الى الحقيقة، ويعنو لرؤية وجهها، قد أوتي القدرة والموهبة، وعكف على البحث عكوف العباد الناسكين، وتوفر له بالخبرة والمانة «عمق التجربة الشخصية وكثافتها وغناها وتنوعها»(٦٦)، يحسن استنطاق الماضي والتفهم عنه، فنفى عنه الزيف والتشويه والخرافة والوضع والتزيد، وجلاه كما تراءى له أنه الحق والصدق، فاذا نحن قادرون أن نقلب في سهولة ويسر صفحات تاريخ الأمة العربية نتملى صنيعها في عهود المجد والقوة والازدهار، ونتتبع رجعها ومدى تصديها في عهود الكوارث والآلام والمحن ··· ولمحت في وجه أستاذي جموداً لم أتوقعه، وقد عهدته البشوش الطلق حين ألتقي به، وجمدت الكلمات المتدفقة، وتوقفت أستمع الى الأستاذ الكبير يقول بصوته الهادىء، ولكنته المحببة الي: «لن أستجيب لهذا القرار، ولن أجتمع بهذه اللجنة التي لم يحسن تسمية أعضائها، واني مقتنع بأنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً» · ثم أكمل حديثه يقول: ان الشرط الأول والأساسي للجنة تؤلف من أجل اعادة كتابة التاريخ العربي أن يكون أعضاؤها جميعاً موحدي النظر في معالجة الموضوع، قد تلاقت آراؤهم أو تقاربت، فهم يجتمعون ليتناقشوا لا في الأصول والمبادىء والمنطلقات الأساسية، بل في المنهاج المفصل التطبيقي لتجسيد هذه النظرات، واختيار ما يرونه أجدى في الوصول الى غرضهم، وتحقيق هدفهم على الوجه الأمثل · أما أن تتألف اللجنة من رجال متنافرين فكرياً في النظرة الى التاريخ العربي، ومختلفين كل الاختلاف حول المبادىء التي يكتب بها، فعبث لا طائل وراءه · وكيف يقدَّر لعمل مثل هذا له شأنه وخطورته في حياة الأمة العربية أن يتلاقى على كتابته من وقف نفسه ونذر قلمه يدعو للوحدة العربية يراها الحقيقة الخالدة، وينادي بالثقافة العربية، ومن ألّف (مستقبل الثقافة في مصر)، ودعا الى ثقافة البحر المتوسط · ضدان لا يلتقيان ··· وصدق أستاذنا الحصري، ولم تكتب اللجنة المذكورة سطراً واحداً في سفر تاريخ الأمة العربية · ثم تعالى نداء من دمشق، فقد نظمت مجلة المعرفة التي تصدرها وزارة الثقافة استفتاء حول موضوع (اعادة كتابة التاريخ القومي العربي) طرحته في ستة أسئلة، وجهتها الى المؤرخين والمفكرين والمثقفين ودعاة القومية العربية، ونشرت الاجابات التي تلقتها(٦٧)، واكتفت باثارة الموضوع ليغنى قراؤها بمطالعتهم أجوبة النخبة الواعية وآراءها في

معالجته • اني حين أعرض لهاتين المحاولتين لجد؛ عليم بأن محاولات مماثلة كثيرة قد جرت ، لم يكتب لها النجاح ، لأنه لم تتخذ الأسباب والترتيبات التي تفضي الى نجاحها(٦٨) • ان المحاولات التي مضت قد شحذت عزيمتنا ، وزادتنا ايماناً فوق ايماننا بضرورة كتابة التاريخ العربي كتابة علمية نقدية ، نستمدها من معطيات مناهج النقد التاريخي في العصر الحاضر • ولقد أغنتنا التجارب الماضية فمضينا في طريقنا بقدم ثابتة مطمئنة : لقد احتضنت جامعة دمشق هذا الموضوع العزيز الغالي ، ورعته ، وأخذت توفر له الأسباب والظروف المفضية الى نجاحه • لم تعجل في توزيع العمل على المؤرخين والمفكرين «فرب عجلة تهب ريثا»(٦٩) بل ارتأت أن تمضي في خطأ وئيدة، أن تنشر دعوتها في أنحاء الوطن العربي، وأن تبلغها جميع المؤسسات العلمية التي تعنى بالحضارة العربية والتاريخ العربي • وأصدرت مجلتها (دراسات تاريخية) لسان صدق لدعوتها ، تأمل أن تتلقى على صفحاتها استجابات الملبين ، وآراء المفكرين عملا بالقول الحكيم : « رب حامل فقه الى من هو أفقه منه »(٧٠) •

ـ ان مجلة (دراسات تاريخية) مجلة متخصصة ، صدرت تلبية لتوصية ندوة دمشق (٢٠ ـ ٢٢ كانون الأول ١٩٧٧) « لتكون محكاً للأفكار ، وميداناً لعرض الآراء الجديدة كيما يثبت الصحيح منها بعد مناقشته »(٧١) • وان المجلة لتفتح صفحاتها وقلبها للباحثين والدارسين من المؤرخين والمفكرين في الوطن العربي وخارجه • وهي تأمل أن يوافوها بآرائهم القيمة ومناقشاتهم الخصبة التي تنير طريقها في العمل وتسدد خطاها في بلوغ الهدف الذي نصبته لنفسها •

ـ ان مجلة (دراسات تاريخية) سعياً وراء تحقيق غايتها :

١ ـ ترحب الترحيب الودود بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها التي دعت اليها ، ويناقش بالتعمق هذه الأنظار التي طرحتها ندوة دمشق •

٢ ـ وتتقبل تقبل الرضا المقترحات والآراء التي تساعد في مسيرتها للنهوض بأعباء هذا العمل العلمي الكبير : كتابة موسوعة التاريخ العربي •

٣ ـ وتتلقى أحسن اللقاء المقالات التي يعالج أصحابها موضوعاً في التاريخ العربي يندرج في هذا الاطار الذي رسمته المجلة لنفسها •

ـ ان اصدار مجلة (دراسات تاريخية) المتخصصة ليس غاية في ذاته، وانما هو التوطئة والتمهيد للهدف الأساسي وهو كتابة تاريخ العرب • على صفحاتها تتلاقح الأفكار ، وتتبادل الآراء ، ويتناقش المختصون • وعلى صفحاتها يتعارف العلماء والمؤرخون والمفكرون ويتلاقون تلاقي الاتفاق والائتلاف • فالأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف(٧٢) •

وانا لنرجو أن تؤدي مجلتنا غايتها ، وتكون صفحاتها ميداناً تتسابق فيه أقلام الباحثين ، مما يؤهل لجمع هذه الطاقات العلمية الكفية القادرة في الأرض العربية وخارجها تتعاون جميعها لتأدية المهمة الكبرى التي ناط القدر بجيلنا شرف النهوض بها •

لعل كلمتي قد أدت غرضها في تبيان حدود عملنا وأهدافه

المصادر

١ ـ من كلمات الرسول العربي الكريم ، انظر صحيح البخاري ١ : ٢٦ ، ٢ : ٢١٦ •

٢ ـ الفكر والتاريخ : ٧ ـ ٨ ، التاريخ وكيف يفسرونه : ٢١٣ ، تدريس التاريخ : ١٧ •

٣ ـ الكتب التي عالجت في الغرب موضوع كتابة التاريخ ومناهج البحث التاريخي كثيرة جداً • وقد نقل جملة منها الى اللغة العربية • وأكتفي هنا بالاشارة الى أبرز الكتب المترجمة الى العربية :

١ ـ علم التاريخ ، تاليف هرنشو/ترجمة عبدالحميد العبادي (القاهرة ـ ١٩٣٧)

٢ ـ التفسير الاشتراكي للتاريخ (يشمل مختارات من كتابات فردريك انكلز ، وخلاصة لمقالة كتبها كارل ماركس حول صراع الطبقات في فرنسا ؛ ترجمة الدكتور راشد البراوي (القاهرة ـ ١٩٤٧) •

٣ ـ فلسفة التاريخ ، تاليف غوستاف لوبون/ترجمة عادل زعيتر (القاهرة ـ ١٩٥٤) •

٤ ـ البطل في التاريخ ، تاليف سدني هوك/ترجمة مروان الجابري (بيروت ـ ١٩٥٩) •

٥ ـ عقم المذهب التاريخي ، تاليف كارل بوبر/ترجمة عبد الحميد صبرة (الاسكندرية ـ ١٩٥٩) •

٦ ـ المؤرخون وروح الشعر ، تاليف ايمري نف/ترجمة الدكتور توفيق اسكندر (القاهرة ـ ١٩٦١) •

٧ ـ فكرة التاريخ ، تاليف كولنغوود/ترجمة محمد بكير خليل (القاهرة ـ ١٩٦١) •

٨ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية ـ الفصل العاشر : التاريخ ، تاليف ارنست كاسيرر/ترجمة الدكتور احسان عباس (بيروت ـ ١٩٦١) •

٩ ـ في المعرفة التاريخية ، تاليف ارنست كاسيرر/ترجمة أحمد حمدي محمود (القاهرة) •

١٠ـ مدخل لفلسفة التاريخ ، تاليف و٠هـ٠ وولش/ترجمة أحمد حمدي محمود (القاهرة ــ ١٩٦٢) ٠

١١ـ ما هو التاريخ ، تاليف ادوارد كار/ترجمة أحمد حمدي محمود (القاهرة ــ ١٩٦٢) ٠

١٢ـ النقد التاريخي (يشمل : المدخل الى الدراسات التاريخية للاستاذين لانغلوا وسنيوبوس، ونقد النص للاستاذ پول ماس ، ثم الملحق المتضمن ثلاثة نصوص : أولها : التاريخ العام للفيلسوف الألماني كانت ، والثاني : مقتطفات من مقال في المنهج للفيلسوف الفرنسي ديكارت ، والثالث : مقتطفات من خطبة الكاتب الفرنسي پول ڤاليري) ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي (القاهرة ــ ١٩٦٣) ٠

١٣ـ الفكر والتاريخ ، تاليف بير ــ هنري سيمون/ترجمة الدكتور عادل العوا (دمشق ـ١٩٦٣)٠

١٤ـ دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية ، تاليف هيو ج٠ اتكن/ترجمة الدكتور محمود زايد (بيروت ــ ١٩٦٣) ٠

١٥ـ قيمة التاريخ، تأليف جوزف هورس/ترجمة الشيخ نسيب وهيب الخازن (بيروت ـ١٩٦٤)٠

١٦ـ تدريس التاريخ ، تاليف هنري جونسون/ترجمة الدكتور أبو الفتوح رضوان (القاهرة ــ ١٩٦٥) ٠

١٧ـ كيف نفهم التاريخ ، تاليف لويس غوتشلك/ترجمة الدكتورة عائدة سليمان عارف والدكتور أحمد مصطفى أبو حاكمة (بيروت ــ ١٩٦٦) ٠

١٨ـ تطور النظرة الواحدية الى التاريخ ، تاليف بليخانوف/ترجمة محمد مستجير مصطفى (القاهرة ــ ١٩٦٩) ٠

١٩ـ من المعرفة التاريخية ، تاليف هـ٠١٠ مارو/ترجمة جمال بدران (القاهرة ــ ١٩٧١) ٠

٢٠ـ التاريخ وكيف يفسرونه ، تاليف البان ج٠ويدجري/ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد (القاهرة ــ ١٩٧٢) ٠

ــ وقد ترجم الكتاب أيضاً الدكتور ذوقان قرقوط بعنوان : المذاهب الكبرى في التاريخ (بيروت ــ ١٩٧٢) ٠

٢١ـ بين الماضي والمستقبل ــ الفصل الثاني : مفهوم التاريخ قديماً وحديثاً ، تاليف حنة ارنت/ترجمة عبدالرحمن بشناق (القاهرة ــ ١٩٧٤) ٠

٤ ــ الحضارة في الميزان لارنولد توينبي : ٩٤ـ٩٥ ، ١١٢ـ١١٣ ، مختصر دراسة للتاريخ لارنولد توينبي ١ : ٥٩ ــ ٦١ ٠

٥ ــ مختصر دراسة للتاريخ ٤ : ١٥٠ ــ ١٥١ ٠

٦ ــ قصة الحضارة ١/١ : ط ــ ي ٠

٧ ــ انظر نشرة اليونسكو الصادرة بالعربية عام ١٩٧٩ بعنوان : اعداد تاريخ عام لافريقيا ، (٤٥ صفحة) ٠

٨ ــ عرض كثير من المؤلفين والمؤرخين العرب لبيان الأسباب الداعية الى وقوف الغرب هذا الموقف المعادي ، المجانب للحقيقة ، وكان آخر ما اطلعت عليه في هذا الباب ما جاء في مجلة الفكر العربي (شهر تموز ــ شهر آب ، ١٩٧٨/بيروت) : ١٢٣ ــ ١٢٧ ٠

٩ ـ أريد بالعرب هنا معناها الواسع ، الذي يضم أصول العرب ، وتاريخ الأرض التي عمروها واستوطنوها ، على النحو الذي انتهت اليه مناقشات الندوة التي عقدت بدمشق (٢٠ ـ ٢٢ كانون الأول ، ١٩٧٧) ، والتي أوصت بمتابعة الخطا لتحقيق فكرة كتابة تاريخ العرب في موسوعة • وقد ضم كراس صدر في عام ١٩٧٩ بعنوان (دراسات تاريخية) كل ما قامت به الندوة من أعمال وتقارير وتوصيات ، ووزع على المؤسسات الجامعية والمراكز العلمية في الوطن العربي، وخارجه ، وعلى المؤرخين والمفكرين المعنيين بالدراسات العربية : التاريخية والقومية •

١٠ ـ مختارات ساطع الحصري ٢ : ٢٦٣ •

١١ ـ العالم والغرب لارنولد توينبي : ٨ ـ ١٠ •

١٢ ـ وقع حادث الاعتداء الأثيم صبيحة يوم الاثنين (١٩ رجب ١٤٠٠ هـ/٢ حزيران ١٩٨٠ م). وتعرض كل من السيد بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس ، والسيد كريم خلف رئيس بلدية رام‌الله الى محاولة اغتيال • فقد وضعت يد الغدر الصهيونية قنبلة في كل من سيارتيهما ، كما قامت بسلسلة من حوادث العنف والقتل في أنحاء مختلفة من فلسطين ، مما أفاضت في وصفه الصحف العربية والأجنبية •

١٣ ـ من آخر ما قرأت حول الارهاب الصهيوني مقالة الدكتور اسماعيل ياغي بعنوان : الارهاب والعنف في الفكر الصهيوني (مجلة كلية العلوم الاجتماعية ـ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية/العدد الرابع ، ١٩٨٠) : ٥٤٣ ـ ٥٨٣ •

١٤ ـ قصة الحضارة ١/٢ : ٣٢١ ـ ٣٩٨ •

١٥ ـ قصة الحضارة ١/١ : ي •

١٦ ـ قصة الحضارة ١/٢ : ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ، الكتاب المقدس : سفر العدد ـ الفصل الحادي والثلاثون ، سفر تثنية الاشتراع ـ الفصل السابع والفصل العشرون ، سفر يشوع ـ الفصول : الثامن والعاشر والحادي عشر والثاني عشر ، سفر القضاة ـ الفصل الخامس : ٣١ •

١٧ ـ قصة الحضارة ١/٢ : ٣١٩ ـ ٣٢٠ •

١٨ ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين للدكتور فيليب حتي ١ : ٨٥ـ١٣٥ ، ١٧٤ـ١٨٩ ، الخطوط الكبرى في تاريخ سورية لأسعد الأشقر ١/١ : ٣٢ ، ٢٣٢ ـ ٢٩٣ •

١٩ ـ القرآن الكريم ـ سورة الاسراء : ٣٥ ، سورة الشعراء : ١٨٢ •

٢٠ ـ يحسن أن أشير هنا الى أن ول ديورانت قد خص الفنيقيين بكلمة قصيرة في كتابه (قصة الحضارة ١/٢ : ٣١٠ ـ ٣١٧) • وما الفنيقيون ، في الحق ، الا الكنعانيون الذين سكنوا جزءاً من ساحل بلاد الشام ، يحتضن مدن بيبلوس (جبيل) وصيدا وصور عرائس مدن البحر المتوسط ، ويمتد الى ما وراءها شمالا وجنوباً • انهم جزء من الشعب الكنعاني العظيم ، أطلق عليهم اليونان كلمة الفنيقيين ، فشهرت هذه التسمية الغلط في كتب المؤرخين، وتناسوا اسمهم الحقيقي الذي تسموا به وهو الكنعانيون ، « ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل » • ورد في انجيل متى (الفصل الخامس عشر : ٢١ ـ ٢٢) : « ثم خرج يسوع من هناك وأتى الى تخوم صور وصيدا ، واذا امرأة كنعانية قد خرجت من تلك التخوم وتقول ٠٠٠٠ » •

٢١ ـ قصة الحضارة ١/١ : ح ٠
٢٢ ـ الكتاب المقدس : سفر التكوين ـ الفصل العاشر ٠
٢٣ ـ الكتاب المقدس : سفر القضاة ـ الفصل التاسع عشر : ١١ ـ ١٣ ٠
٢٤ ـ الكتاب المقدس : نبوءة حزقيال ـ الفصل السادس عشر : ٣ ، ٤٥ ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ١ : ١٦٩ ٠ ولم يذكر ول ديورانت الأموريين بكتابه ، وخص الحثيين بصفحتين منه (قصة الحضارة ١/٢ : ٣٠١ ـ ٣٠٣) ٠

٢٥ ـ يقول نجيب عازوري : « وهكذا اذا وضعنا القضية الدينية جانباً (أي التعصب للفكر الديني اليهودي) ، ليس اليهود لدى المؤرخ بأهم من أي قبيلة بدوية كالعمالقة والمؤابيين » (يقظة الأمة العربية : ٤٨) ٠

٢٦ ـ ملاحظات نحو تعريف الثقافة ، تاليف ت٠س٠ اليوت/ترجمة الدكتور سكري محمد عياد : ١٤٦ ـ ١٤٧ ٠
٢٧ ـ مجمع الأمثال للميداني ١ : ٢٤٤ ٠
٢٨ ـ حول القومية العربية لساطع الحصري : ٣٢١ ـ ٣٣٦ ٠
٢٩ ـ من أبرز المؤلفات العربية في منهجية البحث التاريخي :

١ ـ مصطلح التاريخ للدكتور أسد رستم (بيروت ، ١٩٣٩) ٠
٢ ـ منهج البحث التاريخي للدكتور حسن عثمان (القاهرة ، ١٩٤٣) ٠
٣ ـ نحن والتاريخ للدكتور قسطنطين زريق (بيروت ، ١٩٥٩) ٠
٤ ـ التاريخ ، تعليمه وتعلمه للدكتورة حكمت أبو زيد (القاهرة ، ١٩٦١) ٠
٥ ـ المدخل الى التاريخ للدكتور نور الدين حاطوم ورفاقه (دمشق ، ١٩٦٤) ٠
٦ ـ فلسفة التاريخ ، مجلة (عالم الفكر) ، العدد الأول ـ المجلد الخامس (الكويت ، ١٩٧٤) ٠
٧ ـ دراسة في منهجية البحث التاريخي للدكتور ليلى صباغ (دمشق ، ١٩٧٩) ٠

٣٠ ـ مختصر دراسة للتاريخ لأرنولد توينبي ٤ : ٢٣٥ . وانظر مقدمة الحضارات الأولى لغوستاف لوبون : ٢ ـ ٥ ٠

٣١ ـ المؤرخون وروح الشعر : ٢٧١ ٠
٣٢ ـ نهج الفلسفة . تأليف كارل يسبرز/ترجمة الدكتور عادل العوا (دمشق ـ ١٩٧٥) : ٣٠ ٠
٣٣ ـ تدريس التاريخ : ٢٩ ، ٣٤ ، وانظر كتاب : قيمة التاريخ لجوزف هورس : ١٧ ٠
٣٤ ـ ما هو التاريخ : ٣٩ ، وانظر كتاب : نحن والتاريخ للدكتور قسطنطين زريق : ١٥٩ـ١٦١ ٠
٣٥ ـ من كلمات الرسول العربي الكريم ـ فيض القدير ، شرح الجامع الصغير ٣ : ٢٠٣ ٠
٣٦ ـ الكلمة لجوزف هورس في كتابه : قيمة التاريخ : ٩٨ ، وقد وجدت فيها مصداقاً لحال الأمة العربية أيام حضارتها الزاهرة ٠
٣٧ ـ كتاب الحيوان للجاحظ ١ : ٨٥ ـ ٨٧ ، ومن الوفاء أن نذكر أن الفضل الأول في ارشادنا الى هذا النص ، وتبيان نفحته الانسانية التقدمية يعود الى أستاذنا العالم عبد الهادي هاشم كان قد نبهنا اليه ، وبسط لنا جوانبه ، محللا وموازناً عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ ، حين كان يلقي علينا دروس الأدب العربي في صف البكالوريا الأولى بمدينة حمص ٠
٣٨ ـ كتاب الخصائص لابن جني ١ : ١٩٠ ـ ١٩١ ٠

٣٩ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣٤٦ ·

٤٠ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣٤٦ ـ ٣٤٧ ·

٤١ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣٠٣ ـ ٣٠٤ ·

٤٢ ـ قيمة التاريخ : ١٥ ـ ١٦ ·

٤٣ ـ التاريخ وكيف يفسرونه : ٢١٧ ، في المعرفة التاريخية : ٢١ ، مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٢٩٦ ·

٤٤ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ، وانظر كتاب : التاريخ وكيف يفسرونه : ١٩٧ ـ ١٩٩ ·

٤٥ ـ المدخل الى التاريخ : ١١ ، آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع للاستاذ ساطع الصري : ١٩ ، دراسة في منهجية البحث التاريخي : ٥ ، قيمة التاريخ : ٦ ·

٤٦ ـ قيمة التاريخ : ٦ ـ ٧ ·

٤٧ ـ معجم الأدباء ٢ : ٢٢ ·

٤٨ ـ التاريخ وكيف يفسرونه : ٢١٣ ·

٤٩ ـ انظر : التاريخ ، من أين ، والى أين ، للدكتور قسطنطين زريق (مجلة الفكر العربي ، شهر تموز ـ شهر آب ١٩٧٨/بيروت) : ٤ ـ ٦ ·

٥٠ ـ ألف آلبان · ج · ويدجري كتابه : التاريخ وكيف يفسرونه ، يبسط فيه أهم التفسيرات التي قدمت اجابة عن هذين السؤالين على كر الأيام · وقد ترجم الكتاب الى العربية ترجمتين : الأولى قام بها الأستاذ عبد العزيز جاويد (الهيئة المصرية العامة للكتاب/ القاهرة ـ ١٩٧٢) والثانية قام بها الدكتور ذوقان قرقوط بعنوان : المذاهب الكبرى في التاريخ (دار القلم/بيروت ـ ١٩٧٢) ·

٥١ ـ تذكر كتب التاريخ أنه حين جاءت عمر بن الخطاب أمير المؤمنين البشرى بفتح نهاوند أخذ يسأل الرسول القادم عن أخبار الناس ومن رزق الشهادة منهم ، فاخبره الرسول بأنباء الفتح ، ثم أخذ يعدد له أسماء من استشهد في المعركة « حتى عد له ناساً كثيراً ، ثم قال : وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفهم ، فقال عمر ، وهو يبكي : لا يضرهم ألا يعرفهم عمر ، ولكن الله يعرفهم » (تاريخ الطبري ٤ : ٢٣٥) ·

٥٢ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣٣٩ ، وانظر في تطور مفهوم التاريخ كلمة الدكتور قسطنطين زريق : التاريخ ، من أين ، والى أين (مجلة الفكر العربي ، شهر تموز ـ شهر آب ١٩٧٨/بيروت) : ٤ ـ ١٧ ، وانظر كتاب : نحن والتاريخ للدكتور قسطنطين زريق ـ الفصل السادس : التفكير التاريخي ·

٥٣ ـ قيمة التاريخ : ١٣ ·

٥٤ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣٠٣ ·

٥٥ ـ قيمة التاريخ : ١١ ـ ١٣ ، المدخل الى التاريخ : ٧ ـ ٢١ ، منهج البحث التاريخي (ط ٣) : ١٣ ـ ١٥ ·

٥٦ ـ قيمة التاريخ : ٨٨ ـ ٨٩ ٠

٥٧ ـ نحن والتاريخ : ٢٠٨ ـ ٢٤٢ ، وانظر كتاب : مختارات ساطع الحصري ١ : ١١٦ ـ ١٢٢ ٠

٥٨ ـ نحن والتاريخ : ٢٤٢ ٠

٥٩ ـ آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع لساطع الحصري : ٤٤ ، ١٦٧ ـ ١٩٤ ، مختارات ساطع الحصري ١ : ٤٤ ، ٢ : ١٧٨ ، ١٨٢ ـ ٢٠٦ ، ٢٦٢ ـ ٢٦٣ ٠

٦٠ ـ آراء وأحاديث في الوطنية والقومية لساطع الحصري : ٤٩ ـ ٧٠ ، مختارات ساطع الحصري ١ : ١٠٠ ـ ١١٣ ، ٢ : ٢٠٧ ـ ٢١٠ ٠

٦١ ـ مختارات ساطع الحصري ١ : ٥٤ ـ ٥٥ ٠

٦٢ ـ انظر كتاب : آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع : ٣٢ ـ ٣٣ ، ٤٤ ـ ٤٥ ٠

٦٣ ـ مجمع الأمثال للميداني ١ : ٣٥٦ ـ ٣٥٧ ٠

٦٤ ـ مجلة دراسات تاريخية (مشروع كتابة تاريخ العرب ـ ١٩٧٩) : ٨ ـ ١٠ ، ٣٧ ـ ٣٩ ٠

٦٥ ـ وكان رحمه الله يسكن فندقاً في شارع الانتيكخانة بالقاهرة ، هو فندق فيينواز ٠

٦٦ ـ مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية : ٣١٧ ٠

٦٧ ـ مجلة المعرفة ، أعداد أشهر : تموز وآب وايلول وتشرين الأول ١٩٦٥ ٠

٦٨ ـ عرض الدكتور عبد العظيم رمضان في مقالة كتبها بعنوان : (اعادة كتابة تاريخنا القومي ، ورؤية تقدمية لعلم التاريخ) (مجلة قضايا عربية ـ شهر ايلول ١٩٧٩ ، ص : ٢٠٣ـ٢١٥) الى جملة من الدعوات التي قامت في الوطن العربي لكتابة التاريخ القومي ٠ ولكن أكثر الأمثلة التي ساقها قد انصب على المحاولات الاقليمية في كتابة التاريخ القومي ، مما لايندرج في الاتجاه الذي نعرض له وندعو اليه ٠ كان هدف صاحب المقالة عرض نماذج من الدعوات التي نادت في الوطن العربي باعادة كتابة التاريخ اقليمية كانت أو قومية ، ليخلص من وراء ذلك الى القول بضرورة اعادة كتابة تاريخنا القومي من خلال رؤية تقدمية لعلم التاريخ ٠ أما نحن فنتحدث عن الدعوة لكتابة التاريخ العربي من منطلق الايمان بالوحدة العربية ٠ ليس معنى هذا أننا لا نوافق على كتابة تاريخ الأقطار العربية ، ولكن منطلقنا الأول هو أن الوحدة العربية ، ووحدة التاريخ العربي هما من اليقينيات ، فليكتب الانسان ما شاء من تاريخ بلد أو قطر شرط أن يضع هذه الحقيقة الخالدة نصب عينيه ٠ أما أن يكتب تاريخ اقليم من أقاليم الأرض العربية ومنطلقه ان هذا الاقليم يشكل وحدة مستقلة فهو الضلال الذي نحاربه ، ونرجو للمؤرخين والمفكرين أن يتجنبوه ٠ أما فكرة اعادة كتابة التاريخ القومي برؤية تقدمية فهو حق لا مرية فيه ، ولن تتحقق مثل هذه الرؤية التقدمية الا اذا كان المنطلق الأول في كتابة التاريخ القومي هو وحدة التاريخ العربي ٠

٦٩ ـ مجمع الأمثال للميداني ١ : ٣٠٥ ـ ٣٠٦ ٠

٧٠ ـ من كلمات الرسول العربي الكريم ـ سنن ابن ماجه ١ : ٨٤ ، ٢ : ١٠١٥ ـ ١٠١٦ ٠

٧١ ـ مجلة دراسات تاريخية (مشروع كتابة تاريخ العرب ـ ١٩٧٩) : ٧٠ ٠

٧٢ ـ من كلمات الرسول العربي الكريم ـ فيض القدير ، شرح الجامع الصغير ٣ : ١٧٤ ٠

التدمريون في الدنيا الرحيبة

خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين

د. عدنان البني
مدير التنقيب والدراسات الأثرية
في المديرية العامة للآثار والمتاحف

تدمر ، هذه الامارة ثم المملكة العربية التي صعدت الى ذروة الاقتصاد العالمي في القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الميلاديين، واستقطبت ، ابان أزمة روما في النصف الثاني من القرن الثالث ، الأهمية السياسية والعسكرية في الشرق والغرب ، كان أبناؤها ، منذ أقدم العصور ناشطين في المنطقة يتردد ذكرهم ، فيما نعلم ،منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، في الأناضول وآشور وعلى ضفاف الفرات • ونراهم في العهد البابلي يشتركون جدياً في نسف هيكل اليهود ودولتهم • وفي العهد الهيلينستي كان لهم باع طويل في أحداث بلاد الشام السياسية والعسكرية •

ولكن خلال العهد الروماني ، وخاصة بعد زوال دولة الأنباط ، عام ١٠٦ م ، يصرف التدمريون لوحدهم تقريباً شؤون التجارة العالمية بين الشرق الأقصى واوربة ، ويصبح لهم ، علاوة على دورهم الاقتصادي ، حضور عسكري في أرجاء العالم القديم ، من حدود اسكتلندة الى ضفاف الدانوب ، ومن الصحارى الافريقية الى النيل والبحر الأحمر والمحيط الهندي ، حضور معزز بالشواهد الملموسة والنصوص المنقوشة التي عثر عليها الآثاريون في أماكن متباعدة من العالم القديم ، وستزداد ولا شك مع تقدم التحريات والبحوث •

لن نتطرق في هذا البحث الى التدمريين في حاضرتهم المجيدة تدمر ، أو الى آثارهم في بادية الشام أو في المدائن التدمرية كدورا أوربس (صالحية الفرات) ، فذلك منشور معروف في العديد من المراجع العربية والأجنبية(١) • سنقصر البحث على آثار التدمريين خارج دولتهم، بل خارج بلاد الشام التي خضعت كلها ولاية لأذينه ، ثم ، مع مصر والأناضول ، امبراطورية لزينب ، وصية على ابنها وهب اللات •

لقد انساح التدمريون في الدنيا كتجار ومتمهدين وحرفيين وأصحاب وكالات ، أو كجاليات • وكانت أعـداد كبيرة منهم من العسـكريين جنوداً وضباطاً ، أفراداً وجماعات ، يعملون خاصة في القوات التدمرية المساعدة من الهجانة والخيالة والمشاة أبناء الأرض التدمرية ممن أنبتتهم الباديـة العربية ، وعرفوا رمي الحدق وصالوا على ظهور الأصائل ••

لقد كانت تدمر تزود الفرق العسكرية المساعدة المختلطة في الجيش الروماني بالرماة التدمريين الشهيرين ، ثم أصبح هؤلاء قطعات نظاميـة مستقلة من الهجانة والرمـاة الخيالة والمشـاة يعسـكرون على تخـوم الامبراطورية في **داكيا** (رومانيا) ، **بريطانيا** ، **ونوميديا** (الجـزائر) ، منذ مطلع القرن الثاني الميلادي ، وفي **قفط** (بمصر) وفي روما نفسها • وذكر هذه القوات يبدأ من عهد الامبراطورين تراجان وهادريان • ونعرف منها في منتصف القـرن الثاني الميـلادي فـوج الهجانة المعـروف باسـم « **الاي الهجانة التدمريين الأولبي الأول** »(٢) • وهناك عدد من المنحوتات التي تمثل الهجانة التدمريين المسلحين بالأقـواس والرمـاح والدرقـات الصغيرة المستديرة • أمـا الرماة فنعـرف زيهـم من بعض الرسـوم في دورا أوروبس ومن بعض النقوش التدمرية •

على ضفـاف الدانوب :

في احتـلال الرومـان للمنطقـة المعـروفـة باسـم « داكيـا »(٣) الواقعـة شـمال الدانـوب في العـام ١٠٦ (خـلال عهـد الامبراطـور تراجان) لعب السوريون دوراً هاماً في الاستيطان الروماني ، وبفضـل جسر بناه المعمار أبولودور الدمشقي على الدانـوب استطاع تراجـان الوصـول بفرقـه العسكريـة الـى بلاد « داكيـا » ، كما أنشأ أبولودور الدمشقي على رأس الجسـر من الشـمال معسـكر دروبيتـا *(Drobeta)* وقام على بنائه جنود الفوج الأنطاكي الأول • وأنشئت في ولاية داكيـا مراكز عسكرية حفلت بالسوريين عامة وبالتدمريـين خاصة • كمـا أن المعمرين السوريين المدنيين لعبوا فيها دوراً اقتصاديـاً وثقافياً • وقـد وجدت آثارهم من عهد هادريان (١١٧ ــ ١٣٨ م) في مدن داكيـا مثل **نابوكـا** (كلوج الحالية) و **ابولوم** (البايوليا الحالية) **وبوروليسـوم** وغيرها •• وقد أسهم هؤلاء المعمرون مع الجنود السوريين والتدمريين في انتشار أفكار وعبادات سورية وشرقية •

والتواجد السوري والتدمري في داكيـا العليا شمال جبال الكربات أكثر منه في داكيا السفلى نظراً لغناها • وموقعـا تيبيسكوم *(Tibiscum)*



مـن رجـال القوافل التدمريـين

ورمـــولا *(Ramula)* قد أعطيانا ثلاث وثائق محررة بالتدمرية ، منهـا قاعدة تمثال مكتشفة في رمولا جاء عليهـا تقدمـة لاترغاتيس (الربـة السورية) من التدمري راجيسيل(٤) ٠

وكان في **سارميزيجيتوزا** *(Sarmizegetusa)* موظف تدمري كبير اسمه بوبليوس ايليوس تيمي (أي تيم اللات) يحمل المواطنية الرومانية(٥) ، بنى معبداً هناك أهداه لأرباب تدمريين هم ملكبل وبلحمون ومناة ومعهم رب رابع مجهول اسـمه بينيفال ٠ وألحـق تيمي بالمعبـد مطبخاً مكرسـاً

للولائم الدينية • كما نعرف في الموقع نفسه ضابطاً تدمرياً كبيراً كان قائداً للفوج الايتوري(٦) ، ولكن اسمه طمس مع الأسف •

وفي أبولوم (البايوليا الحالية) وجد نص اهداء الى الرب التدمري يرحبول (الشمس) من تدمري اسمه أوريليوس باسينوس وكان قاضياً وكاهناً •

وفي شمال الولاية (أي داكيا العليا) تذكر النصوص المكتشفة في بوروليسوم *(Porolissum)* « نوميروس » (أي كتيبة)(٧) من الرماة التدمريين أصبحت فيما بعد فوجاً باسم **الفوج التدمري الأول** وكان يعسكر في تيبيسكوم (كارانتسيبس) وقد عثر فيها على شاهدة قبر محررة بالتدمرية واللاتينية للازم تدمري اسمه فلافيوس غوراس بن يداي أقامه له وريثه الكاهن ايليوس حبيبي(٨) •

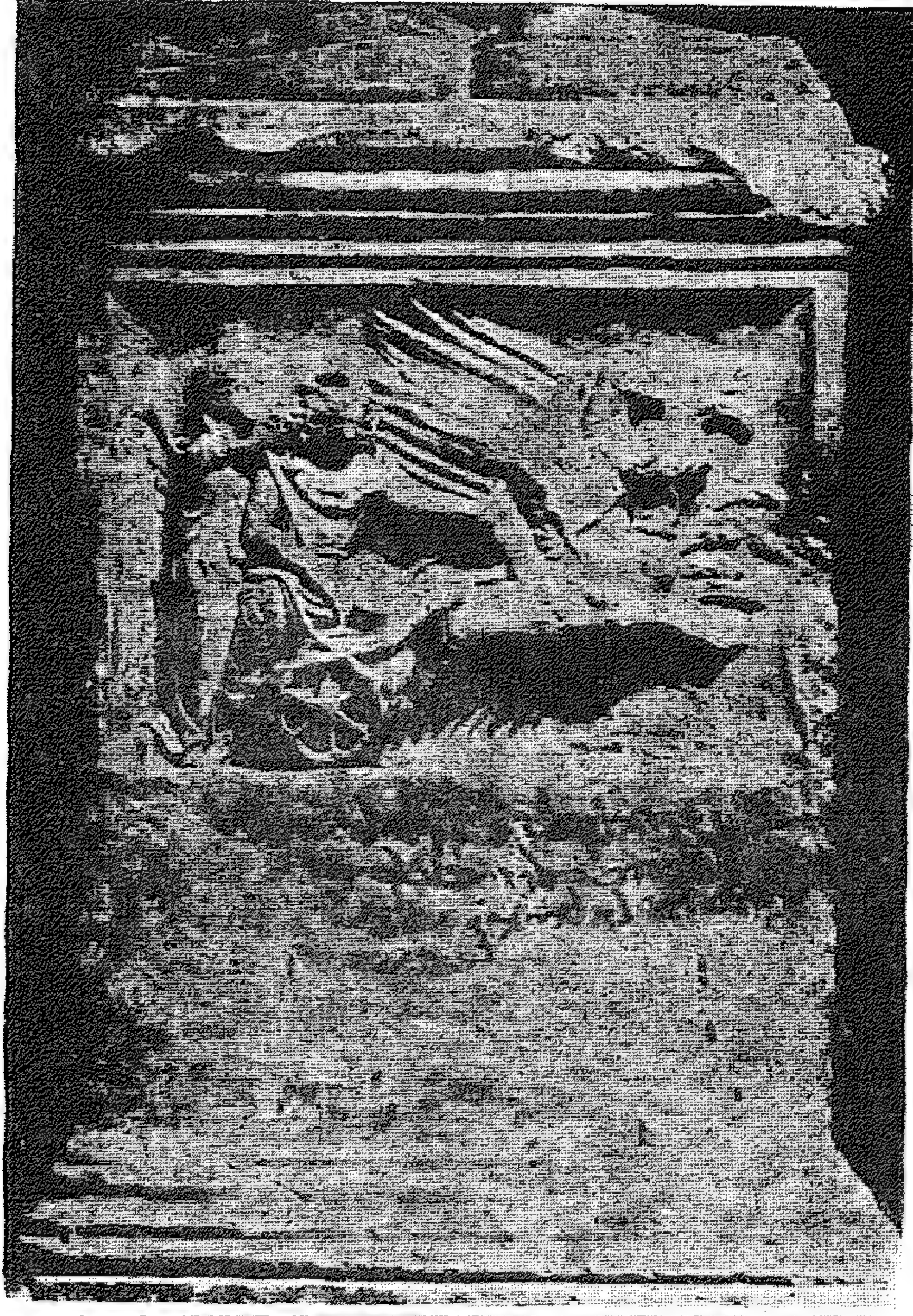
وفي بوروليسوم أيضاً وجدت شهادة تقاعد لعسكري تدمري اسمه همازايوس بن حلفتا ، كان من عداد قوة الرماة التدمريين المعسكرين في هذا الموقع • وهذه القوة يرأسها تدمري أيضاً لقبه تيتوس ايليوس (واسمه مطموس) أقام له الفرسان التدمريون في قطعته تمثالا في الآغورا بتدمر تكريماً له •

هذا وقد وجد في **ميسيا السفلى** (دوبروجيه حالياً) نص يذكر تدمرياً باسم مرقص اسيليوس اسكندر كان في عام ١٣٤ م يترأس الفوج الأول الكلودي(٩) •

وفي كوستنجة (كونستنزا) على البحر الأسود وجدت شاهدة قبر بالتدمرية لسيدة تدمرية أو عربية بشكل عام اسمها غريب « برلال » أو « بدلال » وهي بنت بكر زوجة مسّلم بن عوب •

في روما على ضفاف التيبر :

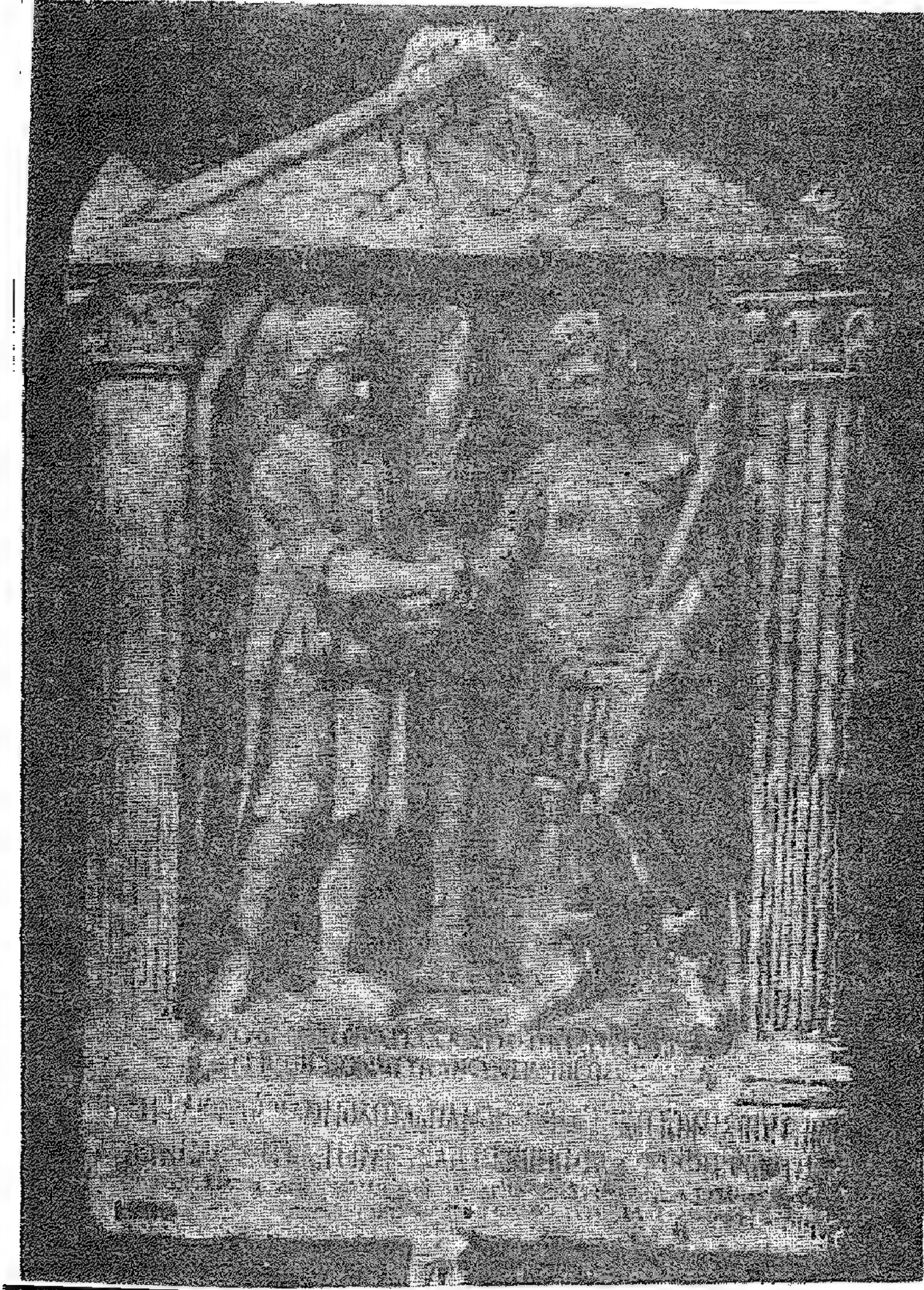
الذكريات السورية في روما كثيرة وقد كان السوريون مشتبكين في الادارة الرومانية من القمة الى القاعدة ، أباطرة وقواداً وفلاسفة وتجاراً وجنوداً(١٠) حتى قال الشاعر الهجاء جوفنال الذي مات عام ١٤٠ م ، قولته الشهيرة : **« ان نهر العاصي صار يصب مياهه منذ وقت طويل في نهر التيبر حاملا معه لغته وتقاليده »** ومن السوريين في روما أبناء مدن ومناطق مختلفة وبينهم أبناء تدمر الذين وفدوا على روما عسكريين ومدنيين وكان لهم هناك معبدان كما سوف نرى •



المذبح الرخامي المقدم للرب ملكبل والأرباب التدمريين
(متحف الكابيتول بروما)

ومن حوالي ١٠٢ م نجد تدمرياً من الفوج الثالث (؟) اسمه ولقبه طيباريوس كلوديوس فيليكس مع أشخاص تدمريين آخرين ينصب في معبد مكرس للرب التدمري ملكبل (أو للثنائي ملكبل وعجلبول الأخوين المقدسين) مذبحاً رخامياً يحمل اهداء باللاتينية والتدمرية(١١) ٠ وقد قدموه للرب ملكبل وأرباب تدمر ٠ وفي النص اللاتيني نجد اسم الشمس يحل محل الرب ملكبل(١٢) ٠

وبعد ذلك بوقت غير طويل يشيد التدمريون المقيمون في روما ، خارج باب « بورتا بورتيزه » ، معبداً تم المثور على أطلاله ووجدت فيها



لوحة المرمر التي تمثل لقاء الربين ملكبل وعجلبول
(متحف الكابيتول بروما)

أجزاء منحوتات وكتابات تدمرية الأسلوب · ومنها لوحة من المرمر نحت عليها نقش بارز يمثل الرب التدمري ملكبل بزيه الشرقي يصافح الرب عجلبول وبينهماالسروةذات الخضرةالدائمة ورمز تجددالحياة وخلودها(١٣) وتحت النقش البارز نص ··· يذكر أنه في شهر شباط من العام ٥٤٧ سلوقي(١٤) قدم يرحاي بن حليفي بن يرحاي بن لشمش شعدو على نفقته « وسميتا ؟ » من الفضة وزينتها على شرف عجلبول وملكبل من أجل سلامته وسلامـة أبنائه ·

ومن متحف الكابيتول بروما منحوتة ناقصة لم يبق منها الا الأقدام مصدرها أيضاً المعبد التدمري خارج باب بورتا بورتيـزه وعليهـا نص

تدمري ونص يوناني يذكر تقدمة للثالوث التدمري الأقدس بل ويرحبول وعجلبول (أرباب الوطن) من قبل التدمريين مقاي بن مالي لشمش وسمدو بن تيما لشمش(١٥) ٠

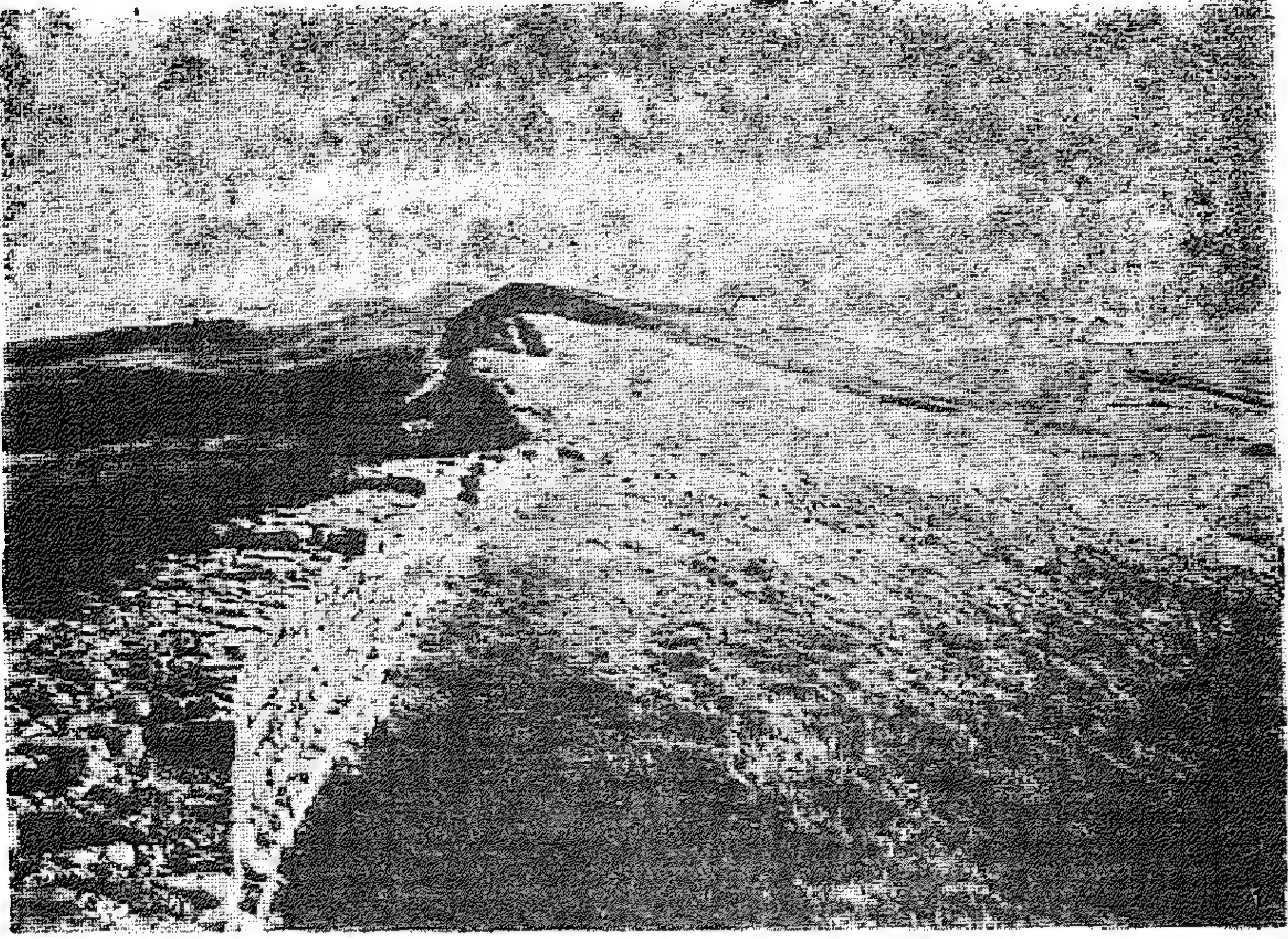
ونعرف أربعة تدمريين كانوا فرساناً في الحرس الامبراطوري أولهم باسم بوبليوس آنيوس كان فارس في الحرس الامبراطوري ٠ وأعضــاء هذه الأسرة مسجلون في قبيلة سيرجيا الرومانية اذ أنهم قــد كسبوا حــق المواطنية الرومانية في عهد هادريان (ايليوس هو لقب هذا الامبراطور ؟) ونعرف أسراً ثلاثاً في تدمر تحمل هذا اللقب الشرفي(١٦) ٠٠

والتدمري الثاني مصور على نقش يمثل فارساً يجر حصاناً وهــو فارس في الحرس الامبراطوري اسمه جميلين عاش ٣٤ سنة وخدم ١٤ سنة في الحياة العسكرية ، والثالث يبدأ اسمه بـ « أوريليوس » خدم أيضاً في الحرس الامبراطوري ٠ والرابع يبدأ اسمه بسبتيموس ، ويذكر النص أن موطنه تدمــر ٠

وثمة شاهدة قبر بلغتين (تدمرية ــ لاتينية) لتدمري اسمه حبيب ابن حبيب ٠ وهناك أجزاء كتابات يونانية ولاتينية كثيرة وجدت في روما لأشخاص تدمريين لا مجال للتفصيل فيها ٠

في بريطانيا ، عند بحر الشمال :

بدأ فتح الرومان لبريطانيا عام ٤٣ م في عهد الامبراطور كلوديوس وتوسع تدريجياً بين مد وجزر حتى عهد الامبراطور هادريان ١١٧ــ١٣٨م٠ وقد حصلت في عهد الأخير بعض الاضطرابات في الامبراطورية الرومانية ومنها بريطانيا ، فرأى وضع حد نهائي للتوسع فيها ، وزارها عام ١٢٢ م واتضح له عدم وجود حد طبيعي كالرين والدانوب والفرات ، بينه وبين « البرابرة » البريتون ، فرأى أن يبني عند عنق بريطانيا الضيق سوراً يمتد من بحر الشمال الى البحر الارلندي ٠ ويكون السور بعرض ١٠ أقدام (وقد قلل فيمــا بعــد) يبدأ شرقــاً من وول ســند *(Wall Send)* قرب نيوكاسل عند مصب نهر التاين وينتهي غرباً عند بونس *(Bowness)* على نهر السولوي ، ويعزز السور بحصن عند مسافة الميل وببرجين بــين كل حصن وحصن ٠ ووضع هادريان حرساً للحدود وبذلك أمّن كما قال مؤرخ حياته « حداً بينه وبين البرابرة » ولما كان الحرس غير كاف عززه بوحدات عسكرية نظامية ، كما جدد معسكرات الحدود القديمة ٠ وكان



منظر لجزء من سور هادريان في شمال بريطانيا

مجموع القوات حول السور في عهد سبتيم سيفير ١٩٣ ـ ٢١١ أو عهد ابنه كاراكالا ٢١١ ـ ٢١٧ (نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث) ١٥ و ١٨ ألف جندي ثلثهم من الخيالة ٠

وفي سوث شيلد *(South Shields)* جنوبي مصب نهر التاين قرب نيو كاسل ـ *(New-Castle-Upon-Tyne)* كان يقع مرفأ آربيا *(Arbeia)* الروماني الذي كان قاعدة أساسية في سور هادريان ويتميز بنشاط اقتصادي وعسكري هام ، وكان ، على ما يبدو ، فيه جاليات أجنبية منها تدمريون ٠

وقد عثر في هذا الموقع على شاهدة قبر سيدة بريطانية اسمها رجينا *(Regina)* وهي معتوقة وزوجة تدمري اسمه برعته(١٧) ٠ ورجينا ماتت صبية في الثلاثين وهي من قبيلة الكاتوفيلوني البريطانية ، أما زوجها التدمري فقد كان على الراجح يصنع الأعلام العسكرية أو يتعهدها ٠ وعثر على شاهدة قبره في كوربردج كما سوف نرى ٠

رجينا تمثل على الشاهدة جالسة على كرسي في محراب تحت قوس وجبهة مثلثة ، محمولين على عضادتين مزينتين بتاجين كورنثيين ٠ الوجه



شاهدة قبر البريطانية ريجينا زوجة التدمري برعته
(متحف ساوث شيلد)

رغم تشويهه ينم عن نضارة ، والنحت جيد ، وهناك هالة تحيط بالرأس وتحف به ضفيرتان تنحدران على جانبي الوجه حتى الكتفين · وترتدي ريجينا ثوباً فوق سراويل وهي تتحلى بطوق وسوار في كل معصم وقرب ساقها اليمنى صندوق حليّها وبيدها اليسرى مغزل ودرارة(١٨) ·

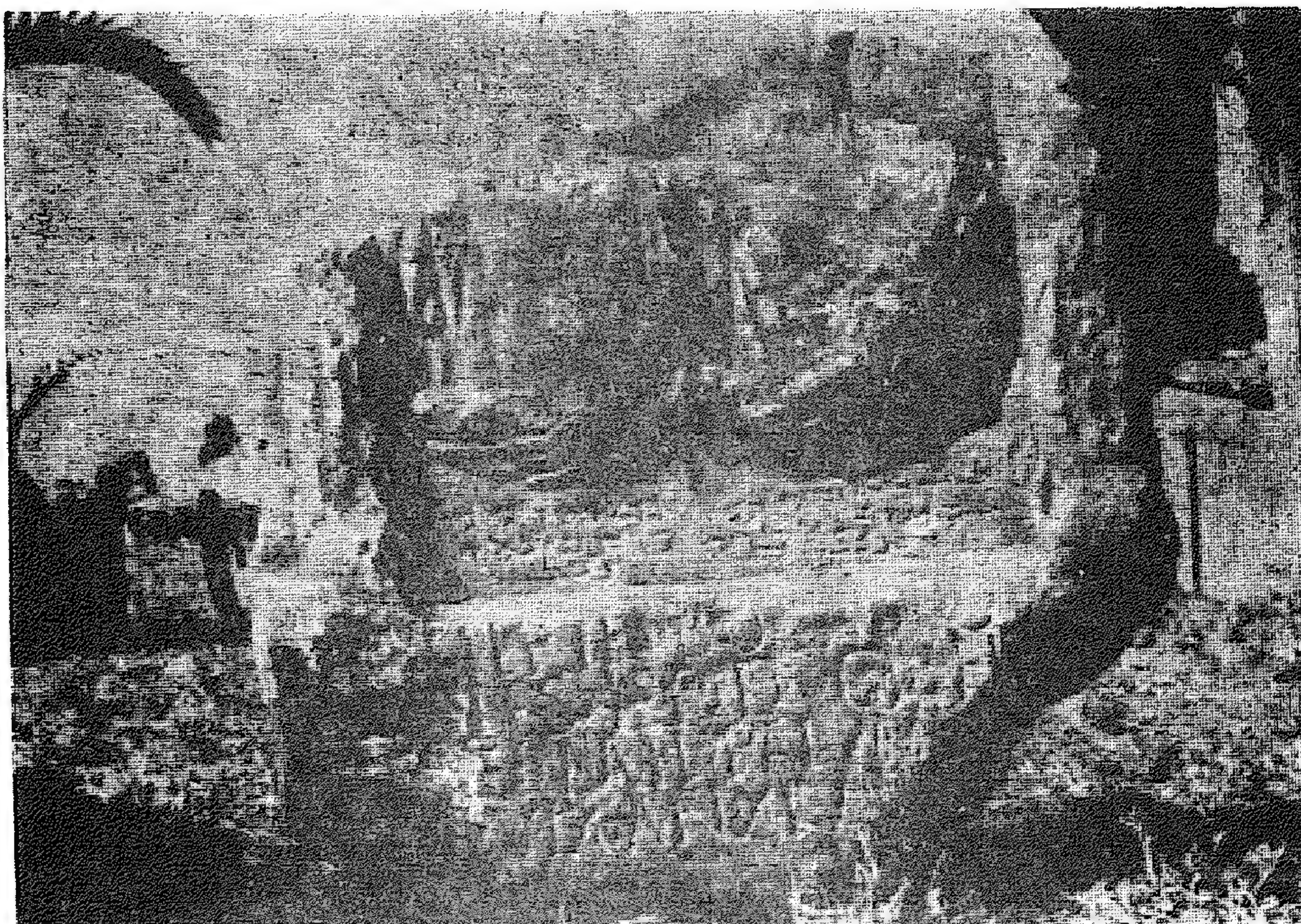
وتحت السيدة الجالسة نقشت كتابة بلغتين (لاتينية وتدمرية) · وفي اللاتينية بعض أخطاء نحوية واملائية أما التدمرية فجيدة كتبت من قبل شخص يحسنها تماماً(١٩) · الأمر الذي يدل على وجود عدد من التدمريين المدنيين فضلا عن المسكريين في المنطقة ·

وفي كوربريدج *(Corbridge)* قريباً من هكسام على نهر التاين ، كانت تقوم بلدة كورستوبيتوم *(Corstipitum)* وهي مركز عسكري وعقدة مواصلات هامة أصبحت مقراً للمتعهدين وأصحاب الحرف المسكريين ، وفي أطلال هذه البلدة وجدت شاهدة قبر التدمري برعتا زوج رجينا وكان على ماذكرنا صانع أعلام عسكرية وقد يكون نفسه نحاتاً فناناً صنع بيده شاهدة قبر زوجته وقد عاش ٦٨ سنة ، وذلك عمر طويل بالنسبة لتلك المهود(٢٠)

هذا وقبل أن ننتقل من بريطانيا نذكر أن موقع ساوث شيلد قد أعطانا منحوتة تدمرية الأسلوب هي شاهدة قبر شخص يذكر النص اللاتيني أنه فيكتور معتوق نوميرنانوس وقد مثل بالوليمة الجنازية على الطريقة التدمرية بأدق التفاصيل وهناك اجماع على أن هذا الشخص ان لم يكن تدمرياً فلا بد أن صانع الشاهدة فنان تدمري · وهذا الأمر يفسر موضوع منحوتة رجينا(٢١) ·

على تخوم الصحراء الجزائرية :

من أجواء الشمال الباردة التي يغلفها الضباب ننتقل الى نوميديا (الجزائر) حيث الدفء والسماء الصافية ونصل موقع القنطرة ، في ولاية قسطنطينة عند خانق بين جبال الزاب والأوراس(٢٢) حيث كان يقوم معسكر حصين يحمي هذا المعبر المؤدي الى نوميديا · وكان في هذا الموقع منذ القرن الثاني ، خاصة في عهد الأباطرة السيفيريين (١٩٣ ـ ٢٣٨) وحدات سورية تضم تدمريين منتشرة على تخوم السهوب والصحراء في أجواء ملائمة لها · وقد نصب التدمريون المقيمون هناك تمثالا للرب ملكبل غالبا · ومن آثارهم هناك شاهدة باللغة اللاتينية لنقيب (سنتريون = قائد مائة) تدمري اسمه اغريبا بن تيمي (تيم اللات) قاد الرماة التدمريين مدة عشرة سنوات ومات في الخامسة والخمسين(٢٣) · وثمة شاهدة قبر أخرى محررة بالتدمرية لنقيب تدمري هجان اسمه شريك بن ربت مات في الخامسة والأربعين · وشاهدة أخرى محرره بالتدمرية أيضاً



من الشواهد التدمرية المكتشفة حديثاً بالجزائر



مــن الرســوم التدمرية في مســاد بالجـزائـر



موقــع القنطــرة في الجــزائــر

لتدمري اسمه رفائيل بن نشامات حوالي ٢١٥ م(٢٤) ، وشواهد أخـرى مكتشفة حديثـاً ٠

وفي لامبيز وجدت شاهدة قبر محررة باللاتينية لتدمري كان جندياً رامياً على الغالب لاقى حتفه هناك في سن الثلاثين(٢٥) :

وفي مسـاد (كاستيللوم ديميدي) حصن كـانت تعسكر فيه قـوة تدمرية وكان لهم معبد مكرس للرب التدمري ملكبل وقد وجدت في أطلاله أقسام من لوحات جدارية (فريسكات تدمرية جميلة) وكتابات بذكـرى الأعياد التدمرية تذكر أسماء بعض هؤلاء الجنود(٢٦) ٠

على ضفـاف النيـل :

وفي قفط بمصر العليا في المكان الاستراتيجي الذي يقترب فيه النيل أكثر ما يكون الى البحر الأحمر ، وحيث تبـدأ الطريق المؤدية الى مرفـأ بـرنيكـي *(Berenice)* كانت تعسكر في عهد الامبراطور البرقاوي ـ

الحمصي كاراكالا (٢١١ ـ ٢١٧) كتيبة من الرماة الفرسان التدمريين(٢٧) وقد تقدم أحد فرسانها المسمى مرقص أوريليوس بلعقب باهداء باللغة اليونانية الى الرب التدمري يرحبول (رب الشمس)(٢٨) ٠

وقد أجريت في عامي ١٩١١ و ١٩١٢ أعمال تنقيب في قفط أدت الى الكشف عن بيت أقيمت على جدرانه تماثيل نصفية مزدوجة جنازية غالباً منحوتة بأسلوب يشبه الأسلوب التدمري ٠ والباحثون يسمون هذا المكان نزل الرماة التدمريين(٢٩) ، الا أن هنري سيريغ يرى أن هذه المنحوتات تمثل رهباناً مصريين(٣٠) ٠ وعلى كل حال ان العلاقة الوثيقة بين الفن المصري في العهد الروماني ومن ثم القبطي مع الفن التدمري أمر معروف ٠

وأخيراً لقد كشفت في دندره شاهدة عليها كتابة بلغتين تدمرية ويونانية ولكنها مشوهة ٠

وفي بحر ايجه (جزيرة كوس) :

ولن تكتمل صورة مالدينا حتى الآن من ذكريات التدمريين خارج تدمر وخارج بلاد الشام كلها دون أن نشير الى مذبح تدمري يحمل كتابة بالتدمرية واليونانية مهدي في حوالي منتصف القرن الأول الميلادي للثالوث التدمري الأقدس (بل ويرحبول وعجلبول) من قبل تدمري اسمه رب ايل بن حيران ٠ وهذا الأثر ذو أهمية خاصة لأنه يبين قدم انتشار التدمريين خارج بلادهم كما أن له أهمية بالنسبة للديانة التدمرية(٣١) ٠

الحـــواشـــي

١ ـ يمكن الرجوع الى ثبت المؤلفات والمراجع التي أوردناها في مؤلفنا « تدمر والتدمريون » .
٢ ـ الأولبي نسبة لأولبيوس وهو لقب الامبراطور تراجان ، واسم الفوج باللاتينية :
Ala Ia Ulpia dromedariorum Palmyronorum.

٣ ـ رومانية الحالية تقريباً .

٤ ـ اسم صيغته تدمرية واضحة ولكنه قد يحمل خطأ في الكتابة .

٥ ـ قبل أن يمنح الامبراطور كاراكالا عام ٢١٢ المواطنية الرمانية لجميع الرعايا الأحرار . كانت المواطنية تمنح لكبار رجالات الدولة والمجتمع من قبل الامبراطور فيضيف المستفيد وذريته من بعده الى أسمائهم لقب الامبراطور وكنيته . وتيمي هنا يحمل لقب الامبراطور هادريان .

٦ ـ الايتوريون عرب كانت لهم دولة شهيرة مركزها في سهل البقاع .

٧ ـ في تشكيلات الجيش الروماني (Numerus) قطعة عسكرية تضم ٥٠٠ من الفرسان بالأصل ، ثم عززت وأصبح عددها يعادل فوجاً (Alae) أو (Cohors) من الفرسان ويضم ٦٠٠ خيّال وأكثر ويسمى بالفرنسية Escadron . ويرأسه ضابط يعادل مقدماً (Prefectus) أو (Tribunus) وتحته في المشاة قواد مائة وأحدهم يسمى (Centurio) وفي الفرسان قواد عشرة وأحدهم يسمى (Decurio) .

٨ ـ الشاهدة موجودة في متحف الجمعية الأثرية الهنغارية أما النص فهو :
بالتدمرية : غورا بن يداي عفطين (أي مساعد قائد مائة وقد يكون ملازماً أو صف ضابط) .
باللاتينية : الى أرواح الموتى ، فلافيوس غوراس بن يداي ملازم سابق في الكتيبة التدمرية عاش ٤٢ سنة ، خدمته العسكرية ٢١ سنة . تقدمة من ايليوس حيبي الكاهن وريثه .

٩ ـ نسبة للامبراطور كلوديوس (مات ٥٤ ميلادية) .

١٠ ـ عن موضوع السوريين في روما ، يراجع مقال أنور حاتم ، الذكريات السورية في روما الحوليات الأثرية السورية ١١/١٢ ، ١٩٦١/١٩٦٢ ص ١٦٥ وما بعدها ، ملخصة عن مقاله الأصلي في القسم الأجنبي من المجلة .

١١ ـ المذبح موجود الآن في متحف الكابيتول في روما . وهناك اختلاف بين النصين التدمري واللاتيني. والأول واضح والثاني يحتمل تأويلا . وثمة خلاف حول تفاصيله . وقد اعتمدنا على المرجع التالي في التفسير :
J. TEIXIDOR, The Pantheon of Palmyra, Leiden 1979, p. 47.

١٢ ـ يلاحظ أن هذا الرب التدمري كان كثير الشعبية لدى التدمريين خارج بلادهم ، لأنه كان بالأصل رب تجدد النبات وأصبح بالتالي رباً للسلامة الشخصية كأوزريس وميترا .

١٣ ـ اللوحة موجودة في متحف الكابيتول وكانت سابقاً في قصر المحافظين بروما ٠

١٤ ـ التاريخ المستعمل هو التاريخ السلوقي ويعادل ٣١٢ قبل الميلاد والطريف أنه هو المستخدم في تدمر ، في حين ان التي يؤرخ لها هي روما ٠

١٥ ـ والشخص الثاني معروف لدينا من تمثال أقامه على شرف أبيه بعد وفاته في معبد بل بتدمر ، وهو (أي سعد) من أسرة يديعبل الشهيرة في تدمر ولعله كان يتعاطى التجارة وغيرها من الشؤون الاقتصادية بروما ٠

١٦ ـ راجـع :

J. T. MILIK, Dédicaces faites par des Dieux, Paris, 1972, p. 229 et pp. 321-322.

١٧ ـ الشاهدة محفوظة في متحف سـوث شيلد ، ومنها نسـخة جصية في متحف كوربردج وقـد رأيناها هناك خلال المؤتمر الحادي عشر للآثار الكلاسيكية عام ١٩٧٨ ٠ وثمة نسخة أخـرى في متحف ساوث شيلد ٠

١٨ ـ تمثيل تدمري في معظم تفاصيله وقد نشر عن هذه الشاهدة البحث التالي :

D. SMITH, A Palmyrene Sculptor at South Shields, Archoeologia AEliana, XXXVII (4th Ser.) 1959, pp. 203-210.

١٩ ـ **اللاتينية** : الى أرواح الموتى رجينا معتوقة وزوجة برعتا التدمري وهي من شعب (الكاتوفيلونيين) وعاشت ثلاثين سنة ٠

التدمرية : رجينا معتوقة برعتا وا أسفاه (الكتابة التدمرية متأخرة) ٠

٢٠ ـ ليس في الشاهدة صورة الميت بل نص لاتيني يقول :

باراتيس (برعتا) التدمري فيكسيلا (مفرزة خيّالة أو صنعة) عاش ٦٨ سنة ٠

٢١ ـ منحوتة رجينا وشاهدة قبر زوجها ومنحوتة فيكتور غير مؤرخة ولكن كلها بحدود القرن الثاني والثالث الميلاديين ٠

٢٢ ـ موقع القنطرة على بعد ١٥٠ كم٠م٠ الى الجنوب من قسطنطينة كان يدعى في العهد الروماني كالسـوس هيركوليس (Calceus Hercules) نسبة لهرقل الذي تقول الأسطورة أنـه شق هذا المعبر بكعبه ٠ أما اسم بلدة القنطرة فهو نسبة الى جسر روماني كان باقياً في الموقع ٠

٢٣ ـ النص : الى أرواح الموتى ، اغريبا بن تيمي ، التدمري ، النقيب في الفوج الثالث التراقي ـ السوري ثم في الفوج الأول الكالسيي (نسبة الى كالسيس وهي عنجر في سهل البقاع وهي عاصمة دولة العرب الايتوريين) وقاد الرماة التدمريين مدة عشر سنوات ، أمضى في الحيـاة العسكرية ثلاثاً وعشرين سنة وعاش خمساً وخمسين سنة وقد أقام له هذه الشاهدة معتوقه ٠

٢٤ ـ يراجـع : Corpus Inscriptionum Semiticasum, II, 3908, 3908 bis.

٢٥ ـ الى أرواح الموتى ، مقيمو بن سمعان التدمري ، عاش ثلاثين سنة ، أقامه له وريثه عام٤٦١ (سلوقي وهو يعادل ١٤٩ ـ ١٥٠ م) ٠

٢٦ ـ هناك مرجع قديم هام عن هذا المركز العسكري هو :

G. N. PICARD, Castellum Dimmidi, Paris,

ولكننا لم نستطع الوقوع عليه فاكتفينا بالمعلومات الموجزة المذكورة ، من كتاب :

J. T. MILIK, Dédicaces faites par des dieux, Paris, 1972, 155-156.

٢٧ ـ استعملنا تعبير كتيبة مقابل « نوميروس » . وهذه الكتيبة التدمرية تحولت الى فوج وسميت « آلاي الفرسان الرماة التدمري الثامن » وقد ذكر في وثيقة « نوتيسيا ديكتيناتوم » حوالي العام ٤٠٠ م بين القوات المعسكرة في مصر العليا ٠

٢٨ ـ النص يذكر أن مرقص أوريليوس بلعقب قادم من هادريانا بالميرا (تدمر الهادريانية) وكانت تدمر تسمى بذلك الاسم لأن الامبراطور هادريان منحها لقب « المدينة الحرة » ٠ وتاريخ الكتابة يعادل ٢١٦ م ٠

٢٩ ـ

A. RAINACH, Catalogue des Antiquités égyptiennes recueillies dans les fouilles de Coptos en 1910 et 1911.

٣٠ ـ

H. SEYRIG, Le prétendu fondouq palmyrénien de Coptos, Syria, XLIX, 1972, p. 121.

٣١ ـ النص اليوناني مختصر : نذر من رب ايل بن حيران لبل الرب ٠ النص التدمري : رب ايل بن حيران ، ليبارك أمام بل ويرحبل وعجلبول وهو الذي قدم هذا المذبح ٠

ويلاحظ أن اسم يرحبول ورد بشكل يرحبل وتلك صيغة قديمة للاسم في رأي البعض أو خطيئة في الكتابة وقد ناقش هذا الموضوع الأب ميليك في المرجع المذكور سابقاً :

. J. T. MILIK, Dedicaces ...., p. 42



النشاط التبشيري الألماني في فلسطين

بين عامي ١٨٤١-١٩١٨

د. علي محافظة
الجامعة الأردنية

ان الغرض من هذا البحث دراسة النشاط التبشيري الذي قامت به المؤسسات الدينية الألمانية الانجيلية والكاثوليكية في فلسطين ، منذ بداية اهتمام مملكة بروسيا بـ « الأرض المقدسة »* وحتى نهاية الحكم العثماني عام ١٩١٨ ، وبيان مدى صلة هذا النشاط التبشيري بالسياسة الخارجية الألمانية ومحاولات الاستيطان الألماني ، ومدى علاقته بالاستعمار اليهودي في البلاد ، وعرض مواقف السلطات العثمانية والسكان العرب من هذا النشاط التبشيري ٠

كان النشاط التبشيري المسيحي في فلسطين قبل حكم محمد علي (١٨٣١ـ١٩٤٠) محصوراً ومتعثراً بسبب العقبات العديدة التي واجهته ٠ وأول هذه العقبات وأهمها معارضة الحكومة العثمانية لهذا النشاط والعراقيل الرسمية التي كانت تضعها في طريقه ٠ غير أن احتلال محمد علي باشا لفلسطين وبقية بلاد الشام في عام ١٨٣١ خلق المناخ المناسب لنمو الارساليات التبشيرية المسيحية ٠ فمنذ بداية الحملة المصرية وجه القائد العام لها بياناً الى السلطات المدنية والدينية في فلسطين يطلب منها رفع القيود عن المسيحيين واليهود المقيمين في البلاد والزوار الأجانب(١) ٠

★ بدأ اهتمام الألمان بفلسطين بداية مبكرة ٠ فقد زارها العالم الألماني زيتسن **U. J. Seetzen** في مطلع القرن التاسع عشر وألف كتاباً بعنوان « جولات في سورية وفلسطين وفينيقيا وبلاد شرق الأردن وبتراء العربية ومصر السفلى **«Reisen durch Syrien, Palaestina, Phoenicia, die Transjordan Laender, Arabia Petraea und Unteraegypten»** نشر في أربع مجلدات عام ١٨٠٦ ٠ كما زارها الرحالة **C. Niebuhr** الذي ألف كتاباً عن رحلته هذه نشر عام ١٨٣٧ في هامبورغ بعنوان «جولات في سورية وفلسطين وقبرص **Reisen durch Syrien Ünd Palaestina nach Cypern** وبعده بقليل زارها الرحالة فيزينو **J. N. Visino** عام ١٨٣٧ وألف كتاباً عن رحلته هذه بعنوان « رحلتي الى فلسطين » **« Meine Wanderung nach Palaestina »**

وألغيت الرسوم المفروضة على الحجاج المسيحيين للقبر المقدس في القدس • وسمح لليهود ببناء كنيس لهم في القدس • ومنحت جمعية يهود لندن London Jews Society (٢) حرية العمل للتبشير في فلسطين • ومنذئذ شهدت فلسطين نشاطاً تبشيرياً مكثفا وتنافسا جاداً بين الارساليات التبشيرية من مختلف الكنائس المسيحية • وبعد زوال حكم محمد علي عن البلاد ، اضطرت الدولة العثمانية الى أن تغمض عينيها ، على استمرار النشاط التبشيري في فلسطين ، بسبب مساندة الدول الأوروبية الكبرى في قهر محمد علي واعادة بلاد الشام الى سلطتها • كما انتهزت الدول الأوروبية والمؤسسات الدينية التبشيرية هذا الوضع الجديد لتزيد في نفوذها ونشاطاتها المختلفة في الأقطار الشامية بوجه عام وفي فلسطين بوجه خاص •

أما النشاط التبشيري الألماني في فلسطين فيعود الى همة ملك بروسيا فريدريش فيلهلم الرابع Friedrich Wilhelm IV الذي عرف عنه اهتمامه بالشؤون الدينية منذ صباه • ولما أصبح ولياً للعهد ، بلغ به الحماس الديني أن يفكر في انشاء وطن مسيحي في الأراضي المقدسة تتولى الدول الأوروبية الكبرى حمايته • ولما تسلم العرش البروسي عرض مشروعه الرومانسي هذا على امبراطور النمسا وقيصر روسيا فلم يبديا اهتماماً به • فما كان منه الا أن تخلى عن المشروع واتجه الى السعي لمنح الكنيسة اللوثرية حقوقاً مماثلة لتلك التي تتمتع بها الكنائس المسيحية الأخرى في القدس • ورأى أن ذلك لا يمكن أن يتم الا بالتعاون بين الكنيسة الانجيلية البروسية والكنيسة الانجليكانية في انكلترا ، وان الخطوة الأولى في هذا السبيل ستكون قيام مطرانية (أسقفية) بروتستانتية في القدس • وآمل ملك بروسيا أن تؤدي مساعيه ومساعي الحكومة البريطانية لدى الباب

نشر في باساو Passau عام ١٨٤٠ • وقد ساهمت مؤلفات هؤلاء الرحالة والعلماء في اثارة اهتمام العديد من الألمان بفلسطين ، وبخاصة كبار المسؤولين في مملكة بروسيا • ومنذ ٢٣ تشرين الثاني ١٨٣٥ وصلت بعثة عسكرية بروسية الى اسطنبول من أجل اعادة تنظيم الجيش العثماني • وانتهت مهمتها في حزيران ١٨٣٩ • وقام أحد أعضاء هذه البعثة وهو هيلموث فون مولتكه Helmuth Von Moltke بنشر مذكراته في صحيفة «Augusbu..r Zeitung» عام ١٨٤١ وقد اقترح في هذه المذكرات مشروعاً يقضي بتحويل فلسطين الى دولة واقية تحت الادارة الألمانية تفصل بين تركيا ومصر •

انظر مذكرات مولتكه التي نشرت في برلين عام ١٨٩٣ بعنوان :
Briefe Ueber Zustaende Und Begebenheiten in der Tuerkei aus dem Jahren 1835 bis 1839.

العالي الى اعتراف الحكومة العثمانية بالطائفة البروتستانتية كملة مسيحية مستقلة . وتطلع أيضاً الى أن تقدم المطرانية دعماً حقيقياً للتبشير البروتستانتي في أوساط اليهود في فلسطين والذي كان قد بدأ منذ عام ١٨٢٦ . كما توقع من هذه المطرانية المشتركة أن تمارس نفوذاً قوياً على الكنائس البروتستانتية في أوروبا من أجل اتحادها جميعاً ، وبذلك تصبح مطرانية القدس المحور الذي تدور حوله كافة الكنائس البروتستانتية(٣) .

وفي صيف عام ١٨٤١ ، وقبل أن تنتهي مفاوضات الدول الأوروبية الكبرى في لندن الى وضع التسوية النهائية في الشرق العربي ، أرسل ملك بروسيا مستشاره البارون الدكتور كريستيان شارلز بونزن Christian Charles Bunsen (٤) الى انكلترا لاجراء اتصالات مع المسؤولين في الحكومة البريطانية والكنيسة الانجليكانية حول فكرة انشاء أسقفية بروتستانتية مشتركة في القدس . وجاء في التعليمات التي وجهها ملك بروسيا الى مستشاره الخاص بونزن والمؤرخة في ٢ حزيران ١٨٤١ المبررات لانشاء مطرانية القدس :

« **أولا** : لقد اعتادت حكومة هذه البلاد (فلسطين) وشعبها ، منذ عهد بعيد ، على أن يريا جميع المؤمنين بأية ديانة ملتئمين في تنظيم واحد ، ومجتمعين في هيئة واحدة ، وخاضعين للقوانين نفسها . وبهذه الصيغة قدمت نفسها طوائف اليهود واللاتين واليونان والأرمن . واذا آراد المسيحيون الانجيليون اليوم المطالبة بالاعتراف بكنائسهم المختلفة بصورة منفردة (أي الكنيسة الانجليكانية L'Eglise anglicane Episcopale والكنيسة الكهنوتية العلمانية الاسكتلندية L'Eglise Presbytérienne D'Ecosse والكنيسة الانجيلية الموحدة L'Eglise Evangélique Unie والكنيسة اللوثرية L'Eglise Luthérienne ، والكنيسة الاصلاحية L'Eglise Réformée والكنيسة المعمدانية L'Eglise Baptiste ، والكنيسة الميثودية L'Eglise Méthodiste وكنيسة المستقلين L'Eglise des Indépendants ... الخ) فقد تستجيب الحكومة التركية بصعوبة كبيرة لطلبها » . ثم يذكر الملك البروسي في رسالته ان العدد الضئيل من أتباع هذه الكنائس الانجيلية قد لا يشجع الباب العالي على الاعتراف بها . ويأتي بعد ذلك على استعراض الوضع السياسي في الدولة العثمانية مبيناً أن الظروف السياسية آنذاك مواتية لمنح الكنيسة الانجيلية امتيازات مماثلة للكنائس الأخرى في فلسطين(٥) .

حمل البارون بونزن معه رسالة من الملك البروسي فريدريش فيلهلم الرابع الى ملكة بريطانية مؤرخة في ٨ حزيران ١٨٤١(٦) . تتضمن الحجج والمبررات التي ساقها للقبول بمشروعه والواردة في تعليماته لمستشاره السابقة الذكر . ويؤكد في رسالته هذه أن وحدة البروتستانت هي الضمانة لنجاح كنيستهم في القدس . ويعرض بعد ذلك استعداده ، في حالة انشاء أسقفية بروتستانتية في القدس ، لتزويدها بالرهبان والمبشرين من الكنيسة الانجيلية البروسية الموحدة(٧) Die Evangelish - Unirte Kirche

وصل بونزن الى لندن في ١٩ حزيران وشرع في التفاوض مع الحكومة البريطانية ورئيس أساقفة كانتربري الدكتور وليام هاولي Dr. William Howley وأسقف لندن الدكتور شارلز جاك بلومفيلد Charles Jacques Blommfeld بصفته المسؤول الأول عن الرهبان الانجليكان في خارج المملكة المتحدة والأسقف الأول في المملكة بعد رئيس أساقفة كانتربري . ودامت هذه المفاوضات ثلاثة أسابيع انتهت بموافقة الحكومة البريطانية ورئيس أساقفة كانتربري على المقترحات البروسية من حيث المبدأ(٨) . وأبرمت اتفاقية بين الطرفين نصت على تعيين أسقف انجليكاني بصورة دورية من قبل ملكة بريطانية وملك بروسيا ، وعلى أن يخضع تعيين الأسقف الذي يختاره ملك بروسيا لموافقة رئيس أساقفة كانتربري ، وأن يكون تعيين أول أسقف من قبل ملكة بريطانية . واشترطت الاتفاقية تبعية الأساقفة المعينين لهذا المنصب لرئيس أساقفة كانتربري ، وكذلك الحال بالنسبة الى القسس والرهبان التابعين له(٩) . أما رجال الدين الألمان الذين سيتبعون الأسقفية الجديدة فلا بد من اعادة تكريسهم وفقاً لتقاليد وتعاليم كنيسة انكلترا الانجليكانية(١٠) .

وتعبيراً عن اهتمام ملك بروسيا بالاتفاقية المذكورة تبرع بمبلغ مئة ألف تال Thal (ما يساوي خمسة عشرة ألف استرليني آنذاك) من ماله الخاص لوقفه على الأسقفية الجديدة . ووعد بتقديم الأرباح السنوية لهذا المبلغ في بداية كل عام لتغطي نصف رواتب القسس السنوية . أما بالنسبة الى الجانب البريطاني فقد طرح اكتتاباً عاماً بمبلغ عشرين ألف جنيه استرليني ، دفعت جمعية يهود لندن ثلاثة آلاف جنيه منه(١١) .

انشاء مطرانية القدس البروسية ـ الانكليزية المشتركة :

بعث وزير خارجية بريطانية لورد بالمرستون Lord Palmerstone برسالة الى السفير البريطاني في اسطنبول في ٢٧ ايلول ١٨٤١ ، أبلغه

بنتائج المباحثات التي دارت بين البارون بونزن وبين رئيس أساقفة كانتربري ورئيس الوزراء البريطاني حول أسقفية القدس • وبيّن له أنه لا ضرورة للحصول على أذن خاص من الباب العالي لهذه الغاية ، باعتبار أن الأسقف الذي سيعين في القدس ، سيتمتع بحق الاقامة في أي جزء من الممتلكات العثمانية ، كأي مواطن بريطاني ، وباعتبار أن النشاط التبشيري الذي سيمارسه لن يتناول رعايا السلطان من المسلمين(١٢) •

وفي أثناء ذلك سعت الهيئة الكنسية البريطانية الى اختيار الرجل المناسب لتولي منصب مطران القدس• وعرض الأمر على الكسندر ماك كول Alexander MC Caul ، خريج معهد برلين التبشيري ، وأحد المبشرين الأوائل في جمعية يهود لندن • غير أنه رفض العرض ، واقترح أن يعتلي كرسي المطرانية « أحد المتحدرين من نسل ابراهيم » • ولقي هذا الاقتراح صدى طيباً في نفوس كافة المسؤولين الانكليز • فوقع الاختيار على المبشر مايكل سولومون الكسندر Michael Solomon Alexander من أعضاء جمعية يهود لندن(١٣) • وتم تكريسه على يد رئيس أساقفة كانتربري وأسقف لندن وأسقفين آخرين وبحضور البارون بونزن والسير سترافورد كاننغ Sir Straford Canning السفير البريطاني الجديد المعين لدى الباب العالي، وعدد من كبار المسؤولين الانكليز ، في ٧ تشرين الثاني عام ١٩٤١ في كنيسة لامبث بالاس Lambeth Palace (١٤) • وحمل المطران المعين رسالة من رئيس أساقفة كانتربري موجهة الى بطاركة الشرق وأساقفته(١٥) •

نقل الأسقف الكسندر وأفراد أسرته ومرافقوه على البارجة البريطانية Devastation الى بيروت حيث توقفت لتأخذ القنصل البريطاني العام الكولونيل هاف روز Colonel Hugh Rose لمرافقة الأسقف الى القدس(١٦) • أرست البارجة في يافا ، ودخل الأسقف والقنصل العام البريطاني الى القدس على رأس كوكبة من الفرسان في احتفال مهيب يوم ٢١ كانون الثاني عام ١٨٤٢(١٧) •

كان هم الأسقف الكسندر منصباً ، في بداية الأمر ، على بناء كنيسة انجيلية في المدينة المقدسة • غير أن السلطات المحلية قاومت بشدة كل مسعى في هذا الصدد • وبذل القنصل العام البريطاني في بيروت جهوداً كبيرة من أجل حمل السلطات العثمانية على الاعتراف بالكنيسة الانجليكانية والسماح لها ببناء كنيسة في القدس • وسعى السفير البريطاني السير كاننغ لدى الباب العالي دون جدوى • وبعد جهود طويلة وضغوط

عديدة استجاب الباب العالي للمطلب البريطاني وأصدر فرماناً في أواخر شعبان سنة ١٢٦١ هـ/الموافق أوائل ايلول ١٨٤٥ ميلادية ، موجهاً الى حاكم القدس ، ينص على السماح للأسقف الانجليكاني ببناء الكنيسة المطلوبة • غير أن الحاكم العثماني ، الذي أطلع المجلس الاداري للمدينة المقدسة على صيغة الفرمان ، لجأ الى المماطلة في تنفيذ ما جاء فيه(١٨) •

وأخيراً وافق حاكم القدس على انشاء كنيسة صغيرة ملحقة بالقنصلية البريطانية في المدينة ، داخل مبنى القنصلية أو داخل منزل القنصل • ودار جدل طويل بين حاكم القدس والقنصل البريطاني حول الموضوع ، باعتبار أن مكتب القنصلية البريطانية لم يكن مؤلفاً الا من غرفة واحدة وأنه من المتعذر بناء كنيسة فيها • وأعيدت القضية الى اسطنبول ولندن • وتوفي في هذه الأثناء الأسقف الكسندر في ٢٦ تشرين الثاني ١٨٤٥ • وتدخل السفير البريطاني في اسطنبول من جديد فربح المعركة ، وصدر فرمان من الباب العالي بالسماح ببناء كنيسة انجليكانية في القدس ، بعد أن توسطت الحكومتان الفرنسية والروسية في الأمر(١٩) •

أما بالنسبة الى نشاط الأسقف الكسندر خلال هذه السنوات فقد تركز في الأوساط اليهودية في فلسطين • وبلغ عدد اليهود الذين تنصروا عند وفاته ٣١ فرداً • وقد أنشأ لهم منزل المهتدين The House of Converts الذي أصبح بعد فترة كلية تسمى بالكلية العبرية The Hebrew College تم افتتاحها في أيار ١٨٤٢ ، وكانت بمثابة مركز لتدريب أعضاء الارسالية التبشيرية الانجليكانية ، يعلم فيها اللاهوت واللغات الانكليزية والألمانية والعبرية والحساب والموسيقى والترجمة • وأنشأ الأسقف الكسندر المدرسة الصناعية The School of Industry التي افتتحت عام ١٨٤٣ ، فكانت مأوى المتنصرين الجدد يتناولون فيه الغذاء الكامل ، ويقيمون فيه، ويتدربون على الحرف اليدوية مثل النجارة وحفر الخشب والخياطة • ولاعداد المرشحين للكلية العبرية والمدرسة الصناعية أسس الأسقف الكسندر « منزل المبتدئين The Enquirers House عام ١٨٤٣ » ليتلقوا فيه التعليم الديني والتدريب الأولي في الحرف • وكان المرشحون يقيمون في هذا المنزل يتناولون الغذاء فيه • وأنشأ الأسقف المذكور بالاضافة الى ذلك ، مركزاً للخدمة الطبية يحتوي على عيادة صغيرة وصيدلية • كما أوجد مخزناً للكتاب المقدس بقصد توزيعه باللغات العبرية والعربية واليونانية والانكليزية والألمانية(٢٠) •

ولا بد من الاشارة هنا الى أنه لم يوجد رهبنات بروسية أو ألمانيـة في فلسطين عند انشاء المطرانية الانجيلية في القدس · وانما وجد بعض الرهبان الألمان في خدمة جمعية يهـود لندن وجمعيـة التبشير الكنائسـية Church Missionary Church . ولذلـك حث ملـك بروسـيا فريدريش فيلهلم الرابع وزير دولته ، برسالة مؤرخة في ٢٨ حزيران ١٨٤٢ ، على السعي لايفاد الرهبان الألمان الى فلسطين وجاء فيها :

« على الرغم من غياب رهبنات بروتستانتية ألمانية في فلسطين ، والتي ينبغي أن نتطلع الى ايجادها في ظروف أكثر ملاءمة ، فان الرهبان الشبان من الكنيسة البروتستانتية الألمانية ، الذين يدفعهم حماسهم المتزايد للعمل في الارساليات التبشيرية الرامية الى تنصير اليهود ، والذهاب الى فلسطين ، سوف يجدون أن من المرغوب فيه الاستفادة من هذه العروض ··· التي يقدمها رئيس أساقفة كانتربري والتي تستهدف الحصول على حرية كبيرة في العمل التبشيري وعلى نتيجة أفضل ، بقبول حماية ورعاية الأسقف ···

انني على أتم الاستعداد لمساندة الرهبان الشبان من هذا الطراز ، بالأسلوب المناسب ، بعد فحصهم والتأكد من كفاءتهم ، وبخاصة اذا أثبتوا تمكنهم من المذهب البروتستانتي المبني على ملة أوغسبورغ وانني أدعوك الى أن تذكر لي أسماء مثل هؤلاء الأشخاص »(٢١) ·

وعبر الملك البروسي عن اهتمامه البالغ بفلسطين وبانشاء الأسقفية الانجيلية في القدس ، بارسال أول قنصـل بروسي الـى المدينة المقدسـة عام ١٨٤٣ · وقام ولي عهده بالحج الى الديار المقدسة في ذلك العام ·

أما الأسقف الكسندر فقد أقام علاقات طيبة مع الألمان في فلسطين من مدنيين ورجال دين · وكان لالمامه باللغة الألمانية ، ووجود العنصر الألماني بين أعضاء بعثته التبشيريـة دور كبـير في ضمـان الوئام والانسـجام في صفـوف بعثتـه(٢٢) ·

المطران صموئيل غوبات Samuel Gobat (٢٣) :

بوفاة المطران الكسندر أصبح اختيار خلف له من حق ملك بروسيا · وفي آذار ١٨٤٦ وقع اختيار فريدريش فيلهلم الرابع على صموئيل غوبات الذي كان يشغل آنذاك منصب نائب مدير الكلية البروتستانتية في مالطه · وسيم غوبات مطراناً للقدس في انكلترا في احتفال ديني مهيب · ونقل ،

كسلفه ، ببارجة بريطانية من الأسطول الملكي ، الى فلسطين ، فوصل الى القدس في ٣٠ كانون الأول عام ١٨٤٦(٢٤) ٠

اختلف غوبات عن سلفه بأن وجه اهتمامه التبشيري نحو العرب ، بعد أن كان الهدف من انشاء الكنيسة الانجليكانيـة في القدس والبعثـة التبشيرية التابعة لها تنصير اليهود في فلسطين ٠ وبدأ خطته بانشاء مدارس الكتاب المقدس لأطفال اليهود والنصارى والمسلمين لكنه ما لبث أن أعاد النظر فيها ، وركز جهوده على انشاء المدارس لأبناء النصارى العرب في فلسطين وشرقي الأردن ٠ واعترضته عقبات عديدة في تنفيذ خطته ٠ اذ وجد نفسه وجهاً لوجه في صراع مع كنيسة الروم الأرثوذكس والكنيسة الكاثوليكية والطائفة اليهودية والسـلطات المدنية والدينية الاسلاميـة وجمعية يهود لندن التبشيرية والقنصل البريطاني في القدس(٢٥) ٠

منذ وصول غوبات الى القدس أبـدى بطريرك الـروم الأرثوذكس والأكليروس التابع له برودا نحو المطـران الانجليكاني ، حتى أنهـم لم يبادلوه المجامـلات الاعتياديـة(٢٦) ٠ ومن المعـروف أن كنيسـة الروم الأرثوذكس التي ترجع جذورها الى عهد المسيح كانت تضم أكبر الطوائف المسيحية في فلسطين ٠ وكان أكليروس هذه الكنيسة ، بما في ذلك البطريرك المقيم في القدس وثمانية مطارنة ورؤساء المراكز الدينية التابعـة لها ، من اليونان ٠ أما رعايا الكنيسة فمن العرب سكان البلاد الأصليين ٠ واتخذ الأكليروس اليوناني كافة الاحتياطات للحيلولة دون وصول أي عربي الى مركز ديني مرموق ٠ ونشأ مع الزمن نفور شديد بين الأكليروس اليوناني والرعايا العرب ، بسبب الاهمال الذي تعرض له الرعايا العرب ، وانشغال الأكليروس بقضاياهم الخاصة ، ولذلك كانت الطائفة الأرثوذكسية مرتعاً خصباً للنشاط التبشيري(٢٧) ٠

وفي بداية عام ١٨٤٨ جرى اتصال بين بعض الروم الأرثوذكس في نابلس وبين المطران غوبات ٠ وأبدى هـؤلاء رغبتهم في الانضمام الـى الكنيسة الانجليكانية ٠ غير أن غوبات نصحهم بالبقاء في حوزة كنيستهم خوفاً مما قد يلحق بهم من أذى ٠ ووعدهم بانشـاء مدرسة لأطفالهـم فى مدينتهم ٠ وما حدث في نابلس تكرر في غيرها من مدن فلسطين ٠ ومنـذ عام ١٨٤٩ أخذت ترد الى مطرانية القدس العرائض التي تتضمن الرغبة في دخول الكنيسة الانجيلية وارسال معلم لانشاء مدرسة للكتاب المقدس(٢٨) ٠

وجاء رد الفعل من البطريركية الأرثوذكسية عنيفاً وسريعاً . فقد اعتبرت فتح المدارس البروتستانتية لأبناء طائفتها عدواناً عليها وخرقاً للحقوق الدينية للطائفة المعترف بها من قبل الدولة العثمانية . ولذا لوحق الآباء الذين يرسلون أطفالهم الى المدارس الانجيلية ، وهددوا بالفصل من الكنيسة . وفرض على الذين يترددون على اللقاءات التي يقرأ فيها الانجيل عقوبات مالية(٢٩) .

وكانت أول مظاهر العنف في مقاومة الكنيسة الأرثوذكسية للتبشير الانجيلي أحداث السلط في نيسان ١٨٥١ . اذ اعتدى أفراد الطائفة الأرثوذكس على معلم مدرسة الكتاب المقدس في البلدة وطردوه من بلدتهم وأغلقوا المدرسة . أما الحادث الثاني فقد جرى في نابلس في تشرين الثاني عام ١٨٥٣ عندما هاجم جمهور من الروم الأرثوذكس مقر الارسالية الانجيلية وطردوا من فيها(٣٠) .

أما ردة فعل الكنيسة الكاثوليكية في فلسطين على النشاط التبشيري الانجيلي فكان أشد. اذ قام الكاثوليك بمنع توزيع الكتاب المقدس، وجمعوا الكتب المقدسة ومنشورات الانجيليين وأحرقوها علناً . وكان كل كاثوليكي يشتري من كتب الانجيليين ولا يحرقها يلاحق ويعاقب من الكنيسة . وفي القدس قام الكاثوليك بطرد العديد من معتنقي المذهب الجديد من منازلهم. وفي طبريا أغلقت احدى المدارس التي أنشأها غوبات بالقوة من قبل أتباع الكنيسة الرومانية الموحدة والكنيسة اللاتينية(٣١) . وفي الناصرة هاجم جمع من الروم الكاثوليك مدرسة البعثة التبشيرية الكنائسية (C.M.S.) في شباط ١٨٥٢ وحطموا أثاثها وشرعوا بهدم البناء ، ورموا مبشريها بالحجارة(٣٢) .

أغاظت تصرفات غوبات ونشاطه التبشيري القنصل البريطاني بسبب استعداء كافة الطوائف المسيحية في فلسطين ، فاعترض عليها . غير أن غوبات حاول أن يبرر موقفه في رسالة بعث بها الى البارون بونزن الذي أصبح وزير بروسيا المفوض في لندن ونائب رئيس جمعية يهود لندن . وقد جاء فيها أنه لا يرغب قط في قبول المسيحيين من الطوائف الأخرى في الكنيسة الانجيلية ، وان كان من واجبه أن يشرح لهم عن حقيقة وحياة المسيح ، مع البقاء في حظيرة الكنيسة التي ينتمون اليها . ولكنه لا يستطيع أن يمتنع عن قبول الذين تطردهم كنائسهم ، في الكنيسة

الانجيلية • وطلب من البارون بونزن ومن رئيس أساقفة كانتربري أن يطلقا يده في التبشير وأن يقدما له العون والتأييد(٣٣) •

وعلى الرغم من المقاومة العنيفة التي واجهها غوبات من الطوائف المسيحية في فلسطين ، فقد استطاع أن يبسط حمايته على أفراد الطائفة الانجيلية في القدس ونابلس والناصرة ويافا والرملة • كما استمر في فتح المدارس حتى بلغ عددها في اليوبيل الفضي لتوليه المطرانية خمساً وعشرين مدرسة تضم حوالي ألف تلميذ • ولكن معارضة الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية اتخذت شكلا جديداً • اذ بدأت هاتان الكنيستان بانشاء المدارس حيثما وجدت مدرسة انجيلية(٣٤) • وبلغ عدد البروتستانت العرب في نهاية حرب القرم (١٨٥٦) ٩٢ فرداً موزعين على المدن التالية كما يلي : ٣٩ فرداً في نابلس و ٢١ فرداً في القدس و ١٥ فرداً في الناصرة و ١١ فرداً في يافا و ٦ أفراد في بيت لحم(٣٥) •

أما في الأوساط اليهودية في فلسطين فقد كانت حصيلة أعمال غوبات محدودة جداً • وتعرض لهجوم شديد من الطائفة اليهودية التي اتهمته بكراهية اليهود • وقاومته جمعية يهود لندن التي قصرت نشاطها التبشيري على الطائفة اليهودية ، بسبب منافسته لها(٣٦) •

لم يقتصر العداء لمشروعات غوبات ونشاطاته على الطوائف المسيحية واليهودية بل تجاوزها الى السلطات المدنية والدينية الاسلامية • فقد واصل غوبات جهوده من أجل بناء كنيسة انجليكانية في القدس ، فتم له ذلك وكرسها في ٢١ كانون الثاني عام ١٨٤٩ باسم كنيسة المسيح "Christ Church" بحضور قنصل بروسيا وقنصل بريطانية ، بينما امتنع قنصلا فرنسا وروسيا وبطاركة الروم الأرثوذكس واللاتين والأرمن عن حضور حفل التكريس الديني • وكان الممثل الديني الوحيد الذي حضر هذا الحفل المطران السرياني في القدس(٣٧) •

ولعل أكبر نصر أحرزه غوبات هو اعتراف الحكومة العثمانية بحق اعتناق المسيحيين من رعاياها للبروتستانتية • وكان ذلك النصر حصيلة جهود مشتركة بذلها الوزير المفوض البروسي والسفير البريطاني في اسطنبول عام ١٨٥٠ • وصدر فرمان بهذا الشان مؤرخ في الأول من محرم عام ١٢٦٧ هـ(٣٨) • وبذلك أبيح للمسيحيين من الطوائف المختلفة اعتناق المذهب البروتستانتي ، وتحرروا من الخوف والعقوبات المختلفة التي كانت تفرضها عليهم كنائسهم(٣٩) •

وكان لحرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦) آثار ايجابية على الحركة التبشيرية البروتستانتية في فلسطين . فقد صدر خطي همايون في ١٢ جمادى الثانية عام ١٢٧٢ هـ/الموافق ٢٦ كانون الثاني عام ١٨٥٦ مؤكداً ما جاء في خطي شريف غولخانة . ومنح المساواة في الحقوق المدنية لرعايا السلطان المسيحيين ، وضمن حريتهم في العبادة والتعبير . وبلغت أنباء هذا الفرمان فلسطين قبل الاعلان عنه رسمياً من قبل حاكم القدس العثماني أمام الأعيان والوجهاء وقناصل الدول الأجنبية ، كما كانت العادة آنذاك . غير أن المطران غوبات لم ينتظر اعلان الفرمان رسمياً ، بل ذهب فور علمه به الى نابلس ودق جرس الارسالية التبشيرية هناك في يوم الأحد الموافق ٣٠ آذار ١٨٥٦ . ولما سأله حاكم المدينة العثماني اذا كان لديه تصريح رسمي بهذا العمل الاستفزازي أجاب المطران : انه يعتمد في ذلك على خطي همايون . وبعد يومين من هذا الحادث وردت أنباء ميلاد أمير لامبراطور فرنسا ، فرفع القنصلان الفرنسي والانكليزي في نابلس علمي بلديهما بهذه المناسبة . وغادر غوبات نابلس بصحبة قنصلي بروسيا وبريطانية الفخريين وهما سعيد قعوار وعودة عزام يوم الجمعة . ولما كانت التقاليد المرعية في المدينة تحرم رفع الأعلام الأجنبية ودق أجراس الكنائس فقد ثارت ثائرة المسلمين ، وخرجت مظاهرة في الأسواق التقت صدفة بالمبشر لايد S. Lyde من كلية يسوع في كمبردج ، راكباً على حصان وحاملا بندقية . ولما اعترضه أحد المتسولين على أبواب المدينة أطلق المبشر النار عليه فأرداه قتيلا . فكان هذا الحادث بداية لفتنة عامة في المدينة . اذ هاجم المتظاهرون الكنيسة الانجيلية وأنزلوا الأعلام عن مبنى القنصليتين الفرنسية والبريطانية(٤٠) .

وعلى الرغم من أن القانون العثماني يحظر النشاط التبشيري بين المسلمين فقد سعى غوبات الى نشر البروتستانتية بينهم . فأثار بذلك حفيظة الأكثرية الاسلامية في البلاد وبخاصة السلطات المدنية والدينية فيها(٤١) .

أما الخلاف بين المطران غوبات والقنصل البريطاني في القدس فقد تطور بسبب تدخل قنصل بروسيا في شؤون أسقفية القدس ، وبسبب اعتقاد القنصل البريطاني أن المطران يتعاون مع الرهبان الألمان لصالح بروسيا ويعارض المصالح البريطانية في فلسطين . والواقع ان علاقة صداقة وثيقة نمت بين المطران والقنصل البروسي فأثارت غيظ القنصل البريطاني جيمس فين James Finn . وكانت جنسية غوبات والسلطة

القنصلية التي يتبعها موضوع نقاش وجدل · فقد طلب القنصل البريطاني من المطران المثول أمام محكمته القنصلية فرفض الأخير · فما كان من القنصل الا أن أصدر أمراً بمنعه من مغادرة القدس ، بانتظار صدور قرار المحكمة القنصلية العليا في اسطنبول(٤٢) · غير أن وزارة الخارجية البريطانيةتدخلت في الأمر ، وأبلغت قنصلها في القدس بأن المطران غوبات يتمتع بالحماية المشتركة للحكومتين البروسية والبريطانية ، وأنه لامبرر لتدخل القنصل في شؤون الأسقفية(٤٣) ·

أما أهم أعمال غوبات في فلسطين فأنشاء المدارس· فقد افتتح في السنة الأولى من أسقفيته أولى مدارس الدياكونيس Diakonissen Schule في القدس ، في ١٠ تشرين الثاني ١٨٤٧ · وعهد بادارتها الى سيدة انكليزية أرسلت من « جمعية ترويج التعليم النسائي في الشرق
"Society of Promoting Female Education in the East"
(التي كانت قد تأسست عام ١٨٣٧ وبدأت العمل في الهند والصين والمشرق العربي ، بهدف الربط بين العمل النسائي في البيت والخدمة الطبية والتعليم في المدارس ودور الأيتام وتدريب المعلمين)(٤٤) · وافتتح مدرسة مماثلة في نابلس في ١٠ ايلول ١٨٤٨ بواحد وعشرين تلميذاً(٤٥) ·

وفي عام ١٨٥٦ كان غوبات قد أنشأ مدرستين في القدس الأولى للصبيان وتضم ٤١ صبياً ، والثانية وتضم ٤٤ بنتاً ، ومدرسة في بيت لحم تضم ما بين عشرين وأربعين صبياً وبنتاً ، ومدرسة في نابلس تضم ستين صبياً وأربع بنات ؛ ومدرستين في يافا احداهما للصبيان وتضم ٢٨ صبياً والأخرى للبنات وتضم ٥٣ بنتاً · ويبلغ مجموع التلاميذ في هذه المدارس الست ٢٦٠ تليمذاً ، بينهم ٣٩ تلميذاً من أبناء اليهود و ١٦ طفلا من أبناء اليهود المتنصرين ، وستة أطفال من أبناء السامريين ، أما الباقي فمن العرب(٤٦) ·

وكانت مدارس الدياكونيس هذه تعلم القراءة والكتابة واللغات الانكليزية والألمانية والعربية وأشغال الخياطة للبنات(٤٧) ·

وافتتح غوبات مدارس الكتاب المقدس في بيت لحم وبيت جالا واللد والرملة ويافا ونابلس ورفيديا وزبابدة وبرقين وشفاعمرو والسلط · وكان معظمها بمعلم واحد ، وتراوح عدد تلاميذها بين عشرة وخمسة عشر تلميذاً(٤٨) · واضطر المطران غوبات الى التخلي عن معظم هذه المدارس لمؤسسات تبشيرية انكليزية وألمانية بسبب العجز المالي الذي كانت تعاني

منه ٠ واتصف التعليم في هذه المدارس البروتستانتية بتدني مستوى المعلمين الأكاديمي والمهني(٤٩) ٠

لم يكتف المطران غوبات بموارد الأسقفية المحدودة للقيام بنشاطه التبشيري والثقافي ٠ فلجأ الى انشاء صناديق للتبرع في ألمانيا وسويسرا وانكلترا لدعم مشاريعه ٠ وكان يقوم بجولة في أوروبا ، مرة كل عامين ، من أجل جمع المال ٠ وساهمت جولاته هذه في دفع جمعية التبشير الكنائسية الانكليزية (C.M.S.) الى ارسال المزيد من المبشرين الى فلسطين ، وقيام جمعيات تبشيرية عديدةفي ألمانيا وسويسرا للغرض نفسه مثل أخوةكريشونا Bruederhaus St. Chrischona قرب بازل في سويسرا ، وجمعية كايزرزفيرت دياكوينس Das Kaiserswerther Diakonissen Mutterhaus وجمعية بيت المقدس Jerusalem Verein في برلين(٥٠) ٠

قضى غوبات ثلاثاً وثلاثين سنة من عمره أسقفاً للقدس ، الى أن وافته المنية في ١١ أيار ١٨٧٩ ، ودفن في المقبرة الانجيلية على جبل صهيون في المدينة المقدسة(٥١) ٠

نهاية مطرانية القدس البروسية الانكليزية المشتركة

بوفاة صموئيل غوبات شغر منصب المطرانية الانجليكانية في القدس٠ وكان على ملكة بريطانيا ، هذه المرة ، أن تختار المطران الجديد ، وفقاً للاتفاقية البروسية ـ الانكليزية لعام ١٨٤١ ٠ ووقع الاختيار على جوزيف باركلي Joseph Barclay (٥٢) عميد كلية ستيبلفورد Stapleford Gollege في هيرتفورد شاير وسيم مطراناً في ٢٥ تموز١٨٧٩ ٠

وصل باركلي الى القدس في ٣ شباط ١٨٨٠ ٠ وكان البروتستانت في المدينة المقدسة عند وصوله اليها منقسمين الى جماعات قومية ولغوية متميزة ، ان لم نقل متنافرة ٠ وكانت الجماعة الأولى من البروتستانت الانكليز واليهود المتنصرين الذين كانوا يترددون على كنيسة المسيح ، بينما تألفت الجماعة الثانية من البروتستانت الألمان الذين أصبح انتماؤهم للدولة الألمانية الموحدة منذ عام ١٨٧١ أقوى من انتمائهم للكنيسة البروتستانتية ٠ أما الجماعة الثالثة فتألفت من البروتستانت العرب الذين كانوا يحظون بدعم جمعية التبشير الكنائسية C.M.S. وقد بنى أتباع هذه الجماعة الأخيرة كنيسة خاصة بهم هي كنيسة القديس بولس التي افتتحت للعبادة لأول مرة عام ١٨٧٤(٥٣) ٠

ولم يقتصر الأمر على انقسام الطائفة البروتستانتية على نفسها ، وانما انفصل معظم البعثات التعليمية والطبية التابعة لمطرانية القدس عنها ، وألحقت بالبعثة التبشيرية الكنائسية وغيرها من البعثات التبشيرية. وقبل أن يتمكن المطران باركلي من حل المشكلات التي واجهته فاجأه الموت في ٢٣ تشرين الأول عام ١٨٨١ .

فتح موت باركلي الباب على مصراعيه لنزاع دبلوماسي بين ألمانيا وبريطانيا حول مطرانية القدس . فقد جاء دور ملك بروسيا لاختيار المطران الجديد . وبعد مفاوضات طويلة رأت الحكومة الألمانية انه لا بد من اعادة النظر في اتفاقية عام ١٨٤١ التي تجاوزتها الأحداث ، وبخاصة بعد الأهمية الكبرى التي اكتسبتها ألمانيافي أوروبا منذ عام ١٨٧١ . وكان الاعتراض الألماني على الاتفاقية المذكورة يدور حول نقطتين هما : حق النقض الذي يتمتع به رئيس أساقفة كانتربري على تعيين المطارنة في القدس ، ورفض الرهبان اللوثريين الألمان اعادة ترسيمهم ليصبحوا رهباناً انجليكانيين . ورغم الحاح ألمانيا رفض رئيس أساقفة كانتربري تقديم أية تنازلات للألمان . فما كان من حكومة بروسيا الا أن أعلنت انسحابها من الاتفاقية . وأيد القيصر الألماني فيلهلم الأول Wilhelm I هذا الانسحاب الذي أعلن رسمياً في ٩ تشرين الثاني عام ١٨٨٦ . وأبلغ البارون فون هاتسفيلد Von Hatzfeld سفير ألمانيا في لندن وزارة الخارجية البريطانية رسمياً بقرار الحكومة الألمانية بالغاء الاتفاقية في ٤ كانون الأول ١٨٨٦، وردت الخارجية البريطانيةعلى ذلك بالموافقة(٥٤).

والواقع ان أسباب القطيعة يمكن حصرها بما يلي :

١ ـ وضع الرهبان الألمان التابعين لمطرانية القدس الانجليكانية والذي لم يتفق ومصالح ألمانيا . فقد رفضت مطرانية القدس أن تمنح الكنيسة اللوثرية الألمانية الحقوق نفسها التي كانت تتمتع بها الكنيسة الأنجليكانية في فلسطين .

٢ ـ التزام من تختاره بروسيا مطراناً للقدس بالتوقيع على بنود تعاليم المهنة التسعة والثلاثين الواردة في العقيدة الانجليكانية .

٣ ـ حق النقض الذي كان يتمتع به رئيس أساقفة كانتربري لمن ترشحه بروسيا لمنصب المطرانية .

٤ ـ فشل الغاية من انشاء المطرانية المقدسية وهي توحيد الكنائس

البروتستانتية ، كما كان يأمل ملـك بروسيا ، وبقيت الكنـائس البروتستانتية في عزلتها القومية .

٥ ـ عجز المطران البروتستانتي في القدس عن حماية مصالح الطائفة الألمانية البروتستانتية . وكان القنصل البروسي حتى عام ١٨٧١ ، والألماني فيما بعد هو الذي يتولاها .

٦ ـ كان محرماً على المطران زيارة الكنيسة الألمانية واقامة أي احتفـال ديني فيها وذلك وفقاً لأوامر وتعليمات الكنيسة الانجليكانية .

٧ ـ زيـادة عدد الألمـان في فلسطين على عـدد الانكليز وازديـاد عـدد مؤسساتهم الدينية والخيرية(٥٥) .

نشاط الارساليات التبشيرية البروتستانتية الألمانية

أخـوة كريشـونا St. Chrischona Missionhaus :

يرتبط التبشير البروتستانتي الألماني في فلسـطين ، في بداياتـه ، باسم المبشر الألماني الآب شبتلر Spittler (٥٦) ، الذي عمل في الجمعيـة الألمـانيـة المسـيحية Die Deutsche Christentums Gesellschaft وفي دار البعثة البازليـة Das Baseler Missionshaus بـين عـامـي ١٨٠٧ و ١٨٤٠ . وأنشأ في كنيسة القديس كريشونا الواقعة على بعد مسيرة ساعـة ونصف الساعـة من بازل بعثـة الحجـاج Pilgermission في عام ١٨٤٠ . وأخذت هذه البعثة تستقطب الشبان المسيحيين المتدينين وبخاصة أصحاب الحرف اليدوية لتدريبهم على أيدي الرهبان ليصبحوا رهباناً قادرين على العيش من دخلهم الخاص كحرفيين . وكانت أخـوة كريشونا تقوم بنشاط ديني وثقافي في أوساط المهاجرين الألمان في أمريكا الشمالية . أما شبتلر فقد بدأ صلاته بالشرق من خلال عمله في دار البعثة البازلية التي كانت نشيطة في أرمينيا(٥٧) .

ومنذ عام ١٨٣٦ شرع شبتلر يتداول مع عدد من رجال الدين والفكر الألمان فكرة استعمار الأرض المقدسة . غير أن العقبات التي قد تعترض هذا المشروع بدت وكأنها متعذرة التذليل .

وجاء اختيار صموئيل غوبات أسقفاً للكنيسة البروسية ـ البريطانية المشتركة في القدس عام ١٨٤٦ ، ليبعث الهمة في نفس شبتلر ويشجعـه

على النشاط التبشيري في فلسطين · فقد عرف هذا غوبات عند تردده على آخوة كريشونا · وأمل في أن ينال دعمه وتأييده لمشاريعه التبشيرية في فلسطين · ولذلك ما كان منه الا أن اقترح على المطران غوبات انشاء مركز لأخوة كريشونا في القدس « حتى يرى الناس الفقراء هناك نموذجاً حياأمامأعينهم كيف يعيش المسيحيون الحقيقيون، وكيف يعاملون من يحيطون بهم بمحبة ، وكيف يصلون ويعملون ، وكيف يسمون بالمشورة والعمل الى مساعدتهم » · كما رشح الراهبين بالمر Palmer وشيك Schick من فورتمبرغ Wuerttemberg لهذه الغاية ، شريطة أن يتدرب الأول على صناعة الصابون واعداد بعض المواد الكيماوية ، وأن يتدرب الثاني على الحدادة والميكانيك في أخوة كريشونا، قبل ارسالهما الى فلسطين(٥٨) ·

تم لشبتلر ما أراد وسافر الراهبان بالمر وشيك من بازل في ٦ ايلول ١٨٤٦ الى فلسطين ، فوصلا القدس وقابلا المطران غوبات في ٣٠ تشرين الأول من ذلك العام · واستأجرا بيتاً في القدس للبدء في مشروعهما · غير أنهما واجها بعض المصاعب في بداية عملهما بسبب جهلهما باللغة العربية وبالعادات والتقاليد المحلية · وأخذ بالمر يسعى الى اجتذاب أطفال الفقراء الى البيت الذي استأجره لتعليمهم · كما قام شيك بصيانة ذلك المركز التدريبي الصغير وتدريب الأطفال على بعض الحرف اليدوية(٥٩) ·

وأرسل شبتلر ، في عام ١٨٤٨ ، راهبين آخرين الى القدس هما ميللر Mueller وبالدنشبرغر Baldensperger لينضما الى بالمر وشيك من أجل توسيع نشاط هذا المركز التبشيري · ولم يوفق الرهبان الأربعة في مسعاهم وانفرط عقدهم · ولكن المطران غوبات أوكل الى بالمر ادارة مدرسة المطران في القدس وبقي مديراً لها حتى عام ١٨٨٩ ، وأوكل الى رفيقه بالدنشبرغر الشؤون المالية للمدرسة نفسها · أما الراهب شيك فقد عمل في المدرسة المهنية التابعة لجمعية يهود لندن · ودخل الراهب ميللر في جمعية التبشير الكنائسية(٦٠) ·

واتفق شبتلر مع المطران غوبات في عام ١٨٥٢ على تزويد الأسقفية في القدس بما تحتاج اليه من الرهبان المتخصصين بالحرف اليدوية ، وعلى اعادة فتح بيت أخوة كريشونا والتعليم باللغة العربية(٦١) · وبناء على هذا الاتفاق أرسل شبتلر المعلم يوهان لودفيغ شنلر Johan Ludwig Schneller الى القدس في ٨ تشرين الثاني عام ١٨٥٤ ترافقه زوجته وستة من

الرهبان . وما أن انقضى عام واحد على اقامة هؤلاء الرهبان في المدينة المقدسة حتى التحق أربعة منهم بالمبشر الدكتور كرابف في الحبشة . وسعى شبتلر الى الابقاء على بيت الرهبنة في بيت المقدس ، وذلك بتحويله الى مدرسة تبشيرية . أما شنلر فقد اشترى قطعة من الأرض خارج أسوار القدس عام ١٨٥٥ ، وبنى عليها منزلا صغيراً ليبدأ منه عمل الارسالية التبشيرية لأخوة كريشونا . ولكنه لم يوفق في مشروعه هذا فاضطر الى التعليم في مدارس المطران غوبات(٦٢) .

وفي عام ١٨٥٩ وصل الى شنلر خمسة من رهبان كريشونا بعث بهم شبتلر . وانتقل بهم الى المنزل الذي بناه خارج أسوار القدس حيث بدأوا عملهم التبشيري بصورة مستقلة .

ولدعم نشاط هذه الارسالية اعتقد شبتلر أن لا بد من توثيق صلاتها بالارسالية التبشيرية التابعة للأخوة في الحبشة . ولما كان الاتصال عن طريق البحر الأحمر غير مأمون فقد اقترح أن يتم الاتصال بين الارساليتين براً عبر مصر والسودان ، وذلك بانشاء « محطات » من المحلات التجارية على طول الطريق بمعدل محطة واحدة لكل خمسين كيلو متراً . وأطلق على هذا الطريق البري اسم « طريق الرسل » . وأوكل الى المبشرين في القدس تأمين الاتصال البري بالرهبان في الحبشة . وكان المبشرون الخمسة الذين أوفدوا من كريشونا عام ١٨٥٩ الى منزل شنلر جزءاً من تنفيذ هذا المشروع . وفي العام التالي أنشئت محطة ماتهويس Matthaeus في الاسكندرية ومحطة ماركوس Markus في القاهرة كخطوة تالية في تنفيذ المشروع .

غير أن وفاة شبتلر عام ١٨٦٧ وضعت نهاية للمشروع واضطر الرهبان الذين التحقوا بالمحطات المذكورة الى العمل في مؤسسات تبشيرية أخرى . وغادر العديد منهم البلاد العربية الى أمريكا(٦٣) .

أما شنلر فلم يكن من محبذي مشروع « طريق الرسل » واكتفى بالاهتمام بالعمل التبشيري في الأرض المقدسة . وعبر في رسالة الى أحد أصدقائه ، عام ١٨٩٠ ، عن الآثار السيئة التي ترتبت على المنافسة بين الارساليات التبشيرية . وجاء فيها : « حينما أقف على سطح دار الأيتام وأجول بنظري هنا وهناك وأرى في كل مدينة ارسالية انكليزية أفسدت الشعب بالأموال التي تنفقها ، وكانت أضرارها أكثر من فوائدها ، تعود

بي الذاكرة الى ما قبل ثلاثين سنة حينما اختارت « بعثة الحج » الطريق الأصوب للهيمنة على هذه البلاد ، برجال بسطاء بدأوا نشاطهم في منزلي وهم لا يملكون عشر ما لدينا حالياً من الوسائل . عندما أفكر في ذلك وأستعرض حاجتنا الى المصداقية والشجاعة والايمان وهجرة العديد من المبشرين الى أمريكا ، يلتهب فؤادي أسى وأميل الى البكاء بكاء مراً ... »(٦٤) .

ولم يقتصر نشاط أخوة كريشونا على مدينة القدس فقد بعثت بالراهب يوهانس تسلر Johannes Zeller من مملكة فورتمبرغ فوصل الى فلسطين عام ١٨٥٧ . وأمضى في الناصرة عشرين سنة كما أمضى مثلها في القدس . وافتتح في عام ١٨٧١ كنيسة انجيلية في الناصرة وبمساعيه أنشأت جمعية تعليم الفتاة في الناصرة داراً للأيتام وعدداً من المدارس النهارية . وتولت تمويل هذه المدارس والاشراف عليها في وقت لاحق جمعية التبشير الكنائسية . وتولى تسلر فيما بعد تدريب المعلمين في مدرسة المطران غوبات في القدس . وقضى تسلر ستة وأربعين عاماً في فلسطين . وغادرها الى ألمانيا في صيف عام ١٩٠١ . غير أن الموت فاجأه هناك في ١٩ شباط ١٩٠٢(٦٥) .

وتولى راهب آخر من أخوة كريشونا هو كريستيان فالشير Christian Fallscheer بناء كنيسة ومنزل للرهبان في نابلس عام ١٨٦٤ . وبفضل مساعيه تم بناء مستشفى للارسالية في المدينة نفسها(٦٦) .

المؤسسات والمنشآت الخيرية البروتستانتية الألمانية

دار الأيتام السورية **Das Syrische Waisenhaus** :

أسفرت الفتنة الأهلية في جبل لبنان بين المسلمين والمسيحيين في عام ١٩٦٠ عن لجوء العديد من النساء والأطفال الى المناطق الساحلية . وكان من بين هؤلاء مئات الأطفال الأيتام . وسارعت الهيئات الدينية والخيرية في أوروبا لتقديم العون لهؤلاء اللاجئين والأيتام منهم بوجه خاص . وقام المعلم شنلر مدير مركز الأخوة الشبتلرية في القدس Das Spittlersche Bruederhaus التابعة لبعثة الحج في كريشونا ، بجهود طيبة في هذا المضمار . فقد زار بيروت وقابل العديد من اللاجئين سعياً الى جلب بعض الأطفال اليتامى الى بيته . غير أن جهوده باءت بالفشل ، ولم يحصل على طفل واحد بسبب معارضة رهبان الطوائف المسيحية

للمساعدة المقدمة من راهب بروتستانتي · وعاد من بيروت الى القدس خالي الوفاض · ولكنه ما لبث أن قام بزيارة أخرى الى صيدا حيث تمكن من جلب تسعة أطفال معه الى القدس في ١١ تشرين الثاني عام ١٨٦٠ ، فكان هؤلاء بداية دار الأيتام السورية(٦٧) · ومع نهاية العام نفسه بلغ عدد الأطفال الأيتام في منزل شنلر ٢٩ طفلا ·

كان هؤلاء الأطفال ينامون على مساند من القش يتسع كل منها لأربعة أطفال · ويتولى شنلر نفسه تعليمهم القراءة والكتابة باللغتين العربية والألمانية · كما يقوم رهبان آخرون بتدريبهم على بعض الحرف اليدوية · وأخذ عدد الأطفال يزداد مع السنين حتى بلغ ستين طفلا عام ١٨٧٠ و ١٢٦ طفلاً عام ١٨٨٠ · وألف شنلر هيئة استشارية لتقديم المشورة والنصح من أجل تطور دار الأيتام · أما العبء الأكبر فقد وقع على شنلر نفسه(٦٨) ·

وتشعبت الدراسة والتدريب في الدار مع الزمن · فقد وجد شنلر أنه لا يكفي تدريس الأطفال حتى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ليتمكنوا من ايجاد عمل مستقل لهم في الحياة ، بل من الضروري ابقاءهم في الدار حتى سن الثامنة عشرة والعشرين لتأهيلهم لمهنة تؤمن معيشتهم · وأنشأ شنلر عدة مشاغل حرفية لهؤلاء في الدار مثل الخياطة والنجارة والحدادة وتجليد الكتب والطباعة وصناعة الأحذية والخراطة وصناعة الفخار · وكان يدير هذه المشاغل معلمون ألمان الى أن حل العرب محلهم مع الزمن · وسمح للمتفوقين من التلاميذ حضور ندوات خاصة بعد اتمام دراستهم ودخول المدرسة الثانوية · وقد تخرج من هذه الدار العديد من المترجمين والمعلمين والحرفيين والرهبان الانجيليين(٦٩) ·

وبدأ شنلر في السبعينات من القرن التاسع عشر يفكر بانشاء مستعمرة انجيلية من خريجي دار الأيتام ، على أن تكون الدار نفسها نقطة البداية· وشرع يبحث عن قطعة من الأرض لهذه الغاية · فوقع اختياره على قطعة من الأرض بالقرب من الرملة ، غير أن السلطات العثمانية لم توافق على شرائها · وبعد محاولات دامت سنة كاملة تدخل في نهايتها القيصر الألماني فيلهم الأول ، وافق الباب العالي على تأجير شنلر قطعة من الأرض مساحتها ٥٨٥ هكتاراً لمدة أربعين سنة · وفي عام ١٨٨٩ افتتحت المدرسة في بير سالم(٧٠) ·

لم يعمر شنلرطويلا، اذ توفي في ١٨ تشرين الأول عام١٨٩٦ ·ولم يؤثر

موته على سير الدراسة في دار الأيتام . وكان قد أخذ الخيطة لاستمرار هذا المشروع . فأنشأ « الرابطة الانجيلية لدار الأيتام السورية في القدس Der Evangelische verein fuer das Syrische Waisenhaus in Jerusalem في مدينة كولون الألمانية عام ١٨٨٩ . وتولى ادارة الدار بعد وفاة شنلر ابنه الأكبر ثيودور Theodor Schneller الذي كان يعمل مراقباً فيها منذ عام ١٨٨٥ . أما مجلس أمناء الدار في كولون فكان يشرف على الخطط الدراسية والتدريبية فيها . وفي السنة التي توفي فيها شنلر الأب بلغ عددتلاميذ الدار ٢١٨ تلميذاً، كمابلغ عدد العاملين فيهامن معلمين وحرفيين ورهبان وموظفين بما في ذلك أبناؤهم حوالي ٦٥ شخصاً . ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت دار الأيتام السورية أكبر مؤسسة تعليمية انجيلية في فلسطين(٧١) .

وكانت الدار قد فتحت أبوابها للأطفال الأيتام من الأرمن اثر ثورة الأرمن عام ١٨٨٩ ، وبلغ عدد هؤلاء ١٢٥ طفلا عام ١٩٠٠ . وأضيف الى الدار فرع لايواء المكفوفين والمكفوفات في عام ١٩٠٣ ، كما أضيف فرع زراعي في بير سالم وآخر في المخيمة عام ١٩٠٦ . وأحدث قسم ثانوي فيها وقسم لتدريب المعلمين عام ١٩١٠ . وبتبرع من الأمير الألماني كريستوف فون ميونخ Graf Christoph von Muenich بنيت دارللمكفوفين عام ١٩١١ . وبلغ عدد الذين تخرجوا من الدار منذ انشائها حتى عام ١٩١٠ (١٤٨٣) يتيماً ويتيمة منهم ١٢٥٦ يتيماً و ١١٥ يتيمة و ٦٨ مكفوفاً و ٤٤ مكفوفة(٧٢) .

وأصدرت دار الأيتام منذ عام ١٨٨٥ دورية « رسول من صهيون Der Bote aus Zion » بالألمانية لنقل أخبار الدار والأرض المقدسة الى الناطقين بالألمانية(٧٣) .

وبلغت الميزانية السنوية للدار عام ١٩١٠ تسعة آلاف جنيه استرليني كان ٧٥٠٠ جنيه منها تجمع من تبرعات المحسنين(٧٤) .

جمعية بيت المقدس Der Jerusalem Verein

كانت امارات جنوب ألمانيا وسويسرا قد سبقت غيرها من المناطق الألمانية الى التبشير البروتستانتي في فلسطين . ورغم محاولة ملك بروسيا فريدريش فيلهلم الرابع اثارة اهتمام سكان مملكته بالتبشير الانجيلي في الأرض المقدسة بانشاء « مؤسسة مطرانية القدس

Stiftung des Bistums Jerusalem » عام ١٨٤١ ، فقد أبدى البروسيون تحفظاً وبروداً نحو هذا المسعى · غير أن هذا التحفظ لم يدم طويلا ، فقد رافق الاهتمام السياسي بفلسطين والذي تمثل بفتح قنصلية بروسية في بيت المقدس عام ١٨٤٣ ، حماس تبشيري ونشاط مكثف تجسد بقيام جمعية بيت المقدس في برلين بهدف « دعم المؤسسات البروتستانتية والجماعات الألمانية في الشرق الأدنى » ·

يعود الفضل في انشاء هذه الجمعية الى الدكتور شتراوس F. A. Strauss مساعد الواعظ في كتدرائية برلين ، الذي زار فلسطين عام ١٨٤٥ ونشر كتاباً عن رحلته هذه بعنوان « سيناء والجلجثة Sinai und Golgo لقي اقبالا واسعاً بين الألمان وأثار اهتمامهم بفلسطين· ومنذ عام ١٨٤٧ بدأ شتراوس الاحتفال « بيوم القدس » في كاتدرائية برلين ، وهو اليوم الذي وصل فيه أول مطران انجيلي الى المدينة المقدسة (٢١ كانون الثاني)(٧٤) ·

وفي الثاني من كانون الأول عام ١٨٥٢ أنشأ شتراوس بالتعاون مع المايور فستفال Major Westphal وغيره من رجال الفكر والدين « جمعية بيت المقدس Der Jerusalem Verein » وتولى هوفمان D. Hoffmann منصب الرئيس الأعلى فيها وخلفه في هذا المنصب كيجل D. Koegel عام ١٨٧٥ ،والأمير تسايتن شفيرين Graf Zeiten-Schwerin الذي بقي في هذا المنصب حتى نهاية القرن التاسع عشر· أما ادارة الجمعية فقد تولاها شتراوس نفسه حتى عام ١٨٨٦ ·

وتأسست فروع للجمعية في مدن بريسلاو Breslau وشلنتسر Schlenzer وفيسلار Wesslar وشتوتجارت Stuttgart ومناطق شيليزيا Schlesien وبروسيا الشرقية ومملكة سكسونيا وتورنجن(٧٥) واقتصر نشاط الجمعية في السنوات الأولى من حياتها على التبشير الانجيلي · وأصدرت في عام ١٨٥٧ مجلة « أحدث الأخبار من الشرق Neusten Nachrichten aus dem Morgenlande » بمعدل مرة كل شهرين وكانت توزعها مجاناً على أعضائها · ثم أخذت تصدر بعد فترة من الزمن بعنوان « الأخبار من مملكة الرب Neusten Nachrichten aus dem Reiche Gottes » وكانت تنقل معلومات وافية ودقيقة عن نشاط الكنيسة الانجيلية في فلسطين ·

بانشاء جمعية بيت المقدس نالت مطرانية القدس الانجليكانية دعماً

حقيقياً من ألمانيا • فقد حظيت هذه الجمعية بمساندة الكنيسة الوطنية البروسية Preussische Land Kirche والحصول على معونة مالية سنوية منها ، حتى بلغ دخل الجمعية السنوي عشرين ألف مارك • وأخذت تقوم بالمشروعات التبشيرية والثقافية والصحية في فلسطين • فقد أنشأت مركزاً لارسالية تبشيرية في بيت لحم عام ١٨٦٠ • وبعد ذلك بخمس سنوات أسست مركزاً مماثلا في بيت جالا • كما أمدت مؤسسة كايزرزفيرت Kaiserswerte Stiftung في القدس بالمال والرهبان • وساندت بقوة « المؤتمر السنوي لرجال الدين الانجيليين الألمان في الشرق « Konferenz der deutsch-evangelischen Geistlichen des Orients وكان لها دور بارز في قيام جماعة انجيلية ألمانية في يافا وأخرى في حيفا خلال عامي ١٨٩٠ و ١٨٩١(٧٦) •

بدأت جمعية بيت المقدس نشاطها التبشيري والثقافي في بيت لحم عام ١٨٦٠ • وأوفدت المبشر ميلر Mueller من أخوة كريشونا ليتولى رئاسة الارسالية في تلك البلدة • فانشأ مدرسة للبنين بالتعاون مع الأسقف غوبات ، وتولت الجمعية الانفاق عليها منذ عام ١٨٧١ • واشترى ميلر قطعة من الأرض خارج البلدة بني عليها منزلا ومدرسة وقاعة للصلاة • وقامت زوجته بنشاط واسع في الوسط النسائي في بيت لحم ، حيث أخذت تدرب الفتيات على أعمال الخياطة والتطريز في منزلها • كما تولت العناية بالأطفال والأيتام ، واحتوى بيتها على حوالي عشرين منهم • وواجه ميلر، كغيره من المبشرين البروتستانت ، مقاومة شديدة من رهبان الطوائف المسيحية الأخرى • وتعرض وأتباعه للأذى أكثر من مرة • ولم يتمكن من حماية أتباعه الا بعد أن اعترفت السلطات العثمانية المحلية بالطائفة الانجيلية في بيت لحم عام ١٨٦٥ • وبلغ عدد الأسر التي انتمت الى الكنيسة الانجيلية في البلدة أربعين أسرة •

أنشأ ميلر مدرسة للبنين في بيت لحم عام ١٨٦٤ ومدرسة للبنات فيما بعد • وتولى ادارة المدرسة الأولى ابن أخيه عمانوئيل ميلر Emmanuel Mueller عام ١٨٧١ • أما ميلر العم فقد أمضى في العمل التبشيري في بيت لحم مدة أربع وعشرين سنة • اذ ما لبث أن أرهقه المرض، فنقل الى ألمانيا في الأول من نيسان عام ١٨٨٤ وبقي هناك حتى وافاه الأجل المحتوم عام ١٨٩١(٧٧) •

خلف ميلر في ادارة الارسالية التبشيرية في بيت لحم القس يوهان

لودفيغ شنلر ، مؤسس دار الأيتام السورية ، بناء على تعليمات من جمعية بيت المقدس . فقام شنلر بشراء قطعة من الأرض لبناء كنيسة انجيلية في البلدة عام ١٨٨٧ بعد أن جمع للمشروع نحو ١٥٠٠ جنيه استرليني من التبرعات من ألمانيا . وأطلق على الكنيسة الجديدة اسم « كنيسة الميلاد ». غير أن السلطات العثمانية لم تسمح له بالبناء فأرجأ المشروع الى عام ١٨٨٩ بعد أن صدر فرمان سلطاني بالترخيص ببناء الكنيسة بمناسبة زيارة القيصر الألماني فيلهلم الثاني وزوجته لاسطنبول في ذلك العام . غير أن شنلر غادر بيت لحم قبل صدور الفرمان المذكور بعام واحد . واضطرت جمعية بيت المقدس الى تعيين عمانوئيل ميلر مديراً للارسالية التبشيرية الذي شرع في بناء الكنيسة وافتتحت في ٦ تشرين عام ١٨٩٣(٧٨) .

وقبل أن يتولى عمانوئيل ميلر ادارة الارسالية بعام واحد تولاها مساعد الواعظ بيتشر J. Boettcher الذي تولى مع راعي الكنيسة الانجيلية في القدس شليخت Schlicht اصدار دورية « أوراق انجيلية من بيت لحم Evangelische Blaetter aus Bethlehem »بقصد اثارة اهتمام الألمان بهذه البلدة وجمع التبرعات للمشروعات التبشيرية الانجيلية فيها .

وانشأت جمعية بيت المقدس داراً للأيتام في بيت لحم عام ١٨٩٦ لايواء الأطفال الأيتام من الأرمن . وما لبثت أن بنت داراً جديدة للأيتام خارج البلدة على طريق الخليل عام ١٨٩٨ لتستوعب سبعين يتيماً . تولى الاشراف عليها عمانوئيل ميلر وزوجته . وقد افتتح القيصر الألماني فيلهلم الثاني هذه الدار في الدار في ٣٠ تشرين الأول عام ١٨٩٨ أثناء زيارته لفلسطين(٧٩) . هذا ونما عدد البروتستانت في البلدة المذكورة حتى بلغ ١٥٠ فرداً عام ١٩١٠(٨٠) .

امتد المبشر ميلر بنشاطه من بيت لحم الى بيت جالا . وأخذ يتردد على هذه البلدة مساء كل يوم أحد واعظاً ومرشداً . واستأجر غرفة صغيرة لهذه الغاية . غير أن أتباع الطوائف المسيحية الأخرى أحرقوا الغرفة وطردوا ميلر منها . وتولى هذه المهمة من بعده المبشر شنلر الذي نجح في استقطاب عدد من سكان البلدة . وأرسل اليهم المعلم العربي بشارة كنعان ليقوم بالوعظ الديني صباح الأحد من كل أسبوع . وفي عام ١٨٧٨ قررت جمعية بيت المقدس تكليف بشارة كنعان بالاشراف على الجماعة الانجيلية العربية في بيت جالا . فقام ببناء دار ومدرسة وقاعة للصلاة والاجتماعات

العامة ٠ وأنشأت زوجته مدرسة للخياطة والتطريز لتدريب نساء البلدة(٨١) ٠

وتعرضت الطائفة الانجيلية في بيت جالا لعاصفة قوية كادت أن تجتث جذورها وتقضي عليها قضاء تاماً ٠ ففي ربيع عام ١٨٨٥ وقع صدام بين البروتستانت وخصومهم الروم الأرثوذكس ، أسفر عن مقتل فتاة أرثوذكسية أثناء تراشق الحجارة بين الطرفين ٠ فثار الأرثوذكس وطالبوا بالثأر ٠ واضطر البروتستانت الى الرحيل عن البلدة الى الكرك في شرقي الأردن ٠ وبعد ستةشهور من المفاوضات بذل خلالها القس شنلر جهوداً كبيرة عاد البروتستانت الى منازلهم بعد أن دفعوا دية القتيلة ٠ وعلى أثر عودتهم قامت جمعية بيت المقدس ببناء كنيسة صغيرة افتتحت عام ١٨٨٦ ٠ وبعد ذلك بعامين افتتحت مدرسة للبنات ٠ وسيم بشارة كنعان واعظاً دينياً في البلدة عام ١٨٩١ وتولى ادارة الارسالية التبشيرية فيها حتى مطلع القرن العشرين ٠ ونما عدد البروتستانت فيها حتى بلغ ١٤٠ فرداً عام ١٩١٠(٨٢) ٠

واتجهت أنظار جمعية بيت المقدس الى التبشيرفي الأوساط الاسلامية، رغم ما في ذلك من مخاطر ٠ فالقانون العثماني يحظر مثل هذا النشاط وينص على عقاب كل مرتد عن الاسلام بالاعدام ٠ واختارت الجمعية مدينة الخليل لتبدأ فيها تجربتها ولم يكن بالامكان أن تبدأ التبشير بالطرق التقليدية مثل الاتصال بالمسلمين والدخول في نقاش ديني معهم ٠ وانما عمدت الى وسيلة مغرية وهي انشاء عيادة طبية في المدينة ٠ وأرسلت الطبيب الياس ضاهر خريج المعهد الطبي في الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الأمريكية) في بيروت لهذه الغاية ٠ واستأجرت الجمعية منزلا ليكون عيادة وصيدلية ومدرسة عام ١٨٨٤ ٠ غير أن مفتي المدينة قاوم هذه المحاولة الجريئة ٠ فأصدر فتوى بتعريض كل مسلم يتردد على العيادة الطبية أو المدرسة للعقوبة ٠ فما كان من الجمعية الا أن أغلقت عيادتها ومدرستها عام ١٨٨٨ وباءت بذلك تجربتها بالفشل(٨٣) ٠ وثبت للجمعية أن الوقت لم يحن بعد لاقامة ارسالية تبشيرية في وسط اسلامي ٠

وفي عام ١٨٩٩ أعلنت أربع وعشرون أسرة من الروم الأرثوذكس في بلدة بيت ساحور انفصالها عن الكنيسة الأرثوذكسية وانضمامها الى الكنيسة الانجيلية ، فما كان من جمعية بيت المقدس الا أن تولت رعاية هذه الجماعة ٠ وقامت ببناء مدرسة للصبيان وأخرى للبنات ومسكن

للمعلمين • غير أن المهتدين الجدد ما لبثوا أن عادوا الى كنيستهم وتخلوا عن الكنيسة الانجيلية ، بعد أن أصيبوا بخيبة أمل عند تحولهم الى المذهب الجديد وعلى أية حال لم يزد عدد المنتفعين برعاية جمعية بيت المقدس من العرب البروتستانت عن ٣٤٠ فرداً عام ١٩١٠(٨٤) •

رهبنــة الدياكونيس في كيزرزفيرت علــى الرايــن

Das Diakonissen Mutterhaus Kaiserswerth am Rhein

مـؤسس هـذه الـرهبنـــة ورئيسـها القس ثيـودور فليـدنـر Theodor Fliedner الذي قام عام ١٨٤٦ بزياة الى لندن تعرف خلالهـا على المطران صموئيل غوبات المعين في القــدس • واتفق الاثنان علــى آن تقوم الرهبنة بنشاط تبشيري في بيت المقدس • وبعد أن باشر المطران غوبات عمله طلب من فليدنر عام ١٨٥٠ تزويده براهبتين دياكونيسيتين • وكان فليدنر في برلين حينما تسلم رسالة غوبات • فما كان منــه الا أن أبلغ الملك فريدريش فيلهلم الرابع بذلك ، وطلب منه العون • استجاب الملك البروسي لرغبة فليدنر ، وتم الاتفاق على ارسال أربع من الراهبات الدياكونيس وتزويدهن بالأموال اللازمة من صندوق التبرعـات التابـع لكنيسة بروسيا الانجيلية الوطنية(٨٥) •

وصل فليدنر الى القدس في ١٧ نيسان عام ١٨٥١ يرافقه آربـع من الراهبات للبدء بنشاط رهبنــة الدياكونيس في فلسطين • وكــانت الخطوة الأولى في هذا السبيل استئجار منـزل مناسب • ووقع الاختيـار على منزل صغير على جبل صهيون ليس بعيداً عن موقع « كنيسة المسيح » الانجليكانية • وكان المنزل مؤلفاً من طابق أرضي استعمل مأوى ، وطابق علوي يحتوي على غرفتين استعمل مستشفى بثمانية أسرة • وتولى ادارته طبيب من مستشفى البعثة اليهودية الانكليزية • أما المأوى فكان البدايــة لمدرسة طاليتا قومي للبنات Talitha-Kumi (٨٦) • وفي عام ١٨٥٥ تولت الراهبة شارلوطــة بليتس Charlotte Plitz ادارة المدرســة حتى آسبغت اسمها على المدرسة فسميت مدرسة شارلوطة(٨٧) •

أما مستشفى الدياكونيس فكان أول مستشفى في القدس يستقبل المرضى من كافة الطوائف الدينية في المدينــة ، بينما اقتصــر مستشفى البعثة اليهودية ــ الانكليزية (جمعية يهود لندن L. J. S.) • علىاستقبال

المرضى من اليهود فقط • وبلغ عدد المرضى الذين عولجوا في مستشفى الدياكونيس في العام الأول نحو مئة مريض(٨٨) •

ولما رغب صاحب المبنى في بيعه عام ١٨٥٦ وجدت الارسالية الدياكونيسية نفسها مكرهة على شرائه أو بناء دار جديدة • وهنا تبرع ملك بروسيا بما تجمع في صندوق التبرعات التابع لكنيسة بروسيا الوطنية (أي ١٣٠٣٢ تالر) للارسالية • عند ذلك اتجهت النية الى الخروج من المدينة وشراء قطعة من الأرض خارجها • وتبرعت ملكة بروسيا اليزابيث Elizabeth Von Preussen بعدد من الخيمات لنصبها خارج القدس في الصيف واستعمالها مأوى للأطفال • وتم شراء قطعة من الأرض تبعد مسيرة عشر دقائق عن باب يافا • وشرع ببناء المستشفى عام ١٨٥٩ • واتضح بعد ذلك أن قطعة الأرض لا تكفي ، كما أن وجود الأطفال الى جانب المرضى في مبنى واحد أمر غير مقبول ، ولا بد من فصل الأطفال عن المرضى • وفي عام ١٨٦٦ وضع حجر الأساس للمبنى الجديد الذي اتخذ اسم « طاليتا قومي » ، وأشرف على البناء الراهب الكريشوني الدكتور شيك C. Schick • واحتفل بافتتاح المدرسة عام ١٨٨٦ • وبلغ عدد تلميذاتها في ذلك العام ٨٩ تلميذة(٨٩) •

كانت مدرسة طاليتا قومي تتقاضى من أولياء أمور التلميذات الفقيرات مبلغاً سنوياً يتراوح بين عشرين وثلاثين فرنكاً فرنسيا • وبلغ عدد العاملات في المدرسة عام ١٨٩٨ ثماني راهبات دياكونيسيات • وضمت ١١٧ تلميذة بينهن سبع عشرة تلميذة أرمنية • واستمرت الراهبة شارلوطة بليتس تدير هذه المدرسة مدة خمس وأربعين سنة(٩٠) • وتبرع في ذلك العام قيصر ألمانيا فيلهلم الثاني بمبلغ من المال للمدرسة بمناسبة زيارته لفلسطين ، ساعد في توسيع مبناها(٩١) •

أما المستشفى فقد استمر في داخل المدينة حتى بلغ عدد الذين قدم لهم خدمات طبية خلال عام ١٨٦٨ حوالي ثمانمائة مريض • وقل عدد المرضى في السبعينات من القرن التاسع عشر بسبب انشاء مستشفيات أخرى في المدينة المقدسة • وبناء على رأي الطبيب المشرف على المستشفى الدكتور هوفمان Hoffmann تقرر نقله الى مبنى جديد خارج أسوار القدس • وتشكلت ، في عام ١٨٨٥ ، لجنة من المبشر الألماني شلخت Schlicht وعدد من الرهبان الألمان أقامت اتصالات مع رهبنات الدياكونيس في ألمانيا وسويسرا وهولندا من أجل التبرع لانشاء المستشفى

الجديد . فاستجاب لنداء اللجنة العديد من المحسنين . وفي عام ١٨٩٠ تم شراء قطعة من الأرض غير بعيدة عن مبنى مدرسة طاليتا قومي في الحي المعروف (الشيخ عكاشه) . وبدأ بناء المستشفى عليها في ٣ تموز ١٨٩٤ تحت اشراف رئيس البنائين في كتدرائية برلين شفارتزكوبف Schwartzkopf بحيث يتسع لمئة سرير(٩٢) . وتبرع قيصر ألمانيا بجزء من نفقات البناء . وكان المقدسيون يسمونه يومئذ « مستشفى المجيدي » لأن ادارة المستشفى كانت تتقاضى ريالا مجيدياً عثمانياً واحداً عن كل مريض مهما طالت اقامته فيه . ومن الأطباء البارزين الذين عملوا فيه ابان العهد العثماني الدكتور هوفمان والدكتور كراوزندورف Krausendorf والدكتور باركهاوزن Th. Barkhausen (٩٣) . هذا وقد بلغ عدد المرضى الذين عولجوا في المستشفى المذكور ٦٠٠ مريض داخلي و ٧٠٠٠ مريض في العيادات الخارجية عام ١٩١٠(٩٤) .

مؤسسة القدس الانجيلية Evangelische Jerusalem Stiftung :

أنشئت هذه المؤسسة في برلين في ٢٢ حزيران عام ١٨٨٩ بأمر من القيصر فيلهلم الثاني من أجل دعم الطائفة الانجيلية الألمانية في فلسطين . وحولت اليها الأموال التي كان يتبرع بها ملك بروسيا لمطرانية القدس البروسية ـ الانكليزية في القدس . كما حولت اليها أموال صندوق التبرعات الذي تأسس عام ١٨٤٢ لدعم المطرانية المذكورة ، والتبرعات التي جمعتها الكنائس الانجيلية الألمانية بين عامي ١٨٦٩ و ١٨٨٨ . ووضعت المؤسسة تحت اشراف مجلس « وزارة الشؤون الدينية الألمانية «Ministerium der geistlichen Angelegenheiten Stehends Karatorium وتألف مجلس مؤسسة القدس الانجيلية من رئيس مجلس الكنائس الانجيلية الأعلى الدكتور باركهاوزن Barkhausen والأمير فون تسايتن شفيرين Graf Von Zeiten - Schwerin والدكتور أولهورن D. Ulhorn والمستشار التجاري Colsmann ومستشار الطوائف الأعلى كيلر Koehler . وكان هؤلاء الأعضاء الخمسة يعينون بارادة ملكية من القيصر الألماني . وكذلك الحال بالنسبة الى كافة رؤساء الطائفة الروحيين الألمان في فلسطين .

وكانت المؤسسة تمتلك ما يلي :

١ ـ الأبرشية الألمانية ، ومساحتها ١٤١٥٧ متراً مربعاً ، تضم منزلا للرهبان وقاعات للاجتماعات الدينية والمناسبات الاجتماعية للطائفة

الألمانية ٠ كما احتوت على مدرسة داخلية وروضة للأطفال ومنزل لمدير المدرسة وملعب للرياضة ٠

٢ ـ كنيسة المخلص Die Erloeser Kirche التي حصل على موقعها (ساحة المارستان) في مدينة القدس ولي عهد بروسيا الأمير فريدريش هدية من السلطان العثماني بمناسبة حجه الى القدس بعد مشاركته في الاحتفال بتدشين قناة السويس عام ١٨٦٩ ٠ وبدىء ببنائها بأمر من القيصر الألماني فليهلم الثاني على أنقاض كنيسة القديسة ماريا ، وعلى طراز قديم وفقاً لمخطط البناء الذي وضعه كبير المهندسين ادلر Adler ٠ ووضع حجر الأساس للكنيسة في ٣١ تشرين الأول عام ١٨٩٣ بحضور الدكتور باركهاوزن مندوباً عن القيصر الألماني ٠ واحتفل بافتتاحها عند زيارة فيلهلم الثاني وزوجته للقدس في ٣١ تشرين الأول عام ١٨٩٨(٩٥) ٠

وأضيف الى مبنى الكنيسة المؤسسة الألمانية الانجيلية القديمة التي أنشئت عام ١٩٠١/١٩٠٢ ٠ وكانت تحتوي على مكتبة ومتحف وقاعات للدراسة وقاعة كبيرة للاجتماعات العامة ومنزلا لراعي الكنيسة(٩٦) ٠

الطائفة الانجيلية الألمانية في فلسطين

تجمع الانجيليون الألمان في فلسطين في مدن ثلاث هي القدس وحيفا ويافا ، تركز فيها جل نشاطهم التبشيري والثقافي والخيري ٠

١ ـ الجماعة الانجيلية الألمانية في القدس :

نمت الجماعة الانجيلية الألمانية في القدس بنمو المؤسسات التبشيرية والثقافية والخيرية الألمانية فيها ٠ وكان معظم أفراد هذه الجماعة في السنوات الأولى من انشاء مطرانية القدس البروسية ـ الانكليزية المشتركة من رهبنة الدياكونيس والأخوة الشبتلرية الذين كانوا يعملون في الارسالية التبشيرية الانكليزية ٠ ومع تأسيس دار الأيتام السورية ومركز شبتلر ومأوى المجذومين ازداد عدد الألمان الانجيليين القادمين الى القدس ٠ ونمت الجماعة الألمانية جنباً الى جنب مع الجماعة الانكليزية تحت رعاية مطرانية واحدة ومنذ عام ١٨٥٢ أرسل ملك بروسيا القس فالنتينر Valentiner (٩٧) الى القدس للمشاركة في العمل التبشيري المشترك الذي كانت تشرف عليه مطرانية القدس ٠ وسيم

فالنتينر في بيت المقدس وفقاً للطقوس الدينية الانجليكانية ، كما اقتضت الاتفاقية البروسية ـ البريطانية لعام ١٨٤١ . وأصبح بامكانه أن يقيم الصلوات في « كنيسة المسيح » وسمح للرهبان الألمان اقامة صلاة الأحد في الكنيسة نفسها مرة كل أسبوعين ، واقامة الاحتفالات الدينية في أربع مناسبات في السنة هي « خميس العهد أو خميس الغسل ، وعيد العنصرة ، واليوم الثاني لعيد ميلاد المسيح . ويوم الأحد الثامن بعد عيد الفصح » .

بقي فالنتينر في منصبه هذا حتى عام ١٨٦٦ ، فخلفه القس هوفمان Hoffmann الذي نمت في عهده الجماعة الألمانية حتى تجاوزت في عددها الجماعة الانكليزية . وأصبح من المتعذر عليها أن تقبل بالصلاة في « كنيسة المسيح » بعد ظهر يوم الأحد فقط . فخطا هوفمان خطوة جريئة على طريق الانفصال عن الجماعة الانجليكانية وأخذ يقيم صلاة الأحد الصباحية في نزل القديس يوحنا ، وذلك بناء على توصية من البرفسور شتراوس Strauss عضو جمعية بيت المقدس في برلين . وأخذ الألمان يمارسون صلواتهم بصورة منتظمة في نزل القديس يوحنا دون الأخذ بعين الاعتبار للتقاليد والطقوس الدينية الانجليكانية . وأقدم الرهبان الألمان على ازالة صليب المذبح وشمعة المذبح عند صلواتهم في « كنيسة المسيح » لأنهما من شعار المهتدين حديثاً الى المسيحية من اليهود . وتخلى هؤلاء الرهبان عن الصلاة في النزل المذكور اعتباراً من عام ١٨٧٠ بسبب ضيق المكان ، وأصبحوا يمارسونها في قاعة للعبادة مخصصة للطائفة الانجيلية العربية التابعة للبعثة التبشيرية الكنائسية(٩٨) . وكانت كنيسة المخلص المشار اليها آنفاً أول كنيسة انجيلية للطائفة الألمانية في بيت المقدس .

خلف القس فيزر Weser القس هوفمان وبنى مدرسة خاصة للانجيليين الألمان في القدس عام ١٨٧٣(٩٩) . وفي عام ١٨٧٦ خلفه القس الدكتور راينكه Reinecke الذي كان أكثر جرأة من سابقيه في تحدي الكنيسة الانجليكانية . اذ رأى أن ليس من الضروري ولا من الواجب الالتزام بنص المادة ٣٩ من الاتفاقية التي أبرمت بين ملك بروسيا وملكة بريطانية عام ١٨٤١ ، المتضمن القيام بالصلوات وفقاً للتعاليم والطقوس الانجليكانية . ولم ير راينكه ضرورة في صلاة بعد ظهر الأحد في « كنيسة المسيح » الانكليزية . وبذلك تم الانفصال بين الجماعتين الألمانية والانكليزية في الصلوات والأعمال التبشيرية . ولم يبق سوى مطران القدس صلة للوصل بينهما . وبموت المطران غوبات عام ١٨٧٩ وتعيين

المطران باركلي خلفاً له ، اتخذ هذا موقفاً يتصف بالجفـاء من الجماعـة الألمانية ، فعزز بذلك الانفصال بين الجماعتين · ولما حاول المطران الجديد سيامة الرهبان الألمان الجدد وفقاً للتقاليد الانجليكانية رفض هؤلاء وبذلك قطعت الصلة بين الرهبان الألمان ومطرانية القدس(١٠٠) · وباتخاذ هذه القطيعة صفتها الرسمية عام ١٨٨٦ أصبح للانجيليين الألمان كيان مسـتقل في القدس وفلسطين كلها ·

أما أهم المؤسسات الخيرية التي كانت تتبع هذه الجماعة الألمانيـة في بيت المقدس والتي لم نأت على ذكرها فهي :

نزل رهبنة القديس يوحنا Das Hospiz des Johanniter Ordens:

بني هذا النزل من أجل استقبال الحجاج الانجيليين الألمان · وكان عدد الحجاج الألمان الى فلسطين حتى منتصف القرن التاسع عشر محدوداً بسبب التكاليف الباهظة ومشقة السفر · غير أن البدء بالتبشير الانجيلي الألماني اقتضى استقبال الوافدين من الألمان وتقديم التسهيلات لهم · وكثيراً ما كان الحجاج الألمان يطلبون العون من القنصل البروسي في القدس · كما كان بعضهم ينزل في نزل اللاتين فيها · ولذلك رأى المطران غوبـات أن لا بد من بناء نزل للحجاج والسياح الألمان في بيت المقدس · ووجه رسالة الى ملك برسيا فريدريش فيلهلم الرابع عام ١٨٥٠ بيّن له فيها الحاجـة الماسة لبناء النزل المذكور · فاستجاب ملك بروسيا لهـذا الطلب وقـدم للمطران مبلغاً من المال لبناء النزل المقترح عام ١٨٥١ · واشترى المطران بالاضافة الى ذلك منزلا آخر لهذه الغاية عام ١٨٥٥ بالقرب من كنيسـة القيامة · وتولت رهبنة القديس يوحنا الاشـراف على النزلين معاً منـذ عام ١٨٥٨ · وتوسع مبنى نزل القديس يوحنا عـام ١٨٦٦ مع ازديـاد عدد الحجاج والسياح الألمان · فأصبح يتسع لخمسة عشر نزيلا · ومـع نهاية القرن التاسع عشر بلغ معدل عدد الزوار الذين ترددوا على النزل سنوياً نحو مئة وعشرين زائراً · وكانت ادارة النزل توزع الكتاب المقدس مجانـاً علـى النـزلاء وتمنحهـم شـهادة بالحـج صادرة عـن جمعيـة بيت المقـدس(١٠١) ·

مأوى المجذومـين Das Aussaetzigenasyl :

كان الجذام من الأمراض المستعصية في المشرق العربي والتي لا سبيل الى علاجها ، فاذا ظهرت أعراض المرض لدى أي انسان يُكره عَلى مغادرة

القرية أو الحي الذي يقطنه · ويجمع المجذومون في أمكنة قريبة من المدن حيث يلجأون الى التسول لتأمين غذائهم اليومي · وكان حول القدس مجموعة من هؤلاء المجذومين الذين اتخذوا الكهوف والمقابر القديمة مأوى لهم · غير أن السلطات العثمانية جمعتهم وأسكنتهم في بيوت من الحجر بالقرب من سور المدينة (قرب باب صهيون) · وكان لهؤلاء المرضى مجتمعهم الخاص بهم ، يتولى قيادته أحدهم يقوم بتوزيع ما يجمعونه من التسول بينهم بصورة عادلة ومنتظمة ، ويحكم في الخلافات والمنازعات التي قد تنشب بينهم · وكان على كل مريض يود الدخول في الجمعية أن يدفع رسماً مقداره عشرون ريالا مجيدياً (أي ما يعادل ثمانين فرنكاً فرنسياً آنذاك) تدفع الى الصندوق المشترك للجمعية · ويقبل في هذه الجمعية جميع المجذومين مهما اختلف جنسهم أو دينهم أو طائفتهم · وفي موسم الحصاد ينتقل المجذومون الى الريف يواصلون تسولهم من قرية الى قرية · ويعودون بكميات وافرة من الحنطة تكفي لمؤونتهم من الطحين طوال العام كله ، ويبيعون ما يزيد عن ذلك · ولما يشتد المرض بالمجذوم يعجز عن التنقل ويضطر الى البقاء في المنزل المخصص له حتى يقضي عليه المرض ·

بدأ اهتمام الارسالية التبشيرية الانجيلية الألمانية بالمجذومين في القدس عام ١٨٦٧ · وكان قد حج الى الديار المقدسة قبل ذلك بعامين البارون الألماني فون كيفنبرنك ـ اشرادن Freiherr Von Keffenbrink Ascheraden - وزوجته فتأثرا بمنظر المجذومين وهم يتسولون على أبواب القدس · وقامت زوجته بالاتصال بالعديد من المحسنين في ألمانيا ، وتبرعت هي بمبلغ من المال من أجل بناء مأوى لهؤلاء المرضى · واتصلت بجمعية بيت المقدس في برلين وبغيرها من الجمعيات الخيرية لجمع التبرعات لهذا المشروع · وتشكلت في القدس لجنة برئاسة المطران غوبات لبناء المأوى المذكور · وتمكنت هذه اللجنة من شراء قطعة من الأرض على بعد مسيرة بضع دقائق من باب يافا خارج السور لبناء المأوى عليها · وتبرعت آخوة برتلزدورف قرب هرنهوت Bruedergemeine in Berthelsdorf bei Hernhut بتزويد المأوى بالرهبان اللازمين لخدمته · وأوفد المبشر تابه Tappe لهذا الغرض ، فافتتح المأوى في ٣٠ آيار عام ١٨٦٧ ·

أقبل المرضى على المأوى الألماني بشيء من التردد أول الأمر · ومع

ذلك فقد بلغ عدد المجذومين فيه في نهاية العام الأول اثني عشر مجذوماً . وأخذ عدد نزلاء المأوى يزداد حتى بلغ الثلاثين . وفي عام ١٨٨٤ وجد أن المأوى لا يتسع لاعداد المرضى الراغبين في النزول فيه ، فقام المبشر تابه بشراء قطعة من الأرض خارج أسوار القدس بالقرب من مستعمرة الهيكليين الألمان . وعلى هذه القطعة من الأرض بدىء ببناء المأوى الذي اتخذ اسم « معونــة المسيح Jesus - Hilfe » عام ١٨٨٥ . واحتفل بافتتاحه في ربيع عام ١٨٨٧ . وأصبح المأوى الجديد يتسع لنحــو ستين مريضــاً . وتولــى ادارتــه الأب شوبرت Schubert تساعده زوجتــه وثلاث مــن الراهبات الدياكونيسات . ومع افتتاح المأوى الجديد تخلت لجنة القدس التي كان يرئسها المطران غوبات عن ادارة المأوى وتولتها أخوة برتلزدورف التي كانت تزوده بالكوادر اللازمة(١٠٢) .

ولما كانت معالجة الجذام غير معروفة في عالم الطب حتى نهاية القرن التاسع عشر ، فقد اقتصر المأوى على العناية بالمجذومين دون علاجهم . وكان الأطباء الألمان يترددون عليهم لتخفيف آلامهــم والعناية بصحتهــم العامة . ومن الجدير بالذكــر أن الحكومــة العثمانيــة بنت في أواســط السبعينات من القرن التاسع عشر مأوى للمجذومين في سلوان بالقــرب من القــدس(١٠٣) .

مستشفى الأطفــال Das Kinderhospital :

قام دوق ميكلنبورغ شــفيرين الكبــير Der Grossherrzog Von Mecklenburg - Schwerin وزوجته بزيارة القدس في عــام ١٨٧٢ . وأبديا خلال اقامتهما القصيرة فيها استعدادهما لتقديم أية مساعدة ممكنة للجمعيات والمؤسسات الانجيلية في بيت المقدس . وكلفا الطبيب ساندرسكي Sanderczky ببناء مستشفى للأطفال . وبعد اتصالات دامت ثلاث سنوات تمكن الدوق الألماني وزوجته من تأمين خمسة أسرّة للأطفال في المستشفى الخاص للدكتور ساندرسكي الذي أطلق عليه اسم « مؤسسة ماريا الخيرية Marienstift » نسبة الى زوجة الدوق الألماني . ومع نهاية العام الأول من عمل المستشفى بلغ عدد الأطفال الذين عولجوا فيه اثنين وتسعين طفلا. واستمرت دوقيــة ميكلنبورغ ـ شفيرين تقــدم للمستشفى معونة ماليــة سنوية حتى نهاية القرن التاسع عشر . غير أن هذه المعونة لم تكف لسد نفقات المستشفى فاضطر مديره الى جمع الأموال اللازمة من الأصدقاء

والمحسنين . ومع نهاية القرن التاسع عشر كان المستشفى يعالج حوالي مئة وخمسين امرأة حاملا وخمسمائة وخمسين طفلا في العام(١٠٤) .

٢ ـ الجماعة الانجيلية الألمانية في حيفا :

تشكلت هذه الجماعة منذ عام ١٨٧٩ من عدد من المستوطنين الألمان في حيفا من أعضاء « جمعية الهيكل » الدينية التي كانت تؤلف طائفة دينية ألمانية مستقلة عن الكنيسة الانجيلية الألمانية(١٠٥) . ففي ذلك العام حصل انقسام في صفوف الجمعية المذكورة أدى الى عودة بعض أفرادها الى حوزة الكنيسة الانجيلية . وأخذ المبشر رانيكه Reinecke يتردد على حيفا ويلتقي بأولئك المنشقين ويلقي عليهم العظات الدينية . وتابع خليفته القس شليخت Schlicht هذه المهمة . وفي عام ١٨٩١ قررت جمعية بيت المقدس ارسال معلم ألماني الى حيفا لتعليم أبناء الجماعة الانجيلية الألمانية فيها . وبعد ذلك بعام قدم أحد أفراد الجماعة قطعة من الأرض مجاناً لبناء مدرسة وقاعة للاجتماعات . ثم أوفدت جمعية بيت المقدس القس ذيكرت Deckert الى حيفا للاقامة هناك . وبذلك أصبح للجماعة في هذه المدينة مدرستها وكنيستها . وبلغ عدد الأسر التي تألفت منها هذه الجماعة عشرين أسرة . وتمكنت الجماعة ، بدعم من جمعية بيت المقدس ، من بناء منزل للقس الجديد باورمايستر Bauermeister عام ١٨٩٨(١٠٦) .

٣ ـ الجماعة الانجيلية الألمانية في يافا :

كان نشوء الجماعة الانجيلية الألمانية في يافا مماثلا لنشوء الجماعة نفسها في حيفا . فقد أدت الانقسامات الدينية الداخلية في صفوف جمعية الهيكل الى عودة بعض أفرادها الى حظيرة الكنيسة الانجيلية . وأخذ القسس الانجيليون الألمان في القدس يترددون على يافا لتقديم الخدمات الدينية للمنشقين وكسب المزيد منهم الى حظيرة الكنيسة الانجيلية . ومنذ عام ١٨٨٩ طالب بعض أرباب الأسر الألمانية الذين عادوا الى حوزة الكنيسة الانجيلية بانشاء مدرسة لهم في يافا ، فتم لهم ذلك بمساعدة من جمعية بيت المقدس . وأتاح بناء سكة الحديد بين يافا والقدس منذ عام ١٨٩٢ للآباء الانجيليين التردد بصورة منتظمة على الجماعة الصغيرة في يافا . وأخيراً قررت جمعية بيت المقدس في عام ١٨٩٧ ارسال القس شلايخ Schlaich الى يافا للاقامة فيها بصورة دائمة ورعاية الجماعة الانجيلية الألمانية(١٠٧) .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الجماعات الألمانية الثلاث (في القدس وحيفا ويافا) لم تكن قادرة على الوقوف على رجليها بسبب قلة عددها وضعف امكاناتها · ولذلك اتجهت الجهود لاقامة كنيسة انجيلية عربية في فلسطين تضم اليها الجماعات الألمانية السابقة الذكر(١٠٨) ·

وفي عام ١٩١٠ بلغ عدد البروتستانت الألمان في فلسطين نحو ألفي نسمة ، منهم ١٣٣٠ من جمعية الهيكل و ٤٦٠ من أتباع الكنيسة الوطنية الألمانية · وفي العام نفسه أنشئت على جبل الزيتون في القدس أبنية مؤسسة القيصرة فكتوريا Kaiserin Auguste Victoria Stiftung فكلفت نحو مئة ألف جنيه استرليني وأصبحت مركزاً لكافة المؤسسات الخيرية الألمانية في فلسطين(١٠٩) ·

النشاط التبشيري الكاثوليكي الألماني في فلسطين

كان للكنيسة اللاتينية وضع خاص في الدولة العثمانية يختلف عن وضع الكنائس الأخرى كالأرثوذكسية والأرمنية والشرقية المتحدة مع روما · ذلك أن الأكليروس الأرثوذكسي والأرمني من رعايا السلطان ، وهو الذي يصادق على تعيين بطاركتهم وأساقفتهم · بينما لم تخضع الكنيسة اللاتينية للقانون العثماني ، وانما كانت خاضعة للقانون الدولي لأن رهبانها مواطنون أجانب · ولذلك بقي ممثل البابا في اسطنبول غير معترف به رسمياً من قبل الدولة العثمانية حتى نهاية القرن التاسع عشر · وكان يحتل وموظفوه قسماً من السفارة الفرنسية في العاصمة العثمانية ، ويمارس نشاطه من خلال السفارة المذكورة بموجب الحق الذي حصلت عليه فرنسا في حماية الكاثوليك في المعاهدة الفرنسية ـ العثمانية لعام ١٧٤٠ · وبقي موظفو الكنيسة الكاثوليكية في جميع أقطار آسيا العثمانية لا صلة رسمية لهم بالسلطات العثمانية ، باعتبارهم أجانب يتمتعون بحماية فرنسا(١١٠) ·

كان الروم الكاثوليك في فلسطين أقل عدداً من الروم الأرثوذكس غير أنهم أقوى نفوذاً بسبب حماية فرنسا لهم · أما الروم المتحدون مع روما الذين نشأوا كطائفةدينية في منتصف القرن الثامن عشر نتيجة للنشاط التبشيري الذي قامت به الارساليات والرهبنات الكاثوليكية في بلاد الشام ، فقد كان لهم بطريركهم ، ولغة الصلاة عندهم العربية · واقتصر وجود هذه الطائفة على القدس وحدها ·

وكان الرهبان الفرنسيسكان الممثلين للكنيسة الغربية في فلسطين. ويرجع وجودهم فيها الى عام ١٣٣٣. وبلغ عددهم مع نهاية القرن التاسع عشر نحو خمسمائة راهب. وانحصرت مهمتهم حتى منتصف ذلك القرن على حماية الأماكن المقدسة التي كانت مسرحاً للنزاع بين مختلف الطوائف المسيحية(١١١).

هذا وقد عين أول بطريرك لاتيني في القدس في عام ١٨٤٠. وتلاه وصول أول مطران انجليكاني بعد عامين. فكان ذلك بداية للتنافس بين الكنيستين الكاثوليكية والانجيلية في فلسطين، والذي كان مظهراً من مظاهر الصراع الدولي على هذه البقعة المهمة من ممتلكات الدولة العثمانية. ومنذ وصول أول بطريرك لاتيني الى بيت المقدس اهتمت بافاريا، الدولة الكاثوليكية الألمانية، بفلسطين والأماكن المقدسة. فبدأت في عام ١٨٤٣ حملة لجمع التبرعات لصالح كنيسة القيامة. وتعاونت مع الامبراطورية النمسوية في هذا المجال. فأوفدتا بعثة خاصة الى فلسطين في عام ١٨٤٥ لدراسة امكانية التبشير الكاثوليكي في هذه البلاد. وعادت البعثة وقدمت مشروعاً لشراء الأراضي والأبنية اللازمة لاقامة المؤسسات التبشيرية الكاثوليكية. غير أن ثورات عام ١٨٤٨ في ألمانيا والنمسا حالت دون المضي في تنفيذ المشروع. وفي العام التالي أنشأت النمسا قنصلية لها في القدس تولت تمثيل الدول والامارات الكاثوليكية في ألمانيا واستمر هذا الوضع حتى قيام الوحدة الألمانية عام ١٨٧١(١١٢).

واذا كانت بروسيا، في بداية الأمر، وألمانيا الموحدة، فيما بعد، قد شجعتا التبشير الانجيلي في فلسطين طمعاً في مد النفوذ الألماني الى هذه البلاد، فلم تتوان ألمانيا الموحدة عن دعم المؤسسات الكاثوليكية الألمانية في هذا الميدان أيضاً. وفي أعقاب الوحدة الألمانية قرر الحزب الوطني الحر Ereie Nationale Partei الحاكم في البلاد، والذي كان يتمتع بشعبية كبيرة، أن يعزز الوحدة الألمانية بازالة كل معارضة وكل خلاف بين الكاثوليك والبروتستانت في البلاد. فواجه معارضة شديدة من الكاثوليك اضطرت المستشار الألماني الأمير فون بسمارك Von Bismarck الى استصدار عدة أوامر ملكية وقوانين لمناهضة الكاثوليك. وعرفت هذه الحركة في ألمانيا « بالكفاح الثقافي Kultur Kampf ». ففي ٨ تموز ١٨٧٠ صدر أمر ملكي في برلين بالغاء القسم الكاثوليكي في وزارة الأديان. وتلاه

أمر ملكي صدر في ١١ آذار عام ١٨٧٢ تضمن الغاء الاشراف الديني على التعليم ، وفرض التفتيش الرسمي على المؤسسات التعليمية الدينية ، وفي ١٥ آذار ١٨٧٣ صدر أمر ملكي بالغاء مناصب رجال الدين الكاثوليك في الجيش البروسي . كما صدر قانون في ٥ نيسان من العام نفسه يؤكد تطبيق ما جاء في المادتين ١٥ و ١٨ من الدستور البروسي الصادر عام ١٨٥٠ . وتنص هاتان المادتان على الحد من الحريات الممنوحة للطوائف الدينية .

وكان قد صدر قانون في ٤ تموز ١٨٧٢ نص على ملاحقة جمعية « رفاق المسيح » الكاثوليكية وكافة الفروع التابعة لها في ألمانيا وفي ٦ شباط ١٨٧٥ صدر قانون يبيح الزواج المدني . وبلغت هذه التدابير الملاحقة الكاثوليك أوجها عام ١٨٨٠ حينما أصدر برلمان بروسيا Land tag قانوناً في ٩ أيار منح الحكومة الملكية البروسية صلاحية استصدار الأنظمة واتخاذ الاجراءات اللازمة بحق الرهبان الكاثوليك لما فيه صالح الدولة . ونصت المادة الرابعة من هذا القانون على أن تتولى الحكومة المذكورة اعادة تعيين أو تثبيت الأساقفة الكاثوليك الذين لم تتخذ المحكمة الدينية العليا قراراً ضدهم .

أثارت هذه الاجراءات والأنظمة حفيظة البابا والكنيسة الكاثوليكية ، فشنت على حكومة بروسيا حملة شعواء . ومنذ عام ١٨٨٠ سعى القيصر الألماني الى التفاهم مع البابا غير أن مسعاه باء بالفشل . وحاول القيصر انتهاز أية فرصة مناسبة لتحسين علاقات ألمانيا بالكرسي البابوي ، وحصل أن نشب خلاف ، في ايلول ١٨٨٧ ، بين ألمانيا والنمسا حول جزر كارولين . فاختارت الدولتان البابا حكماً بينهما ، فوضع حلا أرضى الطرفين . كانت هذه هي الفرصة السانحة للتقارب بين الفاتيكان وبرلين . وكانت قد أصدرت الحكومة البروسية قانوناً في ٢١ أيار ١٨٨٦ أنهى « الكفاح الثقافي » وملاحقة الرهبان الكاثوليك والمؤسسات الكاثوليكية في بروسيا(١١٣) . وتعزيزاً لهذا الاتجاه قام القيصر فيلهلم الثاني بزيارة روما عام ١٨٨٩ .

وقد أثارت هذه الزيارة مخاوف فرنسا من تقارب ألماني ـ بابوي قد ينتهي باعتراف البابا بحق ألمانيا في حماية كاثوليك الشرق ، وتأكدت هذه المخاوف منذ أن أعلنت ألمانيا في ٥ أيار ١٨٧٥ عدم إعترافها بحق أية دولة في حماية المؤسسات الكاثوليكية في الشرق . ولم تهدأ مخاوف

فرنســا الا بعــد أن أدلــى البابــا ليــون الثــالث عشــر Leon XIII بتصريح في ٢٠ آب ١٨٩٣ أكد فيه الحماية التقليدية الفرنسية لكاثوليك الشرق · غير أن الصحف الألمانية ضربت بهذه التصريحات عرض الحائط ، وأخذت تتحدث عن أهداف زيارة فيلهلـم الثاني للقدس التي ســتتم في عام ١٨٩٨ ، ومنها تأمين الحماية الألمانية للمسيحيين هناك · وقد أسهبت الصحف الألمانية، وبخاصة صحيفة Germania الكاثوليكيةالبرلينية وصحف National Zeitung, Kolnische Volkzeitung, Norddeutsche Allgemeine Zeitung. في الحديث عن هذا الموضوع(١١٤) ·

ولما بدأت الزيارة ، ونزل القيصر الألماني في حيفا في تشرين الأول ١٨٩٨ ألقى الراهب الألماني بيفير Biewer مدير المؤسسة الكاثوليكية في الطبغة خطاباً أمامه أعرب فيه عن شكر الكاثوليك الألمان وامتنانهم لحماية القيصر لهم ، وقال : « اننا نأمل أن تعطى لنا حرية العمل في المستقبـل في فلسطين تحت حماية أجنحة النسر الألماني القوية ، وأن نتمكن من نشر الثقافة الألمانية والعمل الألماني ··· » ورد عليه القيصر بقوله : « يسرني أن أنتهز هذه المناسبة لأعلن بصورة حاسمة أن بامكان رعاياي الكاثوليك أن يتأكدوا من حمايتي لهم أينما كانوا وفي أي وقت يحتاجون فيه الــى هذه الحمايــة »(١١٥) ·

وهكذا نرى أنه منذ أن انتهى « الكفاح الثقافي » الذي شنته الحكومة القيصرية الألمانية على الكاثوليك ، لم تتوان ألمانيا عن دعــم المؤسسات الكاثوليكية الألمانية في فلسطين واستخدامها كأداة لبسط النفوذ الآلماني في البلاد ومنافسة فرنسا في حماية الكاثوليك ·

ويمكننا أن نقيم النفوذ الألماني في هذا الميدان من خلال المؤسسات والمنشآت الكاثوليكية الألمانية في فلسطين وهي :

١ ــ دير القديس كارلوس بوروماوس St. Borromeos ·

في القدس · تأسس على يد جمعية أخوات باويرا التي بدأت نشاطها في القدس عام ١٨٨٧ (وعرفن فيما بعــد باسم « راهبات باويــرا » أو « الأخوات الألمانيات ») ويقع الى الغرب من مقبرة ماملا · وقد خصص لنزول الحجاج من الألمان الكاثوليك(١١٦) ·

٢ ــ كنيسة نياحة العذراء Die Dormition Kirche :

تقع على جبل صهيون الى الغرب من مقام النبي داود الى الجنــوب من سور القدس ، على بعد بضعة أمتار من باب النبي داود · وقد أهديت

الأرض التي أقيمت عليها هذه الكنيسة من السلطان عبدالحميد الثاني الى القيصر الألماني فيلهلم الثاني حين زيارته للقدس في ٣١ تشرين الأول ١٨٩٨ . ولما قدم متصرف القدس سند التملك الى القيصر الألماني خاطبه قائلا : « بناء على الصداقة بين جلالكتم وعظمة متبوعنا الأعظم فاننا نقدم لجلالتكم هذه الأرض ونحملكم على الراحات » : فأجابه القيصر : « ان المرحوم السلطان عبدالعزيز خان أهدى المرحوم والدي الأرض التي بنيت عليها كنيسة المخلص التي تم تدشينها اليوم . وعظمة صديقي السلطان عبدالحميد خان أهداني هذه الأرض . وكما أننا بنينا على الأولى كنيسة للألمان الانجيليين ، فسنبني على هذه كنيسة للألمان الكاثوليك . فشكراً لعظمته ولآل عثمان العظام » . وقام القيصر بمنح قطعة الأرض « للجمعية الألمانية في الأرض المقدسة Der Deutsche Verein Vom Heiligen Lande

هذا وقد شرع في بناء الكنيسة عام ١٩٠٠ ، وتم بناؤها عام ١٩١٠ ودشنت بحضور الأمير ايتل فريتس Eitel Fritz الابن الثاني للقيصر(١١٧) .

٣ ـ نزل القديس بولس St. Paulus Hospiz :

بدىء ببناء هذا النزل عام ١٩٠٢ على قطعة من الأرض تبعد مئة متر الى الشمال من باب العمود في القدس . وتم البناء عام ١٩٠٨ وخصص جانب منه لاستقبال الحجاج والسياح الألمان الكاثوليك . واستعمل الجانب الآخر منه مدرسة لتدريب المعلمين . وكان يحتوي على خمسة صفوف ثانوية . هذا وقد احتلته القوات البريطانية عام ١٩١٧ واتخذته مقراً لحاكم القدس(١١٨) .

٤ ـ نزل أوغستا فكتور Augusta Victoria Hospiz :

شرع الألمان الكاثوليك ببناء هذا النزل على جبل الزيتون عام ١٩٠٥ باعانات جمعت باشراف الوزير الألماني ميرباخ Mirbach الذي رافق القيصر في زيارته للقدس عام ١٨٩٨ . وقد اتخذ نزلا للحجاج الألمان بين عامي ١٩١٠ و ١٩١٤ . ثم اتخذته القوات العثمانية ـ الألمانية مقراً لقيادتها بين عامي ١٩١٤ ـ ١٩١٧ . ولما سقطت القدس في أيدي القوات الانكليزية في ٩ كانون الأول ١٩١٧ تحول النزل الى مقر للحكومة العسكرية . كما اتخذه المندوب السامي البريطاني منزلا له بين عامي ١٩٢٠ ـ ١٩٢٧(١١٩) .

٥ ـ المستوصف الصحي في عمواس ـ قبية :

اشتريت أرض المستوصف عام ١٨٧٦ لبناء مستوصف للراهبات والرهبان العاملين في مدرسة شميدت للبنات ونزل القديس بولس • وكانت تشرف عليه راهبات القديس بورميوس •

٦ ـ مدرسة شميدت للبنات Schmidt Schule :

أنشئت في القدس بتمويل من أسقفية كولون بألمانيا عام ١٨٨٦ • أما الأرض التي بنيت عليها فقد تم شراؤها عام ١٨٧٧ • وسميت المدرسة باسم أول مدير لها الأب اللعازري فيلهلم شميدت Wilhelm Schmidt .

٧ ـ نـزل الطبغـة :

بني هذا النزل على أرض زراعية اشترتها أسقفية كولون الكاثوليكية بين عامي ١٨٨٦ و ١٨٩٦ في منطقـة الطبغـة الواقعة الى الغـرب من بحـيرة طبـريـا •

٨ ـ مستشفى راهبات القديس بوروميوس في حيفا

St. Borromeus Schwestern Krankenhaus

اشتريت الأرض التي أقيم عليها هذا المستشفى لحساب أسقفية كولون الكاثوليكية عـام ١٨٨٦ ، وتم بنـاء المستشفى عـام ١٨٨٨ • وأنشئت الى جانبه دار للأيتام ، واستراحة الياس للراهبات عام ١٩٠٢ ، التـي تحولت فيما بعد الى نزل ومدرسة(١٢٠) •

٩ ـ ملجأ العجزة في القدس :

أنشىء عام ١٨٩٣ واستمر يستقبل العجزة حتى عام ١٩٣٨ حينما تحول الى مدرسة داخلية للأطفال المشردين •

١٠ ـ المركز التبشيري الثقافي في عمواس :

أنشأه اللعازريون وراهبات القديس شارل • وتطور المركز على يد الأب لاديزلاو شنايدر Ladislao Schneider الفرنسيسكاني الذي كوّن جماعة كاثوليكية ألمانية في هذه القرية • غير أن المركز قارب على الافلاس عام ١٨٧٨ ، وحاول الأب شنايدر تقديمه هدية للرهبـان الفرنسيسكان فلم ينجح في ذلك(١٢١)

١١ ـ جمعية فلسطين الألمانية Deutsche Palaestina Verein :

تأسست عام ١٨٨٥ في كولون (ألمانيا) تحت رعاية أسقفها بهـدف

اكتشاف فلسطين ودراسة أحوالها ٠ وكانت تصدر مجلة علمية فصلية تتناول دراسة تاريخ فلسطين وآثارها وجغرافيتها وكل ما يتعلق بها ٠ وقد أدمجت فيما بعد مع جمعية القبر المقدس St. Sepulcre - Verein التي تولت جمع التبرعات في ألمانيا وتوزيعها على المؤسسات الكاثوليكية في فلسطين ٠ وأشرفت هذه الجمعية على التعليم والمؤسسات الطبية الألمانية في فلسطين ٠ ومن انجازاتها بناء مأوى للحجاج في القدس في عام ١٨٨٦ وكانت تديره أربع راهبات ، وبناء مأوى آخر في المدينة نفسها تحت اشراف اللعازاريين الألمان تولى الأب شميت Schmitt ادارته(١٢٢) ٠

ويلاحظ أن النشاط التبشيري الكاثوليكي الألماني بدأ يشتد في الثمانينات من القرن التاسع عشر ، أي في الفترة التي أخذت فيها ألمانيا تسعى بكل ما لديها من وسائل لتعزيز نفوذها في الدولة العثمانية ٠ وهي الفترة التي دخلت فيها في تنافس شديد مع فرنسا في الميادين السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية ، وسعت ألمانيا في هذه الفترة الى أن تنتزع من فرنسا حق حماية الكاثوليك في الشرق ٠ ولما حاول البابا نقل بطريرك اللاتين في القدس المنسينيور بيافي Mgr. Piavi في بداية عام ١٨٩٨ احتجت الطائفة الكاثوليكية الألمانية في فلسطين على ذلك لأنها كانت ترى فيه حامياً لمصالحها في البلاد(١٢٣) ٠ وتدخل القيصر الألماني لدى البابا ليون الثالث عشر ورجاه أن يبقى على البطريرك بيافي حتى تتم زيارة القيصر للشرق في تشرين الأول ١٨٩٨(١٢٤) ٠ كما انتهز القيصر هذه المناسبة ليؤكد حمايته للبعثات التبشيرية الكاثوليكية الألمانية في الشرق ، بما في ذلك منحهم حق رفع العلم الألماني على مؤسساتهم(١٢٥) ٠

التبشير والأهداف السياسية الألمانية :

مثلما شهدت أوروبا في أعقاب الثورة الفرنسية ميلاد العديد من الحركات السياسية الثورية وعاشت نشاطاً ثورياً عنيفاً ، شهدأيضا تجديداً دينياً عميقاً ٠ ذلك أن زوال المؤسسات القديمة، بما فيها المؤسسات الدينية والكنسية ، أدى الى بعث ديني ٠ وبرزت حركة البعث الديني هذه في أجلى مظاهرها في بريطانيا وألمانيا ٠ فقد تأسست جمعيتان دينيتان في لندن هما جمعية التبشير الكنائسية C.M.S. عام ١٧٩٩ ، وجمعية يهود لندن L. J. S. عام ١٨٠٩ ، كان لهما دور مهم في تنمية الوعي الديني بين الانكليز وتسخير التبشير الديني لأغراض السياسة الخارجية البريطانية ٠

كما تشكلت في ألمانيا ، نتيجة حركة البعث الروحي Erweckungsbewegung جمعيات دينية مماثلة . وكانت برلين وبازل قطبي هذه الحركة . ففي ٢٥ كانون الثاني عام ١٨٢٢ تأسست في برلين « جمعية نشر المسيحية بين اليهود « Gesellshaft zur Befoerderung des Christentums unter den Juden ». تحت رعاية البارون فون فيتسليبن Von Witzleben الذي أصبح فيما بعد وزيراً للحربية في مملكة بروسيا . وجرت العادة على أن يتولى رئاسة هذه الجمعية أحد كبار الضباط في الجيش البروسي(١٢٦) . وهذا يدل على الأهمية العسكرية التي كانت مملكة بروسيا تعلقها على هذه الجمعية التبشيرية . ومن الجدير بالذكر أن هذه الجمعية قد وثقت صلاتها بجمعية يهود لندن التي بدأت نشاطها التبشيري بين اليهود في فلسطين منذ عام ١٨٢٦(١٢٧) .

أما بازل فقد كانت مركز الاشعاع الديني في جنوبي ألمانيا . فمنذ عام ١٧٨٠ أسس يوهانس أوغست أورلشبرغر Johannes August Urlsperger « الجمعية المسيحية الألمانية « Deutsche Christentums Gesellschaft التي ما لبثت أن أنشأت لها فروعاً في مختلف امارات جنوب ألمانيا . وقد تدرب في هذه الجمعية القسان كريستيان غوتليب بلومهاردت Christian Gottlieb Blumhardt وكريستيان فريدريش شبتلر Christian Friedrich Spittler (من مملكة فورتمبرغ) . وهما اللذان أسسا جمعية بازل التبشيرية Baseler Mission Gesellschaft بين ١٨ و ٢٧ تموز ١٨١٥(١٢٨) . وبعد عشر سنوات من تأسيسها أبرمت اتفاقية مع جمعية التبشير الكنائسية في لندن نصت على تآخيهما وعلى المشاركة في التبشير الانجيلي في الشرق(١٢٩) .

لقد كانت فكرة استعمار فلسطين واستيطانها تهيمن على تفكير مؤسسي هذه الجمعيات ، وبخاصة مع انتهاء حكم محمد علي ١٨٤٠ ، واعتقاد الكثيرين من الأوروبيين أن الدولة العثمانية قد أوشكت على الانهيار وأن لا بد من اقتسام ممتلكاتها الآسيوية والسيطرة على فلسطين التي تحتل موقعاً استراتيجياً مهماً بين هذه الممتلكات بالاضافة الى أهميتها الدينية . وبينما كانت قوات محمد علي تنسحب من فلسطين طلب شبتلر في ١٩ نيسان ١٨٤٠ من البارون بونزن Bunsen وزير بروسيا المفوض في بيرن لدى زيارته لمقر الجمعية في بازل السعي لاقامة مستعمرة بروتستانتية أنموذجية في الأرض المقدسة(١٣٠) . وقدم بونزن في

٢٩ نيسان ١٨٤٠ مذكرة الى وزير الخارجية البروسي فيرتر Werther تتضمن مشروعاً حول مستقبل فلسطين • وينص المشروع على فصل فلسطين عن بقية الولايات العثمانية وربطها مباشرة بالباب العالي ، ووضع سكانها المسيحيين تحت حماية الدول الأوروبية بحيث تتولى فرنسا والنمسا حماية الكاثوليك ، وروسيا حماية الأرثوذكس ، وانجلترا وبروسيا حماية البروتستانت • وأن تصبح القدس وبيت لحم والناصرة ممتلكات (مستعمرات) مسيحية(١٣١) • وكان هذا المشروع وراء فكرة انشاء مطرانية بروتستانتية بروسية ـ انكليزية مشتركة في بيت المقدس •

ولعل أبرز ما يميز التبشير الألماني في فلسطين أنه بدأ بمبادرة من الدولة ونتيجة لمفاوضات رسمية بين الحكومتين البروسية والبريطانية • وحظي هذا النشاط التبشيري بدعم المملكة البروسية • وبعد قيام الوحدة الألمانية ازداد اهتمام ألمانيا القيصرية بالتبشير ، وسعيا منها الى تسخيره لخدمة أهدافها السياسية والاقتصادية في الشرق ، اعترضت على الاتفاقية البروسية ـ الانكليزية لعام ١٨٤١ ، وشجعت الرهبان الألمان على الانفصال عن الكنيسة الانجليكانية في فلسطين حتى انتهى الأمر بالانفصال التام عام ١٨٨٦ • ومنذئذ لم يقتصر الدعم الرسمي الألماني على المؤسسات التبشيرية الانجيلية وانما امتد الى المؤسسات الكاثوليكية الألمانية في البلاد •

لقد كان النشاط التبشيري مبرراً لتدخل قناصل ألمانيا في الشؤون الداخلية للبلاد • اذ لم ينفك هؤلاء عن حماية المبشرين وحماية اليهود المهاجرين من ألمانيا أو الراغبين في الحماية الألمانية(١٣٢) • واذا قارنا النشاط التبشيري الألماني ، والنشاط التعليمي منه بوجه خاص ، بالنشاط المماثل للدول الأوروبية وجدنا أن هذا النشاط كان ضعيفاً ومحدوداً • اذ لم يتجاوز عدد المدارس الألمانية في بلاد الشام والعراق قبيل الحرب العالمية الأولى ٢٢ مدرسة ، بينما بلغ عدد المدارس الفرنسية ٦٠٠ مدرسة ، وعدد المدارس البريطانية والأمريكية ٥٠٠ مدرسة ، وعدد المدارس الايطالية ٢٠٠ مدرسة، وعدد المدارس الروسية ٦٠ مدرسة(١٣٣) • واذا أخذنا بعين الاعتبار الخدمات الانسانية التي قدمتها هذه المؤسسات التبشيرية فلا يغيب عن بالنا أنها ساهمت في تعميق الخلافات الطائفية في البلاد ، كما أنها أضعفت الشعور الوطني والقومي بتنمية الولاء الطائفي وتعزيزه •

المصـــــادر

١ ـ رستم ، أسد : الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . بيروت ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤ ، ج ١ ، ص ٨٧ ـ ٨٩ ٠

أبو عزالدين ، سليمان ٠ ابراهيم باشا في سورية ، بيروت ١٩٢٠ ، ص ٧٦ ٠

Carmel, Alex; Geschichte Haifas in der Tuerkischen Zeit, 1516-1918, otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1975, pp. 76-7.

٢ ـ تأسست جمعية يهود لندن في العاصمة البريطانية عام ١٨٠٩ بقصد نشر المذهب الانجليكاني بين اليهود في فلسطين ٠ لمعلومات وافية عن الجمعية انظر :

Tibawi, A. L. : British Interests in Palestine, Oxford University Press, London, 1961.

Geschichte der deutschen evangaelische Kirche und Mission im Heiligen Land, Guetersloh, 1898, P. 3.

العارف ، عارف ٠ المسيحية في القدس . مطبعة دير الروم الأرثوذكس ، ١٩٥١ . ص ١٥٨ ٠

٣ ـ Richter, J. : A History of Protestant Missions in the Near East, A.M.S. Press, New York 1970 (Reprinted from Edition of 1910) p. 237.

Tibawi, A. L. : op. cit., pp. 44-5,

Geschichte der deutschen evangaelischen Kirche und Mission im Heiligen Lande, p. 4.

وسيشار اليه فيما يلي بـ Geschichte .

٤ ـ كريستيان بونزن ابن جندي هولندي عاش في امارة فالديك Waldeck الألمانية ٠ درس اللغات الكلاسيكية في جامعة غوتنجن وفي معهد اللغات الشرقية في باريس ٠ ثم التحق بالسلك السياسي البروسي حتى بلغ رتبة وزير مفوض في روما ٠ وأصبح بعد ذلك مستشاراً لملك بروسيا ٠

Schmitz, L. : The late Baron Bunsen, London, 1862, pp. 32-9.

Bunsen, F. : A Memoir of Baron Bunsen, London, 1868, Vol. I, pp. 593.

٥ ـ Alonzo, A. d' : Les Allemands en Orient, Oscar Schepens et cie, Bruxelles, 1904, pp. 11-12.

٦ ـ نص الرسالة باللغتين الألمانية والانكليزية في :

Helcher, W. H. : The Jerusalem Bishopric, London, 1883, Pt. 11 (Documents), pp. 20-27.

٧ ـ نص التعليمات الموجهة الى بونزن في : Alonzo, A. d' : op. cit., pp. 11-18

٨ ـ Tibawi, A. L. : op. cit., p. 46. Alonzo, A. d', op. cit, pp. 18-19

٩ ـ Tibawi, A. L. : op. cit., p. 49, Geschichte ...., p. 6

١٠ ـ نص رسالة رئيس أساقفة كانتربري في : Alonzo, A. d, : op. cit, pp. 29-30

١١ ـ Richter, J. : op. cit, p. 239

١٢ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 48

١٣ ـ هو يهودي بولندي اسمه الحقيقي قولف Wolf من مواليد شينلاكه Schoenlake في دوقية بوزن Bosen الألمانية ۰ جاء الى بريطانيا عام ١٨٢٠ وهو في الحادية والعشرين من عمره ۰ وتولى تعليم التلمود واللغة العبرية ۰ ثم عين حاخاماً في بلايموث Plymouth تنصر عام ١٨٢٥ وعمل في جمعية يهود لندن مبشراً في دانتسغ Danzig ۰ ثم عاد الى لندن عام ١٨٣٠ وبقي فيها حتى تاريخ اختياره لأسقفية القدس ۰ وتولى أثناء اقامته في لندن تعليم اللغة العبرية في Kings College .

Tibawi, A. L. : op. cit, p. 50, Alonzo, A. d' : op. cit, pp. 22-3
Richter, J. : op. cit, p. 239.

١٤ ـ Alonzo, A. d' : op. cit, p. 23

١٥ ـ النص الكامل للرسالة في : Alonzo, A. d' : op. cit, pp. 23-24

١٦ ـ Geschichte...., p. 11, Tibawi, A. L. : op. cit, p. 51

١٧ ـ Geschichte...., p. 12, Tibawi, A. L. : op. cit, p. 58

١٨ ـ Helcher, W. H. : op. cit. (Documents), pp. 128-9
Tibawi, A. L. : op. cit, pp. 61-74

١٩ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 75

٢٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ۰

٢١ ـ Smith, H. : The Protestant Bishopric in Jerusalem, pp. 124-5

٢٢ ـ Alonzo, A. d' : op. cit., p. 32, Tibawi, A. L. : op. cit, p. 80

٢٣ ـ ولد صموئيل غوبات في ٢٦ كانون الثاني ١٧٩٩ في قرية صغيرة في منطقة جورا Jura الفرنسية التي ضمت بعد سقوط نابليون الى كانتون برن السويسرية ۰ درس في مدرسة القرية حتى بلغ سن الخامسة عشرة ۰ وتربى في أحضان الكنيسة الاصلاحية في سويسرا وتدرب على التبشير في معهد بازل Basel وتعلم اللغة العربية في باريس على يد المستشرق الفرنسي دوساسي de Sacy ثم سيم في الكنيسة الموحدة في مملكة بادن الكبرى حيث اتحدت الكنيستان اللوثرية والاصلاحية في كنيسة واحدة ۰ رحل غوبات الى انكلترا عام ١٨٢٥ حيث عينته جمعية التبشير الكنائسية C. M. S. مبشراً في الحبشة ۰ وقبل ان

أن يتولى مهمته الجديدة دخل كلية اسلنجتون Islington للتدرب فيها لبضعة أشــهر وفي طريقه الى مركز عمله الجديد ، قضى غوبات ما يزيد عن ثلاث سنوات في زيارة لمالطـة وفلسطين وجبل لبنان ومصر حيث تمكّن من تحسين لغته العربية . ونقل من الحبشة الــى مالطة حيث شارك في ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة العربية . وفي كتابة المنشورات التبشيرية التي كانت تصدرهـــا مطبعة جمعية التبشـــير الكنائسية في مالطة . ولما أنشئت الكليـــة البروتستانتية في مالطة . سيم غوبات قسيساً في كنيسة انكلترا . وعيّن نائباً لمدير الكلية . وبعد شهر واحد من افتتاح الكلية عام ١٨٤٦ تلقى غوبات دعوة من ملك بروسيا لتسميتـه مطراناً للقـدس .

Tibawi, A. L. : op. cit, pp. 86-7. Geschichte .... pp. 12-13,
Alonzo, A. d' : op. cit, p. 33

لمزيد من التفاصيل عن حياة غوبات انظر مذكراته التي نشرت في لندن عام ١٨٨٨ بعنوان :

Samuel Gobat, Bishop of Jerusalem, His Life and Work

٢٤ ـ Geschichte .... p. 13, Tibawi, A. L. : op. cit, p. 88 .

٢٥ ـ Richter, J. : op. cit, p. 239, Tibawi, A. L., op. cit, p. 90

٢٦ ـ Geschichte .... p. 17

٢٧ ـ انظر تفاصيل الخلاف بين البطريركية الأرثوذكسية ورعاياها العرب في كتاب خليل قزاقيا : تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية ، مطبعة المقتطف ، القاهرة ١٩٢٤ .

٢٨ ـ Geschichte .... p. 34, Richter, J. : op. cit, p. 240

٢٩ ـ Geschichte .... p. 36, Richter, p. 241

٣٠ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 108

٣١ ـ Geschichte .... p. 35

٣٢ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 108

٣٣ ـ Geschichte....p. 37, Richter, J. : op. cit, p. 241, Tibawi, A.L. : op. cit. p. 93

٣٤ ـ Geschichte .... p. 38

٣٥ ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 131

٣٦ ـ Geschichte .... p. 29

٣٧ ـ Geschichte .... p. 27, Tibawi, A.L. op. cit, p. 99

٣٨ ـ ترجم الفرمان المذكور الى الانكليزية ونشر في صحيفة :

The Missionary Herald, Boston, U.S.A., April 1951

٣٩ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 104

٤٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٥ ـ ١١٦ ٠

٤١ـ Geschichte ...., p. 29

٤٢ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 136

٤٣ـ F. O. 78/1448, letter of Malmesbury of 28.4.1959

٤٤ـ Tibawi, A. L. : op. cit, p. 91

٤٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٩٣ ٠

٤٦ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٧ ٠

٤٧ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٠ ٠

٤٨ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥٩ ٠

٤٩ ـ المصدر نفسه . ص ١٦٣ ٠

٥٠ـ Geschichte .... p. 39

٥١ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٩ ـ ٤٠ ٠

٥٢ ـ كان جوزيف بارکلي مبشراً في جمعية يهود لندن في اسطنبول ثم نقل رئيساً لبعثتها التبشيريه في القدس وأصبح المسؤول الأول في « كنيسة المسيح » فيها . وهو مؤلف كتاب :

Jerusalem, The city of Great King

Tibawi, A. L. : op. cit, p. 215, Alonzo, A. d', op. cit, p. 33

٥٣ـ Tibawi, A. L. : op. cit, pp. 215-6

٥٤ـ Benson, A. C. : The life of Edward White Benson, London, 1899, vol. 2, p. 163.

٥٥ـ Geschichte .... pp. 126-7, Tibawi, A. L. : op. cit, pp. 216-9 Alonzo, A. d' : op. cit, p. 34.

لمزيد من التفاصيل عن موضوع المفاوضات البروسية ـ الانكليزية انظر كتابي :

Anglican Bishopric in Jerusalem and the East, 1883-7. Benson's Diary, Bensons letters, Notes and Memoranda.

٥٦ ـ ولد شبتلر في فورتمبرغ وتلقى تعليمه فيها ثم رحل الى بازل في سويسرا عام ١٨٠١ حيث عمل سكرتيراً للجمعية الألمانية المسيحية عام ١٨٠٧ ٠ وسعى شبتلر منذ انشاء دار البعثة البازلية عام ١٨٥١ الى نشر نشاط البعثة في ألمانيا ٠

٥٧ـ Geschichte .... pp. 42-3 Richter, J. : op. cit, p. 261

٥٨ـ Geschichte .... p. 43, Richter, p. 262

٥٩ـ Geschichte .... p. 44

٦٠ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

٦١ـ المصدر نفسه ، ص ٤٦ .

٦٢ـ Richter, J. : op. cit, p. 263, Geschichte .... pp. 46, 48

٦٣ـ Geschichte .... pp. 49-50

٦٤ـ المصدر نفسه . ص ٥٠ .

٦٥ـ Richter, J. : op. cit, p. 244

٦٦ـ المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .

٦٧ـ Geschichte .... p. 94, Richter, J. : op. cit, p. 264

٦٨ـ Geschichte .... pp. 95-7

٦٩ـ المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

٧٠ـ المصدر نفسه ، ص ٩٩ .

٧١ـ المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .

٧٢ـ Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abteilung VII, po. 25, Palaestina, Bd. 1
Richter, J. : op. cit, p. 265

٧٣ـ Geschichte...., p. 97

٧٤ـ Richter, J. : op. cit, p. 267

٧٥ـ Geschichte .... p. 51

٧٦ـ المصدر نفسه ، ص ٥٢ ـ ٥٦ .

٧٧ـ المصدر نفسه ، ص ٥٦ ـ ٦٢ .

٧٨ـ Richter, J. : op. cit, p. 259, Geschichte .... p. 64

٧٩ـ Geschichte, pp. 65-6

٨٠ـ Richter, J. : op. cit, p. 260

٨١ ـ Geschichte ....pp. 67-69

٨٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠ ـ ٧٢ .
لم يتجاوز عدد سكان بيت جالا في نهاية القرن التاسع عشر أربعة آلاف نسمة .
Richter J. : op. cit, p. 260.

٨٣ ـ Geschichte .... pp. 73-5.

٨٤ ـ Richter, J. : op. cit, p. 260.

٨٥ ـ Geschichte .... pp. 77-8.

٨٦ ـ طاليا قومي كلمتان سريانيتان وردتا في الانجيل ونصهما : « يا صبية قومي » . فقد جاء في انجيل مرقس (الاصحاح الخامس : ٤١) « وأمسك بيد الصبية وقال لها طليثا قومي ، الذي تفسيره يا صبية لك أقول قومي » .

٨٧ ـ العارف . عارف : المسيحية في القدس ، ص ١٧٨ .

٨٨ ـ Geschichte .... p. 79.

٨٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٨٠ ـ ٨١ .

٩٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

٩١ ـ العارف ، عارف : المسيحية في القدس ، ص ٧٩ .

٩٢ ـ Geschichte .... pp. 83-4.

٩٣ ـ حول المستشفى المذكور الى مستشفى عسكري بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين عام ١٩١٨ ثم أعيد الى الألمان عام ١٩٢٤ ، العارف ، عارف : المسيحية في القدس ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

٩٥ ـ Geschichte .... pp. 127-8, Alonzo, A. d' : op. cit, p. 36

٩٦ ـ Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abteilung VII, PO. 25, Palaestina, Bd. 1, Deutsche Propst Rhein, Jerusalem, 12.4.1938.

٩٧ ـ كان قساً في مدينة توييننغ Toenning التابعة لدوقية شيلزفيغ في شمال المانيا .

٩٨ ـ Geschichte .... pp. 124-5

٩٩ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

١٠٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

١٠١ ـ المصدر نفسه . ص ١١٤ ـ ١١٨ .

١٠٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١٠١ ـ ١٠٧ .

١٠٣ ـ Richter, J. : op. cit., pp. 269-270, Geschichte .... pp. 110-111

١٠٤ ـ Richter, p. 269, Geschichte .... pp. 112-3

١٠٥ ـ سوف نأتي على دراسة هذه الجمعية والمستعمرات التي أنشأتها في فلسطين في بحث مستقل لأن عملها اقتصر على الاستيطان ولم يمتد الى التبشير .

١٠٦ ـ Geschichte .... pp. 136-7

١٠٧ ـ المصدر نفسه ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

١٠٨ ـ Richter, J. : op. cit., p. 270, Geschichte .... p. 119

١٠٩ ـ Richter, J. : op. cit, p. 270

١١٠ ـ Die Diplomatische Akten des Auswaertiges Amt, Bd. 12, Zweite Teil, Akt Nr. 3354, pp. 591-2.

انظر نص المعاهدة الفرنسية ـ العثمانية لعام ١٧٤٠ في :

Hurewitz, J. : Diplomacy in the Near and Middle East, D. van Nostrand, Princeton, New Jersey, 1956, vol. I, pp. 1-5.

١١١ ـ Geschichte .... pp. 25-26

١١٢ ـ Meinertz, G. : Ein Jahrhundert Kampf um den Besitz und die Erhaltung der Heiligen Staetten, Das Heilige Land, vol. III, 1914, p. 25, Eliav, M. : German Interests and the Jewish Community in the 19th Century Palestine, p. 428

١١٣ ـ Alonzo, A. d' : op. cit, pp. 43-6

١١٤ ـ L'Allemagne et le Proctectorat Francais, pp. 5, 10, 14, 23.

١١٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨ ، ١٩ .

١١٦ ـ العارف ، عارف : المسيحية في القدس ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

١١٧ ـ Die Diplomatische Akten des Auswaertiges Amt 1871-1914, Bd. 12, Zweite Haefte, Akt Nr. 3345, pp. 575-6.

١١٨ ـ العارف ، عارف : المسيحية في القدس ، ص ١٨٧ .

١١٩ ـ اعيد النزل للألمان بين عامي ١٩٢٧ ، ١٩٣٩ ، فاصبح داراً لاستراحة الرهبان . وتحول أثناء الحرب العالمية الثانية الى مستشفى للجنود الانكليز .
المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

١٢٠ _ Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abteilung VII, PO. 25, Palaestina, Bd. 1.

١٢١ _ Alonzo, A. d' : op. cit, pp. 50-51.

١٢٢ _ المصدر نفسه ص ٥٣ _ ٥٤ ٠

١٢٣ _ Die Diplomatische Akten des Auswaertiges Amt, Bd. 12/2 Akt Nr. 3352, pp. 590-591.

رسالة من وزير الدولة البروسي Bernard von Buelow الى الوزير المفوض البروسي لدى الكرسي البابوي Otton von Buelow برلين ، ٢٢ شباط ١٨٩٨ ٠

١٢٤ _ المصدر نفسه ، ص ٦١٨ _ ٦١٩ : رسالة سكرتير الدولة في وزارة الخارجية الألمانية Bernhard von Buelow الى وزارةالخارجية من Semmering من ١٨ايلول١٨٩٨ ٠

١٢٦ _ Hajjar, J. : L'Europe et les destinées du Proche Orient, Blond et Gay, Tournai (Belgique), 1970, p. 8

١٢٧ _ حول نشاط الجمعية انظر :

Schaefer, E. : Die Juden Vornemmlich. Eine geschichtlicher Ueberblick ueber die Arbeit des Gesellschaft zur Befoerderung des christentums unter den Juden zu Berlin, Berlin, 1913.

١٢٨ _ Hajjar, J. : op. cit, p. 9

١٢٩ _ المصدر نفسه ، ص ٥٥ ٠

١٣٠ _ المصدر نفسه ، ص ٣٧٥ ٠

١٣١ _ المصدر نفسه ٣٧٦ _ ٣٧٧ ٠

١٣٢ _ Eliav, M. : German Interests and the Jewish Community in the 19th Century Palestine, in « Studies on Palestine during the Ottoman Period, Jerusalem, 1975, p. 427.

١٣٣ _ Watti, M. : Analyse des Nationales Interesses am Beispiel der Deutsch-Arabische Beziehung, Bochum, 1976, p. 56.



التشريع الاقتصادي الإسلامي

ودور الإمام محمد بن الحسن الشيباني في إرساء دعائمه

د . سهيل زكار
جامعة دمشق

تميز المجتمع الأول الذي قام الاسلام في وسطه بسيطرة الروح التجارية عليه ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه شارك قبل البعثة بالأعمال التجارية ، ويلاحظ من قراءة السور المكية في القرآن مع مختلف مصادر تاريخ مكة قبل الاسلام وأثناء الدعوة اليه قبل الهجرة ، مدى انغماس المكيين في أعمال التجارة ، وكيف أن السعي وراء الكسب كان هدف جل رجالاتهم ، وذلك بلا ضوابط أو روادع ، ولهذا يمكن القول بأن الفترة المكية من تاريخ الاسلام كانت فترة صراع ضد التجار أكثر منها صراعاً دينياً ، ذلك أن مكة لم يكن فيها رجال دين ، ولا حكومة منظمة بل أديرت من قبل التجار وأصحاب الأموال .

هذا وقد أسهم المكيون في عدد من الأعمال ذات الصلة المباشرة بالتجارة ، مثل بعض الأعمال الزراعية خارج مكة ، وبعض الأعمال الصناعية مثل دباغة الجلود ، كما عقدوا المعاهدات التجارية واتفاقات للمرور .

وبعد الهجرة الى المدينة تغيرت طبيعة الأجواء التي عاشها المسلمون ، فالمدينة تميزت بطبيعتها الزراعية مع وجود بعض الحرف فيها التي مارسها اليهود من حدادة وصياغة وما ناظرها .

وعلى هذا الأساس عاش الاسلام في تاريخه المبكر تجربة اقتصادية شبه كاملة ، فيها تجارة وصناعة وزراعة وتربية مواشي وحيوانات ، وقام هذا الدين الحنيف بالتشريع لهذه الجوانب الاقتصادية ، ودون الوقوف طويلا عند مدى التجديد في التشريع الجديد ومدى الفوارق بينه وبين الأعراف التي كانت سائدة من قبل ، يكفينا القول أنه وجد في الاسلام أسس تشريع كامل منظم للحياة الاقتصادية ، كما أن قانون الحرب في

الاسلام قد تولى مسألة توزيع الغنائم وموارد الحرب ، ثم ان النظام الضرائبي قد عالج مسائل الجباية مع أوجه الصرف ٠

وهكذا عندما تأسست نواة الأمة الاسلامية الأولى في التاريخ ، وقام لها دولة الاسلام المركزية الأولى في المدينة كان هناك نظام اقتصادي شامل منظم لجميع أوجه الحياة ، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي عهد الخلفاء الراشدين ، ألم بهذا النظام بعض التطور ، خاصة اثر نجاح أعمال الفتوحات الكبرى ، فقد أزالت هذه الفتوحات الامبراطورية الساسانية من الوجود ، وحررت الشام ومصر ثم الشمال الافريقي من الحكم البيزنطي ، ونتيجة لهذا تبدلت صورة العالم سياسياً وعسكرياً ، وتغيرت معالمه الاقتصادية ، حيث تغيرت طرق التجارة ، وتبدلت مقاصد التجار وغاياتهم مع أنواع البضائع المتاجر بها ، فلم تعد كل الطرق تقود الى روما بل الى حواضر الاسلام ٠

لقد اعتبر بعض المؤرخين هذا الحدث من أخطر ما وقع في التاريخ الانساني ، وعده هنري بيرين البداية الحقة لقيام العصور الوسطى في أوربة ، ذلك أن أوزوبة طوقت الآن بحزام امتد عبر البحر المتوسط من الشرق الى الغرب ، وكانت طبيعة هذا الحزام جديدة من كافة الجوانب : الاقتصادية ، والثقافية ، والقانونية ، والبشرية ، واللغوية والحضارية العامة ٠

* * *

ومن المعلوم أن النظام البيزنطي كان قد اعتمد في العمل التجاري والاقتصادي على قواعد اختلفت عما كان موجوداً لدى الامبراطورية الساسانية ، ثم ان البيزنطيين تعاملوا بالوحدة النقدية الذهبية ، وفي المقابل تعامل الساسانيون بالوحدة النقدية الفضية ، ومع اتساع رقعة الدولة الاسلامية وبداية الاستقرار خاصة مع عصر عبدالملك بن مروان ظهرت الحاجة الى وحدة نقدية رسمية اسلامية ، وهكذا قام عبدالملك بن مروان بتعريب الدنانير مع الدواوين ٠

فعبد الملك بن مروان الذي يعد عن جدارة المؤسس الثاني للخلافة الأموية ، أدرك أن دولته التي أعاد توحيدها سياسياً ينبغي أن ترتبط بوحدة نقدية ، ونظام اداري واحد ، لهذا شرع في تعريب الدواوين ، وبهذا العمل يمكن القول بأن الدولة العربية المستقلة، أو بالحري المتميزة ،

جاءت فعلا الى الوجود ، وأن عمليات الفتح العسكري قد بدأت تتحول الى تغيير للأرض والانسان ، وهكذا حلت العربية الشمالية محل الاغريقية واللاتينية والفارسية ، وبذلك طويت صفحة طويلة من صفحات التاريخ القديم ، وبدأت صفحة جديدة ، هي صفحة العروبة وحضارة الاسلام ·

وتعريب الدواوين كان من معانيه أيضاً ايجاد طبقة ادارية عربية مثقفة وآذن ذلك ببداية عصر التدوين للآثار العربية والثقافة الاسلامية ، كما آذن بتعريب البلدان الاسلامية ، وساعد على ترويج دعوات المساواة واقامة الأمة الاسلامية الجديدة ·

وتوحيد المعاملات النقدية ، وايجاد صيغة تعادلية ثابتة بين الذهب والفضة وهو ما عرف عادة باسم « تعريب الدنانير » لا يقل أهمية عن مسألة تعريب الدواوين ، فالبلاد التي دخلت في حوزة المسلمين انتهى فيها الآن العمل بالأنظمة النقدية المختلفة ، ولقد كان لهذه الأنظمة قبل الغائها أسوأ الآثار على المعاملات التجارية والحياة الاقتصادية عامة ، كما كانت حائلا دون زوال الحواجز الاقتصادية وبالتالي معيقاً دون قيام وحدة اقتصادية للبلاد الاسلامية ، كما كان للاختلاف بالتعامل النقدي آثار سيئة على عمليات الجباية والصرف داخل الدولة ، ثم ان توضع معالم الاستقرار في الدولة الاسلامية ، والشروع في التميز الحضاري كشرط لنجاح التميز الديني فرض عدم متابعة ضرب النقود حسب طرائق الحكومات البائدة ، فالاسلام يجبّ ما قبله · ثم ان تحديد التعامل النقدي، وضرب الدينار من قبل الدولة أنهى فترة من الفوضى والاستغلال قامت بسبب الأعمال العسكرية ونتيجة لها ·

من هنا يمكن أن نرى بداية تغير الصورة الاقتصادية والحضارية للعالم القديم ، وتطويق أوربة الغربية حيث غرقت في ظلام العصور الوسطى ، بينما عاش سواها في ظل الحضارة العربية الاسلامية الوارف ·

ولقد فرض تطور الدولة الاسلامية ، واتساع رقعتها تطوير النظام الاقتصادي فيها ، ولا شك أن الخلفاء مع الفقهاء ورجال الشريعة والادارة قد تعاونوا في هذه المجالات ، وفي نفس الوقت حدثت تجاوزات اقتصادية كبيرة لروح الشريعة الاسلامية ، وقف الفقهاء منها موقف الناقد والمقوم ، وهكذا تجمع مع الأيام لدى المسلمين تراث تشريعي اقتصادي كبير ، ومع قيام حركة جمع التراث الاسلامي والعربي وتدوينه نالت المواد المتعلقة

بالجوانب الاقتصادية حظها ، وصنفت في أبواب خاصة في داخل المدونات من كتب الحديث وسواها، ومع قيام مدارس التشريع الاسلامية في القرن الثاني للهجرة وما رافق ذلك من انقلابات اقتصادية ، اهتم بعض المحدثين والفقهاء من هذه المدارس بالجوانب المتعلقة بالحياة الاقتصادية ككل أو جزء ، وهكذا جاء الى الوجود كتب الخراج والأموال ، مثل خراج يحيى بن آدم القرشي ، وخراج أبي يوسف ، والأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ، والصبغة العامة التي اتسمت هذه الكتب بها هي سمة مصنفات الحديث ، ورواية الآثار ، وارتبطت بالمواضيع الجبائية للدولة ، ولهذا نجد الحاجة كانت قائمة للتصنيف في ميادين الاقتصاد العامة ذات المساس بحياة الناس بشكل عام ، ولعل أشهر من كتب في هذا الميدان محمد بن الحسن الشيباني ، الذي قام في أواخر حياته بتصنيف رسالة في ميدان الاقتصاد العام ، عرفت فيما بعد باسم « كتاب الكسب » • وجاءت هذه الرسالة كأول محاولة في هذا الميدان باللغة العربية •



محمد بن الحسن الشيباني : وهو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني ولاءاً ، كان أصل والده من منطقة الجزيرة حيث كانت ديار شيبان ، لكنه لم يعش في الجزيرة ، بل في بلدة حرستا في أحواز مدينة دمشق ، ذلك أنه كان من الجند الشامي • وفي أواخر العصر الأموي انتقل الى مدينة واسط عاصمة العراق الأموي الأخيرة ، وفيها ولد له ولده محمد سنة اثنتين وثلاثين ومائة (٧٥٠ م) •

ويبدو أن والد محمد بن الحسن كان ثرياً ، وقد ترك سكنى مدينة واسط ، واستقر في مدينة الكوفة ، ويبدو أن ذلك كان اثر سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية ، وفي كوفة النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة ، كوفة أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، وكبار العلماء والفقهاء ورجال الأدب واللغة والحديث نشأ محمد بن الحسن الشيباني ، فلقي كبار رجال الفكر فاخذ عنهم ، ويروى أنه عندما «بلغت سنه أربع عشرة سنة حضر مجلس الامام أبي حنيفة ، ليسأله عن مسألة نزلت به ، فسأله قائلا : ما تقول في غلام احتلم بالليل بعدما صلى العشاء ، هل يعيد العشاء ؟ قال : نعم ، فقام وأخذ نعله ، وأعاد العشاء في زاوية المسجد » وكان هذا أول شيء تعلمه من أبي حنيفة ، ويروى بأن الامام عندما رآه يعيد الصلاة

أعجبه ذلك ، وقال : « ان هذا الصبي يفلح ان شاء الله تعالى » وكان الأمر كما قال ...

حيث « ألقى الله تعالى في قلبه حب التفقه في دين الاسلام » ودخل في روعه جلال مجلس الفقه ، فعاد الى حلقة أبي حنيفة يريد التفقه والتعلم ، فقال له أبو حنيفة : « استظهر القرآن أولا » لأن المتفقه في الشريعة الاسلامية في حاجة ماسة للقرآن والاحتجاج بآياته لأن للقرآن المنزلة الأولى في العقيدة الاسلامية ·

وغاب محمد بن الحسن عدة أيام عاد بعدها الى مجلس الامام أبي حنيفة وقد استظهر القرآن ، وابتدأ حظه بتوجيه سؤال جديد الى الامام ، فقال له الامام : أخذت هذه المسألة من غيرك أم أنشأتها من نفسك ؟ فقال محمد بن الحسن : بل من عندي فقال له أبو حنيفة : سألت سؤال الرجال ، أدم الاختلاف الينا والى الحلقة ·

من ذلك الحين بدأ محمد بن الحسن حياته العلمية ، فأقبل بكليته على فقه أبي حنيفة ، ووقف جل وقته على ملازمة حلقته يكتب المسائل وأجوبتها ، واستمر في حاله هذا أربع سنوات حتى توفي الامام أبو حنيفة ، وبعد ذلك تابع نيله لفقه أبي حنيفة على تلميذه وخليفته من بعده أبو يوسف ·

وكان أثناء هذا كله يختلف الى حلقات المحدثين وسواهم في الكوفة ، ويأخذ عنهم ، وعندما شعر بأنه استنفذ تحصيل معارف أهل الكوفة ، قرر الرحلة في طلب العلم ، وكانت شهرة امام أهل المدينة مالك بن أنس قد طارت ومعها شهرة كتابه الموطأ ، لذلك اتجه نحو شبه الجزيرة ، وفي المدينة تعرف الى الامام مالك وأخذ عنه ، وسمع منه الموطأ ودونه من سماعه ، وتعتبر رواية محمد بن الحسن للموطأ من أفضل الروايات له قدماً وصحة وضبطاً ، وحين دوّن محمد بن الحسن الموطأ دوّنه بترو في مدة ثلاث سنوات ، وذكر بعد كل حديث أو فقرة فقهية ما اذا كان ذلك يتفق مع فقه أبي حنيفة أم يختلف ـ وقد أتيح لي تفحص هذا العمل الجليل في نسخة خطية شبه كاملة من هذا الموطأ هي في حوزتي حيث يمكن وصف عمل محمد بن الحسن فيها بأنه محاولة رائدة في باب الخلاف الفقهي العالي ·

ومفيد أن نشير هنا أنه أثناء أخذ محمد بن الحسن على الامام مالك

جاء محمد بن ادريس الشافعي للأخذ على الامام مالك ، وبذلك حدث التعارف الأول بين الشيباني والشافعي .

وحج الشيباني الى مكة ، وهناك لزم كبار العلماء ، وأخذ عنهم مثل سفيان ابن عيينة وسواه ، كما أنه رحل الى الشام فأخذ عن الامام الأوزاعي ، وزار البصرة وخراسان آخذاً عن كبار العلماء .

وبعدما استكمل رحلاته عاد الى عراق الخلافة العباسية فاستقر في بغداد ، وطارت شهرته ، واختلف التلاميذ اليه ينهلون من علمه ، وقام الخليفة الرشيد بتوليته القضاء ، وأثناء ولايته لهذا المنصب لقيه الامام الشافعي ثانية ، حيث حدث أن الشافعي حمل من نجران الى الرشيد مكبلا بالحديد متهماً بالتآمر السياسي ، وجرت محاكمته بحضرة الخليفة وحضور القاضي محمد بن الحسن الشيباني مما سهل أمر اطلاق سراحه ، وانقاذه من ظلام الوظيفة واعادته الى نور العلم حيث أن الشافعي قام بالتزام الشيباني لمدة عامين تقريباً أخذ عنه فيهما فقه أهل العراق .

ويبدو أن الامام محمد بن الحسن لم يمكث في القضاء طويلا حيث تخلى عنه واعتزل العمل الاداري ، ووقف نفسه على الفقه تعليماً وتصنيفاً ، وبعمله هذا بنى عملياً مذهب أبي حنيفة ، ذلك أن التراث الفكري المدون لفقه أهل العراق جله من انتاج الامام الشيباني الذي يمكن اعتباره لهذا الباني الفعلي للمذهب الحنفي .

لقد جاء طلاب العلم الى الامام الشيباني من مشارق العالم الاسلامي ومغاربه، وكان أبرز من أخذ عليه من أهل الغرب الاسلامي أسدبن الفرات، فاتح صقلية ، وصاحب المدونة الأولى في تاريخ الفقه المالكي ، حيث أن مدونته هي أصل مدونة الامام سحنون الشهيرة .

لقد تحدث أسد بن الفرات عن اتصاله بالامام مالك ثم سفره الى العراق حيث لزم محمد بن الحسن الشيباني ، وذكر أنه قال في احدى المناسبات : « اني غريب قليل النفقة ، والسماع منك نزر والطلب عندك كثير فما حيلتي » ؟ فقال لي : « اسمع من العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل وحدك فتاتي فتبيت عندي وأسمعك » قال أسد : « فكنت أبيت عنده، وكنت (معه) في بيت في سقيفة ، وكان يسكن العلو ، فكان ينزل الي ، ويجعل بين يديه قدحاً فيه ماء ثم يأخذ في القراءة ، فاذا طال عليه الليل

ورآني قد نعست ، ملأ يده ونضح به في وجهي ، فأنتبه ، وكان ذلك دأبي ودأبه حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه » ·

في هذا الحديث صورة رائعة تعبر عن مدى حرص الامام محمد بن الحسن الشيباني على مساعدة طلاب العلم خاصة الغرباء منهم ، وتكتمل بعض جوانب هذه الصورة وتزداد روعة فيما ذكره أيضاً أسد بن الفرات بقوله : وكنت يوماً جالساً في حلقة محمد بن الحسن ، حتى صاح صائح الماء للسبيل ، فقمت مبادراً فشربت من الماء ، ثم رجعت الى الحلقة ، فقال لي محمد بن الحسن : يا مغربي شربت ماء السبيل ؟ فقلت : أصلحك الله ، وأنا ابن سبيل ، قال : ثم انصرفت ، فلما كان الليل اذا بانسان يدق الباب فخرجت اليه ، فاذا خادم محمد بن الحسن ، فقال : مولاي يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : ما علمت أنك ابن سبيل الا في يومي ، فخذ هذه النفقة فاستعن بها على حاجتك ، ثم دفع الي صرة ثقيلة ، فقلت في نفسي : هذه كلها دراهم ، ففرحت بها ، فلما دخلت منزلي فتحتها فاذا فيها ثمانون ديناراً(١) ·

لا يعلم بين سير الأئمة الا ندرة صبروا صبر محمد بن الحسن في تعليم تلاميذه ، وآثروهم في الانفاق والوقت ، ولا عجب ، فالشيباني كان اماماً عاملا آمن بالاسلام عن فهم وعقل، واتخذ سيرة النبي المصطفى مثله الأعلى·

لقد زق محمد بن الحسن أسد بن الفرات بالعلم زقاً ، وكان الامام مالك قد توفي · وفي طريق عودته الى القيروان حمل معه زاداً عظيماً دونه في كتاب عُرف بالمدونة الأسدية ، وهي كما أشرت أصل مدونة سحنون، وعليها قام فقه المالكية ، وهكذا نرى الأثر العظيم لمحمد بن الحسن اسلامياً شاملا ، فهو الباني الفعلي للمذهب الحنفي ، وهو من جهة ثانية أستاذ الامام الشافعي ، ومن طرف ثالث أستاذ أسد بن الفرات ، ولا عجب أن قال عنه الامام الشافعي : « لو أشاء أن أقول نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن لقلت ، لفصاحته، وقد حملت عنه وقر بختي كتباً» وقال : «مارأيت أحداً يُسأل عن مسألة فيها نظر الا تبينت الكراهة في وجهه الا محمد بن الحسن »(٢) ·

---

١ ــ رياض النفوس للمالكي ــ ط · القاهرة : ١/١٧٣ ــ ١٧٦ ·
٢ ــ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ٢/١٧٥ · فوات الوفيات لابن أيبك : ٢/٣٢٣ ·

وكما سلفت الاشارة عمل الامام محمد بن الحسن في القضاء فترة وجيزة ، وكان له علاقات بالخليفة الرشيد ، انما يلاحظ أن هذه العلاقات ظلت متوازنة ، حافظ فيها على رونق العلم ، وجلالة العلماء ، فقد ذكر أحد معاصريه قال : « كنا مع محمد بن الحسن ، اذ أقبل الرشيد ، فقام اليه الناس كلهم الا محمد بن الحسن ، فانه لم يقم ، وكان الحسن بن زياد ثقيل القلب ، ممتلىء البطن على محمد بن الحسن ، فقام ودخل الناس من أصحاب الخليفة ، فأمهل الرشيد يسيراً ، ثم خرج الآذن ، فقال : محمد بن الحسن ، فجزع أصحابه له ، فأدخل فأمهل ، ثم خرج طيب النفس مسروراً ، فقال : قال لي : مالك لم تقم مع الناس ؟ قلت كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها ، انك أهلتني للعلم ، فكرهت أن أخرج منه الى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه ، وان ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار » وأنه انما أراد بذلك العلماء ، فمن قام بحق الخدمة واعزاز الملك فهو هيبة للعدو ، ومن قعد اتبع السنة التي عنكم أخذت ، فهو زين لكم ، قال : صدقت يا محمد » .

كان محمد بن الحسن قوي الذاكرة ، شديد الوعي ، سريع البديهة ، أتقن صناعة القياس واستخدام الرأي بشكل بارع للغاية ، انما في حدود الشريعة وفي نطاق معطياتها ، قبل بأنه لما اتصل بالامام مالك سأله : « ما تقول في جنب لا يجد الماء الا في المسجد ؟ فقال مالك : لا يدخل الجنب المسجد ، قال : فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة ، وهو يرى الماء ؟ قال : فجعل مالك يكرر : لا يدخل الجنب المسجد ، فلما أكثر عليه : قال له مالك: فما تقول أنت في هذا ؟ قال : يتيمم ويدخل فيأخذ الماء من المسجد ، ويخرج فيغتسل . قال : من أين أنت ؟ قال : من أهل هذه ــ وأشار الى الأرض ــ فقال : ما من أهل المدينة أحد لا أعرفه ، فقال : ما أكثر من لا تعرف ، ثم نهض ، قالوا لمالك : هذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، فقال مالك : محمد بن الحسن كيف يكذب ، وقد ذكر أنه من أهل المدينة ؟ فقالوا : انما قال : من أهل هذه ، وأشار الى الأرض ، قال : هذا أشد علي من ذاك »(٣) .

توفي محمد بن الحسن سنة تسع وثمانين ومائة (٨٠٤ م) في مدينة الري ــ قرب طهران الحالية ــ وقد كان خصب الانتاج ، وهو بسبب ذلك

٣ ــ تاريخ بغداد : ١٧٤ ــ ١٧٥ .

اعتبر فقيه مدرسة العراق الأعظم مكانة ، ومدون تراث هذه المدرسة ، وقد كتب محمد بن الحسن عدداً كبيراً من الكتب وقفها على مواضيع فقهية عامة متعددة ، كما كتب بعض الرسائل وقف كل منها لموضوع فقهي خاص ، وكان آخر ما كتبه قبيل وفاته كتاب الكسب ·

* * *

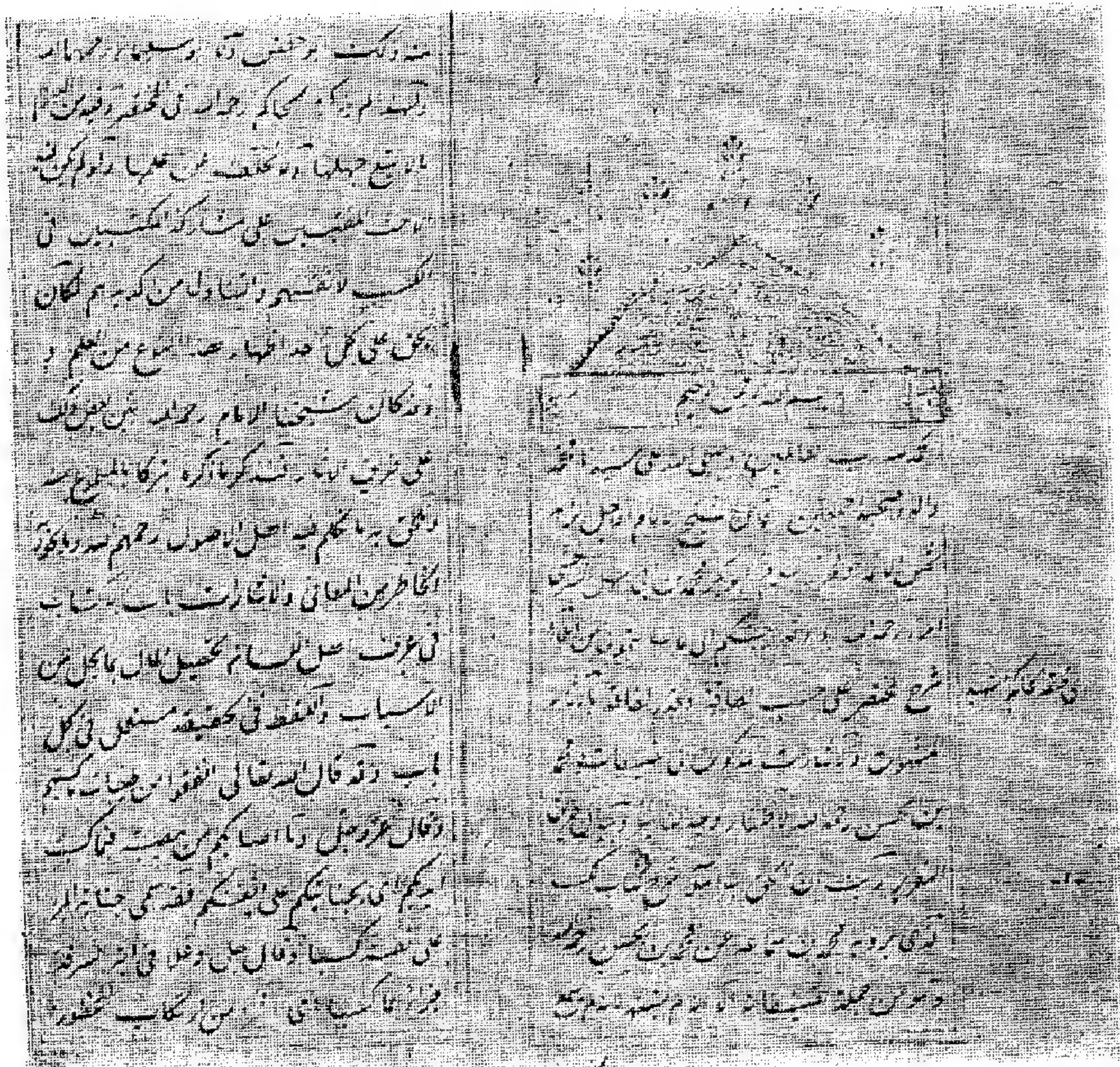
كتاب الكسب

روى هذا الكتاب عن محمد بن الحسن تلميذه محمد بن سماعة التميمي ، كما شرحه فيما بعد الامام السرخسي كما شرح غيره من كتب الشيباني ، لكن جاء شرحه منفصلا ولم يدخله في مجموعة المبسوط العملاقة ·

لقد جاء هذا الكتاب بالأصل صغير الحجم ، أملاه صاحبه على طريقة الآثار ، وكان من دوافعه الى تصنيفه ، وذلك بالاضافة الى تلبية الحاجة ، الرد على حركة الزهد الأعجمي التي نشطت في القرن الثاني للهجرة مع نشاط الديانة المنانية (حركة الزندقة) والحركة الشعوبية ، كما حوى بعض الردود على جماعة القدرية ، وفي مسار الردود هذه استعرض الشيباني مشكلة الكسب وموقف الشريعة منها ، مبينا أوجه الحلال والحرام مع طرائق وقوانين الكسب ، مستشهداً خلال ذلك كله بالعديد من الآيات والأحاديث والآثار المروية ·

ولعل من الأفضل قبل الاستطراد في الحديث عن محتويات هذا الكتاب بشكل مفصل أن نبين ، أن كتاب الشيباني هذا عظيم القيمة ، لأنه يحوي خلاصة فكر باني المذهب الحنفي ، ومواقفه خاصة مشكلة الحرية في التصرف الاقتصادي وحق السلطة في التدخل والتسعير ، ثم كما قلت سابقاً هذا الكتاب المبكر التاريخ هو المحاولة الأولى في العربية في بابه ·

لقد صنف هذا الكتاب في مرحلة مبكرة للغاية في تاريخ الأدب العربي ، لهذا تميز بعدة مزايا ، فجاء عرض موضوعاته كتلة واحدة ، ثم أن المصنف لم يقم بتقسيم الكتاب الى عدة أقسام يتناول في كل منها واحداً من المواضيع ، بل نراه يقوم بتناول الموضوع الواحد في أكثر من مكان ، وعدة مرات بشكل موجز أو واسع ·



الصفحة الأولى من المخطوط

في مطلع الكتاب تعرض المصنف الى تعريف « الكسب » فقال : الاكتساب « تحصيل المال بما يحل من الأسباب » وهنا تحدث بشكل عام عن جوانب الاكتساب وضرورة القيام به ، كما بين أنواع المكتسبات بشكل عام ، ودعم ما ذهب اليه بعدد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، مبيناً أن لفظ « الاكتساب » بشكل عام يتناول المال ، ولكن الانسان قد يكسب أشياء كثيرة غير المال منها ما يفيد بها نفسه ، ومنها ما يضرها به ·

ان العصر الذي عاش فيه محمد بن الحسن الشيباني قد تميز بالصراعات بين عدة تيارات دينية وفكرية ، فقد شهد هذا العصر محاولات الديانات التي كانت موجودة قبل الاسلام للعودة الى النشاط بشكل صريح ومباشر أو شكل غير مباشر ، وكان من أهم هذه الديانات « الديانة المنانية »

التي جاء بها ماني في القرن الثالث للميلاد ، والتي مزج فيها بين تعاليم الزرادشتية والمسيحية والغنوصية واليهودية وسواها ، وعرف نشاط هذه الديانة عند المسلمين باسم حركة الزندقة ، وحاربت الزندقة ضد الاسلام بشكل مباشر ، أو عن طريق الشعوبية ، أو بواسطة ايجاد حركة زهد منانية المحتوى ، اسلامية المظهر ، سلبية السلوك ، تريد انهاء الحياة بالغاء العمل والكسب ، وبالأخذ بعدم الحركة والخمول الى غير ذلك ٠٠٠

وقد تجرد عدد كبير من علماء العرب للرد على « المنانية » والتصدي لما قدمته بشكل مباشر أو غير مباشر من أفكار ، ويمكن أن ننظر الى كتاب الكسب ومشكلة المحرض على تصنيفه من هذه الزاوية ٠

روى المصنف في مطلع الكتاب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « طلب الكسب فريضة على كل مسلم كما أن طلب العلم فريضة » وبين بشكل فيه نظرة اجتماعية واسعة قائمة على المزج بين المفاهيم الدينية والدنيوية فقال : طلب الكسب يمكن من أداء الفرائض بقوة البدن ، لأن الكسب يجلب القوت ، ولتحصيل القوت طرق هي : « الاكتساب ، أو التغالب أو الانتهاب » وبالانتهاب يستوجب الانسان العقاب ، وفي التغالب فساد ، وعلى هذا « في الكسب نظام العالم » « وفي تركه تخريب نظامه » ٠

ويتم الاكتساب بالكد والتعب ، وهنا تأتي منافع الاكتساب عامة وضرورية ، فالزارع يكسب لنفسه ، لكنه يفيد بأنتاجه الجماعة ، والصانع يفعل نفس الشيء ، ولا يمكن أداء العبادات بدون كسب ، فالصلاة مثلا تقتضي الوضوء ، والمتوضىء يحتاج الى الماء ، والماء لا بد له من وعاء يوضع به ، كما أن المصلي يحتاج الى الثوب لأنه لا يمكنه أداء الصلاة عارياً ، وعلى هذا كان العمل للكسب فرضاً « لأن مالا يتأتى اقامة الفرض الا به يكون فرضاً في نفسه » ٠

والكسب يكون بواسطة أربعة أصناف من العمل هي « الاجارة والتجارة ، والزراعة والصناعة » وقد بين ابن الحسن أن بعض الناس يفاضل بين هذه الأصناف ، والبعض الآخر يراها متساوية ، ومسألة المفاضلة هذه يمكن أن نرى فيها صدى للصراع بين طبقات المجتمع أيام تصنيف الكتاب ٠

وقد أوضح الامام الشيباني بأن المجتمع بحاجة الى جميع الأصناف ،

ونظرا لذلك فالمفاضلة باطلة ، وهنا تعرض المصنف الى مسألة خطيرة ، وخاصة على صعيد الحرية المطلقة في المذهب الحنفي ·

فأبو حنيفة مؤسس هذا المذهب كان بالأصـل تاجراً ، ولهـذا آمن بالحرية التجارية ، وبعدم جواز تدخل الدولة في أي جانب من جـوانب العمل التجاري ، خاصة قضية التسعير حيث أن المسعر هو الله ·

بعدما بين الامام الشيباني أن الكسب مباح ، لا بل هو فرض . طرح سؤالا محتواه : الى أي حد على الانسان أن يعمل ليكسب ؟ فقـال : ان البعض يرى أن الكسب مباح بلا حدود ، وقام هو برفض هذا الـرأي ، وبين أن رأي جمهورالفقهاء أن الكسب ينبغي أن يكون فقطفي حدود الحاجة والمنفعة الخاصة العامة ، وأوضح أن في انصراف الانسان في جميع أوقاته للكسب خروج على أوامر الله وما تحتاجه الحياة من توازن وتوزيع للجهود والوقت ، فالانسان مندوب للعبادة مفروض عليه التفرغ للعلم ، والاقبال على العلم فيه عظيم المنافع للناس جميعاً ·

وفقط « الكسب بقدر ما لا بد منه فريضة » وما تجاوز الحاجة يغدو جناية ، وما لا بد منه هو تأمين الكفاية للنفس والعيال والأهل ، بما يقيم الأود ويسد الحاجة ، ويزيل الدَّين ، وفي هذا المقصد روى المصنف عـن أبي ذر الغفاري قوله : « أفضل الأعمال بعد الايمان الصلاة وأكل الخبز ، ولولا الخبز ما عبد الله تعالى » ·

ان الانصراف المطلق الى الكسب أي تحصيل المال وجمعه فيه اخلال بنظام الحياة ، ذلك أن ثروات الدنيا تكفي فقط الناس جميعاً ، واحتكار البعض زيادة عن الآخرين فيه اخلال بالتوازن لا يجوز الرضى به والسكوت عنه ، وبعد هذا استطرد الامام الشيباني ليوازن بين الفقر والغنى ، فبين أن كثيراً من الناس يفضل الغنى والأغنياء ، وهنا أوضح أن هذا انحراف ذلك أن في الغنى طغيان ، واستشهد بقوله تعالـى : « كلا ان الانسـان ليطغى » (العلق : ٦) وقوله سبحانه : «الذين طغوا في البلاد»(الفجر:١١) وقال : ان القناعة خير من الفقر والغنى « ولو أن الناس قنعوا بما يكفيهم وعمدوا الى الفضول فوجهوهـا لأمر آخرتهـم كان خيراً لهم » ذلـك أن « ما زاد على ما لا بد منه يحاسب المرء عليه » وفي جميع الأحوال في الكسب لتحصيل الغنى استرسال في اتباع الشهوات ، وصحيح أنه « زين للنـاس حب الشهوات » (آل عمران : ١٤) ولكن الذين « اتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » (مريم : ٥٩) ·

ان في هذا التفكير ليس عدول منهجي عظيم في فقه المذهب الحنفي وانما ريادة مبكرة في التشريع الاجتماعي ـ أو ما يدعى حالياً باسم النظرة الاشتراكية ـ وهي نظرة اسلامية أصيلة ، قدم المصنف بعض جوانبها الأخرى حين تحدث عن أن المجتمع لا بد من أن يوجد فيه من يحتاج الى اطعام وكساء وغير ذلك ، نظراً لعجزه لاقعاد السن له ، أو لمرض معوق ، وهنا قال كما يفترض على امة فداء من يقع من أفرادها في أسر الأعداء عليها « اطعام المحتاج في الوقت الذي يعجز عن الخروج والطلب » وأوضح ابن الحسن في هذا المجال أنه « لا يجوز للقادر السؤال ولا الأخذ » بل عليه الكسب ٠

وبعد ما عرض لمسائل الكسب ، تعرض الامام الشيباني لقضايا الانفاق ، فالله تعالى بعد ما حض على الكسب ، أمر عباده بالانفاق بقوله : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم » (البقرة : ٢٦٧) وهنا على الانسان عدم الاسراف في الطعام والاستكثار من المباحات والألوان ، فمن « الاسراف أن يضع المرء على المائدة من ألوان الطعام فوق ما يحتاج اليه للأكل ٠٠٠ ومن الاسراف أن يأكل وسط الخبز ويدع حواشيه ، أو يأكل ما انتفخ من الخبز ٠٠٠ ومن الاسراف التمسح بالخبز عند الفراغ من الطعام » ٠٠٠

وكما يتصرف المرء تجاه الطعام عليه أن يفعل في الملبس والمسكن وغير ذلك مما يرتبط بالحياة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد « نهى أن يلبس نهاية ما يكون من الحسن والجودة في الثياب على وجه يشار اليه بالأصابع » بل أوصى بلبس الثوب الجيد وترك السيء لأن الأصل في الثوب ستر العورة ودفع أذى الحر والبرد ، وكان صلى الله عليه وسلم يهتم في عامة أوقاته بالنظافة والانسجام ، ويرتدي في المناسبات من أعياد ومواسم بعض الثياب الرائعة ٠

وأثناء عرض المؤلف لمشكلة الطعام واللباس يمكن استخلاص بعض الصور الحضارية عن حال المسلمين في القرن الثاني للهجرة والتعرف الى أنماط من مشاكلهم آنذاك ، فهم مثلا كانوا يتجادلون حول بناء المساجد وزخرفتها والتأنق في المآذن مع مشاكل التجصيص للبيوت والمساجد ومشاكل استخدام الأثاث وأنواعه الى غير ذلك مما هو ثمين للغاية للمؤرخ الحضاري ٠

وكما سلفت الاشارة ان جميع ما عرضه الامام ابن الحسن جاء من أحد الجوانب رداً على أصحاب تيار الزهد الأعجمي ، لم يكتف بهذا بل قام بالرد المباشر وذلك بعد عرض لأقوالهم وأفكارهم بقوله : « وقال قوم من جهال أهل التقشف وحماقى أهل التصوف : ان الكسب حرام لا يحل الا عند الضرورة بمنزلة تناول الميتة ... » .

ولقد جاءت ردوده المباشرة مفحمة اعتمد فيها النقل والعقل حيث قدم عدداً من الآيات والأحاديث النبوية التي تأمر بالكسب وتحض عليه ، ثم ذكر بأن الكسب هو طريق المرسلين ، ونحن قد أمرنا بالاقتداء بهم ، فآدم كان مزارعاً ، ونوح كان نجاراً ، وابراهيم كان بزازاً ، وداود عمل في صناعة الدروع ، وزكريا كان نجاراً ، وعيسى كان يأكل من أجر غزل أمه ، والنبي محمد عمل في التجارة وغير ذلك مثل رعاية الأغنام ، ثم ان الصحابة جميعاً كانوا يكسبون ، فأبو بكر كان بزازاً ، وكان عمر يعمل بالأدم (الجلد) وعثمان كان تاجراً ، وقد أجر عليٌ نفسه أكثر من مرة ليكسب قوت يومه .

والانسان على الرغم من الاقرار بأن الله قد قدر رزقه ، ولاراد لقدر الله ، يفترض عليه الكسب ، فالمؤمن مطلوب منه الدعاء مع القدر ، والنبي كان يدعو الله لنفسه ولأصحابه بالمغفرة والجنة رغم معرفته بأنه سيدخل الجنة ، ومعلوم أننا مطلوب منا استعمال الدواء أثناء المرض ، رغم أن الشافي هو الله جلت قدرته .

وبعد هذا التفت الى أهل الزهد الأعجمي وخاطبهم بهزء وازدراء ونعى عليهم قبولهم طعام من أطعمهم من أهل الكسب ، كل هذا رغم أن الكاسب قد اقترف الحرام بكسبه ... المسألة ليست كذلك ، انها كسل وذل ، وسعي ليدخل الى الاسلام ما ليس منه .

★ ★ ★

ومن قراءة أواخر رسالة الكسب يلاحظ أن الامام ابن الحسن بعدما فرغ من تصنيف رسالته في « الكسب » أراد أن يصنف رسالة خاصة في الورع ، وبالفعل شرع بذلك لكن بعدما مضى في عمله قليلا « اعترض له داء فجف دماغه ولم يتم مراده » ...

بين التاريخ الجغرافي والجغرافية التاريخية
للوطن العربي

مصطفى الحاج إبراهيم
الموجه الأول للجغرافية في وزارة التربية

مفهوم الوطن العربي : كان مفهوم الوطن العربي أو مصطلحه ، حتى عهد ليس ببعيد ، غريباً حتى على بعض المثقفين ، الذين لم يكونوا ليدركوا حدوداً له ، أو مضموناً واضحاً ! هل هو الجزيرة العربية ؟ أو المشرق العربي أو آسية العربية ، أو دول الجامعة العربية التي نما عددها فاصبح ثلاثة أمثاله منذ انشاء الجامعة عام ١٩٤٥ ...؟

صحيح أن الوطن يعني أرضاً من جهة ، وشعباً معيناً يقطنها ، من جهة أخرى . ولكن وعي حدود تلك الأرض كان من ثمرات السنوات القليلة الماضية ، مع تصاعد الوعي القومي العربي ، رغم أنه كان معروفاً منذ عهد بعيد ، أن هناك شعباً ، أو أمة تدعى العرب ، غير أن مدى انتشار تلك الأمة جغرافياً في الأرض ظل غامضاً ، وظلت معه حدود الوطن العربي غامضة أيضاً ومتباينة في درجة وعيها بين قطر عربي وآخر . وساعد في اختلاط تلك الحدود ، وجود نطاق محيط بالوطن العربي ، يشارك سكانه العرب في الاسلام الذي كتابه القرآن ولغته العربية ، والذي عمل العرب أنفسهم على نشره فيما حولهم قريباً أو بعيداً .

لذا وحتى الحرب العالمية الأولى ، وكان قد مضى على النهضة القومية العربية الحديثة في المشرق العربي قرابة نصف قرن ، كان مسمى « البلاد العربية » هو السائد بين أهل المشرق ، لكنه كان قاصر المدلول . ففي المراسلات المتبادلة بين شريف الحجاز حسين ، نائبا عن العرب ، وبين بريطانية الممثلة لدول الحلفاء ، كانت حدود البلاد العربية ، المطالب

★ لا مجال هنا لشرح قد يقتضي الاسهاب لمدلولي التاريخ الجغرافي ، والجغرافية التاريخية المختلفين ، ويكفي ان اقول هنا ان البحث محاولة للجمع بين النظرتين : الجغرافية والحضارية ، للوطن العربي .

باستقلالها ، تشمل فقط جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ؛ اذ جعلت حدودها المحيط الهندي جنوباً ، وجبال طوروس شمالاً ، والبحر المتوسط غرباً ، وجبال زاغروس شرقاً • وهكذا تركت افريقية العربية بكاملها خارج الحدود المقترحة ، وعلى الأقل منها وادي النيل (مصر والسودان)، وأقطار المغرب العربي •

زد على ذلك أن الثورة العربية الكبرى على العثمانيين ــ وفي اطار العزلة التي كانت مفروضة على الأقطار العربية المختلفة ــ لم تلق صدى تجاوب كبير في تلك الأقطار الواقعة في افريقية • ومرد ذلك الى الاختلاط الآنف الذكر بين ما هو عربي وما هو مسلم • ولذا ظل ما وجد من تعاطف محصوراً في بعض الأوساط المستنيرة ، حتى أننا وجدنا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، وهزيمة الدولة العثمانية ، وبين عرب مصر والمغرب العربي ، من ينشد لمصطفى كمال أتاتورك « يا خالد الترك جدد خالد العرب » • ويبدو أنه لم يكن قد وصل الى علمهم أو وعيهم ، أن ذلك الرجل كان من غلاة المتعصبين ضد العرب في جمعية الاتحاد والترقي ، والمخطط للطغيان على الحدود العربية في كيليكية والجزيرة العليا ، والخالع عن نفسه رداء الحضارة الاسلامية ، لأن نسيجه كان عربياً •

ورغم مرور وقت غير قصير على ذلك العهد ، فما زالت آثار الاختلاط قائمة بين ما هو عربي ، وما هو مسلم ، للدرجة أن العربي اعتبر مسلماً ، والمسلم عربياً في كثير من الأقطار العربية ، وحتى الأجنبية •

أما في مجال المصورات الجغرافية للوطن العربي ، فكانت تعكس من قريب أو بعيد الأوضاع آنفة الذكر ، فتختلط مع خرائط العالم الاسلامي• ويجدر التنويه هنا بالجهود العلمية والتربوية التي بذلك في سورية ، على مستوى التعليم الجامعي وما قبل الجامعي ، لوضع الملامح الأولى لمصور حدود الوطن العربي خلال الخمسينات من هذا القرن ، وفي نطاق انبعاث الوعي القومي العربي ، والذي جرى تبنيه في الجمهورية العربية المتحدة بين سورية ومصر ، ثم أخذ ينتشر الى الأقطار العربية الأخرى بدرجات متفاوتة من الوعي ، • ولذا فما زال مطلوباً من المؤسسات القومية والسياسة في الوطن العربي ، اصدار مصور معتمد للحدود العربية ، ما دام الهدف القومي الرئيسي للعرب اقامة وحدة عربية شاملة ، في نطاق دولة عربية كبرى • نقول ذلك لأننا ، حتى هذا اليوم ، نجد بعض الخرائط الخاصة بالوطن العربي لا تدخل موريتانية والصومال واريترية ضمن

حدود ذلك الوطن ، مع أن الأولى والثانية دخلتا الجامعة العربية ، وكثير من تلك الخرائط يتجاهل أيضاً أن مناطق الجزيرة العليا وكيليكية والاسكندرونة وعربستان « الأحواز » ، كلها واقعة ضمن حدود الوطن العربي • ونسي العرب تاريخهم الذي يؤكد أن أهم مدن الجزيرة العليا وكيليكية ، مثل مرعش وطرسوس والمصيصة والهارونية وديار بكر ، وغيرها ، كان أجدادهم قد أسسوها لحراسة التخوم ، التي كانت حمايتها احدى الواجبات الأساسية للدولة العربية ، سواء في المشرق أم المغرب •

من هنا كان الهدف الأساسي لهذه الدراسة القاء أضواء على الحدود العربية عبر المكان والزمان ، على أساس من المعطيات العلمية ، لأننا نعتقد أن هذه الدراسة للحدود تقدم الاطار الضروري لجغرافية الوطن العربي وتاريخه ، كما تجعل مفهوم الوحدة أرسخ جذوراً ، اذ يستمد نسغه من تراب الأرض وحضارة الانسان في هذا الجزء الخطير من العالم •

حدود الوطن العربي :

سوف لا ننظر الى الحدود من حيث كونها خطوطاً مرسومة على الخرائط السياسية ، بل معالم وجود طبيعي وثقافي حضاري ، أسهمت في تكوينه عبر التاريخ ـ بمفهومه الزمني الواسع ، أي تاريخ الأرض ، وليس بمفهومه التاريخي الضيق ـ مجموعة من العوامل الطبيعية والبشرية التي يمكن أن تقدم تفسيراً لكثير من الأمور الثقافية الغامضة للمنطقة العربية ، لا انطلاقاً من مذهب سياسي أو احساس عاطفي ، بل من وقائع جغرافية وتاريخية موضوعية ، كان مسرحها الأربعة عشر مليوناً من الكيلومترات المربعة التي تشكل المساحة الراهنة للوطن العربي •

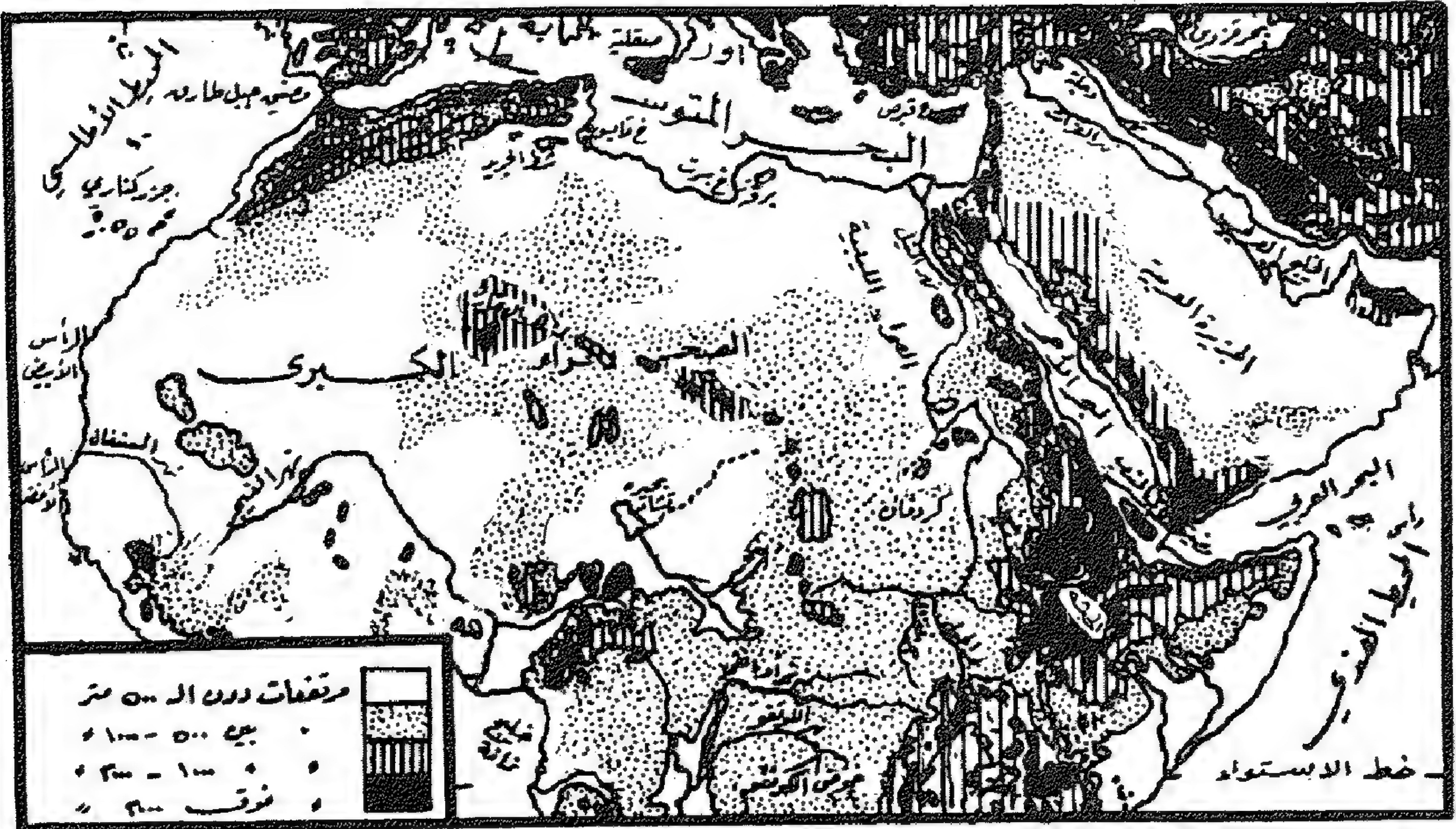
١ ـ العوامل الطبيعية :

لسنا من أنصار نظرية الحتم الجغرافي التي تجعل الانسان أسير العوامل الطبيعية ، ولكن يلاحظ ، من خلال التاريخ الجيولوجي المتأخر للرقعة العربية ، وما رافقه من تحولات في الأرض وفي المناخ ، ان هذين العاملين لعبا الدور الممهد للمسرح البيئي الذي نشط فيه الانسان حضارياً في المنطقة •

آ ـ ظهور الأرض الحادة أو الحدود الجغرافية : وقد حدثت نتيجة للتطورات الجيولوجية التي حدث معظمها في عصور سابقة لظهور الانسان (الذي لا يرجع وجوده حسب المعلومات الأخيرة الى أكثر من ثلاثة

ملايين عام) حيث توافر للعتبة القديمة المنبسطة التي تتألف منها أرض الوطن العربي اليوم ، والممتدة من هضبة ايران شرقاً الى المحيط الأطلسي غرباً ، اطار جبلي وبحري في معظم الجهات ، في تناسق وتكامل ملفتين للنظر في مثاليتهما • ففي الشمال والشمال الغربي يمتد البحر المتوسط من مضيق جبل طارق حتى خليج مرسين، حيث تؤلف جبال طوروس، في الشمال منه ومن سهول كيليكية الساحلية مغلاقاً على شكل قوس يفصل بين الأناضول وباقي العتبة العربية ، يتعذر اجتيازه الا من الممرات المسماة بوابات كيليكية • ثم تستمر أقواس الجبال الطوروسية حتى منطقة كردستان ، بصورة تحجز شمالي بلاد الشام والعراق عن الأناضول وهضبة أرمينية ، ويكتمل القوس الهلالي الشكل ، بامتدادات جبال زاغروس وفارس ، بين العراق والخليج العربي من جهة ، وايران من جهة أخرى ، حتى نبلغ مضيق باب السلام (هرمز) حيث تنغلق الجبال من جديد على الساحل وتصبح مياه المحيط الهندي حداً طبيعياً من الجنوب الشرقي للوطن العربي •

تلك العوائق الجبلية آنفة الذكر شكلت في الواقع حداً قلما تعدته الدول أو الامبراطوريات التي قامت عند التخوم الشمالية للوطن العربي ،



الوضع التضريسي العام للوطن العربي

أو التي بلغته في توسعها من الجنوب الى الشمال أو من الشمال الى الجنوب، مثل الآشوريين والبابليين والتدمريين والدولة العربية الاسلامية ، وما تفرع عنها ، وحتى الدول الخارجية الأجنبية مثل الحثيين ينطبق عليها الشيىء نفسه • وعندما تعدى العرب المسلمون هذه الحدود في نشر دعوتهم ، لم يستقروا وراءها الا لفترة قصيرة ، وبأعداد غير كبيرة •

أما من الغرب ، فالمحيط الأطلسي ما زال يشكل الحدود منذ أواخر الزمن الجيولوجي الثالث ، من مضيق جبل طارق (رغم أن هذا المضيق أحدث عهداً) الى مصب نهر السنغال ، الذي ينبىء ببداية المنطقة المدارية، الى الجنوب من منطقة الصحراء الكبرى الافريقية •

أما الحدود الجنوبية للوطن العربي في القارة الافريقية ، فهي ذات وضع خاص، اذتتأثر بالدرجة الأولى بالوضع المناخي الذي ساعد على خلق شريط انتقالي بين منطقة الصحراء الكبرى والمنطقة المدارية ، ويتمثل في نطاق نباتي سهوبي أو سبسبي ، جاف ، ممتد من مصب نهر السنغال الى سفوح الهضبة الحبشية بحيث يطوقها من الغرب والشمال والشرق باعتبارها حداً أو عقبة تضريسية وعرة وشاهقة ، والقسم الأكبر من هذا النطاق الواقع في الاقليم السوداني الافريقي ،يدعى الساحل ، تشبيهاً له بالحد الفاصل بين البر والبحر ، لأنه هنا يفصل بين الأرض الصحراوية الجرداء ، والنطاق المداري الأخضر • ولا تخرج حدود الساحل عن هذا النطاق الا في حوض النيل حيث تندفع جنوباً مع النهر العظيم وروافده باعتبارها طريق اتصال وعبور ، حتى سفوح هضبة البحيرات الاستوائية ، وبذا اتصلت حدود سفوح هضبة البحيرات بحدود سفوح الهضبة الحبشية المذكورة آنفاً ، ويستمر خط الحدود مع السفوح الشرقية والجنوبية الشرقية لهضبة الحبشة حتى المحيط الهندي ، عند خط الاستواء ونهاية القرن الافريقي • وهنا يمكن القول أن الصحراء تلتقي عند هذا الحد بالمنطقة الاستوائية ، وهي التي تفسر اندفاع الحدود العربية حتى هذا الجزء النائي نحو الجنوب •

هذا النوع الافريقي من الحدود العربية ذات الطابع المشبي الجاف سهلت على سكان الصحراء من القبائل العربية التعمق في القارة جنوباً في اثر حيواناتهم من الجمال والأغنام والخيول ، حتى اذا اشتدت عليها الرطوبة المدارية أصبح اعتمادهم على الأبقار والماعز ، الى أن يبلغوا حد الغابة المدارية الاستوائية •

أما البحار الداخلية العربية التي تمتد بشكل أذرع داخل الأرض

العربية ، فتشكل عنصراً من عناصر الحدود العربية • وقد أخذت طابعها العربي عبر العصور ، رغم التسميات التاريخية المختلفة التي أطلقت عليها ، كالخليج العربي (الذي أطلق عليه العرب القدماء اسم خليج فارس أو بحر فارس ، باعتباره مؤدياً الى تلك البلاد وليس باعتباره جزءاً منها) ، والبحر الأحمر الذي أطلق عليه اليونانيون قبل الاسلام اسم « الخليج العربي » أيضاً • ومن الطبيعي أن يكون الأمر كذلك ، لأن القبائل والشعوب العربية ما زالت تنتشر على شواطئها منذ عصور مفرقة في القدم• ويزيد الأمر وضوحاً أن تلك البحار كانت في الماضي بحيرات أو بحاراً داخلية مغلقة باليابسة ، وكان الانسان يعبر حولها من مكان الى آخر على معابر برية ، أو برازخ ، كما في باب المندب ، وباب السلام (مضيق هرمز) ، وبرزخ السويس •

ب ــ توافر شروط فلكية مناخية مميزة : يمتد الوطن العربي حالياً بين درجة عرض ١° جنوب خط الاستواء ودرجة عرض ٣٨° في شماله ، ويقع في غربي الكتلة القارية للعالم القديم (أوراسية وافريقية) ضمن عروض متوسطة هامشية بين منطقتين مناخيتين رئيسيتين : المعتدلة في الشمال والحارة في الجنوب ، مما جعله يتعرض في فترة العصر الجليدي الى حادثة مناخية هامة ، لا سيما في الفترة الواقعة بين عشرين وعشرة آلاف عام قبل الميلاد • ففي الوقت الذي كان فيه الجليد يغطي نطاقاً واسعاً من شمال قارة أوراسية وأواسطها حدث نوع من التزحزح في الأقاليم المناخية الكبرى للأرض ، وأصبح المناخ المسيطر على منطقة الوطن العربي شبيهاً بالمناخ المحيطي الحالي المتمثل في أوربة الغربية والوسطى • ويدعو الجيولوجيون العصر الذي ساد فيه هذا المناخ على العروض الوسطى بالعصر المطير ــ المقابل للعصر الجليدي في العروض العليا ــ حيث كان فيه المطر مدراراً والأودية الجافة الحالية أنهاراً والسهول والهضاب مروجاً وسفوح الجبال غابات والمنخفضات بحيرات • والى ذلك العصر المطير يرجع الماء الباطني الذي اختزن في المناطق الصحراوية الراهنة والذي يدعى أحياناً بالماء الجيولوجي ، وقد دلت التحريات على أن سبعة عشر ألف عام انقضت مثلا على المياه التي تختزنها صحاري شبه الجزيرة العربية ، كما أكد ذلك الوضع المناخي والمائي العثور في قلب الصحراء الكبرى على بقايا القواقع والأحياء المائية التي كانت تعيش في مياهها العذبة ؛ كالتماسيح وأفراس البحر •

وما أن بدأ الجليد بالذوبان والانحسار قبل نحو عشرة آلاف عام

نتيجة ارتفاع درجة الحرارة حتى وجدت منطقة الوطن العربي ربيعها الأول ، حيث قلت الأمطار وزاد الدفء ، وبدأت بوادر الجفاف الأولى التي تطورت بالتدريج الى الوضع الراهن حيث تحولت الأودية الجرارة المطرية النظام في داخل الوطن العربي الى أودية جافة سيلية النظام ، وجفت البحيرات بالتدريج وتحولت عذوبتها الى ملوحة ، وتشكلت سهول الهلال الخصيب في أوسع مدلول لها من شمال الخليج العربي حتى شواطىء دلتا النيل ، كما تشكلت السهول الوسطى والدنيا من حوض النيل ، وتراجعت الخلجان البحرية الضخلة وحلت محلها السهول الساحلية والسهول الدلتاوية ، وتقهقرت الغابات وجفت السباسب المشبية ، وسادت في البقاع الداخلية الكثبان الرملية ، وانسحبت قطعان الحيوانات نحو الجنوب تحت تهديد الجفاف ، وأخذت ترتسم المعالم المميزة الراهنة لجغرافية الوطن العربي ، وأصبح الانسان في هذه المنطقة الواسعة على أعتاب عصر جديد بعد أن واجه أكبر عملية تحد بيئي ، وهو يشهد تحول اقليمه من بيئة الغنى والوفرة الى بيئة الصعوبات الناشئة المتزايدة ، وأصبح الجهد البشري هو العنصر الأول في البيئة الجديدة ٠

٢ ــ العوامل البشرية :

آ ــ الثورة الانتاجية : في ذلك الوقت بدأ التحول الحاسم في حياة المنطقة العربية ؛ فالانسان المبعثر الذي كان يعيش في العراء على الجمع والالتقاط وعلى الصيد والقنص أخذ تحت تهديد الجفاف يقترب من المناطق الأوفر حظاً بشروطها المائية ؛ وهي ضفاف الأنهار الكبرى التي تتغذى منابعها من مناطق خارجية كالنيل ودجلة والفرات ، والتي تمثل العمود الفقري لسهول الهلال الخصيب ٠ وغير بعيد عنها أيضاً استقر الانسان عند سفوح الاطار الجبلي الخارجي للوطن العربي سيما في الشمال الشرقي منه ، اعتباراً من الألف الثامنة قبل الميلاد ٠ وفي الوقت الذي كان يتم فيه هذا التجمع والاستقرار البشري بعد التبعثر والتنقل الدائم بدأت حياة حضارية جديدة ، يمكن اعتبارها الثورة الانتاجية الأولى في التاريخ ، وهي حياة الزراعة والرعي أو تربية النبات والحيوان ، عند مواقع جديدة استقر فيها الانسان مثل أريدو ــ عبيد ــ أوروك ــ علي كوش ــ تل الصوان ــ جرمو ــ حسونة ــ أم الدباجية ــ (في الذراع الشرقي للهلال الخصيب) ومريبط ــ وتل الرماد ــ النطوف ــ أريحا ــ البيضة ــ الفيوم (في الذراع الغربي للهلال الخصيب) ٠

وتلا تلك المرحلة من نشوء القرى الزراعية اقامة المدن الكبرى في

الألف الثالثة قبل الميلاد : أور ـ لكش ـ سوزا ـ اشور ـ ماري ـ ايبلا ـ حماه ـ جبيل ـ مجدو ـ بيسان ـ عراد ـ تل ايراني ـ منف • وبعد ذلك بدأت تتشكل الامبراطوريات الكبرى في التاريخ : اكاد ـ عيلام ـ بابل «العمورية» اشور ، في الذراع الشرقي للهلال الخصيب، وايبلا « العمورية» وامبراطورية الفراعنة في الذراع الغربي للهلال الخصيب • هذا عدا المراكز الحضارية الأخرى المتفرقة عند سفوح الجبال والهضاب أو عند المنافذ الجغرافية البرية والبحرية ، و مواقع الانتقال بين منطقتين انتاجيتين متمايزتين ، أو في السهول الصغرى ذات الترب الزراعية الغنية • ففي هذه المراكز قامت حضارات اليمن وبلاد الشام الداخلية والساحلية والمغرب ، وبلاد بونت ، وكوش •

ب ـ الثورة العمرانية ورسوخ الهوية الثقافية : أدت الثورة الانتاجية في مجالات الزراعة وتربية الحيوان وما رافقها من استقرار ، الى قيام ثورة في العمران البشري ، هي الثورة الحضارية الأولى في تاريخ البشرية ، تمثلت في نهوض صناعة الانشاء والبناء والأدوات ، ولغات التعبير والكتابة ، والعلم والفنون الأخرى من هندسة وفلك وتشريع ، وتأكد من خلالها الوجود الثقافي العربي القديم في كامل المنطقة التي يشغلها الوطن العربي اليوم ، وارتسمت بالتالي معالم حدود ثقافية مطابقة للحدود الطبيعية التي سبقت الاشارة اليها ، حيث أصبح الاطار الجبلي حدا فاصلا بين اللغة العربية (السامية) ومجموعة اللغات الهندية الأوربية الواقعة فيما وراء ذلك الاطار • ويدل غنى اللغة العربية التي تمثل الجذر اللغوي لجميع اللهجات التي قامت فوق أرض الوطن العربي في الماضي ، على صلتها الوثيقة المزمنة بالبؤر الثقافية آنفة الذكر ، ان لم تكن هناك بؤر حضارية أخرى مندثرة لا سيما داخل الجزيرة العربية نفسها حيث لم يكشف النقاب عنها بعد • كما يؤكد ذلك الغنى من جهة أخرى التطور المستقل للغة العربية عن اللغات الهندية الأوربية واللغات الأخرى ، التي ظلت تقتبس منذ عصور بعيدة أساليب الكتابة المعتمدة في المنطقة العربية سواء منها المسمارية والآرامية « السريانية » والكنعانية « الفينيقية » والسبئية ، قبل الاسلام، والعربية بعده، حيث استخدمت الأبجدية العربية لكتابة الفارسية والتركية والأردية ، وبذلك امتد أثرها شمالا وشرقاً حتى الهند وتخوم

الصين ، بل استعيرت مفردات العربيـة بنسبة عاليـة لاستعمالها في تلـك اللغات • ولم يقتصر الأمر على ما وراء الحدود الشرقية للوطن العربي ، بل حدث شيىء مماثل ابان الدفع الحضاري العربي غرباً حتى بلغ حـد كتابة اللغة الاسبانية اللاتينية الأصل بأحـرف عربية ، كمـا اقتبست الاسبانية من العربية نسبة عالية أيضاً من مفرادتها تقدر بنحو خمس عشرة بالمائة • أما في القارة الافريقية فلم تواجه العربية لغة أجنبية مكتوبـة الا في حـالات نادرة ، كمـا في الحبشة ، ولـذا ظلت علـى طول افريقيـة السودانية والشرقية لغة العلم والسياسة والادارة ، وتطابقت في حدودها مـع حـدود اندفـاع القبائـل الرعويـة العربيـة جنوباً علـى عـرض القارة بين مصب السنغال ومصب الزمبيزي عبر القرن الافريقي •

وان انتشار الاسلام السريع يدل على أنه وجد المسرح ممهداً امامه من الناحية الثقافية فوق رقعة الوطن العربي سواء في المشرق أو المغرب ، حيث كـان الطراز الاجتماعـي الرعوي ـ الزراعي سائداً لـدى البربر والعناصر المغربية الأخرى سيادته لدى عرب المشرق ، هذا اضافة الـى الأصول السلالية المشتركة للعرب وللبربر • ومن ذلك يمكن أن نفهـم كيف أن العرب المسلمين أمروا عليهم قائداً بربرياً لفتـح الأندلس هـو طارق بن زياد ولما يكد يمضي قرن من الزمن على ظهور الاسلام ، وكيف ازدهرت قرطاجة ، الكنعانية الأصل الفينيقيـة المنبت ، وسط البيئـة البربرية في الشمال الافريقي ، ولماذا رد ابن خلـدون مؤرخ المغـرب في القرون الوسطى أصول قبيلة من أكبر قبائل البربر ، وهي قبيلة صنهاجة ، الى جنوبي الجزيرة العربية •

وتأتي أهمية الاسلام الثقافية للعرب لا في تقديمه نظاماً متكامـلا للحياة الانسانية فحسب ، بل في ترسيخه الثقافة العربية في مختلف المجالات، وسيادة اللغة العربية ، التي نزل بها القرآن الكريم • وأدى انتشار الاسلام خارج رقعة الوطن العربي الى تكوين حزام وقائي للمنطقة العربية كان بمثابة ردء لها ، خفف من أخطار التسرب الثقافي الأجنبي عبر الحدود بعد الاسلام ، مثلما خففت اللغة والثقافة الآرامية من تلك الأخطار قبل الاسلام ، وعلى الأخص في مناطق الاحتكاك القديمة مثل : عيلام قديماً ـ عربستان ، الأحواز حديثاً ، الكاشيون قديماً ـ الأكراد حديثاً ، أورارتو قديماً ـ الأرمن حديثاً ، الحثيون والبيزنطيون قديماً ـ الأتراك حديثا ، ولم تمنع الرقعة البحرية المحيطة بالوطن العربي شمالا من الاحتكاك بين سكان الوطن العربي والشعوب الأجنبية ، وعن طريقها حدث أخطر خرق

للحدود الثقافية العربية في العصور الحديثة حيث لم يكن يوجد مثل ذلك الحزام الواقي ، ونقصد به الصهيونيين في فلسطين والفرنسيين والايطاليين في المغرب العربي وليبية • وفي هذه الحالات حدث الغزو المباشر للأرض العربية على نطاق أوسع وأعمق مما حدث في عهود سابقة عندما وصل الفلسطيتيون الى جنوب فلسطين الساحلي ، واليونان والرومان والفاندال الى سواحل افريقية العربية • ومن هنا فان الاستعمار الصهيوني في فلسطين الآن يمثل أكبر تحد واجهته المنطقة في تاريخها •

هذا ولما كان ما أشرنا اليه من تحولات أثرت في التاريخ العربي القديم والحديث يعود بقدر كبير الى موقع الوطن العربي وطرقه الطبيعية ، فاننا سنعمد الى تحليل أهمية هذا الموقع ومعابره كيما تكتمل عناصر الصورة في ماضي هذا الوطن وحاضره •

أهمية موقع الوطن العربي (جغرافياً وحضارياً) :

يعتبر عامل الموقع أبرز العوامل التي أثرت في تاريخ المنطقة • فأرض الوطن العربي جسر عظيم بين القارات الثلاث ، آسية وافريقية وأوربة ، متعدد المعابر والمنافذ ، ظلت له وظيفة مستمرة عبر التاريخ الطويل لأنها مستمدة من موقعه الطبيعي ، رغم أن تلك الوظيفة اتخذت أشكالا ودلالات مختلفة حسب تغير الشروط البشرية فيه ومن حوله• ويمكن تحليل عناصر الموقع المؤثرة أولا ، والطرق والمنافذ ثانياً ، على النحو التالي :

١ ــ الموقع الجغرافي وآثاره :

ان امتداد الوطن العربي كما سبقت الاشارة من المنطقة الاستوائية (درجة ١° جنوب خط الاستواء ، الى درجة ٣٨° شماله) أدى الى وقوعه ضمن المنطقتين الحارة والمعتدلة الحارة الشمالية ، وعلى عدد من درجات العرض يؤلف نصف عروض المنطقة المعمورة من نصف الكرة الشمالي • ورغم أن الصحراوات الحارة تشغل قسماً كبيراً من تلك العروض ، الا أن الشروط الطبيعية للعيش في الصحراء على حرجها مكنت من استغلال بواديها وأوديتها وجبالها وحمادها ودهنائها ، بوسائل ملائمة تكيفت مع تلك الشروط ، اذ كانت تعتمد على نوع حيوان مختار لبيئة معينة ، وعلى مزروعات يتفاوت اعتمادها على الري أو على المطر مستفيدة من أحواض نهرية توافرت لها شروط الماء والتربة الغنية ، والجو الصالح للانتاج في جميع الفصول • كما وظف موقع الصحراء ــ ضمن الموقع العام

للوطن العربي وسط اتجاهات الطرق الطبيعية للنقل والتجارة براً وبحراً في الوصل بين مراكز النشاط البشري في الجنوب والشمال أو في الشرق والغرب ضمن نظام اتخذت فيه واحات الصحراء قواعد على طول الطرق ، حيث برز التعاون والتناسق بين الحضر أصحاب التجارة وأهل المدر ، وبين البدو أصحاب الجمال والخيول أو أهل الوبر ، سادة الصحراء وخرّيطوها الذين يتولون نقل البضائع وحماية الطرق العابرة . وكنا نرى الجمل يتوقف حيث تبدأ السفينة أو يبدأ حيث تتوقف . ولم يكن عبثاً ما قيل عن الجمل من أنه سفينة الصحراء عند العرب ، اذ أن البحار العربية أيضاً وظفت خير توظيف في خدمة البيئة العربية ، ليس في النقل فحسب بل في استغلال مواردها من الأسماك واللؤلؤ والمرجان وغيرها ، في انسجام تام مع حياة البداوة الرعوية والواحة الزراعية في قلب الصحراء . وكثيراً ما كنا نرى البدوي أو ساكن الواحة ممن يقودون الجمال يستنبتون ثمرات الأرض في موسم من العام ويقودون مركباً أو يستخرجون ثمرات البحر من الأعماق في موسم آخر في رحلة صيف وشتاء أخرى ، قبل أن يعودوا أدراجهم محملين بها الى داخل الصحراء . والشواهد على دور البحر في حياة العرب ، الذين عرفوا بأنهم من سكان الصحراء ، كثيرة في القرآن الكريم . ولكن الذين كتبوا عن حياة العرب لم يدرسوا ذلك النشاط المتنوع الوجوه الرائع التناسق .

لذا نستطيع القول أن البيئة العربية ، على فقر قسم كبير من أجزائها استغلت استغلالا واسعاً ، ولم يبق منها غير أجزاء محدودة من الصحراوات تفاداها الانسان ولم تشهد نشاطه بسبب كثرة رمالها وشدة جفافها ، كالربع الخالي وبحار الرمال والعروق في الصحراء الكبرى .

وفي الواقع لو عدنا الى العوامل المؤثرة في تشكيل تلك الصورة آنفة الذكر لوجدنا ، من الناحية الجغرافية ، أن الوطن العربي يتألف من هضاب واسعة منبسطة قليلة الارتفاع تنتشر بينها الممار والسهول والمنخفضات والحفر التي تحتضن الأودية الكبرى والبحار الداخلية شبه المغلقة ، مما يخرجه بصورة واضحة عن تضاريس آسية الصغرى والوسطى المعقدة العالية ، كما يخرجه عن منطقتين أخريين معقدتين هما أوربة في الشمال ، والمناطق المدارية الرطبة في الجنوب ، وعما يصيب تلك المناطق من منخفضات جوية وأعاصير عنيفة عاصفة أو قاصفة ، ويخرجه فوق ذلك أيضاً عن مناطق المياه المتجمدة . وهذا ما جعله يلعب دور الجسر السهل المكشوف الحر بين القارات الثلاث براً وبحراً وجواً .

ويمكن تبين ذلك من الصور التي التقطتها المركبات الفضائية أو الأقمار الصناعية لمجمل الكرة الأرضية حيث ترتسم عليها بحدودها منطقة الوطن العربي كنافذة بين السماء والأرض ، في حين تلف الأجواء الأخرى تلبدات الغيوم ومراكز الاضطرابات الجوية ٠

من هنا نعلم لماذا اصطرعت على هذا الموقع ، الذي أصبح موقعاً استراتيجياً من الطراز الأول ، جميع القوى الخارجية منذ القديم ؛ من حثيين ويونان ورومان وفرس ، حتى العصر الحديث الاستعماري الذي ظهرت فيه القوى الغربية الأوربية والأمريكية المعروفة ٠ فجميعها سعت وتسعى للسيطرة على الطرق والمنافذ من جهة ، والثروات الباطنية ، ولا سيما النفطية منها ، التي دخلت كعامل رئيسي جديد بين العوامل المستجدة الأخرى ، والتي كان أهمها بروز المعسكر الاشتراكي على مسرح السياسة العالمية في مواجهة المعسكر الرأسمالي والامبريالي ، وكون الحدود الشمالية الشرقية للوطن العربي لا تبعد أكثر من أربعمائة كيلو متر عن حدود الاتحاد السوفييتي رأس المعسكر الاشتراكي ، بالاضافة الى تحرر المغرب العربي الكبير الواقع على أطراف الجناح الجنوبي للمعسكر الرأسمالي الغربي ٠ ونضرب أمثلة على تلك الأهمية الاستراتيجية من أحداث هذا القرن العشرين :

آ ــ المعارك الفاصلة التي دارت رحاها فوق أرض الوطن العربي ؛ كمعارك قناة السويس في الحرب العالمية الأولى بين العثمانيين والانكليز ، ومعركة العلمين ومعارك ليبية وتونس بين دول المحور والحلفاء، الذين حولوا الوطن العربي بعدها الى قاعدة جغرافية وبشرية للهجوم على الجناح الجنوبي للجيوش الألمانية الايطالية ، واستعانة الحلفاء بالكتائب المغربية العربية للاستيلاء على المواقع الحصينة في زحفهم شمالا نحو روما بعد أن فشلت جيوشهم في الاستيلاء عليها ٠

ب ــ الحرص الدائم للقوى الاستعمارية والامبريالية على اقامة القواعد البرية والبحرية والجوية على امتداد الوطن العربي أو من حوله بين المحيط والخليج ، بغض النظر عما ألغي منها أو بقي أو جُدد ؛ مثل القواعد الأمريكية السابقة في المغرب الأقصى وطرابلس الغرب والظهران ، والقواعد الأخرى كمصيرة في عمان ، وقاعدة الاسكندرونة البحرية ، والقواعد البريطانية في مالطة وطبرق وقناة السويس وقبرص وعدن والبحرين والحبانية ، والقواعد الفرنسية في وهران وبنزرت والصحراء الجزائرية وجيبوتي ٠ ويمكن اعتبار انشاء دولة اسرائيل فوق أرض

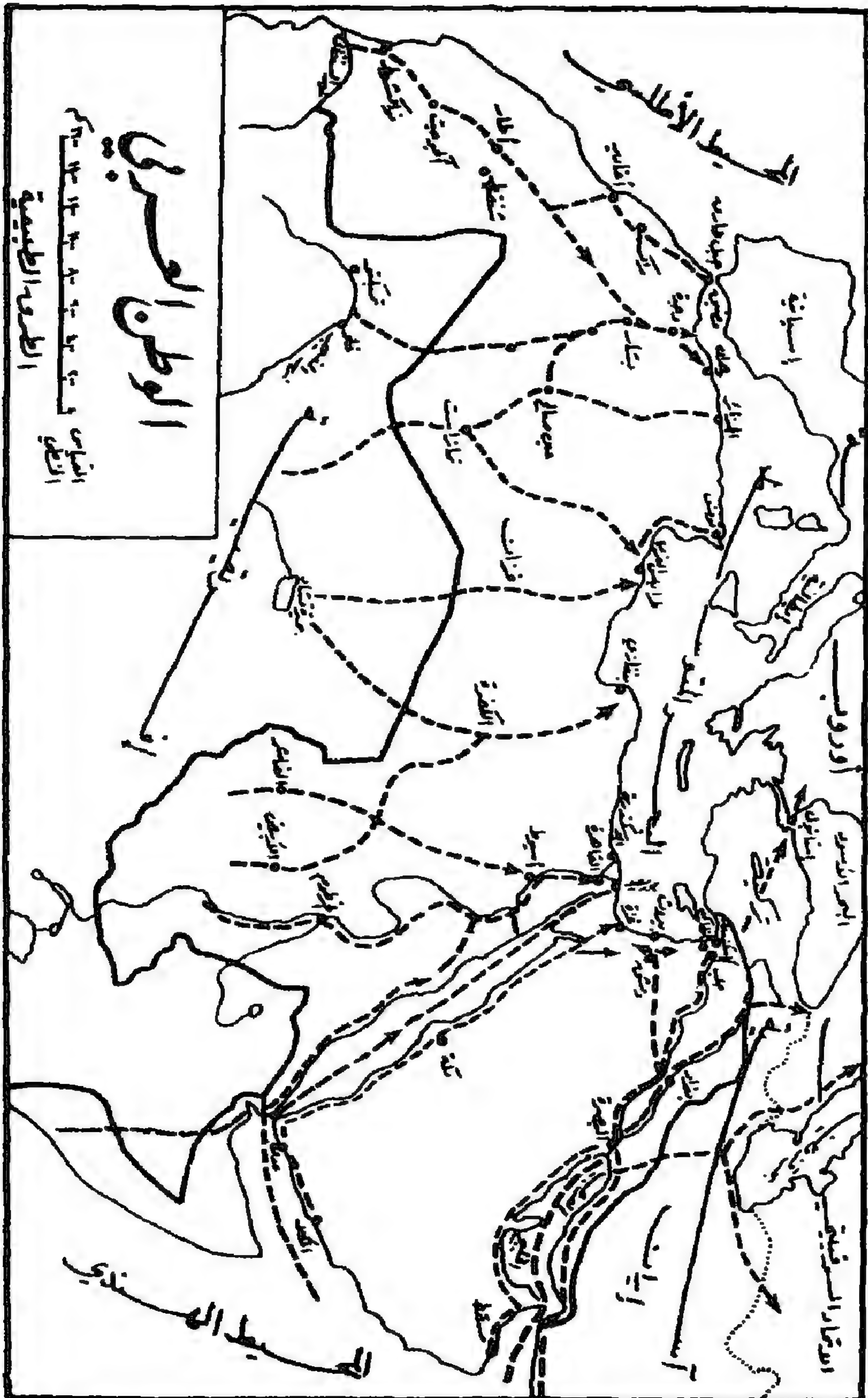
فلسطين احدى تلك القواعد الكبرى للقوى الاستعمارية وفي طليعتها الولايات المتحدة التي ما تزال تبحث عن قواعد جديدة وتسهيلات تستهدف ترسيخ وجودها الاسرائيلي الأمريكي ، وخاصة بعد اتفاق الصلح المنفرد بين مصر واسرائيل وأحداث ايران وافغانستان ، حيث عادت للسعي للفوز بقواعد جديدة في منطقة قناة السويس وسيناء ومصر العليا والصومال وكينية وعمان ، التي تشرف على مضيق باب السلام (هرمز) ، والبحرين. وهكذا نرى أن المسرح هو هو لم يتغير.. الأرض العربية، والهدف هو هو لم يتغير .. تثبيت الوجود الأجنبي والاستعماري الصهيوني في الوطن العربي رغم اختلاف الأساليب واختلاف الممثلين .

٢ ـ الطرق الطبيعية :

وهي تلقي أضواء على مجمل الموقع الوظيفي للوطن العربي ، تخطه بين الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وكان دورها بارزاً في جميع العصور ، وبرز فيها التكامل بين الطرق البرية والبحرية والنهرية ، سواء في الاتجاه أو المنحى أو التفرع أو الالتقاء . وأهم تلك الطرق من الشرق باتجاه الغرب :

آ ـ طريق الخليج العربي ـ ما بين النهرين « دجلة والفرات » :

ومحور اتجاهه جنوب شرقي ـ شمال غربي ، واصلا بين أقطار المحيط الهندي « بحر العرب » وآسية الصغرى والبحر المتوسط ، عبر العراق وشمالي سورية . ويمثل مع تفرعاته مدخلا الى الجزيرة العربية وايران والقوقاز وأوربة الجنوبية الشرقية . وقد كان هذا الطريق ، البحري ـ النهري ، وما زال ، أهم الطرق المطروقة في العالم ، وأكبر ملتقى للقوافل البرية والبحرية والنهرية (كل ثلاث دقائق تمر باخرة في مضيق باب السلام « هرمز ») ، وظل محط الأبصار عبر العصور ، وبوتقة حضارية آينعت ثماراً رائعة في العصور القديمة والوسطى كما أشرنا ، وفي العصر الحديث أصبح طريق القطارات والسيارات وأنابيب النفط ، وعليه يقع أقصر طريق بري بين أوربة والخليج العربي والمحيط الهندي . وقد حاول الألمان قبل الحرب العالمية الأولى جعله منافساً لقناة السويس التي يسيطر عليها الانكليز ، بل وضع مشروع قناة لربط الفرات بالبحر المتوسط ، بين مسكنة على الفرات وانطاكية على العاصي . وكان هذا التنافس أحد الأسباب التي دفعت الانكليز لاحتلال العراق في الحرب العالمية الأولى . وفي السنوات الأخيرة تزايدت أهمية هذا الطريق كطريق للسيارات ، بعد تعطل قناة السويس اثر العدوان الاسرائيلي ، واختناق الموانيء البحرية


الوطن العربي
المحيط الأطلسي
المحيط الهندي
الطرق الطبيعية

التي تنتهي اليها السفن القادمة من أوربة ، بسبب التطور الكبير في العلاقات التجارية ·

وقد عرقل من تطور هذا الطريق ، ضم تركية للجزيرة العليا وكيليكية ولواء الاسكندرونة في الشمال ، وضم ايران لعربستان وبعض جزر الخليج في أجزائه الجنوبية ·

ومن أبرز الأمثلة على الأهميةالاستراتيجية لهذا الطريق قيام الحلفاء، خلال الحرب العالمية الثانية ، بنقل ما زنته خمسة ملايين طن من العتاد والمؤن الى الاتحاد السوفييتي ، بين موانيء عربستان وشواطيء بحر قزوين وبلاد القفقاس · كما أنه مؤهل بصورة مثالية لنقل نفط الخليج العربي والعراق وسورية الى شواطيء البحر المتوسط وأوربة · وقد تم فعلا تمديد عدة أنابيب لنقل النفط من العراق خاصة الى الاسكندرونة وبانياس وطرطوس وطرابلس ، وكان حرياً بالكويت والعربية السعودية أن تمدد أيضاً أنابيب نفط جديدة ، لنقل كميات أكبر من نفطها الى البحر المتوسط ، ضمن استراتيجية عربية خاصة ·

ب ــ طريق البحر الأحمر ــ قناة السويس :

ويصل المحيط الهندي بالبحر المتوسط عبر البحر الأحمر وقناة السويس · وكان حرياً بالعرب أن يسبغوا عليه طابعاً عربياً داخليا لأنه يمتد بكامله داخل الأرض العربية ، بين شبه الجزيرة العربية والقرن الافريقي وحوض النيل · وهو مكمل للطريق الأول في اتجاهه من شرق البحر الأحمر مع سهول تهامة وحول خليج العقبة ، نحو جنوب بلاد الشام وسيناء ، حيث كانت تتم رحلات الصيف والشتاء بين الشام واليمن ، وحتى شاطيء البحر المتوسط · وفي غربه ينفذ الى طريق وادي النيل (بور سودان ــ القصير ــ السويس) المؤدي الى مصر والبحر المتوسط أيضاً ·

وقبل شق قناة السويس ، وقبل تسلط القوى البحرية الأجنبية على البحر الأحمر كان الطريق برياً · وكان البحر الأحمر يستعمل غالباً في النقل والانتقال بين شواطئه الشرقية والغربية · وكان النشاط كبيراً لدرجة أطلق معها اسم الصحراء العربية على الهضبة الواقعة بين وادي النيل والبحر الأحمر ، ثم غلب الطريق البحري خلال القرن التاسع عشر · وهو لم يقض على الطريق البري فحسب بل سدد ضربة قاسية لطريق رأس الرجاء الصالح البحري ، اذ يختصر ٥٥ ــ ٧٠٪ من المسافة بين أقطار المحيط الهندي من جهة ، وأقطار البحر المتوسط من جهة أخرى ، ونسبة

٢٤ ـ ٤٢٪ من المسافة بين الشرق الأقصى وأقطار المحيط الهندي ، وأوربة الغربية ·

والدليل على الأهمية الاستراتيجية لهذا الطريق أن اغلاق قناة السويس بسبب العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ كان يكلف بريطانية وحدها خسارة قدرها عشرون مليون جنيه استرليني شهرياً ، في حين أن الفائدة التي كان يجنيها القطر المصري من القناة لم تكن تتجاوز عشرة ملايين جنيه استرليني شهرياً · وقد تعرض هذا الطريق للتهديد المباشر باحتلال اسرائيل لفلسطين ومداخل خليج العقبة وسيناء وقناة السويس ، وتمديدها انبوباً كبيراً لنقل النفط بين ايلة وشاطىء البحر المتوسط في عسقلان بطاقة أربعين مليون طن ، ردت عليه مصر بتمديد خط أنابيب بين شاطىء خليج السويس وغربي الاسكندرية بطاقة مماثلة ، كما تحاول تعميق قناة السويس لاستقبال حاملات نفط متوسطة الحمولة رداً على منافسة طريق رأس الرجاء الصالح الذي تستخدمه ناقلات نفط عملاقة ، تصل حمولتها الى نصف مليون طن ·

جـ ـ طريق وادي النيل :

وهو طريق طبيعي بين افريقية الاستوائية والشرقية والبحر المتوسط ، وكان لهذا الطريق وظيفتان ؛ الأولى تجارية والثانية حضارية ، ففيه أينعت الحضارة المصرية القديمة ، ومنه ولج العرب قلب القارة حاملين ثقافتهم وتجارتهم قبل الاسلام وبعده · وقد اتبع المستعمرون ومستكشفو القارة الافريقية الطريق نفسه ، الذي يعتبر رديفاً لطريق البحر الأحمر ـ المتوسط ، كما كان أحد الطرق الآمنة للحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية ، والحلقة الرئيسية في مشروع بريطانية القديم القاهرة ـ رأس الرجاء الصالح ·

د ـ الطرق العابرة للصحراء الكبرى :

وتصل بين افريقية السودانية وشواطىء البحر المتوسط في اتجاه عام شمالي ـ جنوبي · وهي تعتمد على قواعد الواحات المبعثرة داخل الصحراء الكبرى · وتوفر هذه الطرق مشقة السير على طول افريقية السودانية حتى شاطىء المحيط الأطلسي لتنتقل الى أوربة ، وتعتمد على توسطها بين اقليمين انتاجيين مختلفين تماماً ؛ الاقليم المداري في الجنوب ، والمتوسطي والمعتدل في الشمال (الفواكه المدارية ، العاج ، ريش النعام ، الذهب ، الرقيق ، القمح ، الملح ، البلح ، المواد المصنوعة عامة) ·

وأهم تلك الطـرق :

ـ طريق كردفـان ـ الكفرة ـ برقـه ، أو كردفـان ـ اسـيوط في وادي النيـل ٠

ـ طريق تشاد ـ طرابلس الغرب أو برقة ، عبر فزان أو الكفرة ٠ وهـو أقصرهـا ٠

ـ طريـق غـاو ـ تمبكتو (نهر النيجـر) ـ المغـرب العربـي باقطاره الثلاثـة ٠

وكانت لتلك الطرق ، منذ القديم وحتى العصور الوسطى ، أهمية حضارية وتجارية ، أدت الى نهضة مناطق غانة ومالي والنيجر وتشاد ، وعلى أثرها شقت طرق حديثة : النيجر ـ الجزائر ، تشاد ـ طرابلس الغرب ٠ وقد استغلت الأهمية الاستراتيجية لهذه الطرق ، وبخاصة عندما تكون الطـرق البحرية مهـددة ، كما في الحركـة التكتيكيـة التي قـام بها الجنرال ليكليرك الفرنسي خلال الحرب العالميـة الثانية ، التي عبر فيها بقطعاته الصحراء من تشاد الى فزان فالشمال الليبي ليهدد الجناح الجنوبي لجيوش المحور ٠

وازدادت أهمية هذه الطرق في الآونة الأخيرة لوجود أحواض نفط وثروات معدنية كبيرة عند محاورهـا ؛ في ليبية والجزائر وموريتانيـة والمغـرب ٠



أضواء على العلاقات التجارية

بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقية

١١٧١ - ١٢٥٠م

د. عادل زيتون

جامعة دمشق

تعتبر مسألة العلاقات التجارية ، بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقية، من الموضوعات ذات الأهمية البالغة في تاريخ العصور الوسطى. خاصة وأن هذه العلاقات قد قامت في فترة اشتد فيها الصراع العربي ـ الفرنجي (الصليبي) من ناحية ، واحتدم فيها التنافس والنزاع بين القوى البحرية والتجارية الأوربية ، للسيطرة على التجارة الشرقية ، من ناحية أخرى . وفي غمرة هذا الصراع السياسي والعسكري ، وفي زحمة الاتصال الاقتصادي والثقافي ، الذي نتج عن الاحتكاك بين الشرق والغرب في عصر الحروب الصليبية ،قامت العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية، التي تصدت بنجاح كبير للخطر الصليبي ، وبين جمهورية البندقية ، التي لعبت دوراً كبيراً في الحركة الصليبية(١) . ومن هنا تأتي أهمية هذه العلاقات ، التي تضاربت فيها المصالح والأهواء مرة ، والتقت وتقاربت مرات ، وتآلفت واندمجت في بعض الأحيان ، وفقاً لمقتضيات الظروف والأحوال ، وتبعاً لتغير ميزان القوى في الصراع العربي ـ الصليبي ، في الشرق الأدنى .

الأهمية الاقتصادية لمصر والشام في العصور الوسطى

امتلكت مصر والشام ، في العصور الوسطى ، عوامل جذب للتجار الفرنجة بصفة عامة ، وللتجار البنادقة بصفة خاصة ؛ فموقع مصر جعلها حلقة وصل بين الشرق والغرب ، وسوقاً للتبادل التجاري بين افريقية وآسية وأوربة . وقبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، كان طريق البحر الأحمر أهم الطرق التجارية

التي تدفقت من خلاله سلع ومتاجر الشرق الأقصى الى موانيء الغرب الأوربي • وفضلا عن ذلك كله فقد فضل التجار الفرنجة التوجه الى أسواق مصر للحصول على التوابل الهندية والحرير الصيني ، بدلا من الارتحال الى شواطىء الخليج العربي عبر مسافات طويلة وغير آمنة(٢) •

ولم تقتصر أهمية مصر على موقعها في حركة التجارة الدولية ، وانما امتدت هذه الأهمية لتشمل الثروة الاقتصادية التي امتلكتها ، وبخاصة الشب(٣) والسكر والنطرون والبلسم ، وغيرها من السلع والمتاجر التي كانت موضع اهتمام التجار البنادقة ، وغيرهم من التجار الفرنجة ، في العصور الوسطى • كما شكلت الموانىء المصرية ، وبخاصة الاسكندرية ودمياط ، أسواقاً رئيسية لتصريف العديد من السلع ، التي حملها التجار البنادقة من الغرب الأوربي ، وبخاصة الخشب والحديد والقار والرقيق ، وغيرها من المواد التي كان العرب المسلمون بحاجة ماسة اليها • ولهذا كله كان المؤرخ اللاتيني ، وليام الصوري ، الذي عاش في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي ، على حق في قوله ان الاسكندرية « سوق العالمين »(٤) •

أما بالنسبة الى بلاد الشام فانها لم تكن تقل في أهميتها التجارية عن مصر في العصور الوسطى ؛ فقد تدفقت متاجر الشرق الأقصى الى المدن الشامية عن طريق الخليج العربي وآسية الصغرى ومصر ؛ وشكلت هذه المدن بدورها محطات تجارية بالغة الأهمية ما بين الشرق والغرب • وفضلا عن ذلك كله فان ثروات بلاد الشام ، وبخاصة القطن والسكر والزجاج وغيرها من السلع والمتاجر ، كانت موضع اهتمام التجار الفرنجة بصفة عامة وتجار جمهورية البندقية بصفة خاصة(٥) •

وعلى الرغم من أننا لا نعرف البداية الحقيقية للعلاقات التجارية بين جمهورية البندقية ومصر والشام ، الا أنه من المؤكد أن هذه العلاقات تعود الى القرن التاسع الميلادي ، حيث حمل البنادقة ، خلال ذلك القرن ، الى موانيء هذين البلدين المنتجات المتوفرة في المناطق المحيطة بمدينتهم مثل الأخشاب والحديد(٦) • وفي القرن العاشر الميلادي أقامت البندقية علاقات ودية مع الفاطميين (٣٥٨ / ٥٦٧ هـ ٩٦٩ / ١١٧١ م) ، ونقلت الى مصر والشام الخشب اللازم لبناء السفن • وقد استشاطت الدولة البيزنطية غضباً من جمهورية البندقية ، وأخذت توعز اليها بألا تحمل سفنها الأخشاب الى أسواق مصر ، وهدد الامبراطور البيزنطي حنا تزيمسكيس (٩٦٩ ـ ٩٧٦ م) بالانتقام من البندقية اذا لم تمتنع

عن مد الفاطميين بالخشب الذي يصلح لعمارة السفن ، وذلك كله حتى لا يشتد ساعد الأسطول الفاطمي الذي كان يقف للبحرية البيزنطية بالمرصاد(٧) ·

الا أن الجمهورية رأت ألا تضحي بمصالحها الاقتصادية الكبرى في مصر والشام في سبيل ارضاء أباطرة الدولة البيزنطية ، ولهذا أجازت لتجارها نقل خشب اللبخ والسنديان ،الى دور الصناعة المصرية ، على ألا يتجاوز طول اللوح الواحد خمسة أقدام ؛ كما أرسل دوج البندقية ، بطرس أورسيلو ، سفارات متعددة الى مصر ، عام ٩٩١ ـ ٩٩٢ م ، تمكنت من الحصول على امتيازات تجارية واسعة ، لتجار البندقية ، في الموانىء المصرية(٨) ·

واستمرت العلاقات التجارية بين الفاطميين والبندقية ، خلال القرن الحادي عشر الميلادي ، وكسب البنادقة موطىء قدم لهم في أسواق الاسكندرية وانطاكية وطرابلس الشام ، وقامت سفنهم برحلات تجارية منظمة ما بين البندقية وانطاكية والاسكندرية · ويبدو أن هذه التجارة المربحة التي تحققت للبندقية في مصر والشام ، وقتذاك ، تفسر لنا الأسباب التي جعلت جمهورية البندقية تتريث في تقديم المساعدة للصليبيين في الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧ ـ ١٠٩٩ م)(٩) ·

سياسة صلاح الدين التجارية :

وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧ ـ ٥٨٩ هـ ـ ١١٧١/١١٩٣ م) قد وضع قواعد أساسية لسياسته التجارية ، استهدفت اقصاء التجار الأوروبيين جميعاً عن التجارة الداخلية في دولته ؛ والتزم سلاطين الأيوبيين والمماليك بهذه السياسة ، من بعده ، عدة قرون · وتؤكد المصادر العربية المعاصرة أن السلطان صلاح الدين كان يدرك تماماً بأن محاولات الفرنجة الصليبيين ، تحت قيادة أرناط (رينود دي شاتيون)(١٠)، للنفاذ الى منطقة البحر الأحمر ، عام ١١٨٢ ـ ١١٨٣ م ، تعني بأن الصليبيين لا يرغبون في الاستيلاء على الأراضي المقدسة في بلاد الشام فحسب وانما يطمعون أيضاً بتوسيع نفوذهم الى الحجاز والاستيلاء على البحر الأحمر ومحطاته التجارية · ويشرح صلاح الدين ، في رسالة بعثها الى الخليفة العباسي في بغداد ، أهداف الفرنجة من محاولاتهم غزو منطقة البحر الأحمر ، قائلا : « وكان للفرنج مقصدان : أحدهما قلعة أيلة ،

التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله ، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله ، وانقسموا فريقين ، وسلكوا طريقين : فأما الفريق الذي قصد قلعة أيلة فانه قدّر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي به قوام الحياة ، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباه ، أما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن ، فقدّر أن يمنع طريق الحاج عن حجه ، ويحول بينه وبين فجه ، ويأخذ تجار اليمن وأكارم عدن(١١) ، ويلم بسواحل الحجاز ، فيستبيح ــ والعياذ بالله ــ المحارم ، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم »(١٢) • ومن هذه الفقرة من الرسالة يتضح أن الصليبيين استهدفوا وراء تلك المحاولات الحربية تحقيق هدفين خطيرين ، أولهما قطع طريق الحج الاسلامي الى مكة والمدينة ، وثانيهما الاستيلاء على عدن في جنوب البحر الأحمر ، وبذلك يتمكنون ، بفضل السيطرة على أيلة في الشمال وعدن في الجنوب ، من اغلاق البحر الأحمر في وجه العرب المسلمين واحتكار تجارة الشرق والمحيط الهندي • ومن هنا جاء حرص صلاح الدين ، ومن بعده سلاطين الأيوبيين والمماليك ، على حماية البحر الأحمر ، الذي يطل على الحرمين الشريفين ، والابقاء عليه ، كبحر اسلامي خالص ، في خدمة التجار العرب المسلمين • ولهذا كله فانه لم يكن يحق للتجار البنادقة ، وغيرهم من التجار الفرنجة ، العمل في التجارة الداخلية ، أو الاقتراب من منطقة البحر الأحمر ، وبالتالي فقد اقتصر نشاطهم التجاري ، في زمن الأيوبيين ، على القيام بعمليات الاستيراد والتصدير في الموانىء العربية الاسلامية المطلة على البحر المتوسط ، وبخاصة الاسكندرية ودمياط •

وفي عهد السلطان صلاح الدين لعبت جمهورية البندقية دوراً مزدوجاً في علاقتها مع الأيوبيين والصليبيين ، فمن جهة كانت تمد يد العون للصليبيين لمواجهة صلاح الدين ، وذلك حرصاً على امتيازاتها التجارية في المدن والامارات الصليبية ؛ ومن جهة أخرى كانت تقوم بنقل السلع والمتاجر ، وبخاصة الأسلحة وأدوات القتال ، الى الأيوبيين في مصر والشام • ولقد أشار صلاح الدين الى هذه الحقيقة في الرسالة التي بعثها الى الخليفة العباسي ، الناصر لدين الله ، في بغداد ، عام ٥٧٨ هـ/١١٨٢م ، والتي جاء فيها : « ومن هؤلاء : البنادقة والبياشنة والجنوية ، كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يجهزون سفاراً يحتكمون على الاسلام في الأموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة • وما منهم الآن الا من يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب

الينا باهداء طرائف أعماله وبلاده ، وكلهم قد قررت معه المواصفة ، وانظمت معه المسالمة ، على ما نريد ويكرهون ، ونؤثر ولا يؤثرون »(١٣) ٠ وربما هذا يفسر لنا السياسة السمحة ، التي عامل بها السلطان صلاح الدين الجالية البندقية في عكا عندما افتتحها عام ٥٨٣هـ/١١٨٧ م ٠

وفي أعقاب فتوحات صلاح الدين وفشل الحملة الصليبية الثالثة في استرداد بيت المقدس ، ضعفت العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين، وذلك نتيجة ضغط البابوية ، والرأي العام الصليبي والأوروبي ، على الجمهورية لقطع علاقاتها التجارية مع العرب المسلمين في مصر والشام(١٤) ٠ فمن المعروف أن البابوية حرصت أشد الحرص ، وبخاصة منذ قيام الحركة الصليبية ، على منع القوى البحرية والتجارية الأوروبية من المتاجرة مع القوى العربية الاسلامية ، وكان هذا الموقف ينبع أساساً من حرص البابوية على عدم تزويد العرب المسلمين ، في مصر والشام ، بالمواد «الاستراتيجية»، كالأخشاب والحديد والقار والرقيق ، التي تعزز قوة الجيش والبحرية العربية وبالتالي تدعم قدرة العرب المسلمين وجهادهم ضد الصليبيين ٠ وقد استخدمت البابوية ، لتحقيق هذا الهدف ، أسلحة عديدة ، في مقدمتها سلاح الحرمان الكنسي لكل من يتعامل مع العرب المسلمين ، وينقل اليهم أدوات القتال(١٥) ٠

والواقع ان المراسيم البابوية لم تفلح في قطع العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين ، في أعقاب فتوحات صلاح الدين ؛ فكثرة الأوامر والمراسيم البابوية المتعلقة بتحريم المتاجرة مع العرب المسلمين ، التي صدرت وقتذاك ، تدل دلالة قاطعة أن العلاقات التجارية بين الجمهورية والأيوبيين لم تتوقف بتاتاً ، والا لما كانت الحاجة تدعو الى تكرار مثل هذه المراسيم وتلك الأوامر ٠ وفضلا عن ذلك فقد أثبت هايد أنه خلال شتاء سنة ١١٨٧ ــ ١١٨٨ م (أي في العام التالي على فتح صلاح الدين لبيت المقدس) كان في ميناء الاسكندرية حوالي سبعة وثلاثين مركباً تجارياً من جنوه وبيزا والبندقية ، ومن المعروف أن أكثر التجار الفرنجة كانوا يأتون الى مصر في فصلي الربيع والخريف ، كما أن قادة السفن كانوا يفضلون أن يقضوا الشتاء بين أهلهم ، فلا بد من القول بأن ما كان يأتي الى مصر في فصول الربيع والصيف والخريف ، لم يقتصر على سبع وثلاثين سفينة بل جاء الى الاسكندرية مئات من السفن(١٦) ٠ ومهما يكن من أمر فان جمهورية البندقية كانت تدرك أن مصالحها الاقتصادية والتجارية

الكبرى في مصر والشام أكثر أهميـة من أي اعتبـار آخر ، واذا كـانت البندقية قد استجابت ، في بعض الأحيان ، لنداءات البابوية ومراسـيمها بشأن تحريم المتاجرة مع العرب المسلمين ، فانها لم تفعـل ذلك خوفاً مـن الحرمان الكنسي أو الرأي العام الصليبي والأوروبي ، وانما رغبة منها في توسيع امتيازاتها التجارية في المدن والامارات الصليبية ؛ هذه الامتيازات التي كانت تمنح للبنادقة كلما قدموا مساعدات للصليبيين ووقفوا الـى جانبهم في القتال ضد الأيوبيين ٠

المعاهـدات التجـاريـة :

احتفظت البندقية بعلاقات ودية مع السلطان الملك العادل الأيوبـي (١١٩٩ ـ ١٢١٨ م) خاصـة وأن الملك العـادل كـان يرغب في تعزيز العلاقات التجارية بين دولته وجمهورية البندقية ، فاحدى الوثائـق ، التي تعود الى عام ١٢٠٠ م ، تؤكد استمرار نقل البنادقة ، على سفنهم التجارية ، للأسلحة والأخشاب الى الموانيء المصرية(١٧) ٠ كما أنه مـن المعروف أن البندقية أبرمت مع السلطان الملك العادل الأيوبي أقدم معاهدة تجارية ، وصلت الينا ، مع مصر ، وذلك عام ١٢٠٨ ، على يد السفيرين مارينو داندولو وبطرس ميخائيل(١٨) ٠ واشتملت هذه المعاهدة على منح البنادقة امتيازات وتسهيلات تجارية في الموانيء المصرية ، وعلى تعهـد السلطان بحماية البنادقة في المناطق التابعة له ، ومعاملتهم كأبناء أمـة صديقة ، وعدم اجبارهم على دفع أكثر مما هو مقرر عليهم من الضرائب والرسوم في الموانيء المصرية ٠ كما منحت المعاهدة البنادقة فندقاً ثانياً لهـم في الاسكندرية ، اضافة الى الفندق الذي كانوا يملكونه في هذه المدينـة نفسها ٠ ومن ناحية أخرى انطوت المعاهدة على تعهد البنادقة بألا يقدموا أية مساعدة لأي مشروع صليبي ضد مصر ، ووعدوا بالعمل على كبـح جماح الصليبيين ومنعهم من التوجه الى الديار المصرية(١٩) ٠

وأرسلت البندقية ، عام ١٢٠٧ ـ ١٢٠٨ م ، سفيراً من قبلهـا الـى حلب ، يدعى مارينياني Miariniani ، حيث أبرم هذا السفير معاهـدة تجارية مع صاحب حلب آنذاك ، وهو الأمير غياث الدين غازي بن صلاح الدين الأيوبي ٠ وحصلت البندقية بموجب هذه المعاهدة على فندق وحمام وكنيسة ، وتحددت فيها الرسوم التي يتوجب على التجار البنادقة دفعها في حلب بواقع ١٢٪ من قيمة السلع والمتاجر ؛ كما تعهد الأمير الأيوبـي بتقديم كافة المساعدات للتجار البنادقة في مدينته(٢٠) ٠

ويلاحظ نشاط غير عادي للبنادقة ، في هذه الفترة مع الأيوبيين في مصر والشام . ويبدو أن تفسير هذا النشــاط يرتبط بأحوال التجــار البنادقة في الامبراطورية البيزنطية بصفة عامة وفي القسطنطينية بصفــة خاصة ، ففي هذه الفترة بالذات كانت هناك محاولة لتقويض نفوذ البنادقة في القسطنطينية من قبل أباطرة نيقيه ؛ ولهذا ربمــا شعرت البندقيــة بأن نفوذها ومصالحها التجارية مهددة في القسطنطينية وبالتالي كان عليها أن تبحث عن البديل والتعويض في ميدان آخر ، ولهذا قامت باتصالاتها الآنفة الذكر مع حلب والقاهرة(٢١) .

أخذ التجار البنادقة يتدفقون الى الموانىء المصرية ، على اثر توقيع معاهدة عــام ١٢٠٨ م ، بين البندقيــة والملك العادل الأيوبي ، حتــى أن الأيوبيين أخذوا يشعرون بالقلق ازاء التزايد المستمر للتجار البنادقــة في الاسكندريــة . والدليــل على ذلــك ما رواه الحنبلي من أنــه في عــام ٦١٢ م/١٢١٥ م « توجه العادل الى الاسكندرية ، لأنه اجتمع فيها من تجار الفرنج ثلاثة آلاف رجل وملكان من ملوكهم ، وعزموا أن يثوروا بأهل الاسكندرية ، فأمسك العادل التجار وصادر أموالهم واعتقل الملكين وعاد الى القاهرة »(٢٢) . وعلى الرغم من أن المقريزي نقل هذا الحادث عن الحنبلي(٢٣) ، الا أن كــلا المؤرخين لا يذكــر اســم هذين الملكــين أو الرئيسين ، وان كانا يشيران الى اعتقاد السلطات المصرية بوجود خطــة تستهدف احتلال الاسكندرية بالتعاون مع التجار الفرنجة المقيمين فيها . وطالما أن البنادقة كانوا يشكلون غالبية هؤلاء التجار ، كما يعتقــد أحد الباحثين المحدثين(٢٤) ، فان الأضرار التي لحقت بهــم من جراء عمليــة الاعتقال والمصادرة ، التي قام بها العادل ، كانت كبيرة .

ومع أن المصادر العربية لا تحدد التاريخ الذي أفرج فيه العادل عن التجار البنادقة ولا تذكر ما اذا كانت السلطات الأيوبية قد أعادت اليهــم أموالهم وبضائعهم التي صودرت الا أنه يبدو أن البندقية حاولت ايجاد تسوية لهذه المسألة . والدليل على ذلك أن الملك الكامل ، ابن الســلطان العادل ونائبه في مصر ، قد استقبل سفيراً بندقياً عام ١٢١٧ م ، وقد رحب الكامل بكل المطالب التي تقدم بها السفير البندقي ، وأعرب عن رغبته في تفضيل البنادقة على بقية الأمم الفرنجية الأخرى(٢٥) . واذا كانت هــذه السفارة لا تشير الى الكيفية التي تمت فيها معالجة حادثــة الاسكندريــة (١٢١٥ م) ولا الى مصير التجار البنادقة وأموالهم ، الا أنها تدل على

عودة العلاقات الودية بين البندقية والأيوبيين ، وبالتالي استئناف البنادقة نشاطهم التجاري في مصر ·

ولكن سرعان ما ساءت العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين ، مرة ثانية ، وذلك نتيجة مشاركة البنادقة في الحملة الصليبية الخامسة التي قادها جان دي برين على مصر (٦١٥هـ-٦١٨هـ/١٢١٨-١٢٢١م)· فعندما احتلت هذه الحملة مدينة دمياط رحب البنادقة ، الذين كانوا يعيشون في هذه المدينة ، بقدوم الصليبيين واستيلائهم عليها (١٢١٩ م)؛ وذلك لأن البنادقة نظروا الى سقوط دمياط في أيدي الصليبيين على أنه انتصار تجاري أكثر من كونه انتصاراً عسكرياً · يضاف الى ذلك أن البنادقة كانوا من المتحمسين لرفض شروط الصلح التي تقدم بها السلطان الملك الكامل للصليبيين مقابل الانسحاب من دمياط ، وذلك لأن التجار البنادقة كانوا يرغبون في جعل دمياط مركزاً تجارياً لهم · وعندما أخذ العرب المسلمون يقاتلون لاسترداد دمياط من أيدي الصليبيين وقف التجار البنادقة الى جانب الصليبيين يحاربون دفاعاً عنها(٢٦) ·

وبعد أن استرد العرب المسلمون مدينة دمياط وطردوا الصليبيين منها ، لم تتخذ الحكومة الأيوبية أية اجراءات ضد التجار البنادقة في مصر والشام ، على الرغم من الدور الذي قامت به البندقية في الحملة الصليبية الخامسة · في حين اتخذت جمهورية البندقية ذاتها اجراءات معينة ، نتيجة اخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بدمياط ؛ وذلك بأن منعت رعاياها من تصدير الخشب والحديد والقار الى مصر ، وقامت بمراقبة تجارها وسفنها وفرضت عقوبات على أي تاجر أو سفينة تنقل هذه المواد « الاستراتيجية » الى الموانيء المصرية · ولا شك أن البندقية كانت تدرك أن مثل هذه الاجراءات تلحق بمصالحها التجارية في مصر أبلغ الأضرار وأفدحها ، الا أنها ربما اضطرت الى ذلك تحت ضغط البابوية والامراء الصليبيين في الشام(٢٧) ·

ويبدو أن البندقية رغبت في أن تعوض عما لحق بتجارتها من خسائر نتيجة اخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بدمياط من جهة ، والاجراءات التي اتخذتها لمنع المتاجرة مع مصر من جهة أخرى ، لهذا نجد مجلس الشيوخ (السناتو) البندقي يبعث ، عام ١٢٢٥ م ، سفارة الى مدينة حلب برئاسة توماس فوسكاريني Thomas Fosscarini · ونجحت السفارة في توقيع معاهدة تجارية مع الملك العزيز ابن الملك الظاهر غازي ، صاحب حلب ،

اشتملت على منح البنادقة تسهيلات تجارية في المدينة وتخفيض الرسوم الجمركية ، بحيث أصبحت ٦٪ بدلا من ١٢٪ ، كما اشتملت المعاهدة على ضمانات بشأن سلامة ممتلكات البنادقة في حلب في حالة الوفاة أو الغرق ٠ ولم تمض أربع سنوات (١٢٢٩ م) حتى وصلت سفارة بندقية أخرى الى حلب ، وعقدت معاهدة تجارية أخرى مع الملك العزيز نفسه انطوت على تجديد للامتيازات التي حصل عليها البنادقة في معاهدة عام ١٢٢٥ م(٢٨) ٠

وفي عام ٦٣٦ هـ/١٢٣٨ م بعث دوج البندقية سفارة الى القاهرة برئاسة روموس كيورينو Romous Quirino ويعقوب باروشيو Jacebus Barocio . ووقعت هذه السفارة معاهدة تجارية مع السلطان الأيوبي العادل الثاني ٠ وتعتبر هذه المعاهدة على جانب كبير من الأهمية لأنها كانت أساساً لكل المعاهدات التجارية التي وقعتها جمهورية البندقية مع السلاطين الأيوبيين والمماليك حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي٠ وذلك لأنها حددت أشكال الحماية التي تعهدت السلطات الأيوبية بمنحها للبنادقة وسفنهم في مصر وموانئها ؛ كما أنها حددت أشكال المعاملات التجارية والمالية التي يجب على البنادقة ممارستها في الأسواق المصرية ؛ فضلا عن أنها حددت حقوق البنادقة وواجباتهم(٢٩) ٠

وانتظمت العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين ، في ظل المعاهدة السابقة ، وازداد النشاط التجاري للبنادقة في مصر ، وأخذت الأساطيل التجارية التابعة للجمهورية تصل بانتظام الى الاسكندرية ، وأخذت الجالية التجارية البندقية في الاسكندرية تمارس نشاطها وفق المعاملات التجارية التي حددتها هذه المعاهدة ٠ ولم تمض سنوات قليلة حتى تمكنت سفارة بندقية أخرى من توقيع معاهدة تجارية أخرى من السلطان الأيوبي ، الصالح نجم الدين أيوب ، عام ٦٤١ هـ/١٢٤٤ م ، انطوت على تجديد الامتيازات التجارية التي مُنحت للبنادقة في معاهدة عام ١٢٣٨ م ، وأضافت اليها امتيازاً آخر ينص على تعهد السلطان بحماية البنادقة وممتلكاتهم من الاعتقال والمصادرة(٣٠) ٠

ويبدو أن العلاقات التجارية بين الأيوبيين والبنادقة ، في السنوات الأخيرة من حياة الدولة الأيوبية ، كانت مزدهرة ؛ والدليل على ذلك عدم اشتراك جمهورية البندقية في حملة الملك الفرنسي ، لويس التاسع ، على مصر والشام ، وهي الحملة التي أطلق عليها اسم الحملة الصليبية السابعة (١٢٤٨ ـ ١٢٥٠ م)(٣١) ٠ فقد كان على لويس التاسع ، ليضمن نجاح

حملته الصليبية على مصر ، أن يستعين بالبندقية ، التي تمتلك بحرية قوية في حوض البحر المتوسط · فبعث لويس بسفارة من قبله الى جمهورية البندقية ، وأبدىدوج البندقية استعداده لمساعدة الحملة · غير أن الشروط التي قدمتها البندقية كفيلة بأن تُظهر مقدار استجابتها لرغبة فرنسا ، وهي تدل دلالة قاطعة على أن الدوج كان قد بالغ في الشروط التي قدمها للوفد الفرنسي ، مقابل تقديم البندقية مساعدتها للحملة ، وذلك ليكون الرفض من جانب فرنسا ، وليضمن ، في الوقت ذاته ، بقاء علاقاته الودية مع الأيوبيين ، وتعزيز الامتيازات التجارية التي يتمتع بها البنادقة في الدولة الأيوبية ، والحفاظ على المصالح الاقتصادية والتجارية الكبرى لجمهورية البندقية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط · وعلى الرغم من أننا لا نعرف الدواعي الحقيقية التي حملت سفراء لويس التاسع على قطع المفاوضات مع الحكومة البندقية ، ولا يوجد بين الوثائق ما يميط اللثام عن حقيقة هذه المسألة ، فانه من المؤكد أن البندقية عارضت فكرة مهاجمة مصر ، نظراً للمعاهدات التجارية التي ربطتهم بالأيوبيين ، فضلا عن مصالحهم الاقتصادية الضخمة في مصر والشام(٣٢) ·

البنادقة في مصر والشام :

وعاش التجار البنادقة ، وغيرهم من التجار الفرنجة ، في المدن المصرية والشامية ، على هيئة جاليات تجارية ، الا أنه لم يكن لهذه الجاليات أحياء أو مناطق خاصة بها داخل هذه المدن ، كما هو الحال بالنسبة الى الجاليات التجارية البندقية في القسطنطينية والمدن الصليبية ؛ وانما عاش التجار البنادقة داخل فنادق وضعتها السلطات تحت تصرفهم · وقد أشار الرحالة بنيامين التطيلي ، الذي زار مصر في بداية عهد صلاح الدين ، الى الفنادق التي كان يأوي اليها التجار ويقول : « ولتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم ، وهم في ضجة وجلبة يبيعون ويشترون » (٣٣) · ويلاحظ أن فنادق الايطاليين جميعاً في مصر والشام ، كانت عبارة عن أبنية مربعة الشكل ومحاطة بسور متين ، وتتألف من عدة أدوار تشرف على ساحة داخلية تستخدم لتعبئة السلع والمتاجر وتفريغها · وكانت مستودعات التجار وحوانيتهم في الدور الأرضي ، في حين استخدمت غرف الأدوار العليا لسكن التجار واقامتهم فيها · واشتمل الفندق أيضاً على حمامات وأفران خاصة بالتجار المقيمين في الفندق ، وكان يحيط بالفندق حدائق

جميلة ؛ وكان يقوم موظف بندقي بادارة كل فندق من فنادق البنادقة في مصر والشام يطلق عليه اسم الفندقي(٣٤) ·

وبعثت جمهورية البندقية قناصل للاشراف على جالياتها في مصر والشام ، وكانت تستبدلهم بعد سنة أو سنتين أو ريثما تبعث من يحل محلهم · وكان هؤلاء القناصلة يمثلون دولة البندقية وصلة الوصل بين أبناء جلدتهم والسلطات المحلية من جهة وحكومة البندقية من جهة أخرى · وكان القنصل البندقي مسؤولا عن ادارة شؤون الجالية البندقية ورعاية مصالحها · كما كان القنصل مسؤولا أمام السلطات المحلية عن كل ما يصدر عن أفراد جاليته من مخالفات للقوانين والتقاليد العربية الاسلامية في مصر والشام(٣٥) ·

ويلاحظ أن قناصلة جمهورية البندقية ، في مصر والشام ، اتخذوا من فنادق جالياتهم مقراً لهم ؛ في حين كان لزملائهم في بيزنطة والامارات الصليبية مقر خاص بهم · وفي الوقت الذي كان فيه قناصلة البندقية في الدولة البيزنطية والمدن الصليبية يتمتعون بسلطات مطلقة من قبل حكومتهم ويعقدون المعاهدات التجارية والسياسية مع الأباطرة البيزنطيين والأمراء الصليبيين ، كان قناصلة البندقية في مصر والشام ، في العصر الأيوبي ، يفتقدون لمثل هذه السلطات ، فلا نسمع أن أحداً منهم قد وقع معاهدة مع السلطات الأيوبية · وفضلا عن ذلك فقد كان قناصلة البندقية في مصر والشام يفتقدون للنفوذ السياسي ، في هذين البلدين ، الذي تحقق لزملائهم في بيزنطة والامارات الصليبية · وفي الوقت الذي نجد فيه قناصلة البندقية ، في بيزنطة والمملكة الصليبية ، يتدخلون في الشؤون المحلية ويمارسون تأثيراً واسعاً على الشؤون السياسية ويتآمرون للاطاحة بامبراطور أو ملك ، فاننا لا نجد أي تأثير أو نفوذ لقناصلة جمهورية البندقية على سياسة السلاطين والحكومات العربية الاسلامية في مصر والشام ·

وصفوة القول أن الأيوبيين ، في مصر والشام ، قد حرصوا أشد الحرص على اقامة أوثق العلاقات التجارية مع جمهورية البندقية · ويتضح من المعاهدات التجارية ، التي وقعها سلاطين الأيوبيين مع حكومات البندقية ، أن الأيوبيين قد عملوا على تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية من خلال علاقاتهم مع جمهورية البندقية ، وهي :

أولا : الحصول على السلع والمتاجر ، التي كان العرب المسلمون في الشرق الأدنى بحاجة ماسة اليها ، مثل الأخشاب والحديد والرقيق والأسلحة والدروع ، وغيرها من المواد « الاستراتيجية » التي تمكنهم من استمرار الصراع مع الصليبيين ·

ثانياً : زيادة الواردات المالية للدولة عن طريق تشجيع التجار البنادقة على القدوم الى الموانىء المصرية والشامية ، والقيام بعمليات الاستيراد والتصدير ، خاصة وأن الرسوم الجمركية والضرائب ، التي كانت تُفرض على التجار الفرنجة ، قد شكلت مصدراً هاماً من مصادر خزينة الدولة الأيوبية ·

ثالثاً : العمل على دفع جمهورية البندقية ، التي كانت في مقدمة القوى البحرية في عالم البحر المتوسط ، في العصر الأيوبي ، على اتخاذ موقف الحياد ، على الأقل ، ازاء الصراع العربي – الصليبي في الشرق الأدنى ·

ولقد حركت جمهورية البندقية سياستها بمهارة فائقة بين الأيوبيين والصليبيين ، لتحقيق مصالحها الاقتصادية الكبرى في مصر والشام ، فعندما كان ميزان القوى في الشرق الأدنى ، خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر ، يميل لصالح الصليبيين ، كانت البندقية تقف الى جانبهم بغية توسيع امتيازاتها التجارية في المدن والامارات الصليبية · ولكن عندما اعتدل الميزان بشكل واضح وحاسم لصالح العرب المسلمين ، منذ اعتلاء صلاح الدين السلطنة في مصر والشام ، أخذت البندقية توسع علاقاتها التجارية مع الأيوبيين وتمدهم بالمواد الاستراتيجية على الرغم من نداءات البابوية والرأي العام الأوروبي ، وذلك كله حرصاً على مصالحها التجارية الكبرى في مصر والشام ·

الحــواشــي

١ ـ لعبت جمهورية البندقية دوراً خطيراً في تاريخ الحروب الصليبية .. سواء في نقل الصليبيين الى الشرق على سفنها وأساطيلها ، أو في مساعدتهم على احتلال بعض المدن والمواقع في الساحل الشامي ، أو في تثبيت الوجود الصليبي وحمايته عن طريق تأمين الاتصال البحري بين الامارات الصليبية والغرب الأوروبي من جهة ونقل المؤن والأسلحة والقوات الى هذه الامارات من جهة أخرى • وقد حصل البنادقة ـ مقابل هذه المساعدات ـ على امتيازات تجارية واسعة في المدن الصليبية • انظر في تفصيل ذلك : عادل زيتون : العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ١٢٩ وما بعدها •

٢ ـ انظر : عادل زيتون : المرجع نفسه ، ص ١٨٧ •

٣ ـ تطلبت الصناعات النسيجية في الغرب الأوروبي ، في العصور الوسطى ، استخدام أحجار الشب بشكل واسع النطاق ؛ وذكر ابن مماتي « أن الشب حجر معروف يحتاج اليه في أشياء كثيرة أهمها صبغ الأحمر ، وللروم فيه الرغبة بمقدار ما يجدون من الفائدة .. وهو عندهم ما لا بد منه ولا مندوحة عنه » • انظر : ابن مماتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٨ ؛ انظر أيضاً المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٨ •

٤ ـ William of Tyre, Hist. of deeds, Vol. 11, P. 336.

٥ ـ عادل زيتون : ص ١٨٨ •

٦ ـ Baker, Med. trade routes, P. 8.

٧ ـ آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، الترجمة العربية ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ ؛ حسن ابراهيم حسن : الفاطميون ، ص٦١٢ •

٨ ـ Heyd, Hist. du Commerce, 1, P. 114, Beazley, op. cit., 11, P. 404.

٩ ـ انظر : عادل زيتون : المرجع نفسه ، ص ١٩٠ •

١٠ـ ارناط فارس صليبي كان في خدمة الملك الفرنسي لويس السابع عندما وصل الأخير الى الشرق في الحملة الصليبية الثانية • تزوج ارناط من وريثة امارة انطاكية الصليبية • ثم أصبح حاكماً لحصن الكرك ، وأخذ بمهاجمة قوافل الحجاج المسلمين وهم في طريقهم الى الحرمين الشريفين • وفي عام ١١٨٢ أقدم ارناط على مشروع خطير استهدف به تحقيق سيادة الفرنجة الصليبيين على البحر الأحمر وغزو مكة والمدينة • وبالطبع لم يسكت صلاح الدين عن تهديد الحرمين ، وتمكنت بحريته في البحر الأحمر من تحطيم السفن الصليبية وبالتالي مشروع ارناط • وفي معركة حطين وقع ارناط أسيراً وقتله صلاح الدين بسيفه وذلك « وفاء نذره » • انظر تفصيل ذلك عند : المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٧٩ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٨٣ وما بعدها •

١١ـ تجار الكارم هم مجموعة من التجار المسلمين الذين قاموا بنقل سلع ومتاجر الشرق الأقصى من اليمن الى مصر . وبخاصة التوابل والفلفل ولهذا عرفوا « بتجار الفلفل والتوابل أو البهار »• وقد استمر نشاط تجار الكارم ما بين القرن الثاني عشر وأواخر القرن الخامس عشر • انظر : ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ، ص ١٤٧ •

١٢ـ انظر نص الرسالة عند أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٦ ـ ٣٧ •

١٣ـ انظر النص الأصلي للرسالة عند : القلقشندي : صبح الأعشي في صناعة الانشا ، ج ١٣ ، ص ٨١ ـ ٩٠ •

١٤ـ أحدثت هزيمة الصليبيين في حطين ثم فتح صلاح الدين لبيت المقدس عام ١١٨٧ م رد فعل عنيف في الغرب الأوربي • وسرعان ما قامت الحملة الصليبية الثالثة ، التي اشترك فيها فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا وفيليب اغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا • فشلت هذه الحملة في تحقيق هدفها وهو إعادة احتلال بيت المقدس واسترداد ما فتحه صلاح الدين • وانتهت الحملة بتوقيع صلح الرملة عام ١١٩٢ م بين صلاح الدين وزعيم الحملة ريتشارد قلب الأسد • عن دوافع هذه الحملة وظروفها وأحداثها ونتائجها انظر :
عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٨٣٧ وما بعدها •

١٥ـ بعد استرداد صلاح الدين لبيت المقدس وفشل الحملة الصليبية الثالثة أخذ البابا انوسنت الثالث ، الذي اعتلى العرش البابوي عام ١١٩٨ م ، يدعو الى حملة صليبية جديدة تتجه هذه المرة الى مصر باعتبارها المركز الرئيسي للقوة العربية الاسلامية في الشرق • واستهل انوسنت عهده بالكتابة الى البنادقة يطلب منهم ألا يبيعوا أو يتبادلوا مع العرب المسلمين «بالمواد الاستراتيجية» والا تعرضوا لغضب الكنيسة وحرمانها • ولكن البنادقة احتجوا على قرارات البابا مما اضطر انوسنت الثالث الى منح البنادقة امتيازاً يحق لهم بموجبه المتاجرة مع العرب المسلمين بجميع المواد ما عدا تلك التي تخدم القوة الحربية العربية كالأخشاب والحديد والأسلحة والقار والرقيق • انظر :

Thatcher, O., A Source book For Med. Hist., PP. 535-37; Heyd. op. cit., 1, PP. 404-405.

١٦ـ Heyd, 1, P. 399.

١٧ـ عادل زيتون : المرجع نفسه ، ص ١٩١ •

١٨ـ لعبت البندقية دوراً كبيراً في تحويل الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤ م) عن هدفها الأصلي ، وهو مصر ، الى القسطنطينية • وذهب بعض الباحثين المحدثين ، امثال ماس لا تري وكارل هويف ، الى القول أن البندقية قامت بتحويل الحملة عن مصر نتيجة اتفاق سري ، كان قد تم توقيعه بين الحكومة البندقية والسلطان الملك العادل الأيوبي وذلك في ١٣ مايو عام ١٢٠٢ م ، اشتمل على منح البنادقة امتيازات تجارية سخية في الاسكندرية ، مقابل أن يقوم البنادقة بتحويل الحملة عن مصر • انظر مناقشة ذلك عند :

Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire, 11, PP. 455-58

١٩ـ Mass la Trie, PP. 70-72.

٢٠ـ Heyd, 1, PP. 374-75.

٢١ـ عادل زيتون : ص ١٩٢ ٠

٢٢ـ الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، مخطوط ، ورقة ٦١ أ ٠

٢٣ـ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ١٧٥ ٠

٢٤ـ Beazley, The dawn of Modern Geography, 11, P. 416.

٢٥ـ Heyd, 1, P. 404.

٢٦ـ انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٥ـ١٩ ، ٣٢ـ٣٤ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٧٥ ؛ محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، ص ٢٧٥ ٠

٢٧ـ عادل زيتون : ص ١٩٤ ٠

٢٨ـ Heyd, op. cit., 1, PP. 373-75; Beazley, op.cit., 11, PP. 416-17.

٢٩ـ Mass la Trie, Traité des paix et de Commerce, PP. 72-74.

٣٠ـ Ibid., PP. 76-77.

٣١ـ ان أهم الدراسات التي صدرت بالعربية عن حملة لويس التاسع بالذات هي : محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، القاهرة ، ١٩٦١ ؛ جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر « هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور » ، الاسكندرية ، ١٩٦٩ ؛ جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام « هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة » ، الاسكندرية ، ١٩٧١ ؛ حسن حبشي : الشرق العربي بين شقي الرحى.« حملة القديس لويس على مصر والشام » ، القاهرة ، ١٩٤٩ ٠

٣٢ـ Heyd, op. cit., 1, P. 409.

٣٣ـ بنيامين التطيلي : رحلته ، الترجمة العربية ، ص ١٧٩ ٠

٣٤ـ انظر : عادل زيتون : المرجع نفسه ، ص ٢٤٤ ٠

٣٥ـ انظر : ابن شاهين : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص ٤١ ٠

كتابة تاريخ العرب

مشــروع اللجنــة التحضـيريـة

١ ـ هـدف المشروع :

اعادة كتابة تاريخ العرب في موسوعة كاملة واحدة تؤكد الوحـدة العريقة للأمة العربية وغزارة ما قدمت للحضارة الانسانية ، وتكـون وسيلة بين أيدي الأجيال العربية الجديدة لفهم الحاضر (الواقع) العربي في جوانبه المضيئة وجوانبه المظلمة وفي امكاناته الواعدة ، ولتزويد هـذه الأجيال بالثقة بنفسها وبأمتها وبالقدرة على استيعاب منطق التقدم نفسه وبالوعي التاريخي الذي يحرر الماضي من أثقاله ويمنحه وزنه الحقيقي ، والذي يعمل على تكوين بعد أساسي من أبعاد الشخصية العربية ٠

ان اعادة كتابة تاريخ العرب تنبـع من حاجة قوميـة قائمة وملحـة لتحرير الارادة القومية المبدعة في انطلاقها لصنع التاريخ الجديد ،ولذلك ليس المطلوب مجرد اضافة كتاب الى الكتب الموجودة ، بل المطلوب مـن كتابة التاريخ العربي من جديد أن يبرز خصائصه الكبرى ومنها :

١ ـ انه يحتفظ في جميع مراحله ، بنزوع عميق الى ترسيخ وحدة الأمة العربية ٠ فهو يرسم خطا متصلا على الرغم من التعرجات والالتواءات التي فرضتها عليه التحديات الخارجية وعوامل الوهن الداخلي ٠ فأمراض التخلف والتجزئة التي لحقت أحياناً بجسد الأمة العربية لم تحرف روحها الدفينة عن أمانيها الثابتة ٠ وذلك يؤكد أن الأمة العربية الواحدة لا تملك تاريخاً واحداً فحسب ، ولكنها تنعكس في تاريخ وحدوي أصيل ٠

٢ ـ ان التوق الى العـدل في صوره الفردية والاجتماعيـة ، سمة بارزة من سماته : تجسد ذلك في الفترات التي كان العرب فيها سادة أنفسهم، كما بقي ، في الفترات الأخرى ، مخزوناً في ضمائرهم ، يكشف عن نفسه في حركات القلق المتمرد وفي جملة نتاجهم الروحي ٠

٣ ـ ان الحرية ، بكل معانيها ملازمة للوجود العربي في الزمـان

والمكان فهي من مقدسات الأفراد والجماعات لدى العرب ، يدافع عن بقائها ويعتز بها حين تكون ، ويجاهد في سبيل استردادها حين تزول ·

والعبرة هنا ليست في أشكال الحرية التي تحددها مقتضيات العصور وظروف النمو ، وانما في معناها الراسخ القائم على رفض السيطرة والطغيان ، وعلى الايمان بأنها قانون الحياة الانسانية ·

٤ ـ ان العرب لم يتخلوا مطلقاً عن حمل رسالة انسانية ، فهم متفتحون على كل ما هو خير عند الأغيار ، قادرون على الأخذ والعطاء وعلى التفاعل الخصيب مع الانجازات البشرية ، بل ان القيم الكبرى التي تحدوهم للنضال لم يعتبروها حكراً لهم أو مقصورة عليهم بمقدار ما اعتبروها حقوقاً طبيعية للجماعات الانسانية كلها ·

٥ ـ ان رابطة حية تجمع بين مظاهر الحياة العربية فأحداث السياسة لا تنفصل عن نتاج الفكر والوجدان ، ولا عن نزعات الشعب الدائمة · لذلك يجدر بالتاريخ العربي أن يؤكد الصلة بين تجلياته المتعددة بحيث يبرز ما فيها من تأثير متبادل ، ومن تعبير موحد في الوقت نفسه ·

٦ ـ ان التاريخ العربي الذي يكشف عن روح الأمة العربية لا يمكن أن يفسر بهذا العامل وحده أو ذاك ، وانما يفهم في ضوء مجموع العوامل المتآزرة حيناً والمتناقضة حيناً آخر ، بحيث يتضح دور كل من البيئة والتطور الاقتصادي والمؤثرات الأجنبية والتحديات والضعف الداخلي وغير ذلك الى جانب الارادة المصممة على تحقيق القيم المعنوية والرسالة الانسانية ·

٢ ـ مبادىء العمل :

تجري كتابة (تاريخ العرب) ضمن منظورات ثلاثة هي : المنطلق الوحدوي ، والفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد باسلوب البحث العلمي ·

آ ـ ينطلق العمل من الايمان العميق بوحدة الأمة العربية بمر العصور من جهة وفي مختلف أقاليم الوطن العربي من جهة أخرى · والمنطلق الوحدوي يقتضي :

- كشف وحدة التيارات التاريخية والحضارية في مختلف العصور ·
- اظهار ترابط الأقطار العربية وخاصة عند تعرضها للأخطار الخارجية التي تستهدف الوطن العربي أو جزءاً منه ·
- تأكيد استمرار العطاء الحضاري العربي للانسانية بمر العصور وفاعلية هذا العطاء وقيمته الانسانية الرفيعة ·

ـ تجنب مزالق التعصب المنصري ومشاعر التفرقة والعصبيات الدينية أو الطـائفيـة ٠

ب ـ أما الفهم الحضاري للتاريخ فيهدف الى ابراز الجانب الانساني من تاريخ العرب ، واعطاء هذه الأمة قيمتها الحضارية بين الأمم ٠ لهذا يـؤكـد علـى :

ـ ضغط التفاصيل السياسية والأحداث الهامشية قدر الامكان ٠ وبالمقابل يجري التركيز على ابراز الأحداث الحضارية من اجتماعية وفكريـة واقتصاديـة وفنيـة ٠

ـ تخفيف ما اعتـاد المؤرخـون من قبـل ابـرازه من أدوار الأفـراد في التاريخ ليبرز بالمقابل دور الشعوب والقواعد الجاهيرية الواسعة ٠

ـ النظر الى التطورات التاريخية على أنهـا تطور مجتمعـات ذات روح حضارية واحدة وحركة ذاتية متصلة واتجاه لا ينقطع نحو الأسمى ٠

ـ كشف ما قدمه العرب من أسس حضارية للانسانية وبيان استمرارية هذه الأسس وفاعليتها ٠

ج ـ وأما التقيد بأسلوب البحث العلمي فهو يقتضي :

ـ اتباع المنهجي التاريخي في أغنى صوره من حيث اعتمـاده على مختلف العلوم المساعدة ، وعلى المصادر الأصلية ٠ وعلى التوثيق الدقيق ٠

ـ عرض الآراء المختلفة عند الضرورة عرضاً موضوعياً ٠

ـ تحليـل الأحـداث والوقـائـع في تطـورهـا الحـي وليس سـردهـا المتسلسل السكوني ٠

ـ بحث الأحداث في جذورها الاقتصادية والاجتماعية واظهار دور العوامل الروحية ، وذلك بحسب ما تقتضيه الفترة التاريخية وطبيعة الأحداث ٠

ـ عدم اهمال الصالات العالمية تأثيراً وتأثراً في مختلف العصور ، بمعنى أن يكون المنظور العالمي الشامل حاضراً في الذهن عند التحليل والتفسير٠

ـ اعتماد القيـم الأساسية في الثقافـة العربية لتقويم الأحـداث الهامـة والاشارة الى النقائص والأخطاء ٠

ـ الاهتمام الدائم بشرائط العرض التاريخي من حيث التماسك الداخلي ووضوح العبارة وسلامة الأسلوب ٠

هذا وان الهدف الأول من مبادىء العمل كلها أن تكشف الموسوعة عن روح الأمة العربية وعبقريتها الذاتية، وأن تتخذ الاحداث الكبرى دلالات قومية وانسانية بحيث تفصح عن معنى الوجود العربي ونمائه في التاريخ .



هذه هي المنطلقات والأنظار التي افتتحت بها اللجنة التحضيرية مشروعها المقترح لكتابة تاريخ العرب ، وهي تمثل الشق الأول من شقي المشروع ، اما شقه الثاني فيمثل تقسيم المسيرة التاريخية العربية الى مراحل او حلقات ، عرضت مشفوعة بطائفة من التوجيهات الأساسية التي هدت اليها النظرة العلمية النقدية في مضمار التاليف التاريخي ، يستنير بها ويستمد منها المؤلفون وهم يعالجون موضوعات التاريخ العربي .

لقد اعدت اللجنة التحضيرية مشروعها المقترح بعد لقاءات جمة ، واجتماعات مطولة ، فكان مشروعها الاستجابة العلمية لحصيلة ما اسفرت عنه المناقشات والأحاديث في تلك اللقاءات الخصبة . وانجزت اللجنة مشروعها عام ١٩٧٦ ، وقدمته للعلماء المؤرخين والفلاسفة والمفكرين ودعاة القومية العربية ، للنظر فيه وابداء الرأي والمذاكرة حول ما تضمنه : هدفا ، ومبادىء عمل ، ومنهاج تاليف ثم كانت الدعوة لندوة دمشق (٢٠ - ٢٢ كانون الأول ١٩٧٧) التي حضرها علماء مؤرخون وباحثون ومفكرون قوميون من اقطار الوطن العربي . واتخذت الندوة مشروع اللجنة التحضيرية ورقة عمل لها ، ناقشتها مناقشة مستفيضة ، واغنتها بآراء المنتدين وافكارهم ، وأوضحت المعاني التي رمت اليها بمشروعها ايضاحا ينفي اي لبس في فهمها ، واي غموض في مدلولها ، ويعزز الالتزام بالمنهج النقدي التاريخي ، والتقيد بالنظرة العلمية في كتابة موسوعة التاريخ العربي .

جرى النقاش حول المنطلق الوحدوي ، وما مرماه وغايته ؟ فبسط ايضاح المراد منه ، وانه لا يعني الخضوع لفكرة مسبقة تقسر الحقائق وتزور الوقائع ، ولكنه الحافز العميق ووجهة النظر للكشف والتقصي ، وابراز هذه الوحدة الثقافية الحضارية التي تجلت بها شخصية الأمة العربية ، مهتدين ومسترشدين في عملنا دائما بالمبدأين الثاني والثالث من مبادىء العمل وهما الفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد باسلوب البحث العلمي وانتهاج الموضوعية في كتابة التاريخ العربي والتمسك بها .

وجرى النقاش خصبا حيا منتجا حول مدى التوافق بين المنطلقات النظرية وفقرات البرنامج المقترح ، لينتهي الى ايثار المقياس الحضاري والنظرة الأفقية في تاريخ مسيرة الأمة العربية ، واشتقاق السمة العامة والصفة الغالبة لكل مرحلة من مراحل تاريخها ، وهكذا تأبعت الدورات اعمالها، ومضت في مناقشاتها وحوارها ، ثم انتهت الى مقرراتها وتوصياتها .

وقد جمعت أعمال اللجنة التحضيرية ومناقشات ندوة دمشق ، وصدر بها العدد التمهيدي من مجلة « دراسات تاريخية » عام ١٩٧٩ ، هذه المجلة التي كان ظهورها تلبية لاحدى توصيات تلك الندوة ، لتتلاقى على صفحاتها أقلام الباحثين والدارسين ، يكملون الحوار ، ويخصبون الفكرة وينضجون بنار الروية منطلقاتها وانظارها ، ونهجها العلمي ، ويتقدمون بالمقترحات التي تعين على تحقيق المشروع العظيم ، وتؤذن باخراجه من القوة الى الفعل .

دراسات تاريخية

مجلة علميّة فصليّة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

العدد الثالث ، صفر ١٤٠١ هـ / كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٠ م

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب
جامعة دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

ثمن العدد

سورية	٣٠٠ ق.س	السعودية	٦ ريالات
لبنان	٣٠٠ ق.ل	الامارات العربية	٧٫٥ دراهم
الاردن	٣٠٠ فلس	مصر العربية	٤٥٠ مليماً
العراق	٦٠٠ فلس	ليبيا	٤٥٠ مليماً
الكويت	٤٠٠ فلس	تونس	٦٠٠ مليم
عدن	٦٠٠ فلس	الجزائر	٦ دنانير
البحرين	٦٠٠ فلس	المغرب	٦ دراهم
قطر	٦ ريالات	السودان	٧٥٠ مليماً

تنويه

☐ الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبها

☐ ترتيب البحوث يخضع لضرورات فنية

هذا هو العدد الثالث من مجلة ((دراسات تاريخية)) . وبصدوره نؤكد مرة اخرى على محاولة الالتزام بالنهج الذي رسمته هذه المجلة لنفسها ، والتقيد ـ بقدر ما تسمح الظروف والامكانات ـ بخطها الى الهدف المقصود والغاية المحددة .

فالمجلة جزء ، بل خطوة من خطوات ، تخدم كلها وبمجموعها الفرض الاساسي ، الا وهو كتابة تاريخ العرب كتابة تلتزم المنهج العلمي النقدي ، وتخدم الامة العربية ، بما يساعد توجيه مسيرتها نحو المستقبل الذي تصبو اليه .

فالهدف علمي وقومي ، يخدم العلم بقدر ما يخدم الامة ، وبالتالي فهو من مسؤولية الجميع . ونقصد بالجميع جمهور المفكرين في جمع أقطار الوطن العربي ، من مؤرخين وأثريين وباحثين ، وعاملين في شتى ميادين الفكر العربي ، على امتداد تاريخ الوطن العربي . والمجلة تفتح لم صفحاتها كمنبر تعرض عليه كل الآراء ، وميدان لاختبار كل جديد . كيما يثبت الصحيح ، وينتفي كل ماهو محرف ، أو مشوه .

وقد لبى دعوتنا واستجاب لندائنا للمشاركة في هذا العمل الهادف نفر كريم من الباحثين العرب ، وزودونا بثمرات مباركة من ثمار فكرهم ونتاج أقلامهم ، كونت مادة الاعداد الثلاثة من هذه المجلة . ونحن ، اذ نرى لزاماً علينا ان نشكرهم ، فاننا مازلنا بانتظار المزيد منهم ، وفي الوقت نفسه نجدد الدعوة الى الباحثين والمفكرين الذين لم يشاركونا بعد ، للانضمام الى الركب في سيره نحو الهدف النبيل الذي يسعى اليه .

عـدد خاص

بمنـاسبة حلول القرن الخامس عشر للهجرة

تصدر مجلة « دراسات تاريخية » عدداً خاصاً بمناسبة حلـول القرن الخامس عشر للهجرة ، تتناول بحوثه الموضوعات التالية :

آ ـ الهجرة النبوية : أحداثها ، معانيها ، آثارها .

ب ـ على عتبة عام هجري جديد: تقييم للماضي واستشفاف للمستقبل.

ج ـ من السـيرة النبويـة : دراسات تحليلية للاحـداث السياسية والمنجزات الاقتصادية والاجتماعية ، والتغيرات التي طرأت على المجتمع العربي بعد الاسلام .

د ـ موضوعات في مختلف ميادين الحضارة العربية الاسلامية .

هـ ـ أي موضوع يختاره الباحث مما له صلة بالتاريخ العربي الاسلامي.

على أمل أن تصل البحوث الى المجلة في موعد أقصاه غاية شهر شباط (فبراير) ١٩٨١ ، ليتسنى أعدادها للنشر .

منهجية ابن خلدون التاريخية
وتأثيرها
في المقدمة، وكتاب العبر

د. محمد الطالبي

استاذ في كلية الآداب ــ الجامة التونسية

لم يكن ابن خلدون مؤرخا كغيره من المؤرخين . والسبب الاساسي في ذلك هو أنه لم يكن مؤرخا فحسب . كان أيضاً مفكراً ، بل انه كان مفكرا قبل أن يكون مؤرخا . وكان ابن خلدون خاصة ــ وهذا مالا يؤكده أبداً بما يكفي من الالحاح ــ رجلا من رجال السياسة ، من أولائك الرجال الذين برزوا الى الميدان ، وجربوا مسؤوليات الاحكام وخيباتها ، في أوضاع اشتد تعقدها في فترة حاسمة من فترات الحضارة العربية الاسلامية .

ومما يجب أن نؤكده أيضاً هو أن تكوين ابن خلدون لم يكن ، انطلاقا وبادىء ذي بدء ، تكوين مؤرخ . ان كل الكتب التي كتبها قبل المقدمة تدل على خلاف ذلك . كان اتجاهه اولا نحو الفلسفة باشراف استاذه الابلي (١) . فلخص في سن العشرين من عمره ، مؤلف الرازي : (كتاب بمحصل أفكار المتقدمين والمتاخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين (٢) وقد بلغنا هذا الملخص بخط ابن خلدون (٣) ، وهو (لباب المحصل في أصول الدين) ، وطبع بتطوان سنة ١٩٥٢ وله كتب اخرى (٤) واكبت الفترة الاولى من حياته كلها تدل على أن همه لم يكن في التاريخ ، كما أنه استقر في النهاية بالقاهرة كقاض واستاذ يدرس الفقه المالكي والحديث (٥) ، لا علوم الماضي .

ان التقاء ابن خلدون بالتاريخ كان اذن عرضا في حياته ، ومنعرجا مفاجئا بقدر ما كان حاسما . هذا المنعرج كان في ملتقى طريقين : طريق المغامرات السياسية وطريق التأمل في الماضي قريبه وبعيده . فالطريق الاولى قد سلكها بنفسه ، وحط رحاله في المغرب في كل مراحلها التي تسودها المؤامرات ، والاغتيالات ، والخيانة ، والانتصارات الفاشلة ، والاجهاضات . والطريق الثانية تلوح متشابكة المسالك ، ملتوية الممرات كثيرة المتاهات ، معقدة في

صعودها ونزولها ، في أضوائها وظلماتها . وقف ابن خلدون في ملتقى الطريقين يتأمل . فبعد أن ارتمى في النشاط السياسي بكل ما يملك من اندفاع الشباب وحماسه وطموحه ، وبكل ما يوفره له رصيد اسـرته ، أراد ـ وقد نيف عن الاربعين ـ ان يعتبر ويفهم . فاعتزل طوال اربع سنوات (٧٧٦ ـ ٧٨٠ / ١٣٧٥ ـ ١٣٧٩) بقلعة بني سلامة (٦) ، وهكذا التقى ـ بل قل اصطدم ـ بالتاريخ . ولم تكن هذه العزلة ـ كما قد يتوهمه البعض ـ تقية سياسية بقدر ما كانت لحاجة نفسانية ملحة قد سبق أن راودته من حين لآخر (٧) .

أحس ابن خلدون بالحاجة الى الفرار من الضوضاء ، والى محاولة فهم ما كان يجري من أحداث . وكيف تفهم الاحداث ما لم توضع في احداثيات الزمان والمكان ، أي في اطارها التاريخي ، وهكذا أصبح ابن خلدون مؤرخاً . لم يكن التاريخ من قبل حرفة له ، ولم يسبق أن ألف فيه قط . ولم يكن التاريخ في الحقيقة قصده المباشر كغيره من المؤرخين ، وهم كثرة ، وانما كان وسيلة لقصد أبعد ؛ كان التـاريخ أداة للاجـابة على تلك الاسئلـة الكثيرة والملحة التي كانت تشغل باله . فالتاريخ بالنسبة اليه لم يكن غاية ونهاية في حد ذاته ، كما هو الشأن بالنسبة للمؤرخين المحترفين .

ولقد بقي ابن خلدون يتذكر جيدا تلك الحالة النفسانية ، أو الروحانية، التي اعترته وهيمنت عليه في عزلته ، حين كانت تجيش في خلده المعاني التي افرغها في وعاء المقدمة على شكلها الاول حين تدفقها ، ثم ما فتىء فيما بعد يهذبها ويضيف اليها الى آخر حياته حتى اكتملت على الصورة التي بلغتنا . وكانت تلك الحالة ، لاحتدامها ولما واكبها من اكتشافات ـ او قل تجليات ـ تشبه تماماً حالة الالهام . وهكذا يصفها في تعريفه (٨) .

(وانزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة .. فأقمت بها أربعة أعوام ، متخليا عن الشواغل كلها . وشرعت في تأليف هذا الكتاب ، وانا مقيم بها ، واكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت اليه في تلك الخلوة . فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر ، حتى امتخضت زبدتها وتالفت نتائجها وكانت من بعد ذلك الفيئة الى تونس كما نذكره) .

ماذا اكتشف ابن خلدون في عزلته ؟ هل اكتشف علم التاريخ ؟ كلا ! انما هو اكتشف علما لم يكن معروفا من قبل ، فأعطى هذا المولود الجديد اسم

علم العمران ، وله وضع المقدمة . وفي ذلك انعراج بين نقطة الانطلاق ، ونقطة البلوغ .

عند الانطلاق ، كانت شواغله بدون شك تتعلق بالمنهجية التاريخية (٩) ذلك انه ، لسلامة التأمل في الحوادث ، قريبها وبعيدها ، حاضرها ، وماضيها، لابد من التأكد من صحة ما يروى الينا وينقل . فوجب البحث عن منهجية توفر هذه الصحة . غير أن هذا البحث أدى الى نتيجة لم تكن مفترضة مسبقا ، أو متوقعة حتما عند الانطلاق . لقد أدى البحث الى اكتشاف (علم مستقل بنفسه) (١٠) . وكم يقع هذا للعباقرة من أصحاب العلوم صحيحها وغيره ! ولئن كان هذا العلم الجديد لابد منه للمؤرخ لكونه من العلوم الاساسية المساعدة له في معالجة فنه ، فان ذلك لايزيل عنه بحال الاستقلال والقيام بالذات . وكان ابن خلدون واعيا لذلك كامل الوعي بل ان عبارته تدل على مدى اندهاشه لهذا الاكتشاف المفاجيء ، وعلى اعتزازه بطرافة وخطورة ما اهتدى اليه بحدس يشبه الالهام الالهي . وان كان هو يعترف ان هناك من مهد له السبيل (١١) ومن أهمهم ارسطو ، فهو يؤكد بالحاح سبقه واختراعه ، قائلا :

(وكان هذا علم مستقل بنفسه : فانه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الانساني ، وذو مسائل ، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته (١٢) واحدة بعد اخرى . وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا . واعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، اعثر عليه البحث ، وأدى اليه الغوص (١٣) .

ويضيف أنه (كأنه علم مستنبط النشأة) (١٤) ، ثم يزيد في الالحاح مؤكدا من حديد : (ونحن الهمنا الله الى ذلك الهاما ، واعثرنا على علم جعلنا بين نكرة وجهينة خبره (١٥) فان كنت قد استوفيت مسائله ، وميزت عن سائر الصنائع انظاره وانحاءه ، فتوفيق من الله وهداية . وان فاتني شيء من احصائه ، واشتبهت بغيره مسائله ، فللناظر المحقق اصلاحه ، ولي الفضل لاني نهجت له السبيل واوضحت له الطريق . والله يهدي بنوره من يشاء (١٦) .

ان ما نقلنا ، قول فصل بقلم المؤلف وعبارته ، لايترك مجالا للشك في ان المقدمة ، وان اتت كمقدمة لكتاب العبر ، انما هي في جوهرها وعاء لعلم جديد ، وانه اذا ما اردنا أن نجيد فهمها وفهم العلم الذي وضعت له ، يجب

ان نفهمها قبل كل شيء في حد ذاتها وفي كل ثرائها . فابن خلدون قد وضعها للكشف عما يلحق (العمران البشري والاجتماع الانساني) (من العوارض والاحوال لذاته) ، أي للكشف عن النواميس الطبيعية التي تحرك الكون وتدفعه في طريق التاريخ . وقد سبق (١٧) أن بينا ان (العوارض الذاتية) في اصطلاح ابن خلدون انما هي القوانين التي بنيت عليها العلوم الصحيحة ، وفي مقدمتها علم الهندسة .

كيف حصل هذا الاكتشاف الخطير الذي خلد ذكر ابن خلدون واحله اسمى مكان بين مفكري البشرية ؟

قلنا ان شواغله كانت اولا منهجية ، وانه كان يرغب ايضا من التاريخ فهم الواقع الذي مارسه . وهو يبسط هذه الشواغل وهذه الرغبة في كل وضوح ، في التوطئة (١٨) التي استهل بها تاليفه وكذلك في مقدمة (١٩) المقدمة ، اي الكتاب الاول ، وان كان هذا الوضوح لايخلو من التردد الذي لاينفلت منه كل واضع لعلم جديد .

يبدأ ابن خلدون فيشيد بفن التاريخ ، ويلاحظ أنه ، وان هو (في ظاهره لايزيد على أخبار عن الايام والدول (٢٠) فهو (في باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق (٢١) وهو كذلك كله (أصيل في الحكمة عريق (٢٢)) . فيربط هكذا بمجرد ما يضع القلم بين انامله ويشرع في تأليفه ، بين التاريخ و (التعليل) ـ أي الفهم عن طريق استقصاء الاسباب ـ و (الحكمة) ، أي الفلسفة .

ثم يأخذ يستعرض بسرعة ما انجز من قبل ، ويخص بالذكر ابن اسحاق (١٥٠ هـ/٧٦٧ م) والطبري (٢٢٤ ـ ٨٣٩/٣١٠ ـ ٩٢٣) ، وابن الكلبي (٢٠٤ /٨١٩) والواقدي (محمد بن عمر ١٣٠ ـ ٧٤٧/٢٠٧ ـ ٨٢٣) ، والاسدي (٢٠٠هـ/٨١٥ م) ، والمسعودي (٣٤٦ هـ/٩٥٧ م) من أصحاب التواريخ العامة (٢٣) وابن حيان (٣٧٧ ـ ٩٨٧/٤٦٩ ـ ١٠٧٦) والرقيق (٢٤) (بعد ١٠٢٦/٤١٧) من اصحاب التواريخ المقيدة بقطر أو عصر (٢٥) . ويضيف : (ثم لم يأت من بعد هؤلاء الا مقلد بليد الطبع والعقل ، أو متبلد ينسج على ذلك المنوال ، ويحتذى منه المثال ، ويذهل عما احالته الايام من الاحوال (٢٦) ومعنى ذلك أن التاريخ ناله الجمود في نظره ، وهو في حاجة الى تجديد . وهذا ما جره الى وضع كتاب رسم له كغاية ان يكون (مذهبا عجيبا ، وطريقة مبتدعة ، واسلوبا (٢٧)) .

ثم يعطينا التخطط العام للكتاب ، الذي رتبه (على مقدمة وثلاثة كتب) (٢٨)

المقدمة : في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والالماع بمغالط المؤرخين.

الكتاب الاول : في العمران ، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية ، من الملك والسلطان ، والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ، وما لذلك من العلل والاسباب .

الكتاب الثاني : في أخبار العرب ، وأجيالهم ودولهم ، منذ مبدأ الخليقة الى هذا العهد . وفيه الالماع ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم ،مثل: النبط ، والسريانيين ، والفرس ، وبني اسرائيل ، والقبط ، واليونان ، والروم، والترك ، والافرنجة .

الكتاب الثالث : في اخبار البربر ومن اليهم من زناتة ، وذكر اوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول (٢٩) .

والذي ينبغي أن يلاحظ أولا هو أن ما نسميه مقدمة ، فابن خلدون يسميه كتابا أولا — ومستقلا — موضوعه العمران ، يتلوه كتاب ثان ، خص به العرب ، ويقع في الطبعة الحالية في اربعة أجزاء ، ثم كتاب ثالث ، يقع في جزئين ، خص به البربر . فهذه كتب ثلاثة كل منها منفصل بموضوعه ، وان كانت لاتخلو من صلة فيما بينها . فالمقدمة الحقيقية لاتزيد اذن عن نحو اربع واربعين صفحة(٣٠) ويشرح لنا ابن خلدون أن هذه المجموعة المكونة من مقدمة ، وثلاثة كتب منفصلة بمواضيعها ، قد أعطاها في النهاية ، بعد أن أتمها بالمشرق (فاستوعب اخبار الخليقة فيها استيعاباً (٣١)،عنوانا عاما جامعا لالواحها الثلاثة وهو(كتاب العبر . .) وفي هذا العنوان العام تتلخص وتتبلور شواغل المؤلف واهدافه : لقد كان يبحث عن الفهم والعبرة ، اذ التاريخ بالنسبة اليه ، كما سبق أن بينا (أصيل في الحكمة عريق) .

كان اذن ابن خلدون تحدوه الرغبة الملحة للفهم والاعتبار ، وذلك لانه لم يكن، انطلاقا ، مؤرخا محترفا، قاصرا همه على الجمع والتسجيل. وكان كما أكدنا، قد اهتم اولا بالحكمة عن طريق الرازي وابن رشد واستاذه الابلي . وكان عالج السياسة وعرف المرارة وجرب الفشل . وكان خاصة كغيره من أصحاب اليقظة من مثقفي عصره — لا سيما من سلبت منهم ديارهم (٣٢) او من ساروا في

الارض كالعبدري (٢٣) فقاسوا بحسرة عمق الانحطاط ـ قد عرف مضاضة الحيرة والقلق ،لما شاهد من احتضار الحضارة الاسلامية في ايامه ذلك الاحتضار الذي جعل من وطن اجداده باشبيلية ارضا مسيحية . ولقد زادت هذه الحيرة تازما صدمة الطاعون الجارف الذي ذهب بأبويه (٢٤) وما نال المغرب من انهيار دمغرافي (٢٥) يتحدث عنه بمرارة ، ذلك الانهيار الذي أفرغ البلاد من أهلها ، وعطل عمرانها . كل ذلك حز في نفس ابن خلدون ، واذكى فيها رغبة الفهم وتقييم الوضع ويظهر ذلك بوضوح لايقبل الشك في حديثه عن الدواعي التي دعته الى تأليف كتابه ، قائلا :

(واما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة ، فقد انقلبت أحوال المغرب الذي شاهدوه وتبدلت بالجملة ... هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيّف الامم وذهب بأهل الجيل ، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها ، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها ... وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر ، فخربت الامصار والمصانع ، ودرست السبل والمعالم ، وخلت الديار والمنازل ... واذا تبدلت الاحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله،وتحول العالم بأسره،وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والافاق وأجيالها ، والعوائد والنحل التي تبدلت لاهلها، ويقفو مسلك المسعودي لعصره ، ليكون أصلا يقتدي به من يأتي من المؤرخين من بعده (٢٦)) .

كان ابن خلدون يشعر اذن بشدة أنه يعيش فترة أزمة كونية وانقلاب كلي . فحسب انه سيقفو أثر المسعودي في تدوينه (أحوال الخليقة) لكنه اراد أن يكون مسعوديا اكثر دقة ونقدا في تسجيل الحوادث . تلك كانت نقطة الانطلاق في بحثه .

وهكذا اخذ في المقدمة الحقيقية ، والوجيزة الحجم كما بينا ، يستعرض (مغالط) المؤرخين (٢٧) ممن سبقه ، ولم يستثن منهم المسعودي رغم اعجابه به (٢٨) ، بل هو يقسو عليه بالحاح خاص (٢٩) . وهذه (المغالط) العديدة هي التي دعت ابن خلدون للبحث عن أسبابها ، وتلك مرحلة أساسية في كل علم تسبق وتهيء البحث عن العلاج .

فاتضح له اولا أن هناك عوائق تعوق دون الموضوعية عامة ، ومنها الانحياز الى مذهب معين والالتزام به (٤٠) أو الانقطاع الى حاكم او اسرة لاسباب مادية (٤١) . لكن حتى في حالة توفر ارادة التقيد بالموضوعية فان هناك سببا

اساسيا ورئيسيا يجر الى الوقوع في الغلط والانزلاق في الوهم ، وهذا السبب هو الاكتفاء بالاعتماد على مجرد الرواية بدون سابق تمحيص يقيني . كان هذا الاعتماد اساس اصحاب العلوم النقلية كلها ، سواء كانوا (ائمة النقل (٤٢)) من المؤرخين والمفسرين ، أو من المحدثين وغيرهم . والحال (أن الاخبار ، اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ... فربما لم يؤمن فيهـا مـن العثور ، ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق) (٤٣) لاسيما اذا كان هذا النقل (غثا وسمينا (٤٤)) والذي جر كامل المؤرخين الى التمادي في الاعتماد على الروايات أي على منهجية الحديث (٤٥) دون مقياس خاص بفنهم ، هو ذلك (التقليد (٤٦)) المشفوع بالغفلة الذي ساد أساليبهم في كل مؤلفاتهم . فاذا ماتم لابن خلدون اذن اكتشافـه لعلم العمران ، اى لما نسميه اليوم بالعلوم الاقتصادية والاجتماعية ، فانما كان ذلك اولا وعلى الخصوص نتيجة لثورته على (مجرد النقل) و (التقليد) ، والتماسه مقياسا خاصا يناسب طبيعة التاريخ .

يلاحظ ابن خلدون أن منهجية الحديث ، التي أساسها التأكد من ثقـة الرواة قد وضعت خاصة للعلوم الشرعية وما يتبعها من أمر ونهي ، ويعترف انها ، في ميدانها هذا المحدود ، لا تزال صالحة ومفيدة ، بل لا وسيلة غيرها . لكنه ــ وهنا تكمن نقطة التحول ــ يؤكد أن التاريخ ليس من نوع العلوم الشرعية. فهو يفصله عن بقية العلوم النقلية ، محدثا بذلك ثورة في أساليب وتفكير عصره، وذلك لاسباب :

منها اولا أن التاريخ لس بجامد قارّ ، وانما هو في أساسه حركة ونمو . (ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال ، في الامم والاجيال ، بتبدل الاعصار ومرور الايام . وهو داء دوى ، شديد الخفاء ، اذ لا يقع الا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الا الاحاد من أهل الخليقة . وذلك أن أحوال العالم والامم ، وعوائدهم ونحلهم ، لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الايام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال . وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار ، فكذلك يقع في الافاق (٤٧) والاقطار ، والازمنة والدول . **سنة الله التي قد خلت في عباده** (قرآن) .

ثم هو يجد حجة أخرى ــ وهي حجته الحاسمة ــ في تقسيم البلغاء للكلام الى خبر وانشاء ، ومعلـوم أن الخبر ، في تعريفهم ، ما يصح فيه التصـديق

والتكذيب ، ويدخل في ذلك مجموع الشهادات وكل انواع الاخبار على اختلاف اقسامها . واما الانشاء فهو ما لا يصح فيه تصديق ولا تكذيب ، كالامر والنهي، والاستفهام والدعاء وما الى ذلك .

فأما ما هو من قبيل الانشاء (٤٨) — وتدخل ضمن ذلك خاصة الشرائع ، وهي أوامر ونواه ، وعقائد — فلا سبيل للتأكد من صحته عن غير طريق التأكد من ثقة الرواة فيما ينقلونه . وقد وضع علماء الدين ، للتأكد من ثقة الرواة علم التعديل والتجربة والتجريح (٤٩) والفوا في طبقات الرجال .

وأما ما هو خبر ، فان توثيق الرواة — عن طريق التعديل والتجريح — لايضمن فيه السلامة من الوقوع في أفحش وأوضح خطأ (وليس ادل على ذلك من تلك السلسلة الطويلة من (المغالط) السافرة التي وقع فيها مؤرخون — من صنو الطبري والمسعودي وغيرهما ممن لايختلف اثنان في عدالتهم — والتي أسهب فيها ابن خلدون كما سبق أن أشرنا الى ذلك .

وفي ذلك في نظره دلالة قاطعة على أن مايدخل من الكلام في نوع الخبر عرضة بنوع خاص للتحريف ، عمداً ، أو غير عمد ، من وجوه عدة .

فابن خلدون ينبه ان (الكذب متطرق للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه (٥٠)) فمن هذه الاسباب التي تطرأ عن غير عمد ، ذاك (الذهول عن تبدل الاحوال) الذي سبقت الاشارة اليه ، ومنها أيضا المذهبيات التي ادت ومازالت تؤدي ، الى انواع من إلباس الحق بالباطل ، عن قصد وغير قصد ، عندما تتحول الى التزام ، أو الى تعصب يعمي ويصم . فابن خلدون يعبر عنها (بالتشيعات للاراء والمذاهب) ، ويضيف ان (التشيع غطاء على عين البصيرة (٥١)) . ومنها تقرب الناس في الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح ، وتحسين الاحوال ، واشاعة الذكر بذلك ، فتستفيض الاخبار بها على غير حقيقة (٥٢)). ومعنى ذلك وضع المؤرخ والتاريخ — بالاغراء المادي — في خدمة السياسة على حساب الحقيقة ، وهو مالم يخل منه عصر ولا نظام .

فما الحيلة اذن ؟! لقد ثبت ان منهجية الحديث ، القامة على نقد السند عن طريق التعديل والتجريح ، غير مجدية — بمفردها — في حصر الحقيقة . فما فائدة النظر مثلا في السند عندما يكون الخبر المنقول خرافة سافرة مستحلة

الوقوع عقلا ؟! ومثل ذلك ما يروي المسعودي بكل جد ، في شأن تمثال الزرزور الذي برومة ، تجتمع اليه الزرازير في يوم معلوم من السنة ، حاملة للزيتون، ومنه يتخذون زيتهم (٥٣) .

يترتب على ذلك أولا ان نقد السند ، ان كان شرطا ضروريا ، فانه غير كاف ولا اساسي ، بل يجب أن يأتي في مرحلة ثانية وتكميلية ، بعد التأكد مسبقا من امكانية وقوع الحدث المروي في حد ذاته ، وذلك بوسائل اخرى انفع واجدى .

ويعبر ابن خلدون عن هذا بقوله : : (ولا يرجع الى تعديل الرواة حتى يعلم ان ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع . وأما اذا كان مستحيلا ، فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح . ولقد عد أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لايقبله العقل (٥٤) .

فلا بد اذن من تعويض منهجية الحديث بمنهجية اخرى اليق بالخبر ، يأتي فيها نقد السند في الرتبة الثانية ، هذه المنهجية الجديدة التي اكتشفها ابن خلدون هي منهجية التاريخ . وفي هذه المنهجية يحتل الرتبة الاولى (قانون المطابقة) ، الذي عنه سيتفجر علم العمران ، ذلك العلم المستقل بنفسه ، و (المستنبط النشأة) ، الذي هو موضوع الكتاب الاول . وهكذا يعرض ابن خلدون هذا القانون الذي يلعب في تفكيره دورا محوريا :

(وأما الاخبار عن الواقعات ، فلابد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة. فلذلك وجب أن ينظر في امكان وقوعه ، وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه ، اذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط ، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة . واذا كان ذلك ، فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار ، بالامكان والاستحالة ، أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ، ونميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضا لايعتد به ، وما لايمكن أن يعرض له . واذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الاخبار ، والصدق من الكذب ، بوجه برهاني لامدخل للشك فيه . وحينئذ ، فاذا سمعنا عن شيء من الاحوال الواقعة في العمران ، علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه . وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه . وهذا هو غرض هذا الكتاب الاول من تأليفنا .

(وكأن هذا علم مستقل بنفسه : فانه ذو موضوع ، وهو العمران البشري والاجتماع الانساني ، وذو مسائل ، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته (٥٥) ، واحدة بعد اخرى . وهذا شأن كل علم من العلوم ، وضعيا كان أو عقليا (٥٦)) .

ان قانون المطابقة الذي يحتل في منهجية ابن خلدون التاريخية مكان حجر الزاوية ، يستلزم اولا النظر (في الاجتماع البشري الذي هو العمران) . ولقد الح المؤلف على هذه الفكرة في مواطن عديدة سابقة (٥٧) ، والغرض من هذا النظر هو استخلاص ما يلحق هذا الاجتماع (من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه) . ولقد رأينا أن هذه العبارة وشبيهاتها تؤدي في مصطلح ابن خلدون معنى القوانين الطبيعية اليوم عندنا . ذلك أن ابن خلدون كان يريد أن يحكم ، في (تمييز الحق من الباطل) ، (اصول العادة ، وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران) (٥٨) ، أو ما يسميه أيضا (بطبائـع الكائنات (٥٩)) أو (طبائـع الموجودات (٦٠)) ، أو (طبائع الاحوال في العمران (٦١)) ويعتبر (هذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض) (٦٢). فتأكد لديه وجوب الكشف عن هذه (الطبائع) ، أو النواميس التي توجه كل شيء في حياة البشر : السياسة ــ وقد ذاق حلوها ومرها ــ والاحوال الاجتماعية ، والاحداث التاريخية . ورأى أنه لابد في كل ذلك (من قيس الغائب منها بالشاهد (٦٣)) والاطلاع على (اختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق ، والعوائد والنحل ، والمذاهب وسائر الاحوال ، والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق ، أو بون ما بينهما من الخلاف ، وتعليل المتفق منها والمختلف ... (٦٤)) وهكذا اقتنع ابن خلدون أنه لابد أن يجمع بين علمي الحاضر والماضي ، أي أن يكون في نفس الوقت عالما اجتماعيا ومؤرخا . وهكذا التقى فيه البعدان اللذان عنهما تفتقت (العبقرية) .

ان تطبيق قانون المطابقة جره الى الكشف عن القوانين الاجتماعية ، وذلك كي يجعل منها ، (بوجه برهاني لامدخل للشك فيه) ، (معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه) . وهذا هو ، حسب عبارته، غرض الكتاب الاول من تأليفه، ذلك الكتاب الذي اعتدنا أن ننعته، توسعا، بالمقدمة.

وخلاصة القول ان أهل الحديث قد ركزوا جهودهم على النقد الخارجي ، واكتشف ابن خلدون أهمية النقد الباطني . ذلك انه قد اتضح لديه أن النقد الخارجي ــ مهما كان مفيدا أو ضروريا ــ فهو غير كاف بالنسبة لما يدخل من العلوم النقدية في نوع الخبر من الكلام حسب اصطلاح البلغاء . فان كانت

الشريعة جملة انشاء ، فالتاريخ محض خبر ، فهو في حاجة الى معيار خاص ومنهجية اليق به . فلقد استنبط المحدثون قوانين نقد السند ، التي يعتبرها ناجحة في ميدانها ، أي بالنسبة للشريعة والانشاء عامة ، ووضعوا لهـا علم التجريح والتعديل ، وألفوا تبعا لذلك في طبقات الرجال . واستنبط هو قانون المطابقة للنواميس الاجتماعية فوضع لذلك بدوره علم العمران ، استهدف فيه الكشف عن النواميس التي تسير وتتطور طبقها الاحداث والمجتمعات . هكذا ولدت على يد ابن خلدون ، العلوم الاقتصادية والاجتماعية ، وافردت لاول مرة في تاريخ البشرية بالتأليف عن حدة .

هذه العلوم وزعها ابن خلدون على ستة فصول (٦٥) محكمة التنسيق :

١ ــ (الفصل الاول في العمران البشري على الجملة) : أي البيئة وتأثيرها في الكائنات البشرية ، اتنولوجية ، وانطربولوجية .

٢ ــ (الفصل الثاني في العمران البدوي) : أي في الحضـارات الريفية المقامة غالبا وعادة على الزراعة ، والتي كثيرا ما تكون بدائية . فهي ترتكز على ما نسميه اليوم بالقطاع الاول .

٣ ــ (الفصل الثالث في الدول ، والخلافة ، والملك) : اي في المؤسسات السياسية والادارية التي تنشأ مـع كل حضارة مهما كانت بسيطة ، وتنظم الحياة الاجتماعية .

٤ ــ (الفصل الرابع في العمران الحضاري ، والبلدان والامصار) : أي في الحضارات التي عندما تبلغ النضج تزدهر خاصة في المدن ، وترتكز على ما نسميه اليوم القطاع الثاني ، وتبلغ هكذا اسمى المراحل رقيا وتطورا .

٥ ــ (الفصل الخامس في الصنائع ، والمعاش والكسب) : اي في العلوم الاقتصادية ، التي لابد من تحليلها لفهم (العمران الحضري) ، وهذه العلوم تهم كامل انشطة القطاعين الثاني والثالث ، وتزداد تعقدا بازدهار العمران .

٦ ــ (الفصل السادس في العلوم ، واكتسابها ، وتعلمها) : أي فيما تفرزه الحضارات ، بقدر ما تبلغ من الاكتمال ، من انواع الثقافة ، التي تكتسب بالبحث ، وتورث وتكتنز بالتعلم ، فتنموا هكذا نموا متواصلا .

فهذا تخطيط سلمي ، لا اعوجاج ولا تشويش فيه ، بل هو يخضع الى منطق لاينكسر . وفيه دلالة على شمول النظرة بالنسبة لكامل المظاهر الاجتماعية فالمحور الذي تلتئم حوله كل القضايا يرتكز دائما على التساؤل الملح عن السر في قيام الحضارات ، وذبولها وموتها ثم قيام حضارات اخرى تخلفها ، وتذهب شوطا ، أو أشواطا ، أبعد بالمشعل الذي تتسلمه من سابقاتها ، **(سنة الله التي قد خلت في عباده** (٦٦) **)** . وهـذا التساؤل ، الذي يعطي لكل الفصول وحـدة الاسلوب والاتجاه في بسط القضايا ومعالجتها،وطيد الصلة بالتجربة الوجودية التي عاشها المؤلف ، وأوحت له بالعزلة ، والتأمل ، والتأليف .

بقي علينا الآن ، وقد ضبطنا علاقة كتاب ابن خلدون في العمران بمنهجية التاريخ أن نضبط هذه العلاقة بينه وبين الكتابين الذين خص بهما المؤلف التاريخ الصرف ، تاريخ العرب ، وتاريخ البربر .

ماذا ستكون ، في الزمان وفي المكان ، حدود هذا التاريخ الذي كان ابن خلدون يريد أن يكتبه ، وماذا سيكون مضمونه ؟ كان تردده شديدا في كـلا المستويين .

كان في أول أمره ، عندما اعتزل بقلعة بني سلامة ، يفكر في تاريخ المغرب فحسب وذلك تحت تأثير الحوادث السياسية التي شارك فيها ، والسجون التي دخلها ، والامراء الذين خدمهم واستخدموه ، والفراغ البشري الذي قاسه في تنقلاته ــ وللطاعون فيه دوره ــ وخلو البلاد من عصبية ، أو قـوة سياسية في مستوى الاضطلاع بمتطلبات الساعة ، وغير ذلك من الخيوط الظاهرة والخفية التي حاكت الازمة التي عاشها ــ وكان المغرب يتخبط فيها ــ فقاده كل ذلك نحو الاعتزال للخلوة بنفسه قصد التأمل والتأليف . ولم يكن اذ ذاك يطمع في أن يكون اكثر من مسعودي المغرب ، وهو عن ذلك يعبر بقوله :

(وانا ذاكر في كتابي هذا ما امكنني منه في هذا القطر المغربي ، اما صريحا او مندرجا في اخباره وتلويحا ، لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب ، واحوال اجياله وامه ، وذكر ممالكه ودوله ، دون ما سواه من الاقطار ، لعـدم اطلاعي على احوال المشرق وامـه ، وان الاخبار المتناقلة لا توفي كنـه ما اريد منـه ، والمسعودي انما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه في البلاد ، كما ذكر في كتابه ، مع انه لما ذكر المغرب قصر استيفاء احواله ، وفوق كل ذي علم عليم (٦٧)) .

كان ابن خلدون هكذا يعتزم في أول امره الاقتصار على أحوال المغرب . ثم حدث ان رحل الى الشرق وبه استقر ، فاتيحت له فرصة اكمال معلوماته واثراء تجاربه فاذا بتاريخ المشرق يطغى على تأليفه ، فيستأثر منه بسهم الاسد ، أي بضعفي تاريخ المغرب حجما (٦٨) . ومن حسن حظنا فقد سها ابن خلدون عن حذف النص الذي سبق ــ الذي يضبط نقطة الانطلاق ويكشف تردده ــ واكتفى بالتنبيه الى الظروف التي يسرت توسيع حدود تصنيفه وآفاقــه ، فضمن ذلك في خطبة الكتاب التي كانت طبعا آخر ما حرر بعد ما تم التأليف واكتمل ، واصبح هكذا من اليسير عرض اهدافه وتخطيطه . وفي ذلك يقول :

(ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء انواره ، وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره ، والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره . فأفدت ما نقص مــن أخبار ملوك العجم بتلك الديار ، ودول الترك فيما ملكوه من الاقطار ، واتبعت بها ما كتبته في تلك الاسطار ، وادرجتها في ذكر المعاصرين لتلك الاجيال من أمم النواحي ، وملوك الامصار والضواحي ، سالكا سبيل الاختصــار والتلخيص ، مقتديا بالمرام السهــل من العويص داخلا من باب الاسباب على العموم ، الى الاخبار على الخصوص فاستوعب اخبار الخليقة استعيابا ، وذلل (٦٩) من الحكم النافرة صعابا واعطى لحوادث الدول عللا وأسبابا ، واصبح للحكمة صوانــا وللتاريخ جرابــا (٧٠))

وحيث ان هذا التأليف ، في شكله النهائي وفي الكتاب الثاني منه ، لم يغفل الى جانب العرب (منذ مبدأ الخليقة) ، (الالماع ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم ، مثل النبط والسريانيين ، والفرس ، وبني اسرائيل ، والقبط ، واليونان ، والروم ، والترك ، والفرنجة (٧١) ، فان ابن خلدون اعتبره ــ مهما كان الماعه الى غير العرب والبربر محدودا ــ تاريخا عالميا ، (استوعب اخبــار الخليقة استيعابا) حسب تعبيره ، مــع الاقتصار الضروري في مثل هــذه الموسوعــات (٧٢) .

ونلمس ايضا نفس التردد في مستوى المضمون . ويظهر ذلك في تعريفه للتاريخ فهو ، في مستهل الكتاب الاول الذي وضعه كما قدمنا في العمــران ، يجنح الى أن يجعل منه علما شاملا للانسان في كل اوضاعه المتطورة ، اي كشفا عن سر تسلسل حلقات النشوء والارتقاء (٧٣) فيعرفه هكذا :

(اعلم انه لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحش والتأنس والعصبيات ، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال ... (٧٤)) .

كان طموح ابن خلدن يهدف اذن باديء ذي بدء الى أن يجعل من التاريخ قصة النشوء والارتقاء ، ووعاء ضخما يستوعب (سائر ما يحدث) في العمران حسب النواميس الطبيعية التي تسيره ، والتيكان يعتزم استكشافها واجلاءها. والى هذا ، أو شبهه ، تسعى اليوم الكتابة الحديثة للتاريخ ، خاصة ابتداء من منتصف هذا القرن (٧٥) . غير أنه من الجلي البديهي انه لم يكن ليستطيع تحقيق هذا الهدف الطموح الذي يتجاوز ، لامقدرة شخص مهما كان عبقريا ، بل مئات الاشخاص . وانما هو بناء مستمر لن يتحقق الا على مر الاجيال ، وبمشاركة جماعية لم تزل متواصلة . ويكفي ابن خلدون فخرا أن يكون حدسه ألهمه هذا التصور العريض للتاريخ ، وهداه الى رسمه كفاية ، عبر عنها بدقة مدهشة سابقة لعصره وامكاناته .

فمن الطبيعي اذن الا نجد في الكتابين ، الثاني والثالث — من ناحية المضمون — كتابة تاريخية تتفق والتعريف الذي سبق . فقد اكتفى فيهما ابن خلدون بكتابة تقليدية ولقد عبر عن ذلك ، من الناحية النظرية وبصفة تكشف عن تردده ، في مواطن اخرى من المقدمة العامة التي وضعها لكامل تأليفه ، بما في ذلك الكتاب الاول في العمران . فهو يعرف فيها أيضا التاريخ تعريفا تقليديا مألوفا على هذا النحو :

(اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الامم في اخلاقهم ، والانبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه ، في أحوال الدين والدنيا (٧٦)) .

فهذا التاريخ ، بهذا المفهوم الضيق ، هو خاصة تاريخ انبياء ، وملوك ودول ، الغاية منه — لا فهم الانسان في تطوره كما سبق في التعريف الاول — وانما (الاقتداء) (في أحوال الدين والدنيا) . ولا يختلف هذا الهدف عما

استهدفه من قبل الطبري وغيره ممن حذا حذوه من المؤرخين . فلا طرافة فيه ولا تجديد . ويؤكد ابن خلدون هذا الاتجاه التقليدي مرة اخرى في نهاية نفس المقدمة العامة ، فيقول :

(ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها : وهي أن التاريخ انما هو ذكر الاخبار الخاصة بعصر أو جيل . فأما ذكر الاحوال العامة للافاق والاجيال والاعصار ، فهو أسّ (للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده ، وتتبين به أخباره) (٧٧) .

وهكذا نراه في خاتمة المطاف يقصر التاريخ على مضمونه التقليدي ، المتعارف منذ قرون ، ويفصل عنه ما يهم الانسان من حيث هو انسان متطور ، فيجعل من ذلك (أسّاً) منفصلا عن حدة ، تنبني عله مقاصد المؤرخ ، أي عملية التأريخ ، فهذا الاس المنفصل والمستقل بذاته ، هو موضوع اكتشافه وعمله الجديد ، وقد ضمن ذلك الكتاب الاول في العمران (٧٨) .

والذي يستخلص من هذا كله هو أن ابن خلدون كان واعيا كل الوعي انه كان مجددا ثوريا في كتابه الاول في العمران ، مقلدا كلاسيكيا في كتابيه الثاني والثالث في التاريخ ، اذ ــ بعد التردد الذي أشرنا اليه ــ لم يقصد فيهما في النهاية حسب عباراته سوى (الاختصار والتلخيص مقتديا بالمرام السهل من العويص (٧٩) ، كما ينص في التوطئة العامة التي انجزها عندما انتهى من التأليف وأتى دور التقديم وشرح الهدف والتخطيط . نفسان اثنان اذن في تأليف ابن خلدون ، نفس ثوري تجديدي في الكتاب الاول في العمران ، وآخر مألوف تقليدي في الكتابين الثاني والثالث في التاريخ ، يجب أن نميز بينهما بكل دقة ووضوح اذا ما أردنا الا نتيه في متاهات تفضي بنا حتما الى الخلط والتضليل .

غير أن هذا لايعني ان ابن خلدون لم يكن شديد الاعجاب أيضا بالناحية التاريخية من تأليفه . فهو كما قدمنا ، يعتبر ان تاريخه قد (استوعب أخبار الخلقية استيعابا ، وذلل من الحكم النافرة صعابا ، وأعطى لحوادث الدول عللا وأسبابا ، وأصبح للحكمة صوانا ، وللتاريخ جرابا (٨٠)) . وهو يطمح في أن يصبح اصلا يقتدى به من المؤرخين من بعده (٨١)) ، ويتيه اعجابا بانجازه (٨٢) . ولا ننس حملته على من سبقه ، وان مما دعاه الى التأليف الحاجة الى اصلاح وتقويم ماوقع فيه هؤلاء من أوهام واخطاء اسهب في ذكر نماذج منها ، وكان

قصده طبعا الا يقع في مثلها ، متسلحا في ذلـك (بحسن نظر وتثبيت يفضيان بصاحبهما الى الحق ، وينكبان بـه عن المزلات والمغالط (٨٣)) . وذلك بفضـل المنهجية التي أعدها وسبق تحليلها .

فالسؤال الذي يطرح نفسه اذن هو : هل نجح ابن خلدون فيما كان يعتزم وهل لاعجابه بانجازه ما يبرره ؟

لقد عدل ، كما سبق أن رأينا ، عن أن يعطي لتاريخه مضمونا ثوريـا بالنسبة لعصره ، سابقا له ، ومستحيل التحقيق . لكن هل أحسن تطبيق قانون المطابقة الذي أعـده فضبط على الاقل الحوادث ضبطا يبعث على الارتيـاح والاطمئنان ، ويفوق ما عهدناه في مصنفات سابقيه ، المنتقدة أحيانا بشدة من طرفـه ؟

ان معاصري ابن خلدون قد اختلفوا اختلافا كبيرا في شأنه ، ولم يساعدهم اعجاب الرجل بنفسه وكبرياؤه على انصافه . فهنـاك من أغرق في اطرائه ، وهناك من أسف في التشنيع عليه حتى أن بعضهم رماه (بمعاشرة الاحداث (٨٤)) لكنهم ، بصفة عامة ، ان قدروا الطرافة في كتابه الاول في العمـران ، فانهم احترزوا في شأن ما يتعلق من تأليفه بالتاريخ الصرف، خاصة بالنسبة للمشرق. فالحافظ ابن حجر العسقلاني مثلا ــ الذي لم يكن من أنصاره ، وان أخذ عليه واستجازه في مؤلفاته (٨٥) ــ يبدو متحفظا فهو يعترف أنه (صنف التاريـخ الكبير ، في سبعة مجلدات ضخمة ، ظهرت فيه فضائله ، وأبان فيه عن براعته) لكن هذا لايمنعه من أن يتهمه بانه (لم يكن مطلعا على الاخبار على جليتها ، ولا سيما اخبار المشرق ، وهو بين لمن ينظر في كلامه (٨٦)) وكذلك بدر الدين العيني ــ وكان من خصومه ، وعنه ينقل ابن حجر ــ فهو ينص أن (له تاريخ في سبعة مجلدات ، أمعن فيه ما يتعلق ببلاده ، ولم يطلع على الامور التي وقعت في بـلاد المشرق على جليتها ، يظهر ذلك لمن ينظر في كلامه (٨٧)) .

ان هذه الاقوال مفيدة لانها تعكس آراء القدماء في ابن خلدون وما أثارته شخصيته القوية من دوافع الاعجاب ، أو العداء السافر . لكن اذا ما اردنا اليوم أن نقيم تاريخه بصفة موضوعية ــ وقد مر الزمان وهدات الاعصاب ــ يجب ان ننظر في هذا التاريخ في حد ذاته ، بصفة عميقة وشاملة . ان هذه النظرة تتجاوز

طبعا حدود هذا المقال . غير أن ما لايدرك جله لايترك قله . ولعل القلّ الذي سنورده ـ اعتمادا على بعض الامثلة ، سيفتح باب النظر والتأليف ، في مستوى الدرجات الجامعية أو غيرها في اتجاه قد غمر وأهمل لطغيان الكتاب الاول في العمران ـ الذي اشبع تحليلا وبحثا ـ على المدارك والعقول .

ان ابن خلدون نفسه قد اعطى نماذج عن تطبيقه لقانون المطابقة الذي ابتكره ـ وأراد ان يجعل له الاولوية على قانون التجريح والتعديل المعتمد في منهجية الحديث التي كانت سائدة بمفردها من قبل ـ وذلك في مقدمة كتابه الاول التي خص بها (فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه (٨٨)) .

فهو ، في هذه المقدمة ، يلاحظ بحق ان ما أورده المسعودي وغيره من المؤرخين من أن جيوش موسى قد بلغت ... ٦٠ مقاتل لايثبت أمام النقد الباطني ، وذلك لاسباب جغرافية ، واستراتيجية ، وبالمقارنة أيضا مع جيوش أمم أخرى كانت أشد قوة وأوسع ملكا . ويؤول هذه المبالغة ، وأمثالها ، بولوع النفس بالغرائب ((٨٩) . ولنفس الاسباب يعتبر الاخبار الواردة في شأن التبابعة، وغزواتهم في فارس والصين ، وخرافة افريقش ودخوله المغرب ، (من الاخبار الواهية (٩٠)) وأنها (أشبه باحاديث القصص الموضوعة (٩١)) فيفندها بأدلة عقلية ، وجغرافية ، وسياسية (٩٢) ، أي بتعارضها مع قانون المطابقة . ثم يضيف (وأعرق في الوهم (٩٣)) ما ورد في شأن (إرم ذات العماد) تلك المدينة المزعومة التي لم يقع لها أحد على أثر . وكذلك ينفي ، بكل جدارة أن تكون نكبة البرامكة نشأت عن قصة غرامية ، بطلاها جعفر بن يحيى البرمكي والعباسة اخت الرشيد ، ويعللها بأسباب أعمق ، وأكثر علاقة بطبيعة الملك ومقتضياته . ومنها (ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجافهم (٩٤) أموال الجباية) . ويعتبر أيضا ـ وهو في ذلك أقل اقناعا ـ ان قانون المطابقة للنواميس الاجتماعية يقتضي أن ننفي ما يروى من (معاقرة الرشيد الخمر) (٩٥) ، وانه انما كان (يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق (٩٦)) كما يقتضي نفس القانون ـ في نظره ـ عدم القدح في نسب الفاطميين ، الذين استطاعوا تأسيس ملك عظيم ، اذ (كيف يقع هذا كله لدعي في النسب ، يكذب في انتحال الامر (٩٧) وكذلك يجب أن ننفي ما قيل في نسب ادريس الثاني، (وانه لراشد مولاهم) (٩٨) اذ هذا في اعتقاده أوغل في الافتراء ، وهو افتراء يرجع لاسباب سياسية ، منها دسائس الاغالبة . والحقيقة التي يدافع عنها ابن خلدون ، اعتمادا على قانون المطابقة ، هي أن ادريس الاكبر كان (عريقا في البداوة ، وان حال البادية في

مثل ذلك غير خافية ، أذ لامكامن لهم يأتي فيها الريب (٩٩) . ثم ، بعد هذا كله، (فادريس ولد على فراش أبيه ، والولد للفراش (١٠٠)) فيأتي هكذا الفقه لنجدة التاريخ . وفوق ذلك كله ينبغي (تنزيه أهل البيت .. فالله ـ سبحانه ـ قد اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . ففراش ادريس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن (١٠١)) . والنواميس الاجتماعية ، في نظر ابن خلدون ، تدعم أيضا صحة نسب المهدي ابن تومرت في أهل البيت ، وذلك لما عرف عن الرجل من (التقشف والحصر (١٠٢)) مما يؤيد أن عمله كان موجها لوجه الله ، (والناس مصدقون في انسابهم) فان قيل (ان الرئاسة لاتكون على قوم في غير أهل جلدتهم) ، فهذا صحيح ، لكن هذا لايستوجب حتما ان ابن تومرت كان بربريا دما ، اذ برسوخ شجرته في قبيلته هرغة ، والتحامه بها منذ زمن بعيد ، فان النسب الاول ، نسب أهل البيت ، (كأنه انسلخ منه ، ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها ، فلا يضره الانتساب الاول في عصبيته (١٠٣)) .

هذه أمثلة من اعتماد ابن خلدون على النقد الباطني للتأكد من صحة ما يروى . وهذه الامثلة تفيد أن قانون المطابقة شيء ، وتطبيقه شيء آخر . فان كان ابن خلدون مصيبا بدون منازع في بعض استقراءاته ، فان ما ذهب اليه في البعض الآخر لايقنع حتما بل نحن نلمسه متأثرا بذلك الانحياز المذهبي ، أو العاطفي ، الذي سبق ان حذر منه بجدارة . ويظهر هذا الانحياز الشعوري ـ الملتهب حماسا احيانا ـ في بعض سبل احتجاجه التي سبق تحليلها . فهو يحكم ، حكما باتا لايقبل الشك ، بصحة نسب ادريس الاصغر ، لان الله ، بنص القرآن ، اذهب الرجس عن أهل البيت ، فهم في نظره ، معصومون عن اقتراف الاثم . فهل من حاجة الى التنبيه ان هذه حجة ماورائية ، وليست من الموضوعية في شيء ، وانها لا تمت بسبب لنواميس الطبيعة التي أراد ابن خلدون ان يقيم عليها نقده الباطني ؟ بل نحن نراه يغرق في الشعورية ـ والماورائية ـ بصفة أوضح ، فيعلن :

(وانما اطنبت في هذا الرد .. لما سمعته اذناي من قائله المعتدي عليهم .. لكني جادلت عنهم في الحياة الدنيا ، وارجو ان يجادلوا عني يوم القيامة (١٠٤)). فهذه مجادلة بمجادلة ، ابعادها دنيوية وسماوية ، فهي ليست من التاريخ ومنهجيته في شيء . وكذلك فان جدال ابن خلدون من أجل صحة نسب ابن تومرت في آل البيت ، انما ذلك يرجع لاعجابه بالرجل ، وبعظمة الدولة التي أقامها وبناها ، فالهاه ذلك عن اعتبار الدواعي التي ترجح أن نسبه منتحل (١٠٥)

وفي مقدمة تلك الدواعي زعمه أنه المهدي المنتظر . ولنترك في النهاية القارىء يفكر في قيمة اقناع هذه الحجة التي اراد ابن خلدون أن ينفي بها عن العباسة ، أخت الرشيد ، عار علاقتها بجعفر :

(... وهيهات ذلك من منصب العباسة ، في دينها وأبويها وجلالها .. كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم (١٠٦) ؟.)

فان كانت اذن منهجية ابن خلدون سليمة في حد ذاتها ، فانه من المجازفة ان نجزم ان استخدامها من طرفه كان دائما وفي كل الاحوال سليما . وشأنه في ذلك شأن كل المؤرخين ، في كل زمان ومكان ، اذ الموضوعية المطلقة والتجرد التام ، انما هما غاية دونها عقاب كثيرة باطنية وخارجية ، لانفلح دائما مهما اجتهدنا في تجاوزها .

غير أن هناك اخطر من ذلك .

ان ابن خلدون قد خدم النفوذ ، وحتى عندما انقطع الى العلم ، لم يقطع اتصاله به تماما ، وبقي منتفعا بحماه . فلقد عاش في مصر في رعاية السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤ ـ ٨٠١ / ١٣٨٢ ـ ١٣٩٩) وان افتى ضده ـ اكراها حسب ما يذكر في التعريف (١٠٧) عندما خلع عن العرش . ولا شك ان اتصال ابن خلدون بالنفوذ جره الى الوقوع في تلك الاخطاء التي حذر منها ، والتي يوحي بها التقرب (لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح (١٠٨) ، قصد المحافظة على الوظيفة والعطاء . فهو مثلا يورد اسطورة اتصال نسب السلطان برقوق بقبيلة غسان ، كي يرتقي به الى شرف الانتساب الى العرب ، وهو ما حرصت عليه كل الاسر المالكة في الاسلام . ويبحث عن تعليل لذلك ، فيرى أن (أصل هذا الامير برقوق من قبيلة جركس الموطنين ببلاد الشمال في الجبال المحيطة بوطء القفجان والروس واللان من شرقيها ، المطلة على بسائطهم . ويقال انهم من غسان الداخلين الى بلاد الروم مع اميرهم جبلة بن الايهم ... واحتاجت غسان الى الحلف للمدافعة في الفتن ، وحالفوا قبائل جركس ونزلوا في بسيط جبلهم من جانبه الشرقي مما يلي القسطنطينية ، وخالطوهم بالنسب والصهر ، واندمجوا فيهم حتى تلاشت احياؤهم . وصاروا الى تلك الاماكن ، وأووا من البسائط الى الجبال مع جركس فلا يبعد مع هذا أن تكون أنسابهم تداخلت معهم ، فمن

انتسب الى غسان من جركس وهو مصدق في نسبه ، ويستأنس له بما ذكرناه، فهو بنسبة قوية في صحته ، والله تعالى أعلم (١٠٩)) ثم بعد تعليل صحة نسب برقوق في العرب ، يحدثنا ابن خلدون كيف كانت (العناية الربانية تحوم عليه (١١٠)) ، ويتمادى في هذه اللهجة الاطرائية التي لاتخلو من تملق بلاطي واضح .

وهو كذلك ، تزلفا (لاصحاب التجلة والمناصب) ، يلحق نسب الحفصيين ــ وهو يعلم وثيق العلم أنهم من البربر ، من هنتاتة جبال مصمودة بالمغرب الاقصى ــ بعمر بن الخطاب فيحلهم أكرم محل من قريش ويلتمس لهم العلل لذلك (١١١) . بل ينقلب الى شاعر ، ويصوغ في ذلك المديح ، فيقول ، في قصيدة طويلة قدم بها النسخة الاولى من كتابه الى الخليفة أبي العباس (٧٧٢ ــ ٧٩٦ / ١٣٧٠ ــ ١٣٩٤) :

قوم ، أبو حفص أب لهم ، وما أدراك ! والفاروق جدّ أوّل(١١٢)

ففي هذا دلالة كافية على أن ابن خلدون ، مهما كانت المنهجية التي اهتدى اليها سليمة في المستوى النظري ، فهو لم يستطع ، في مستوى التطبيق ، ان يتخلص من العوائق التي تحول عادة دون الموضوعية المطلقة ، وذلك اما بصفة غير شعورية لميوله والتزاماته العقائدية ، واما بصفة شعورية ومقصودة لالتزاماته السياسية ومنافعه المادية .

بقي علينا ، والحال كما وصفنا ، أن نحاول تقييم حصيلة اسهامه التاريخي ، مع التأكيد على أن هذا التقييم لن يصبح يقينيا الا بعد الدراسة الكاملة للكتابين الثاني والثالث من هذه الزاوية ، كما أشرنا الى ذلك سابقا .

ان ابن خلدون في موسوعته التاريخية ، يقوم ، كغيره ممن سبقه ولحقه، بدورين : دور الناقل من ناحية ، ودور المشاهد من ناحية أخرى . فمن هذه الزاوية يجب أن ننظر الى تأليفه ، وذلك بدون تمييز ــ كما هو الشأن عادة ــ بين ما يخص البربر منه ، وقد غولي في اطرائه ، وبين ما يهم العرب ، وقد افرط في استنقاصه .

فسؤالنا الاول اذن هو : هل أحسن ابن خلدون النقل ، فيما نقل ، وهل فاق في ذلك متقدميه ، بحكم منهجيته الجديدة ، تمحيصا او اختبارا ؟ نكتفي طبعا ببعض الامثلة التي لاتتعدى قيمتها قيمة كل سبر .

واول ما نلاحظ هو أن ابن خلدون ، كناقل ، لم يجد دائما التمحيص . فهو مثلا يذكر ان فتح المغرب بدأ في خلافة عمر ، وذلك عند حديثه عن الاديان التي دان بها البربر قبل الاسلام عندما كانت بلادهم تابعة للحضارة الرومية (١١٣) . وهذا وهم واضح جلي، لاحاجة للتأكيد عليه ، ولعله سبق قلم . وهوكذلك يزعم ان الكاهنة (١١٤) قد عمرت ١٢٧ سنة ، وهذا خبر من قبيل الاساطير التي تنشأ عن (ولوع النفس بالغرائب) (١١٥) ، وقد نبه الى ذلك الكاتب في كتابه الاول في العمران عندما كان بصدد ضبط منهجية ، ثم وقع في نفس الخطأ الذي منه حذر ، ثم هو ينسب استشهاد عقبة في موقعة تهوده الى الكاهنة (١١٦) أيضا وهذا اعمق في الابتعاد من الحقيقة ، اذ لا يختلف اثنان ولا يتناطح عنزان في أن عقبة انما ذهب ضحية الثورة التي دبرها كسيلة ونفذها رهطه من الاوربة (١١٧) وينقل ابن خلدون أيضا ان عبد الرحمن بن رستم كان (من مسلمة الفتح ، وهو من ولد رستم امير الفرس بالقادسية . وقدم الى افريقية مع طوالع الفتح فكان بها ، واخذ بدين الخارجية والاباضية منهم ، وكان شيعة لليمنية وحليفا لهم (١١٨)) . فهذا كله خليط من المتناقضات لايستقيم حرف منه ، اذا ما نقد نقدا باطنيا حسب قانون المطابقة الذي استنبطه ابن خلدون ، واراد أن يجعل منه المقياس الاساسي في قبول ما يروى او رفضه ، ان عبدالرحمن بن رستم توفي سنة ١٦٨ / ٧٨٤ - ٧٨٥ فكيف يمكن أن يكون (من ولد رستم امير الفرس بالقادسية) وقد دارت رحاها بين سنة ١٤ و ١٦ / ٦٣٥ - ٦٣٧ الا اذا حملنا العبارة توسعا على أنه من ذريته ؟ ثم ، اذا ما قبلنا هذا التعليل ، كيف يمكن أن يكون (قدم الى افريقية مع طوالع الفتح) ، وقد بدأ هذا الفتح في خلافة عثمان سنة ٢٧ / ٦٤٧ - ٦٦٨ وتواصل حتى أيام عبد الملك بن مروان ، ولم يتم الا حوالي سنة ٧٤ / ٦٩٣ . انه يستحيل ، لاسباب تاريخية ، أن يكون عبد الرحمن ابن رستم قدم (مع طوالع الفتح) ولا حتى مع اواخره . ثم كيف يكون (أخذ بدين الخارجية والاباضية) من طوالع الفتح ؟ والحال انه لم يشارك في هذا الفتح الخوارج ، وذلك لاسباب بسيطة وبديهية ، وهي انه كان يستحيل عليهم ان يقاتلوا في جند خلافة كانوا يرفضون شرعيتها ، وتواصلت ثوراتهم عليها في الشرق ، قبل ان يكسروا شوكتها في المغرب ، ويحرروا بصفة نهائية الجانب الاوسط والاقصى منه من نفوذها ، وكيف ايضا يمكن له أن (يكون شيعة لليمنية وحليفا لهم) أي أن يكون من انصار العرب الممارسين للنفوذ ثم في نفس الوقت يتزعم الحركة البربرية الثورية تحت لواء الاباضية ؟ كل هذا فيه دلالة على ان ابن خلدون كان ينقل بدون ذلك التمحيص الذي من أجله وضع

منهجيته . ويمكن ان نتتبع عدم التمحيص هذا في مواطن عديدة أخرى ، منها تلك التناقضات التي تحيط باسرة بني وسول الصفرية بسجلماسة . فابن خلدون يدعو مؤسسها تارة سعيد بن وسول (١١٩) وتارة مصلان (أو مصلات) بن أبي يزول (١٢٠) وهو خاصة يجعل من ابنــه أبي القاسم سمقو (او سمكو) ـ الذي ولي (١٢١) من ٧٧٢/١٥٥ الى ٧٨٤/١٦٨ ـ ٧٨٥ ـ (صفريا اباضيا) في نفس الوقت . بل هو يذهب الى أغرب من ذلك فيزعم (١٢٢) أنه جعل الخطبة باسم المنصور العباسي (١٣٦ ـ ٧٥٤/١٥٨ ـ ٧٧٥) ثم باسم المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥) ، مما لايتفق البتة مع أصول الدعوة الخارجية في كل أشكالها مهما كانت معتدلة ، أي مع قانون النقد الباطني المبني على المطابقة . وكذلك ينقل ابن خلدون (١٢٣) أن أمير افريقية عبد الرحمن بن حبيب (١٢٧ ـ ١٣٧ / ٧٤٥ ـ ٧٥٥) هو الذي قتل الزعيمين الاباضيين الخارجين بطرابلس الحارث وعبد الجبار ، والاقرب الى منطق تسلسل الاحداث ما يرويه ابن عبد الحكم (١٢٤) ، وتؤيده المصادر الاباضية (١٢٥) ، وهو أن القائدين اقتتلا على النفوذ حتى قتلا بعضهما بعضا ، مما أثار داخل حزبهما مشاكل مذهبية عديدة بثت الشقــاق داخله وبلغنا صداها .

ان ما اوردناه ـ وهو قليل من كثير ـ فيه دلالة كافية على ان ابن خلدون في نقوله ، لم يجد استخدام المنهجية التي وضعها ، حتى كأنه غفل عنها ونسيها . فهو لايفوق غيره لاقليلا ولا كثيرا ، تثبتا وتمحيصا ، ونحن لانشعر البتة انــه يكتب التاريخ كتابة جديدة .

لكن ، إن لم يجد التمحيص فهل اجاد على الاقل الاختيار ؟ جوابنا على هذا السؤال سلبي ايضا . فهو ، عن قصد وغير قصد ، لم يحسن دائما انتقــاء ما ينقل ، والح أحيانا في الاختصار الحاحا مخلا .

ولنضرب على ذلك بعض الامثلة ، عمادهــا السبر . ففيما يخص ولاية يزيد بن أبي مسلم (١٠٢ ـ ١٠٣ / ٧٢٠ ـ ٧٢١) ـ الذي حمل مسلمي البربر على أداء الجزية ، وأعاد من عتق منهم الى الرق ، وخاصة مــوالي موسى بن نصير (٧٩ ـ ٦٩٨/٩٥ ـ ٧١٤) فوسمهم في أيديهم واتخذهم في شرطته ـ فــان ما يشــرح سياسته ، نجده عند الطبري (١٢٦) ، وعند اليعقوبي (١٢٧) ، وابن الاثير (١٢٨) ، وكأبن تغري بردي (١٢٩) وابن عذاري (١٣٠)) ، اكثر مما نجده عند ابن خلدون (١٣١) . وكذلك فيما يخص ثورة ميسرة (٧٤٠/١٢٢) بالمغرب ، فان

اهم نص يروي لنا قصة سفارته الفاشلة لدى هشام بن عبد الملك (١٠٥–١٢٥/ ٧٢٤–٧٤٣) فانما احتفظ لنا به الطبري(١٣٢)، ولا نجد له خبرا عند ابن خلدون.

ولا فائدة في ان نطيل في تتبع الثغرات وضرب امثلة عليها ، فهي أكثر من أن يحاط بها . وكل متصفح لتاريخ ابن خلدون يعلم علم اليقين انه لايغني البتة ، حتى في تاريخ المغرب ، عن غيره . بل نحن نجد في غيره أضعاف ما نجد فيه .

فان تجربتنا الشخصية مثلا قد افادتنا بصفة قطعية ، عندما كنا نكتب تاريخ الاغالبة (١٨٤ – ٢٩٦/٨٠٠ – ٩٠٩) ان اهم موسوعة يمكن الاعتماد عليها ، ليست (كتاب العبر) ، وانما هي (البيان المغرب) لابن عذاري ، ثم يأتي في المرحلة الثانية (كامل) ابن الاثير ، ثم (نهاية النويري) ، ولا يحتل ابن خلدون حسب تجربتنا ، الا المرتبة الرابعة ذلك أنه كثيرا ما يختصر اختصارا مخلا بفهم الواقع ، ولا يعدم الوقوع في الخلط والخطأ . ثم هو ، كغيره من مؤرخي السنة ، يضرب صفحا ، وعمدا في نظرنا ، عن النقل عن بعض المصادر المعادية ، وذلك لتلك الاسباب المذهبية التي تؤدي الى التحريف ، لا بالتشويه دائما ، بل بالصمت أحيانا ، والتي سبق أن حذر منها ابن خلدون ، ثم وقع في حبالها . فهو مثلا لاينقل شيئاً عن (افتتاح الدعوة (١٣٣)) للقاضي النعمان بن حيون – وهو أهم مصدر يصور لنا ، من الزاوية الشيعية ، انبعاث الحركة الفاطمية في جبال كتامة بزعامة أبي عبد الله الداعي – ولم يكن ذلك على الارجح جهلا وانما قصدا.

ثم هو ، فيما يخص الموحدين ورغم اعجابه بهم ، يفرط في التلخيص مما يجعلنا نفضل عليه بكثير ابن عذارى ، الذي يورد الاخبار بأكثر تفصيل ودقة ووضوح ، وان لم يكن هو ايضا معاصرا للحوادث وانما مجرد ناقل . فابن خلدون لايذكر شيئا عن عقيدة الموحدين ونظمهم ، حتى كأنه لم يطلع على أمهات المؤلفات التي تقص أخبارهم ، والتي بلغنا بعضها : كمذكرات البيدق ، (والمن بالامامة) لابن صاحب الصلاة و (نظم الجمان) لابن القطان (١٣٤) ، وغير ذلك . وهكذا يكاد يفقد مما يرويه ابن خلدون كل فائدة .

وهذا الاستاذ برانشفيك R. Brunschvig وهو من أهم من مارسه واعتمد عليه في دراسته عن الحفصيين ، يلاحظ (ان التواريخ الدقيقة ليست مما يبدع فيه . فالمعطيات المؤرخة كثيرا ما تتناقض تناقضا مفرطا خلال تأليفه ، مما يدعو في كثير من الاحوال الى ان نفضل عليها ما تورده مصادر اخرى اكثر تواضعا وابعد اختصارا (١٣٥)) .

ان كتاب العبر ، في مستوى النقل ، لايخلو اذن ، كما بينا ، من عيوب ونقائص عديدة تنزع عنه ثوب الجلالة الذي طالما شمله . غير أن هذا لايعني حتما انه يفقد كل فائدة ترجى . وذلك أولا لانه قد يوجد في النهر مالا يوجد في البحر . فقد نعثر فيه على معلومات تكميلية أو توضحية أهملتها الموسوعات الاخرى . فهو مثلا استعمل استعمالا أحسن وأشمل المصادر العبرية والنصرانية المعربة(١٣٦)، وخاصة منها تاريخ هرشيوش (١٣٧) ، Orasius الذي تفرد بالنقل عنه نقلا واسعا ، وهذا ما أشار اليه من قبل المستشرق الايطالي ليفي دلا فيدا L. Della Vida الذي ينبه (ان ابن خلدون هو المؤلف العربي الوحيد الذي استخدم استخداما واسعا وذكيا تاريخ هرشيوش فيما نقله في تاريخه العام(١٣٨)، وهو في كل الاحوال يمكن طبعا من المقارنات الصالحة ، ومن التعرف على رأي صاحبه في أهم القضايا .

غير ان قيمة الكتاب التي لاتجحد تكمن خاصة في مستوى المشاهدة ، أي فيما يرويه ابن خلدون كمعاصر للاحداث التي عاشها ، أو شارك أحيانا كممثل نشيط في بعض ادوارها . ولقد اتيحت لنا الفرصة ، في هذا المستوى كي ندرك قيمته بالنسبة للجالية الاندلسية التي نزحت الى المغرب في القرن السابع الهجري (الثالث عشر ميلادي) ولعبت دورا حاسما على الصعيد السياسي ، والاجتماعي ، والثقافي ، يفوق الدور الذي كان للهجرة الجماعية الثانية والاخيرة بعد قرار الطرد الذي اتخذ سنة ١٦٠٩ ميلادية فان كتاب العبر كان مصدرنا الاساسي ، ولولا ما توفر لنا فيه من معلومات وملاحظات لما استطعنا أن نبلغ غايتنا على الوجه الذي تأتى لنا (١٣٩) .

وكذلك بالنسبة للشرق ، فان كتاب العبر يكتسي بالنسبة لتاريخ الترك ، والمماليك وتيمورلنك خاصة ، الذي اتصل به المؤلف اتصالا مباشرا ، أهمية تفوق غيره كما لاحظ ذلك الاستاذ فيشيل (١٤٠) W. J. Fischel بعد القيام بمقارنات عديدة . فابن خلدون قد احتفظ لنا بمعلومات اجتهد فيها ان يبلغ اكثر من التمحيص والتحقيق ، معتمدا ، زيادة عن مشاهداته الخاصة ، لا المصادر الكتابية فقط ، بل ايضا ملحوظات المسافرين ، وروايات من شاركوا في الاحداث أو واكبوها من موظفين سامين وغيرهم .

غير أنه ، هنا ايضا ، يفاجئنا احيانا بصمت ونقص غريبين : فهو لايذكر شيئا مثلا عن المجاعة الرهيبة التي اجتاحت مصر في ايام برقوق ؟ ولا ينبس

بينت شفة عن التجارة التي كانت تربط مصر بالهند عن طريق اليمن ، والتي كان لها دور اساسي في الاقتصاد والسياسية ، ويغفل غير ذلك .

ان كل ما سبق يفيدنا بوجه عـام ان الكتابين ، الثاني والثالث في تاريخ العرب والبربر ، من تأليف ابن خلدون ، لايخلوان طبعا من فائدة . غير ان هذه الفائدة تزيد وتقل : تزيد عندما يكون ابن خلدون مشاهد عيان ، وتقل ، بـل تكاد تنعدم ، عندما يكتفي بدور الناقل . ان موسوعة ابن خلدون ليست أحسن موسوعة تاريخية بلغتنا فموسوعات المؤرخين المحترفين حقا ، كالطبري او ابن الاثير مثلا بالنسبة للمشرق ، تفوقها بكثير . ذلك أن ابن خلدون وضع منهجية ، ولم يكد يطبقها . فهو لايسلم من الوقوع في الخطأ، ولا يحسن دائما الاختيار، وكثيراً ما يلح في الاختصار الحاحا مخلا . فان أحسن موسوعة مثلا ، بالنسبة لتاريخ المغرب والاندلس ليست كتاب العبر ــ كما قد يتوهم أحيانا ــ وانما بيان ابن عذاري ، وان كان صاحبه ، الذي عاش في نصف القرن الذي سبق ابن خلدون، لم يبلغ شهرة هذا الاخير ، بل ظلمه أصحاب الطبقات جميعـا حتى انهم لم يثبتوا له ولو ترجمة واحدة .

ان ابن خلدون في الحقيقة لم يكن مؤرخا محترفا ، وان انطلق من شواغل تاريخية ، وسجل احيانا ما شاهده بدقـة تفوق ما بلغنا عن طريق غيره ، وان دعاه توقد ذكائه الى النقل عمن اغفله من سبقه في بعض الحالات وكان معجبا بتاريخه. ذلك ان همه في النهاية لم يكن في تسجيل الحوادث في حد ذاتها ، وانما في فهم اسـبابها ومسـبباتهـا ، دواعيهـا ونتائجهـا . لـم يكن التـاريخ بالنسـبة اليه غاية في ذاته ، وانما هو وسيلة لفهم ذلك الانقلاب الهائل الذي عاشـه ، فاصطدم به ، وتألم كغيره لما شاهده من احتضار الحضارة الاسلامية ، فأراد ان يكشف عن القوانين التي تنشيء الحضارات وتميتها . وكيف يتحقق هذا الكشف ما لم ينطلق من التاريخ أي من سجل الحضارات ؟ وهكذا ينقلب التاريخ الى مخبر ، اي الى خزان هائل من التجارب التي بفضل ما يسلط عليها من التحليل والتأويل ، تمكن من اكتشاف نواميس العمران ، او حسب اصطلاح ابن خلدون (ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته (١٤١)) .

فهناك اذن علاقة جدلية بين علم العمران المضمن في الكتاب الاول ، والتاريخ المودع في الكتابين الثاني والثالث : فبقدر ما تحكم المنهجية ، اعتمادا على علم العمران ، يضبط التاريخ بصفة تجنب من الوقوع في (المغالط) وتوحي بالثقة ، وبقدر ما تتوفر هذه الثقة في ضبط القضايا التاريخية ضبطا يقي من (المغالط)

يمكن الاعتماد عليها لاستخلاص نواميس العمران ، تلك النواميس التي تدير عجلة التاريخ وتوجهها .

فصلة الكتاب الاول في العمران ـ الذي اعتدنا ان ندعوه بالمقدمة ـ بالكتابين الثاني والثالث في التاريخ ، انما هي اذن صلة المخبر بما يكتشف فيه من القوانين. فالكتابان الاول والثاني لا يزيدان عن كونهما المخبر الذي عمل فيه الفكر الخلدوني ، فعثر على جملة من القوانين تكون علما جديدا ومستقلا بنفسه دعاه صاحبه علم العمران ، اي انه اكتشف ما نسميه اليوم بالعلوم الاقتصادية والاجتماعية .

فالكتاب الاول في العمران اذن ، كما اكد ذلك صاحبه بصفة لاتقبل الشك، يحتوي على علم مستقل بنفسه ، يجب لا ان نفهمه ونحلله في حد ذاته فقط ، بل ان نتابع ايضا بناءه بناء قائما بنفسه ، كما يدعونا الى ذلك واضعه في عبارة واضحة قائلا :

(ولعل من يأتي بعدنا ، ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين ، يغوص من مسائله على اكثر مما كتبنا . فليس على مستنبط الفن استقصاء مسائله ، وانما عليه تعيين موضوع العلم وتنويع فصوله ، وما يتكلم فيه . والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئا فشيئا الى ان يكمل . **والله يعلم وانتم لا تعلمون** (١٤٢)) .

فابن خلدون قد اكتفى (بتعيين موضوع العلم) ، وترك لمن يأتي من بعده مهمة متابعة البحث . وبعد قرون ، تحققت رغبته : فهذه علوم الاقتصاد والاجتماع على اشد ما تكون من الازدهار والاستقلال بذاتها ، والمستقبل مفتوح على مصراعيه امامها .

واما الكتابان الثاني والثالث في تاريخ العرب والبربر ، فهما ، كما سبق ان اوضحنا لا يزيدان عن كونهما مخبر ، وهذا المخبر الخلدوني في حاجة اكيدة الى دراسة مستقلة ، حتى نتمكن من معرفة دقيقة للمعطيات التي منها انطلق استقراء الباحث . ان تجربتنا الشخصية ، وتجارب المؤرخين الذين استخدموا هذين الكتابين ، وعمليات السبر التي قمنا بها ، كل ذلك يحمل على الاعتقاد ان المخبر الذي عمل فيه ابن خلدون قد حوى الغث والسمين ، فلم تكن اجهزته

كلها في مستوى الغاية المنشودة . فالغريب اذن ان يكون ابن خلدون ، انطلاقا من قاعدة ضيقة نسبيا وغير متينة دائما ، قد استطاع ان يبلغ النتائج التي انتهى اليها ، ويرتقي الى القمة التي وصل اليها . وهذا ما قد لاحظه آرنولد طوينبي (توفي في ١٩٧٥/١٠/٢٢) ، الذي سلك نفس السبيل ، وانتهى الى نتائج لا تختلف في جوهرها عما اهتدى اليه ابن خلدون . فهو ينص : (ان كل من يطالع مصنف ابن خلدون يملأه الاعجاب بقوة ولمعان ذلك الفكر الذي استطاع ان يجني الكثير من ذلك المقدار من المعطيات التي توفرت لديه . غير ان الناقد الغربي المعاصر قد يشعر ان أسس ابن خلدون التجريبية كانت اضيق من ان تتحمل ، او تبرر ، وزن تعميماته البليغة (١٤٣)) .

فان يكن اذن ابن خلدون قد جنى الكثير من اليسير ، فذلك مما لا شك فيه ، ولعل ذلك سر العبقرية .

---

(١) انظر : N. Nassar, Le maitre d'Ibn Khaldoun al-Abili, dans studia Islamica, Paris, 1964 XX. 103-115.

(٢) ط . القاهرة ١٩٠٥

(٣) مخطوط رقم١٦١٤ مكتبة الاسكوريال، اسبانيا ، وهو مؤرخ في١٩ صفر٧٥٢/٢٧-٤-١٣٥١

(٤) وهي : شرح البردة للبوصيري ، ملخص في المنطق ، مؤلف في الحساب ، عدة ملخصات لتآليف ابن رشد ، وشرح لقصيدة لابن الخطيب في أصول الفقه . وردت هذه الارشادات في الاحاطة لابن الخطيب ، وفي هذا دلالة على ان كل هذه الكتب ألفت قبل سنة ١٣٦٤/٧٦٥ وهو التاريخ الذي تم فيه تأليف الاحاطة .

(٥) انظر الدرس الذي القاه بالمدرسة القمحية في (التعريف) . ص ٢٧٩ - ٢٨٥

(٦) توجد بالجزائر ، بولاية وهران ، على ٦ كم من قرية قرندة .

(٧) انظر مؤلفنا : Ibn Haldun et l'histoire, Tunis, 1973, p. 11-12.

(٨) تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٣٧٠/١٩٥١ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩

(٩) وذلك واضح في كامل القسم الاول من المقدمة تحقيق علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ١٣٨٤/١٩٦٥ ج١ ص ٣٤٩ - ٤١٣

(١٠) المقدمة ج١ ص ٤١٣

(١١) المقدمة ، ج١ ص ٤١٥ - ٤١٧

(١٢) لقد شرح علي عبد الواحد وافي في تحقيقه للمقدمة هذه العبارة بقوله : (ويقصد ابن خلدون من كلمة (العوارض الذاتية) او (ما يلحق المجتمع من العوارض لذاته) ما تقصده نحن من كلمة (القوانين) ويتضح قصده هذا مما كتبه في الفصل الخاص بعلم الهندسة من الباب السادس من مقدمته اذ يقول (هذا العلم هو النظر في المقادير ، اما المتصلة كالخطوط والسطح والجسم ، وأما المنفصلة كالاعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية مثل ان كان مثلث فزواياه مثل قائمتين ، ومثل ان كل خطين متوازيين لايلتقيان في وجه ولو خرجا الى غير نهاية ومثل كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان ...) ج١ ص ٢٤١ – ٢٤٢

(١٣) المقدمة ج١ ص ٤١٣ – ٤١٤

(١٤) المقدمة ج٢ ص ٤١٤

(١٥) المقدمة ج١ ص ٤١٧ حيث يشرح المحقق أسفل الصفحة المثلين .

(١٦) المقدمة ج١ ص ٤١٧ – ٤١٨

(١٧) ص ٨

(١٨) المقدمة ج١ ص ٣٤٩ – ٣٦١

(١٩) المقدمة ج١ ص ٣٦٢ – ٤٠٨

(٢٠) المقدمة ج١ ص ٣٥١

(٢١) المقدمة ج١ ص ٣٥١

(٢٢) المقدمة ج١ ص ٣٥١

(٢٣) المقدمة ج١ ص ٣٥٢

(٢٤) قد ورد اسمه محرفا في كلا الطبعتين (بيروت ١٩٦٧ ، ص ٤ وتحقيق علي عبد الواحد وافي القاهرة ١٩٦٥ ج١ ص ٣٥٣) حيث نقرأ : (ابن الرفيق) فيما يخص هذا المؤرخ الافريقي انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، النص الفرنسي والفصل الذي نشرناه بمجلة (اريكا) :
A propos d'Ibn al-RaQiq, Arabica XIX (1972) p. 86-96.

(٢٥) المقدمة ج١ ص ٣٥٣

(٢٦) المقدمة ج١ ص ٣٥٣

(٢٧) المقدمة ج١ ص ٣٥٥

(٢٨) المقدمة ج١ ص ٣٥٥

(٢٩) المقدمة ج١ ص ٣٥٥ – ٣٥٦

(٣٠) المقدمة ج١ ص ٣٦٢ – ٤٠٨

(٣١) المقدمة ج١ ص ٣٥٦

(٣٢) انظر بحثنا (الهجرة الاندلسية الى افريقية ايام الحفصيين) في مجلة الاصالة ، عدد ٢٦ ، الجزائر ١٩٧٥ ، ص ٤٦ – ٩٠

(٣٣) الرحلة المغربية تحقيق محمد الفاسي ، الرباط ١٩٦٨ ، ص ٦٤ – ٦٥ ، ٢٣٧ – ٣٣٩

(٣٤) انظر مؤلفنا : **Ibn Haldun et l'histoire,** Tunis 1973, p. 7.

(٣٥) انظر بحثنا :

l'effondrement démographique au Magreb du XI au XVes, dans les Cahiers de Tunisie, No. 97 - 98 (1977) p. 50-61.

(٣٦) المقدمة ج١ ص ٤٠٥ — ٤٠٦
(٣٧) المقدمة ج١ ص ٣٦٣ — ٣٩٨
(٣٨) المقدمة ج١ ص ٤٠٥ حيث يعتبرانه (صار اماما للمؤرخين يرجعون اليه) .
(٣٩) المقدمة ج١ ص ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٨٠ ، ٤١٠ ، ٤١٢
(٤٠) المقدمة ج١ ص ٤٠٩ حيث يعتبران (الميل والتشيع غطاء على عين البصيرة) .
(٤١) المقدمة ج١ ص ٤١٠ حيث يذكر من أسباب تحريف الحقيقة (تقرب الناس في الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب ... والناس متطلعون الى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة) . وسنعود الى ذلك .
(٤٢) المقدمة ج١ ص ٣٦٢
(٤٣) المقدمة ج١ ص ٣٦٢
(٤٤) المقدمة ج١ ص ٣٦٢
(٤٥) انظر فيما يخص هذه المنهجية واستخدامها في ميدان التاريخ :
R. Brunschvig, **Ibn Abd al-Hakam et la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes** : étude critique, dans AIEO VI (1947) p. 108-155.
(٤٦) المقدمة ج١ ص ٤٠٥
(٤٧) المقدمة ج١ ص ٣٩٩ — ٤٠٠
(٤٨) هل فات ابن خلدون ان الانشاء ايضا يدخله الكذب من نفس السبل التي يتطرق منها الى الخبر — وقد حللها — أم هل هو احجم دون فتح باب نقد الشريعة ، ووضعها ، كما فعل بالنسبة للتاريخ ، موضع الشك المنهجي ؟!
(٤٩) وفي ذلك يلاحظ ابن خلدون : (وانما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الاخبار الشرعية ، لان معظمها تكاليف انشائية أوجب الشارع العمل بها متى حصل الظن بصدقها . وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط) المقدمة ج١ ص ٤١٣
(٥٠) المقدمة ج١ ص ٤٠٩
(٥١) المقدمة ج١ ص ٤٠٩
(٥٢) المقدمة ج١ ص ٤١٠
(٥٣) المقدمة ج١ ص ٤١٢
(٥٤) المقدمة ج١ ص ٤١٢ — ٤١٣
(٥٥) قد سبق شرح هذه العبارة (ص٧ تعليق ١٥) وهي تفيد ما نعبر عنه بالنواميس الطبيعية.
(٥٦) المقدمة ج١ ص ٤١٣ — ٤١٤
(٥٧) المقدمة ج١ ص ٣٦٢ — ٣٦٣ ، ٣٩٨ — ٣٩٩ ، ٤١٠
(٥٨) المقدمة ج١ ص ٣٦٢
(٥٩) المقدمة ج١ ص ٣٦٢
(٦٠) المقدمة ج١ ص ٣٩٨
(٦١) المقدمة ج١ ص ٤١٠
(٦٢) المقدمة ج١ ص ٤١٠
(٦٣) المقدمة ج١ ص ٣٦٢
(٦٤) المقدمة ج١ ص ٣٩٩

(٦٥) المقدمة ج١ ص ٤١٩ ثم في غضون الكتاب ، ودفعا للالتباس (انظر تحقيق علي عبد الواحد وافي ، ج١ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٩ ، ٢٣٤ ـ ٢٣٥) ، تحمل هذه الفصول اسم (باب) ، وكل باب من هذه الابواب ينقسم بدوره الى مقدمات وفصول . وأتت هذه الابواب مختلفة الحجم على هذه الصورة : الباب الاول (ج١ ص ٤٢٠ ـ ٥٧٦) ، الباب الثاني (ج٢ ص ٥٧٧ـ٦٣٠) ، الباب الثالث (ج٢ ص ٦٣١ ـ ٩٥٠) ، الباب الرابع (ج٣ ص ٩٦٥ ـ ١٠٢٦) ، الباب الخامس (ج٣ ص ١٠٢٧ ـ ١١٠٦)، الباب السادس (ج٣ ص ١١٠٧ ـ ١٢٥٨)،(ج٤ ص ١٢٧٢ ـ ١٤٧٥)

(٦٦) انظر ما سبق ، وانظر ايضا :
Ibn Haldoun et l'Histoire, surtout p. 110-117.

(٦٧) المقدمة ج١ ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧

(٦٨) اربعة اجزاء لتاريخ العرب ، وجزءان لتاريخ البربر .

(٦٩) في ط. بيروت ١٩٦٧ ، ص ٨ : (وذلك) وهو خطأ واضح .

(٧٠) المقدمة ، ج١ ص ٣٥٦

(٧١) المقدمة ج١ ص ٣٥٦

(٧٢) يمكن الاطلاع على تحليل محتوى الكتابين ، الثاني والثالث ، في دراسة علي عبد الواحد وافي التي مهد بها لتحقيق المقدمة (ج١ ص ١٤٤ ـ ١٥١) **الكتاب الثاني** في اخبار العرب ومن عاصرهم : يقع في اربع مجلدات (ج٢ الى ٥ من ط بيروت ١٩٦٧) ج٢ ص ٣ ـ ٧٠٣ أصل الخليقة وانساب الامم المختلفة ، وفي ذلك ابن خلدون لايزيد عن تقليد من سبقه ويشمل ذلك ربع الكتاب الثاني تقريبا ـ ج٢ من ص ٧٠٣ الى ص ١١٤٣ وكامل الاجزاء ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ الى ص ١٧٤ : الدول الاسلامية التي ارتكز نفوذها على قيادة العرب ، وسواء اكان ذلك في المشرق ، أو المغرب أو الاندلس من ظهور الاسلام وحياة الرسول وأيام الخلفاء الراشدين .. حتى غاية سنة ٧٩٧ بالنسبة لمصر وللترك . ـ **الكتاب الثالث** في تاريخ البربر ومن اليهم : يقع في مجلدين (ج٦و٧ من ط بيروت ١٩٦٧) من ص ١٧٥ . اختصر فيه ابن خلدون اخبار البربر والدول المتقدمة عن ايامه ، وأفاض في تاريخ عن قرب من عهده ، أو من كان معاصرا له ، وخاصة في بني حفص وبني عبد الواد وبني مرين . وبلغ هذا التاريخ الى غاية سنة ٧٩٦ أي الى ما قبل وفاته ببضعة أعوام (توفي سنة ٨٠٨) . وكلا الكتابين اتمهما بالقاهرة ، زيادة وتنقيحا بعد التحرير الاول الذي أعده بتونس (٧٨٠ ـ ٧٨٤) واهداه الى الامير الحفصي العباس (٧٧٢ ـ ٧٩٦ / ١٣٧٠ ـ ١٣٩٤) . ويعرف هذا التحرير الاول (بالنسخة التونسية) (انظر محتواها في دراسة علي عبد الواحد وافي) التي مهد بها للمقدمة ج١ ص ١٠١و١٣٣) وهذه النسخة لم تبلغنا . وانما بلغتنا النسخة الثانية الكاملة التي اتمها بالقاهرة حوالي سنة ٧٩٩، واهدى نظيرا منها الى ملك مصر، الظاهر برقوق (٧٨٤ ـ ١٣٨٢/٨٠١ ـ ١٣٩٩) ونظيرا آخر موقوفا على خزانة الكتب في جامع القرويين بفاس الى السلطان ابي فارس عبد العزيز (٧٩٦ ـ ٧٩٩ / ١٣٩٤ ـ ١٣٩٧) وتعرف هذه النسخة (بالنسخة الفارسية) ، وعنها نقلت ، بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، كامل النسخ التي بلغتنا (انظر علي عبد الواحد وافي ، المصدر المذكور ص ١٣٥) .

(٧٣) انظر بحثنا (نظرية النشوء والارتقاء في مقدمة ابن خلدون) . سينشر هذا البحث في (اعمال ملتقى ابن خلدون) الذي عقد من ١٤ الى ١٧ فيفري (شباط) ١٩٧٩ بمدينة فاس .

(٧٤) المقدمة ج١ ص ٤٠٩

(٧٥) تجلت هذه النزعة خاصة في المؤتمر الدولي للتاريخ الذي التأم بباريس سنة ١٩٥٠ وبها التزمت المجلة التاريخية الفرنسية التي ما زالت تصدر تحت عنوان : Annales, E.S.C.

(٧٦) المقدمة ج١ ص ٣٦٢

(٧٧) المقدمة ج١ ص ٤٠٥

(٧٨) من دون ان يجحد ما يدين به لمن سبقه . انظر المقدمة ج١ ص ٤٠٥

(٧٩) المقدمة ج١ ص ٣٥٦

(٨٠) انظر ما سبق ص ١٨ تعليق ٧٤

(٨١) المقدمة ج١ ص ٤٠٦

(٨٢) المقدمة ج١ ص ٣٥٥

(٨٣) المقدمة ج١ ص ٣٦٢

(٨٤) انظر علي عبد الواحد وافي ، الدراسة التي مهد بها لتحقيق المقدمة ، ج١ ص ١٣٦–١٣٨ و ص ٣٣٢ – ٣٣٤ وكان من المشيدين بابن خلدون ، من المؤرخين : تقي الدين المقريزي (٧٦٦–٨٤٥/ ٣٦٥) وابو المحاسن بن تغري بردي (٨١٣ – ١٤١٠/٨٧٤ – ١٤٧٠) وابو العباس القلقشندي (٧٥٦ – ١٣٥٥/٨٢١ – ١٤١٨) ومن خصومه : ابن عرفة (٧١٦ – ١٣١٦/٨٠٣ – ١٤٠٠) بتونس وبمصر : الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ – ١٣٧٢/٨٥٢ – ١٤٤٩) والركراكي (١٤١٧/٧٩٩) وبدر الدين العيني (٧٦٢ – ١٣٦٠/٨٥٥ – ١٤٥١) والجمال عبد الله البشبيشي (٧٦٢–٨٢٠/ ١٣٦١ – ١٤١٧) .

(٨٥) أخذ ابن حجر عن ابن خلدون ، وفي ذلك يقول : (اجتمعت بابن خلدون مرارا ونعمت من فوائده ومن تصانيفه ، خصوصا في التاريخ) رفع الاصر ، نقلا عن علي عبد الواحد وافي المصدر المذكور ، ص ١٣٨ ، وانظر ايضا ، في نفس المصدر ج١ ص ٥٥٢ ، صورتان من الاجازة التي طلبها ابن حجر ، ومنحها له ابن خلدون .

(٨٦) ابن حجر ، (انباء الغمر بابناء العمر) ، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ١٩٤٠٤ ، عن مخطوط أحمد الثالث باسطنبول ، رقم ٢٩٤١ ج١ لوحة ١٧٢ ، وذلك نقلا عن عبد الرحمن بدوي (مؤلفات ابن خلدون) القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٨٦ . وابن حجر ينقل هنا عن العيني ، الذي يدعوه العيناني . أنظر أيضا محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري القاهرة ١٩٣٣ ص ٩٣ – ٩٤

(٨٧) (عقد الجمان في تاريخ أهـل الزمان) عن المصورة المخطوطة رقم ١٥٨٤ تاريخ ، بدار الكتب المصرية ، القسم الثاني . وذلك نقلا عن عبد الرحمن بدوي (مؤلفات ابن خلدون ص ٢٨٨ . وقد نقل ذلك ابن حجر كما سبق . ويلاحظ أن العيني كان يعترف لابن خلدون بحسن المحاضرة فينص أنه (كان رجلا فاضلا ، صاحب أخبار ونوادر ، ومحاضرة مليحة) ، غير انه زيادة على احترازه في قيمته التاريخية ، يتهمه في سيرته وأخلاقه ، بدون تفصيل ، فيشير الى أنه (مع هذا كله كان يتهم بأمور قبيحة ، سامحه الله تعالى !) (نفس المصدر ص ٢٨٨) .

وقد ورد في (رفع الاصر عن قضاة مصر) لابن حجر (خط ٢١٤٩ و ٥٨٩٣ ، المكتبة الوطنية بباريس ، لوحة رقم ٨٠ أ) ما يلي : (وسئل عنه الركراكي ، فقال : عري من العلوم الشرعية ، له معرفة بالعلوم العقلية من غير تقدم فيها ، ولكن محاضرته اليها المنتهى ...) نقلا عن عبد الرحمن بدوي ، المصدر المذكور ، ص ٢٨١ . ويستخلص من هذا كله ان ابن خلدون ، ان طعن عليه في عمله واخلاقه ، فكل معاصريه بهروا بحسن محاضرته ، ولم يجدوا بدا من الاعتراف له بذلك .

(٨٨) المقدمة ، ج١ ص ٣٦٢ — ٤٠٨
(٨٩) المقدمة ، ج١ ص ٣٦٧
(٩٠) المقدمة ج١ ص ٣٦٧
(٩١) المقدمة ج١ ص ٣٦٩
(٩٢) المقدمة ج١ ص ٣٦٩ — ٣٧٢
(٩٣) المقدمة ج١ ص ٣٧٢
(٩٤) المقدمة ج١ ص ٣٧٥ ، واحتجن المال ، خص بـه نفسه . وفي ط بيروت ١٩٦٧ : (احتجافهم) .
(٩٥) المقدمة ج١ ص ٣٧٨
(٩٦) المقدمة ج١ ص ٣٨٠
(٩٧) المقدمة ج١ ص ٣٨٦
(٩٨) المقدمة ج١ ص ٣٩٠
(٩٩) المقدمة ج١ ص ٣٩٠
(١٠٠) المقدمة ج١ ص ٣٩٤
(١٠١) المقدمة ج١ ص ٣٩٤ . وهو يشير الى قوله تعالى : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيرا) (الاحزاب ، آية ٣٣) .
(١٠٢) المقدمة ج١ ص ٣٩٧
(١٠٣) المقدمة ج١ ص ٣٩٨
(١٠٤) المقدمة ج١ ص ٣٩٤ — ٣٩٥
(١٠٥) قد ورد هذا النسب شديد الاضطراب في مختلف المصادر وابن خلدون نفسه يورد هذه الانساب المختلفة (عبر ، ج٦ ص ٤٦٤ — ٤٦٥) . انظر أيضا محمد عبد الله عنان ، (عصر المرابطين والموحدين) ، القاهرة ١٩٦٤ ج١ ص ١٥٨ — ١٥٩ ، حيث نقرأ : (ومن الحق الذي لايقبل ذرة من الجدل أن ابن تومرت بربري الجنس ..) انظر أيضا كتاب الانساب (لمؤلف مجهول ، في
E. -Provençal, **Documents inédits d'histoire almohade** - p. 21.
voir aussi, M. talbi, **Ibn Tumart**, dans les Africains, ouvrage collectif sous la direction de Ch-A. Julien, Paris 1978 XI, 139 et note 5.
(١٠٦) المقدمة ج١ ص ٣٧٤
(١٠٧) ص ٣٣٠ — ٣٣١
(١٠٨) المقدمة ج١ ص ٤١٠ انظر ايضا ما سبق ص ١٢
(١٠٩) العبر ، ج١ ص ١٠١١ — ١٠١٢ انظر ايضا :
W J. Fiscel **Ibn Khaldoun in Egypt** un. of California Press 1967 p. 74
(١١٠) العبر ، ج٥ ص ١٠١٢
(١١١) العبر ، ج٦ ص ٥٧٨ حيث نقرأ : (واما نسبه فهو عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين ابن علي بن أحمد بن والال بن ادريس بن خالد بن اليسع بن الياس بن عمر بن وافتن بن محمد ابن نحية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . هكذا نسبه ابن نخيل وغيره من الموحدين . ويظهر منه ان هذا النسب القرشي وقع في المصامدة والتحم به) .

(١١٢) التعريف ، ص ٢٢٥
(١١٣) العبر ، ج٦ ص ٢١٤
(١١٤) العبر ، ج٧ ص ١٧ — ١٨
(١١٥) المقدمه ج١ ص ٣٦٧ . انظر ما سبق ص ١٦
(١١٦) العبر ج٦ ص ٢١٨وج٧ ص ١٧ — ١٨ . انظر ايضا الناصر (الاستقصاء) ج١ ص٨٢–٨٣
(١١٧) انظر بحثنا :
Un nouveau Fragment de l'histoire du maghrib 62-196/682-812. **L'époopée d'al-Kahina,** dans les Cahiers de Tunisie.

(١١٨) العبر ج٦ ص ٢٤٦
(١١٩) العبر ج٦ ص ٢١٠
(١٢٠) العبر ج٦ ص ٢٦٧
(١٢١) ابن عذاري ، البيان ، ج١ ص ٧٩ — ١٥٦
(١٢٢) العبر ، ج٦ ص ٢٦٨
(١٢٣) العبر ، ج٦ ص ٢٢٣ — وهذه ايضا هي رواية النص المنسوب للرقيق ، ص ١٢٦
(١٢٤) فتوح (ط A. Gateau) ص ١٤٢ — ١٤٣
(١٢٥) أبو زكريا ، كتابة السيرة واخبار الائمة ، ترجمة
R. le Tourneau, dans la Revue Africaine, 104 (1960)
الشماخي ، السير ، ص ١٢ ، البرادي ، الجواهر ، ص ١٧٠ — ١٧١
(١٢٦) التاريخ ، ط . دار المعارف ، ج٦ ص ٣٧٤ ، ٤٩٣ ، ٥٠٦ ، ٦١٧ ، ج٧ ص ٤٣١ ؛ ج٨ ص ٦٦
(١٢٧) التاريخ ، ط بيروت ١٩٥٠ ، ج٢ ص ٣١٣
(١٢٨) الكامل ، بيروت ١٩٦٥ ج٤ ص ٤٩٣ ، ٥٨٤ ، ج٥ ص ١١ ، ٧٧ ، ١٠١ ، ٤٠٨
(١٢٩) النجوم الزاهرة ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٨ — ٢٤٩
(١٣٠) البيان ج١ ص ٤٨ — ٤٩
(١٣١) العبر ، ج٦ ص ٢٢٠ — ٢٢١
(١٣٢) التاريخ ، ج٤ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ ، انظر ايضا ابن الاثير ، الكامل ، ج٣ ص ٣٥
(١٣٣) طبع حديثا مرتين على التوالي : تحقيق الانسة وداد القاضي،بيروت ، وتحقيق فرحات الدشراوي ، تونس
(١٣٤) انظر بشأنه دراسة الانسة
De G. Fletcher, **the Nazm al-Juman as a source for almohad history** dans actes du premier congrès d'histoire et de Civilisation du magreb, Tunis, 1979, 1, 193 - 199.

(١٣٥) انظر : ٣٩٢
R.Brunschvig, la **Berberie Orientale sous les Hafsides,** Paris 1947 II,

(١٣٦) فهو ينقل مباشرة عن نص التوارة المترجم الى العربية (انظر في ذلك
W. J. Fischel, **Ibn Khaldoun,** (in Egypt) 123, 129

وينقل من مؤلف اسرائيلي يدعوه يوسف بن غريون (العبر ، ج٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣) ويظهر من قوله انه اشتبه عليه امره فحسبه يوسف فلافيوس ((Joseph Flavious

غير ان الحقيقة هي ان النص الذي اعتمده هو المعروف في العصر الوسيط المسيحي (بتاريخ يوزفون) ((Chronique de Yosiphon)) وقد ترجم هذا التاريخ الى العربية فعلا (انظر فيشل ، المصدر المذكور ، ص ١٣٩ — ١٤٨) . وينقل كذلك عن سعيد ابن البطريق — **Eutychius** (٢٦٣ — ٣٢٨ / ٨٧٧ — ٩٤٠) وعن ابن العميد ، وجرجيس المكين .

(١٣٧) ابن خلدون يذكره مرارا في العبر (مثلا ج٢ ص ١٨ ، ٢٢ ، ٧٩ ، ١٦٩ ، ٤٠٤ ، ٤٥٩ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣) والمقصود Pautus Orosius ، وهو من أصحاب القديس المغربي اغسطينوس ((St. Augustun) (٣٤٥ / ٤٣٠) ولقد عاش هرشيوش في القرن الخامس المسيحي ، والف تاريخا عاما بعنوان : Histoire Adversus Paganas وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية بقرطبة أيام الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ / ٩١٢ — ٩٦١) ، وبلغتنا ترجمته فى مخطوط محتفظ به في مكتبة كلومبيا بالولايات المتحدة ، وقد نقل هذا الكتاب ، قبل ابن خلدون ، نقلا يسيرا ، ابن جلجل ، في طبقات الاطباء والحكماء ، وكذلك ابن ابي اصيبعة ، انظر :
Levi Della Vida, **la traduzione araba della storie** dans al Andalus XIX, p. 257-293, di oraso

وانظر ايضا الدراسة التي قدمها عبد الرحمن بدوي في ملتقى ابن خلدون الذي عقد بالرباط في افريل ١٩٧٩ ، والتي ستنشر في أعمال هذا الملتقى .

(١٣٨) انظر :
Levi Della Vida, op. cit. p. 261. **la traduzione arabe della storie**, vol. XIX, fasc 2, Madrid, Grenade 1954 p. 261.

(١٣٩) انظر بحثنا : الهجرة الاندلسية الاولى الى افريقية ايام الحفصيين ، في مجلة الاصالة ع ٢٦/ الجزائر ١٩٧٥ ص ٤٦ — ٩٠

(١٤٠) انظر مؤلفيه: **Ibn Khaldoun and Tamerlan,** Un of California,1952
Ibn Khaldoun in Egypt. p. 108.

(١٤١) انظر ما سبق ص ٧ تعليق ١٥

(١٤٢) المقدمة ج٤ ص ١٤٧٥ — آخر آيتي ٢١٦ و ٢٣٢ من سورة البقرة .

(١٤٣) انظر : Toynbee, **A study of History,** 6 ed. 1955, III, 475.

التّراثُ العَربي
وعناصِرهُ الصّالحةُ لنهضةٍ عربيةٍ حديثةٍ

الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

مدير مركز تنسيق التعريب بالرباط

الحضارة في مدلولها العام تستلزم طائفة من العناصر ، ابرزها : شيوع العمران وانتشار العلوم والفنون وحسن انتظـام الاجتماع وتوازن الاقتصاد وعظمة الجهاز السياسي وضخامة المقومات العسكرية وما شئت من مظاهر العزة والمنعة والوفرة والامن والنظام . والحضارات تقوى وتضعف بحسب قوة تلك العناصر وضعفها ودرجة اكتمالها والصبغة التي تصطبغ بها ، فهنالك حضارات يطغى فيها الجانب المادي على الجانب الروحي أي تسود فيها مظاهر العمران والمدنية الملموسة ، وتلك سمة يغلب وجودها في الحضارات الاوربية بخلاف الحضارات الشرقية ، التي تضم الى جانب هيكلها المادي مجموعة روحية لا تزال الانسانية تستمد منها الى الآن سواء في ميدان الفلسفة أم الاقتصاد أم الاجتماع . وغير خاف ان اقدم الحضارات في العالم هي الحضارة الشرقية من صينية وهندية ومصرية وآشورية وكلدانيـة وفينيقية وفارسية . ولهـذه الحضارات الاسيوية تراث فكري ومادي كان ولا يزال من أجل دعائم الحضارة الغربية الآرية . وأقول مادي لان كثيرا من الاختراعات قد أستمدتها الانسانية منذ فجر التاريخ من الحضارات السامية القديمة .

ان من يتتبع مقومات الحضارات الانسانية يلاحظ ظاهرة قديمة وهي امكان رد معظم هـذه المقومات الى المدنية الشرقيـة ، ففي الفلسفة وفي العلوم وفي الاقتصاد يصطدم المؤرخ بطائفة من المعلومات منتشرة في كتب منها المطبوع ومنها المخطوط يدل مجموعها على ان كثيرا من مظاهر المدنية التي تبناها عصر الانبعاث في أوربا ترجع لاعمق العصور ولاعرق المدنيات الشرقية .

والحضارات تتكيف تبعا للجو المحلي وطبقـا لمؤثرات تتفاعل فتسمها بطابع خاص .

فما هي وضعية الحضارة المغربية بالنسبة للحضارات العالمية ؟ وما هي منزلتها كحضارة اسلامية بالنسبة للحضارات التي توالت على المغرب قبل الفتح الاسلامي ؟ وما هي علاقــة الحضارة الشرقية بالحضارة المغربيــة في عدوتى المغرب والاندلس ؟

ان العرب لما فتحوا افريقية والمغرب وجدوا الامم التي تنازعت السلطة في المغرب قبل دخول الاسلام اليه والحضارة القرطاجية قد قضى عليها طغيان الرومان الذين محقوا عاصمة قرطاج واستأصلوا من ربوعها الزاهرة جذور المدنية والعمران ثم بنوا على انقاضها شيئا جديدا ما لبث الوندال ان استأصلوه بدورهم ،ولكن لم يلبثوا في المغرب زهاء القرن حتى انقض عليهم الروم سكان الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزانس) فارتكبوا فيهم مــا ارتكبوه هم في في الرومان وما ارتكبه الرومان في القرطاجنيين . وقد ذكر المؤرخون انه لم تمض ستة أشهر على انتصار الروم حتى عفوا على آثار الوندال بالبلاد . وخرج المغرب من سلسلة الاحتلالات الاجنبية صفر اليد خاوي الوفاض منهوك القوى، ووجد سكان البــلاد ــ وهم البربر ــ انفسهم كما كانوا أول مــرة بــدائيين في حضارتهم . وقد أكد الاستاذ الفريد بيل Alfred Bel في كتابه (ديانة الاسلام في بلاد البربر ، ص ٦٤) ان مما لوحظ كون لغــة القرطاجنيين والرومان وكل ما استمده البربر خلال الاحتلال الروماني والقرطاجني قد اندرس بعد انقضاء الاحتلال المذكور ، وان البربر عادوا الى استعمال لغتهم والى اساليبهم الوحشية مما يدلنا على انهم لم يستفيدوا قلامة ظفر من حضارة قرطاج ولا رومة . ولعل الاستاذ بيل نسي ان يقول بأن الشيء الذي ظل متغلغلا في روح البرابرة هــو اللغة البونية التي كانت قريبة من العربية والتي امتد اشعاعها على يد الكنعانيين العرب بين ابناء البربر من قرطاج الى قابس ومن طنجة الى بجاية .

ولكن هل كانت للبربر حضارة قبل سلسلة الاحتلالات الاجنبية ؟ أم كانوا مغمورين في بوتقة الشعوب المتوحشة كما يزعم كثير من المؤرخين الاجانب ؟ يجب ان نعلم قبل كل شيء ان البربر اسيويون لا افارقة وانهم هاجروا من آسيا الى المغرب عن طريق مصر والبلاد الليبيــة . وجــاء برابرة الاطلس المغربي على الخصوص من ربوع الشام حيث كان يجمعهم قرب الجوار مع ابناء عمهم العرب الكنعانيين . فالحضارة البربرية حضارة اسيوية بدائية ترتكز على الزراعة والرعى ، وقد وصف لنا مؤرخون اجانب التجانس الذي كان ملحوظا بــين عادات العرب والبربر والذي كان يبلغ سويداء الحياة الاجتماعية بل والدينية .

وقد اخترع البربر احرفا هجائية في الوقت الذي اخترع الكنعانيون احرفا خاصة بهم ، والحروف المعروفة بحروف تفناغ لا تزال مستعملة عند البربر الطوارق الصحراويين الى يومنا هذا . وعندما انكشف شعاع الحضارات القرطاجنية والرومانية والوندالية من المغرب انساق البربر في تيار حضارتهم الشرقية الاصلية التي تتبلور فيها مثل عليا ملكت منهم المشاعر وتغلغلت في الاعماق حيث كانوا ـ كالعرب ـ يحبون الاستقلال ويتشبثون بالحرية وتجمعهم مع العرب كما قال سديو (Sédillot) (ميول وعواطف واحدة ومبادىء متشاكلة كحب الفخر والهيام بالحرية واكرام الضيف) .

وقد وجد البربر انفسهم بعد الفتح العربي الاسلامي ازاء شعب من بني عمومتهم يشاطرهم مثلهم السامية وتقاليدهم الحرة فامتزج العنصران ولم يزد توالي القرون هذا التماذج الا قوة ، فتكونت مع الزمان مدنية مغربية مزدوجة القوام انصهر في بوتقتها تراثان كلاهما شرقي الاصل طبعه الاسلام ووسمته العروبة بميسمها الخاص .

وهنا تظهر حيوية الاسلام في افريقيا الشمالية وخاصة تلك الحيوية التي اقر بها الفريد بيل ، كما أقر بها قبله وبعده مستشرقون منصفون ، فالاسلام هو الذي استطاع وحده ان يخلق في هذه البلاد حضارة حقا دائمة مكتملة العناصر بعد ما عجزت عن ذلك الحضارتان القرطاجنية والرومانية رغم سموهما . واعني بالحضارة الحق حضارة ترتكز على مقتضيات اجتماعية كوجود الامة واكتمال مقوماتها وتوفر العناصر الروحية والمادية الضرورية لقيام كيانها واستمرار وجودها وصيانة ترابها وتراثها وهذا الشيء قد اوجده الاسلام الذي انضوى المغرب تحت رايته طوال اربعة عشر قرنا .

وقد تطورت تلك الحضارة المغربية ضمن دائرة العروبة والاسلام محتفظة على مر العصور بروحها الشرقية الخالصة ، وتطورت بجانبها حضارة اخرى هي حضارة الاندلس التي استمدت روحها من تراث الشرق الذي نقله الفاتحون والمهاجرون ، واضفت العوامل والتفاعلات المحلية على تلك الروح جلبابا لم تكن لحمته ولا سداه ليمتدا الى الاعماق حيث ظلت السيطرة للروح الشرقية وحدها .

ان للوضعية الجغرافية بعض الاثر في تكييف العقلية نوعا ما ثم الانتاج الفكري ثم مظاهر الحضارة ومع ذلك فقد ظلت الحضارتان الاندلسية والمغربية

شرقيتين بعد ان تفاعلتا نحوا من ثلاثة قرون أي منذ عهد المرابطين الى عهد المرينيين تحت اشراف عاصمتي مراكش وفاس .

والثقافة الشرقية هي المنوال الذي حاك عليه رجال الفكر المغاربة منذ صدر الاسلام ، ومن تتبع جزئيات التراثين الشرقي والمغربي اسلوبا ونزعة وروحا لاحظ وحدة الجوهر ادبا وفلسفة واجتماعا مع فروق سطحية مرجعها الى مقتضيات اللون المحلي .

فالحضارة المغربية شرقية بدءا ونهاية ليس فيها أي أثر يذكر للحضارة اللاتينية التي قدر لها ان تمر مر السحاب في هذه البلاد .

والحضارة الاندلسية حضارة مغربية صميمة أي شرقية المبنى عربية المعنى . وقد تداولت عواصم العدوتين وبالاخص مدينتي فاس وقرطبة مع عواصم الشرق في حمل راية الحضارة العربية الاسلامية في العالم أيام كان الجهل رابضا بكلكله الثقيل على اوربا ، فكانت فاس مركزا للاشعاع الفكري والروحي يستمد من نبراسه الاوربيون كما هو معلوم عند من له ادنى المام بتاريخ الحضارات .

وتراث العروبة نفسه لم يكتمل في كثير من مقوماته الا بمساهمة المغاربة في بناء صرحه كالشريف الادريسي (استاذ اوربا) بجغرافيته وابن بطوطة برحلاته وابن خلدون باجتماعياته ، والحاتمي باشراقاته وابن رشد بفلسفته وفقهه وطبه وابن الخطيب بأدبياته ونكاته (التي يبذ بها الجاحظ في كثير من الاحيان) وابن حزم بتنسيقاته الفلسفية والدينية ، وابن طفيل بنظرياته في الفلسفة الفطرية .

فنحن معشر المغاربة بعنصرينا أمة عربية المحتد شرقية الروح اسلامية العقيدة وحضارتنا حضارة شرقية عربية اسلامية في جوهرها ومقوماتها .

وهي حضارة تتمثل فيها كل المؤهلات التي تتكون الحضارة من بعضها فضلا عن مجموعها .

وقد عاش المغرب والاندلس متحدين نحوا من ثلاثة قرون (من عهد المرابطين الى اوائل عهد المرينيين) وتم الانصهار والتمازج بين العنصرين اللذين كانت تجمعهما عوامل شتى لما كان بين البلدين من اواصر التزاور والمبادلة ،

فكانت الوفود الاندلسية تترى على مراكش عاصمة المرابطين والموحدين ثم على فاس حاضرة المملكة المغربية في عهد المرينيين ، وكان افراد الشعب المغربي الذين يهبون بين الفينة والفينة لانجاد اخوانهم سكان العدوة الشمالية يتصلون بالعناصر الاندلسية ويقتبسون منها فكريا واجتماعيا . واستمر الاحتكاك عن طريق رجال مشهورين خلال القرنين الخامس والسادس حيث ظهر فلاسفة واطباء افذاذ كابن طفيل وابن رشد وبني زهر ، ولم يكد ينتصف القرن السابع الهجري الذي شهد سقوط معظم العواصم الاندلسية في قبضة الاسبان حتى تضخمت حركة الهجرة فكان لذلك اثره الفعال في حياة المغرب الناعمة وقد توالي سيل المهاجرين الاندلسيين أيام السعديين فنقلوا معهم نماذج الحضارة الاندلسية التي طبعت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية المغربية وعند ما وقع النفي العام بالاندلس غصت رحاب بعض كبريات المدن المغربية كفاس وتطوان وسلا بعلماء وشعراء وفنانين وتجار وارباب حرف ساهموا فعليا في صهر الحضارتين صهرا طبعهما منذ ذلك العهد بطابع الطرافة والرصانة والسمو وقد امتزجت كثير من العادات والمظاهر المقتبسة من الحضارتين امتزاجا عميقا تعذر معه رد كل منهما الى ينبوعه في كثير من الاحايين .

وقد أبرز الدكتور رينــو Reinaud في كتابه الطب القديــم بالمغرب (نشرة معهد الدروس العليا عدد ۱ ص ۷۲) « امتزاج تاريخ الاندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحدين » فما هي اذن هذه العناصر الخالدة التي بلورت حضارة المغرب والتي لا تزال في روحها ومبناها كفيلة بدعم كل تطور عربي في العصر الحديث ؟

فمن ابرز مظاهر تراثنا الفكري والحضاري الصالحة لنهضة عربية حديثة تلك العناصر الاساسية للمنهجية العلمية والتقنية التي ارتكز عليها الانبعاث في أوربا بعد عصر النهضة وانطواء العصور الوسطى التي ظلت قرابة الف عـام الاطار الزمني لازدهار الحضارة العربية في مختلف مجاليها الانسانية فقد برهن العرب طوال قرون عن اصالة نادرة وعن روح خـلاقة وعن استعداد للتكيف فأبدعوا منهجا تجريبيا رصينا لم يكن للانسانية عهد به وطوروا الاختصاص التقني وحرروا الفكر وعززوا شمولية الكشف العلمي بربط الماضي بالحاضر ودعم التبادل بين الشرق والغرب ، في تسامح وموضوعية وانكار للذات وتطلع عارم الى التضلع من اللغات واستكناه مختلف الاتجاهات والنظريات والمذاهب والنظم والعادات لدى الامم والشعوب ، تفتيقا للفكر وتوسيعا للافق ، وبذلك شادوا بنيانا شامخا ما زال الى الآن موئلا ومنبعا للفكر الانساني النزيه .

فلنستعرض اذن الوانا من الكشوف المغربية في مجالات الطب والكيمياء والصيدلة والعلوم الطبيعية والرياضية والفلكية وغيرها ، ثم بعض المجالى الاجتماعية والاقتصادية والفنية لنستشف مدى اسهام المغرب الاقصى في دعم الكيان العربي الاسلامي خاصة والانساني عامة ــ فكرا وحضارة ــ بعناصر لا تزال غضة في منهجيتها وقوامها .

كان القرن الرابع في الاندلس هو عصر النهضة ، تفتق فيه الفكر العربي سواء من حيث دراسة الفنون والتقنيات أم من حيث الاختراعات والكشوف العلميــة (١) . وهكــذا برز ابن جلجل كأعظــم طبيب طبائعي في عصــره عرب « مفردات ديسقوريدس » وزاد عليها الادوية التي جهلها والتي كانت معروفة عند العرب ، كما بــرز أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي صاحب كتــاب « التعريف لمن عجز عن التأليف » الذي كان أعظم ممثل لفن الجراحة في المدرسة العربية(٢) اعتمده واستند الى بحوثه جميع مؤلفي الجراحة في القرون الوسطى. وكتابه يعد اللبنة الاولى في هذا العلم اذ هو اول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصى المثانة واستخرجها بتشريح جراحي وعالج الشلل واستعمل خيوط الحرير في رتق الجراحات . والظاهرة التي امتاز بهــا هذا الكتاب هو روحه التجريبية وتركيز النصوص على آلات اثبت صورها في كتــاب هو أول تعبير للجراحة كعلم(٣) . ويرى لوكلير(٤) ان المغرب كان أشد اقطار الاسلام عمقا من الناحيةالعلمية يشهد بذلك ــ حسب القفطى (٥) ــ عدد الاطباء والصيادلةالمغاربة الذين رافقوا المعز الفاطمي الى مصر .

وكانت بفاس في القرن الرابع مدرسة طبية(٦) . كما كان البرابرة قبل هذا العصر يستعملون الحقن بجراثيم الجدري لضمان حصانة المصاب(٧) . على ان القرنين الخامس والسادس قد عرفا في المغرب الاقصى تحــرر الفكر بصورة لم يسبق لهــا مثيل ــ كما قال لوكلير(٨) ــ تشهد بذلك رعاية البلاط المراكشي لامثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد وبني زهر . وقد اتصل بهذا الفن علم الصيدلة وعلم العقاقير والفلاحة حيث يعتبر كتاب ابن العوام أبي زكرياء يحيى بن محمد عديم النظير في الادب العربي(٩) « لما يحتوي عليه من معارف تطبيقية ووثائق قديمة وثمينة » بل هو أعظم ما انتجه لا العرب وحدهم بل حتى العصور القديمة « وقد كان الشريف الادريسي السبتي من هذا الطراز فطاف فيآسيا وأوربا ووصف نباتاتكل قطر وصفا اصيلا» (١٠) وكتابه فيالادوية ملىء بالملاحظات الشخصية اقتبس منه ابن البيطار في مائتي موضع من كتابه

في الاعشاب (لوكلير ج٢ ص٨) واعتمد عليه وحده في ثلاثين موضعا (ص ٦٨) كما اعتمده استاذ ابن البيطار أبو العباس النبطي وهو مع تلميذه ابرز العلماء النباتيين العرب الذين لم ينجب الشرق من يضاهيهم في هذه الآونة عدا فخر الدين الرازي . وقد استطاع الاندلس بفضل شبكة علمائه ــ كما يقول لوكلير(١١) ــ ان يحمل راية الفلسفة والطب في العالم الاسلامي وبفضل هذا الانبعاث العربي في الاندلس صارت اوربا تنفض عنها اردية الركود وأصبح المسيحيون يتوافدون على طليطلة للارتشاف من معين العلم ، وقد استنجد اسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتيني واذ ذاك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية فنقل جيرار دوكريمون وحده من العربية الى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربيا أو اغريقيا معربا . على ان حركة الترجمة بدأت في المغرب العربي منذ القرن الرابع ، فهذا قسطنطين التونسي الصقلي قد أسس مدرسة سالرنا وهي أول مدرسة من نوعها في أوربا كانت مبعث أنوار الطب الحديث في العالم الغربي شارك في التدريس بها الطبيب يونس العربي الفاسي (اللسان العربي ج٥ ــ بحث الدكتور أحمد مكي) وقد ولد عام ٤٠٠ بتونس وتوفى عام ٤٧٥ هـ ، وظلت المخطوطات الطبية العربية التي حملها الى سالرنة غذاء أوربا عدة قرون ، وقد ترجم للاتينية أهم كتب الطب العربي كزاد المسافر لابن الجزار وكتب للرازي واسحق بن سليمان الاسرائيلي ، والف نحوا من أربعة وعشرين كتابا منها « قانون الطب » في اثنى عشر مجلدا وفياتيكوم (١٢) في الطب العام في سبعة أجزاء .

ونبغ في الشرق العربي في هذا العصر علماء افذاذ تساوقت ابتكاراتهم مع زملائهم في الغرب منهم السويدي صاحب « التذكرة » المتوفى عام ٦٩١ هـ وابن أبي أصيبعة وجمال الدين القفطي علي بن يوسف المصري (٦٤٦ هـ) وعبد اللطيف البغدادي (٦٢٩ هـ) (حيث امتاز في وصف أعشاب مصر) وابن النفيس المصري (٦٨٧ هـ) الذي كان أعظم أطباء عصره . ولعل مما ساعد على تطور الطب وما اتصل به من علوم سهر المنصور الموحدي على مصالح الاطباء وتنظيمه لمهنة الطب ــ وقد سبقه الى ذلك الخليفة المقتدر الذي فرض على الاطباء تأدية امتحان تقني فبلغ عدد المتخرجين ببغداد عام ٣١٩ هـ ثمانية وستين طبيبا (١٣) ، وقد اجري اول امتحان للصيادلة أيام المعتصم عام ٢٢١ هـ.

وكانت التجربة هي الطريقة العادية عند الاطباء حيث ظهر كتاب التذكرة لأبي العلاء زهر بن زهر الاندلسي الذي كان والده ابو مروان عبد الملك بن ابي بكر رئيس الطب ببغداد ثم بمصر والقيروان(١٤) ، وهو كتاب ترجم الى الفرنسية

عام ١٩١١ م بعد ان تعددت ترجماته عشر مرات بين ١٤٩٠ و ١٥٥٤ م كمجموعة من الملاحظات سجلها أبو العلاء لولده ابن زهر لتعريفه بالادواء الغالبة في مراكش وبالادوية المناسبة لها . ولابي العلاء أيضا « مجربات » طبية جمعت بمراكش عام ٥٢٦ هـ يوجد مخطوط لها في الاسكوريال (رقم ٨٤٤) . ولعل ولده ابن زهر ابا مروان عبد الملك مؤلف كتابي « الاقتصاد » و « التيسير » قد بذ سابقيه حيث اعتبر أعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى الرازي في الشـرق(١٥) وكان لا يعالج الا بعد الفحص الدقيق وجس النبض والنظر الى قوارير البول لتحليله. وقد نهج ابن زهر خاصة في كتاب « التيسير » أسلوبا جديدا في الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلي للوصول الى احسن النتائج فهو طبيب التجربة يصف الدواء على غرار اطباء عصرنا ويباشر الصيدلة لتجربة الادوية بنفسه ولذلك توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية في البلاط المراكشي الى الكشف عن امراض جديدة لم تدرس قبله كالامراض الرئوية (التي منها تشريح القصبة في مرض الذبحة) وكذلك التخصص في الجهاز الهضمي حيث استعمل الانابيب المجوفة لتغذية المصابين بعسر البلع والحقن المغذية واكتشف طفيلية الجرب وسماها صؤابة الجرب وارتكز على الطبيعة لعلاج الادواء(١٦) . وكان سر نجاحه هو تشبعه بروح العصر الحديث حيث كان يتسم مثلا بنكران الذات فينسى نفسه ويستغرق في مريضه وقد عرضت عليه حالات خطيرة حاول ان يعيشها مستمدا من ذكرياته وتجاربه ومنطقه . وقد برر كودار (١٧) Godard هذه الميزة عند ابن زهر فأكد انه استعاض بالمنهج التجريبي والطريقة العقلية عن التقليد في ممارسة فن الطب وكانت له عبقرية فذة تطورت بفضلها شعب ثلاث حاول توحيدها وهي الصيدلة والجراحة والطب العام . ولعل من النقص الملحوظ في عصرنا الحاضر تباعد هذه العناصر المتزايد بعضها عن بعض ، اما الحفيد ابو بكر بن أبي مروان (٥٩٦ هـ) فقـد اضاف الى تضلعـه في الطب مشاركته في العـلوم الاسلامية حيث كـان محدثـا يحفظ صحيـح البخاري بأسانيده(١٨) ولم يكن في زمانه اعلم منه باللغة ، وكان شاعرا يحفظ ديوان ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب(١٩) . وظاهرة المشاركة هذه توفرت في كثير مـن الاطباء كأبي جعفر بن هارون الترجالي تلميذ ابي بكر المعافري في علم الحديث والمتخصص في طب العيـون وابي يحيى هانىء بن الحسن اللخمي الغرناطي المشارك في الحديث والاصول والطب الذي(٢٠) تتلمذ لابن قرتون بفاس . ومن الاطباء الذين كان لهم باع طويل في التجارب العلمية الوزير ابو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة شيخ ابن رشد المتوفى بفاس عام ٥٣٣هـ(٢١) وقد تعاون معه تلميذه ابو الحسن سفيان الاندلسي المتوفى عام ٥٣٧ هـ في

تأليف كتاب التجربتين(٢٢) . على ان ابن رشد نفسه ضرب اروع مثل في المنهجية التجريبية فاقترح في شرحه لابن سينا ما يصفه الاطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الامراض الرئوية مشيرا الى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية(٢٣) . وابن رشد هو أول من أشار الى الدورة الدموية الكبرى وعللها في كتابه « الكليات » الذي استمد منه ويليام هارفي (William Harvy) معظم نظرياته وقد سبقه ابن النفيس المصري الى الكشف عن الدورة الدموية الصغرى او الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون(٢٤) .

وهذه الروح العلمية الفياضة هي التي تمخض عنها ما اشار اليه مؤرخ فرنسي من الدّ أعداء العرب هو (رونــان (Renam)) في كتابهAverroès et . l'Averroisme»(ابن‌رشد ومذهبه) من اعتراف كريسطوف كولومب في رسالة تركها بعد موته بأن الذي اوحى اليه بوجود قارة جديدة وراء المحيط هو ابن رشد المغربي في كتابه « الكليات » . على ان مجلة « نيوز ويك » الامريكية اكدت (في عدد ابريل ١٩٦٠) أن العرب انطلقوا قبل سنة ١١٠٠ م (أي قبل كريسطوف كولومب بأربعة قرون) من ميناء الدار البيضاء بالمغرب الاقصى فرسوا في عدة مواضع على الساحل الامريكي . واكد هذه النظرية كثير من العلماء(٢٥) .

اما المارستانات وهي المستشفيات والمصحات فقد وصف عبد الواحد المراكشي(٢٦) الذي عاش في بغداد ــ المستشفى الموحدي قائلا :

« وبنى أي المنصور الموحدي بمراكش بيمارستانا ما اظن ان في الدنيا مثله وذلك انه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد وامر البنائين باتقانه على احسن الوجوه فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ، وامر ان يغرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار والمشمومات والمأكولات واجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك في وسط احداها رخام ابيض ثم امر له من الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت واجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب اليه من الادوية واقام فيه الصيادلة لعمل الاشربة والادهان والاكحال واعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فاذا نقه المريض فان كان فقيرا امر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وان كان غنيا دفع له ماله . . ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب

حمل اليه وعولج الى ان يستريح او يموت وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى .. ولم يزل مستمرا على هذا الى ان مات » .

وذكر ميليى (في كتابه الموحدون) المؤلف عام ١٩٢٣ ص ١٢٩ ان هـذا المستشفى « لا يخلف وراءه مصحات أوربا المسيحية فحسب بل تخجل منه حتى اليوم مستشفيات باريس » .

ولا بدع اذا كان مستشفى الموحدين بهذه المثابة بالنسبة لاوربا فقد قال ولتر في مختصر التاريخ : « ازدهر علم الطب والتداوي عند العرب على حين كان الاوربيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون اربابه اذ ان الكنيسة كانت قد حرمته عليهم وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائر القديسين وبالتعاويذ والرقي التي كان يبيعها رجال الدين » الى ان قال : وكان الاوربيون يستنكفون من النظافة لانها تشبه الوضوء عند المسلمين » .

وقد كان الاوربيون يضطرون الى اللجوء للمستشفيات العربية فهذا الملك شانجه توجه الى قرطبة من أجل العلاج مـن مرض الاستسقاء (لوكلير ج٢ ص ٣٥١) .

وبدأ افول الحركة الفكرية في المغرب آخر الدولة المرينية بعـد سقوط غرناطة اواخر القرن العاشر الهجري وردود فعل الاسبان الانتقامية (Reconquista) فلم ينبغ في البحث العلمي عدا رجال قلائل امثال الوزير الغساني مؤلف كتاب « حديقة الازهار » الذي نشر عنه الدكتور رينو(٢٧) دراسة اكد فيها ان هذا الكتاب يمتاز بمنهاجه الواضح جدا في الوصف النباتي الذي يتسم غالبا بطابع الاصالة والطرافة مع محاولة مفيدة لترتيب ثلاثي يدخل عنصرا جديدا في وصف اعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية . وقد ظل المغرب مع ذلك خلال العصور الاخيرة من تاريخه ـ بالرغم عن احتلال البرتغال والاسبان لبعض مراسيـه ومحاولة تدخل الاتراك في شؤونه ـ يواصل منهجه التجريبي على نطاق ضيق حيث ظهرت اساليب (٢٨) لمعالجة انواع الرمد وتشريح العين لازالـة غشاوتها وتخدير المرضى قبل العمليات الجراحية واستخدام وسائل الايحاء والتنويم مع المهارة في طب الاسنان . وقد اعطانا الطبيب احمد بن حمدون بن الحاج(٢٩) المتوفى عام ١٣١٦ هـ (٣٠) للمرة الاولى في تاريخ المغرب تقسيما فنيا للادوية كما صنف الشريف العلمي الذي درس بالاسبطالية الكبرى بالقاهرة عام ١٢٩١ هـ كتاب « ضياء النبراس في حل مفردات الانطاكي بلغة أهل فاس » (طبع عـام

١٣١٨ هـ) يحتوي على مفردات بربرية ولاتينية وافرنجية مرادفة للمصطلحات الطبية العربية مع تخليل ذلك بالمصطلحات الحديثة كالتصعيد والتقطير ووصف العمليات العلميــة ، وهو كتاب متين التحليل يعتبر نقطـة تحول في تاريـخ الطب المغربي .

ولنضرب الآن مثلا آخر بشعبة من العلوم هي الرياضيات فقد كان العرب اساتذة النهضة الاوربية في الحساب(٢١) وقد فند سيديو (Sédillot) (٢٢) ما زعمه بعض المستشرقين من ان علماء العرب انما اقتبسوا من الاغريق مشيرا الى ما ابدعه الفكر العربي في هذا المجال مثل ادراج الخطوط الماسة للدائرة (tangentes) في الحسابات والاستعاضة عن الاساليب العتيقة بحلول مبسطة اصبحت اساسا في علم حساب المثلثات الحديث (trigonométrie)

وقد لاحظ العالم شال (Chasles) انه كان للعرب فضل التفكير في تطبيق الجبر على الهندسة وتأكد ذلك بعد ان نشرت مؤلفات محمد بن موسى الخوارزمي منذ عام ١٨٣٦ م من طرف روزن (Rosen) وكان بينها بحث في الجبر حلت مشاكله في المعادلات الثلاثية بطريق هندسية ويقال بأن الخوارزمي هــذا لم يحل سوى المعــادلات من الدرجــة الثانيــة(équation de 2e degré) وان الذي حــل معــادلات الدرجة الثالثة هــو عمر بن ابراهيم (٢٢) ولعــل لفظتى الغوريتم واللوغريتم مشتقتان من اسم الخوارزمي الذي يعتبر اقدم الرياضيين العرب حيث عاش في عصر المأمون العباسي ونقلت كتبه في الجبر والمقابلة الى اللاتينية . وقد ابدع العرب في علم المثلثات نظرا لتطبيقاتها في علم الفلك .

واسهم الغرب الاسلامي أي المغرب الكبير والاندلس في بلورة هذا الاشعاع العلمي العربي فظهر ابن حمزة المغربي في القرن الرابع واستعمل طرقا جديدة في اللغريتم ، واشتهر في الاندلس ابو عبيــدة مسلم بن احمد ويحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة وابو القاسم اصبغ بن السمح (له تآليف منها المدخل الى الهندسة في تفسير اقليدس وكتاب كبــير في الهندسة) وابو القاسم بن الصفار وابو الحسن الزهراوي (كان عالما بالعدد والطب والهندسة له كتاب شريف في المعاملات) وابو الحكم عمر الكرماني (من الراسخين في العدد والهندسة) وابو مسلم بن خلدون (كان متصرفا في الفلسفة والهندسة والنجوم والطب) وتلميذه ابو الحسن مختار الرعيني (كان بصيرا بالهندسة والنجوم) وعبد الله بن احمد السرقسطي (ناقد في الهندسة والعدد) ومحمد بــن الليث (بارع في العــدد

والهندسة) وابو حي القرطبي (بصير بالهندسة رحل الى مصر عام ٤٤٢ هـ) وابو الوقشي الطليطلي (الهندسة) (النفح ج٢ ص ٨٧٤) .

وقد احصينا في « معجم الرياضيين بالمغرب الاقصى » الذي نشرناه عام ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥ م في مجلة « اللسان العربي » (العدد الثالث ص ١٣٤) نحوا من مائة وثلاثين من المهندسين والرياضيين وعلماء الهيئة المغاربة الذين برزوا في هذا القطاع العلمي الهام وخلفوا لنا تراثا رائعا اسهموا به في دعم صرح الحضارة والبحث العلمي في العالم ومن بين هؤلاء :

١ ــ المهندس الحاج يعيش الذي بنى لعبد المؤمن ابن علي الموحدي مقصورة وضعت على حركات هندسية ترفع لخروجه وتنخفض لدخوله .

٢ ــ المهندس عبيد الله بن يونس الذي استخرج مياه السقي بصنعة هندسية (٣٥) .

٣ ــ ابن الياسمين الذي ولد بفاس اواسط القرن السادس والخبير في الجبر والمقابلة .

٤ ــ المهندس المعماري ابو عمران موسى بن حسن بن أبي شامة مصمم بعض الاجنحة في جامعة القرويين عام ٥٩٩ هـ .

٥ ــ ابن البنا المراكشي (المتوفى عام ٧٢١ هـ) صاحب مقدمة اقليدس ومختصر الفلاحة والاصول في الجبر والمقابلة وتلخيص في الحساب شرحه ابن المجدي احمد بن رجب بن طنبغا القاهري عام ٨٥٠ هـ واختصره ابن الهاشم القرافي المتوفى عام ٨١٥ هـ .

٦ ــ على اليفرني المكناسي (٧٣٤ هـ) وهو امام الرياضيات في عصره(٣٦) .

٧ ــ علي بن أحمد التلمساني صانع منجانة المدرسة العنانية بفاس عام ٧٥٨ هـ (٣٧) .

٨ ــ أمير المؤمنين في الحساب ابراهيم المصمودي ٩١٢ هـ (٣٨) .

٩ ــ الفلكي احمد الغزاني الفاسي ٩٢٠ هـ (٣٩) .

١٠ ــ محمد بن هلال امام التعاليم في سبتة وشارح المجسطي في الهيئة (٩٤٩ هـ) .

١١ ـ ابن مشون محمد بن يوسف السبتي صاحب الرجز في الجبر والمقابلة (٤٠) عام (٩٨٩ هـ) .

١٢ ـ السلطان احمد المنصور الذهبي الذي كان يفك كل يوم شكلا من كتاب اقليدس (٤١) .

١٣ ـ شيخ جماعة الفنون بمراكش احمد التقليتي الاختصاصي في الرياضيات والمساحات والهندسة وهو من رجال القرن الحادي عشر .

١٤ ـ محمد بن محمد بن سليمان الروداني الفاسي (١٠٩٤ هـ) الخبير الاوحد في الرياضيات والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمساحة ، وقد عاش في بغداد فذاع صيته واخترع آلة فلكية وصفها صاحب نشر المثاني (ص ٨٧) .

١٥ ـ المنجم الرياضي محمد المسناوي مرينو (١٢٠٧ هـ) صاحب كتاب « تقدير قرض النفقات » في علم الاقتصاد الرياضي .

١٦ ـ الاستاذ المعطي مرينو (١٢٢٣ هـ) صاحب كتاب « كنز الاسرار في تعديل الكواكب » وكتاب ابعاد النيرات ورصده وكتاب المزاول .

١٧ ـ احمد بن عبد الله التناني الصويري (١٣٢٠ هـ) صاحب المؤلفات العديدة في الجبر والمقابلة واللغاريتم ، والذي حل اشكالا هندسية نقلهـا الى الرياضيات وكان رئيس الرياضيين والمهندسين ورئيس المدفعية في الجيش المغربي .

واذا اعتبرنا شعبة اخرى من العلوم التطبيقية كعلم الجغرافية نلاحظ ان الخرائط العربية الاولى كانت عبارة عن خلاصة لما ورد عن بطليموس ، وظل العالم طوال الف عام عالة على هذا الجغرافي والفلكي اليوناني الذي هو من رجال القرن الثاني الميلادي حتى ظهر الشريف الادريسي الذي وصفه كوتيي(٤٢) بأنه استاذ اوربا في الجغرافية ، حيث ظل الغربيون يستمدون ازيد من ثلاثة قرون من خريطته العالمية ، فكان اطول باعا من بطليموس واكثر دقة في ملاحظاته وتقديراته لان بطليموس احصيت عليه في تقديره للمسافة الفاصلة بين طنجة والاسكندرية وحدها اغلاط بلغت ثمان عشرة درجة طولية ، بينما تقل اغلاط تقديرات الادريسي للاطوال ما بين طنجة وطرابلس الغرب عن درجة واحدة . وقد نبه الادريسي على هذه الاغلاط .

ومعلوم ان الاقتصاد في كل امة يعد قواما جوهريا في تطورها الحيوي . وقد اسهم العامل الاقتصادي في بلورة الحضارة المغربية منذ فجر الاسلام ، فالأمة المغربية قد استقبلت الفاتح العربي كمحرر لا سيما وان العرب حملوا معهم الى افريقيا كما يقول كوتيي « حكومة نظامية مجهزة بجميع المقومات العسكرية والادارية » فكان في ذلك الخلاص من جبايات مرهقة فرضها الرومان الذين احالوا الشمال الافريقي الى « مخزن محصولات » لامداد روما فكان الامبراطور الروماني نفسه اكبر ملاك عقاري في المغرب الكبير . ومنذ أواخر القرن الثاني الهجري انطلق الاقتصاد المغربي من عقاله فانتظم وأصبح « منطقيا قار[٣] » كما وصفه المؤرخ طيراس في تاريخ المغرب ، وامست عاصمته الادريسية فاس مركزا اقتصاديا وفكريا رسم الخطوط الاولى للوحدة القومية والتخفيف من عوامل الانفصالية والتشتت القبلي لاسيما بعد ان تجمعت في العاصمة الجديدة ثمانمائة عائلة اندلسية هاجرت اليها (عام ٢٠٢ هـ / ٨١٨ م) بعد وقعة الربض وقبلها ثلاثمائة اسرة قيروانية (١٩٨ هـ) وقد شاهد المغرب اول عملة وطنية مستقلة عام ١٨٥ هـ حيث تبلور الاشعاع الحضاري باستقرار اقوى (حتى في الصحراء) وتصاعد العمران وانبثاق مدن جديدة ، وتعززت الفلاحة التي كانت محور الاقتصاد بأعمال الري الكبرى وازدهرت الحركة التجارية فكانت سجلماسة الصحراوية مركزا للقوافل بين المغرب والبصره وبغداد . وكانت الظاهرة الاساسية التي اتسم بها هذا العصر هي الطمأنينة والامن مما شجع ظهور البوادر الاولى لانتشار الضيع الزراعية . وما لبث هذا الاقتصاد ان تكيف فاتسعت مصادره وموارده باتحاد الاندلس والمغرب . وهكذا فمند ما كشف عباس ابن فرناس الاندلسي ـ وهو أول طيار عربي بالاضافة الى الجوهري استخدم آلة لامتطاء الاثير ـ طريقة جديدة لصنع الزجاج من الحجر تكونت آنذاك مجموعة من الصناعات سبقت البندقية الى كثير من الكشوف وغمرت العالم بأصناف المنجزات من اقداح وعلب وانابيب وآوان كيماوية . وكانت المصانع تنفخ الزجاج وتفرغه وتنحته وتعزز بذلك فن الترصيع في دمشق والزجاج البلوري الرقيق الذي سبقت به مصر صناعات بروسيا وتشيكوسلوفاكيا اوائل هذا القرن .

وقد جعل الموحدون ـ كما يقول اندري جوليان في تاريخ افريقيا الشمالية حداً للفوضى المالية التي كان يتخبط فيها ملوك الطوائف فظهر عنصر جديد هو التصنيع واصبحت سبتة مركزا دوليا لانتاج الورق يضاهيه جودة ورق شاطبة في الاندلس وسامر[٣] في العراق ، وكانت هذه المراكز تمد

اوربا الشرقية والغربيـــة . وقد عثر المستشرق كازيري في الاسكوريال على مخطوط عربي من ورق القطن يرجع تاريخه الى عام ١٠٠٩ م (وهو هذا العصر بالذات) يدل على ان الورق المقصود كان من القطن وقد سبق المغرب اوربا الى صنعه . ومعلوم ان العرب اول من صنع الكاغد من الخرق البالية (لوبون ــ حضارة العرب ــ ص ٥١٩) وقد أصبحت في فاس وحدها أيام الموحدين ٣٠٩٤ مصنعا للنسيج و ٤٧ للصابون و ١٢ لتسبيك الحديد والنحاس واحد عشر معملا للزجاج واربعمائة لصنع الورق او الكاغد (٤٣) ، علاوة على الثروة المعدنية التي اتخذت موادها الاولية من حديد ونحاس وفضة وتوتياء وغيرها منطلقـا لسلسلة مصانع انتشرت بسرعة في حواضر المغرب وبواديه بالاضافة الى مصانع السكر ، فازدهرت المبادلات بين المغرب ودول اوربا وخاصة موانىء بيزه وجنوة والبندقية ومرسيلية وكان المسلمون آنذاك هم أول من نظم الاساليب التجارية طبقا لمقتضيات التجارة الدولية ــ كما يقول اندري جوليان ــ الذي اكد ان الاسطول المغربي اصبح آنذاك اول اسطول في البحر الابيض المتوسط .

ونفتح هنـــا قوسا صغيرة لنؤكـد ان الروح القانونية نجدهـــا متبلورة في مواقف المغرب الذي كان يقف دائما في صف الشعوب التواقة الى التحرر كشعب الولايات المتحدة الذي كان المغرب اول دولة اعترفت باستقلاله في العالم ايام السلطان محمد بن عبد الله المحدث الفقيه السلفي (المتوفى عام ١٢٠٤ هـ) الذي كانت دول اوربية تدفع لاسطوله جزية سنوية ؛ لحمايتها من القرصنة في البحر الابيض المتوسط كما برهن عن روح دولية اكد المؤرخ والحقوقي الفرنسي الكبير جاك كايي انه سبق بها ما عرفته اوربا في العصر الحاضر .

وكانت هذه الفترة التي استمرت ازيد من ثلاثة قرون اروع فترة في تاريخ وحدة المغرب العربي تفتقت خلالها معالم الحضارة ومراسم العمارة وبدائع الفن انضافت الى قوة التخطيط الاجتماعي الذي تبلور في تأمين السبل الصحراوية والتفجر الديمغرافي وتكاثر المارستانات وتزايد المدارس والاحيـــاء الجامعية وانطلاق مصانع المراهم والادهان والاكحال(٤٤) . ولعل من ابرز مظاهر هــذا الازدهار آخر ايام بني مرين القوة الشرائية للنقود حيث لاحظ ابن بطوطة انها كانت تعدل في المغرب ثلاثة اضعافها بمصر . وبالرغم مـن النكبات التي بدأت تترى على المغرب بعد نكبة « الفردوس المفقود » فان المنصور السعدي استطاع اواخر القرن العاشر الهجري في معركة « وادي المخازن » ايقاف غزو البرتغال للشواطىء المغربية مع تقليص النفوذ الاستعماري البرتغالي في البحر

الهندي والخليج العربي كما كان اسطوله قبل ذلك رادعا للصليبيين في سواحل الشام وفلسطين . وصعقت اوربا بعد الهزيمة النكراء التي الحقها المغرب بالبرتغال الذي فقد استقلاله من جراء هذه الضربة أزيد من ستين سنة ، فصارت الدول الغربية تخطب ود السلطان السعدي واقترحت انجلترا عليه التعاون لتأسيس كوندومنيوم الهند ، ونفق الدينار الذهبي المغربي على الصعيد العالمي وتصاعد التصنيع وخاصة تكرير السكر الذي اصبح البلاطان الفرنسي والانجليزي يتنافسان في اقتنائه كأجود ما ينتجه العالم . وبعث المغرب تقوية لمبادلاته مع اوربا عملاء للدعاية لمنتجاته كما شارك في المعارض الدولية كمعرض باريز عام ١٢٨٥ هـ وحمى الصناعة الاهلية من المزاحمات الاجنبية وبذلك برهن في شتى المجالات على تساوقه مع ما يستجد من معطيات الحضارة بأوربا . وقد عرف المغرب انظمة اقتصادية واجتماعية سبقت الاحداث والكشوف الاوربية ؛ فقد منحت الدولة مثلا القروض للدور التجارية لجلب المحاصيل اعوام الجفاف وبيعها بأثمان في متناول الشعب كما كانت تتخذ كل الوسائل لالغاء ما يزيد على الاعشار والزكوات من مكوس وجبايات تخفيفا لوطأتها على الشعب وعلى اقتصاديات البلاد ولعل المغرب كان من اكثر الشعوب ايمانا بفعالية العمل كرأس مال قبل ظهور نظرية كارل ماركس التي يعتقد انصار الاشتراكية والشيوعية بأنها مكسب جديد للانسانية ، فقد اكد ابن خلدون في تاريخه(٤٥) ان « الكسب هو قيمة الاعمال البشرية » فلذلك لاحظ ماسينيون في احصاء قام به عام ١٩٢٤ للصناعة المغربية(٤٦) ان عدد رجال الحرف في المدن المغربية يعادل نصف عدد السكان كما اعترف المؤرخون الاجانب بأن نظام الحناطي عندنا وهو اشبه بما عرف اخيرا في ايطاليا (système des corporations) كان يعمل في اطار من الحرية الكاملة لم يفسد الا باحتكاكه بنظريات اوربا . وقد امتاز الانتاج الصناعي المغربي بجوده نادرة فتحت له منافذ في اوربا الى آخر القرن الماضي ويكفي دليلا على ذلك قطن المغرب الذي كان فيه نوعان معروفان في اوربا « سي – ايسلاند » لهما سدى حريري طويل من الطراز الامريكي . وقد تساوق مع ازدهار التصنيع ازدهار الفلاحة حيث بلغت السوائم وحدها خمسين مليون رأس من الغنم والمعز وستة ملايين رأس من البقر(٤٧) . ويرجع التفجر الديمغرافي بالمغرب لقلة الوفات ولارتفاع معدل الاعمار الى ما بين ٦٥ و ٧٠ سنة في الحواضر ومائة في الاطلس بفضل انتشار المارستانات والملاجىء الصحية وخلو المجتمع الاسلامي من امراض العصر الناتجة عن الخمور او الزنا مثل الامراض التناسلية التي عرفت بالمغرب بالامراض الاسبانية او الفرنسية) .

اما في الحقل الجامعي فقد احتفل المغرب منذ سنوات بذكرى مرور احد عشر قرنا على تأسيس جامعة القرويين التي مافتىء المؤرخون الغربيون يعتبرونها « اول مدرسة في الدنيا » لا تزال قائمة الى الآن ، كما اعتبروا مدينة فاس في افريقيا اشبه بأثينا عاصمة الفكر بأوربا واعتبرها المشارقة انفسهم وخاصة منهم العراقيين كبغداد المغرب(٤٨) اي كعاصمة للغرب الاسلامي بالنسبة لدار السلام في حاضرة الخلافة . وهكذا امتاز المغرب بمدارسه الرائعة التي هي احياء سكنية للطلبة كما امتاز بمعاهد تقنية في القرن الماضي كمدرسة المهندسين(٤٩) ومدرسة المدفعة (بالجديدة) ومدرسة الفنون . وتعزز هذا الانبعاث الفكري بايفاد بعثات من الطلبة الى الخارج لاستكمال معارفهم العلمية والتقنية كما تعزز نتاج العقول بمطبعة حجرية نشرت مئات المخطوطات العربية المختارة من بين آلاف المخطوطات النادرة المكدسة في المكتبات العامة والخاصة بالمغرب .

واذا كان للشعوب والامم مجال يجب الانصراف اليه تعزيزا للكيان الوطني ودعما للحضارة القومية فهو هذه المجموعة من المجالات التي تستلزم تخطيطاتها الرصينة درجة عليا من التقدم الفكري والسمو الاجتماعي والتطـور التقني بالاضافة الى الكفاية الاقتصادية ، ولذلك عمد الاستعمار ــ كما يقول اندري جوليان ــ الى التعجيل بانهيـار المغرب اقتصاديا للسيطرة عليـه سياسيا ففرضت فرنسا حمايتها عام ١٩١٢ م عن طريق القروض والدبلوماسية المالية . ولذلك وجب ان تستفيد نهضتنا الجديدة من هذه العبرة فتتلافى كل استرهان لمقوماتها وتوجه تخطيطها الى دعم سياستها الوحدوية العربية في الاطار العالمي عن طريق تراثها الطبيعي . فلو ان العرب استطاعوا خلق وحـدة اقتصادية حقيقية تحتجز الثروات وخاصة البترول وارصدة البنوك ومختلف اوجـه الاستثمار لتوفر لدينا اكبر ضغط سياسي على الغرب الذي ما زال يستنزف قوانا الحيوية ويجرح كرامتنا بمكايده . ومن مظاهر حضارتنا الفكرية التي يجب ان ندأب متكاتفين شرقا وغربا على صونها ودعمها لربط الماضي بالحاضر مكانة اللغة العربية التي كان نفوذها في العصور الوسطى بعيد المدى حتى ان جانبا من اوربا الجنوبية كان يوقن بأنها هي الاداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب كما يقول جورج ريفوار « وقد انطلق المنهاج العلمي اول ما انطلق باللغة العربية ومن خلال العربية في الحضارة الاوربية » ، بهذا اعترف الاستاذ ماسينيون الذي اكد « ان اللغة العربية اداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الميدان الدولي وان استمرار حياة اللغة العربية دوليا هو العنصر الجوهري للسلام بين الامم في المستقبل » فلا يمكن اذن لاية نهضة عربية حديثة ان تكتمل دون ان تستعيد

لغة الضاد مكانتها المرموقة في المحافل الدولية علميا وتقنيا وحضاريا ، ولنقصر نظرنا على مثال واحد يبرز مدى اسهام المغرب العربي في دعم لغة الضاد فهذا الشيخ مرتضى الزبيدي امام أهل اللغة في القرن الثاني عشر يتتلمذ لابي عبد الله محمد بن الطيب الشرقي الفاسي (المتوفى عـام ١١٧٠ هـ) في اكبر موسوعة لغوية في العصر الحديث « هي تاج العروس من جواهر القاموس » (كما يتتلمذ لمحمد الحسني البليدي الجزائري) « المقولات العشر للدكتور حقي » وقد كان للاستاذ المغربي اثر عميق في تكوين تلميذه المصري حتى انه لا يمر مشكل الا واستند الزبيدي في حله الى شيخه الذي كان اللغويون يصححون المعاجم من املاءاته وتحليلاته كما فعل ابن القزاز البربري حيث صحت عليه اللغة في القرن الرابع الهجري مع صاعد العراقي . اضف الى ذلك ان الفكر المغربي قد طعم المعجم العربي بطائفة من المصطلحات النابعة من مصادر الاشتقاق العربيـة الاصلية (٥٠) والتي اكتملت بها مجالى الحضارة العربيـة في الادارة والقضاء والشرطة والاقتصاد والصناعة والفلاحة والاجتماع والعمران . وقد استعرضنا جوانب من هذه المظاهر في كتابنا « تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث » الذي هو عبارة عن سلسلة محاضرات القيناها في القاهرة باشراف معهد الدراسات العربية العليا . فعناصر التكامل هذه لاينبغي أن تخلق في حضارتنا العربية ثنائية متنافرة الطرفين بل كيانا متساوق الاجزاء ينطلق من المفهوم العلمي العربي الخاص الى المدرك العلمي الانساني العام في تجاوب يحفظ للكيان العربي عالميته التي ظلت طابعه البارز طوال القرون الوسطى الى العصر الحديث . وقد فجر الاستعمار بين الاخوة في الشرق والغرب هذه الثنائية الانفصالية التي ما زلنا نعاني من ويلاتها الامرين في مجاذباتنا الهامشية التي تنسينا احيانا عمـق المشاكل المصيرية . وحتى في ادق مجالات المعرفة كان للمغرب النصيب المرموق فقد استطاع أن يسهم حتى في تكييف الفن المعماري العالمي بروائع ما زالت قائمة الى الآن حيث تجلى ابداع الموحدين منذ القرن الخامس في روعة وفخامة مرصد الخالدة او الخيرالدة (Geralda) باشبيلية ، ومسجدي حسان بالرباط والكتبية بمراكش ، كما امتاز الفن المريني في القرن الثامن برقة الاشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقرنصات والترخيمات ونقوش الخشب والادهان البديعة والشماسيات الملونـة والنحاس المموه وترصيـع المنارات والجدران بالزليجيات . ورغم اتجاه الفن المعماري منذ القرن العاشر الى هندسة الحصون والقلاع لمواجهـة الغزو الاستعماري الاوربي فقـد ظـل ينافس اوربا في التجديد حيث لم يكن قصر « الرياض » بمكناس يقل روعة عن قصر « فرساي » بفرنسا . وهكذا تبلور في الفن المغربي طابع خاص أضفى

على الحضارة في الشق الغربي للوطن العربي لونا جديدا شكل احدى لبنات انبعاث الانسانية الفكري منذ العصور الوسطى .

ومن هذه العجالة يتجلى انه اذا كان المغرب العربي قد حقق تطورا رائعا في مجالات الفكر والحضارة المختلفة فما ذلك الا بفضل تساوق النشاطات العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية بين شقى العروبة ؛ فأبلغ الروابط واعمقها قد استوثق بين الشرق العربي والشمال الافريقي والاندلس على يد رسل الفكر الذين كانوا يهاجرون زرافات ووحدانا في موجات غامرة كل عام للحج او الدج ، وكان لهذا التبادل مظاهر شتى تبلورت في وفرة الوافدين من علماء المشرق على ملوك المغرب حماة العلم والفكر امثال المنصور السعدي(٥١) الذي احتضن بلاطه رجالات افذاذا من الحرمين والقدس ومصر والشام والعراق والهند ، وكان افصح جواز يقدمه المواطن المغربي او المشرقي في الحدود المطاطة هو اسلامه وعروبته فكانا يستقضيان ويستسفران في الحواضر العربية والاسلامية شرقا وغربا دون ميز يتبوآن هنا وهناك المناصب السياسية والدبلوماسية والعلمية ، فلم يكن للمواطنة الضيقة اي اثر في الحيلولة دون انبثاق هذا الشعور الفياض بالوحدة التلقائية النابعة من وحدة الدين واللغة والتاريخ والمصير . وقد ظل اقطاب الفكر المغربي ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وتبادل الاجازات العلمية ووجوه النظر في مختلف المجالات التقنية باطراد ووثوق كما عرف الشرق كيف يقدر في شخص زملائه في الغرب الاسلامي حرية الفكر ونزعة التجديد . ولعل ما لاحظه المقري وقبله ابن خلدون من فروق بين الشقين في الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية يرجع الى انطباع الشرق بالعمق الكلاسيكي في ملكة العلوم واصطباغ الفكر المغربي بألوان من البحث جديدة تحت تأثير التفاعلات مع الغرب . ومن بين المغاربة الذين كان لهم ضلع قوي في دعم هذا التبادل الثري بين شقى العروبة نجتزىء بالاشارة الى بعض ممن عاشوا في العراق امثال :

١ ــ جمال الدين محمد بن ابي بكر البغدادي اصله من قصر كتامة وهو صاحب الوتريات وقد ورد على مراكش عام ٦٥٥ هـ ثم للمرة الثانية عام ٦٦٣ هـ (الاعلام للمراكشي ج ٣ ص ١٥٢) .

٢ ــ محمد بن أحمد بن ابراهيم البغدادي الفاسي المتوفى بفاس عام ٥٤٦هـ (تكملة الصلة لابن الابار ج٢ ص ١٩٣ ، الذيل والتكملة لابن عبد الملك ج٤) .

٣ ــ ابو الحكم عبيد الله (او عبد الله) بن المظفر المريني المغربي كان طبيب المارستان بالعراق ايام السلطان محمود السلجوقي (وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٠٧ ، خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني (قسم المغرب ، تونس ١٩٦٦ ص ٢٨٩) .

٤ ــ عبد الله المراكشي الهنتاتي جمال الدين فوض الله عمر البغدادي المعروف بالمجرد توفى عام ٧٩٥ هـ (الاعلام للمراكشي ج ٦ ص ١٠٢ مخطوط) .

كما تتلمذ للغزالي صالح بن حرزهم الفاسي (انس الفقير لابن قنفذ ص١٢) وابن حنين الكناني المتوفى بفاس عام ٥٦٩ هـ (الجذوة ص ٣٠٤ و ٣٢٢) وعبد القادر الاندلسي التطواني التبين المتوفى عام ٥٦٦ هـ (تاريخ تطوان ــ لمحمد داود ج ١ ص ٧٤) .

أما العراقيون بالمغرب فقد الفت في شأنهم المصنفات منها « العراقيون الحسينيون بالمغرب » لمحمد هاشم زيان العراقي (فهرس الفهارس ج ١ ص ٢٤٦) « والشيعة العراقية بالمغرب » لاحمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني « ومطلع الاشراف من الشرفاء الواردين من العراق » لعبد السلام القادري .

كما شارك مغاربة في كفاح الشرق ضد الاستعمار منهم :

١ ــ يوسف بن دوناس الفندلاوي استشهد في حرب الصليبيين في الشام عام ٥٤٣ هـ (معجم البلدان ج ٦ ص ٤٠١) .

٢ ــ العباس بن احمد الفاسي استشهد في الحروب الصليبية بالشام عام ٥٩٥ هـ (الجذوة ص ٢٧٨) .

٣ ــ يوسف بن محمد بن عبد الله البلوي المالقي المتوفى عام ٦٠٢ هـ غزا مع صلاح بالشام (تكملة ابن الابار ص ٧٣٧ ، صلة الصلة لابن الزبير ص ٢١٧) .

٤ ــ محمد الجيلاني السباعي المراكشي حارب الفرنسيين بمصر (عجائب الآثار للجبرتي ج٣ ص ٤٤ ، الاعلام للمراكشي ج٥ ص ١٤٤) .

فهل يمكن لاية وحدة ان تقوم على غير هذه الدعامة من التكامل بين اجزاء العروبة وهل يتأتى لنهضة عربية رصينة ان تنبثق في العصر الحديث دون

الارتواء من هذا المعين الصافي الذي عكرته ولا تزال رواسب وذيول التخلف الناتج عن انفصال اجزاء الوطن العربي بعضها عن بعض ردحا طويلا من الزمن تحت ضغط مكايد الكائدين . وهناك مظهر آخر لحضارة المغرب يتجلى في رسالتها في افريقيا واوربا وامريكا الجنوبية فالمغرب يحتل موقعا ممتازا في القـــارة الافريقية حيث يشرف على بحرين تركزت فيهما حيوية وحضارة . ولكن هذا الوضع المحظوظ في قلب العالم الغربي لم يفت في اعضاد روح المغرب الشرقية التي عززتها وشائج شتى وطبعها الاسلام والعروبة بميسمها النهائي .

ان المغرب الذي يتحلى منذ ازيد من الف سنة بالحضارة العربية ما زال نقطة وصل بين عالمين ومحورا جوهريا للروابط الدولية بين الشرق والغرب .

ويقبض المغرب ـ بفضل طنجة التي كانت عاصمته الدبلوماسية ـ على مقاليد غربي المتوسط بينما تشرف قناة السويس على شقه الشرقي . ولذلك فان هذين الطرفين العربيين الذين يشرفان على مركز يتسم بحساسية نادرة في الوضع الدولي الراهن لابد ان يلعبا دورا مهما في حوض المتوسط الذي لايمكن ان يتم شيء بدون مساهمة ـ ترتكز على المساواة والسيادة ـ من طرف جميع الاقطار العربية التي تمتد حلقاتها من طنجة الى دمشق على طول ثلاثة اخماس ضفاف المتوسط تلك حقيقة ناصعة كان من المحتوم ان تفرض وجودها على الافكـار الغربية قبل اليوم .

وبلغ اشعاع الفكر العربي عن طريق المغرب اقاليم افريقية شاسعة تمتد الى تخوم النيجر جنوبا وحدود مصر شرقا ، فكان المغرب محور ومصدر حيوية نابعة عن الاستقلال الذي كان يتمتع به فلم تعد هناك دولة عربية مستقلة في افريقيا غير المغرب بعد عام ١٢٥٠ م ، حيث سقطت مصر نفسها تحت سيطرة الاتراك . فظل المغرب يواصل طوال الف عام حمل مشعل الحضارة العربية كولد بار للشرق العربي الرائد موقنا بأن الانتماء للشرق هو الميزة الجوهرية في حضارتنا بل هو القوام الاساسي لكياننا ، ولهذا شكل المغرب كجزء قائم من هذا الوطن العربي نطقة وصل مع اوربا وقنطرة الى العالم الجديد وذلك ضمن التأثير الذي تركته حضارتنا في الغرب والذي لم يكن لينصرم ـ ضمن تبادل موصول ـ لولا تلك الآفة الاستعمارية التي حولت من جراء مطامعها التوسعية مجرى تاريخنا . فلو ان المغرب والغرب ظلا مستقلين سياسيا الواحد عن الآخر لامكنهما ان يعززا تقاربهما في نطاق روابط حرة وتناسق قار لان التعاون لايمكن ان يثمر الا اذا جرى على اساس من المساواة وتبادل احترام السيـادة والكيان . فحتى اذا سلمنا بما يزعمه بعض المؤرخين من وجود رواسب عاطفية ضد الاجنبي في نفوس

المغاربة فان ذلك لم يكن ذاتيا وانما هو شيء عارض تمخض عن طغيان المطامع والدسائس الاوربية في البلاد .

ان النفسية العربية التي تجمع بين النبل والاريحية لاتنفعل انفعالا سيئا الا ازاء ما يمس بكبريائها الوطني ويهددها في حريتها ورمز وجودها ففكرة الحرية عند الرجل العربي ليس معناها الفردية الانانية وانما هي توقان طبيعي نزيـه لتحقيق الذاتية وحفظها .

فلهذا تبلورت مدنيتنا في اشعاع ثقافي ممتاز اكثر منها في نفوذ مادي ، ومع ذلك فان قوة المغرب المادية ما فتئت سائدة في البحر المتوسط الذي كان رومانيا فأصبح طوال العصور الوسطى (بحرا عربيا) ـ كما يقول م ماكس فنتيجو ـ بجزره وسواحله واساطيله ونهضة تجارته ، واضحت لغة القرآن هي اللغـة الدولية للتجارة والعلم .

وقد اكد الكاتب الفرنسي المقتدر اندري سيكفريد عضو اكاديمية باريس ان العرب غرسوا في البحر المتوسط حضارة يانعة، فطوروا الري وادخلوا غراسات جديدة كالقطن والارز وقصب السكر والحوامض (وبسببهم فقد البحر المتوسط طابعه المسيحي)

ان الاشعاع المادي للقوة المغربية في المتوسط هو آخر ما نفكر فيه لابراز الرسالة التي اضطلعنا بها في هذا البحر ومع ذلك فان الاسطول الموحدي الذي كان يضم اربعمائة قطعة ما لبث ان اصبح اول اسطول في المتوسط (اندري جوليان) . على ان المغرب قد تزعم العالم الاسلامي والعربي في هذا العصر مما حدا بصلاح الدين بطل الحروب الصليبية الى الاستنجاد بالاساطيل المغربيـة لايقاف تقدم المسيحيين في طريق الشام ، وما لبث هذا الاسطول ان ضم ازيد من ستمائة قطعة حربية ايام ابي الحسن المريني . وسيادة العرب في البحر المتوسط ظهرت بوادرها ولما يمر على انبثاق الاسلام بضعة عقود، فقد غزا معاوية بعض جزر المتوسط بألف وسبعمائة سفينة ثم قامت الاوراش التونسية تعزز بانتاجها الجديد قوة الشرق العربي البحرية حيث صنعت في بعض ايام ابن نصير وحده نحو مائة قطعة . وقد برهن المغاربة منذ القرن السادس الهجري عن حاسة استراتيجية مبكرة حيث ادرك عبد المؤمن بن علي الموحدي أهمية جبل طارق الذي هو احد مفاتيح المتوسط ، فعمد الى تحصينه واحالته الى قاعدة امامية للدفاع عن افريقيا والاندلس . وحتى في خصوص فكرة الجندي المجهول نلاحظ وجود ما سمي في الاندلس بالشهيد الغريب Le martyr inconnu في المخاضة التي بين حصن بالما Palma del Rio وهي الجرف Al-Jarf (الادريسي ، النزهة ص ٢٠٨)

ان رسالة الحضارة المغربية الحق في البحر المتوسط تتجلى في مظهرين اثنين هما التأثير الاقتصادي والاشعاع الثقافي . على ان الدور الاقتصادي نفسه لم يكن في الواقع سوى نتيجة النفوذ الادبي فسياسة التسامح التي نهجها المغرب في اغلب عصوره قد ساهمت في توثيق الروابط بين المسلمين والمسيحيين حتى أصبحت المراسي المغربية في سواحل المتوسط مصدر نشاط فياض فهي التي كانت الينبوع الاول للمبادلات مع بيزا وجنوة والبندقية ومرسيليا وغيرها من المواني .

وقد أكد مسيو ماكس فنتيجو مؤلف المعجزة العربية(Le miracle arabe) ان الحكومة الموحدية كانت من اشد الحكومات احتراما للحرية وان الاندلس عرفت في عهدها عصر ماجدا تألق فيه نجم المعارف والعلوم العربية التي سرى تيارها المنعش في جنبات اوربا نعم ان من مظاهر تلك المعجزة العربية تحقيق شعوب اوربا الغربية من ايطاليين وفرنسيين والمان وانجليز لذلك الانقلاب الفكري العظيم الذي تفتق عن عصر النهضة ، وقد سبق لغوستاف لوبون ان قال نقلا عن العالم الايطالي ليبري Libri (لولا العرب لتأخر انبعاث الآداب في اوربا عدة قرون) .

نعم لم يتصل الاوربيون بالعلوم العربية الا عن طريق اسبانيا المسلمة التي برهن فيها تنافس العناصر العربية والمسيحية عما للثقافة العربية من تفوق غير منازع على الثقافة اللاتينية . وما لبث هذا الاشعاع العربي ان غمر شعوب الغرب فبلغ كبريات العواصم ونشل مدن بيزا وبولوني ومونبيليي وسلامانك وافنيون وباريس من وحشتها اللاتينية ، حيث فتح امامها مجال الفكر والحياة الثقافية كما قال فنتيجو . ورغم انهزام الموحدين السياسي وعودة الاندلس الى حظيرة المسيحية ظل نفوذ الحضارة العربية يتزايد في نظر الغربيين حتى صارت باريس نفسها ــ التي أسس جامعتها الملك فيليب أوغست على اثر عودته من الشرق ــ تستمد من المغرب والشرق كثيرا من كشوفها .

والذي يزيد هذه الظاهرة غرابة ان الفتوح العربية لم تكن حركة توسعية ولا حربا صليبية ضد المسيحية وإنما كانت رسالة تمدينية لاتهدف الى أي لون من الوان الادماج . ومن مظاهر تسامح ملوك العرب ونزاهة وجهتهم ان جوهن ملك انجلترا عرض عام ١١٩٩ على آخر ملوك الطوائف وهو محمد الناصر ان يحميه ضد البابا في مقابل جزية سنوية واعتناق الاسلام من طرف انجلترا ملكا وشعبا ، ولكن الملك العربي رفض هذا العرض لان اريحيته ابت عليه استغلال الضائقة السياسية التي كان الانجليز يتخبطون فيها لحملهم على اعتناق الاسلام .

اليس اذن من الغريب ان لا يتجلى أثر الحضارة العربية في ذهن الاوربي المتوسط الا في فتوح اوقف تيارها شارل مارتيل في بلاط الشهداء ؟

ومنذ القرن السادس عشر امكن للحضارة المغربية التي كانت الى ذلك التاريخ منحصرة في البحر المتوسط ان تدخل الى امريكا الجنوبية بواسطة الغزاة البرتغاليين الذين اكتسحوا اذ ذاك العالم الجديد ، فقد تلقت البرازيل مثلا طوال ثلاثة قرون متوالية تأثير المدنية الاندلسية فاتسمت جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الامريكية بطابع مغربي ينمو ويضعف حسب الاصقاع ، فتقنعت المرأة البرازيلية على طريقة زميلتها المغربية وكيفت اسلوب حاتها كما فعلت المرأة الصقلية المسيحية فيما حكاه الرحالة ابن جبير تكييفا ـ يحذو حذو النعل بالنعل ما عهد في الاندليسات والمغربيات . نعم أصبح الشيء الكثير في البرازيل صورة لما كان عليه مجتمعنا في العصور الوسطى من اناقة النساء الارستقراطيات في الحواضر واتخاذهن الطنافس الوثيرة للجلوس بدل المقاعد الخشبية ، الى غير ذلك من طرائق الحياة الفردية ومناهج الفلاحة والغراسة في البادية . فبالرغم عن اختلاف الطقس استخدم الفلاح الامريكي اجهزة واساليب الفلاحة المغربية وانتشر استخدام الطواحين الهوائية في مجموع انحاء امريكا الجنوبية مع جميع ما ينطوي عليه نظام الري عندنا (السواقي والآبار الخ) وقد نقل المعمرون البرتغاليون الى امريكا جميع ما انجزه المغاربة في القسم الجنوبي من الاندلس من مصانع السكر والقطن الى مزارع الحوامض ودودة القز (كانت ٣٠٦٠ قرية اندلسية تتعاطى تربية دودة القز) على ان اللغة الاسبانية الامريكية تنم عن الآثار التي تركتها حضارتنا في الميدان الثقافي والاقتصادي والاجتماعي بأمريكا فالاصطلاح الامريكي في المياه والسقي والري معظمه عربي ، وكثير من الازهار والنباتات العطرية مازالت تحمل في اسبانيا وامريكا اسماء عربية . اضف الى ذلك ما يسمى (مودة) النساء من اسماء الحلي والمصوغات .

والشبه وثيق بين المغرب وامريكا الجنوبية في ميدان الهندسة المعمارية حيث لاتختلف في البلدين اساليب البناء في الكنائس والاديرة والمنازل والحمامات. وقد تأثر الاصطلاح الامريكي ايضا بالمفردات العربية .

ويضيق المجال عن تعداد المناحي التي تجلت فيها آثار الحضارة المغربية والاندلسية ؛ فحتى اساليب الطبخ واسماء العائلات لاتختلف في امريكا عنها في المغرب . ووحدة اصول العائلات العربية تفسر لنا نجاح الهجرة العربية الى امريكا . ورسالتنا الحضارية اصبحت في الظروف الدولية الراهنة اشد واقعية من اي وقت وابرز عنصر يجب ان تنطلق منه العناصر الحضارية الاخرى عند اخواننا في الشرق لبناء نهضتنا الحديثة .

(١) لوكلير ـ تاريخ الطب العربي ج٢ ص ٣٥٠
(٢) لوكلير ج١ ص ٣٢٤
(٣) لوكلير ج١ ص ٤٥٦ ويوجد في المكتبة الوطنية بالرباط ضمن مجموع عدد ١٤٢٧ د جزء من هذا الكتاب يحتوي على ٢٨ صورة للمكاوي وآلات التشريح .
(٤) ج١ ص ٤٠٧
(٥) « اخبار العلماء باخبار الحكماء » ص ٨٥
(٦) « شهيرات نساء المغرب » للكانوني (مخطوط) نقلا عن « فن الاسنان بالمغرب الاقصى » لكاتب اوربي لم نستبن اسمه في المخطوطة .
(٧) كودار ـ وصف المغرب وتاريخه ج١ ص ٢٣٩
(٨) ج٢ ص ٧٢
(٩) ج٢ ص ١١ و ١١٠
(١٠) الاعلام للمراكشي ج٣ ص٣٤
(١١) ج٢ ص ٧٢ وقد اعتمد ابن البيطار ايضا على عبد الله بن محمد بن صالح الكتامي الحريري الشجار الذي كانت له حانوت بمراكش عام ٥٨٣ هـ (اللسان العربي ج٦ ص ١٩٦٨) . اما النبطي فهو أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بابن الرومية او ابن العشاب ولد باشبيلية عام ٥٦١ هـ) ودرس الاعشاب شخصيا دون اعتماد على ديسقوريدس وجالينوس واقتبس منه تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص وقد رحل الى الشرق عام ٦١٣ هـ او ٦١٤ هـ بعد ما درس اعشاب الاندلس والمغرب وصنف معجما للحشائش وفاق اهل زمانه في معرفة النبات وتوفي باشبيلية عام ٦٣٨ هـ (نفح الطيب ج٢ ص ٦٣٥) وذكر لوكلير بصدد ابن البيطار (ج٢ ص ٢٢٥) انه اعظم نباتيي العرب وقد تنقل في جبال الشام صحبة رسام كان يصور له الاعشاب وخلف لنا اعظم مجموعة في العلوم الطبيعية وقد عينه الملك الافضل في مصر رئيس عشابي القاهرة وقيل رئيس اطباء مصر (النفح ج٢ ص ٦٨٣) وكتابه « جامع المفردات » اكمل ما صنفه العرب في الطب يحتوي على الفي وصفة للعقاقير ترجمه لوكلير الى الفرنسية وقد كان النبطي ـ حسب احاطة ابن الخطيب ـ اماما في الحديث حافظا ناقدا .
(١٢) او (Viatique) ومعناه زاد المسافر .
(١٣) القفطي ص ١٣٠
(١٤) نفح الطيب للمقري ج١ ص ٤٤٥
(١٥) ذكر ابن عبد الملك في « الذيل والتكملة » ان ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من أهل عصره .
(١٦) حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، الطبعة الفرنسية ص ٥٣٠
(١٧) تاريخ المغرب ص ٤٥٢
(١٨) الانيس المطرب ج٢ ص ١٨٠
(١٩) المطرب لابن دحية .
(٢٠) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ٧٥
(٢١) جذوة الاقتباس لابن القاضي ص ٣٣٥

(٢٢) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ٦٣ .
(٢٣) لوكلير ج٢ ص ٧٩
(٢٤) حضارة العرب ص ٥٣١ (الطبعة الفرنسية) .
(٢٥) نشرة المعهد المصري ٢٦ عام ١٩٣٤ – بحث بقلم ماكس مايرهوب ص ٣٣ وقد أشار ابن النفيس الى ذلك في « الكتاب الشامل في الطب » الذي كان يحتوي على ثلاثمائة مجلد اهدى منها المؤلف ثمانين مجلداً لمستشفى قلاوون .
(٢٦) راجع الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ١٣
(٢٧) المعجب ص ١٧٧ – كتاب ميلي (Les Almohade - mllet) – ١٩٢٣ ص ١٢٩
(٢٨) نشرة المعهد الدروس المغربية العليا ج١٨ ص ١٩٥
(٢٩) راجع كتابنا « تاريخ الطب والاطباء بالمغرب » ١٣٨٠ / ١٩٦٠ ص ٧٢
(٣٠) رينـو ص ٨
(٣١) الاعلام للمراكشي ج٢ ص ٢٤٦
(٣٢) كوتيي (Gautier) في كتابه عادات المسلمين واعرافهم ص ٢٣٨
(٣٣) تاريخ الطب العربي – لوكلير ج١ ص ٣٢٠
(٣٤) حاضر العالم الاسلامي ج١ ص ١٥١ .
(٣٥) نزهة المشتاق للادريسي ص ٧٦ من الجزء المطبوع حول افريقية والاندلس .
(٣٦) درة الحجال ص ٤٤١
(٣٧) جذوة الاقتباس لابن القاضي ص ٣١
(٣٨) درة الحجال ص ١٠٧ وسلوة الانفاس (ج٢ ص ٤) .
(٣٩) درة الحجال ص ٩١
(٤٠) الاعلام للمراكشي ج٣ ص ٢٦٣
(٤١) درة الحجال ص ١٧٦ + الدرة ص ٥١
(٤٢) في كتابه عادات واعراف المسلمين عندما تعرض له .
(٤٣) زهرة الآس للجزنائي ص ٣٣
(٤٤) المعجب لعبد الواحد المراكشي ص ١٧٧
(٤٥) م ١ – ق ٣ ص ٦٨٦ و ٧٠٩ طبعة بيروت .
(٤٦) النشرة الاقتصادية والاجتماعية المغربية رقم ٤٩ – ٥٠
(٤٧) كودار صفحة ١٨٨
(٤٨) المعجب للمراكشي .
(٤٩) المجلة الاسيوية المجلد العاشر ص ١٥٢
(٥٠) راجع بعضها في المستدرك على المعاجم العربية لدوزي وبعضها الاخر في كتابنا « تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث » .
(٥١) راجع بحثنا حول وسل الفكر بين الشرق العربي والمغرب العربي في مجلة « اللسان العربي » العد الخامس ١٣٨٧/ ١٩٦٧

★ خصصنا العراق الشقيق بالذكر لان هذا البحث أعد للمؤتمر الدولي للمؤرخين الذي انعقد عام ١٩٧٣ ببغداد .

ابن خلدون
والمادية التاريخية

د . أحمد ماضي

رئيس قسم الفلسفة ـ الجامعة الاردنية

اختلف الباحثون الذين درسوا مقدمة ابن خلدون حول الاراء والافكار الرائدة التي طرحها هذا المفكر العربي العظيم . فالبعض اعتبره « مونتسكيو العرب » أو « مونتسكيو الشرق ». ولعل أول من تبنى هذا الاتجاه هو المستشرق النمساوي يوسف هامر Hammer (١٧٧٤ ــ ١٨٥٦) ويعتبر هذا الاتجاه من اقوى الاتجاهات السائدة في النظر الى المقدمة . فقد تبناه ، فيما بعد ، المستشرق الذي توفي شابا ، الا وهو فردريك شولتس (١٧٩٩ ــ ١٨٢٩) تلميذ المستشرق الشهير دي ساسي . والبعض الآخر من الدارسين اعتبر بعض افكار ابن خلدون مماثلة لافكار عصر النهضة الايطالية كما وردت في كتابات ميكافيلي. والجدير بالذكر ان أول من تبنى هذا الاتجاه في التفسير هو غريبرغ Graberg فقد قرأ بحثا في الجمعية الاسيوية اللندنية بعنوان « حول العمل التاريخي العظيم للفيلسوف الافريقي ابن خلدون » ، وذلك عام ١٨٣١ ، وفيما بعد أصبح هذا البحث اساس الكتاب الذي ألفه عام ١٨٤٦ في ذات الموضوع .

أما الاتجاه الثالث في فهم المقدمة فيتزعمه كريمر «Kremen» (١٨٢٨ ــ ١٨٩٠) . وقد اعتبر هذا المستشرق ابن خلدون مؤسسا لـ « تاريخ الحضارة » ، او « تاريخ المدنية » وبناء على ذلك ، وانطلاقا من موقف ابن خلدون من الدين ، اعتبر كريمر ابن خلدون اول ممثل للوضعية التي ظهرت بعد حوالي خمسة قرون . زد على ذلك انه يعتبره رائد نظرية التطور الدائري للمجتمع ، وهذا الاتجاه في التفسير ، الذي يعتبر انصاره ابن خلدون ممثلا لعلم الاجتماع الوضعي ، من اقوى الاتجاهات النافذة في النظر الى دلالة المقدمة .

هذا بالاضافة الى اتجاهات اخرى في التفسير تقوى احيانا وتضعف احيانا اخرى ، لست قاصدا ان اتناولها بالعرض ، نظرا لان بعض المؤلفات الاجنبية والعربية قد شرحتها باسهاب وتفصيل . ولعل كتاب المرحوم ساطع الحصري « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » من اهم الكتب في هذا المجال . وبما ان عنوان المقال « ابن خلدون والمادية التاريخية » فسأحاول أن اسلط الضوء على الاتجاه الذي يعتبر انصاره ابن خلدون مبشرا بالمادية التاريخية .

لعل من اوائل الذين حاولوا تفسير مقدمة ابن خلدون ماركسيا هو راببورت Rappoportt . فقد نشر بحثا عن ابن خلدون عام ١٨٩٦ ، أكد فيه على الفكرات المادية الواردة في ابحاثه . وفي هذا الصدد تعلق الباحثة باتسييفا على هذه المحاولة بما يلي : « ... لقد قرب آراء ابن خلدون من بعض المبادىء الاساسية في المادية التاريخية المشروحة من قبل ك.ماركس في « بؤس الفلسفة » بدون حساب كاف للفارق التاريخي العظيم » (١) .

وفيما بعد نشر كولوزيو Colosio مقالا عن ابن خلدون عام ١٩١٤ ، حلل فيه ، لاول مرة آراءه الاقتصادية متأثرا بالاقتصاد السياسي الماركسي . وقد اعتبر هذا الباحث مبدأ « الحتمية الاجتماعية » الذي طرحه ابن خلدون لاول مرة — في نظره — ذا أهمية بالغة في فكره . والحتمية الاجتماعية — في نظر كولوزيو — هي حتمية التقدم الاجتماعي للمجتمع الذي يتجسد في الانتقال من الحياة البدوية الى الحياة الحضرية .

وبعد مرور سنوات قليلة على نشر مقال كولوزيو ، صدر كتاب للمؤرخ العلامة الروسي بارتولد ، بين فيه بوضوح أن ابن خلدون يختلف على الصعيد النظري بصورة كيفية عن المفكرين الاغريق . فقد قال ما يلي : « لو وضع في اساس نظرية ابن خلدون تغير ظروف الحياة الاقتصادية ، الانتقال من حياة التنقل الى حياة الاستقرار ، ومن الحياة القروية الى الحياة المدنية (الحضرية) بدلا من تغير الاشكال السياسية التي تشكل اساس النظريات الاغريقية » (٢) .

ان التركيز على ما هو اقتصادي ، من وجهه نظر بعض الدارسين ، هو الجديد في نظرية ابن خلدون . ومن المعلوم ان المادية التاريخية تعير العامل الاقتصادي اهمية خاصة ، وترى فيه العامل الحاسم في تغير المجتمع ، وانتقاله من حالة الى اخرى ، وابن خلدون من وجهه نظر هؤلاء الدارسين لا يختلف كثيرا عن رواد المادية التاريخية . وفي هذا الصدد يقول جوستون بوتول ما يلي : « وفي شروح ابن خلدون ، تراه يعطي المرتبة الاولى للخصائص الاقتصادية فهو

يرتب الشعوب بتمييزها تبعا لاساليب الانتاج » (٣) . ويطور هذا الباحث رأيه ليقول بمنتهى الصراحة « ويعود ابن خلدون الى تكرار هذه الفكرة التي تجعل منه شبه رائد لنظريات المادية التاريخة ، فهو يقول بالحرف الواحد عدة مرات « اعلم ان اختلاف الاجيال في أحوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش . وسنرى ان فلسفته السياسية يمكن تفسيرها في جزء كبير منها باعتبارات اقتصادية » (٤) .

ومن الملاحظ ان وجهة نظر الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي تتفق تمام الاتفاق مع وجهة نظر بوتول . فهو يرى في ابن خلدون مبشرا بالمادية التاريخية . يقول روجيه جارودي ما يلي : « يمكن اعتبار ابن خلدون احـد المبشرين بالمادية التاريخية ، فهو في دراسته للجدلية الباطنية لتطور المجتمعات يعلق اهمية كبيرة على تقسيم العمل . وهو يقسم الشعوب والاشكال الاجتماعية وفقا لاسلوب الانتاج الاقتصادي ، بل انه يقدم هذه الصيغة الاولية لمبدأ المادية التاريخية » (٥) ويحاول جارودي عدم الاكتفاء باعتبار ابن خلدون مبشرا بالمادية التاريخية ، بل يجعل فكره ، بالنسبة للمسلم ، مدخلا ومنطلقا الى الاشتراكية العلمية اذ يحدد أصولا ومنطلقات فكرية عرقية ــ اسلامية مماثلة ، في نظره ، للاصول والمنطلقات الاوروبية الغربية التي مثلت مدخلا الى الماركسية . وفي هذا الصدد يقول : « ان الجزائري ذا الثقافة الاسلامية يستطيع ان يصل الى الاشتراكية العلمية بدءا من منطلقات اخـرى غير سبل « هيجـل » أو « ريكاردو » أو « سان سيمون » : فلقد كانت له هو الآخر اشتراكيته الطوباوية ممثلة في حركة القرامطة ، وكان له ميراثه العقلاني والجدلي ممثلا في ابن رشد وكان لديه مبشر بالمادية التاريخية في شخص ابن خلدون . وهو على هـذا التراث يستطيع ان يقيم اشتراكيته العلمية » (٦) .

وما تجدر الاشارة اليه ان هـذا الاتجاه في تفسير نظرية ابـن خلدون السوسيولوجية ــ التاريخية لم يكن مقتصرا على المستشرقين والمفكرين الغربيين بل تجاوزه ليضم بعض المفكرين العرب واخص بالذكر سلامه موسى . فقد اعتبره « اول مؤرخ يعلل التاريخ وينظر اليه النظرة المادية . . . » (٧) .

في ضوء ما تقدم ، يمكن القول ان هذا الاتجاه في تفسير مقدمة ابن خلدون يعود تاريخه الى نهاية القرن التاسع عشر ، وقد نما مع مرور الوقت ليصبح اتجاها نافذا في اوساط الدارسين والمفكرين المهتمين بهذا المفكر العربي العظيم . وليس خافيا ان هذا التفسير وثيق الصلة بأصحاب الاتجاه الماركسي في التفكير

والتحليل او الذين تأثروا على هذا النحو او ذاك بالماركسية مثل سلامة موسى . وهنا لامناص من ان يتساءل القارىء : هل ابن خلدون مبشر او شبه رائد للمادية التاريخية او ان تأويله على هذا النحو ليس موضوعيا انما يهدف الى جعله بصورة اعتباطية عصريا وقريبا من الماركسية في فهم الظواهر الاجتماعية والاحداث التاريخية ؟

تساؤل مشروع لا غنى عن طرحه . ولكن قبل الشروع في الكشف عن محاولتي للاجابة عن مثل هذا التساؤل ، اود القول سلفا ان لهذا التفسير ما يبرره في مقدمة ابن خلدون . وان كنت اتردد في اعتبار ابن خلدون شبه رائد للمادية التاريخية ، الا انني لا اتردد في القول بأنه وضع مقدمات الانتقال اليها. ولا يساورني ادنى شك في ان المقدمة تمثل مدخلا عربيا لفهم المادية التاريخية. وما استخلصه من ذلك هو ان التفكير المادي التاريخي ليس مقتصرا على شعب دون الاخر ولا على عقل دون الاخر .

ومن الجلي جدا ان ابن خلدون يعالج الحياة الاجتماعية على انها قبل كل شيء ، نشاط انتاجي مشترك للناس ، يهدف في المقام الاول الى تلبية احتياجاتهم المادية التي تكفل لهم البقاء . وفي هذا الصدد يقول الاتي : « العمران هو التساكن والتنازل في مصر او حلة للانس بالعشيرة ، واقتضاء الحاجات لما في طباع الناس من التعاون على المعاش » (٨) ويردف قائلا : « واما تقديم المعاش فلان المعاش ضروري وطبيعي . . . » (٩) .

نلحظ مما تقدم ان ابن خلدون يجعل « اقتضاء الحاجات » سابقا على أي شيء آخر متقدما على سواه . كما انه يعتبر « المعاش » ما تكون به الحياة ضرورية وطبيعية . وهذه الفكرة تمثل اللبنة الاولى في صرحه الفكري المادي التاريخي . وبعبارة ادق تعتبر هذه الفكرة المقدمة الاولى للمادية التاريخية . وحتى نتحقق من ذلك ، ينبغي علينا ان نستعين بمؤسسي المفهوم المادي للتاريخ والمجتمع . « وهكذا فان الفعل التاريخي الاول هو انتاج الوسائل الضرورية من أجل تلبية هذه الاحتياجات ، انتاج الحياة المادية ذاتها . زد على ذلك ان مثل هذا الامر التاريخي ، مثل هذا الشرط الاساسي لكل تاريخ ، الذي ينبغي (الان مثلما قبل آلاف من السنين) ان يؤدى كل يوم وكل ساعة ، من اجل ذلك بعينه ، كي يتمكن الناس من العيش » (١٠) .

ان العمل من اجل تلبية الاحتياجات المادية هو مصدر حياة المجتمع . انه يمثل ضرورة طبيعية ابدية . انه الشرط الاساسي الاول لكل الحياة البشرية.

وهنا نلمس التمايز القائم بين ابن خلدون من جهة وارسطو واصحاب النظريات السياسية الاخرى من جهة اخرى . فهو لم يربط الوجود الاجتماعي للانسان بطبيعته الروحية بل قيده بالاحتياجات الطبيعية للانسان . وهكذا اصبحت الضرورة المادية قوة موجهة في تاريخ المجتمع . ان الاجتماع الانساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : «ان الانسان مدني بالطبع » اي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم ، وهو معنى العمران . وبيانه ان الله سبحانه ، خلق الانسان ، وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء » (١١) « الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من الغذاء ، غير موفية له بمادة حياته منه »(١٢) . « فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من ابناء جنسه ليحصل القوت له ولهم » (١٣) . « واذا كان التعاون ، حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة ، وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه . فاذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الانساني ، والا لم يكمل وجودهم ... » (١٤) .

ليس خافيا ، مما تقدم ، ان ابن خلدون يرى ان جوهر المجتمع يكمن في التعاون ، في العمل المشترك لافراده ، في تقسيم العمل بين اعضائه من اجل تأمين وسائل الحياة المادية وتلبية احتياجات البشر . وتمثل الاقتباسات السابقة مزيدا من التوكيد على ضرورة الاجتماع ، التعاون ، العمل من اجل بقاء الانسان على قيد الحياة ، وحفظ نوعه .

اما المقدمة الثانية التي بلورها ابن خلدون فهي الفكرة التي تقول ان الاولوية للحياة المادية . فهي تسبق الحياة الروحية وبالتحديد النشاط العلمي . فالمعاش من قبيل الضروريات في حين ان العلم من قبيل الكماليات . « وأما تقديم المعاش فلأن المعاش ضروري طبيعي ، وتعلم العلم كمالي او حاجي ، والطبيعي اقدم من الكمالي » (١٥) .

هذا المبدأ الذي طرحه ابن خلدون يعتبر رائدا ولا يختلف من حيث المضمون عن المبدأ الاساسي للمادية التاريخية ، الذي صاغه انجلز على النحو الآتي : « مثلما ان داروين اكتشف قانون تطور العالم العضوي ، فان ماركس (اكتشف) تلك الواقعة البسيطة المخفية تحت الطبقات الايديولوجية وهي ان الناس مضطرون في المقام الاول ، ان ياكلوا ويشربوا ويملكوا مسكنا ويلبسوا قبل ان يكونوا في حالة الاشتغال بالسياسة والعلم والفن والدين الخ ... » (١٦).

يتضح مما تقدم ان التماثل في المبدأ الذي طرحه ابن خلدون والمبدأ الذي تطرحه المادية التاريخية كبير ، على الرغم من اقتضاب فكرة ابن خلدون . ان انتاج الخيرات المادية سابق على اي نشاط روحي . هذا ما يقوله ابن خلدون وما تؤكده المادية التاريخية . وفي هذا الصدد يقول احد كبار المختصين في المادية التاريخية ما يلي : « ان الدور الحاسم للانتاج المادي يكمن في انه يعتبر اوليا بالنسبة للحياة الروحية » (١٧) . وفي صفحة سابقة يؤكد على هذا المبدأ بشيء من التفصيل عندما يقول : « ان الناس قبل ان يفكروا ويتعاطوا الفن او السياسة ينبغي ان يعيشوا ، غير انهم مضطرون ، كي يعيشوا ، ان ينتجوا الخيرات المادية، المواد الغذائية ، والملابس والاحذية ، والسكن » (١٨) .

مجمل القول ان ابن خلدون لا يختلف جوهريا في طرحه لهذا المبدأ عن رواد وانصار المادية التاريخية . وان اردنا تحديد اختلاف واحد ، فما هو الا اقتضاب المبدأ لدى ابن خلدون واسهاب المادية التاريخية في تناوله .

ان مأثرة ابن خلدون تكمن في انه اول من اقر واعترف بالحياة المادية للبشر على انها اساس المجتمع ومحددة لجوانبه الاخرى بما فيها الجانب العلمي . اضف الى ذلك ان مفكرنا العظيم نظر الى المجتمع بمنظار يختلف كل الاختلاف عن منظار العهد الاغريقي ومنظار القرون الوسطى . فالعهد الاغريقي عالج المجتمع على انه مجتمع سياسي في المقام الاول ، والقرون الوسطى نظرت الى المجتمع على انه مجتمع ديني اولا وقبل كل شيء . اما ابن خلدون فقد عالج المجتمع على انه جماعات عمل تهدف الى تلبية احتياجات افرادها المادية في المقام الاول .

وما يستحق التنويه ان ابن خلدون لا يتوقف عند هذا المستوى ، بل يرتقي في تفكيره المادي ليجعل الحياة الاجتماعية ــ السياسية والقيم الاخلاقية لهذا الشعب او ذاك في تبعية لظروف حياته المادية . وهذا الارتقاء واضح للعيان عندما يميز مفكرنا المراحل التي يمر بها تطور المجتمع . وهذه المراحل ثلاث :

١ ــ المرحلة الاولى في تطور المجتمع : وهي اقرب الى السلوك الحيواني .

٢ ــ المرحلة الثانية في تطور المجتمع : وهي الحياة البدوية الزراعية « ومن هذا العمران ما يكون بدويا » ، وهو الذي يكون في الضواحي ، وفي الجبال ، وفي الحلل المنتجعة في القفار واطراف الرمال » (١٩) .

٣ ـ المرحلة الثالثة في تطور المجتمع : وهي الحياة الحضرية . « ومنه (أي العمران) ما يكون حضريا وهو الذي يكون بالامصار والقرى والمدن والمدر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها » (٢٠) .

نلحظ مما سبق ذكره ان المجتمع يمر في مراحل مختلفة . وهنا لابد من طرح التساؤل الآتي: ما الذي يحدد الاختلاف، التباين بين هذه المراحل او الانماط الحياتية ؟ ما هو المعيار الذي ينبغي ان نعتمد عليه في التمييز بين هذه المراحل ؟.

ان الذي يؤدي الى اختلاف البشر في احوالهم هو اختلافهم في كيفية انتاج ما تكون به الحياة . فالاختلاف في الاحوال مرده الى التباين في سبل المعيشة . وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون : « اعلم ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش . فان اجتماعهم انما هو للتعاون في تحصيله » (٢١) .

هذا المبدا الذي يطرحه ابن خلدون ما هو الا تطوير لبذور فكره المادي ـ التاريخي ويعتبر مقدمة أخرى هامة تسمح بالانتقال الى المادية التاريخية . والجدير بالذكر ان هذا المبدأ يعبر عما يسمى اسلوب الانتاج في المادية التاريخية والاقتصاد السياسي الماركسي . وقد اشار اليه ماركس على النحو الآتي : « العصور الاقتصادية لا تتباين بما ينتج ، انما بكيف ينتج ، بأي وسائل العمل » (٢٢) .

وعندما اقارن بين مبدأ ابن خلدون واسلوب الانتاج المفهوم ماركسيا لا أجد كبير اختلاف بينهما من حيث الجوهر . فاختلاف العصور أو تباين الاجيال يعود الى أساليب الانتاج أو المعيشة المختلفة . وهكذا نحقق مزيدا من القناعة المبنية على أساس من الادلة ان الاتجاه الذي يعتبر ابن خلدون مبشرا بالمادية التاريخية او على نحو ادق واضعا مقدمات الانتقال اليها له ما يبرره . فهذا الاتجاه لم ينبثق بصورة اعتباطية ، ولم يحاول رواده وانصاره ان يختلقوا ما يتناسب وتأويلاتهم اختلاقا . فالذي دفعهم الى هذا التفسير هو تركيز مفكرنا على ان نمط المعيشة لهذا المجتمع او ذاك يعتمد على اسلوب الحصول على مستلزمات الحياة ، نوع النشاط الاقتصادي الذي يمارسه الافراد . ومصداقا لذلك يقول ابن خلدون : « والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي . فمنهم من يستعمل الفلح من الفراسة والزراعة ، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها .

وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولابد الى البدو ، لانه متسع لما يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك . فكان اختصاص هؤلاء بالبدو امرا ضروريا لهم ، وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والسكن والدفء انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ، ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك »(٢٣)

واضح مما تقدم ان النمط الزراعي ـ البدوي للمجتمع يتصف بان اقتصاده قائم على الزراعة او تربية الحيوانات وهو يمثل الاسلوب الاولي ، المباشر ، والبسيط في الحصول على مستلزمات الحياة . اضف الى ذلك ان هذا النمط يعكس مستوى متدنيا للانتاج والاستهلاك والحياة والمدنية . والجدير بالذكر ان ابن خلدون جعل صفات البشر تابعة لنمط معيشتهم فصحة البدو افضل من صحة غيرهم ، كما انهم « اقرب الى الخير من اهل الحضر » (٢٤) . هذا بالاضافة الى انهم شجعان ، « قد صار لهم البأس خلقا ، والشجاعة سجية . . . » (٢٥) .

ومرد ذلك الى ان الانسان يتأثر على نحو حاسم بالبيئة . « واصله ان الانسان ابن عوائده ومألوفه ، لا ابن طبيعته ومزاجه ، فالذي الفه من الاحوال ، حتى صار خلقا وملكة وعادة ، تنزل منزلة الطبيعة والجبلة » (٢٦) .

وكما ان للنمط الزراعي ـ البدوي نتائج تترتب عليه ، بحكم انه يمثل اسلوبا معينا ، فان النمط الحضري يؤدي الى نتائج تختلف كل الاختلاف بسبب انه يمثل اسلوبا اخر للانتاج أرقى وارفع من الاسلوب السابق . فهو يتجاوز ما هو ضروري ، ما فوق الحاجة . ومرد ذلك الى الاختلاف في نوع النشاط الاقتصادي الذي يمارسه افراد المجتمع الحضري . ولا ريب ان هذا الاسلوب الجديد في الانتاج يؤدي الى نتائج ايجابية وعواقب وخيمة في الآن نفسه . فهو يتجاوز تلبية الاحتياجات الضرورية بتحقيقه للرفاهية والرغد في العيش الا انه يؤدي الى الفساد والجبن والبعد عن مسالك الخير . . . انه يمثل ارتقاء على الصعيد المادي ، الا انه يمثل تخلفا على الصعيد المعنوي ـ الاخلاقي . وقد قالها ابن خلدون بصراحة : « وقد يتوضح فيما بعد ان الحضارة هي نهاية العمران ، وخروجه الى الفساد ونهاية الشر ، والبعد عن الخير » (٢٧) . كما يقول : « واهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ ، وعوائد الترف ، والاقبال على الدنيا ، والعكوف على شهواتهم منها ، قد تلونت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق

والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه ، بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في احوالهم : فتجد الكثير منهم يقذعـون في اقوال الفحشاء في مجالسهم ، وبين كبرائهم واهل محارمهم ، لايصده عنهم وازعالحشمة ، لما اخذتهم به عوائد السوء فيالتظاهر بالفواحش قولا وعملا »(٢٨)

ان هذه العواقب الوخيمة ما هي الا نتيجة للتقدم الاقتصادي والتحسن الملحوظ في احوالهم المادية وظروفهم المعيشية . « ثم اذا اتسعت احوال هؤلاء المنتحلين للمعاش ، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه ، دعاهم ذلك الى السكون والدعة ، وتعاونوا في الزائد على الضرورة ، واستكثروا من الاقوات والملابس والتأنق فيها ، وتوسعة البيوت ، واختطاط المدن والامصار للتحضر . ثم تزيد احوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت ، واستجادة المطابخ ، وانتقاء الملابس الفاخرة في انواعها ، من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصروح ، واحكام وضعها في تنجيدها ، والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة الى الفعل الى غاياتها ، فيتخـذون القصور والمنازل ، ويجرون فيهـا المياه ، ويعالون في صروحهـا ، ويبالغون في تنجيدها ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس او فراش او آنية او ماعون . وهؤلاء هم الحضر ، ومعناه الحاضرون أهل الامصار والبلدان. ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ، ومنه من ينتحل التجارة ، وتكون مكاسبهم انمى وارفه من أهل البدو، لاناحوالهم زائدة على الضروري ، ومعاشهم على نسبة وجدهم » (٢٩) .

وبحكم انغماس اهل الحضر في الملذات ، واتكالهم على جملة من العوامل التي تحقق لهم الامن على انفسهم والمحافظة على ممتلكاتهم ؛ اصبحوا اقرب الى الجبن . « والسبب في ذلك ان أهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحـة والدعة ، وانغمسوا في النعيم والترف ، وركلوا امرهم ، في المدافعة عن اموالهم وانفسهم الى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم . واستناموا الى الاسوار التي تحوطهم ، والحرز الذي يحول دونهم » (٣٠) .

واخيرا لامناص هنا من لفت انتباه القارىء الى ان الكاتب لايناقش ابن خلدون في صحة أو بطلان ذلك ، انما الذي اثيره واحاول ان القي عليه بعض الضوء هو ان مفكرنا حاول الربط بين اسلوب معين من الانتاج ونتائج تترتب عليه ، وبالتالي حدد الاصل والفروع . ومن الممكن ان يتفق القارىء مع تحليل ابن خلدون

على مستوى التفاصيل والدقائق أو يختلف معه على صعيد القاعدة . فالموضوع لايتطلب الاقرار او الرفض لوجهة نظره ، انما يتطلب الاتفاق او الاختلاف مع انصار الاتجاه المادي ـ التاريخي في تفسير مقدمة ابن خلدون . ان محاولة ربط ابن خلدون لاسلوب الانتاج ، كأصل ، بنتائج تترتب عليه من حيث النظر اليها كقاعدة عامة ما هي الا محاولة قريبة من المادية التاريخية .

وهكذا نخلص الى أن مفكرنا العربي لعب دورا في وضع مقدمات معينة تمثل مدخلا عربيا الى المادية التاريخية . واخيرا ارجو من القارىء الا يتصور أن ابن خلدون كان متسقا في تفكيره حتى النهاية . فقد اسهمت عدة مؤثرات وعوامل في بلورة فلسفته التاريخية ـ الاجتماعية واخص بالذكر المناخ والغذاء . ومهما قيل في ابن خلدون ، فلا بد ، بناء على ادلة قوية لايرقى اليها الشك ، ان يعتبر رائدا للاتجاه المادي في علم الاجتماع . ومقدماته الى المادية التاريخية تمثل عنصرا عظيم الاهمية في اتجاهه المادي .

---

(١) س.م. باتسييفا ، « الدراسة السوسيولوجية ـ التاريخية لابن خلدون ـ المقدمة » ، اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي ، معهد شعوب آسيا ، دار « العلم » للنشر ، موسكو ، ١٩٦٥ ، ص ٩٠ (باللغة الروسية) .

(٢) ف. ف. بارتولد ، ثقافة الاسلام براغ ، ١٩١٨ ، ص ٥٤ (باللغة الروسية)

(٣) جوستون بوتول ، ابن خلدون ـ فلسفته الاجتماعية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٤٤ (ترجمة غنيم عبدون) .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٥

(٥) حوار عربي مع جارودي ، مجلة الطليعة ، العدد ١ ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٢٧ .

(٦) روجيه جارودي ، ماركسية القرن العشرين ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٥٩

(٧) سلامة موسى ، مقالات منوعة ص ٨١

(٨) د. البير نصري نادر ، من مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٦٧

(٩) المصدر السابق ، ص ٦٨

(١٠) ك. ماركس و ف. انجلز ، الايديولوجية الالمانية ، مجموعة المؤلفات ، مجلد ٣ ، ص٢٦ ، باللغة الروسية) .

(١١) المصدر ٨ ، ص ٦٩

(١٢) المصدر ٨ ، نفس الصفحة .

(١٣) المصدر ٨ ، ص ٧٠

(١٤) المصدر ٨ ، نفس الصفحة .

(١٥) المصدر ٨ ، ص ٦٨

(١٦) ك. ماركس و ف. انجلز ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ١٩ ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ (باللغة الروسية) .

(١٧) د. ا.تشيسنوكوف ، المادية التاريخية ، دار « الفكر » للنشر ، موسكو ، ١٩٦٥ ص٣٦ (باللغة الروسية) .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٣٥

(١٩) المصدر ٨ ، ص ٦٧

(٢٠) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٢١) المرجع السابق ، ص ٨٢

(٢٢) ك. ماركس ، رأس المال ، المجلد ١ ، ك. ماركس و ف. انجلز ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٢٢ ، ص ١٩١ (باللغة الروسية) .

(٢٣) المصدر ٨ ، ص ٨٢

(٢٤) نفس المصدر ، ص ٨٥

(٢٥) نفس المصدر ، ص ٨٧

(٢٦) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٨٥

(٢٨) المصدر السابق ، ص ٨٤ ـ ٨٥

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٨٢ ـ ٨٣

(٣٠) نفس المصدر ، ص ٨٦

بعضٌ من ملامح الصّراع الطّبقي في التّاريخ العربي

د. نبيه عاقل

عميد كلية الآداب ـ جامعة دمشق

لابد في التمهيد للحديث عن موضوع الصراع الطبقي في التاريخ العربي منذ مرحلة الاصول وحتى مرحلة الاستقرار والازدهار ، من أن نذكر بكلمة سريعة بحال بعض اجزاء الوطن العربي التي كانت في الفترة السابقة لقيام الاسلام ترزح تحت نير استعمارين غريبين ، ولم يتم لها التحرر من هذين الاستعمارين الا بعد قيام حركة الفتح العربي التي ابتدأت بعد وفاة الرسول وقيام خلافة الراشدين ، واستمرت خلال خلافة بني أمية .

ففي بداية ما اصطلح على تسميته بالعصور الوسطى كان يتقاسم النفوذ على بعض أجزاء الوطن العربي قوتان كبيرتان هما بيزنطة وفارس . وعندي أن دراسة تحليلية للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة في هاتين الدولتين، وفي ما كان يقع تحت سلطانهما من أراض تساعد كثيراً على فهم التركة التي وجدها المحررون العرب في هذه البلاد حين جاؤوا إليها في عصر الفتوح .

هذه الدراسة محاولة في التحليل التاريخي المعتمد على جملة من المعلومات التاريخية الاساسية المتفق عليها ، والتي يستخدمها الباحث ليقدم من خلالها وجهة نظر تنطلق من فهم متكامل لمنظومة تاريخية تضم مجموعة متجانسة من الاحداث تؤدي ، حسب رأي الباحث ، الى صورة متسلسلة ومتكاملة يزعم الباحث انها الصورة التي خرج بها من استقرائه لهذه الاحداث . ولا يعني هذا ان الباحث يقف موقف المتزمت مما قدم من وجهة نظر . والامر متروك للقارىء ، يقبل أو يرفض أو يعدل حسبما يرى . كما ان الباحث لم يلجا الى التهميش لان ما ذكر من احداث هو من المعروف المتداول ، فلم يجد ضرورة لاسناده الى مظانه .

إن الاتجاه الحديث في الدراسات التاريخية البيزنطية يقرر أن بيزنطة كانت تعيش في القرون الخامس والسادس والسابع الميلادية في ظل نظام كان **يزول فيه تدريجياً الاقتصاد المعتمد على العبيد ويقوم مكانه اقتصاد يتجه نحو النظام الاقطاعي .**

وفي المقاطعات الشرقية من الامبراطورية البيزنطية لم يعان النظام الاقتصادي الذي يعتمد على العبيد ، ماعاناه هذا النظام في الغرب كايطاليا مثلا ، حيث قام العبيد بثورات عنيفة ضد سادتهم . ويبدو أن سبب ذلك أن أوضاع العبيد في الجزء الغربي من الامبراطورية كانت أسوأ منها في الجزء الشرقي ، وذلك لأن خيرات الشرق ووضعه الاقتصادي الزاهر قد قللا من الأسواء التي كان تعانيها طبقة العبيد فيه . هذا فضلا عن الدور الكبير الذي ظل العبيد في الشرق يلعبونه في الميادين الاقتصادية المختلفة ولا سيما ميدان الزراعة .



كان على رأس الهرم الحاكم في بيزنطة الامبراطور ويساعده في الحكم فئة ارستقراطية من كبار ملاك الأرض ، ويثبت دعائم هذا الحكم جيش من المرتزقة يأتمر بأوامر الامبراطور ويحمي نظامه .

وقد حاول الأباطرة ما وسعتهم المحاولة أن يحتفظوا بنظام العبيد وان يعرقلوا قيام النظام الاقطاعي .

وفي خلال الفترة الانتقالية التي مرت بين النظامين ؛ نظام العبيد ونظام الاقطاع ، كانت الأراضي الزراعية الكبيرة تدار بطريقتين مختلفتين :

الطريق الأول : هو تشجيع العبيد على زيادة انتاج الأرض التي يعملون فيها وذلك عن طريق تزويدهم بكل ما يحتاجون من أدوات وبذار وحيوانات واعطائهم الحق في الاحتفاظ ببعض فائض المحصول ، ومنحهم بعض الحريات ، مع الابقاء على عبوديتهم .

اما الطريق الثاني : فهو إيجارها لفلاحين احرار ، كانوا إلى جانب عملهم في أراضي كبار الملاك ، يملكون قطعاً صغيرة من الأرض يستغلونها لحسابهم الخاص ويتصرفون بخيراتها كما يشاؤون بعد أن يؤدوا ما عليهم من ضرائب .

أما من كان من هؤلاء لا يملك أرضاً خاصة فكانت حالهم لا تختلف كثيراً عن حال العبيد أو الأقنان ، فهم مرتبطون بالأرض لا يستطيعون مغادرتها أو الانتقال للعمل عند ملاك آخر ، هذا فضلا عما كان عليهم دفعه من انتاجهم إلى السيد ، وما يترتب عليهم من سخرة وأعمال غير مأجورة .

* * *

كان هذا حال طبقة الفلاحين في الريف ، ولم يكن حال الطبقة الكادحة في المدن بأحسن من ذلك . فقد كان على اصحاب الحرف الانتاجية أن يكدحوا ويعملوا ليوفروا مواد الرفاه لطبقة السادة والحكام ورجال الدين ، وما يفيض عن حاجتهم كان يعد للتصدير دون أن يسمع به الشعب أو يراه .

* * *

وكان أصحاب الحرف في بيزنطة على نوعين : نوع يستخدمه الامبراطور وكبار رجالات الدولة والملاك وكبار رجال الكنيسة ، ويزودوهم بالمواد الأولية اللازمة لانتاج ما يحتاجون من مواد الرفاه المختلفة ، ونوع آخر هم أصحاب الحرف الأحرار الذين يعملون لحسابهم والذين لا يتمتعون بحماية أحد من الأرستقراطيين أو رجال الدين . وكان الناس من هذا النوع يعانون اشد انواع البؤس لعدم تمكنهم من الحصول على المواد الأولية الضرورية لصناعتهم ، فكانت أوضاعهم تسوء باستمرار ويعيشون في ظل أسوأ شروط الاستغلال والاضطهاد .

* * *

وقد شهد التاريخ البيزنطي نتيجة الظلم الذي احاق بهذه الطبقات المحرومة العديد من الثورات التي قام بها العبيد والفلاحون ، وغيرهم من سكان الريف، مما لا مجال للدخول في تفصيلاته هنا ، ويكفي أن نذكر بالعديد من ثورات الريف والمدن التي جرت أيام الامبراطور جستنيان ، هذه الثورات التي اججت نيرانها الطبقة التي تعرف باسم « المعدمين » Lumpen Proletariat في التاريخ البيزنطي ، وثورة Nika في القسطنطينية التي بلغت حداً من الشدة جعل الامبراطور ورجال حاشيته يعدون السفن للهرب إلى المقاطعة الافريقية ، والتي انتهت بمذبحة رهيبة ذهب ضحيتها خمسة وثلاثون الفاً من الثوار ، ذبحوا في ملعب القسطنطينية كما تذبح النعاج .

هذا بسرعة عن حال الطبقات الكادحة بمختلف فئاتها في ظل حكم الامبراطورية البيزنطية . أما في الامبراطورية الفارسية التي كانت تحكمها الأسرة الساسانية والتي كانت المنافس العنيد اللامبراطورية البيزنطية ، فمن المهم أن نذكر ان المصادر مقلة في ذكر نوع النظام الاجتماعي الاقتصادي الذي كان يسود في البلاد الواقعة تحت حكمها ، كما أن المعلومات القليلة المتوفرة حول هذا الموضوع لم تدرس بعد دراسة وافية ولم تستخلص منها معلومات تعطي صورة صادقة عن حال الطبقات الكادحة ، والحياة التي كانت تحياها . ويبدو أن الزراعة في فارس زمن حكم الأسرة الساسانية كانت تعتمد بشكل رئيسي على خدمات العبيد . وكان هؤلاء العبيد يؤخذون غالباً من بين اسرى الحرب الرومان الذين يقعون في قبضة القوات الفارسية . وقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى حد القول بأن هدفاً أساسياً من أهداف فارس من الحروب التي كانت تخوضها ضد روما (وبيزنطة فيما بعد) هو الحصول على أسرى لتستخدمهم كعبيد يعملون في زراعة الأرض .



على أن نظام العبودية الذي استمر قائماً في بلاد ما بين النهرين لفترة تزيد على اربعة الآلاف سنة ، أخذ منذ القرن الرابع والخامس الميلاديين يزول ، ولم يعد العبيد المصدر الأساسي للعمل في الزراعة ، وغدا الانتاج الزراعي يعتمد على جماعة من الفلاحين كانوا اول الأمر يملكون الأرض ملكية جماعية ، ثم ما لبثت ملكية الأرض أن تحولت الى أيدي زعماء ظهروا بينهم واستلبوا الأرض والماء لأنفسهم تدريجياً ، وغدوا ملاكاً كباراً ، وغدا من كان معهم من الفلاحين أقناناً وعبيد أرض عليهم أن يكدحوا ويعملوا ويسلموا ما تنتجه الأرض إلى سادتهم الجدد محتفظين لأنفسهم بما هو دون الكفاف .

وهكذا قام في فارس نظام اقطاعي يعتمد فيه المنتج ، وهو الفلاح ، على ما يقدمه له الملاك من ارض وحيوانات وادوات عمل . كما قام نوع آخر من اواسط الملاك ، هم فئة الخيالة في الجيش ، الذين كانت الدولة تمنحهم اقطاعات صغيرة مقابل بعض الخدمات العسكرية البارزة . وشيئاً فشيئاً دخلت هذه الأرستقراطية الزراعية الجديدة الحياة السياسية للدولة ، واخذت تلعب دوراً بارزاً في حياة الدولة وتبسط سيطرتها على بعض المدن الزراعية والقبائل البدوية الضاربة في أراضيها . ومن هنا كان لها دور سياسي كثيرا ما كان يتعارض مع مصالح الدولة وأهدافها . وقد ادى تسلط هذه الفئة على ادارة دفة الدولة

الى تهافت القوى المنتجة في فارس وضعفها ،كما أن أساليبهم في الاستغلال ونهب خيرات البلاد اضرت بمصالح الدولة اضراراً كبيراً ، ونشأت عند بعضهم نزعات انفصالية ادت الى قيام حروب أهلية بينهم ، كثيرا ما كان ثمنها أرواح الآلاف من أتباعهم المحرومين .



وإذا أضيف الى تسلط السادة هذا ، النظام الضريبي الجشع الذي كان يقوم على تنفيذه موظفون ماليون وملتزمو ضرائب لا يشبع نهمهم الى السلب شيء ، لتصورنا أي حال متردية كانت تعيش فيها جماهير الشعب المحرومة . وقد أدت هذه الحال المتردية للجماهير العاملة الى قيام الحركة المزدكية ، التي ينظر إليها الكثير من المؤرخين الاشتراكيين المحدثين على أساس انها حركة جماهيرية كان أهم ما تهدف إليه هو رفع الظلم عن هذه الطبقات التي عانت مالا يطاق من عنت وجور السادة ، واعادة توزيع الثروة توزيعاً لا يكون فيه المحرومون هم الكثرة الكاثرة من أبناء الشعب . كما طالب زعماء المزدكية بفتح مخازن الغلال للجائعين وهددوا بأنهم سيفتحونها بالقوة إذا لم تستجب السلطة إلى طلبهم .

وهكذا فقد كانت المزدكية ، في نظر هؤلاء المؤرخين ، النظرية التي عكست آمال ومصالح ملاك الأرض الحقيقيين الذين انقلبوا بسبب جور السادة وجشعهم إلى أقنان وعبيد أرض في ظل نظام اقطاعي .

وفعلا اتيح للمذهب المزدكي أن يلقي تأييد جماهير واسعة من الفرس ، واستطاع المزدكيون أن يقيموا مجتمعاً خاصاً بهم في شمال فارس يطبقون فيه تعاليمهم . ولكن الغريب في أمرهم أنهم ، مع كل ما كانوا يؤمنون به من مبادىء العدالة والمساواة ورفع الظلم الاجتماعي ، احتفظوا في مجتمعهم الجديد بنظام العبودية واعتبروا وجود العبيد ضرورة لازدهار الزراعة في مزارعهم الجماعية . وغدت ملكية العبيد تابعة للمزرعة الجماعية لا لأفراد بعينهم . على أن الرجعية الحاكمة ما لبثت أن تغلغلت إلى صفوف المزدكية ، واستطاعت بعد ان اكتشفت خطرها وانجذاب الجماهير اليها ، أن تهدمها من الداخل وان تفشي الفساد فيها ، وأن تطرح نظرية المشاع في ملكية المراة وغير ذلك من المفاسد . واخذ المزدكيون يصبحون شيئاً فشيئاً من اتباع الأسرة الحاكمة حتى طفت هذه

الأسرة عليهم وضمتهم تحت جناحها بعد أن سلطت عليهم فئة الملاك الكبار ، ووعدت هذه الفئة باعطائها مزارعهم الجماعية مقابل تعاونهم معها في القضاء عليهـم .



وإذا تركنا الريف والفلاحين وحالهم مع السادة وكبار الملاك ، وانتقلنا إلى المدن حيث جماهير الحرفيين والعاملين في الصناعة والتجارة ، لوجدنا ان الانتاج الحرفي فيها كان مرتبطاً الى حد كبير بطبقة السادة وما تحتاجه من ادوات رفاه من جهة ، وبتجارة التصدير من جهة أخرى . ويبدو أن جماعات الحرفيين في ايران القديمة كانوا منظمين في نقابات مهنية ، وكان لهم أهميتهم في الحياة الاقتصادية لدرجة أن الجيوش الفارسية ، كانت في كل غزوة لها إلى سورية تحضر معها من تستطيع أسره من الحرفيين السوريين المهرة الذين ساهموا في رفع مستوى الصناعات الفارسية القديمة .



بعد هذا الحديث الذي حاولنا من خلاله أن نظهر بعضاً من جوانب قضية التفاوت الطبقي الذي كانت تعيش في ظلاله كل من بيزنطة وفارس في الفترة السابقة لعصر الفتوح العربيـة ، باعتبارهما الدولتين المجاورتين والمعاصرتين لأقطار الوطن العربي من جهة ، ولأن بعضاً من هذه الأقطار كانت ترزح تحت نير استعمار هاتين الدولتين ، بعد هذا الحديث لابد لنا من أن نسلط اضواء التحليل والمناقشة على الحال في المجتمع العربي منذ أقدم العصور التي تمدنا المصادر ببعض المعلومات عنها ، وحتى نهاية العصر العباسي ، وسنتوقف في بحثنا عند موضوع الصراع الطبقي مع نهاية العصر العباسي ، لأن التيارات الفاعلة والمؤثرة في هذا الصراع ستأخذ لوناً جديداً بعد هذا العصر .



هناك نظريتان متباينتان حول التركيب الاجتماعي والاقتصادي للقبيلة العربية التي كانت تضرب في فيافي الجزيرة العربية قبل الاسلام . وأولى هذه النظريات تعتبر القبيلة مجتمعاً اشتراكياً فاضلا يتساوي فيه الأفراد بالحقوق والواجبات ، ولهم جميعاً وبالتساوي تعود ملكية الدعائم الأساسية للحياة الاقتصادية ، وهي الحمى والقطيع .

والنظرية الثانية التي تقول بهـا جماعة المدرسة الماركسية في التفسير التاريخي والتي لا تعترف بأن الثروة كانت موزعة توزيعاً عادلا ، لا في القبيلة ولا في المدينة العربية قبل الاسلام . ويقول أنصار هذه المدرسة ان سوء توزيع الثروة في القبيلة العربية في الجاهلية أمر ظاهر ولا يحتاج برهانه الى كبير عناء . فقد كان لكل قبيلة سادتها الذين ترتكز سيادتهم على نبل المحتد وعراقة الدم ، والذين كانوا يملكون قطعاناً كبيرة من الماشية ، ولهم الاولوية في استعمال المرعى ومصادر المياه . ومعروف ان ملكية القطيع سابقة ، في تاريخ الملكية ، على ملكية الارض . وهنا يجب التفريق بين الملكية الشخصية والملكية الخاصة . فكل انسان لا بد وأن يكون له أملاك شخصية (ثيابه ، سلاحه ، راحلته ... الخ) ، وهي لا تؤدي بالضرورة الى تزايد ثروته أو ما يملك ، أما الملكية الخاصة فهي التي تؤدي عادة الى الربح ، ويستطيع المالك عن طريقها أن يزيد في ثروته . وبما أن الارستقراطية القبلية كانت هي التي تملك القطعان الكبيرة التي تنتج لبناً ولحماً وصوفاً يفيض عن حاجة استهلاكها ، فهي لذلك كانت تملك الفائض الذي يحتاجه ابن القبيلة المحروم والذي قد لا يستطيع الحصول عليه لفقره وعدم كفاية ما عنده من نقد أو عين للمقايضة عليه . ومن هنا جاء التفريق بين الذين يملكون والذين لا يملكون داخل القبيلة .

وقد وجد في القبيلة عبيد ، وكانوا في الغالب من الغرباء أو من الذين استعبدتهم القبيلة نتيجة الغزو ، أو من أبناء الاماء الذين لم يحررهم آباؤهم الاحرار . كان هؤلاء العبيد يعملون في رعي ماشية السادة وتأدية مختلف الخدمات لهم .



لقد أدى عدم التساوي في الثروة داخل القبيلة الى نشوء فئة **الصعاليك** . هذه الفئة التي تتكون في الغالب من أفراد فقراء تتضح فيهم الميول الثورية . وكانت هذه الفئة تمثل في نظر طبقة السادة خطرا لا بد من التخلص منه ، وكان الصعاليك بدورهم ، وهم الفقراء الجائعون ، لا يتورعون عن السلب والنهب والقتل في سبيل تدبر أمر معاشهم ، وقد الفوا عصابات ، كانت تلجأ الى بعض الغدران ومنابع المياه وتعيش على الصيد والقنص وتتربص بقطعان السادة أو قوافلهم لتنهبها وتأخذ منها ما يسد عوزها . وخلافاً لكل الاعراف القبلية كان الصعلوك لا يتورع عن مهاجمة أو ايذاء ابن قبيلته اذا ما وجد المبرر لذلك . وقد أدى هذا الى اضطرار القبيلة للتخلي عنه وطرده من عضويتها . وهكذا

نشأت فئة الطرداء (ومفردها طريد) ، الذين تسقط القبيلة عنهم حمايتها أو مسؤوليتها النابعة من الاعراف القبلية التي كانت سائدة آنذاك .

واذا كانت كتب الادب العربي لم تول الصعاليك والطرداء ما يستحقون من دراسة واهتمام ، فان الدراسات الاجتماعية الحديثة ترى فيهم التعبير الحي عن التفكك والانهيار الذي أصيبت به العلاقات الاجتماعية والاقتصادية داخل القبيلة العربية ، بدءا من القرن الخامس والسادس الميلاديين ، وترى في قيامهم تعبيرا عن الثورة التي كانت تضطرم في نفوس بعض ابناء القبائل المحرومين على سادتهم وجلاديهم .



ومهما قيل عن الواجبات والمهام الكثيرة التي كانت ملقاة على عاتق رئيس القبيلة ، وما تفرض عليه رئاسته من مسؤوليات مادية ومعنوية تجاه جميع ابناء قبيلته ، فان هذا الرئيس أو السيد ، كان يعيش حياة مادية لا يحلم بها او يدانيها أي فرد من افراد قبيلته . فخيمته اكبر خيام القبيلة واجودها نوعاً واغناها بالمتاع والاثاث . وما يصح على خيمته يصح على طعامه ولباسه وفراشه وجميع مظاهر حياته المادية . ولعل أهم ما يميز السيد عن بقية أفراد قبيلته هو نصيبه من الغنائم في أي عملية غزو تقوم بها القبيلة ، هذا النصيب الذي يجمعه الشاعر في قوله :

لك المرباع منها والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول

وقد أدت هذه الامتيازات كلها الى نشوء حركة معارضة في المجتمعات الرعوية البدوية عبر عنها الصعاليك والطرداء برفضهم لهذه القيم التي تقوم على أعراف وتقاليد لا تشيع العدالة والمساواة في كثير من الاحيان .



هذا بالنسبة للمجتمع القبلي الذي كان يعيش حياة بداوة ورعي واقتصاد يقوم على القطيع والارتحال في طلب الكلأ والماء واذا انتقلنا لتقصي الحال في بعض المجتمعات المستقرة في الجزيرة العربية قبل الاسلام ـ كمكة مثلا ـ التي كان يتحول اقتصادها من اقتصاد بدوي الى اقتصاد تجاري ، والمدينة أو يثرب التي كان اقتصادها البدوي ينتقل الى اقتصاد زراعي ، لوجدنا أن قضية العلاقات الاجتماعية وصراع الطبقات تدخل في طور جديد يجعل الباحث يلحظ بوضوح القلق وعدم الرضا الذي أخذ يسود طبقات المجتمع المختلفة والمتفاوتة المصالح

ففي مكة مثلا التي كانت مركزاً دينياً وتجارياً في آن واحد ، والتي كان فيها الدين والتجارة مرتبطين بأكثر من مظهر وهدف ، نلاحظ أن هذه المدينة قد وسعت فعالياتها الاقتصادية في القرن السادس للميلاد توسيعاً سيجعل التناقض الطبقي أمراً حتمياً ولا بد أن يقود الى صراع مكشوف بين المستغلين والمستغلين . وكان الصراع البيزنطي الفارسي قد أدى الى شل طريق تجارة الهند الى الخليج العربي ، كما أن سقوط الدولة السبأية على يد الاحباش ، ومساوىء الابحار عبر البحر الاحمر وما فيه من اخطار ملاحية بسبب الشعاب المرجانية مكنت قريش ، سيدة مكة من السيطرة على طريق التجارة المار بغربي الجزيرة . وغدت لقريش مع الزمن اغنى القوافل التجارية في الجزيرة ، واخذت تتولى مبادلة بضائع الترف من الهند والحبشة ، والبخور من اليمن ، بانتاج الشام وبلاد البحر المتوسط . كما اتسعت صلاتها التجارية حتى شملت العراق والخليج العربي . وهكذا غدت هذه المدينة الواقعة في « واد غير ذي زرع » تقوم برحلتي الشتاء والصيف ، وتكونت فيها ارستقراطية نشيطة حاولت عن طريق الاحتكارات أن تنمي ثرواتها ، واتخذت المال سبيلا لتأكيد نفوذها وقوتها. لقد بلغ من حجم التجارة المكية ان الطبري يتحدث عن قافلة لقريش بلغ عدد جمالها ٢٥٠٠ بعير يحرسهم مائة رجل من قريش ، وعن قوافل صغيرة كانت عدة جمالها لا تقل عن الالف جمل .

وطبيعي أن تنشأ في مجتمع تجاري له هـذا الحجم التجاري الكبير المعاملات المصرفية والربا . والاقراض بالفائدة ، وأن تتداول فيه عملات الدول الاجنبية التي لها مع مكة تعامل تجاري . وقد بلغ من حدة جشع تجار مكة أنهم كانوا يأخذون فائدة الدرهم المقترض درهما وفائدة الدينار دينارا . وكثيرا ما لجأ بعضهم الى تقاضي فوائد تصل الى حد ٢٠٠٪ أو ٤٠٠٪ ، وكانت معاملاتهم لا تقتصر على أهل مكة فحسب بل جميع بدو الحجاز الذين لهم علاقات بالقوافل التجارية وعملية التجارة بشكل عام .

* * *

وهكذا تدرجت بعض بيوتات قريش في معارج الثروة والغنى ، وانغمست في حمأة الابتزاز والاستغلال واستثمار عرق وجهد الطبقات المحرومة من ابناء جلدها . وكان بنو امية على رأس هذه البيوتات التي اثرت ثراء غير مشروع واستغلت ظروف سيادتها وسلطانها لتزيد في ثروتها . فكانت لهم رئاسة معظم القوافل التجارية ، ونبع من بين صفوفهم كبار التجار والمرابين فآلت اليهم

هكذا رئاسة قريش نفسها . وقد نازعهم هذه السيادة بطون أخرى من قريش على رأسها بطن هاشم الذي كانت له السيادة قبلا . وأدى هذا التنافس بين البطون القرشية الى صراع داخل قريش نفسها كان من اهم نتائجه عقد حلف الفضول الذي نستطيع ان ننظر اليه على ضوء هذا التفسير بمنظار جديد . فالمصادر تذكر ان السبب المباشر الذي دعا الى عقد هذا الحلف هو أن شخصاً من بني سهم (احد البطون القرشية) رفض أن يدفع لتاجر يمني ثمن سلعة اخذها منه . وفي هذا الرفض دلالات أبعد من كونها سوء ذمة عادية من شخص اشترى بضاعة ولا يريد ان يسدد ثمنها . ان في هذا الرفض ، اذا أعملنا النظر في التيارات والحزبيات والاوضاع الاجتماعية للبطون الملكية المختلفة ، ما قد يستدل منه على أن البطون الغنية من قريش ، وسهم منها ، كانت تريد أن تقصي اليمنيين عن تجارة الجنوب وان تحصر هذه التجارة في يدها . وكان رد فعل بني هاشم ومن والاهم ، التكتل في وجه هذا الفرع الغني وانشاء تحالف يقف في وجه مطامعهم المتزايدة ، لا سيما وأن آل هاشم وحلفاءهم لم يكونو على جانب من الثروة يساعدهم على تسيير قوافل خاصة بهم الى اليمن ، بل كانوا مضطرين للتعامل مع هذه البلاد عن طريق تجار يمنيين يقيمون في مكة . او عن طريق اشتراكهم في القوافل العامة . واحتكار فئات ، كبني عبد شمس ومخزوم ، لتجارة مكة مع اليمن يعني بالنسبة لهم أن تفرض هذه الفئات عليهم شروطاً قد لا تكون في صالحهم اذا شاركوها في قوافلها الذاهبة الى هناك او أن يعطوهم نصيباً ضئيلا من أرباح القوافل المشتركة .



واذا كان الصف القرشي نفسه لم يخل من مستغل ومستغل ، وبالتالي من صراع سببه تباين المصالح وتسلط فئة قرشية على فئات قرشية أخرى فمن الطبيعي أن يكون استغلال هذه الطبقة المتسلطة لجماهير المكيين اشد وأدهى وأن يقع فقراء وضعفاء هذه المدينة فريسة نظام ليس للضعيف فيه مكان وهكذا عاش المجتمع المكي في الفترة السابقة للاسلام في ظل نظام اجتماعي يسود القلق وتتسم علاقاته بالتفكك ، كما أن هذا النظام زعزع من ناحية ثانية المفاهيم القبلية وضربها في الصميم ، فلم يعد الولاء للقبيلة هو الناظم للعلاقات بين الفرد وقبيلته ، وحل محله الولاء للطبقة ، وزالت رابطة الدم لتحل محلها رابطة المصلحة المادية .

لقد ضعفت الروح الجماعية القبلية في مكة واتسعت الفجوة بين قريش البطاح وقريش الظواهر . وفي الوقت الذي وجد الاغنياء فيه ضماناً لهم في ثرواتهم ، أحس الاخرون بالقلق والمرارة بسبب قسوة الاستغلال الذي خضعوا له . اننا نشم رائحة التجارة والمصلحة المادية لا في العلاقات بين البطون القرشية وتكوين الاحلاف والصراع بين القوى المحتكرة والمتسلطة ماديا والقوى المعارضة لها فحسب ، بل نشم هذه الرائحة في حركة المعارضة للاسلام نفسه ، هذا الدين الذي سيظهر بعد قليل والذي سيهدد في جملة ما يهدد مصلحة قريش التجارية. لذلك لن نستغرب وقوف أبي لهب – وهو عم الرسول – في الصف المعارض للرسول ضارباً عرض الحائط بكل تقاليد التضامن القبلي ، لأن أبا لهب وهو الأخ الاصغر لأبي طالب كان متزوجاً من احدى أخوات أبي سفيان سيد بني عبد شمس وزعيم مكة المطاع . ولا شك أن العامل القوي في معارضته للرسول كانت مصالحه المادية والتجارية التي كانت مع بني عبد شمس .



واذا انتقلنا بعد ذلك الى الحركة الاسلامية الوليدة لوجدنا ان الاسلام ظل لا يلقى اية معاضة من الارستقراطية القرشية المحتكرة والتي لم تأبه لما كان يقول محمد ، حتى أخذ يعيب آلهتها ويشتم دينها ويظهر سفه أسلوبها في الحياة والعبادة . حينئذ فقط تنبهت هذه الارستقراطية الى الخطر الذي تمثله هذه الدعوة .

والسؤال الذي يفرض نفسه بهذه المناسبة هو هل كانت الارستقراطية القرشية متمسكة بآلهتها الى الحد الذي يجعلها تخوض ما خاضته من حروب وتصرف ما صرفته من اموال وجهود للوقوف في وجه دعوة محمد ؟! أم هل تراه أمرا آخر !!

ان المطلع على حقيقة الوثنية المكية يعرف بما لا يقبل اي شك أن المكي كان اكثر الناس استهتارا بآلهته ، وانه كان يعرف انها لا تسمن ولا تغني من جوع ، وانه انما يعبدها لتقربه « من الله زلفى » وانها شفيعته عند الله فقط . هذا فضلا عمن تنصر أو تهود أو اعتنق دين ابراهيم ورفض عبادة الاوثان . ان في كل هذه الحقائق ما يجعلنا نرى بوضوح أن عيب محمد لآلهتهم لم يكن الأمر الذي اثارهم ضده ، بل كان الذي اثارهم وجعلهم يحسون بالخطر الذي تمثله دعوة محمد هو ما قد تؤدي اليه هذه الدعوة من انقلاب في المفاهيم قد

يكون من نتائجه فقدانهم لزعامتهم المادية التي تنبع الى حد بعيد من زعامتهم الوثنية ووجود الكعبة رمز وحدة العرب ومحط انظارهم ، بين ظهرانيهم . والى هذه القدسية الدينية لمدينتهم والى سيادتهم القبلية يعود الفضل في مكانتهم التجارية .



وبعد أن اتيح للاسلام ان يصبح ديناً ودولة حقاً وأن يطرح شعاراته الجديدة التي تلغي الفوارق الطبقية المبنية على أساس من نبل الدم وشرف الجاه والمال ، أقام عوضاً عنها جميعاً « أمة » يتساوى فيها « المؤمنون » جميعاً . ولا يتفاضلون الا « بالتقوى » والاخلاص للعقيدة . وقد طبق الرسول هذه المساواة في « الحكومة » التي أقامها في المدينة وضرب المثل بنفسه وأعضاء أسرته . فسار الناس على سنته وشاعت عدالة اجتماعية لفترة من الزمن امحت معها الفوارق الطبقية وعاش الناس في ظل مجتمع فاضل يسوده قانون صارم يأخذ المسيء بجريرة فعلته .



وحين انتقل الرسول الكريم الى جوار ربه وقامت دولة الراشدين حاول الخليفتان الاولان ابو بكر وعمر أن يسيرا على هدي الرسول ، وأن يستمرا في اقامة دولة المساواة التي يتفاضل الناس فيها بالتقوى وحسب . ولنا في قسمة أبي بكر غنائم الفتوح الاولى بالتساوي ودونما تمييز بين كبير أو صغير ، رجل أو امرأة ، على أفراد الجماعة الاسلامية ، وفي ادخال عمر مقياسين للتفاضل بين الناس حين عرضت له مشكلة قسمة غنائم الفتوح ، وهما القرابة من الرسول والسبق الى الاسلام ، خير دليل على ان المساواة كانت ما تزال هي الاساس في مجتمع الاسلام ، وأن الناس يتفاضلون بمقدار ما قدموا للدين الجديد من عمل وجهاد . وكانت نظرية عمر تتلخص بقوله انه لن يجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه .



وتبدأ مرحلة جديدة من التطور بقيام عصر الفتوح وتدفق الثروات من الاقطار المفتوحة على حاضرة الدولة في الحجاز . وهنا لا بد من أن نلاحظ أن الفتوح في زمن أبي بكر وعمر كانت من السعة والغنى بحيث نبهت الارستقراطية المكية القديمة الى الدور الذي يمكنها أن تلعبه في الامصار المفتوحة ، والمكاسب

التي تستطيع أن تحققها . غير ان وجود عمر على رأس الدولة في هذه الفترة وما عرف عنه من قوة وبطش وعدم تساهل او تفريط في المبادىء جعل هذه الارستقراطية تقبع في الظل وتنتظر الفرصة لتستعيد نشاطها وفعاليتها . وفعلا جاءت هذه الفرصة حين طعن عمر ودبرت الخلافة لعثمان الاموي العريق في الغنى وممثل الارستقراطية القرشية القديمة . ان عملية الشورى والمناورات التي دبرت لاقصاء علي عن كرسي الخلافة كانت لعبة ماهرة لعبت فيها الارستقراطية دورا لا مجال لتفصيله في هذه العجالة .

وهكذا آلت الخلافة الى عثمان ، الخليفة الضعيف الذي وقع تحت تأثير جماعته من أفراد البيت الاموي ، ورثة ماضي مكة التجاري وأصحاب السيادة والجاه والمال . ورغم أن بني أمية وقفوا من الاسلام موقفا معاديا أول الامر وحاربوه حتى اليوم الذي فتح فيه الرسول مكة ، الا انهم ، على عادة رجال الاعمال الأذكياء ، ما لبثوا أن انضووا تحت لواء الدين الجديد وانسربوا اليه وحاولوا أن تكون لهم السيادة في المجتمع الجديد ، واستطاع أولاد أبي سفيان ومنهم يزيد ومعاوية أن يحصلا على مكانة رفيعة في المجتمع الجديد منذ زمن أبي بكر وعمر . والمهم أن نلاحظ في هذا المجال أن بروز يزيد وأخيه معاوية لم يكن في المدينة بل كان في الامصار .

ان انتعاش الارستقراطية الحجازية القديمة بدءا من خلافة عثمان يتمثل في الارقام الهائلة التي وصلت اليها ثروات بعضهم . فالمسعودي مثلا يذكر أن خزانة عثمان كانت تشتمل يوم قتل على نقد يقدر بمئة وخمسين الف دينار ومليون درهم . هذا فضلا عن البساتين والمزارع التي كان يملكها في وادي القرى وحنين وغيرها . ويبدو أن الزبير وطلحة لم يكونا بأقل منه غنى . فقد جاء في ابن سعد في حديث عن ثروة الزبير انه كان يملك احدى عشر دارا في المدينة ، ودارين بالبصرة ، ودارا بالكوفة ودارا بمصر ، وان ميراثه الذي اقتسم بعد وفاته قد بلغ اثنين وخمسين مليون درهم . هذا فضلا عن الخيل والجمال والعبيد وما شابه . أما طلحة فقد كانت غلته من العراق كل يوم الف درهم ، وكانت غلته السنوية على تقدير آخر ما بين ٤٠٠ — ٥٠٠ الف ، هذا في العراق فقط ، اما اذا أخذنا بعين الاعتبار مجموع ثروته فقد بلغت على حد تقدير ابنه موسى بن طلحة مليوني درهم ومائتي ألف دينار ما عدا العروض والماشية والعبيد .

ان هذه الارقام على ما قد يكون فيها من مبالغات تشير بوضوح الى بدء قيام نظام طبقي يتربع فيه اغنياء استغلوا الفرص والمناصب التي أتيحت لهم ليثروا على حساب عامة الناس . والمهم في الامر ان الفتوح التي أدخلت هذه الثروات الى جيوب هذه القلة من افراد المجتمع كانت من صنع رجال الجيش المحاربين الذين كانوا زمن ابي بكر وعمر قد شغلوا بأمر الفتح الى حد لم يترك لهم فرصة للتفكر والتدبر . هذا فضلا عن أنهم كانوا يقنعون بنصيبهم من الغنائم وما يصل اليهم من عطاء قررته لهم الدولة . وفي زمن عثمان حين خفت موجة الفتوح وانقطع عن المحاربين السيل المتدفق من الغنائم الذي كان يأتيهم ويجعلهم في بحبوحة لايبالون معها بما تفعله الدولة بأموال الفيء وريع الاراضي التي يغنمونها من البلاد المفتوحة ، أخذ هؤلاء المحاربون يجأرون بالشكوى ويعلنون ان واردات الدولة من الفتوح هي حق لهم ، وان الدولة حسب التشريع القرآني لا تملك سوى خمس هذه الواردات .

ولا بد لنا أن نوضح أن المقاتلة كانوا هم الجماهير الواسعة ، صاحبة الحق في الثروة العامة ، وان نصيبها من الدخل العام كان يتضاءل باستمرار كما بينا واذا أضفنا الى هذه الفئة ، فئة الاتقياء — كأبي ذر الغفاري — وغيره من بقايا صحابة الرسول الذين كانوا يرفضون نهب فئة قليلة لثروات الامة واحتكارها لخيراتها ، ويعتقدون أن الثروة العامة وواردات بيت المال حق يتساوى فيه جميع المسلمين ويجب ان يصرف على الصالح العام ، لاستطعنا أن ندرك أن الثورة التي قامت على عثمان لم تكن ثورة لا مبرر لها ، وان ما يسميه المؤرخون عادة باسم الفتنة الاولى كان عبارة عن تحرك جماهيري شاركت فيه جماهير قدمت من مختلف الامصار المفتوحة ، كالبصرة والكوفة ومصر . وقد انتهت هذه الثورة بمقتل الخليفة عثمان . وكان مقتله بداية صفحة جديدة لعب فيها السيف دور الفيصل في حل المنازعات ، وولدت الحزبية السياسية وتداخلت أمور الدين بأمور الدنيا .

* * *

وكانت خلافة علي بن ابي طالب هي مرحلة الانتقال التي حاول فيها المتزمتون ورجال العقيدة أن يعيدوا للدولة نقاءها وللمجتمع المبادىء الخلقية والاجتماعية التي طرحها الرسول وطبقها في حكومته في يثرب ، في حين كانت الارستقراطية القرشية القديمة وعلى رأسها معاوية سليل الاسرة الاموية ومن والاه يحاولون من طرف آخر أن ينهوها لصالحم حتى يعود اليهم ما انقطع من سيادتم وما تأخر من منافع ومصالح .

* * *

وهكذا وصل البيت الاموي الى الحكم ودخلت قضية الصراع الطبقي فترة جديدة انقسم فيها المجتمع الى قسمين متمايزين : عرب وغير عرب . عرب سادوا بحق الفتح وبأس السلطان ، وغير عرب غدوا مواطنين من الدرجة الثانية ، عليهم الكثير ولهم القليل . ان أهم مظهر من مظاهر التفاوت الطبقي بين العرب وغير العرب في العصر الاموي هو اضطرار كل مسلم غير عربي أن ينتمي بالولاء لقبيلة عربية . وهكذا انقسم المجتمع العربي المسلم الى طبقتين تتمايزان بوضوح : طبقة العرب وطبقة الموالي .

واذا تركنا قضية الموالي جانبا لنستأنف الحديث عنها بعد قليل ، وبحثنا أمر نشأة حركة الخوارج لوجدنا أن قيام الخوارج مرتبط الى حد كبير بالتناقضات التي كانت تقوم داخل المجتمع العربي ، وبالحال المتردية التي وصلت اليها جماهير القبائل المحاربة في ظل نظام أخذت فيه قلة من المستغلين تسيطر على خيرات المجتمع وثرواته ، ويرى البعض في هذه الحركة استمرارا للثورة التي قامت على عثمان ولم تنته بمقتله . ولنا في المبادىء الديمقراطية التي طرحتها هذه الفئة الثائرة خير دليل على النجاح الذي لاقته عند بعض رجال القبائل العربية ، وما اجتذبته فيما بعدُ من أنصار بين قبائل البربر في شمال افريقية .

ان انتقال القبائل من الجزيرة الى الاطراف والامصار المفتوحة ، وما آلت اليه حال الدولة حين بدأ الاستغلال والاثراء غير المشروع يتسربان الى رجالاتها والمتسلطين على شؤونها جعلت هذه القبائل تشعر أنها حرمت من ثمار الفتوح التي هي من صنع يديها ، فلم توزع عليها الاراضي المفتوحة ، ولم تحصل على نصيبها الحقيقي من الغنائم والاموال المنقولة . ورأت أن قريش عادت لتتربع مكان الصدارة ولتتسلم السلطة ، وأن دورها ثانوي ، ولا يتناسب مع ما كان لها من فضل حقيقي في الفتوح . فارتفعت الاصوات الفردية ــ كصوت أبي ذر ــ والجماعية ، وقامت الثورة التي امتزجت فيها القبلية بنوع من الاقليمية الجديدة ، التي نشأت بنتيجة انتقال هذه القبائل الى الامصار وارتباط مصالحها بمصالح هذه الامصار .



وقد زاد في سوء الوضع انقسام قريش على نفسها وقيام الحرب بين زعيمين من زعمائها : علي ومعاوية ، وحين انتهت الحرب ووصل البيت الاموي الى الحكم كان أول وأهم النتائج التي ترتبت على هذا الحادث انتقال مركز

الثقل السياسي والاقتصادي للدولة من الحجاز الى الامصار ، وغدت المنافسة بين الشام والعراق الشغل الشاغل للدولة . وزاد عدد الاحزاب السياسية وولد حزب الشيعة الذي كان يؤمن بأحقية علي في الخلافة ، وما لبث هذا الحزب ان استقطب عناصر عديدة بين الناقمين من غير العرب الذين لم يكن ممكنا أن ينضموا الى صفوف الخوارج .

وهكذا غدت المعارضة معارضتين : معارضة مبنية على أساس اجتماعي واقتصادي ، ومعارضة سياسية مبنية على أسس دينية يمثلها آل البيت ومن انضم الى صفهم .



ان التناقضات التي عاشها المجتمع الاموي تنبع من أسس عديدة كانت وليدة الظروف التي أوصلت الامويين الى الحكم .

فالامويون سادة عرب تمتد جذور سيادتهم الى ما قبل الاسلام ، وقد انسلوا الى النظام الجديد واستطاعوا بالسياسة واللين تارة ، وبالسيف والقوة تارة أخرى أن يعودوا لتربع مكان الصدارة في الدولة العربية الكبيرة .

وهم ممثلو الارستقراطية القرشية القديمة وسادة تجارة مكة واصحاب رؤوس الاموال فيها،ولا يمكن ان يكون في دولتهم مكان لنظرية المساواة التي طرحها الاسلام في دولته الاولى في المدنية .

وهم بعد كل هذا بمن والاهم من القبائل وانضم الى صفوفهم من الرجال يمثلون أرستقراطية عسكرية سادت بقوة السيف فاعتبرت أن خيرات المجتمع من حقها بقطع النظر عن الدور الذي تلعبه في الازدهار الاقتصادي لهذا المجتمع أو ما تقدمه له على شكل انتاج أو عمل . ومع مرور الزمن غدت المدن التي سكنها العرب اول الامر كقبائل محاربة ، مراكز تجمعات حضرية ، وزالت عنها الصفة العسكرية ونشطت فيها الفعاليات المدنية . وقد تمثل هذا التحول في النواحي الاجتماعية والاقتصادية كما تمثل في النواحي الفكرية . وغدت المدن بسكانها المختلفين واحوالهم المادية المتباينة مجتمعات طبقية متمايزة تفصل بين افرادها حواجز ومستويات مادية واجتماعية متفاوتة .

ولم يكن الحال في الريف حيث استمرت سيادة الدهاقين ، وحيث قام نظام الاراضي الخراجية بأحسن منه في المدن ، وكانت الضرائب من الكثرة

والقسوة بحيث هجر الفلاحون الارض اكثر من مرة وانتقلوا للعمل في المدن مما اضطر الدولة لاجبارهم على العودة الى الريف بوشم اسماء قراهم على أيديهم ، كما حصل زمن الحجاج واعادتهم اليها بالقوة وقد ادى نظام الخراج وطرق استغلال الارض وحرمان الفلاح من الجزء الاكبر من خيراتها الى نقص ظاهر في الانتاج الزراعي مما أدى الى انتشار المجاعات ولا سيما بين الطبقات الشعبية في المدن ، والى تكاثر الاوبئة ، الامر الذي كثيرا ما أدى الى موت الناس جملة وبأعداد غير قليلة .

* * *

واذا اضفنا الى الحال المادية البائسة التي عانى منها جمهور الموالي ، الوضع الاجتماعي المتردي الذي كانوا فيه ، والذي لا أراني بحاجة لضرب الامثلة عليه ، ويكفي أن أقول انه حتى في ميدان الدين كان عليهم أن يصلوا في مساجدهم الخاصة التي لا يدخلها عربي ، واذا تصادف أن صلى مولى مع عربي مسلم فلا يستطيع أن يؤمه في صلاته مهما علت منزلته الدينية أو العلمية ، أقول إنه في هذا الحال المادي والاجتماعي المتردي للموالي يجب ان نبحث عن أسباب انضمامهم لكل ثورة كانت تقوم على البيت الاموي . ولست هنا في صدد تفصيل هذه الثورات فهي عديدة وكثيرة ، ويكفي أن نذكر أنه ما قام الشيعة بثورة ضد بني أمية الا وكان الموالي من جندها المخلصين . وطبيعي الا يستطيع الموالي الانضمام الى الثورات الخارجية لان الخوارج عرب قبليون ولم يقبلوا بين صفوفهم من لم تكن له هذه الصفة . ولعل أهم الثورات التي انضموا اليها وكانت القاضية على البيت الاموي هي الدعوة العباسية التي لعب الموالي فيها دورا قياديا لا يخفى على انسان .

* * *

واذا كان على المؤرخ ان يرسم صورة امينة لما حدث فان القارىء قد يتوهم بأن الصورة التي رسمت للنظام الضرائبي والاقتصادي في عصر بني امية هي صورة قاتمة سوداء ليس فيها أي جانب حسن . وهذا خطأ لا أريد لنفسي الوقوع فيه .

لقد كانت حركة الفتح العربي عاملا هاما في تدمير نظام الاقطاع القديم في البلاد المفتوحة ، وذلك ان مساحات كبيرة من الارض في العراق وسورية ومصر كانت اقطاعات للاسر الحاكمة والنبلاء ورجال الدولة الكبار ، او اراض

تتبع المعابد والكنائس . وكان عدد كبير من الفلاحين يرتبط بهذه الأرض بصفة اقنان وفي حال عبودية أو شبه عبودية .

وحين فتح العرب هذه البلاد وصارت هذه الاراضي في حوزتهم اعتبروها ملكا لبيت مال المسلمين يصرف الخليفة شؤونها بما يعود بالخير على جماعة الامة ، ويعطيها بالمزارعة للفلاحين الذين كانوا عليها أو يتركهم فيها مقابل خراج يدفعونه لخزانة الدولة ، وقد أدى هذا النظام الى ظهور ملكيات خاصة صغيرة ، لاسيما بين من اسلم من هؤلاء الفلاحين ، فغدوا من الموالي الملاكين لان من يسلم يعفى من الخراج ولا يدفع الا العشر .

على أن عملية تمليك اراضي الخراج للمزارعين كانت في اغلب الاحيان عملية غير مشروعة ، وظلت مشكلة ملكية الارض مشكلة قائمة بالنسبة لاغلب الفلاحين من غير السادة العرب . لدرجة أنه أثناء ثورة ابن الاشعث التي اشترك فيها بعض الموالي أحرقت سجلات الاراضي الخراجية واستحوذ بعض الموالي على اراض هي في الاساس من أرض الخراج . ويقول الماوردي في هذا الصدد : « ... فلما حدثت فتنة ابن الاشعث ، أحرق الديوان وضاعت الحسابات ، فأخذ كل قوم ما يليهم » (الاحكام السلطانية ، ص ١٨٣) .



وبعد أن انتقل الحكم الى البيت العباسي كان لا بد من ملاحظة ان العناصر التي ساهمت في الثورة على الامويين والتي كان من المفروض ان يكون لها نصيب في غنائم الحكم ، لم تحصل كلها على هذه الغنائم . فالشيعة مثلا ، الذين جرت الدعوة باسمهم (الرضا من آل محمد) كانوا اول من أبعد عن دفة الحكم وأخذوا يعيشون فترة جديدة من الاضطهاد والثورات . اما الموالي فقد طرأ تحسن ظاهر على حال قياداتهم ، وغدا بعض هؤلاء القادة شركاء حقيقيين في الحكم والادارة . وانقلب ميزان القوى في المجتمع العباسي وانعكست فيه الصورة الاجتماعية عما كانت عليه ايام الامويين وغدا الناس كما كان يقول الفضل بن يحي البرمكي ينقسمون الى طبقات اربع :

١ ــ ملوك قدمهم الاستحقاق .
٢ ــ وزراء فضلهم الفطنة والراي .
٣ ــ علية انهضهم اليسار .
٤ ــ أوساط الحقهم بهم التأدب .

٥ ـ والناس بعدهم زبد وجفاء وسيل غثاء ... هم أحدهم طعامه ونومه (عن ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان) .

فلم يعد الناس عرباً وغير عرب ، ولم يعد المقياس الاجتماعي أو الانتماء الطبقي مرتبط بعرق دون عرق ، بل غدا النبل ، نبل الثوب Nob. de Robe ونبل الثروة بقطع النظر عن الاصل والدم والعرق .

ان هذه النظرة التي تخالف نظرة المساواة التي طرحت في دولة الاسلام الاولى في المدينة ، ونظرة السيادة القبلية التي تعود بجذورها الى عصر الجاهلية والتي أخذ بها الامويون في دولتهم ، تجعل المجتمع مجتمعاً رأسمالياً يتحدد فيه مكان المرء بنوع المنصب الذي يشغله أو بمقدار الثروة التي يملك ولا يجد الفقير فيه مكاناً فهو زبد جفاء وسيل غثاء .



وظلت الزراعة في العصر العباسي عمادا اساسيا من أعمدة الاقتصاد ، وكان العراق يشكل العمود الفقري في الانتاج الزراعي ويقدم ما يعادل ٣٠٪ من دخل خزينة الدولة . وكانت الزراعة تعتمد على الري ، وكانت أساليب الري ابتدائية وكثيرا ما عانى الفلاح من سوء هذه الاساليب ومن فقره في الادوات الزراعية . ولم تكن الدولة لتهتم كثيرا بتحسين هذه الاساليب والادوات لان نظام استخدام العبيد في الميدان الزراعي ، رغم أنه أخذ يزول في كثير من الاماكن ، ظل معمولا به في الاراضي التي تحتاج الى جهد شاق كالمستنقعات والسباخ والاراضي البور وغير ذلك .

ويمكننا أن نعلل عدم اهتمام المزارع بتطوير اساليبه في الري او ادواته الزراعية الى شعوره بأن كل تقدم في الانتاج ستعود فوائده على الملاك المتخم أصلا ، ولن يكون له هو منه أي نصيب .

وكانت معظم الاراضي ملكاً للدولة ، وكانت الدولة تفرض على الفلاحين الذين يستغلون هذه الاراضي ضرائب ضخمة كثيرا ما وصلت الى حد يفوق كل معقول . وقد الغى خلفاء الخليفة المنصور العرف القديم الذي كان يجيز للفلاح دفع ضريبته نقداً وعيناً ، وفرضوا على الفلاحين دفع ضرائب نقدية فقط . وكان النظام الضرائبي يزدادتعقيدا مع مرور الايام حتى ان كتباً كثيراً الفت في هذا العصر لتحديد أنواع الضرائب وتباينها بتباين الاحوال الكثيرة والظروف المختلفة .

وكما كانت الزراعة من اعمدة الاقتصاد الاساسية ، فقد لعبت المهن المختلفة دورا بارزا في الحياة الاقتصادية للمجتمع ، وغدا الانتاج المهني بمختلف فروعه مورد رزق قطاع كبير من طبقات الشعب الذين سخرت جهودهم لانتاج مواد الرفاه لفئة السادة من جهة ، ولاغناء تجارة التصدير التي تدر الربح الوفير على قطاع آخر من قطاعات الفئة المستغلة . وكانت غالبية العاملين في هذه المهن تعيش حياة البؤس والفقر ، وتعتمد الى حد كبير على احتكارات تجار المواد الاولية ووسطاء البيع وتجار الجملة وغيرهم من المستغلين الذين يزخر بهم اي نظام راسمالي .



لقد أدى هذا التفاوت الطبقي الصارخ الى قيام ثورات كثيرة شاركت فيها جماهير المحرومين المستغلين من عرب وموالي ، وهذه الثورات من الكثرة والاتساع بحيث لا تتسع هذه العجالة لذكرها وسردها . واذا ذكرنا أن بعض المؤرخين المحدثين يعتبرون أن حركات العيارين والشطار لم تكن سوى مظهر من مظاهر الثورة الاجتماعية الاقتصادية التي سببها الظلم الطبقي الصارخ ، وأن كثيرا من هؤلاء العيارين كانوا يسرقون وينهبون ليأخذوا من الاغنياء ويعطوا الفقراء ، لوجدنا أن هذه الثورات أكثر من أن تحصى او يتناولها عرض سريع كمثل هذا الذي نحن بصدده .

لذلك آثرت ، وقد شعرت بأني أطلت ، أن أقف وقفة سريعة عند حركة واحدة من هذه الحركات ، هي حركة الزنج محاولا ابراز جانب الصراع الطبقي فيها وما تضمنته من افكار اجتماعية واقتصادية كانت حصيلة حال من البؤس والاستغلال لا تحتمل السكوت . ولا بد لي من أن انبه بأن هذه الحركات الشعبية قد قامت في سورية ومصر والعراق العربي والعجمي ومنطقة الخليج العربي وشمال افريقية وغيرها ، وأخذت أشكالا مختلفة ، فقد كان منها العسكري ، والقبلي ، والعرقي ، والشعوبي ، والمذهبي ، والمرتبط اسماً ببعض الاشخاص ، ولكنها كلها ذات مضمون اجتماعي واقتصادي ، كما أنها كانت كلها تعبيرا صارخاً عن الظلم الاجتماعي الذي أحاق بعامة الشعب ، ومحاولة لكسر الطوق الذي فرضه السادة على من هم دونهم من المحرومين .

ولم تخل هذه الثورات من مفكرين دينيين ودنيويين وضعوا لهذه الثورات فلسفاتها وأسسها العقائدية المبنية على أسس من الدين والفلسفة . ان النشاط الفكري والثقافي والديني الكبير الذي عاشه المجتمع العربي في العصر

العباسي بمختلف أدواره كان تعبيرا ثورياً عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي البائس لجماهير الشعب التي صنعت بعرقها ودمها ذلك الواقع الاقتصادي الرفيع والذي لم ينلها منه الا فتات لا يسد الرمق .

* * *

وبعد ، فلنتوقف قليلا عند ثورة الزنج ، هذه الثورة التي تمثل بحق مظهرا بارزا من مظاهر الصراع الطبقي في المجتمع العباسي ، ولنبدأ بأن نقرر بأن المجتمع العباسي ، كمجتمع اقطاعي ، احتفظ بنظام العبيد واعتمد عليهم كما أشرنا سابقا في الاعمال الزراعية الشاقة ، وكانت منطقة زنجبار (ومنهـا كلمة زنج) هي الممول الرئيسي للخلافة العباسية بالعبيد . وقد دخل بعض هؤلاء العبيد في خدمة الخلفاء والسادة ، كما انصرف بعضهم للعمل الزراعي حيث كان يشتريهم كبار الملاك ويستغلونهم في كسح السباخ وردم المستنقعات بشروط معاشية لايحتملها بشر . فقد كانوا يحشرون في مخيمات يبلغ عدد أفراد كل منها بين ٥٠٠ — ٥٠٠٠ شخص ، ويجبرون على العمل في ظروف بالغـة السوء . وكانوا يقيمون في أكواخ حقيرة صنعت من القصب أو أوراق النخيل ولا يتوفر لهم فيها أي شرط من شروط الحياة البشرية .

في ظل هذه الظروف المادية القاسية ، وفي ظروف العمل التي لاتطاق ، وبسبب من الوضع الاجتماعي المهين الذي أقسروا على العيش في ظلاله ، تفجرت ثورتهم سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م واستمرت اربعة عشر عاما عرضوا فيها الدولة ومؤسساتها الحاكمة والعسكرية الى اشد انواع الاضطراب والجزع ، وغدوا شوكة في جنب الحكم تقض مضجعه وتحرمه لذيذ الرقاد .

وقد راس ثورتهم شخص يدعى علي بن محمد تتضارب الروايات حول نشأته الاولى واعماله . ويبدو انه قبل ان يتصل بالزنج وينظم حركتهم ، قـام ببعض النشاط في هجر والبحرين والحسا وتراس بعض ثورات القبائل البدوية الضاربة هناك . ومن ثم اتصل بالزنج وسار على راس حركتهم ونظمها عقائدياً وعسكرياً حتى غدا عدد رجاله بعد سنة واحدة من قيامه ١٥٠٠٠ من العبيد يتجمعون في منطقـة البصرة . وكانت مبادؤه خليطاً مـن العقائـد الشيعية والخارجية على مذهب الازارقة المتشددين . ويبدو أن تشيعه مشكوك فيه ، وان عقيدة الخوارج أوضح في فلسفته الفكرية . وقد استطاع خلال سنوات ثورته هذه ان يسيطر على الزنج سيطرة فكرية وعقائدية وان ينتقل بحركته من نصر الى نصر وأن يكسر الجيوش المختلفة التي وجهتها الدولة ضده .

وقد اثار عمله الذعر بين سادة هؤلاء العبيد . ويقال إن وفدا من هؤلاء السادة جاءه وعرض عليه أن يدفع له عن كل عبد خمسة دنانير اذا سلمه اليهم ، فما كان منه الا أن أمر العبيد فبطحوا سادتهم ، وضرب كل عبد سيده خمسمائة سوط ، ثم أطلقهم بعدها .

وقد انتشرت جيوش صاحب الزنج هذا ، أو الدعي كما كان يدعى ، في العراق والبحرين وخوزستان ، ونهبت الاموال وقتلت الناس ، وظل الحال كذلك حتى سنة ٢٦٩ هـ حين استطاع الموفق ، أخو الخليفة المعتمد ، أن يقضي على الزنج وحركتهم .

ويبدو أن مقتل الزنج وثورتهم قد جاء من تنكرهم لمبادئهم ، فبعد فترة وجيزة من بدء الثورة ، وحين أخذت هذه الثورة تحرز الانتصارات وتستولى على البلاد والعباد ، تنكرت للمبادىء التي طرحتها وأخذت تستعمل أساليب السادة الذين وجهت الثورة ضدهم . أخذ الزنج يستعبدون الناس ، وهم العبيد الثائرون على العبودية ، وأخذوا يبيعون الحرائر ، وبعضهن هاشميات وقرشيات ، كاماء في أسواق النخاسة حتى إن المسعودي يذكر أن بعض الزنج غدا يملك ٢٠ أو ٣٠ حرة لخدمته وملذاته ، وكان يبيع ما يفيض عنه منهن بدرهمين أو ثلاثة للواحدة . هذا ، فضلا عن أن قادتهم غدوا من كبار ملاك الارض ، وأخذوا يبتاعون العبيد للعمل في اراضيهم ،وأساؤوامعاملة الفلاحين ، فانقلبت الحال وانقلب الميزان العسكري لغير صالحهم ،.وتمكنت الدولة من القضاء عليهم .

ومهما يكن من أمر فقد كان من أبرز النتائج التي ترتبت على ثورة الزنج . انتهاء نظام العبودية في الدولة العباسية وذهابه الى غيرما رجعة في ميدان العمل الزراعي ، وان ظلت بعض بقاياه قائمة في ميدان الانتاج الحرفي ، ومع مرور الايام أخذت تجارة العبيد تتضاءل ، وغدا العبيد يشترون فقط للعمل كخدم في المنازل .



وبعد ، فهذه دراسة سريعة لبعض من ملامح الصراع الطبقي خلال مرحلة من مراحل التاريخ العربي ، لا ادعي انني أوفيتها حقها ، ولعلها بداية أرجو أن يتاح لي ان اكملها .

البصـــرة

أول قاعدة بحرية للتوسع العثماني في الخليج العربي ١٥٤٦ ـ ١٨٦٩

د. مصطفى عبد القادر النجار
مدير مركز دراسات الخليج العربي ـ جامعة البصرة

شهد العراق في العهد العثماني صلات كبيرة ربطت ما بينه وبين اقطار الخليج العربي الاخرى ، وكانت هذه الصلات تتفاوت مدا وجزرا وتختلف من وقت لاخر . وقد اتخذ العثمانيون من البصرة نقطة انطلاق لهم(١) نحو التقدم في ميـاه الخليج العربي لضم أقطاره الواحدة تلو الاخرى الى امبراطوريتهم الشاسعة . وكانوا بهـذا يصارعون الزحف الاوربي من جهـة والامبراطورية الفارسية من جهة أخرى .

ويمكن ان نميز مرحلتين لمحاولات التوسع العثماني في الخليج العربي .الاولى كانت محاولات عامة لم يستطع العثمانيون تثبيت أقدامهم أو احداث أي تغيير يذكر في المنطقة (٢) . والثانية كانت محاولات موفقة استطاعوا أن ينفذوا خلالها الى عدد كبير من أقطار الخليج العربي ويدخلوا اليها تنظيماتهم ويجعلوها تحت الادارة المباشرة .

وقد كان الفصل الاول من تلك المحاولات بطيئا وضعيفا ذلك لان العثمانيين عجزوا عن تثبيت نفوذهم في البصرة نفسها وما حولها . فبقي آل عليان حكام المدينة ـ قرب القرنة ـ في حالة تمرد مستمر ، وقد فشل الاسطول العثماني سنة ١٥٥٤ من احتلال حصونهم . ولاقى العثمانيون فشلا مماثلا في الحويزة . وبقيت عشائر المنتفك مصدر ازعاج مستمر للولاة (٣) .

اما الحالة في البصرة نفسها فهي لا تختلف عما كان يجري حولها فمرة كانت تتعرض لغزو الفرس واخرى تنفصل عن بغداد على يد افراسياب والمماليك

والمنتفك . وكان مـن العسير على ولاة بغداد ان ينقذوها مـن متاعبها . وان الاسطول الذي انشأوه فيها كان ضعيفاً ومهملا ومفككا . لذا فانه لم يوفق في احراز اي نصر يذكر .

وفشلت جميع المحاولات التي بذلت للسيطرة على بعض اجزاء الخليج العربي . ذلك انها جوبهت بمقاومة اجنبية : برتغالية وهولندية وانكليزية من جهة ومقاومة فارسية على ضفة شط العرب اليسري من جهة ثانية وبمقاومة العصبيات المحلية من جهة ثالثة(٣) . وكانت القوات البحرية العثمانية في كل هذا بعيدة عن مراكز تموينها في البحر المتوسط — قبل فتح قناة السويس — ومع هذا فان العثمانيين بذلوا مساعي كبيرة مـن اجل جعل البصـرة قاعدة لعملياتهم البحرية في الخليج العربي ضد البرتغاليين (٤) . واولى تلك المحاولات كانت سنة ١٥٥٢ اذ جعلها (بيري بك رئيس) نقطة تجمع لاسطوله(٥) بعد فشله في اخذ هرمز ، وقد ابقى قسما مـن اسطوله في البصرة وعاد الى السويس بالقسم الباقي(٦) .

وتكررت المحاولة سنة ١٥٥٤ اذ قاد حاكم القطيف (مراد بك رئيس) اسطول البصرة متوغلا في الخليج العربي . ولكنه عاد من حيث انطلق بعد فترة قصيرة .

على ان ما أصاب الاسطول العثماني بعدئذ على يد (سيدي علي رئيس) سنة ١٥٥٤ كان ضربة قوية وجهت الى الاسطول العثماني في البصرة جعلته لا يستطيع ان يفيق منها فترة طويلة . فقد بدأ قائد الاسطول مغامرته قاصدا القطيف ، وليتتبع خطوات الاسطول البرتغالي الذي فاجأه عندما اتجه جنوبا مجتازا هرمز . وكانت خسارة كبيرة لا تعوض للعثمانيين عندما اضطر (سيدي علي) الى بيع قطعات اسطوله التي نجا بها بعد ان قذفته الامواج الى الساحل الهندي (٧) .

وقد فشل العثمانيون في اخراج البرتغاليين من الخليج العربي ولكن عندما ضعف هؤلاء — عند انضمام بلادهم الى اسبانيا سنة ١٥٨٠ — كان العثمانيون بدورهم قد وهنوا وبرزت قوتان جديدتان هما هولندا وبريطانيا . ولم يلاحظ على العثمانيين انهم قاموا باي نشاط يذكر في الخليج العربي باستثناء محاولتهم الفاشلة في احتلال البحرين سنة ١٥٥٩ (٨) .

وكانت حصيلة العثمانيين في هذا المرحلة ــ الاولى ــ هو احتلالهم ــ بمساعدة قبائل المنتفك ــ مقاطعة الاحساء . الا أن هذا الاحتلال لم يتم عن طريق البحر وانما حققه جيش من المشاة عن طريق البر وذلك سنة ١٥٩٢ بقيادة فتحي باشا ، واستطاع أن يقضي على ادارة سلالة أجود ويحول امارتهم الى التبعة العمثانية .

وعندما انفرد آل افراسياب بالسلطة في البصرة كانت الاحساء من مناطق نفوذ العثمانيين . وقد استمرت في تبعيتها الاسمية لهم . ويذكر لونكرك انهم « ما كانوا يجبون الضرائب من أهلها ولم يسندوا نفوذ الباشوات فيها بأية قوة مادية أو عسكرية » (٩) .

وحتى هذه التبعية الاسمية ما كانت تخلو من تأرجح . فقد حدث ان ايد والى الاحساء محمد باشا (١٠) ثوار البصرة ضد اميرها حسين افراسياب (١١) (١٦٤٧ ــ ١٦٦٧) . الامر الذي دفع افراسياب لاعداد الخطط لمعاقبة والى الاحساء . فاستمال اليه عشائرها وفي مقدمتها بني خالد (١٢) بزعامة براك بن عريعر الخالدي ، الذي كان يطمع في الحكم وقد نجح افراسياب بوساطة جيشه الذي ارسله سنة ١٦٦٤ بقيادة احد امرائه ــ سلمان ــ وبمساعدة بني خالد من الاستيلاء على الوضع . ولكن براك تنكر للحلف بعد النصر . واخر جند البصرة واستقل بالاحساء . الا انه اجبر على الفرار بعد ان وصل اليه جيش افراسياب بقيادة يحيى باشا .

والملاحظ ان حكم آل افراسياب في الخليج العربي لم يترك أي اثر يذكر وهو في حقيقته تحالف مع قوى القبائل في الاحساء اكثر منه حكما اداريا . وقد كان ممثل افراسياب خلاله خاضعا بشكل او آخر لما تفرضه عليه القيم القبلية وسلطات الشيوخ المحليين من تبعات . ورغم ذلك لم يدم حكم آل افراسياب طويلا في الاحساء . وقد حدث ان لجأ محمد باشا ــ الوالي السابق للاحساء ــ الى شريف مكة ومنه الى بغداد ، حث أخـذ من هناك يستنجد بالسلطان . فصدرت الاوامر الى الجيش العثماني بالقضاء على حكم آل افراسياب فتم ذلك سنة ١٦٦٧ (١٣) .

ولكن رغم عودة الحكم العثماني المباشر للبصرة الا أن الاحساء بقيت بمنأى عن آثاره . والذي حدث ان اسند منصب الولاية في البصرة الى عمر باشا والي

الاحساء ، فاضطر خليفته عيسى باشا ـ بعد ان عجز في تثبيت حكمه ـ الى براك زعيم بني خالد . فانتقل بذلك الحكم الى أمرائها المحليين .

ويعد براك أول من أسس حكم بني خالد في الاحساء بعد طرد العثمانيين منها سنة ١٦٧٠ ، وبذلك وضع نهاية لاول احتلال قام به العثمانيون لتلك البلاد (١٤) .

ويبدو لنا أن الحكم المحلي لآل افراسياب في البصرة ساهم في مد فترة الحكم العثماني في الاحساء ـ مهما كانت سماته ـ مدة اطول ، في وقت لم يستطع فيه العثمانيون ان يحافظوا عليه ـ في الاقل ـ بعد عودة حكمهم المباشر الى البصرة . وهذا راجع في تقديرنا الى ان حكم آل افراسياب كان اكثر تفهما من العثمانيين لطبيعه الحياة في جهات الخليج العربي ، اضافة الى امتلاك آل افراسياب قوة محلية ـ لابأس بها ـ قريبة من تلك الممتلكات استطاعوا بوساطتها ان يهددوا الحركات المناوئة لهم .

وقد أمتد نفوذ بني خالد من الاحساء الى منطقة نفوذ العثمانيين في العراق (١٥) وكانت الكويت مقر حكمهم الصيفي . والملاحظ أنهم استطاعوا المحافظة على علاقات طيبة ـ رغم انفرادهم بحكم الاحساء ـ بولاة البصرة وعدوا أنفسهم حلفاء للعثمانيين .

والثابت أن أمراء الخليج العربي بشكل عام كانوا يكنون عطفا كبيرا للخليفة العثماني للرابطة الدينية والمذهبية التي تربط بينهم . كما ان لهم من المصالح الاقتصادية والسياسية ما يجعلهم على صلة وثيقة بالعراق . وربما حاولوا ان يستفيدوا من قوة العثمانيين النامية في الخليج العربي . ومن هنا جاء اندفاع شيوخ الكويت لان يطلبوا الولاء سنة ١٧١٨ تقريبا من الوالي العثماني في البصرة (١٦) وبذلك قررت الدولة العثمانية سيادة اسمية على الكويت ـ لم تكن لها اهمية تذكر ـ دون أي تدخل من جانبها في الشؤون المحلية . ويذكر لوريمر أن الكويت كان ينظر لها في ذلك الوقت أنها تابعة للبصرة (١٧) وقد كان رخاؤها يسير في اتجاه معاكس مع البصرة . حيث انها افادت فائدة كبرى من احتلال الفرس للبصرة بعد ان تحولت تجارة الهند اليها في الفترة ما بين سنة ١٦٧٥ ـ سنة ١٧٧٩ (١٨) .. كما ان الوكالة البريطانية في البصرة قد تحولت اليها مؤقتا للمرة الثانية في الفترة ما بين سنة ١٧٩٣ ـ ١٧٩٥ (١٩) .

وتحدثنا وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية عن قيام اول ازمة سياسية بين العراق والكويت حينما قرر متسلم البصرة مصطفى اغا ان يحكم البصرة حكما مستقلا عن بغداد . وقد ايده في فكرته الشيخ ثويني بن عبد الله امير المنتفك وانضم اليه . الا ان قوات باشا بغداد اجبرت الإنفصاليين للإلتجاء الى الكويت (٢٠) . وعندئــذ دارت مراسلات مطولة بين بغداد والكويت لتسليم اللاجئين . لعب فيها صموئيل مانيستي المقيم البريطاني في البصرة دورا كبيرا في تهدئة الامور حيث كتب الى شيخ الكويت عبد الله الصباح (١٧٧٦-١٨١٤)(٢١) رسالة يشرح فيهـا الموقف اثر مقابلة اجراها مع سليمان باشا جاء فيهـا « لقد قمت مؤخرا بزيارة باشا بغداد في معسكره ... فقال ان علاقة قديمة ربطت وما تزال تربط اهل الكويت بأهل البصرة . الا انه عبر عن دهشة وغضب عظيمين تجاه سلوككم في منح الحماية لاناس كانوا ثائرين عليه وفروا ليتجنبوا العقاب الذي يحتمه ذنبهم . وحذر مالم تسلموهم اليه أو تأمروهم بمغادرة بلدة الكويت فانه سيعتبركم عدوا له . ويرسل اليكم حملة عسكرية – مدعمة بقوات بحرية طلبها من بومباي – يقودها بنفسه الى القرين (٢٢) ... » (٢٣) وقد اجاب شيخ الكويت المقيم البريطاني على رسالته بقوله « .. ان بلدة القرين ملك للباشا وان سكانها خدم له . ولكنكم تعرفون حق المعرفة ان عادتنا تلزمنا حماية اي انسان يستجير بنا ومن العار التخلي عنه او تسليمه الى اعدائه.. واني اعتمد على صداقتكم في ايضاح الامر على حقيقته للباشا ... » (٢٤) . واستطاع المقيم ان يقنع الباشا بالعدول عن ارسال الحملة التي كان يزمع القيام بها ولا سيما ان من كان يطلبهم قد تركوا الكويت الى نجد بنصيحة من شيخ الكويت .

اما الاحساء فكان ولاؤها شبيها بموقف الكويت ونلاحظ ان امرائها من بني خالد سارعوا الى تقديم معونتهم الى متسلم البصرة سليمان اغا سنة ١٧٧٥ للدفاع عن البصرة عندما تعرضت لحصارها الكبير على يد الفرس .

كما ان احمد بن سعيد امام عمان (١٧٤٤ – ١٧٨٣) ارسل اسطوله للبصرة ليساهم في الدفاع عن ذلك الثغر (٢٥) . وتمكن من السيطرة على شط العرب طوال الصيف فأمن وصول ما تحتاجه المدينة . وقد كافأته السلطات العثمانية مكافأة سنوية رصدت له من خزينة البصرة لتعاونه الصادق مع العثمانيين(٢٦)

ومن الجدير بالذكر ان معظم تجارة عمان في ذلك الوقت كانت مع العراق (واسطول اليمن) الذي يرسله الامام كل سنة كان من الاحداث التجارية المهمة في البصرة (٢٧) .

وبصورة عامة فقد حافظت منطقة الخليج العربي على ولائها للعثمانيين وكانت أنظارها متجهة دائما اليهم . الا ان العثمانيين لم يقدموا لها شيئا . ولم يحاولوا ان يملأوا الفراغ الذي كانت تشكو منه . الامر الذي فسح المجال للوهابيين ــ في اواخر القرن الثامن عشر ــ في ان يحلوا في تلك الربوع . فاجتاحت جيوشهم الاحساء فاستولوا عليها واخرجوا بني خالد منها .

وقد التجأ بنو خالد الى البصرة ليطالبوا مماليك العراق بنجدتهم . فكان رد الفعل العثماني خروج حملتين كبيرتين ضد الوهابيين الاولى سنة ١٧٩٧ ابحر فيها ثويني (٢٨) ــ شيخ المنتفك السابق ــ الى الاحساء . وكان قد توقف في الجهرة يجمع مستلزمات الحرب . ويذكر لونكرك ان ابنطوله كان يشتمل على « ناس من عرب عقيل بغداد وما يزيد على كتيبة واحدة من الجنود الاجيرة اذ ذاك ، ثم تقاطرت الارتال من الكويت والبحرين والزبير » (٢٩) اما بروكلمان فيذكر انه كان يتألف من سبعة آلاف جندي تركي وضعف هذا العدد من العرب (٣٠) . ولكن كل هذه الاستعدادات فشلت بسبب اغتيال قائد الحملة قبل الاشتباك بأية معركة ، مما جعل الحملة تتقهقر للوراء وتعود الى البصرة أمام ملاحقة القوات السعودية لها التي غنمت من الحملة العراقية الشيء الكثير (٣١) .

وقد ابحرت في اواخر السنة التالية حملة اخرى بقيادة متسلم البصرة الكخيا (٣٢) علي باشا . وكانت تشتمل « على خمسة آلاف انكشاري وعدد من الجنود الاجيرة غير النظامية ومدفعية وافرة ، ولكن غير مؤثرة . وقطعات من قبائل عقيل والعبيد وشمر وغيرهم . ورافق الكهية (الكخيا) محمد بك الشاوي مشاورا في شؤون البادية . فوصلت هذه الجيوش الى البصرة في اليوم الثاني من شهر كانون الاول سنة ١٧٩٨ ، وهناك اضيف الى الجيش قطعات من قبائل الضفير والمنتفك وبني خالد وبذا بلغ عدد القوات العشائرية ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل . » (٣٣) . وسارت الحملة نحو الجهرة (٣٤) وقد سلكت طريقين بريا وبحريا في تقدمها نحو الاحساء . وقدم لها شيخ الكويت عبد الله الصباح معونات بحرية ساعدتها كثيرا . ورغم ان الحملة حققت بعض النجاح الا انها فشلت في حصارها لحامية الاحساء في المبرز والهفوف (٣٥) . وقد كلفها الحصار ثمنا غاليا زهقت فيه ارواح كثيرة نتيجة الاوبئة وصعوبة المناخ وصمود المحاصرين الامر الذي دعا الكخيا الى ان يتخذ قرارا بالعودة دون ان يحرز اي نصر (٣٦) . وفي سبيل عدم استفادة الوهابيين في مؤونته وعتاده قام باتلافها (٣٧) .

وفي هذه الاثناء وصلت قوات الامير سعود بن عبد العزيز . ولما كانت قوات الطرفين في وضع لا تحسد عليه ، قبل الكخيا المفاوضة مع القوات القادمة .

وقد دارت المفاوضات حول تبعية الاحساء ، ووجوب استرداد المدافع التي استولى عليها الوهابيون في اعقاب حملة ثويني . والمطالبة ببعض التعويضات عما لحق الحملة من أضرار وعدم التعرض للحجاج العراقيين في اثناء مرورهم بالاراضي السعودية .

اما مدى استجابة الوهابيين لمطالب الكخيا فقد حددها جواب الامير سعود في رسالته الى المفاوض العثماني جاء فيها .

« أما الاحساء فهي قرية خارجة عن حكم الروم (العثمانيين) ولا تساوي التعب ، وما فيها (ليس فيها) شيء يوجب الشقاق . واما الاطواب (المدافع) فهي عند والدي في الدرعية . اذا صدرت (توجهت) اليه أعرض الحال بين يديه . والوزير سليمان باشا ايضا يكتب له . فان صحت المصالحة وارتفع الشقاق من الطرفين فهي لكم وأنا الكفيل بها ان أجيبها (أوصلها) الى البصرة . واما مصاريفكم فاني لا املك من الامر شيئا والشور (الامر) في يد والدي . والذي يقرره يصل اليكم . واما الامنية (الامان) فهي التي لا زلنا نقاتل الناس عليها حتى جعلنا الارض كلها لله وجميع المسلمين مشتركين فيها » (٣٨) ولم ير متسلم البصرة بدأ من الاقتناع بما ورد بالرسالة ورجع الى البصرة مرغما على الصلح (٣٩) ومعه ممثل ابن سعود ليوقع وثيقة الصلح في بغداد . حيث تم عقد هدنة امدها ست سنوات (٤٠) . ويذكر ديكسون ان الامير عبد العزيز وجد « من الحكمة ان يصالح بغداد فارسل هدايا ثمينة وقطيعاً من الخيول الاصيلة كعربون لاسترضاء الوالي سليمان باشا » (٤١) .

ولكن قوة الوهابيين المتزايدة لم يقتصر تهديدها ـ في الفترة التالية ـ على مناطق نفوذ العثمانيين في الخليج العربي فحسب وانما تعدتها الى العراق نفسه . فأقضت بذلك مضاجع حكام بغداد الذين صاروا لا يعرفون سبيلا لدرء خطر الوهابيين . اذ استطاع هؤلاء ان ينقلوا ساحات القتال الى الاراضي العراقية . وشنوا هجمات عنيفة على المدن العراقية . وكان ما اصاب البصرة منها هجمات ثلاث ؛ الاولى كانت سنة ١٨٠٣ عندما حاصرت جيوش الامير سعود الزبير (٤٢) وهدمت قبابه ومساجده واحدثت في أهله القتل والنهب ،

وازالت جميع القبور خارج سور المدينة كمشهد طلحة والحسن البصري (٤٣) واتجهت بعدئذ الى مدينة البصرة فضربت عليهـا حصارا استمر اثنى عشر يوما (٤٤) . والثانية سنة ١٨٠٥ تكبدت المدينة من جرائها خسائر كبـيرة في الارواح والاموال . اما الثالثة فكانت سنة ١٨٠٨ ولم تقـل فيهـا الخسائر عن سابقتيها (٤٥) . وكانت البصرة في كل هذا عاجزة عن درء تلك الاخطار .

وقد اشتدت في تلك الفترة مطالبة سلطان مسقط لولاة بغداد بأن يتدخلوا في مقاومة الزحف الوهابي في منطقة الخليج العربي . وهدد السلطان بالانضمام للوهابيين اذا لم يتحرك « الباشا » لتلافي الامر . ولكن لم يثمر طلبه ، وكل ما وجده مكافأة لا حلفا (٤٦) .

واذا تأملنا اسباب عدم تحمس مماليك العراق في هذا الوقت للتحالف مع عمان وجدناه يرجع الى عجزهم الظاهر عن الدفاع الخارجي . وكانت قـد اذهلتهم اعتداءات الوهابيين وصـاروا في خوف مستمر من هجماتهم وهم في عقر دارهم . زد على ذلك انهم لا يملكون من القوة البحرية ما يؤهلهم لمقاومة الزحف الوهابي . فمما يذكره لنا الرحالة البريطاني جيمس بكنغهام ــ الذي زار العراق سنة ١٨١٦ ــ ان الاسطول العثماني في عهد سليمان باشا لم تكن تتعدى سفنه المسلحة تسليحا جيدا العشرين سفينة . وقد تقلصت بعده الى ست او خمس سفن ، لا توجد واحدة منها صالحة للملاحة في البحار . ويستطرد قائلا . « لم تجر أية محاولة لارسالها الى الخليج العربي فهي تجوب شط العرب بزعم تطهيره من المهربين . وبينما تقف واحدة منها عند مدخل نهر البصرة لحراسة دائرة الكمرك » (٤٧) .

هذا في وقت كانت سفن مسقط نفسها تساعد باشا بغـداد على حفظ مصالحه في الخليج العربي . وقد كوفيء على ذلك بأن فسح المجال له لارسـال ثلاث سفن الى البصرة سنويا تفرغ حمولتها من السلع معفاة من الرسوم (٤٨) . كما ان المماليك سبق ان جربوا حظهم في حملتين كبيرتين على الاحساء لم تأت اية منها بنتيجة . فلم يروا ــ بعد كل هذا ــ مبررا للوقوع في مزيد من الاخفاق وهم الذين لم يستطيعوا ان يدرأوا خطر الوهابيين عن المدن العراقية نفسها(٤٩) .

ومن هنا يتضح لنا ان النفوذ العثماني في الخليج العربي لم يستطع ــ في هذه الفترة ــ ان يحافظ على وجوده . فقد انتابته هزات متوالية كادت تطبق

عليه . وكانت السيادة في الاقطار التي امتد اليها المد العثماني اسمية . وقد لاحظنا ان البصرة اصبحت عاجزة عن أن تقوم بمهمتها الحقيقية . لهذا فقد تركزت الامور بيد والي بغداد . وقد لعبت العصبيات القبلية دوراً في حياتها . ولم تقتصر على القبائل التي تحيطها وانما تعدتها الى سلطنة عمان التي بدأت تتخذ مواقف مناوئة للعثمانيين . فلما تعرضت البصرة لحركات المنتفك سنة ١٨٢٦ بسبب عزل داود باشا للشيخ حمود الثامر من زعامة المنتفك واسنادها الى عجمي السعدون ، كان سلطان عمان من المؤيدين لحمود الثامر شيخ المنتفك المعزول . وعندما طلبت المنتفك النجدة لبت عمان النداء . وكان باشا بغداد قد رفض طلب السلطان بالمتأخر من الجزية السنوية التي تدفعها الحكومة العثمانية له ــ مقدارها ١٠١ الف روبية ــ فحاصرت قطعات الاسطول العماني البصرة ولم تتراجع الا بعد ان استطاع متسلم البصرة ان يقنع قائدها بالانسحاب من المعركة وقد استجاب لاهم مطالبه (٥٠) . ولقد اصبحت عمان خطرا يهدد البصرة دائما وتعاونت مع الانكليز ضد داود باشا . الا ان هـذه القوة اخذت تتلاشى ــ في الفترة التالية ــ فتفككت قوتها وضعف بالتالي امر تهديدها للبصرة .

اما الكويت وهي اقرب الامارات الى ولاية البصرة فلم يستطع العثمانيون ان يثبتوا السيادة عليها . وظلت تتأرجح بين الولاء والانفصال لكنها في كل هذا كانت على صلات طيبة مع الولاة العثمانيين . فقدمت لهم المساعدات ــ في مناسبات عديدة ــ عندما اعوزتهم الظروف اليها . وكان ابرز تلك المساعدات ما قدمه الشيخ جابـر الاول ــ الحاكم الثالث ــ (١٨١٤ ــ ١٨٥٩) لمتسلم البصرة عزيز آغا في حربه مع كعب سنة ١٨٢٧ ، حيث جعل اسطوله البحري في خدمة المتسلم ، مما غير مجرى الحرب وحقق نصرا حاسما (٥١) .

ولم يحاول مماليك العراق الاستفادة من موقف شيوخ آل الصباح منهم . وظلوا لا يقدرون الظروف الذي تمر بها المنطقة واتجاه الانكليز للنفاذ اليها . ورغم ذلك فقد جاءت المبادرة من آل الصباح عندما احسوا بأن ضغطا يقع عليهم من الانكليز للتحكم في شؤون امارتهم الناشئة ، من مظاهره طلب الانكليز منهم رفع العلم البريطاني ، وقطع الصلات مع العثمانيين ، والحصول على بعض الامتيازات الخاصة . فقد لجأ جابر الصباح سنة ١٨٢٩ الى الاعتراف بالسيادة العثمانية ورفع العلم العثماني على قصره . وصار يدفع جزية سنوية تقدر بأربعين « كيسا من الرز » واربعمائة « سباطة من التمر » يتلقى مقابلها خلعة سنوية تكريما له ، ويجد تسهيلات كاملة لتجارته في شط العرب (٥٢) .

وقد استمرت صلة الشيخ جابر وثيقة بالولاة العثمانيين ـ حتى بعد انحسار حكم المماليك عن العراق ـ فساهم معهم سنة ١٨٣٦ بالقضاء على خروج أهل الزبير عن السلطة العثمانية . كما اشترك سنة ١٨٣٧ مع علي رضا باشا اللاز في احتلاله للمحمرة واستجاب سنة ١٨٤٥ لطلب الدولة العثمانية في حماية ميناء البصرة . وكانت حصيلة الشيخ جابر من تلك المساعدات ان كافأته الدولة العثمانية بفرمان وعلم اخضر وبمائة وخمسين كارة من التمر سنويا ظلت تجري على خلفائه من بعده (٥٣) حتى سنة ١٨٩٦ حين توترت العلاقة بين الدولة العثمانية والامارة في أول عهد الشيخ مبارك الصباح .

هذا اضافة الى ما جناه الشيخ جابر من اقطاعيات في البصرة منحت له من بعض الملاك الذين ادى لهم جميلا . فقد اهدى له راشد السعدون بساتين نخيل الفاو، اعترافا منه بمساعدته له عندما قصد الكويت فوجد اكراما واحتراما(٥٤). كما اهداه سليمان الزهير نخيل الصوفية مكافأة له عندما استجار به فرارا من آل الثاقب الذين ورثوا كرسي الحكم في الزبير (٥٥) . وبقيت هذه الممتلكات له ولابنائه من بعده .

ويبدو ان الصلات بين الشيخ جابر والدولة العثمانية قد تعدت مراحل الشك والريبة التي كانت في عهد سلفيه . وبلغت من الثقة والاطمئنان ما جعله يعلن سنة ١٨٤٧ انه ينوي في ظروف خاصة ان « يضع نفسه تحت حماية الباب العالي » .

وفي عهد خليفته الشيخ صباح (١٨٥٩ ــ ١٨٦٦) كانت الكويت متجهة بخطى سريعة نحو الدولة العثمانية وقد اكد الشيخ للمقيم السياسي البريطاني ان حكام الكويت كانوا دائما يدفعون الجزية للدولة العثمانية (٥٦) .

ولكن رغم هذا فاننا نلاحظ ان الكويت توقفت عن رفع العلم العثماني على سفنها الا ان هذا الاجراء لم يكن بدافع عدم الولاء للعثمانيين . وانما هو اجراء اقتضته ظروف الكويت الاقتصادية بعد ان وجدت السفن الكويتية نفسها تلقي معاملة غير طيبة في بومباي الامر الذي دفعها الى ان تغير اعلامها باعلام اجنبية .

ويبدو ان الازدهار الاقتصادي النسبي الذي جنته الكويت من تجارتها قد جعلها راغبة في ان تؤكد شخصيتها وتحاول ان لا تجعل من علاقتها الوطيدة مع الدولة العثمانية سببا يدعو الى اعاقة نموها الاقتصادي . فعندما عزم

نامق باشا والى بغداد سنة ١٨٦٦ ان يحول سيطرة الباب العالي على الكويت الى سيطرة فعلية ، وقد عقد العزم على اسناد منصب القائمقامية الى حاكمها ، واتخذ الترتيبات اللازمة لانشاء كمرك فيها تمهيدا لتطبيق نظم الادارة العثمانية، لقيت هذه السياسية معارضة من جانب آل الصباح . الامر الذي استدعى من نامق باشا طلب سفينتين مسلحتين من القسطنطينية للوقوف بوجه هذه المعارضة. وقد كانت الدوافع الخفية لموقف آل الصباح هذا ـ بلا شك ـ هو خشيتهم من ان تصاب تجارتهم بالوهن لحساب تجارة البصرة لو قبلوا تلك الاجراءات اضافة الى تخوفهم من ان الادارة العثمانية المباشرة سوف تفقدهم حرية الحركة التي اعتادوها . هذا الى جانب تشجيع البريطانيين لشيخ الكويت في وجوب عدم توثيق العلاقة مع العثمانيين . وقد أفصح عن ذلك المقيم البريطاني كامبل الذي اعتبر اجراءات نامق باشا من شأنها ان تجعل حرية الكويت المكتسبة منذ زمن بعيد أثرا من آثار الماضي (٥٧) وهكذا بقيت الكويت ميناء حرا للتجارة ترفع سفنها الاعلام الاجنبية . وحافظت على كيانها .

والثابت ان العثمانيين صاروا يوجهون اهتماما ملحوظا الى الخليج العربي بعد انسحاب القوات المصرية من شبه جزيرة العرب سنة ١٨٤٠ في محاولة لتلافي مافاتهم في الفترة السابقة . وحظيت الاحساء ـ التي هزموا فيها من قبل ـ بقسط كبير من ذلك الاهتمام ، وقد اسند السلطان حكمها الى علي رضا باشا اضافة الى ولايته على العراق ولكن الوالي الجديد لم يعمل على ادخال نظم الادارة العثمانية في هذه البلاد . وانما اتبع الاسلوب نفسه الذي يعامل به مشيخات الكويت والزبير وسوق الشيوخ . وكان في هذا خطر كبير على مستقبل هذه الجهات أرتكبه علي رضا وعدد كبير من ولاة العراق العثمانيين اذ تركوا هذه الجهات المطلة على الخليج العربي عرضة للضغوط البريطانية المختلفة الاشكال (٥٨) .

وعليه فان نفوذ العثمانيين في هذه الفترة لم يستطع ان ينفذ الى القسم الجنوبي من الخليج العربي مما أفسح المجال لبريطانيا لان تنمى قوتها فيه . وصارت تقف بوجه كل المحاولات العثمانية التي يشم منها رائحة التقدم نحو الجنوب . وبدأ ذلك واضحا عندما سعى العثمانيون الى ادخال البحرين في دائرة نفوذهم . وقد ارسلت سلطات البصرة وفدا عثمانيا سنة ١٨٥٨ مؤلفا من بعض شيوخ البصرة وبغداد لتقديم عروض كثيرة الى شيوخ البحرين الذين أظهروا استعدادا كبيرا لقبول التبعية العثمانية (٥٩) ونجح الوفد في اعلان تبعية البحرين للدولة العثمانية وابقاء ممثل لها في الامارة .

ووافق شيخها على رفع العلم العثماني (٦٠) . ولكن بريطانية أرغمت البعثة العثمانية وممثلها في البحرين الى الانسحاب دون تنفيذ أي شيء من الاتفاق بعد ان احتج بالمرستون لدى حكومة الاستانة التي تراجعت عن موقفها وأمرت الوفد بالانسحاب (٦١) .

وقد كان ذلك باعثا لبريطانية أن تسرع في عقد اتفاقية جديدة مع شيخ البحرين .

وبعد هذا التاريخ نلاحظ تجسم الصراع البريطاني ــ العثماني في الخليج العربي الذي استمر حتى قيام الحرب العالمية الاولى . وقد بدات علاماته تظهر في الافق منذ ان وجهت الحكومة العثمانية سنة ١٨٤٧ تعليماتها الى باشا بغداد بممارسة حق تفتيش السفن في الخليج العربي بقصد منع تجارة الرقيق حتى اذا كانت تلك السفن ترفع العلم العثماني . ولكن بريطانية اعترضت على ذلك الاجراء بسبب مخاوفها من امتداد السيطرة العثمانية على البحرين (٦٢) .

على أن بريطانية لم تكتف بذلك بل أخذت بيدها زمـام المبادرة لضرب مناطق النفوذ العثمانية ، فكان ضرب ميناء الدمام سنة ١٨٥٩ ، والاعتداء على السواحل النجدية سنة ١٨٦٦ عندما ادعى نامق باشا والي بغداد بأنها من ممتلكات الدولة العثمانية ، بينما كانت السلطات البريطانية ترى أن الامير السعودي لا يخضع للسيادة العثمانية ، وان بريطانية تتعامل معه مباشرة . وقد رفضت الحكومة البريطانية احتجاجين وجهتهما الدولة العثمانية الى حكومة الهند بصدد ذلك .

---

(١)خضعت البصرة للحكم العثماني المباشر سنة ١٥٤٦ . راجع
Longrigg, **Four Centuries of Modern Iraq,** P. 31.
(2) Wilson, **The Persian Gulf,** P.P. 124 - 125.

(٣) كانت قبيلة المنتفك وكعب من أبرز القبائل التي تتعرض البصرة لجهماتهما .

(٣) ــ مكرر ــ احمد عزت عبد الكريم ــ العلاقات بين الشرق العربي وأوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ص : ٢٢٧

(٤) ابو حاكمة ــ تاريخ شرقي الجزيرة العربية ــ نشأة وتطور الكويت والبحرين ص : ٥٩

(٥) بعد أن بادر الاسطول البرتغالي الى احراق حصن القطيف في الاحساء وهدمه سنة ١٥٥٠ وكان العثمانيون قد أخضعوه لهم بعد فترة من احتلالهم البصرة راجع :

ـ عبد الكريم محمود غرايبه ـ مقدمة تاريخ العرب الحديث : ص : ٢٤٩

(6) Sitripling, The Ottoman Turks and the Arabs, P. 94.

(7) Miles, Countries and Tribes of the Persian Gulf, Vol. 2 PP. 172-177.

(8) Wilson, op. cit, P. 126.

(9) Longrigg, op. cit., P. 38.

(١٠) لقد تعاقب على حكم الاقضاء من الولاة بعد فتحي باشا كل من علي باشا سنة ١٦٢٣ وابنه بكر باشا ثم يحيى باشا (حتى وفاته سنة ١٦٦٢) فمحمد باشا .

(١١) راجع عن تفاصيل احداث البصرة هذه المادة : Encycl. of Islam Al-Basra New. Ed. Vol. 1, Leiden - London, 1960, P. 1087.

(١٢) لزيادة الاطلاع على تفاصيل وافية عن بني خالد في هذه الفترة راجع :

ابو حاكمة ـ محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة ـ الفصل الخامس .

(١٣) العزاوي ـ العراق بين احتلالين ج٥ ص ٧ـ ٧٦

(١٤) ابو حاكمة ـ تاريخ شرقي الجزيرة العربية ـ نشأة وتطور الكويت والبحرين ص ٦٠ـ٦١

(١٥) امتدت سلطتهم حتى مشارف البصرة .

(١٦) ديكسون ـ الكويت وجاراتها ـ ترجمة جاسم مبارك الجاسم . ج١ ص ٩ . ويبدو أن الذي طلبها هو صباح الاول أول امراء الكويت .

(١٧) لوريمر ـ دليل الخليج ـ القسم التاريخي ج٣ ص ١٥٠٥

(18) Wilson, P. 184.

(١٩) يمكن تتبع تفاصيل وافية عن الوكالة في : أبو حاكمة ـ تاريخ الكويت ج١ القسم الاول ص : ٢٢٧ ـ ٢٤٣

(٢٠) ابو حاكمة ـ الكويت في سجلات شركة الهند الشرقية ـ مجلة العربي العدد ٣٠ أيار ١٩٦١ ص ٥٥ . راجع أيضا : ابن غملاس ولاة البصرة ومتسلموها ص ٧٠

(٢١) هناك من يرى أن بدء حكمه كان حوالي سنة ١٧٦٢ .

(٢٢) عرفت الكويت باسم القرين نسبة الى الساحل الذي تقطع عليه حيث ينحني في إتجاه دائري مكونا ما يشبه القرن .

(23) Factory Records. Persia and Persian Gulf, Vol. 18 - serial No 1532. Letter Dated 17th April 1789

(24) Ibid. letter dated 30th April 1789.

(٢٥) كان العثمانيون قد رفضوا تأييد هجوم كريم خان على مسقط فترك ذلك اثرا طيبا في نفس امام عمان أظهره للعثمانيين عند الهجوم الفارسي على البصرة .

راجع تفصيل تلك الاحداث في الدراسة التي اعدها : جمال زكريا قاسم ـ دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ١٧٤١ ـ ١٨٦١ (القاهرة ـ ١٩٦٨) .

(٢٦) لقد كانت هذه المكافأة سببا في اثارة ازمات كبيرة بين امام عمان والولاة العثمانيين في البصرة . وقد حدث في سنة ١٧٩٨ أن تدخل الكابتن مالكولم المقيم البريطاني في البصرة لتسوية النزاع سلميا ـ كان العثمانيون في ذلك الوقت على تقارب وثيق بالبريطانيين ـ وذلك بسبب تأخر والي بغداد عن دفع حقوق امام عمان المالية مقابل الخدمات التي قدمها أبوه في اثناء حصار البصرة . راجع لوريمر ـ المصدر السابق ج٢ ص ٥٦٩ :

(27) Pelly, Lt. Col. Remarks on the Tribes, Trade and Resources around the shore line of the Persian Gulf Transactions of the Bombay Géographical Cociety (jan. 1963 - Dec. 1864) Vol. 17, Bombay 1965, PP. 32-112.

(٢٨) وهو الذي خبر المنطقة واقام بها طويلا وكان قد فرضت عليه الإقامة الاجبارية في بغداد بعد تأييده متسلم البصرة ضد باشا بغداد .

راجع عن تاريخه وامارته : النبهاني ـ التحفة النبهانية ج١ ص ٥٦ ـ ٧٠

(٢٩) لونكريك ـ أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٥٧

(٣٠) بروكلمان ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ج٤ ص ٢١

(31) Philby, **Saudi Arabia**, P. 88.

(٣٢) معناه النائب أو المعاون وتلفظ الكهية . والكيخيا ليس هو باشا بغداد كما توهم ابو حاكمة فى تاريخ الكويت ج١ القسم الاول ص ١٨ ، ص ٢٩

(٣٣) لونكريك ـ المصدر السابق ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩

(٣٤) لقد ترك لنا بريدجز وصفا كاملا لاستعدادات الحملة هذه ، راجع :

Brydges, **Wahauby**, Vol. II, P. 19.

(٣٥) رسول الكركوكلي ـ ترجمة كاظم نورس ـ دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧

(٣٦) Phliby, op. cit. PP 91 - 92 وكتابه تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ تعريب عمر الديراوي ص ٩٧

(٣٧) للاطلاع على تفاصيل حملة علي باشا على الاحساء راجع كتاب . لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ـ تحقيق ابو حاكمة ص ١٢٦ ـ ١٣٣

(٣٨) انظر نص الرسالة في : عثمان بن سند البصري ـ مطالع السعود ص ٢٦

(٣٩) لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ص ١٣٣ . ومما هو جدير بالذكر أن مدة الحملة استغرقت تسعة اشهر وخمسة وعشرين يوما .

(٤٠) لوريمر ـ المصدر السابق ج٤ ص ١٩٠٦

(٤١) ديكسون ـ الكويت وجاراتها ج١ ص ١٠٤

(٤٢) عن تفاصيلها راجع : يعقوب سركيس ـ مباحث عراقية ص ١٤ ـ ٢٨

(٤٣) العزاوي ـ تاريخ العراق بين احتلالين ج٦ ص ١٦٠ ـ ١٦١ ، عبد الله قلبي ـ تاريخ نجد ص ١١٠

(٤٤) ابن بشر ـ عنوان المجد ص ١٢٩ ـ ١٣٠

(٤٥) نفس المصدر ـ ص ١٣٥ ـ ١٣٦ . انظر ايضا علي ظريف الاعظمي ـ مختصر تاريخ البصرة ص ١٤٩

(٤٦) نوار ـ داود باشا ص ٢٢٦

(٤٧) جيمس بكنغهام ـ ترجمة سليم طه التكريتي ـ رحلتي الى العراق ج٢ ص ٢٨٠ ـ ٢٨٦

(٤٨) نفس المصدر ـ ص ٢٨٦

(٤٩) لم ينقذ العراق من الهجمات السعودية الا دخول القوات المصرية إلى جزيرة العرب سنة ١٨١١

(٥٠) لوريمر ـ المصدر السابق ج٣ ص ٦٦٨ ـ ٦٦٩

(٥١) للتفاصيل راجع : حسين الشيخ خزعل ـ تاريخ الكويت السياسي ج١ ص ١٠٧ـ١١٢

(٥٢) لوريمر ـ المصدر السابق ج٣ ص ١٥١٢

(٥٣) القناعي ـ صفحات من تاريخ الكويت ص ١٣

(٥٤) عبد العزيز الرشيد ـ تاريخ الكويت ص ١٢٠

(٥٥) نفس المصدر ص ١٢٢

(٥٦) حاول عبد العزيز محمد المنصور ـ الكويت وعلاقتها بعربستان والبصرة : (الفصل الرابع الخاص بعلاقات الكويت بالبصرة ص ٨٣ ـ ١٠١) أن يدلل باندفاع عاطفي على أن علاقة الكويت بالدولة العثمانية في جميع مراحلها كانت اسمية ويؤكد في جميع كتاباته أن الكويت عاشت دائما مستقلة .

(٥٧) لوريمر ـ المصدر السابق ج٣ ص ١٥٢١

(٥٨) نوار ـ تاريخ العراق الحديث ص ٢٣٤

(٦٠) محمد النبهاني ـ التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية ج٦ ص ٣٨

(٦١) جمال زكريا قاسم ـ مصدر سبق ذكره ص ١٥٦ ، ص ١٧٢

(٦٢) راجع عنها : محمود بهجت سنان ـ البحرين درة الخليج ص ٩ وما بعدها .

مطالعات
في تاريخ العلوم في العصر الأموي

د. أحمد سليم سعيدان

عميد كلية العلوم ـ جامعة القدس

يلم بعض الباحثين إلمامة عاجلة بتاريخ العلوم في العصور الاسلامية ، فيخرجون أحيانا بانطباعات خاطئة ، ومنها قد يقفزون الى أستنتاجات وأحكام مبنية على الخطأ . ولا يخفى الخطأ على المتخصصين الذين يتوفرون على دراسة العلوم الاسلامية دراسة مقارنة ، وتبين مراحل تطورها ، بأصالة وموضوعية . ولكنهم قلما أتيح لهم التنبيه الى الخطأ ، الا بعد فوات الاوان . فاذا ما حاولوا تصحيحه ، ذهبت محاولتهم كصيحة في واد ، اذ ما نفع بحث ينشر في مجلة محدودة القراء ، في تصحيح وهم درج الناس على التسليم بصحته ، مذ انفرد الغرب برسم مناهج تعليمنا ، والاشراف على تكوين بنيتنا الثقافية ؟

من هنا تأتي أهمية كتابة التاريخ الاسلامي من جديد ، بأقلام اسلامية متفتحة واعية ، ويقيننا ان اللجان التي ستوكل اليها هذه المهمة ستعطي تاريخ العلوم في الاسلام اهتماما خاصا ، ذلك أن المصادر التي استقينا منها معلوماتنا، في سني الطفولة والشباب ، عن تاريخ العلوم في العصور الاسلامية ، ظلمت الفكر الاسلامي ، عن عمد أو عن جهل ، اذ ضخمت من قيمة الفكر الاغريقي من قبله ، والفكر الاوربي الغربي من بعده ، فبقي مكانه فيها على الهامش .

وفي هذه الصفحات ألفت الانظار الى واحد من هذه الاوهام التي أشير اليها ، وهو الزعم بأن تاريخ العلوم في الاسلام يبدأ بالعصر العباسي .

طلائع الحركات العلمية في الاسلام :

قد لا يلام القارىء العجلان اذا سلم بأن الحركة العلمية في الاسلام انما بدأت في العصر العباسي ، فهذا ما يوحي به أوثق ما لدينا من مصادر عربية عن طلائع المسيرة العلمية الاسلامية ، واعني بذلك كتاب الفهرست ، لابن النديم ، وقد فرغ منه مؤلفه في أواخر القرن الرابع الهجري .

ففي الفهرست (الصفحة ٣٥٣ ، طبعة القاهرة) نقرأ ، تحت عنوان « ذكر السبب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في هذه البلاد » أن من أوكد الاسباب أن الخليفة المأمون رأى ارسطو في منامه ؛ شيخاً مهيباً ينطق بالحكمة ، فدفعه ذلك الى النظر في الكتب القديمة بحثاً عن هذه الحكمة ، « وكان بين المأمون وملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ، المدخرة ببلد الروم ، فأجاب الى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وسلما صاحب بيت الحكمة ، وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ؛ فلما حملوه اليه ، أمرهم بنقله ، فنقل » .

وابن النديم ينقل عما توافر له من مصادر لم تصل الينا ، ولكن كأنه هنا قد استبعد ، في قرارة نفسه ؛ ان يكون سبب تلك الثورة العلمية التي غمرت العالم الاسلامي في عصر المأمون ، مجرد حلم رآه المأمون ، ولكنه كفى نفسه مغبة طرح الرأي باعطاء الحقائق للقارىء المتأني الواعي ، كاملة ، فهو يستطرد فيذكر ان غير المأمون ، من معاصريه ، كانوا أيضا يحرصون على جمع الكتب ، ونقلها فهاهم أحمد ومحمد والحسن ، ابناء موسى بن شاكر المنجم ، « بذلوا الرغائب ، وانفذوا حنين ابن اسحق ، وغيره ، الى بلد الروم ، فجاءهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات ، في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارتماطيقى والطب » . ويضيف ابن النديم نقلا عن أبي سليمان المنطقي السجستاني « ان بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة ، منهم حنين بن اسحق ، وحبيش بن الحسن ، وثابت بن قرة ، وغيرهم ، في الشهر نحو خمسمائة دينار ، للنقل والملازمة » . وكان هذا يومئذ ثروة تربو على مليون دينار في هذه الايام .

ويضيف ابن النديم ان قسطا بن لوقا البعلبكي حمل معه شيئاً ، فنقله او نقل له .

ثم كأن ابن النديم قد استبعد ان يتأخر النشاط العلمي في الاسلام زهاء قرنين من الزمان ، حتى يبدأ انطلاقته في عصر المأمون ، وقد تولى الخلافة من ١٩٨ الى ٢١٨هـ ، فيذكر ان ابا جعفر المنصور ايضا قد أمر بنقل التنجيم الهندي الى العربية منذ سنة ١٥٤ حين جاءه وفد من الهند وفيه منجم يحمل أعظم كتاب هندي في الفلك والتنجيم . ويضيف أن الفرس قد نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية ، فنقل ذلك الى العربية عبد الله بن المقفع ، وغيره . وابن المقفع عاصر أواخر العهد الاموي ، وقتل بتدبير من ابي جعفر المنصور .

ولا ينسى ابن النديم أيضاً ان يذكر ان خالد بن يزيد ، المتوفى سنة ٨٥ أو ٩٠ هـ ، في أواسط العهد الاموي ، قد نقل له في مصر كتب في الصنعة * والطب ، وذلك هو أول نقل في الاسلام .

ترى أن ابن النديم يبعثر الحقائق في ثنايا كتابه القيم ، ويترك استنتاج النتائج للقارىء المتأني . الا ان قراء قرأوه وهم في عجلة من امرهم ، فسلموا بان الحركة العلمية في الاسلام انما بدأت في العصر العباسي ، وأوقعهم ذلك في مشاكل لم يجدوا لها جوابا . من ذلك : كف نفسر أن فيلسوف العرب ، يعقوب بن اسحق ، الكندي ، قد استوعب الفلسفة اليونانية ، من قبل ان تنقل هذه الفلسفة الى العربية ، وكيف نفسر ظهور ملامح واضحة من التأثر بنحو اللغة اللاتينية من أيام ابي الاسود الدؤلي الذي يقال انه وضع قواعد اللغة امتثالا لامر تلقاه من الامام علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه .

ليس بدعاً في التاريخ أن يظلم العباسيون العصر الاموي ، فيغمطوه حقه ، فهذه هي خلقيات السياسة ، من قديم الزمان . ولكن يبدو ان التاريخ أقوى من الناس الذين يصنعونه ، فمهما حاول جيل أن يخفي أمجاد جيل سبقه ويطمس معالمها ، يبقى من تلك المعالم رواسب بها يستعيد المؤرخ بعض ما طمس أو جله . ورواسب الامجاد الاسلامية قبل العصر العباسي هي التي نستقرئها الان .

* « الصنعة » هي الاسم العربي القديم للكيميا (Alchemy) أي الكيمياء القديمة ، تمييزا لها عن علم الكيمياء الحديث (Chemistry)

وأول ما يطالعنا من ذلك اقرار التأريخ الاسلامي بأمر الفاروق عمر رضي الله عنه اذ رأى ان تكون سنة الهجرة هي بدء التاريخ الاسلامي ، فكان ذلك يوم الجمعة في ١٦ تموز/يوليو من سنة ٦٢٢ م .

وغني عن البيان ان هذا دليل على ان الامة بدأت تشعر انها دخلت التاريخ وشرعت تصنعه . انها اليوم غيرها بالامس ، فلتسجل اذن احداثها في سجل جديد .

والتسجيل يعني الكتابة ، والكتابة مادتها الورق ، وقد كان العرب يكتبون في أكتاف الابل ، واللخاف ، وهي الحجارة الرقاق البيض ، وفي عسب النخل ، وكان اقباط مصر ما يزالون يصنعون القرطاس من لحاء نبات البردي، وكان الصينيون يصنعون الكاغد من حشائش يكثر نموها في بلادهم . فصنع في خراسان من الكتان ورق على غرار الكاغد الصيني ، وذلك هو الورق الخراساني .

واذا كان الورق الخراساني لم يصنع على نطاق واسع قبل العصر العباسي ، فان الامويين ، قد توافر لهم الكاغد والقرطاس والادم ، مواد للكتابة ، حتى الحرير صنعوا منه ورقا للمصاحف . فماذا عن الكتابة ذاتها ، أعني الحروف والخط ؟

عندما كانت تدعو الحاجة للكتابة في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان زيد بن ثابت واكثر كبار الصحابة ، رضي الله عنهم ، يكتبون . ويقول ابن النديم ان اول الخطوط العربية هو الخط المكي ، وبعده المدني . ولكن مع اتساع رقعة الدولة وتزايد الحاجة الى الكتابة وتبادل الرسائل ، كان لا بد من تنظيم الكتابة ، وهذا ما حدث في ايام بني امية ، ويقال ان اول من كتب في العصر الاموي هو قطبة ، وهو الذي « استخرج الاقلام الاربعة ، واشتق بعضها من بعض » ، اما اول من كتب المصاحف فهو خالد بن ابي الهيلة ، وكتب للوليد بن عبد الملك ، ويوصف بحسن الخط . وللحجاج بن يوسف الثقفي يعزى الفضل في وضع الحركات على الحروف .

واللغة لا بد لها من قواعد تضبطها ، ويعزى ذلك في المصادر العربية الى ابي الاسود الدؤلي ، ويقال انه شرع بوضع قواعد اللغة بأمر من علي كرم الله وجهه . الا ان مدرستين تكونتا لوضع قواعد اللغة هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، وكان من رجال مدرسة البصرة ابو الاسود والخليل بن احمد

الفراهيدي ، وكان من رجال مدرسة الكوفة عبد الله بن مسعود ، والشعبي الذي تعلم ابو حنيفة عليه . في هاتين المدرستين وضعت قواعد اللغة والفقه ورسمت مناهج وضع المعاجم .

اما وقد توافرت المقومات الاولوية التي بدونها لا تكتب اللغة ، فلم يكن بد من تعريب الديوان . ونعني بذلك سجلات الدولة ولغة المعاملات الرسمية ؛ وقد كان الديوان روميا في سوريا ، بهلويا في العراق وفارس . لقد ترك الفتح الاسلامي ، أول الامر ، ديوان كل قطر ، باللغة التي كان عليها قبل الفتح . ولكن اذا جاز هذا الترتيب في بادىء الامر ، فلا يجوز ان يدوم طويلا . ولقد نقل الديوان الفارسي الى العربية في ايام الحجاج ، وعن ذلك يحدثنا الفهرست (الصفحة ٣٥٢) فيقول : « والذي نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم ، وكان ابو صالح من سبي سجستان ، وكان يكتب لزاد انفروخ بن بيري ، كاتب الحجاج ، يخط بين يديه بالفارسية والعربية ، فخف على قلب الحجاج .

فقال صالح لزاد انفروخ : انك أنت سببي الى الامير، وأراه قد استخفني، ولا آمن أن يقدمني عليك وان تسقط منزلتك .

فقال : لا تظن ذلك . هو الي أحوج مني اليه ، لانه لا يجد من يكفيه حسابه غيري .

فقال : والله لو شئت ان أحول الحساب الى العربية لحولته .

قال : فحول منه أسطرا حتى أرى !

ففعل . فقال له : تمارض ! فتمارض ، فبعث الحجاج اليه تيادورس طبيبه . فلم ير به علة . وبلغ زاد أنفروخ ذلك ، فأمره أن يظهر .

واتفق أن قتل زاد أنفروخ في فتنة ابن الاشعث ، وهو خارج من موضع كان فيه ، الى منزله . فاستكتب الحجاج صالحا مكانه . فأعلمه الذي كان جرى بينه وبين صاحبه في نقل الديوان . فعزم الحجاج على ذلك ، وقلده صالحا ، فقال له مراد شاه ، ابن زاد انفروخ ، كيف تصنع بدهويه وششويه ؟

قال : أكتب « عشرا ونصف عشر » .

فقال : كيف تصنع بويد ؟

قال : أكتب « وايضا » . (قال : الويد : النيف ، الزيادة تزاد) .

فقال له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية .

وبذلت له الفرس مائة الف درهم على ان يظهر العجز عن نقل الديوان ، فأبى الا نقله ، فنقله .

فكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله در صالح ! ما أعظم منته على الكتاب .

« وكان الحجاج أجّله أجلا في نقل الديوان » .

القصة مؤثرة ، تنطق بالصدق . ولكن ما تصفه انما هو الشرارة التي اطلقت المارد من عقاله . اما المارد فنستطيع ان نقدر انه كان أمنية في بال كل عربي مسؤول ، ينتهز الفرصة لتحقيقها .

وقد تحققت الامنية في فارس والعراق بأمر من الحجاج . اما في الشام « فكان الديوان بالرومية ، والذي كان يكتب عليه سرجون بن منصور ، لمعاوية بن ابي سفيان ، ثم منصور بن سرجون . ونقل الديوان في زمن هشام بن عبد الملك . نقله ابو ثابت ، سليمان بن سعد ، مولى حسين ، وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك . وقد قيل ان الديوان نقل أيام عبد الملك ، فانه امر سرجون ببعض الامر ، فتراخى فيه ، فأحفظ عبد الملك ، فاستشار سليمان ، فقال له : انا انقل الديوان ، وآرتجلَ منه » .



أول الغيث :

في موسم الامطار ، اذا انخفضت درجة الحرارة وارتفعت درجة الرطوبة، وتلبدت السماء بالسحب وجاءت النذر بهبوب رياح باردة ، قلنا ان كل ذلك مقدمات لنزول المطر . الا ان المطر قد يبدو كأنه يأتي مع مقدماته ، بل يكاد يسبقها ، وهذا ما حصل في العالم العربي . فلم يتدرج الامر من ضبط لقواعد الخط فقواعد اللغة فتعريب للدواوين ، فنقل للعلوم فدراسة لها فانتاج ، وانما تداخلت هذه الخطوات بعضها ببعض حتى ليبدو ان الدراسة والانتاج قد سبقا النقل أو زامناه .

فاذا بدا هذا مخالفا للمعقول ، اذ قلما يتم انتاج فكري ذو قيمة دون دراسة وخبرة وتدبر ونضوج ، فلنتذكر ولنذكّر ان البلاد الاسلامية لم تبدأ من الصفر . اللغة العربية القرشية كانت كالطارئة على عالم الفكر ، وأعراب

الجزيرة كانوا كالطارئين على عالم الحضارة ، اما سائر العالم الاسلامي فكان ذا حضارات عريقة موصولة ، يدل على حاضرها الراهن مدارس في الاسكندرية وانطاكيا وحران وجنديسابور . اساتذة هذه المدارس وخريجوها هم الذين حفظوا ، من قبل الاسلام ، الخيط الذي ربط ماضيها بحاضرها ؛ وهم الذين زودوا البلاد بما لا غنى لها عنه ، من اطباء ومنجمين وعلماء . وهم الذين كانوا في صدر الاسلام علماء الدولة واطباءها الذين تولوا نقل الفكر العالمي الى العربية. لا ينقص من دورهم هذا انهم لم يكونوا عباقرة ، ولا من كبار العلماء أو المؤلفين .

كانت الغالبية العظمى من هؤلاء من السريان . والفهرست يذكر اسماء عشرات من النقلة ، منهم قلة من الفرس والهنود ؛ وسائرهم من السريان .

من خريجي هذه المدارس ، ابان ظهور الاسلام ، كان اصطفان الاسكندري وقد عمل في شرح فلسفة ارسطو ، ووضع كتباً في الطب والكيمياء ، لعلها هي التي لفتت نظر خالد بن يزيد فعمل على ترجمتها .

وكان منهم يعقوب الرهاوي مطران الرها ، وكان لغوياً وضع قواعد النحو السرياني وجعل ابجدية السريانية ٣٦ حرفاً منها سبعة أحرف علة . ولقد توفي هذا الرهاوي سنة ٩٠ للهجرة ، وعاصر أبا الاسود الدؤلي ، وخالد بن يزيد .

وكان منهم أيضاً أهرون القس ، وقد وضع بالسريانية كنّاشاً وكتاباً في الطب ، ونقل كتابه الى العربية سنة ٦٤ هجرية .

وكان منهم يحيى الدمشقي ، وكان مسؤولا عن مالية الدولة ابان الحكم الاموي ، ثم اعتزل الخدمة ، وعاش في دير مارسابا ، في أبو ديس ، بجوار القدس ، وهناك وضع كتاب ينبوع الحكمة ، وفيه يقارن المسيحية بالعقائد الاخرى ، ومنها الاسلام . وقد توفي يحيى الدمشقي في أوائل العصر العباسي .

ويذكر فللينو في كتابه : علم الفلك عند العرب ، ان مما ترجم في العصر الاموي كتاباً في أحكام النجوم تمت ترجمته سنة ١٢٥ هـ .

وكان من أساتذة هذه المدارس وخريجها عرب من الجزيرة العربية . من هؤلاء عبد الملك بن أبجر ، الكناني . وكان طبيباً معلماً في مدرسة الاسكندرية الى أن نقل تدريس الطب منها الى انطاكيا وحران ، لتوسطهما في ديار الاسلام ، وذلك في أيام الوليد الثاني .

ومن هؤلاء أيضاً الحارث بن كلدة ، الثقفي . وقد جرى بينه وبين ملك الفرس ، على ما تذكر المصادر العربية حوار لا يخرجنا ايراده عن الغاية التي

نرمي اليها ، وننقله هنا من عيون الانباء في طبقات الأطباء ، لابن أبي اصيبعة (الصفحة ١٦٢ ، طبعة بيروت) :

« وفد على كسرى أنو شروان ، فلما اذن له بالدخول ، وقف بين يديه منتصبا :

فقال له : من أنت
قال : أنا الحارث بن كلدة الثقفي .
قال : فما صناعتك ؟
قال : الطب .
قال : أعربي أنت ؟
قال : نعم . من صميمها وبحبوحة دارها .
قال : فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها ، وسوء أغذيتها ؟

قال : أيها الملك : اذا كانت هذه صفتها ، كانت أحوج الى من يصلح جهلها ، ويقوم عوجها ، ويسوس أبدانها ، ويعدل أمشاجها ، فان العاقل يعرف ذلك من نفسه ، ويميز موضع دائه ، ويحترز من الادواء كلها بحسن سياسته لنفسه .

قال كسرى : فكيف تعرف ما تورده عليها ، ولو عرفت الحكم لم تنسب الى الجهل ؟

قال : الطفل يُناغَى فيداوَى ، والحية تُرقى فتحاوَى . ثم قال :

أيها الملك : العقل من قِسَم الله تعالى ، قسمه بين عباده ، كقسمه الرزق فيهم ، فكل من قسمته أصاب . وخص بها قوم ما زاد ، فمنهم مثرٍ ومعدم ، وجاهل وعالم ، وعاجز وحازم ، وذلك تقدير العزيز العليم .
قال كسرى : فما الذي تحمد من أخلاقها ، ويعجبك من مذاهبها وسجاياها؟

قال الحارث : أيها الملك : لها انفس سخية ، وقلوب جرية، ولغة فصيحة، والسن بليغة وانساب صحيحة ، وأحساب شريفة ، يمرق من أفواههم الكلام مروق السهم من نبعة الرامي ، أعذب من هواء الربيع، والين من سلسبيل المعين ، مطعمو الطعام في الجدب ، وضاربو الهام في الحرب ، لايرام عزهم ، ولا يضام جارهم ، ولا يستباح حريمهم ، ولا يذل كريمهم ، ولا يضرون بفضل للأنام ، الا للملك الهمام ، الذي لا يقاس به أحد ، ولا يوازيه سوقة ولا ملك » .

ان لم يكن مثل هذا الحوار قد وقع فعلا بين الحارث والملك ، فقد كـان يمكن ان يقع بين اي عربي واي فرد غير عربي ، سرياني او فارسي أو هنـدي في ديار الاسلام .

واذا كان كل ما عمله السريان والفرس والهنود ، من نقل في العصر الاموي، هذا الذي نعرف ، فلا ريب انه قليل . انه اول الغيث ، ولكن لعل مـا لا نعرف اكثر واغزر مما نعرف . الا أن اثر هؤلاء السابقين في تلقيح الافكار بالحوار أوسع وأعمق . فيحيى الدمشقي ، الذي عمل طويلا على مالية الدولة في دمشق ، ثـم اعتزل في دير مار سابا ليكتب عن البدع ، لم يدفعه الى ذلك الا ما كان يجري بينه وبين المسلمين من حوار .

وسواء كانت المحاورات ودية أو عدائية ، موضوعية أو شخصية ، هادئة أو صاخبة ، فقد كانت سبيلا منها وصلت المذاهب الفلسفية الى الفكر الاسلامي ولنذكر ان واصل بن عطاء ، شيخ المعتزلة قد توفي قبل ظهور الدعوة العباسـية بسنتـــين .

فليس غريباً اذن ان يظهر في الاسلام فلاسفة من أمثال الكندي والفارابي من قبل أن ينقل الفكر اليوناني والروماني كله الى العربية ، فهو وان لم ينقل ، كان هنالك في المدارس ، وكان هنالك من فهم بعضه على نحو مــا .

وليس غريباً أيضاً ـ في تقديري ـ ان تحمل بواكير أعمال البصرة والكوفة دلائل تأثر بلغة لم يبدأ تأثر العرب المباشر بها بعد ، فان لم يكن رواد مدرستي البصرة والكوفة قد الموا بقواعد اللاتينية أو اليونانية ، فقد تتلمذوا على من اتقنوها، في مدارس الرها وحران ونصيبين وجنديسابور وانطاكيا والاسكندرية . وان لم يكونوا قد تتلمذوا عليهم مباشرة ، فلعلهم دخلوا معهم في حوار علمي أو جدلي .



وأول كتاب عربي في التاريخ وضع في الاسلام انما وضع في أيام معاوية وبأمر منه ، فقد استدعى معاوية عبيد ابن شريّة ، من صنعاء اليمن « فسأله عن الاخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الالسنة وأمر افتراق الناس في البلاد ، فأجابه الى ما طلب ، فأمر معاوية أن يدون وينسب الى عبيد ابن شرية (الفهرست ، الصفحة ١٣٨) . وينسب الفهرست لعبيد ايضا كتابا في الامثال .

ويبدو ان كتابا آخر في التاريخ وضع في العصر الاموي ، هو كتاب التيجان المنسوب لوهب بن منبّه .

الا ان اعظم انجاز اموي علمي انما جاء مع بدء تدوين الاحاديث النبوية الشريفة ، فقد استدعى ذلك أقصى درجات الحرص في تحقيق النصوص ، حتى كان المحدث يشد الرحال من العراق الى اليمن ، ليتأكد من صحة حديث سمعه . لقد أفضى هذا الى وضع اسس تحقيق النصوص والاسانيد والوثائق، وتحقيق الوثائق سماه العرب علم الشروط ، ومن ذلك جاءت كلمة Chartar وهذا الحرص في تحقيق النصوص والاسانيد والوثائق ارسى قواعد الامانة العلمية ، التي هي ركن هام من اركان النهج العلمي ، هذا بالاضافة الى ما استتبع من تحقيق سيرة الرسول والغزوات والفتوحات ، مما كان باكورة الانتاج التاريخي في العصر العباسي .

ولقد انعكست هذه الامانة العلمية على أعمال النقل . جاء في الفهرست (الصفحة ٣٨) نقلا عن أحمد ابن عبد الله بن سلام ، مولى هرون الرشيد ، أنه ترجم من العبرانية واليونانية ولغة الصابئة ، الى العربية ، قال: «ترجمت.. الى اللغة العربية ، حرفا حرفا ، ولم ابتغ في ذلك تحسين لفظ ولا تزيينه ، مخافة التحريف ، ولم ازد على ما وجدته في الكتاب الذي نقلته ، ولم انقص ، الا ان يكون في بعض ذلك من الكلام ما هو متقدم بلغة أهل ذلك الكتاب ، فلا يستقيم لفظه ، في النقل الى العربية ، الا ان يؤخر ، ومنه ما هو مؤخر لايستقيم ان يقدم » .

كان ما ترجمه ابن سلام نصوصا دينية تقتضي هذه الحرص ، ولكن الحرص انعكس ايضا على الانتاج الفكري الاسلامي أمانة علمية محمودة ظل الكتاب يتحلون بها ، الى ان فقدوها في سني التقهقر ، ومن أسف ان الغرب لم يتنبه لاهميتها ، أو لم يعد اكتشافها ، الا متأخرا ، في القرن العشرين .

ولقد جاء الاسلام بركن آخر من اركان النهج العلمي ، ذلك هو قبول التجربة دليلا علميا ، وقد كان الفكر الاغريقي لا يقبل الا الدليل العقلي الاستنتاجي . فان روجر بيكون الذي يعده الغرب رسول مبدأ التجربة لم يبتكر هذا المبدأ ، وانما تلقاه من اساتذته العرب في مدارس الاندلس ، فكان دخوله الى اوربا مدعاة قلق كبير انجلى عن صراع مرير بين العلم والدين . وانجلى هذا الصراع عن انتصار مبدأ التجربة الذي جاء به الاسلام سبيلا بدهيا للتعرف على نعم الله وآلائه ، ولكن لعل هذا أولى به حديث آخر .

الحياة الاقتصادية في بلاد الشام
بين سنتي ١٣٢ و ٣٥٩ هـ

د . أمينة بيطار

قسم التاريخ ـ جامعة دمشق

كانت بلاد الشام في الفترة الواقعة بين سنتي ١٣٢ ـ ٣٥٩ هـ / ٧٥٠ ـ ٩٧٠ م تحت حكم الخلافة العباسية ، التي اطاحت بالخلافة الاموية ، ونقلت مركز الخلافة من دمشق باتجاه الشرق .

وقد حكم بلاد الشام في ظل الخلافة العباسية في الفترة المذكورة ولاة العباسيين مباشرة حتى سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ ـ ٨٧٨ م ، حيث أصبحت تابعة للطولونيين حتى سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ ـ ٩٠٥ م . وعادت تبعيتها بعد سقوط الدولة الطولونية للخلافة العباسية مباشرة ، حتى تمكن الاخشيد من تأسيس الدولة الاخشيدية في مصر والشام .

وتعرض الاخشيديون في بلاد الشام لمنافسة الحمدانيين ، الذين تمكنوا في سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ ـ ٩٤٥ م من تأسيس الدولة الحمدانية في حلب . وبذلك انقسمت بلاد الشام بين امارتين ، فشمالها يتبع للامارة الحمدانية ، وجنوبها للامارة الاخشيدية . ولسنا الآن في معرض الحديث عن أوضاع بلاد الشام السياسية في هذه الفترة ، بل اهتمامنا منصب على الحديث عن الاوضاع الاقتصادية في الشام .

ويمكن القول ـ في هذا المجال ـ أن الاوضاع الاقتصادية في بلاد الشام تأخرت في هذه الفترة عما كانت عليه في العصر الاموي ، وذلك لاسباب متعددة يأتي على رأسها : ـ

١ ـ ان خلفاء بني العباس وولاتهم في الشام لم يوجهوا اهتمامهم للقيام باصلاحات غايتها تنمية الحياة الاقتصادية ودفع عجلتها الى الامام . وكان هم ولاة العباسيين الوحيد في بادىء الامر،القضاء على الامويين وانصارهم،ومصادرة أموالهم وأموال مؤيديهم . وقد أسفر ذلك عن ثورات متكرره جعلت البلاد في وضع مرتبك ، وفي حالة شديدة من الفوضى .

٢ ـ خوف العباسيين من نفـوذ أصحاب الثروات الكبـيرة والمصالح الاقتصادية في بلاد الشام ، وخشيتهم مـن أن يستغل هؤلاء أموالهم لافساد الاهالي على العباسيين . ومما يروى في هذا الصدد قصة الرشيد مع أحد رجال بني امية الذي علم عنه انه عظيم الجاه ، واسع الدنيا ، كثير المال والاملاك . فقد أمر الرشيد أحد رجاله بالخروج الى الشام ، وأمهله ثلاثة عشر يوما فقط للذهاب والعودة لاحضار الرجل . ولكنه لما علم بأن الرجل محسود على النعمة أمر باعادته الى بلده على أحسن حال (١) .

٣ ـ استمر تأخر بلاد الشام اقتصاديا في عهد الطولونيين والاخشيديين ، لان دمشق لم تكن عاصمة لاي من هاتين الامارتين ، وانما كانت ولاية تابعة لكل منهما . يضاف الى ذلك ما تعرضت له الشام من تخريب بسبب الحروب التي اجتاحتها نتيجة للتنافس بين الامارات المختلفة التي حكمت بلاد الشام في هذه الفتـرة ، مثـل الحروب بـين الطولونيين والعباسيين ، وبـين الاخشيديين والحمدانيين ، وبين الاخشيديين وابن رائق ، ثم بـين كل مـن الاخشيديين والحمدانيين والبيزنطيين .

٤ ـ لم تعد بلاد الشام كما كانت مركزاً للخلافة الاسلامية ، ومكان تجمع أموال الولايات في بيت مال المسلمين في عاصمتها دمشق (٢) . حيث يصرف الجزء الاكبر من فائض الاموال لعمران بلاد الشام ، ولاسترضاء اهاليه ، ليبقوا في خدمة الدولة الاموية .

٥ ـ ثقل الضرائب المفروضة في هذه الفترة على الاراضي ، دفعت بعدد كبير من الزراع الى النزوح عن اراضيهم (٣) ، كما دفعت صغار ارباب الضياع الى الافلات من عبء الخراج العادي ، بالجاء ضياعهم الى الكبار الاقوياء ليخفف عنهم الخراج ، ويدفعون العشر فقط ، كما هو الحال في الاقطاعات (٤) .

٦ ـ كثرة مصادرة الخلفاء والولاة ، لاموال العمال والكتاب والتجار والاغنياء . فقد صادر محمد بن طفج الاخشيد عماله مراراً . واذا أفلت أحد من المصادرة حياً ، لم يكن يسلم من أخذ أمواله بعد وفاته . وكان العامل اذا صودر ، وثقل عليه عبء المصادرة تبرع له أصحابه ، وجمعوا له الاموال للتخفيف عنه . وكذلك كان يفعل الاخشيد مع التجار الاغنياء (٥) . ومن القصص التي تذكر في هذا المجال أن الاخشيد كان في أحد الايام خارجا للصيد بظاهر دمشق ، فرأى حماما فأرسل عليه الجارح فأخذه ، فاذا مع الحمام كتاب من الراشدي (٦) الى بعض الدمشقيين يقول فيه : قد حصل عندك تمام ثمانين ألف دينار . فأحضر الاخشيد الرجل ، وطالبه بالمال وأخذه منه (٧) .

وسار الحمدانيون على نفس الخطة . فقد قام سيف الدولة بمصادرة الاموال ، كما كان يصادر التركات . وكان قاضيه أبو الحسين الرقي يقول : التركة لسيف الدولة وليس لابي الحسين الا أخذ الجعاله . وشاع بين الناس القول : من هلك ، فلسيف الدولة ما ملك . وأدت ساسة سيف الدولة في المصادرة الى كره اهالي دمشق له ، وبخاصة حين أدركوا مطامعه في غوطة دمشق لاعجابه بها ، من الحديث الذي دار بينه وبين أحد رجالات دمشق المسمى بالعقيقي ، اذ صرح له بقوله : ـ بعد أن أوضح له الاخير بأن غوطة دمشق تعود ملكيتها الى أسر مختلفة ـ بأنهم سيتركوها اذا استولت عليها القوانين السلطانية (٨) .

ولا بد لنا ونحن في معرض الحديث عن الاوضاع الاقتصادية في بلاد الشام، من القول بأن الضرائب بأنواعها في الشام في هذه الفترة ، كانت تختلف من وقت الى آخر حسب الازمان والاحوال . وقد ترك لنا المؤرخون تقديرات لما كان يحمل منها الى بيت المال في بغداد . تعطينا فكرة واضحة عن الاوضاع الاقتصادية في المنطقة ، وأول قائمة وصلتنا من قوائم العصر العباسي هي القائمة التي اوردها الجهشياري (٩) ، وهي التي عرضت على يحيى البرمكي ، وتنص في جملة ما تنص على ما كان يحمل من الشام الى بيت المال في بغداد في عهد الخلفة هارون الرشيد ، وقد جاء فيها ما يلي :

قنسرين والعواصم ـ اربعمائة وتسعون الف دينار

حمص ـ ثلاثمائة وعشرون الف دينار

دمشق ـ أربعمائة وعشرون الف دينار

الاردن ــ ستة وتسعون ألف دينار
فلسطين ــ ثلاثمائة وعشرون ألف دينار

واضاف بأنه من جميع أجناد الشام من الزبيب يحمل ثلاثمائة ألف رطل .

وبلغ بذلك مجموع ما يحمل من الشام الى بغداد في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد مليونا وستمائة وستة وأربعين ألف دينار ، وهو مبلغ كبير ، يدل على أن خراج الشام في عهد الخليفة هارون الرشيد ، كان قريبا جداً مما كان عليه في عهد الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك ، حيث كان الخراج مليونا وثمانمائة ألف دينار (١٠) .

وعلى الرغم من تقارب مقدار خراج الشام في عهدي الخليفتين هارون الرشيد العباسي ، والوليد بن عبد الملك الاموي ، الذي يعتبر عهده من أزهى العهود في العصر الاموي . فلا يمكن أن نستنتج من ذلك أن الوضع الاقتصادي في الشام كان في هذه الفترة مزدهراً لاسباب منها : ــ

١ ــ أن الخليفة هارون الرشيد عاقب واليه على الشام (١١) لانه جعل من دمشق التي كانت جنة خضراء منطقة جرداء .

٢ ــ ان أهالي قرى فلسطين تركوا أراضيهم في عهد الخليفة هارون الرشيد لتشدد عماله في جباية الاموال منهم ، وتعذيب من يمتنع عن ادائها بكافة صنوف العذاب لاجبارهم على دفع ما عليهم (١٢) .

وبالتالي يمكن القول بأن ارتفاع جباية الخراج في عهد الخليفة هارون الرشيد ، يمكن أن يرد الى ارهاق الاهالي بالجباية .

وهناك قائمة أخرى أوردها قدامة بن جعفر (١٣) ذكر فيها ارتفاع (١٤) البلاد الاسلامية بعد سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ ــ ٨٢٠ م ، وربما كان ذلك في السنوات التي تلت هذه السنة من خلافة المأمون العباسي . ومما جاء فيها عن الجباية في بلاد الشام ما يلي :

ارتفاع أعمال حمص ــ مائة وثمانية عشر ألف دينار
ارتفاع جند دمشق ــ مائة وعشرة آلاف دينار
ارتفاع جند الاردن ــ مائة وتسعة آلاف دينار
ارتفاع جند فلسطين ــ مائة وخمسة وتسعون الف دينار

ومما يلاحظ على هذه القائمة انها اقل بكثير من القائمة التي جاءت في عهد الرشيد . وقد يكون هذا الانخفاض ناتجا عن الاضطرابات الداخلية في بلاد الشام أثناء الحرب بين الامين والمأمون وبعده . كما أن هذه القائمة تهمل خراج قنسرين والعواصم . وقد يكون خراج هذه المنطقة قد انقطع في هذه الفترة بسبب ثورة نصر بن شبث العقيلي . واذا حاولنا أن نجمع الارقام التي وردت في هذه القائمة لوجدنا أن ارتفاع الشام بأجمعه بلغ خمسمائة واثنين وثلاثين الف دينار ، وهو ثلث الجباية في عهد هارون الرشيد . وهذا انما يدل على سوء الاحوال الاقتصادية في الشام ، او على خروج مناطق كثيرة من الشام عن طاعة العباسيين .

وهناك قائمة أخرى أوردها ابن خلدون (١٥) عن الجباية في عهد المأمون . ويحتمل ان تكون هذه القائمة قد سجلت جباية الشام بعد أن استقرت أمورها للمأمون ، وقد جاء فيها :

ارتفاع قنسرين والعواصم ــ اربعمائة الف دينار وألف حمل زيت
ارتفاع دمشق ــ أربعمائة وعشرون ألف دينار
ارتفاع الاردن ــ سبعة وتسعون ألف دينار
ارتفاع فلسطين ــ ثلاثمائة وعشرة آلاف دينار وثلاثمائة الف رطل زيت

والملاحظ في هذه القائمة أنها أهملت خراج حمص ، كما أنها تعتبر عودة بخراج الشام لما كان عليه في أيام الخليفة هارون الرشيد . فقد بلغ ارتفاع الشام بأجمعه مليونا ومائتين وسبعة وعشرين ألف دينار ، أي أن الجباية زادت عن الضعف في الفترة بين سنتي ٢٠٤هـ / ٨١٩ ــ ٨٢٠ م والقائمة الثانية في عهد المأمون التي يجب أن تكون قبل سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ ــ ٨٣٤ م وهي سنة وفاته .

وتدل قائمة الجباية التي وردت في أيام الخليفة المعتصم عن انخفاض خراج الشام عما كان عليه في عهد الخليفة المأمون . وبشكل خاص في دمشق التي انخفض خراجها من اربعمائة وعشرين الف دينار الى مائة وعشرة آلاف دينار اي الى الربع ، وكذلك في فلسطين . بينما ارتفعت الجباية في الاردن قليلا . ويبلغ مجموع الجباية فيالشام حسب هذه القائمة مليونا ومائة واثنين وتسعين الف دينار . ويبدو أن انخفاض الجباية في دمشق وفلسطين كان بسبب ثورة المقنع

اليماني التي قامت في منطقة فلسطين (١٦) . وثورة زعار اهل الغوطة على الخليفة المعتصم بحسب راي ابن العديم في البغية (١٧) . أما تفاصيل هذه القائمة فقد وردت كما يلي :

جباية قنسرين والعواصم ــ ثلاثمائة وستون ألف دينار
جباية جند حمص ــ مائتان وثمانية عشر ألف دينار
جباية جند دمشق ــ مائة وعشرة آلاف دينار
جباية جند دمشق مائة وعشرة آلاف دينار
جباية فلسطين ــ مائتان وتسعة وخمسون ألف دينار (١٨)

وهناك قائمة أخرى للجباية في أواسط القرن الثالث الهجري جاء فيها عن جباية الشام ما يلي :

جباية قنسرين والعواصم ــ أربعمائة ألف دينار
جباية جند حمص ــ ثلاثمائة وأربعون ألف دينار
جباية جند دمشق ــ أربعمائة وعشرة آلاف دينار
جباية جند الاردن ــ ثلاثمائة وخمسون ألف دينار
جباية جند فلسطين ــ خمسمائة ألف دينار (١٩)

والملاحظ في هذه القائمة ، ارتفاع الجباية في دمشق وعودتها الى ما كانت عليه في عهد الخليفة المأمون . أما جباية فلسطين فقد بلغت شأواً بعيداً ، وقاربت جباية الشام بكامله في القائمة التي وردت بعد سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩ ــ ٨٢٠ م وارتفعت جباية الاردن بشكل لم نره في أي قائمة أخرى . فقد تجاوزت ثلاثة أمثال ما جاء في الجباية في سائر القوائم الاخرى . وبلغ مجمل جباية الشام في هذه القائمة مليونا وتسعمائة وتسعين ألف دينار ، وهي اكبر جباية عرفتها الشام في سائر العهود . واذا كانت الارقام التي وردت في هذه القائمة صحيحة، فان ذلك يدل على غبن أهالي الشام وزيادة الضرائب عليهم في تلك الفترة ، وبخاصة اذا علمنا انه لم تحدث اية اصلاحات اقتصادية في هذه الفترة ، بل كان الاقتصاد في تدهور مستمر .

وفي قائمة سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ ــ ٩١٩ م ، وهي قائمة علي بن عيسى وزير الخليفة المقتدر ، اختلف الامر عن غيرها من القوائم التي سبقتها ، فحين

يذكر جباية المشرق يذكر لكل بلد رقمين يضع امام أحدهما أنه للخراج ، والآخر للضياع . اما للدلالة على الارقام التي ذكرها عن جباية المغرب بما فيها بلاد الشام ، فكان يذكر أمام الرقم الاول كلمة مال ، ولم يذكر شيئا امام الرقم الثاني (٢٠) . وقد يكون ذلك دلالة على جباية عينية . وقد ورد فيها بالنسبة للجباية في الشام مقدرة بالدنانير ما يلي :

جند فلسطين	٨٠٧٥٠	مال	و ٢٣٠٦٤٧	=	٣١١٣٩٧
جند الاردن	٤٠٤٦٠	مال	و ١٠٢٠٦٢	=	١٤٢٥٢٢
جند دمشق	١١٣٠٥٧	مال	و ٣١٥٣٠٠	=	٤٢٨٣٥٧
جند حمص	٢٠٠٤٦٠	مال	و ١١٥١١٤	=	٣١٥٥٧٤
قنسرين والعواصم	١٣٣٠٩٧	مال	و ٣٥٢٥٧٠	=	٤٨٥٦٦٧
دلوك ورعبان			١٥٧٦٥	=	١٥٧٦٥
الثغور الشامية سوى ما صولح عليه أحمد بن الحسين الكاتب			٥٢٩٨٥	=	٥٢٩٨٥
شمشاط وحصن منصور وكيسوم بعد الموضوع أي بعد الذي أسقط	٥٣٩٧	مال	و ٦٥٣٣٢	=	٧٠٧٢٩
ارزن وميافارقين	٥٦٧٥٠	مال	و ٨٢٤٢٢	=	١٣٩١٧٢

وأهم ما يتضح في هذه القائمة هو أن جباية كل مدينة من مدن الثغور قد أصبح منفصلا . فكأن كل ثغر له شؤونه الخاصة منفرداً عن غيره . وبلغ مجموع هذه القائمة مليونا وتسع مائة واثنين وستين الفا ومائة وثمانية وستين ديناراً أي ما يقارب مليوني دينار .

أما تقدير خراج الشام في القرن الرابع فلم يكن ثابتا . فقد احتل البيزنطيون سواحل الشام شمالي طرابلس ، الى جانب ما استولوا عليه من الثغور ، ولذلك لم تعد جبايتها تعرف على وجه الدقة يضاف الى ذلك أن بلاد الشام في تلك الفترة كانت مضطربة سياسياً . وموزعة بين دويلات وحكام يتنازعون السيطرة عليها . ويقدر ابن حوقل (٢١) خراج الشام بعد دفع ارزاق العمال بتسعة وثلاثين مليون درهم . هذا واذا اعتبرنا الدينار يساوي خمسة عشر درهماً ، كان خراج الشام يساوي مليونين وستين الف دينار وهو رقم قياسي .

وقد أمدنا المقدسي بقائمة اخرى عن خراج الشام ، ذكر فيها ما يلي :

جباية قنسرين ـ ثلاثمائة وستون ألف دينار
جباية الاردن ـ مائة وسبعون ألف دينار
جباية فلسطين ـ مائتان وتسعة وخمسون ألف دينار
جباية دمشق ـ أربعمائة ألف دينار ونيف (٢٢)

ومن استقراء قوائم الجباية في فترة البحث (١٣٢ ـ ٣٥٩ هـ) يتضح ما يلي :

١ ـ ان الجباية كانت تتدهور في فترة الاضطراب والثورات .

٢ ـ ان جباية الاردن وفلسطين زادت بشكل ملحوظ وكبير في أواسط القرن الثالث للهجرة . وقد يكون ذلك أحد أسباب ثورة المقنع في فلسطين ، والتي كانت تضم عدداً كبيراً من المزارعين .

٣ ـ ان خراج الشام في اواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع ، أصبح أكثر من خراجها في أيام الدولة الاموية ، كما اصبح لكل ثغر من الثغور جباية خاصة .

٤ ـ ان خراج دمشق تراوح بين أربعمائة وأربعمائة وعشرين الف دينار وهو قريب لما كان عليه في عهد معاوية حيث بلغ أربعمائة وخمسين الف دينار . ولم ينخفض خراج دمشق عن هذا المستوى الا في القائمة التي وردت عن الجباية في عهد الخليفة المعتصم .

٥ ـ أن ثبات مقدار الخراج في الوقت الذي ساءت فيه أحوال بلاد الشام انما يدل على ارهاق ولاة العباسيين لاهل الشام دون ما نظر الى أحوالهم الاقتصادية .

الثروة الزراعية والحيوانية

آ ـ الثروة الزراعية :

لم يلاحظ اي تقدم زراعي في بلاد الشام في هذه الفترة ، بل ان ما يبدو ظاهرا للعيان ، سير البلاد نحو التأخر الزراعي . ويتضح ذلك جليا من الحديث

الذي دار بين الخليفة هارون الرشيد وبين واليه على دمشق الحسين بن عمار. فقد استاء الرشيد من هذا التأخر الزراعي ، وعزل واليه وعاقبه جزاء ما كان يفعله ، لان دمشق حين وليها كانت جنة خضراء ، فأصبحت أجرد من الصخر وأوحش من القفر ، وانها لم تعد تغذي بيت المال كما كانت من قبل . وكان رد الوالي ابلغ من كلام الخليفة الرشيد حين افهمه ان اهالي الشام استاؤوا من معاملة العباسيين لهم بشكل عام ، ولذلك فانهم تفرقوا في ميادين التعدي، ورأوا ترك العمارة ليوقعوا الضرر بالسلطان ، كما انهم أرادوا بذلك أن يشقوا على ولاة العباسيين ، واليك نص هذا الحديث بين العاهلين ، قال هارون الرشيد لواليه الحسين بن عمار : (وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غدر ، تتكفأ أمواجها على رياض كالدراري ، فما برح بك التعدي لارفاقهم أن جعلتها أجرد من الصخر ، وأوحش من القفر . قال والله يا أمير المؤمنين ما قصدت لغير التوفيق من جهته . ولكني رأيت اقواما ثقل الحق على اعناقهم فتفرقوا في ميادين التعدي . ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع باضرار السلطان . وارادوا بذلك المشقة على الولاة . وان سخط امير المؤمنين قد اخذ بالحظ الاوفر من مساءتي) (٢٣) .

ويمكن أن نعزو اسباب التأخر الزراعي في بلاد الشام في تلك الفترة الى الاسباب الاتية :

١ – لم يقم ولاة العباسيين ومن حكم الشام بعدهم باصلاحات غايتها تنمية الثروة الزراعية في بلاد الشام . فقد استمر الري على ما كان عليه أيام الخلافة الاموية ، الا ما كان من الخليفة المأمون ، الذي امر بحفر قناة من نهر منين مارة بسفح جبل قاسيون الى معسكره بدير مران (٢٤) . وما قام به سيف الدولة من حفر قناة في مدينة ميافارقين لسوق المياه اليها (٢٥) .

٢ – معاناة اهالي الشام من كثرة الخراج . ومما يذكر في هذا الصدد أن بعض أهالي قرى فلسطين تركوا اراضيهم ، فوجه الخليفة هارون الرشيد اليهم احد كبار قواده يدعوهم للرجوع الى اراضيهم على ان يخفف عنهم من خراجهم ، وان يعاملوا معاملة احسن مما مضى ، فرجعوا ، هؤلاء هم اصحاب التخافيف . ثم عاد قوم منهم بعد ذلك فردت عليهم أراضيهم على مثل ما كانوا عليه وهم أصحاب الردود (٢٦) .

ومن المرجح ان أهالي قرى فلسطين تركوا اراضيهم في هذه الفترة لتشدد عمال الرشيد في جباية الاموال من الاهالي . فقد أخذ عماله يطالبون بالاموال ويعذبون من يمتنع عن ادائها بكافة صنوف العذاب لاجبارهم على دفع ما عليهم (٢٧) .

٣ ـ قيام العباسيين ثم من جاء بعدهم في حكم الشام من أمراء الامارات بمصادرة اراضي السكان (٢٨) ، من ذلك استيلاؤهم على ضياع آل مروان كبالس وقراها التي كانت لورثة مسلمة بن عبد الملك ، وأقطعت الى سليمان ابن علي (٢٩) ، وكذلك استولوا على رصافة هشام ، الى جانب ضياع أخرى واسعة . وسميت هذه الضياع ضياع الخلافة (٣٠) . واستولى العباسيون فيما استولوا عليه على دار الصباغين في الرملة وسلمت الى صالح بن علي والى ورثته من بعده (٣١) .

وقد اغتصب الحمدانيون كثيراً من الاراضي ، كما أنهم كثيرا ما ضايقوا أصحاب الاراضي حتى يلجئونهم الى بيع ما يملكون . كما جلا كثير من اهالي المناطق عن اراضيهم ، وممن جلا بنو حبيب وهم بنو عم بني حمدان . فقد خرجوا بذراريهم ومواشيهم في أثني عشر ألف فارس الى الاراضي البيزنطية ، مما جعل المنطقة شمالي البلاد في حالة سيئة . وكان بنو حمدان يصادرون اراضي من جلا عن البلاد ، حتى أصبحوا من أغنى ملوك الاسلام في عهدهم الى جانب عبد الرحمن الثالث خليفة الاندلس (٣٢) .

٤ ـ الحروب المختلفة التي تعرضت لها بلاد الشام في هذه الفترة ، نتيجة التنافس الحاد بين الامراء على حكمها ، ولاسباب أخرى متعددة . وقد أسفر ذلك عن نقصان الثروة الزراعية في البلاد وتأخرها . فمما يذكر ان حلب كانت من اكثر المدائن شجرا حسبما يستدل من اشعار الصنوبري (٣٣) ، الا ان هذه الثروة الزراعية الضخمة تعرضت للقطع والاتلاف في حوادث متعددة ، ففي المعارك التي نشبت بين سيف الدولة بن حمدان والاخشيد للاستيلاء على المدينة ، تطوع الاخشيد اثناء الحصار بقطع هذه الاشجار ، غير انه اضطر بعد ذلك لترك المدينة الى سيف الدولة . وجاء الاخير وفعل بها مثل ما فعله سابقه ، وتكرر ذلك حتى فني ما بها من شجر . ثم أكمل ذلك نقفور فوكاس امبراطور البيزنطيين حين نزل عليها سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م (٣٤) .

٥ ـ لم يحرص الحمدانيون على الاشجار والبساتين ، فكثيراً ما اقتلعوا الاشجار وزرعوا مكانها محاصيل موسمية . ففي سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤-٩٤٥ م، وحين أغلقت حلب ابوابها في وجه عسكر سيف الدولة ، اقتلع جنده كل الاشجار الجميلة المحيطة بهذه المدينة ، واشجار الفاكهة والبساتين ، وزرعوا مكانها الغلات والحبوب مثل القطن والارز والسمسم (٣٥) .

وقد شعر أهالي الشام بتأخر بلادهم الزراعي ، فقاموا ببعض التحركات التي من شأنها اشعار السلطة بأوضاعهم السيئة . وحاول خلفاء العباسيين اتخاذ بعض الاجراءات الاقتصادية لرفع مستوى البلاد الاقتصادي ، أو بالاحرى العودة بها الى ما كانت عليه في عهد الامويين . فقد تصدى الخليفة المأمون لتعديل أراضي الشام ، ففرق المساح في كافة أجنادها ، واقام شتاء سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م كله في دمشق لهذه الغاية (٣٦) ، ثم وضع كشفا جديداً لهـا .

ويبدو أن هذه الاجراءات الاقتصادية لم ترق للاهالي في كثير من الاحيان، وكانوا يظنون أن العباسيين قاموا بما قاموا به لزيادة الدخل الوارد اليهم من الاراضي (٣٧) .

وكان العامل الاقتصادي أحد أسباب ثورة المقنع اليماني في فلسطين في خلافة المعتصم ، اذ يتضح ذلك جليا حين نعلم أن انصاره كانوا مائة الف ؛ كان منهم ما يزيد على ثمانية وتسعين ألفا من ارباب الزراعة . ولذلك فان رجاء بن أيوب الحضاري امتنع عن الاصطدام به مباشرة ، وعسكر بازائه حتى جاء موسم حراثة الارض ، فانصرف من كان معه من الحراثين واصحاب الاراضي للقيام بشؤون الارض . وبقي المقنع في زهاء ألف أو الفين (٣٨) .

ويتضح أن هؤلاء الزراع لم يكونوا من جند فلسطين وحدها ، بل كان منهم جنود من كافة أجناد الشام ، فيذكر ابن العديم أن رجاء بن أيوب الحضاري حضر لقتال جماعة من زعار أهل الغوطة (٣٩) ، وذلك حين يذكر قدومه لقتال المقنع .

وعلى الرغم مما ذكر عن تأخر بلاد الشام زراعياً ، فان بلاد الشام استمرت في زراعة المزروعات التي كانت تصلح لها تربة ومناخا وموقعا ؛ كما حدث وأدخلت بعض المزروعات الجديدة في هذه الفترة الى البلاد ، كالقطن

الذي ادخله الحمدانيون الى شمال بلاد الشام (٤٠) . كما استمر نظام الري المتبع في الشام على ما كان عليه . وكان هذا النظام يعتمد على مياه الامطار في مناطق كثيرة ، وعلى مياه الانهار في مناطق أخرى . فكمثال على نظام السقاية ، يمكننا ان نذكر الاراضي المحيطة بمدينة دمشق ، حيث كانت تروى من مياه نهر بردى . وكانت شبكة مياهه مع مياه عين الفيجة ، تسقي عامة دور دمشق وسككها وحماماتها (٤١) .

فمن المعروف ان نهر بردى يتفرع الى سبعة فروع قبل دخوله مدينة دمشق . وكان كل فرع من هذه الفروع ينقسم الى أقسام كثيرة تتفرع في المدينة بمقادير معلومة ، وتجري في قنوات مدفونة في الارض الى ان تصل الى مستحقيها بالدور والاماكن الاخرى حسب التقسيم . ثم تنصب فضلات الماء والبرك والمجاري الى قني معقودة تحت الارض حيث تجتمع ثانية في مجرى واحد ، ويبدأ توزيعها في ظاهر المدينة لسقي البساتين (٤٢) .

وبذلك يمكن القول أن الزراعة في دمشق وغوطتها تعتمد على ماء بردى وفروعه ، الا بعضها فيعتمد على مياه الامطار . وقد كانت مساحة غوطة دمشق في أيام الاصطخري مرحلة في مرحلتين (٤٣) ، وتحيط بها المياه الكثيرة التي تسقي الاشجار والزروع المتصلة (٤٤) . وكانت انطاكية كمدينة دمشق بها مياه تجري في دورها وسككها وتسقي القرى الخصبة المحيطة بها (٤٥) .

أما المناطق المعتمدة على مياه الامطار فمتعددة . فجند فلسطين يعتمد في سقايته على ماء المطر ما عدا نابلس ، فان بها مياهاً جارية . ولم تكن عيون المياه في مدينة القدس تتسع لري مزروعاتها . وكانت حمص تعتمد في زراعتها على ماء المطر وكذلك معرة النعمان وما حولها من القرى وجند قنسرين (٤٦) .

وأشهر مزروعات بلاد الشام الحبوب بأنواعها ، كالقمح والشعير والذرة والارز والبسلة والجلبان واللوبيا والحلبة والسمسم والقرطم(٤٧) . وكانت تزرع في مناطق متعددة ، وبشكل خاص في حوران والبثنية (٤٨) ، وبالس (٤٩) .

كما اشتهرت بلاد الشام بزراعة الزيتون . واشهر مناطق زراعته فلسطين، ونخص بالذكر منها نابلس ، وكذلك المنطقة الواقعة جنوبي بيت لحم ، واكثر جبال فلسطين (٥٠) . وكذلك حلب ، وبشكل خاص سرمين (٥١) وبطياس . وقد أكد الشاعر الصنوبري لنا ذلك في شعره حيث يقول :

اني طربت الى زيتـون بطياس   بالصالحية ذات الورد والآس(٥٢)

ولزراعة الكروم شهرة خاصة في الشام حتى تكاد لا تخلو منها منطقة من المناطق . وقد ذكر ابن حوقل ان اهالي مدينة زغر القريبة من البحر الميت ، وأهالي فلسطين عامة كانوا يلقحون كرومهم وكروم فلسطين كما يلقح النخيل بالطلع (٥٣) . والحقيقة أن أهالي فلسطين عامة كانوا يلقحون كرومهم بالحمر الذي يستخرجونه مـن البحر الميت لتبقى عنـاقيده سليمة ، ولئلا تتلف بالدود (٥٤) . ومـن المناطق الاخرى التي اشتهرت بزراعة الكروم بعلبـك ، وجبل مؤاب (٥٥) ، ومنطقة غزه (٥٦) . أما في شمالي بلاد الشام فتتصدر قنسرين زراعته ، وكذلك منبج معتمدة على مياه الامطار (٥٧) .

وكان تفاح الشام مضرب المثل في الجودة ، وكان يحمل منه الى الخلفاء في كل سنة ثلاثون ألف تفاحة ، ويقال انها كانت في العراق أعبق منهـا في الشام (٥٨) . ومن المناطق التي كان يزرع فيها ، حبرون في فلسطين (٥٩) .

وزرعت بلاد الشام النارنج والاترج (٦٠) . وقد حمل اليها من الهند بعد الثلاثمائة للهجرة . وقد كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية مثل انطاكية ، وكذلك في سواحل الشام بما فيهـا فلسطين . ويقال أن ثمار النارنج في فلسطين كانت أحسن منها في غيرها من البلاد (٦١) .

وزرع قصب السكر في بلاد الشام وبشكل خاص في مدينة صور . وبلغ من شهرة مدينة صور بزراعته ، أن بعض أهالي مدينة البندقية ، اتخذوا بهـا أيام الحروب الصليبية مزرعة من القصب (٦٢) . وكذلك اشتهرت بيروت وطبرية بزراعته (٦٣) وغيرها (٦٤) .

وكان الهليون يزرع في بلاد الشام (٦٥) . ومما يؤيد ذلك أن بعض الشعراء انشد الخليفـة المستكفي يصف الهليون ، فالتفت اليـه الخليفة موضحا أن الهليون يتعذر وجوده بنفس الوصف في بغداد ، واذا كان لا بد من الحصول عليه فيجب الكتابة الى الاخشيد ليحمل ذلك مـن نواحي دمشق (٦٦) . كما زرع القلقاس في فلسطين (٦٧) .

واشتهرت مناطق متعددة في الشام بزراعة النخيل ، منها منطقة الغور ، وبشكل خاص في المنطقة الممتدة مـن الشراة الى الحولـة (٦٨) . وفي بيروت واسكندرونة وعين زربة (٦٩) وفي بياس (٧٠) وبيسان والرملة (٧١) ، وفي غزة (٧٢).

كما اشتهرت بلاد الشام بالفواكه ، فقد زرع الموز في المنطقة الممتدة من الشراة الى الحولة (٧٣) ، كما زرع التين في اكثر جبال فلسطين ، وفي الرملة(٧٤)، وغزة (٧٥) وفي قنسرين (٧٦) . وزرع الجميز في جبال فلسطين (٧٧) . كما زرع الجوز واللوز وسائر الثمار الشتوية والصيفية في الجبال المحيطة بملطية ومنطقة القدس (٧٨) . وزرع الفستق في قنسرين . والرمان في ملطية وشيزر وحارم(٧٩). وكان للرمان في ذلك الوقت اهمية كبيرة . فقد ذكر أن سفنا كثيرة كانت تسير في الفرات قاصدة بغداد ، محملة بقراقير الرمان من بلاد الشام الى جانب أطواف الزيت والخشب (٨٠) . أما التوت فقد زرع في منبج . وهناك فواكه أخرى اشتهرت بها الشام مثل القراصيا والبرقوق والمشمش والخوخ والكمثرى والسفرجل والليمون والكباد (٨١) .

كما اشتهرت بلاد الشام بمزروعات أخرى منها البطيخ والقثاء والملوخيا والباذنجان واللفت والجزر والقنبيط والبقلة اليمانية ، وغير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة (٨٢) .

وقد عرفت زراعة القطن اعتبارا من النصف الاول من القرن الرابع الهجري ، نقله الحمدانيون الى شمال بلاد الشام (٨٣) . ويبدو أن هذه الزراعة انتقلت في فترة بسيطة الى جنوب بلاد الشام ، اذ يحدثنا المقدسي من انه رأى القطن يزرع في المناطق القريبة من الحولة (٨٤) .

واشتهرت بلاد الشام أيضا بزراعة أنواع متعددة من الزهور والرياحين - خلدها الشاعران الصنوبري وكشاجم (٨٥) ، اللذان ذخرت أشعارهما بوصفها . ومن رياحين الشام الورود والنرجس والبنفسج والياسمين والنسرين والآس (٨٦) .

وكانت بلاد الشام مجمعا للاخشاب ، فحصن التينات على شاطيء البحر بالقرب من الاسكندرونة كان مجمعا لخشب الصنوبر الذي ينقل منه الى سائر مناطق الشام ، والى مصر والثغور (٨٧) . وكذلك كانت جبال لبنان مستودعا للاخشاب الصالحة لبناء السفن ، التي تستخدم محليا ، وتصدر أيضا ، وخاصة الى مصر .

ويتضح من عرض المزروعات التي عرفتها بلاد الشام في الفترة موضع البحث ، ان الجبال الساحلية كانت مشجرة على الغالب ، وهي ذات قرى

وعيون ومزارع . وكانت الاغوار كذلك ذات قرى وانهار ونخيل . وكان على سيف البادية قرى وفيها عيون ، وتزرع بها الاشجار (٨٨) .

ب ـ الثروة الحيوانية :

تنوعت الثروة الحيوانية في بلاد الشام في هذه الفترة ، فقد ربيت الاغنام في منطقة عمان (٨٩) ، وكذلك الجاموس الذي أصبح له مكانة خاصة في بلاد الشام منذ ان ادخل اليها في اواخر العصر الاموي . فقد شكا الاهالي كثـرة هجوم السباع عليهم ، فأمرت الحكومة بوضع أربع آلاف جاموسة على حدود البلاد الشمالية ، لان الجاموس يعتبر اكبر عدو للاسود (٩٠) . وانتشرت تربيته من شمالي بلاد الشام الى جنوبيها ، فاغتنى أهالي فلسطين بتربيته واعتمدوا في غذائهم على لبنه ولحمه . واستخدم في مناطق كثيرة في الشام للاعمال الزراعية ، وقد انتقل عن طريق الشام الى ايطاليا والاندلس (٩١) .

أما البقر فلم يكن لحمه مستساغا ، وانما كان يربى للانتفاع بلبنه . فبعد أن كان الناس يأكلون لحمه في القرن الثاني الهجري ، ذاع بينهم ان لحمه ضار بالصحة ، بل ان بعض الاطباء كان يعتبره ساما ، وكان ابو بكر الرازي لا يوصي الا بلبن الغنم ولحم الضان (٩٢) .

والى جانب ذلك اهتم أهالي الشام بتربية الخيل والبغال والحمير ، ومن الطيور اهتموا بتربية الاوز والدجاج والحمام (٩٣) .

وقد برع أهالي الشام في تربية النحل لاستخراج العسل . وكان العسل عندهم أنواعا متميزة ، واحسنه ما رعى السعتر في الاراضي المحيطة بالقدس وجبل عاملة (٩٤) .

أما السمك فقد كان يستخرجه أهالي الشام من طبرية ، وأشهر انواعه السمك البني الذي حمل اليها من واسط (٩٥) . كما كانوا يستخرجون السمك من خليج العقبة (٩٦) .

الصناعة

اشتهرت بلاد الشام في فترة البحث ، بعدد من الصناعات النسيجية والمعدنية والغذائية . ففي معرض الصناعات النسيجية ، اشتهرت مدينة دمشق

بالذات بصناعة الاقمشة الحريرية التي لا تزال تسمى الدمقس (دامسكو) (٩٧). كما عرف الدمشقيون نسج الديباج وغيره (٩٨) . واشتهرت حمص بنوع من الاقمشة ، تقارب تلك المصنعة في مدينة الاسكندرية من حيث الجودة والحسن(٩٩) . كما أن مدينة طبرية كانت تنسج نسيجا ابيض تصنعه ثيابا . وكان ثمن الثوب منه أربعمائة درهم لجودته ، في نفس الوقت الذي كان غيره من الاثواب يساوي مائة درهم فقط (١٠٠) . وكان الدمشقيون يستخدمون الصباغ في تلوين الملابس ، وكانوا بارعين في صناعته (١٠١) .

واشتهرت كذلك عسقلان بوجود حرير فائق فيها (١٠٢) ، وبلغت بذلك صناعة المنسوجات الحريرية في الشام درجة كبيرة من الرقي ، كمثيلاتها في فارس والعراق .

وكذلك اشتهرت أعناك في نواحي حوران بصناعة البسط ، وبصناعة نوع جيد من الاكسية (١٠٣) ، كما اشتهرت بلاد الشام كغيرها من سائر البلاد الاسلامية بصناعة الحصر (١٠٤) ، وبشكل خاص سكان قدس بالقرب من طبرية الذين اشتهروا بفتل الحبال الى جانب صنع الحصر (١٠٥) .

أما الصناعات المعدنية ، فكانت بسيطة ، ولكنها ذات اهمية كبيرة بالنسبة لذلك العصر . فقد اشتهرت دمشق بصناعة القسي ، وكانت قسيها معروفة بدقة الصناعة،كما برع أهالي الشام في صناعة الفسيفساء . وقد شاهد الرحالة المقدسي جدران أروقة المسجد الحرام وقد زينت بالفسيفساء التي حملها صناع الشام ومصر (١٠٦) . واستمر أهالي الشام ببراعتهم في هذه الصناعة ، فتركوا لنا نموذجا جميلا في قبة الظاهرية في دمشق (١٠٧) .

كما حافظت بلاد الشام على الرغم من كل ما تعرضت له ، على شهرتها في صناعة الخزف وبشكل خاص المنقوش منه . وكذلك برع أهالي الشام في صناعة الزجاج . وقد وصف زجاج الشام من قبل كثير من المؤرخين والرحالة ، وضرب به المثل في الرقة والصفاء ، حتى يقال ارق من زجاج الشام ، واصفى من زجاج الشام (١٠٨) . وقد مهر أهل الشام في زخرفة الزجاج بالذهب وتلوينه بألوان أخرى . وبلغوا في ذلك درجة كبيرة من الاتقان . وكان الزجاج الملون المطلي بالميناء يصدر الى كثير من جهات العالم (١٠٩) .

وكان بالقرب من بيروت (١١٠) وفي ضواحي دمشق ولا سيما في داريا مناجم للحديد ، ساعد وجودها على نمو بعض الصناعات ، واشتهر فولاذ دمشق بغرابة سقايته وصلابته ورونقه . وقد اتقن اهالي دمشق بواسطة هذه المادة صناعة السيوف ، ولشهرة سيوف دمشق فقد امر خمارويه بن احمد بن طولون بصناعة سبعة عشر سيفا دمشقيا لغلمانه مقابل سيوفهم التي تبرعوا بها للاعرابي الذي مدحه (١١١) . وقد نقل الصليبيون سر هذه الصناعة الى بلادهم . واستمر الصناع الدمشقيون محتفظين بتفوقهم في هذه الصناعة الى ان سباهم تيمورلنك، فماتت هذه الصناعة في دمشق لتزدهر في بلاد العجم (١١٢) .

وابدع اهل دمشق في ترصيع الآنية المعدنية بالذهب والفضة ، كما ابدعوا في النقش على الخشب . فقد اكتشف تابوت من خشب الجوز للسيدة سكينه بنت الحسين بن علي ، وعليه نقوش عربية نفيسة ، وكتابة كوفية يرجع تاريخها الى سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ ـ ٩٥١ م . وعلى الرغم من الشك في التاريخ الذي ورد على هذا التابوت ، لان السيدة سكينة توفيت قبل هذا التاريخ بكثير ، الا انه من الجائز ان يكون هذا التابوت قد صنع لها بعد فترة من وفاتها ، أو انه كان لغيرها . فما يهمنا هو النقوش العربية الجميلة التي نقشت عليه (١١٣) ، وما فيها من مهارة واتقان .

وقد وجد في بيت جبريل في فلسطين مقاطع للرخام . كما وجد في منطقة عمان جبال بيض من الحوارة التي تستعمل في طلاء سقوف المنازل باللون الابيض. كما كانت توضع منه طبقة فوق سطوح المنازل . كما اشتهرت فلسطين بمقاطع حجارة بيضاء استخدمت في البناء (١١٤) . واستخرج الكبريت من منطقة الاغوار، كما استخرج الملح من البحر الميت (١١٥) . واستخدم الحمر في تلقيح الكروم في فلسطين (١١٦) .

واشتهرت دمشق وطبرية وطرابلس الشام بصناعة الورق (١١٧) . كما مهر أهل الشام في تجليد الكتب . وقد برع الرحالة المقدسي في التجليد على طريقة اهل الشام . وكان يطلب منه تجليد الكتب كلما حل بمنطقة . فقد زار اليمن ونزل في عدن ، فأعجبوا بتجليده ، ودفعوا له دينارين في تجليد المصحف (١١٨) .

وكذلك اشتهرت بيت المقدس بصناعة السبح لكثرة زوار المسجد الاقصى، ولا تزال هذه الصناعة مزدهرة الى اليوم (١١٩) .

اما الصناعات الغذائية ، فعلى رأسها صناعة الصابون . وكانت بالس وحلب مشهورتين بصناعته (١٢٠) . كذلك اشتهرت نابلس وحلب بصناعة الزيت المستخرج من الزيتون (١٢١) ، والذي كان من أهم خصائصه الصفاء والنظافة . وكان الزيت يحرز في جباب كبيرة بمدينة حلب . ولما بلغ البيزنطيون هذه المدينة سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م عمدوا الى هذه الجباب ، فصبوا فيها الماء حتى فاض الزيت على وجه الارض (١٢٢) . وكانت الشام تمد البلاد الاسلامية بما تحتاجه من الزيت الذي كان يعرف بالركابي ، لانه كان يحمل على الابل من الشام (١٢٣).

النشاط التجاري

مما لا شك فيه أن التجارة تحتاج في نشاطها وازدهارها الى توفر عناصر متعددة أهمها انتشار الامن ، وسهولة الانتقال من مكان الى آخر دون عوائق ، وتوفر الحماية لاموال التجارة من المصادرة وغيرها ، الى جانب وجود أسواق مزدهرة تصرف فيها هذه البضائع . واذا حاولنا أن نناقش هذه الامور في بلاد الشام في فترة البحث ، لوجدنا ما يلي :

١ — ان بلاد الشام في معظم فترة البحث لم تخضع في حكمها لوال واحد ، بل انها في كثير من الاحيان كانت توزع على ولاة متعددين . فقد كان يعين لكل جند من أجناد الشام وال مستقل عن الآخر تمام الاستقلال . ومما لا شك فيه ان هذا الاستقلال بين أجناد البلد الواحد كان من أكبر الدواعي لتأخر التجارة في هذه المنطقة ، لانه كان يشكل عوائق على حركتها . فبعد أن كان التجار الذين يمرون في الشام يدفعون على تجارتهم مكوسا معلومة محددة لخزينة الدولة ، نراهم يضطرون لدفع مكوس عند انتقالهم من جند الى آخر . ومما يؤيد ذلك ما ذكره المقدسي عن مدينة بيت المقدس . فقد كان يفرض في هذه المدينة مكوسا ثقيلة على البضائع ، فضلا عما كانت تتخذه من اجراءات اخرى تقيد حريـة التجارة . فقد كان على أبوابها وعلى ما يبتاع بها رجال كانت وظيفتهم أن لايدعوا أحداً يحمل بضاعة تنفع الناس الا ويجبرونه على بيعها فيها (١٢٤) . كما فرض في الشام ضرائب حماية على كل من يملك مركبا ، وكان الذي يأتي من ذلك يعادل ما يأتي من خراج الارض (١٢٥) .

٢ — ان بلاد الشام كانت مضطربة سياسيا فانتشر قطاع الطرق ، وسيطر الاعراب على طرق القوافل ، وقاموا بالسلب والنهب (١٢٦) . وقد تعين على

كل قافلة تعبر الطريق أن تكون مخفورة برجال القبيلة التي تمر بأراضيها ، وعليهم أن يدفعوا مقابل ذلك اتاوة لها ، والا هلك رجالها وسلبت أموالها (١٢٧) .

٣ ـ ادت قلة الامن الى انقطاع بعض الطرق في الشام . فيذكر ابن حوقل (١٢٨) أن طريق الرقة اثناء رحلته كان منقطعاً ، ولا يمكن للتجار اتخاذه ، وهو يعلل هذا الانقطاع على التجار لسببين : أولهما الخوف من هجوم مفاجىء للبيزنطيين ، والثاني اعتراض السلطان عليهم ، وقد يكون قصد بذلك مصادرة اموالهم .

٤ ـ مصادرة أموال التجار (١٢٩) ، فقد عرف عن الاخشيد مصادرته للتجار الاغنياء (١٣٠) . كما أن الامير سيف الدولة وابنه من بعده كانا يصادران أموال التجار وبضائعهم . فقد صادر سيف الدولة التجار الذين حوصروا في بالس ـ أثناء قتاله مع كافور ـ ولم يسمح لهم بتركها الا بعد أن تنازلوا عن احمال من البز واطواف من الزيت وغير ذلك من متاجر الشام . فعل ذلك مرتين متواليتين في فترة زمنية قصيرة . وقدر ما صادره بمليون دينار . وكذلك فعل ابنه بعده ، فقد كان يصادر ما في أيدي تجار حلب (١٣١) .

٥ ـ احتكار التجارة او بعض مواد التجارة من قبل الامراء في البلاد ، طلباً للمال . فقد كانوا يشترون البضائع من التجار ثم يعرضونها للبيع ، هذا الى جانب أن بعض الصناعات المحلية كانت تصنع لمصلحتهم وتباع لحسابهم مثل الصابون والخل (١٣٢) . ومن الامثلة عن مصادرات الاخشيد ما سبق أن أشرت اليه .

وقد ظلت التجارة مستمرة على الرغم من كل ما سبق ، بسبب موقع بلاد الشام الهام ، وكونها مصدراً من مصادر الثروة الزراعية والصناعية ، التي جعلت التجارة المورد الرئيسي لاهل البلاد .

آ ـ المعاملات التجارية والمالية :

كان التعامل المالي في بلاد الشام في أوائل القرن السابع الميلادي بالدنانير الذهبية التي كانت سائدة في الدولة البيزنطية ، وكانت تسمى بالقيصرية ، وكذلك بالدراهم الفضية الفارسية . وحين فتح العرب الشام لم يغيروا النظام المالي البيزنطي الذي كان قائماً بها ، واستمر التعامل المالي على اساسه . ومنذ

سنة ٧٦ هـ /٦٩٥ م اخذت الشام تتعامل بعملة اسلامية سكها الخليفة عبد الملك ابن مروان ، حلت مكان سابقتها البيزنطية ، وكان وزن هـذا الدينار الذهبي ٢٥ر٤ غرام وتغير وزنه بتغير العهود والحكام (١٣٣) .

وفي العصر العباسي اخذت كل مدينة كبيرة في الشام تضرب النقود . فظهرت نقود من ضرب الرافقة ، وأخرى في قنسرين أو حلب أو دمشق أو الرمله ، وكانت هذه النقود تستعمل الى جانب الدنانير العباسية التي سكها خلفاء بني العباس في العراق (١٣٤) .

ومن الدنانير الذهبية التي شاع استعمالها في الشام الدنانير التي ضربها أحمد بن طولون في مصر سنة ٢٦٦ هـ ، التي كتب على أحد وجهيها « بسم الله ضرب هـذا الدينار بمصر سنة ست وستين ومائتين » ، وعلى الوجه الآخر « لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، الله محمد رسول الله ، المعتمد على الله ، أحمد بن طولون ، محمد رسول الله أرسله . الخ (١٣٥) .

وكذلك فقد ضرب لؤلؤ مولى ابن طولون نقوداً في الرافقة مشابهة للنقود التي ضربها سيده وكتب عليها اسم لؤلؤ تحت اسم أحمد بن طولون (١٣٦) .

وضرب خمارويه نقوداً ذهبية في الرافقة سنة ٢٧٣ هـ ، وفي حران سنة ٢٧٦ هـ وهي مشابهة لما ضرب في عهد أحمد بن طولون (١٣٧) .

وقد ضرب محمد بن صفوان العقيلي في قرقيسيا سنة ٢٧٥ هـ نقوداً ضرب على أحد وجهيها « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، المفوض الى الله،محمد، بسم الله . ضرب هذا الدينار بقرقيسيا سنة خمس وسبعين ومائتين، للهالامر» وعلى الوجه الآخر « الله ، محمد رسول الله ، المعتمد على الله ،احمد بنالموفق، محمد بن صفوان (١٣٨) .

وقد ضربت في دمشق سنة ٢٧٦ هـ نقود مثل النقود التي ضربها خمارويه في مصر ، وهذه الاخيره على نسق النقود التي ضربها أحمد بن طولون (١٣٩) . كما ضربت نقود ذهبية في الرافقة سنة ٢٧٨ هـ . وكذلك ضربت نقود في حلب سنة ٢٨١ هـ عليها اسم المعتضد بالله وخمارويه (١٤٠) . وفي الرملة ضربت نقود سنة ٢٩٠ هـ عليها اسم المكتفي بالله ، واسم هرون بن خمارويه .

وضربت نقود ذهبية في العهد الاخشيدي معظمها في فلسطين . منهـــا ما ضرب سنة ٣٣٢ هـ وعليها اسم المتقي لله والاخشيد (١٤١) . وما ضرب في

سنة ٣٤٦ هـ وعليها اسم المطيع (١٤٢) وابو القاسم بن الاخشيد ، وأخرى في سنة ٣٥٥ هـ في عهد كافور (١٤٣) .

كما ضربت فلوس نحاسية (١٤٤) في مناطق متعددة من بلاد الشام ، منها فلوس ضربت في مدينة حلب سنة ١٤٦ هـ ، ضربها الامير صالح بن علي . وهناك فلوس أخرى ضربت في قنسرين سنة ١٥٧ هـ ضربها موسى مولى أمير المؤمنين (١٤٥) . وكذلك ضربت فلوس في مدينة الرافقة سنة ١٨٩ هـ كتب على احد وجهيها « بسم الله ضرب هذا الفلس بالرافقة سنة ١٨٩ هـ » ، وعلى الوجه الآخر « بسم الله مما أمر به عبد الله هرون أمير المؤمنين أعزه الله (١٤٦) . وكذلك ضربت فلوس في دمشق سنة ١٩٢ هـ (١٤٧) .

ويبدو أن استعمال الدراهم الفضية في الشام أخذ في الانتشار مع بداية القرن الرابع الهجري ، حتى ان معاملات كثيرة اخذت تجري به . فقد انفذ سيف الدولة سفتجة بثلاثة آلاف درهم الى احد رجال دولته المسمى بالناظري (١٤٨) .

وكثيراً ما كانت بعض المعاملات البسيطة تتم عن طريق المقايضة (١٤٩) . وكانت المقايضة كثيرة الانتشار في بادية الشام . ففي أثناء المساومة بين الطرفين، يضع أحدهما يمينه في يمين الآخر ، فاذا قال البائع « بعت » وقال الشاري « اشتريت » ترك كل منهما يد صاحبه وتم البيع والشراء (١٥٠) .

وكانت المعاملات المالية الضخمة تتطلب وسائل للدفع مأمونة من الضياع ، خفيفة الحمل ، وبعيدة عن متناول اللصوص . ومن هذه الوسائل السفاتج او الحوالات . وكانت تستخدم في القرنين الاول والثاني الهجريين على نطاق ضيق. ثم عم استخدامها في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين . وذلك تبعاً لنشاط التجارة ، وازدياد المعاملات المالية ، وصعوبة حمل المبالغ الكبيرة من بلد الى آخر .

وقد كثر استعمال الحكام والتجار للسفاتج على السواء . وهذه السفاتج تكون قابلة للصرف في أي بلد ، ولاي من عملائهم ، وكانوا في هذا يقومون بدور البنوك . فكان التجار يأخذون رقاعاً منهم بما لديهم من الاموال ، ثم يشترون ما يلزمهم ويحولون ثمنه عليهم (١٥١) .

وتذكر قصص متعددة حول استعمال السفاتج . فيحكى أن سيف الدولة ورد الى بغداد متخفياً أثناء امرة توزون ، فاجتاز شارع دار الرقيق ، ودخل

دار بعض الفتيان فسمع وشرب معهم ، وعند خروجه استدعى دواة فكتب رقعة وتركها فيها ثم انصرف . ففتحوا الدواة ، فاذا في الرقعة ألف دينار على بعض الصيارف ، فتعجبوا وحملوا الرقعة وهم يظنونها ساذجة ، فأعطاهم الصيرفي الدنانير تواً ، فسألوه عن الرجل، فاذا هو سيف الدولة بن حمدان (١٥٢).

وكذلك أنفذ سيف الدولة سفتجة بثلاثة آلاف درهم الى أحد رجال دولته المسمى بالناظري ــ بعد أن طلب الامان وعاد اليه ــ وكان قد هرب الى كافور الاخشيدي بعد أن استولى سيف الدولة على ضيعته (١٥٣) .

كما كان الولاة يرسلون مازاد من دخل ولاياتهم الى مقر الخلافة في بغداد على شكل سفاتج (١٥٤) .

وقد وجد في بلاد الشام فنادق خصصت للتجار الغرباء ، وكانت أشبه بالاسواق الكبيرة . وكان التجار يضعون بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها ويقفلون غرفهم بأقفال رومية .

ب ـ التجارة الداخلية :

كان لكل طائفة من التجار في بلاد الشام سوق يختص بها . واخذت الاسواق أسماء السلع التي تبيعها ، فهناك دار بيع الفاكهة والخضار التي كانت تسمى دار البطيخ (١٥٥) . وكان الشاعر الوأواء منادياً بها ينادي على الفواكه قبل أن يصبح شاعر سيف الدولة (١٥٦) . وهناك سوق الصاغة ، وسوق السراجين ، وسوق الزجاجين (١٥٧) . وأكبر أسواق دمشق السوق الذي يصل من باب الجابية الى باب شرقي .

كان النشاط التجاري الداخلي يتركز في أسواق المدن ، حيث كان التجار يمكثون بها الى ما بعد الظهر ، ثم يعودون الى منازلهم في المساء . وكان نظام الاسواق طولاني ، تمتد الحوانيت على طول الشارع من الجانبين (١٥٨) . وكانت أسواق دمشق من أحفل الاسواق وأحسنها انتظاماً ، وكذلك كانت قيسارياتها. فقد كانت كل واحدة منها منفردة بضبتها وأقفالها ، وأبوابها مصنوعة من الحديد ، تشبه ابواب القصور (١٥٩) . ويبدو ان ذلك كان لوقوع دمشق على طريق الحجاج الرئيسي . فقد كان الحجاج يجتمعون فيها عند ذهابهم الى مكة لاداء فريضة الحج ، وعند عودتهم منها بعد أداء الفريضة ، مما ساعد على تدفق السلع الى أسواقها . وكان يرافق قافلة الحجاج جماعة كبيرة من التجار

ليستظلوا بأمان القوة العسكرية المرافقة للقافلة ، والامثلة كثيرة (١٦٠) .
وكان طريق قوافل الحجاج الذي يجتاز بلاد الشام يمر في الطريق المحاذي لبادية الشام ، وهو الذي يمر شرقي نهر الاردن . وبعد العودة من الحج يقوم الحجاج بزيارة بيت المقدس والمسجد الاقصى ، وقبر ابراهيم الخليل . وقد أدت هذه الحركة المستمرة الى انتشار السلع في أسواق دمشق . ومن المرجح أن المدن البحرية التي لم تكن تبعد عن سوق دمشق كثيراً مثل طرابلس وبيروت وصور وعكا كانت تحصل على ما تحتاج اليه من السلع من سوق دمشق (١٦١) ، الى جانب ما كانت تحصل عليه من البضائع نتيجة تجارتها البحرية مع الخارج . كما أن دمشق أصبحت مركزاً هاماً للقوافل التجارية الآتية من آسية الصغرى أو من العراق الى الجزيرة العربية ومصر (١٦٢) .

كما اشتهرت بيت المقدس كسوق ناقلة للتجارة بين الشرق والغرب . فقد كان معظم حجاج المسلمين يعملون على زيارة بيت المقدس بعد انتهاء فريضة الحج . وهناك يتقابلون في القدس مع الحجاج المسيحيين (١٦٣) ، وتتاح الفرصة للطرفين لتبادل السلع . ويقال أنه في ١٥ سبتمبر / أيلول من كل عام كان يقام في بيت المقدس سوق كبيرة يفد اليها تجار الامم المختلفة حيث يتبادلون السلع والبضائع (١٦٤) .

ولا يخف أن الانظمة التي سادت في القدس كانت لا تساعد على نشاط التجارة ، فقد كانت تفرض مكوساً باهظة على ما يباع في أسواقها . كما كان هناك رجال يقفون على أبواب المدينة ، ويجبرون التجار الذين يمرون بقربها على بيع متاجرهم فيهـا ، وخاصة اذا كان ما يحملونه مـن المواد الضرورية للسكان (١٦٥) .

وكذلك كانت انطاكية التي حصنها الخليفة المعتصم من اهم مراكز بلاد الشام التجارية . ومن اهم مراكز الاتصال التجاري بين الشرق والغرب (١٦٦) . ولم يكن يعوق الحركة التجارية في هذا الميناء الا وجود شعاب نابتة تحت الماء بينها وبين قبرص تسمى السقالة ، كانت تتحطم عليها السفن (١٦٧) ، وكانت بيروت سوقاً تجارية هامة يرد اليها التجار بالبضائع ، وينقلون أخرى عـن طريقها ، الى جانب ما كان فيها من غلات متوافرة . وكانت ايلة من أهم الموانىء التجارية على البحر الاحمر ، تنقل السلع عن طريقها الى البلاد الخارجية (١٦٨) . وكانت الرملة مركزاً تجارياً هاماً ، وبها فنادق جيدة(١٦٩) . وكانت حلب من

أكبر الاسواق التجارية ، وكانت تضم بين أرجائها فنادق كثيرة ، وأســواق خاصة بكل تجارة .

ج ـ التجارة الخارجية :

كانت بلاد الشام مركزاً تجاريا ، وطريقا ناقلا للمتاجر . وعلى الرغم من ذلك ، فان التجارة الخارجية فيها ، لم تكن تتناسب مع موقع بلاد الشام الهام بين الشرق والغرب ، ولا مع ما يتوافر في البلاد من مواد أولية تحتاجها الدول الإسلامية الاخرى ، والدول المجاورة . وذلك للاسباب المذكورة سابقا ، وعلى راسها الاحوال السياسية ، وقلة الامن . وقد استطاع أهالي الشام التغلب على هذه العوائق الى درجة لا بأس بها ، وذلك بمسيرهم مع قوافل الحج في الموسم ليكونوا في حمايتها (١٧٠) .

وقد سلك التجار في مهماتهم ، أهم الطرق التجارية التي كانت تمر ببلاد الشام في تلك الفترة وهي :

١ ـ الطريق البري من غرب أوربا الى المشرق ، ويبدأ من بلاد الاندلس الى طنجة عبر مضيق جبل طارق مجتازا المغرب الاقصى والاوسط والادنى عن طريق تونس حتى مصر . ثم يتجه الى بلاد الشام مارا بالرملة ودمشق ، ثم الى العراق مارا بالكوفة وبغداد (١٧١) .

٢ ـ الطريق النهري طريق الفرات . فقد كان صالحاً للملاحة من الموضع الذي فيه مدينة سميساط . فكانت تنقل فيه التجارة بين الشام وبغداد . وعلى حين كان هـذا الطريق مرغوبـاً تجاريـاً ، فانه لم يكن مهما بالنسبة لنقـل المسافرين (١٧٢) .

وقد تاجرت بلاد الشام بمنتجاتها الزراعية والصناعية مع الدول الاسلامية ، فحمل تجار الشام بضائعهم كالفاكهة والسلاح والحديد الى عاصمة الخلافة العباسية (١٧٣) ، كما صدروا الى الفسطاط الحديد لصناعة الاسلحة (١٧٤) . واستوردوا منها الجلود (١٧٥) .

وأهم المواد الزراعية والحيوانية التي صدرتها بلاد الشام الى البلاد الاسلامية الاخرى الزيتون ، والتين المجفف ، والخرنوب ، والزبيب ، والتفاح ،

والقطن ، والحبوب ، والعسل ، وقلب اللوز ، والارز ، والاشنان ، والجبن ، والاغنام (١٧٦) ، والرمان (١٧٧) .

وأما المواد المصنعة فأشهرها الزيت(١٧٨)، والسبح، والصابون ، والفوط، والمرايا وقدور القناديل ، والخرز والزجاج المخروط ، والابر ، وشقاق المطارح، والكاغد ، والبز ، وثياب المنيرة والبلعيسية ، والديباج ، والحبال ، والسكر ، ودهن البنفسج (١٧٩) .

وكانت بلاد الشام معبرا وطريقا للتجارة الاوربية الى عاصمة الخلافة ، والى بلاد المشرق الاقصى . وظهر في هذا المجال في بلاد الشام منذ القرن الثالث، التجار الراذانية ، وهم تجار يهود كانوا يبحرون بتجارتهم من مقاطعة بروفانس بفرنسا ، ويحملون الخدم والغلمان والجواري والديباج والخز الفائق والفراء والسمور حتى انطاكية التي كانت محطة لتجارتهم ، ثم تنقل هذه البضائع برا حتى الفرات ثم الى بغداد ، وهناك يعاد تصدير بعضها الى عمان والهند والصين (١٨٠) . وكذلك كان لمدينة أمالفي الايطالية علاقات تجارية مع انطاكية (١٨١) .

وهكذا فانه يمكننا القول انه على الرغم من الصراعات السياسية التي كانت تجري أحداثها في الارضي الشامية في تلك الفترة ، وعلى الرغم من قلة الامن ، فقد نشطت التجارة في المدن الساحلية مثل طرابلس وبيروت وصور ، وسائر الموانىء الساحلية الاخرى ، بسبب وقوعها على البحر المتوسط ، الذي كانت التجاره عبره نشطة . الى جانب نشاط بعض المدن الداخلية .

وعلى الرغم من اشتغال أهالي الشام بتجارة البحار ، الا ان مجال تجارتهم في هذه الفترة ، ظل أكثر محلية من تجارة بعض البلاد الاسلامية الاخرى (١٨٢).

---

(١) التنوخي : المستجاد من فعلات الاجواد ، تحقيق ونشر محمد كرد علي ، طبعة المجمع العلمي العربي ، مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٦ م ص ١٨٤ — ١٨٦

— الفرج بعد الشدة ، مطبعة الهلال بالفجالة مصر سنة ١٩٠٤ ، جزءا ، ص ٩٣ — ٩٨

— كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، جزء ٢ ، ص ٢١٨ — ٢١٩

(٢) كان بيت مال دمشق في صحن الجامع الاموي ، مرفوعا على ثمانية أعمدة . وكانت حيطانه مرصعة بالفسيفساء . انظر : المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ١٨٢ و ص ١٥٧

(٣) كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، جزء ٢ ، ص ٢١٥

(٤) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧ ، جزء ١ ، ص ١٩٧ ويقال بأن هذه التلجئة كانت موجودة في عهد الامويين . وكان هذا النظام بداية لنشوء نظام الحمايات الذي شاع في الخلافة الاسلامية في الفترة المتأخرة .

(٥) محمد جمال الدين سرور : الحضارة الاسلامية في الشرق ، ص ١٠٠

ـ أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٢٢ ، وجزء ٢ ، ص ١٠

(٦) هو أمير الرملة . انظر ابن سعيد الاندلسي : المغرب في حلى المغرب ، الجزء الاول من القسم الخاص بمصر ، ص ١٥٣ ـ و ص ١٥٥

(٧) ابن سعيد الاندلسي : المصدر السابق ، ص ١٥٥

(٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ٦ ص ٣١٨ ـ ابن الوردي : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٢٧٩

CANARD; Sayf Al Dawlal., P. 43.

(٩) الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٦ ـ ٢٨٧

(١٠) إبن حوقل : صورة الارض ، طبعة ليدن ١٩٣٨ ، ص ١٧٥

ـ وانظر تفاصيل الجباية في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك في زيدان : التمدن الاسلامي ، جزء ١ ، ص ١٧٦

(١١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن مطبعة بريل ١٩٦٧ ، ص ١٠٤

ـ كرد علي : الادارة الاسلامية ، ص ١٤٤ وانظر أيضا فيما بعد الثروة الزراعية .

(١٢) كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، جزء ٢ ، ص ٢١٥

(١٣) نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، وهو يلي ابن خرداذبة المسالك والممالك ، طبعة ليدن ١٨٨٩ م ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧

(١٤) الارتفاع : الايراد والضريبة .

(١٥) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، منشورات الاعلمي بيروت ١٩٧١ ، ص ١٥١

(١٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، جزء ٩ ، ص ١١٦ ـ ١١٧

(١٧) مخطوطته ، مجلد ٦ ، ورقة ٥٢

(١٨) انظر قدامه بن جعفر : المصدر السابق ، ص ٢٥١
— جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، مطبعة الهلال طبعة رابعة ١٩٢٦ ، جزء ٢ ، ص ٥٤ و ٥٩ — حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، جزء ٢ ، ص ٢٨٩ وجزء ٣ ، ص ٢٩٤

(١٩) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٩ — ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، طبعة ليدن ١٨٨٩ م ص ٧٥ — ٧٩ — زيدان : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٥٩ و ص ٦١

(٢٠) زيدان : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٠٧ حتى ١١١

(٢١) ابن حوقل : المصد رالسابق ، ص ١٨٨ — ١٨٩

(٢٢) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٩

(٢٣) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٠٤ . ويذكر كرد علي : في كتابة الادارة الاسلامية ، ص ١٤٤ ذلك ولكن مع بعض التغيير دون ذكر المصدر الذي استقى منه المادة

(٢٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، المجلدة الثانية ، قسم اول ، تحقيق المنجد ، ص ١٦٦

(٢٥) CANARD : **Sayf Al Dawla** - PP. 28 - 29 -

(٢٦) كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، جزء ٢ ص ٢١٣

(٢٧) كرد علي : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢١٥

(٢٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جزء ١ ، ص ١٧٧ — ١٧٨

(٢٩) البلاد ذري : فتوح البلدان ، طبعة بريل ١٨٦٦ ، ص ١٥١

(٣٠) محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ ، دار المعارف بمصر ، ص ٤٠٧ — ٤٠٨

(٣١) المجلة التاريخية للجمعية العراقية للتاريخ والآثار ، العدد الثالث ١٩٧٤ ، مقال عن تراث العرب العمراني في فلسطين في ظل الحكم الاسلامي ، للدكتور عواد مجيد الاعظمي ، ص ٢٣٨

(٣٢) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢١١ — ٢١٢ — آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣

(٣٣) هو أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبري من مواليد انطاكية ، التحق بمجلس سيف الدولة ، وكان أمينا على خزانة كتبه . تغنى كثيرا بذكر حلب والرقة . كان يحب وصف الازهار ومنها الورد والنرجس ، توفي سنة ٣٣٤ هـ وهو يناهز الخمسين . انظر ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٩٨ — آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٤٦٣ — ٤٦٤ — ٤٦٥

(٣٤) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ص ٢٢١ – ٢٢٢
(٣٥) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢١ – ٢٢٢
(٣٦) ابن العديم : بغية الطلب ، مخطوطة ، مجلد ٤ ورقة ٩٧ – ٩٨ وهذا ما يعرف في التاريخ الاسلامي بروك الارض .

(٣٧) حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، جزء ٢ ، ص ١٦٥
(٣٨) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١١٦ – ١١٧ – ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جزء ٣ ، ص ٢٧٠ – العيون والحدائق ، الجزء الاول ، ص ٤٠٨
(٣٩) ابن العديم : بغية الطلب ، مجلد ٦ ، ورقة ٥٢
(٤٠) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٥٠ – ٣٥١
(٤١) ابن حوقل : المرجع السابق ، ص ١٧٤

(٤٢) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، جزء ٤ ، ص ٩٥ – ٩٦
(٤٣) هي المسافة التي يقطعها المسافر في يومه . انظر المنجد ، مادة رحل
(٤٤) الاصطخري : صور الاقاليم ، طبعة ليدن ١٩٦٧ ، ص ٤٥
(٤٥) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٦
(٤٦) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٦
(٤٧) القلقشندي : صبح الاعشى ، جزء ٤ ، ص ٨٦
(٤٨) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٠
(٤٩) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨٠
(٥٠) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٢
– المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٢ و ص ١٧٤
– الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٤

(٥١) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٩٨ و ص ١٢٦
(٥٢) انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٢ ، ص ٢٢١
(٥٣) وقد نقل الينا ذلك عن ابن حوقل كل من :
– آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٢٩
– حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٧
(٥٤) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٧
(٥٥) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٠ و ص ١٦٢ و ص ١٧٨
(٥٦) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٩٨

(٥٧) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨١ و ص ١٧٨

(٥٨) الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ١٥٦ - سرور : المرجع السابق ، ص ١٣١

- حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢١

(٥٩) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٢

(٦٠) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٢٤٦

(٦١) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٢ ، وجزء ٣ ، ص ٣٢١ - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٠

(٦٢) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٣٢ - ١٣٣

(٦٣) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٦

(٦٤) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦١ ، و ص ١٦٢

(٦٥) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٧

(٦٦) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزء ٢ ، ص ٣٨٩

(٦٧) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٧

- آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٩٧

(٦٨) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٣ و ص ١٧٦

- المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٩

(٦٩) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٦ و ص ١٨٢

(٧٠) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٧

(٧١) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦١ - ١٦٢

(٧٢) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٩٨

(٧٣) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٦ و ص ١٧٩ و ص ١٧٥

(٧٤) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٤

(٧٥) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٩٨

(٧٦) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٢ و ص ١٧٨

(٧٧) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٤

(٧٨) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨١

- المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٦

- الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٦

(٧٩) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٨ و ص ١٨١

- القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٢٣ - ١٢٤

(٨٠) آدم ميتز : المرجع السابق ، ص ٣٠٣

(٨١) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٢٧ و ص ٨٦

(٨٢) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٧

(٨٣) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٥٠ — ٣٥١
(٨٤) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٠
(٨٥) عن الصنوبري انظر فيما سبق أما كشاجم فهو من الشعراء المشهورين وقد نسخ السري ديوانه واضاف اليه من شعر الخالديين ليثبت سرقتهما للشعر .
(٨٦) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٧
(٨٧) الاصطخري : المسالك والممالك ، ص ٤٧
— ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨٢
— آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٢٨

(٨٨) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٦
(٨٩) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٦
(٩٠) المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٢٠٧ — ابن العديم : مخطوطة بغية الطلب ، جزء ٨ ، ص ٢٠٧
(٩١) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٤٠
(٩٢) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٤٠ — ٣٤١
(٩٣) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٨
(٩٤) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٤
(٩٥) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٤٣
(٩٦) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٨

(٩٧) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٣٧ — حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٩
(٩٨) مجلة المجمع العلمي بدمشق ، مجلد ٢ لسنة ١٩٢٢ ، ص ٢٢
(٩٩) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١١٣
(١٠٠) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، المقدمة ص ى
(١٠١) مجلة المجمع : جزء ٢ ، ص ٢٢
(١٠٢) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٢ و ص ١٧٤
(١٠٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ١ ، ص ٢٩٢
(١٠٤) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٢٤٥
(١٠٥) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٢ و ص ١٧٤
(١٠٦) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٩٨
(١٠٧) مجلة المجمع العلمي بدمشق ، مجلد ٢ سنة ١٩٢٢ ، مقال لعيسى اسكندر المعلوف ، حقائق تاريخية عن دمشق وحضارتها ، ص ٢٢
(١٠٨) الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ١٥٧
(١٠٩) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٩ وجزء ٤ ، ص ٣٩٦
(١١٠) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٤
— القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١١١

ـ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٨
(١١١) انظر القصة كاملة في التنوخي : المستجاد من فعل الاجواد ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥
(١١٢) مجلة المجمع العلمي بدمشق ، مجلد ٢ ، ص ٢١ ـ ٢٢
(١١٣) مجلة المجمع ، مجلد ٢ ، ص ٢٢
(١١٤) القدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٤ و ص ١٨٤
(١١٥) القدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٤
(١١٦) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٧
(١١٧) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٣٥
ـ أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٢٤٦
ـ مجلة المجمع العلمي ، مجلد ٢ ، ص ٢٢
ـ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢٥
(١١٨) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٢٧
(١١٩) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٦٢
(١٢٠) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٧ و ص ١٨٠
(١٢١) الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ١٥٧
ـ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٣٢
ـ آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٤
(١٢٢) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٤
(١٢٣) الثعالبي : لطائف المعارف : ص ١٥٧
(١٢٤) القدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٧
(١٢٥) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٠
(١٢٦) انظر عن ذلك كل من الجاحظ : المحاسن والاضداد ، ص ١٠٢ ـ والتنوخي : الفرج بعد الشدة ، جزء ١ ، ص ١٦٣ والمستجاد من فعلات الاجواد ، ص ٣٥ ـ ٤٠
ـ ابن الجوزي : المنتظم ، جزء ٥ ، قسم ثاني ، ص ٦٥ وجزء ٦ ، ص ١٢٨
(١٢٧) القدسي : المصدر السابق ، ص ٢٥٢
(١٢٨) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٩
(١٢٩) انظر فيما سبق .
(١٣٠) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢
(١٣١) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨٠
(١٣٢) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٧ ـ ١٧٨
(١٣٣) عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الاحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ، ص ٢٢٩
(١٣٤) عطية القوصي : المرجع السابق ، ص ٢٢٣
(١٣٥) LANE POOLE : Catalogue of the Collection of Arabic Coins, P. 135.
(١٣٦) Ibid.,
(١٣٧) Ibid.,

(١٣٨) Ibid.,
(١٣٩) Ibid.,
(١٤٠) Ibid.,
(١٤١) Ibid.,
(١٤٢) Ibid.,
(١٤٣) Ibid.,

(١٤٤) القلس = ١/٢٤ من الدرهم ، انظر :

ـ عطية القوصي : المرجع السابق ، ص ٢٣٠
(١٤٥) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، جزء ١ ، ص ٦٠
(١٤٦) LANE POOLE : Op. cit., P. 121.
(١٤٧) Ibid : PP. 121 - 122.
(١٤٨) التنوخي : الفرج بعد الشدة ، ص ١٤٢
(١٤٩) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٦٢
(١٥٠) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٨٣
(١٥١) حورية عبده سلام : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة الفسطاط منذ الفتح العربي حتى قيام الدولة الفاطمية ، ص ١٣٢
(١٥٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ١٠٧
(١٥٣) انظر فيما سبق .
(١٥٤) حورية عبده سلام : المرجع السابق ، ص ١٣٣
(١٥٥) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٢

(١٥٦) الثعالبي : يتيمة الدهر ، جزء ١ ، ص ٢٣٥
(١٥٧) من أجل أسواق دمشق : انظر تاريخ دمشق لابن عساكر ، تحقيق المنجد ، مجلد ٢ ، قسم ١ على التوالي ص ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١
(١٥٨) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٤٢
ـ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٣٠
(١٥٩) ابن جبير : رحلته ، ص ٢٧٨
(١٦٠) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤١٢
(١٦١) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٣
(١٦٢) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ٤٠٠
(١٦٣) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢٩
(١٦٤) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٣
(١٦٥) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٧
(١٦٦) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٥٠

(١٦٧) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٢٦
(١٦٨) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢٩
(١٦٩) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٢ و ص ١٦٤
(١٧٠) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٧ — ٣١٨
(١٧١) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٥٠
(١٧٢) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٨٩
(١٧٣) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٦٥ ٣— ٣٦٦
(١٧٤) حورية عبده سلام : المرجع السابق ، ص ١٠٧
(١٧٥) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٩٨
(١٧٦) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٩ — ١٨٠ — ١٨١
(١٧٧) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٩٨
(١٧٨) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٨٩
(١٧٩) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٩ — ١٨٠ — ١٨١
(١٨٠) آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٦٥ — ٣٦٦
(١٨١) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٥٥
(١٨٢) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ص٢٥٨—٢٥٩

مجلتان تاريخيتان

نشرت مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (تموز ١٩٨٠) (١) في باب التعريف والنقد ، مقالة عنوانها : **مجلتان تاريخيتان** . ويسعد مجلة دراسات تاريخية أن تقتطف من جناها الطيب هذا المقال .

— ١ —

في غمرات الصراع الدولي الراهن ، لعله لم تعان أمة من الامم ما عانته وتعانيه الامة العربية من وطأة الاستعمار والامبريالية والصهيونية . لقد بدأت الامة العربية صراعها الدامي العنيف مع الاستعمار الغربي في التاريخ المعاصر منذ أن قام بعدوانه السافر الغادر على بلاد الجزائر واحتلها عام ١٨٣٠ (١٢٤٦ هـ) (٢) . ثم امتد الصراع امتداد هذا الاستعمار الغربي الذي ألقى بظله الثقيل البغيض على البقاع العربية قطراً فقطراً ، يستغلها ويستنزف ثرواتها ، حتى كاد يشمل الارض العربية كلها . وناضل العرب النضال الطويل المرير ، وطرقوا بأيديهم المضرجة ابواب الحرية مائة عام أو تزيد ، وظفروا بعد التضحيات الجسام بالاستقلال : رفعت سورية العربية رايته الاولى حين جلا المستعمر الغاصب عن ارضها في السابع عشر من نيسان ١٩٤٦ ، ولم يستطع الاستعمار وقف اندفاع اخواتها العربيات التي تسعرت أرضها ناراً عليه ، وانسحب من الارض العربية ، مكرها ، مغلوبا على أمره .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٥٥ ، ج ٣ : ٥٦٠ — ٥٧٣) .

(٢) كانت طلائع هذا التعدي الاستعماري على البلاد العربية في التاريخ المعاصر قد أطلت برؤوسها البشعة يوم جاس نابليون بجيوشته ديار مصر والشام ، وفي ركابه ادلاء الصهيونية فارتد على عقبية مذموما مدحورا .

وراع الاستعمار الذي مزق شمل الامة العربية دهراً ، وعاث في أرضها فساداً ، ونهب خيراتها ، واثار كل النزعات الضالة ، والنزوات المنحرفة ، والاهواء الشريرة ، أن يشهد مولد الفتوة العربية من جديد ، تتفتح للحياة الحرة الكريمة ، وتجاهد التفرقة والتجزئة لترسي أسس الوحدة ، وتعمل ليل نهار جادة نشيطة لتقضي على التخلف والجمود ، وتسعى يحدوها المثل الاعلى لبناء الحضارة العربية الحديثة ، وملء عينيها وفيض قلبها التفاؤل والامل ، يقترنان بالعزم والتصميم في ارادتها . واندفعت الامبريالية المذعورة ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية ، لتنزل بالامة العربية ضربتها القاصمة ، تريد لها الا تنهض بعدها . وتعاونت الاطراف الحاقدة ، وتكالبت على الامة العربية ، لا يصدها رادع من خلق ، ولا وازع من ضمير ، ولا مسكة من شرف ، حتى اقامت دولة العدوان الشريرة العنصرية في قلب الوطن العربي ، تمزقه وتنهكه وتشرد أبناءه ، وتحول دون وحدته وتقدمه وعودته الى ساحة الحضارة الانسانية . لقد كان هم الاستعمار والامبريالية الاول هو ألا يسمحا للعرب بالتحرر والوحدة ، وان يعوقا ، بمختلف الوسائل والاساليب ، كل خطوة عربية نحوهما . يقول الشيخ عبد الرزاق البيطار (ت ١٣٣٥ هـ / ١٩١٦–١٩١٧ م) في كتابه : (حلية البشر) ، وهو يتحدث عن أعمال محمد علي باشا والي مصر واصلاحاته وهزيمته الدولة العثمانية : « فنشأ في مصر جيل جديد ، وعصر جديد ، بسطت فيه طرق العمران والتمدن والقوة في مدة يسيرة ، فافتتح النوبة وسنار ، واستولى على الشام والحجاز .. بل امتد بالاستيلاء الى قرب الآستانة في الاناطولي ، ... فتعصب الانكليز الى الدولة [العثمانية] في الظاهر لتوطيد أركانها ، وفي الباطن خشية من انشاء دولة اسلامية شابة ذات قوة مثل تلك ومركزها مصر ، ... فلذلك حاربته انكلترا مع الدولة العثمانية التي هي اذ ذاك على ضعف شديد ... فقهروا محمد علي ، ولكن لاتمام مقاصد انكلترا لم تسمح للدولة [العثمانية] بالاستيلاء التام على مصر لمراعاة المقاصد المشار اليها أيضا ، فكان الاوفق لها ابقاء مصر على شبه استقلال ليضعف كل من الجهتين ... » (١) .

بهذه الكلمات القليلة المعبرة رسم الشيخ البيطار افاعيل الاستعمار الحاقد على الامة العربية ، وكشف عن مطامعه وغاياته منذ مطالع النهضة العربية . وها هي ذي الامة العربية اليوم تستقبل القرن الخامس عشر الهجري ، وهي

(١) حلية البشر ٣ : ١٣٤١ – ١٣٤٢ .

تواجه أقسى مرحلة تمر بها في تاريخها ، قد أنشب الاستعمار الظالم ، وفي طليعته الولايات المتحدة الامريكية والصهيونية ، مخالبه في جسدها ، يريد أن يمزقها اشلاء ، وداس بقدميه كل القيم الروحية والمبادىء الخلقية ، وتنكر لحقوق الانسان ابشع تنكر ، فعمل وساعد على طرد شعب فلسطين العربي من ارضه ، وسلبه وطنه ليحل محله غرباء معتدون أتوا من أقاصي البلاد ، لا يربطهم غير الحقد والجشع ، يتابعون العدوان والسلب ، ولا يلقون غير التشجيع والتعزيز والعون من الاستعمار .

ان هذا الموقف الموجع الفاجع الذي فرضته الامبريالية الامريكية والصهيونية على الامة العربية تريد أن تذلها وتسكتها لن يطول أمده ، أمام ارادة الجماهير العربية المتحفزة لحريتها ووحدتها ، المندفعة أبدا تناضل في كل ميدان وساحة : تحارب التخلف وما يجر اليه ، وتحث على التقدم وما يتطلبه ، تدعو العلماء أن يتبتلوا في محاريب العلم والتكنولوجيا ليضعوا ثمرات بحوثهم في خدمة المجتمع العربي وتطوره ، تهيب بذوي الاقلام ورجال الفكر أن يقفوا نفوسهم وطاقاتهم لحشد قوى الامة ، ولخدمة أهدافها ، تنادي رجال الحرب أن يعدوا العدة للدفاع عن الوطن ، والذود عن الحمى ، شعارها : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) . انها تريد أن تخوض معركتها الضارية مع الاستعمار بكل وجوهها ومتعدد مناحيها (١) ، قد جندت لها كل اسلحتها ، كل ما قدرت عليه وأطاقته ، واجتثت من طريقها كل المثبطات والمعوقات التي زرعها الاستعمار والتخلف . وسيكون حليفاً قوياً لها في معركتها الكبرى الحق ومنطق التاريخ يؤيدانها في مطالبها ، ويستجيبان لها في نضالها العادل المرير . لقد دنت ساعة الخلاص ، وأذن شروق الفجر ، والويل لمن يحاول وقف مسيرة الشعوب نحو حريتها ، وحقها في الحياة والكرامة .

---

(١) اذا كانت المعركة العربية الاولى مع الاستعمار والامبريالية في التاريخ المعاصر قد بدأت عام ١٨٣٠ م باحتلال المستعمر الفرنسي أرض الجزائر لتنتهي في عام ١٩٦٧ م بطرد المستعمر الانكليزي من اليمن الجنوبي ، فان معركة العرب الثانية مع الامبريالية والصهيونية تدور رحاها على أرض فلسطين الطاهرة ، وسيواصل العرب كفاحهم في سبيل حريتهم واستخلاص أرضهم حتى يتحقق النصر وتندحر الامبريالية والصهيونية . وان للباطل جولة ثم يضمحل .

- ٢ -

من هذا المنطلق أتطلع الى مظاهر النشاط الثقافي العربي ، وبهذا المنطلق أرصده وأتتبعه . أرفض كل ما لايندرج في مضمونه او يخالف عن غايته وهدفه ، واتقبل بالرضا والارتياح كل ما يعمل على ترسيخ الاصالة العربيـة والهوية القومية ، ويشق طريق التقدم ، ويهيىء النفس العربيـة للتفتح والابداع ، ويغذي روح النضال والتفاؤل لتحقيق المجتمع العربي الاشتراكي الحر الموحد.

– وفي هذا الاطار نتابع الحركـة الفكرية الثقافية التي تدعو الى اعادة كتابـة التاريخ العربي كتابـة منهجية ناقدة ، تستوحي المبادىء والنظريات التي أفضت اليها التجربة التاريخية العالمية ، حصيلة هذا التطور الانساني العظيم في الفكر والفلسفة وصناعة التاريخ ، ويتوافر لاصحابها كل الصفات والشروط ، وتتهيأ لهم كل الوسائل والادوات التي يطالب بها (النقد التاريخي) مما يتيح لنا معرفة الماضي العربي معرفة صحيحة صادقة ، تنفي كل ما سطر حول تاريخنا من الزيف والتحريف ، وتزيح كل ما علق به من الخرافة والاباطيل ، وتنفذ الى الخفي المستسر الذي كان المحرك الفعال في الاحداث والوقائع ، تكشف عنه وتحدد دوره ، بدل الانخداع بالمظاهر الطافية على السطح .

– وأعرض هنا لمجلتين تاريخيتين هما احدث ما صدر في هذا الباب :

اما المجلة الاولى فهي مجلة البحوث التاريخية التي يصدرها مركز بحوث ودراسات الجهـاد الليبي . اطلعت على أعدادها الثلاثة الاولى (وهي عـددا عام ١٩٧٩ ، والعدد الاول لعام ١٩٨٠) ، واذا كان الحافز المباشر لانشاء مركز البحوث والدراسات واصدار مجلته التاريخية انما هو قلة الكتب المؤلفة في تاريخ ليبيا ، وكثرة التحريف والخطأ في المؤلف منها (المجلة ، ع ١ ، س ١ : ٩ – ١٢) فان المجلة قد خرجت منذ عددها الاول على هـذا الاطار الضيق ، ودعت دعوة صريحة الى أن تلتقي على صفحاتها « أقلام المختصين في مغـرب الوطن العربي ومشرقه ، وغيرهم من أجانب ، المهتمين بالدراسات التاريخية العربية الاسلامية والعالمية ، لنعمل جميعا بأمانة ومنهجية على خدمة البحث العلمي ، وترقية الدراسات التاريخية » (المجلة ، ع ١ ، س ١ : ٧ ، ٨) .

لقد أرادت المجلة أن يعالج المختصون على صفحاتها موضوعات التاريخ العربي بنظرة جديدة ، هدفها البحث عـن الحقيقـة التاريخية ، مما يهيىء

للمشاركة الجادة في اعادة كتابة التاريخ العربي « على أسس علمية ومنهجية سليمة » ، ويجنبنا الاخطاء التي ارتكبها المؤرخون الغربيون ومن سار على دربهم بحق تاريخنا عمدا وبغير عمد . وفي مقالة : (لماذا كتابة التاريخ ؟) أبان الدكتور محمد الطاهر الجراري المحاولات الانسانية في كتابة التاريخ ، والمراحل التي مرت بها ، والتجارب التي عاناها المؤرخون والمفكرون في سبيل الوصول الى الحقيقة التاريخية (المجلة ، ع ١ ، س ١ : ٨٣ ـ ٨٦) .

ونظراً لقيام مركز البحوث في ليبيا فقد كانت أكثر موضوعات العددين الاول والثاني مستمدة من التاريخ الليبي مثل : منظمة « تشكيلاتي مخصوصة » السرية ودورها في الجهاد الليبي ، حملة رمضان باي على غدامس ، حركة الترجمة في ليبيا ، الطريق من طرابلس الى فزان ، روفلس وليبيا (مترجمة الوثائق العثمانية كمصدر لتاريخ ليبيا الحديث ، منطلقات نظرية في منهجية التاريخ الليبي ، آفاق جديدة حول كتابة التاريخ الليبي . وقام الى جانبها بحوث من مثل : جبل طارق ، نحو مفهوم للحضارة الاسلامية ، وهو أمر قد نبهت اليه المجلة في افتتاحية العدد الاول ، فقد ذكرت أن « معظم مادة هذا العدد ان لم تكن كلها تتعلق بتاريخ ليبيا » ، وبعد أن بينت مرد ذلك أهابت بكل « البحاثة والدارسين في تاريخ الشمال الافريقي والعربي خاصة والاسلامي والعالمي عامة » أن يوافوها ببحوثهم وآرائهم ، لان المجلة قد فتحت صفحاتها لهم جميعا مرحبة . ثم بدا شيء من التوازن في مقالات العدد الاول من المجلة لعام ١٩٨٠ ، فظهرت فيه مقالات مثل : امارة عربية أندلسية في جزيرة اقريطش، الحياة الفكرية في العالم الاسلامي في القرن الثاني عشر الهجري ، الصلات التاريخية والحضارية للعرب قبل الاسلام ، مما كشف عن وجه المجلة العربي ، وأبان ملامحه جلية واضحة . وعززت مقالة : حول تحرير التاريخ من الفكر الاستعماري (المجلة ، ع ٢ ، س ١ : ٥١ ـ ٦٣) الفكرة التي تنادي بها المجلة بشواهد جديدة بغية العمل على انتزاع الفكر الاستعماري المترسب في ثقافتنا وقيمنا ...

وتمشياً مع هدف المجلة ، وتحقيقاً لغايتها التي رمت اليها في كتابة التاريخ العربي كتابة علمية نقدية ، فقد أوضحت المجلة في صدر عدديها (الثاني لعام ١٩٧٩ ، والاول لعام ١٩٨٠) أنماط البحوث التي تؤثر نشرها ، وتفضلها على ما سواها . وافردت المجلة في صفحاتها بابا لمراجعات الكتب التاريخية الصادرة حديثا وتقويمها ، مثل كتاب لمحات عن الاوضاع الاقتصادية

في ليبيا في أثناء العهد الايطالي ، كتاب خلاصة النازلة التونسية ، تاريخ المغرب ـ محاولة في التركيب ، المشرق العربي والغرب .

ـ اننا مع المجلة في خطتها التي أعلنتها في تقدير آراء الآخرين واحترامها ، وفي اعتمادها الحوار العلمي الهادىء ، في جو من النزاهة والصراحة ، لمناقشة وجهات النظر ، وتلاقيها ، وعرفان بعضها بعضا (المجلة ، ع ١ ، س ١ : ٧) ، فهذا النهج هو وحده الكفيل بنتاج فكري خصب يدنو بالمجلة من الهدف ، ويضمن لها النجاح في تأدية رسالتها التي نصبت نفسها لها .

ـ واننا نؤيد المجلة في دعوتها الرامية الى كتابة التاريخ العربي بنظرة جديدة تنشد الحقيقة ، وترمي الى تنقية تاريخنا مما علق به من مفتريات كاذبة ، أو ما خالطه من خرافات ومزاعم باطلة ، وتجنبنا المزالق التي زلت بها أقدام مؤرخين باحثين سابقين ضلوا عن الطريق ، اذ تعمدوا تشويه وجه الحق ، أو غم عليهم تبينه .

ويقتضيني القول أن أشير هنا الى أن هذا النهج العلمي القومي الذي التزمت به المجلة دقيق ، بالغ الصعوبة ، يتطلب كثيرا من الحيطة والروية والاناة . فقد تجمح بعض الاقلام وهي تعالج موضوعا يتناول قطرا من أقطار العروبة ، فتنغمس في موضوعها انغماسا تغيب معه عنها صورة الوحدة العربية التي يندرج القطر حضاريا وثقافيا في منظومتها ، وتتناسى التفاعل الحي المتبادل بين هذه الاقطار العربية ، فاذا هي تنزلق في الاقليمية البغيضة التي تخالف عن حقيقة مسيرة التاريخ العربي ، ولا تتفق مع هدف المجلة . دع عنك تلك الاقلام التي لا تؤمن بوحدة العروبة مكابرة وانكاراً ، ولا تستمد من هذا المداد فيما تسطره من صفحات . فمن الخير أن تدقق المجلة كل التدقيق حتى لا نقرأ كلاما بعيدا شديد البعد عن الحقيقة التاريخية ، ويضاد مقاصد المجلة والغايات التي تروم بلوغها .

كذلك فان هذا الموقف الناقد الذي تقفه المجلة من المؤلفات المسطورة في التاريخ العربي ، وما شابها من الاهواء التي انحرفت بها عن الجادة ، ودعوتها الى اعادة النظر لكتابة التاريخ العربي كتابة تستوحي مبادىء النقد التاريخي ، وتستمد مادتها من الوثائق والنصوص الاصيلة الاساسية قد يؤدي ببعض الباحثين أن ينقلب عملهم من بحث عن الحقيقة ومعرفة الماضي

كما وقع ، بقوتـه وضعفه ، بابداعه وعقمه ، الى محاولة لتمجيـد الماضي والدفاع عن كل ما فيه ، واختيار النصوص والوثائق التي تساند مثل هذا الاتجاه المتعصب ، ذي الافق الضيق ، المجانب للنظرة العلمية . انـه حقـا موقف مثل حد السيف دقةً وصعوبةً ، يتطلب ما يتطلب من الجهد والمثابرة والمتابعة والحوار والمراجعة لنظل معصمين بسكان السفينة (١) لا نفـارقه ، ماضين على الجادة .

هل يحسن أن أتحدث عن الحلة القشيبة التي ظهرت بها المجلة ، وأن تعاوناً وثيقاً قد تم بين مركز الدراسات والبحوث وجامعة حلب التي تولت طباعة أعداد المجلة الثلاثة ، فأحسنت طباعتها واخراجها . لقد نوهت المجلة بهذا التعاون المثمر الخير الذي نرجو أن يؤتي أكله اضعافا مضاعفة (المجلة ، عدد حزيران ١٩٧٩ : ٥ ، عدد كانون الثاني ١٩٨٠ : ١٦١) .

لا نملك الا أن نرى في الاعداد الثلاثة من مجلة البحوث التاريخية باكورة طيبة لجنى نرجو أن يوافينا وخياره فيه ، وأن تمضي المجلة في طريقها القاصد الى هدفها ، تحدوها الرغبـة في المشاركة بكتابة التاريخ العربي كتابة تجلو صورته بكل قسماتها وسماتها ، تتلألأ بنور الصدق والحق .

— ٣ —

أما المجلة التاريخية الثانيـة فهي مجلة (دراسات تاريخية) ، وهي مجلة علمية فصلية تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب ، تصدرها لجنـة كتابـة تاريخ العرب بجامعة دمشق . وهي لجنـة هدفهـا الاول أن يكتب تاريخ العرب في موسوعة كتابـة منهجية ناقـدة ، ولعله يحسن أن نوطىء للحديث عن هذه المجلة وخطتها ونهجها بكلمة قصيرة نوجز بهـا الوقائع التي أفضت لصدورها .

— بدات القصة بداهـا المنطقي ، فتاريخ العرب لم يكتب على حقيقته حتى اليوم . لقـد استطاع المؤرخون الغربيون ذوو النزعـة الاستعمارية ، وأضرابهم ممن لاذ بهـم وسلك مسلكهم ، أن يشوهوا صورة التاريخ العربي ، وان ينفثوا مـن سمومهم واكاذيبهم ما يرضي مطامعهم الجشعـة ، ويلبي

(١) سكان السفينة : الخشبة التي تعدل بها السفينة في سيرها .

مآربهم الاستعمارية الخبيثة . كان كل عربي يمضه الالم وهو يقرأ ما لفقه الغربيون الاستعماريون ومن مشى في آثارهم ، وينتظر القلم الحر الذي ينشد الصدق ، ويستوحي في كتابته المنهج التاريخي الناقد ، ويصور الماضي بملامحه وقسماته دون تزيد أو تحريف . كذلك فقد عانى التاريخ العربي ما عانى من ذوي النزعات الاقليمية ، والنظرات السياسية الضيقة المتعصبة ، ومن التقليديين المحافظين وأصحاب الثقافات المحدودة الذين لم يخالطوا روح العصر ، ولم تمسهم ثقافته الا مساً رفيقاً لا يجاوز السطح . لقد أخطؤوا جميعا ، وحرفوا وجانبوا الحق ، وأرهقوا التاريخ ، استجابة لنزعاتهم الخاصة وأهوائهم ، ونظراتهم السياسية والعقائدية . ولا ينكر منكر مالتلك البقية الباقية من المؤرخين العرب ومن الاجانب المنصفين الذين عالجوا التاريخ العربي بروح ناقدة نزيهة ، تبغي الحقيقة ، وتعتمد في بحوثها النظرة التاريخية المنهجية ، وتتثبت من النصوص والوثائق التي تستمد منها احكامها . ولم يكن بد من مبادرة علمية تضم كل هذه الجهود العربية ، وتنسق بينها لتعمل جميعاً وفق خطة مرسومة مدروسة ، للنهوض بهذه المهمة الكبيرة ، مهمة كتابة التاريخ العربي في موسوعة تستجيب لهذه الرغبة العميقة في معرفة الماضي المعرفة الصحيحة ، وابراز الجانب الحضاري الذي طال تناسيه ، وفي تبين التيارات الاساسية التي حركت أحداثه ، والاسباب العميقة التي تفسر وقائعه ومساقاته في نهضاته الحضارية وابداعه وفيضه ، وفي تصديه وتوقفه وعقمه . وبدأت اجتماعات متتالية في دمشق ، ضمت حلقاتها المؤرخين والمفكرين القوميين والباحثين ، وكانت مشاركات جادة خصبة منتجة بلغت ذروتها وأوجها في عام ١٩٧٦ ، وقد لقيت هذه المبادرة العلمية التشجيع والتأييد من القيادة السياسية ومن جميع المؤسسات الثقافية العلمية في القطر العربي السوري .

وانتهت الاجتماعات الى تشكيل لجنة تحضيرية قامت بتلخيص النظرات التي أثارتها المناقشات الخصبة الجادة ، ودلت على الخطوط الاساسية لمراحل التاريخ العربي ، وعرضت بايجاز للمنطلقات ومبادىء العمل ، ثم ضمت ذلك كله في كراس أصدرته بعنوان (مشروع اعادة كتابة تاريخ العرب ــ دمشق ١٩٧٦) ، ووزعته على المهتمين والمعنيين بالفكرة في مختلف الاقطار العربية ليكون ورقة العمل ، ومنطلق المناقشة في ندوة موسعة يدعى اليها المؤرخون والباحثون العرب ، يغنون في اجتماعهم وحوارهم متضمن المشروع ، ويستكملون جوانبه النظرية والعملية . وجرت اتصالات

ومشاورات مـع المؤرخين والمفكرين العرب ، وانعقدت النـدوة بدمشق في (٢٠ ـ ٢٢) كانون الاول ١٩٧٧ ، وحضرها علمـاء مختصون مـن مختلف الاقطار العربية ، ونوقش المشروع المطروح مناقشة مستفيضة أغنته وأضافت اليه اضافات قيّمة . وكان لتبادل وجهات النظر وتقليب الآراء أثره الواضح في الصيغة التي انتهى اليهـا المشروع المقترح . ورأت اللجنة التحضيرية ان النتائج التي أسفرت عنها المناقشة لها شأنها وأثرها في تحديد النهج الذي سيعتمد لكتابة التاريخ ، واستشفاف خطوطه الكبرى ومنطلقاته . وكان من أبرز توصيات الندوة « اصـدار مجلة (دراسات تاريخية) تكون محكاً للافكـار ، وميداناً لعرض الآراء الجديدة كيما يثبت الصحيح منهـا بعـد مناقشته » . واستجابت جامعة دمشق ، ووكلت الى لجنة كتابة تاريخ العرب بالجامعة مهمة اصدار المجلة .

ـ كان أول أعمال لجنة الاشراف على المجلة أن اصدرت عـددا تمهيديا من المجلة عام ١٩٧٩ ، يتضمن : مشروع اعادة كتابة تاريخ العرب ، الذي أعدته اللجنة التحضيرية (ص : ٦ ـ ٣٦) ، ويتلوه أعمال ندوة كانون الاول ١٩٧٧ ، وتشمل المناقشة العامة التي شارك فيهـا جميع المنتدين (ص : ٣٧ ـ ٤٣) ، ثـم ما قامت به اللجـان الاربع المنبثقة عـن النـدوة (ص : ٤٤ ـ ٧٠) . وكان صدور هذا العدد التمهيدي ضروريا للتعريف بهذا المشروع الهام ، واطلاع المؤرخين الباحثين والجامعات والمؤسسات العلمية في الوطن العربي على مناقشات الندوة ، وما انتهت اليـه من توصيات ومقترحات ، تفتح الآفاق لعمـل علمي وقومي لـه شأنه واهميته وضرورته في الحيـاة الثقافية العربية ، وفي أحلال التاريخ العربي مكانته التي هو جدير بهـا في تاريخ الانسانية .

وصدر بعد ذلك عـددا آذار وحزيران ١٩٨٠ ، ولم تكن الغاية مـن اصدار مجلة (دراسات تاريخية) أن تضاف مجلة تاريخية جديدة الى عداد المجلات التاريخية العربيـة الاخرى . كان مـن الواضح البين، وهـدف المجلة مستمد من توصيات الندوة ومحدد بها ، أن غايتهـا الاساسية هي أن تمهد وتوطىء وتخلق الظروف الملائمة لتيسير كتابـة التاريخ العربي ، هي أن تلتقي عـلى صفحاتها أقـلام الباحثين والدارسـين مـن المؤرخـين والمفكرين ، يتعارفون ويتلاقون حول فكرة مـن أعز الافكار على نفوسنا ، والصقها بقلوبنا ، يناقشونها ، ويقلبون جوانبها ، وينيرون بآرائهم طريق

المجلة ، ويساعدون في طي المراحل الممهدة لبلوغ الهدف المرتجى . وحرصاً من المجلة على تحقيق غرضها ، والوصول الى مقاصدها فقد رغبت الى المؤرخين والمؤلفين أن يوافوها ببحوثهم وآرائهم التي تندرج في هذا الاتجاه الذي تدعو اليه وتعمل له ، وهو اتجاه ذو ثلاث شعب :

١ ـ أن يتناول البحث أو الدراسة فكرة كتابة التاريخ العربي في موسوعة واحدة ، تستوحي مبادىء النقد التاريخي ، وتكشف عن صورة الماضي بكل سماتها وقسماتها . أو ليس من الخير كل الخير أن يتاح للاقلام جميعا مناقشة هذه الفكرة : هدفاً ومبادىء عمل ، مناقشة تغنيها وتكشف عن خصوبتها ، وتوسع من جوانبها ، وأن تعرض بالتالي لهذه الآراء والانظار التي طرحتها ندوة دمشق تتعمقها ، وتقلب وجوهها لتصل الى مقطع الحق فيها .

٢ ـ ان يعالج الباحث أمر دعوة المؤرخين القادرين الكفاة ، والمؤسسات الجامعية والعلمية لتعاون يضمهم ويجمع بينهم ، ويضع الخطط الكفيلة بالافادة من قدراتهم ليتوزعوا هذا العمل العظيم ، وينهضوا بهذه المهمة ، مهمة التأليف والكتابة والمراجعة ، وفق منهج مدروس ، يضمن التنسيق في الجهود ، والدقة في العمل ، والانجاز في المهل المحددة . والمجلة ترحب بكل مقترح في هذا المضمار يساعد على السير خطوة الى الامام ، ويهيىء الوسائل الكفيلة بانفاذ الخطة أو التعجيل بانفاذها ، حتى تستقيم لها الطريقة المثلى في هذا العمل البناء .

٣ ـ ان يقدم الناقد الباحث موضوعا جديدا أصيلا ينسجم مع هدف المجلة ، أو يثير حوارا في موضوعات التاريخ العربي . ان كل بحث في هذا المنحى انما هو امتحان وسبر للمنهج المعتمد المرتقب ، ويرتفع بمستوى الكتابة التاريخية ، ويغني مضمونها .

لقد آثرت مجلة (دراسات تاريخية) أن تفتح صفحاتها لهذا النمط من الكتابة بشعبه الثلاث ، وغايتها من وراء ذلك أن تتعارف الآراء وتتلاقح الافكار ، وتتلاقى وجهات النظر ، وتنضم الجهود الى الجهود في طريق واحدة بدل التبدد والتشتت ، ليبدأ بعد ذلك المرحلة الجادة الاساسية وهو كتابه التاريخ العربي كتابة « تفصح عن معنى الوجود العربي ، ونمائه في

التاريخ » ، وتصور الماضي الصورة الحية الصحيحة الصادقة التي تحرره من أثقاله ، وتعين الاجيال العربية على الثقة بنفسها وبأمتها وبقدرتها على التقدم والابداع .

لقد حملت المجلة أمرا عظيما ، واضطلعت بمهمة كبيرة ، هي التمهيد وتيسير السبل لتعاون بين المؤرخين ورجال الفكر وثيق ، ينهض بكتابة التاريخ العربي في موسوعة جامعة . واننا لنرجو لها السداد فيما قصدت له وانتجته ، وأن نشهد مولد الملحمة الكبرى في حياتنا الثقافية ، ونطالع تاريخنا بماضيه الحافل ، وحاضره ، يمهدان لمستقبل هذه الامة العربية العريقة المستقبل الواعد ، تستأنف به المشاركة الجادة في مسيرة الحضارة الانسانية .

د . شاكر الفحّام



موضوعات العدد الخــاص

من مجلة دراســات تاريخيــة

الذي يصدر بمناسبة حلول القرن الخامس عشر للهجرة

آ ـ الهجرة النبوية : أحداثها ، معانيها ، آثارها .

ب ـ على عتبة عام هجري جديد: تقييم للماضي واستشفاف للمستقبل.

ج ـ من السـيرة النبويـة : دراسات تحليلية للاحـداث السياسية والمنجزات الاقتصادية والاجتماعية ، والتغيرات التي طرأت على المجتمع العربي بعد الاسلام .

د ـ موضوعات في مختلف ميادين الحضارة العربية الاسلامية .

هـ ـ أي موضوع يختاره الباحث مما له صلة بالتاريخ العربي الاسلامي.

دراسات تاريخية

مجلة علميّة فصليّة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

مدير التحرير ناظم كلّاس

العدد الرابع - جمادى الثاني ١٤٠١ هـ / نيسان (ابريل) ١٩٨١ م

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب
جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية

ثمن العدد

سورية	٣٠٠ ق.س	السعودية	٦ ريالات
لبنان	٣٠٠ ق.ل	الامارات العربية	٧ر٥ دراهم
الاردن	٣٠٠ فلس	مصر العربية	٤٥٠ مليما
العراق	٦٠٠ فلس	ليبيا	٤٥٠ مليما
الكويت	٤٠٠ فلس	تونس	٦٠٠ مليم
عدن	٦٠٠ فلس	الجزائر	٦ دنانير
البحرين	٦٠٠ فلس	المغرب	٦ دراهم
قطر	٦ ريالات	السودان	٧٥٠ مليما

في هذا العدد

تقـــديم

بهذا العدد تدخل مجلة ((دراسات تاريخية)) عامها الثاني ، ولسنا مـن الذين يدعون لوليدهم الكمال بعد عام من رؤيته النور ، كما أنا لانود أن نغرق في التواضع فندعي له القصور عن الهدف قصوراً يجعل موته خيراً من حياته . فهي ، ككل وليد ، تشق طريقها الى عالم النماء والقوة ، يحدوها والعاملين فيها ولها ، أمل بعطاء أفضل وأخصب ، يحقق الهدف الذي دعا القائمين عليها لرفدها بكل أسباب الدعم والرعاية التي تكفل لها استمرار المسيرة المعطاءة .

ولعله من يمن الطالع أن يصدر هذا العدد وقطرنا العربي السوري يتابع احتفالاته بمولد القرن الهجري الجديد ، باقامة المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية الذي يضم نخبة خيرة من أفاضل العلماء والباحثين ، عرباً وغير عرب ، جاؤوا وفي جعبة كل منهم ، ما يثري المعرفة الانسانية بمساهماتنا في الميادين الحضارية المختلفة على مر عصور تاريخنا الذي أراد له الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بحق أن يبدأ بهجرة الرسول الاعظم من مكة الى يثرب ، حيث قامت أول دولة عربية اسلامية أتيح لها أن تعيش قروناً طوالاً ، وأن تكون نبراس هداية ومشعل نور . وتغتنم مجلتنا هذه المناسبة الكريمة لتزجي التحية خالصة لجميع العلماء والباحثين الذين سخروا فكرهم وقلمهم لخدمة الحقيقة التاريخية الخالصة التي لاتشوبها شوائب الاهواء . انها تحية المؤمنين برسالة العلم الى أولئك الذين رفعوا راية هذه الرسالة عالية خفاقة .

ويبقى أن نكرر ماحرصنا على ترديده منذ أن كانت هذه المجلة فكرة في أذهان الذين أرادوا لها الحياة والنماء ، وهو أن هذه المجلة منبر مفتوح لكل قلم يريد أن يساهم معنا في تقليب أسفار ماضينا ليرسم صورة أمينة متكاملة لهذا الماضي العربي في مختلف عصوره ودياره وميادينه .

ان دعوتنا لكتابة تاريخنا على أسس شرحناها وقدمناها ، هي دعوة يتعادل فيهـا حبنا وايماننا بعروبتنا ، بحبنا وايماننا بالحقيقة التاريخية النظيفة من شوائب الجهل والهوى واللامنهجية ، ومن اجل تحقيق هذا الهدف فليعمل العاملون .

تنويـــه

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبهـا
- تـرتيـب البحـوث يخضـع لضـرورات فنيـة

مع بدايات السّياسة الأمريكيّة في الشرق العربي

د . خيريّة قاسمية

كلية الآداب ـ جامعة دمشق

اتبعت الولايات المتحدة منذ ظهورها كدولة في نهاية القرن الثامن عشر ، مبدأ الحياد والعزلة في سياستها الخارجية ، وقد وضع اساس هذه السياسة جورج واشنطن ١٧٨٩ ـ ١٧٩٧ ، واكدها جيمس مونرو ١٨١٧ ـ ١٨٢٥ (١) ، ولم يكن هذا يعني انفصال الولايات المتحدة الامريكية عن العالم الخارجي وعزلتها عن مشاكله ، ولكنه يعني ان تستقل الولايات المتحدة عن المعسكرات الدولية في اتباع الساسة التي ترى انها تتفق ومصالحها .

وازداد اهتمام الولايات المتحدة بالسياسة الخارجية بعد الحرب الاهلية الامريكية ١٨٦١ ـ ١٨٦٤ بسبب التطور الكبير في الزراعة والصناعة وسعيها للحصول على اسواق عالمية لتصريف منتجاتها . ورافق ذلك البدء ببناء أسطول بحري حديث ، وهذا ما دفع الولايات المتحدة لتتطلع خارج حدودها ولتعمل على التاثير في مشاكل العالم المختلفة (٢) . وكان الجو الدولي ملائما اذ كانت الدول الاوربية الكبرى تتسابق في ميدان الاستعمار للاستيلاء على مناطق في افريقيا واسيا وتبرم محالفات سرية ، وتقوم بمناورات دبلوماسية وحربية ، واخذ كثير من الامريكيين ينادي بالمشاركة في هذه المناورات الدولية طمعا بالحصول على دور فيها ، وازداد نشاط السياسة الخارجية بعد تولي تيودور روزفلت الرئاسة عام ١٩٠١ ، وتعزيز قوة الاسطول البحري ، بحيث اصبحت الولايات المتحدة منذ اوائل القرن العشرين احدى الدول الثلاث او الاربع الكبرى التي لها مصالح قوية في حفظ التوازن الدولي (٣) .

اهتمام امريكي مبكر بالوطن العربي :

لقد ادركت الدول الكبرى في العصر الحديث اهمية الوطن العربي وكانت مصالح هذه الدول واحدة (٤) ، ولكن تفوقت مصالح بريطانيا بسبب اعتمادها على قوتها البحرية ولاهتمامها بالمرور الى الهند وقد ابدت الولايات المتحدة قدرا

ملحوظا من الاهتمام بالمنطقة العربية في آسيا وافريقيا ، ففتحت موانيء شمال افريقية العربية للتجارة الامريكية ، وساهمت الهيئات الدبلوماسية واصحاب المصالح التجارية والارساليات التبشيرية والبعثات العسكرية والثقافية بنشر نوع من النفوذ الامريكي خلال القرن التاسع عشر في مساحات شاسعة من شمال افريقية وشرقها وفي منطقة الشرق الاوسط بين البحر المتوسط الى الخليج العربي وامتد هذا النفوذ الى المحيط الهندي (٥) .

الا أن المصالح الامريكية لم تكن بقوة مصالح الدول الاوربية الكبرى كما أن اساطيلها لم تكن بقوة قوات البحرية الاوربية وفي مقدمتها بريطانيا . ولذلك لم تبد الولايات المتحدة أي مطمع في أراضي الدولة العثمانية حين بدأ الصراع بين الدول الكبرى لتقسيم ممتلكات الدولة ، ولم يتخوف منها الاتراك العثمانيون خاصة ان الولايات المتحدة كانت تقوم منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بالتوسع في المحيط الهادي والبحر الكاريبي (٦) ؛ وتمتعت الولايات المتحدة بمكانة كبرى داخل الدولة العثمانية ؛ ودخلت السباق مع الدول الكبرى لنيل الامتيازات الاقتصادية في انحاء الدولة (مد السكك الحديدية (٧) ، والتنقيب عن الثروات المعدنية وخاصة البترول في العراق وفلسطين (٨)) كما مارست الارساليات الامريكية نشاطا كبيرا في المجال الديني والثقافي والصحي .

ومن خلال سعي الولايات المتحدة لتأمين مصالحها في الدولة العثمانية كان الاهتمام الذي ابدته باحوال اليهود في الدولة العثمانة بوجه عام وفي فلسطين بوجه خاص ، وانشأت الولايات المتحدة اول قنصلية لها في القدس ١٨٥٦ ، رغم ان عدد اليهود الامريكيين في فلسطين كان ضئيلا . كما ظهر اهتمام امريكي فردي بالاستيطان اليهودي (٩) . ومع ازدياد موجة الهجرة اليهودية الى فلسطين اواخر القرن التاسع عشر وبدايات الحركة الصهيونية أبدت الهيئات القنصلية الامريكية اهتماما باوضاع اليهود في فلسطين كسائر البعثات الاجنبية التي تحركت للعمل لصالح الصهيونية (١٠) . ومع ان الدور الدبلوماسي الامريكي في مساندة اليهود لم يكن بارزا في نهاية القرن التاسع عشر قياسا بالدور البريطاني؛ ولم تكن الحركة الصهيونية قد قويت بعد في الولايات المتحدة ، فقد اقحم الصهيونيون أنفسهم في وزارة الخارجية الامريكية ، وضمت الحركة الصهيونية الى صفوفها عددا من المحامين والاساتذة ورجال الفكر الامريكيين (**منهم القاضي** برانديز الذي قام بنشاط كبير في حملة ودرو ويلسون الانتخابية للرئاسة ١٩١٢، وعين في المحكمة العليا الامريكية واختاره ويلسون فيما بعد مستشارا ، وكذلك

فرنكفورتر وهو قاض في المحكمة العليا واستاذ في هارفارد) وتألفت عدة هيئات لجمع الاموال باسم استيطان فلسطين . وقويت الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة مع تدفق المهاجرين اليهود من روسيا وشرق أوربا .

ولم يكن صدفة ان يكون آخر ثلاثة سفراء بعثت بهم الولايات المتحدة الى الاستانة من اليهود (ستراوس وموروغنثو وايلكوس) . ومع ان هنري مورغانثو لم يكن بالاصل صهيونيا الا انه بنتيجة تجربته في الدولة العثمانية أصبح من أشد المتعاطفين مع اعمالهم (١١) ، وابدى اهتماما عميقا بشؤون فلسطين واحوال اليهود فيها وكون علاقات طيبة مع الزعامات التركية ، واستخدم نفوذه كيهودي وكسفير امريكي لصالح يهود الدولة العثمانية ولصالح الاستيطان اليهودي في فلسطين (١٢) . وعطل نشوب الحرب استمرار مساعيه .

الولايات المتحدة والشرق العربي خلال الحرب العالمية الاولى :

احتفظت الولايات المتحدة خلال السنوات الاولى للحرب بحيادها ، الى أن اقر الكونغرس في ٦ نيسان ١٩١٧ طلب الرئيس ويلسون باعلان الحرب . وكانت جملة المبادىء التي عرضها ويلسون على العالم في بنوده الاربعة عشر (٨ كانون ثاني ١٩١٨) وفي احاديثه ورسائله الى الكونغرس تمثل موقف الولايات المتحدة من أهداف الحرب وشروط السلم المقبل ، واقترح ويلسون في هذه المبادىء . لضمان القضاء على الحروب ولاقرار السلام العالمي ، مبدأ رضي المحكومين كقاعدة اساسية لتشكيل أي حكومة . وحق تقرير المصير كمبدا الزامي في المنازعات الاقليمية حيث لا يمكن ان ينقل شعب من سيادة الى اخرى ، والدعوة الى انشاء منظمة دولية تمنع الحرب في المستقبل ، وتوفير الضمانات المتبادلة لتحقيق الاستقلال السياسي والسلامة الاقليمية للدول الكبرى والصغرى على السواء (١٣) ، وكانت هذه المبادىء من أهم التصريحات السياسية في التاريخ الحديث فتحت للولايات المتحدة دورا في تسوية مشكلات مابعد الحرب في وقت لم تكن قد توضحت للولايات المتحدة أي مطامع سياسية او اقليمية في المناطق الحيوية من العالم .

وقد واجهت آراء ويلسون المثالية الدبلوماسية الاوربية التقليدية بكل تعقيداتها ومشاكلها ، والتي تمت محادثاتها حول التسوية قبل دخول الولايات المتحدة الحرب على شكل معاهدات سرية (١٤) . وكانت الدول الاوربية ذات الاطماع الاستعمارية القديمة في الدولة العثمانية ، (روسيا ، فرنسا ، وانكترا)

قد عقدت اتفاقيات سرية فيما بينها لتوزيع ممتلكات الدولة العثمانية في حال انتهاء الحرب ، تصطدم مع مبدأ تقرير المصير الذي كان ويلسون ينادي بتطبيقه. وقد انسحبت روسيا بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ ، فتنازلت عن مطالبها الاقليمية في الدولة العثمانية ، وظلت الاتفاقية قائمة بين فرنسا وانكلترا حول اقتسام الاجزاء العربية من الدولة العثمانية رغم تعهدات بريطانيا للحسين بتأسيس دولة عربية مستقلة في آسيا مع بعض التحفظات (١٥) . ويشيع الرأي القائل ان انكلترا وفرنسا قد اخفتا عن ويلسون المعاهدات السرية ، ولم يعرف بها الا في مؤتمر السلم (١٦) ، الا ان وثائق ارشيف ويلسون تشير الى انه قد اطلع على تلك المعاهدات خلال زيارة بلفور للولايات المتحدة في نيسان ١٩١٧ (١٧) . الا ان الاتجاه الامريكي كان يقوم على اساس استبعاد جميع التسويات السرية التي ابرمها الحلفاء اثناء الحرب .

ولم يتبع دخول الولايات المتحدة الحرب في الميدان الغربي اعلان الحرب على الدولة العثمانية (التي كان الشطر الاكبر من الشرق العربي لايزال تحت سيطرتها) ، وذلك لعدة اعتبارات منها عدم اتاحة الفرصة لالمانيا للسيطرة على الشرق العربي والخوف من تهديد المؤسسات الامريكية ، او ايقاف اعمال الاغاثة الامريكية في مناطق الدولة العثمانية وخاصة ليهود فلسطين (١٨) . وكانت الولايات المتحدة وقد تسلمت شؤون مصالح الدول الحليفة في الدولة العثمانية اثر انسحاب المثلين الدبلوماسيين لتلك الدول ، وتحت ضغط الصهيونية ؛ تولت مسؤولية تقديم مختلف انواع المساعدة والدعم ليهود فلسطين نظرا لان معظم المؤسسات الصهيونية في فلسطين كانت تتمتع بحماية بريطانيةاو فرنسية فاعتبرت أملاك عدو ، كما أن نصف يهود فلسطين كانوا من أصل روسي اكتسبوا الجنسية البريطانية قبل الحرب (١٩) ، وبمساعي الولايات المتحدة وضغط اليهود فيها توقفت كل الاجراءات العثمانية ضد الصهيونيين في فلسطين وتدفقت الاعانات والاغذية الى يهود فلسطين ولحماية الاقتصاد الصهيوني في المستوطنات وتساهل الحلفاء في فك الحصار البحري عن مواد الاغاثة المرسلة على السفن الامريكية والتي وزعت باشراف القناصل . وحتى بعد دخول الولايات المتحدة الحرب لم تنقطع الاعانات عن يهود فلسطين ، فكانوا احسن حظا من سائر سكان الدولة العثمانية (٢٠) .

وموقف الولايات المتحدة بعدم اعلان الحرب على الدولة العثمانية يفسر المحاولة التي قام بها مورغنثو (سفير الولايات المتحدة السابق في الاستانة والموظف الكبير في وزارة الخارجية) لانتزاع الدولة العثمانية من حلفائها الالمان

وعقد صلح منفرد معهـا بحكم الصلات السابقة التي كانت تربطـه بالمسؤولين الاتحاديين وبذوي النفوذ من اليهود والدونمة في الدولة العثمانية (٢١) . واعدت بعثة مورغنثو بموافقة ويلسون ووزارة الخارجية الامريكية بطريقة سرية وكان غطاؤها التحقيق باوضاع اليهود في الدولة العثمانية خاصة وان الاهتمام الذي كانت تبديه الولايات المتحدة في ذلك الوقت باليهود في فلسطين قد قدم حجة جاهزة لارسال هذه البعثة في ٢٠ حزيران ١٩١٧

ولم يكن من مصلحة الخطط البريطانية والصهيونية عقد صلح منفرد مـع الدولة العثمانية في وقت اتخذت فيه الوزارة البريطانية قرارهـا في ٥ حزيران ١٩١٧ بالهجوم الحاسم في فلسطين لاخراج الدولة العثمانية من الحرب بضربة قاضية . كذلك كانت المفاوضات الصهيونية مـع الحكومة البريطانية لاصدار تصريح بلفور قد دخلت مرحلتها النهائية . وبتخطيط من بلفور اعترض وايزمان خط البعثة في جبل‌طارق واقنع مورغنثو بالعدول عنها بحجة أن لامصلحة للحلفاء ولا للمنظمة الصهيونية بعقد صلح منفرد مع تركيا (٢٢) ، وحوّل بعثة ويلسون الخاصة عن وجهتها وضمن خروج فلسطين نهائيا من يد الاتراك .

وكانت الحكومة البريطانية تأمل في أن يساعـد نشـر البيـان البريطاني لصالح الصهيونية على التعجيل بدخول الولايات المتحدة الحرب وارسال القوات الامريكية الى أوربا وتأمين مساعدة أصحاب البنوك اليهود (٢٣) . وكان برانديز قد أشار مرارا الى الرئس ويلسون والمسؤولين الامريكيين بامـر المفاوضـات الجارية في لندن بين الصهيونيين والوزارة البريطانية (٢٤) . وخلال زيارة بلفور الى واشنطن في نيسان ١٩١٧ لاجراء مفاوضات سياسية عسكرية خطيرة ، وبتوصية من ويلسون ، جرى لقاء بين بلفور وبرانديز (٢٥) . وكان الاخير قد تلقى رسالة من وايزمن كي تقف الحركة الصهيونية ضد المبادىء المناوئة « للالحاق » التي اعلنتها الولايات المتحدة مؤخرا ، لانه ، بنظر وايزمان، اذا لم تنتصر سياسة « الالحاق » البريطانية فان الصهيونيين لن يحصلوا على فلسطين (٢٦) . وقـد اتضح لبلفور خـلال مباحثاته في الولايات المتحدة ان تأييد بريطانيـا لمطامـع الصهيونيين بفلسطين سيزيد المساعدة التي تقدمها الاوساط المتنفذة في الولايات المتحدة للحلفاء (٢٧) ، وبذلك ارسي تصريح بلفور نتيجة المباحثات بين بلفور وبرنديز .

وطوال صيف ١٩١٧ كانت المفاوضـات مستمرة بين الجانب الصهيوني والحكومة البريطانية تتناول بالتنقيح والتغيير نص التصريح البريطاني ، وقـد

عبر هذا النص المحيط الاطلسي عـدة مرات للحصول على موافقـة برانديز والمجموعة الصهيونية الامريكية . ومن اجل الوصول الى قرار سريع كان لابد من الحصول على موافقة ويلسون ، وطلب وايزمان مـن الزعماء الصهيونيين في الولايات المتحدة تدخلهم لحمل ويلسون على الموافقة على توضيح الخطر الذي سينجم عن سبق المانيا في اجتذاب الصهيونية الى جانبها .

وكان ويلسون رغم عطفه على الصهيونية ، لايزال تحت تأثير فكرة امكان انتزاع الدولة العثمانية من الحرب كما شغلته احداث الثورة الشيوعية ، مـع ذلك بعث مستشار ويلسون وصديقه الحميم الكولونيل هاوس ، باسم ويلسون، في١٦ تشرين‌اول١٩١٧ الى الحكومة البريطانية موافقته على الصيغة المقترحة(٢٨) وبدا الطريق أمام اصدار بيان بلفور وقد خلا من العقبات وكان تأييد التصريح يعني الموافقة على تقسيم الدولة العثمانية التي تعتبر فلسطين جزءا منها كما يتناقض مع مبادىء ويلسون الاربعـة عشر وخاصة حق الشعوب في تقريـر مصيرها (٢٩) . ولكن التصريح على وجه العموم بعث ارتياحا كبيرا لدى الاوساط الصهيونية في الولايات المتحدة ، وساعد على ازدياد مساهمة الولايات المتحدة في الحرب عسكريا وماديا خاصة بعد خروج روسيا من الحرب وازدياد الضغط على الجبهة الغربية .

وقد ظلت الولايات المتحدة على صلة بما كان يجري في الشرق من احداث خلال الحرب عن طريق ممثليها الرسميين في المنطقة الذين تولوا ارسال معلوماتهم الى وزارة الخارجية (٣٠) ، وفي ايلول١٩١٧كلف ويليام ييل،(وكان مندوبا لشركة ستاندرد للبترول في القدس ١٩١٥ ــ ١٩١٧) كممثل خاص لوزارة الخارجية الامريكية لتغطية الاحداث التي تجري في شرقي السويس أي سورية وفلسطين وشبه الجزيرة العربية (٣١) . والتحق ييل بحملة اللنبي على جبهة مصر فلسطين كمراسل حربي ، وتضمنت تقاريره كشاهد عيان وصفا لمـا كان يجري على المسرح العسكري او المسرح السياسي (٣٢) . وبلغ مجموع التقارير التي بعث بها الى دائرة شؤون الشرق الادنى في وزارة الخارجيـة الامريكية منذ بـدء مهمته وحتى اعلان الهدنة ٣٤ تقريراً ، تناول عـدد منها المسألة الصهيـونية وردود فعلها في الشرق، وكان اول من نبه للقضية العربية في وقت تجاهلها الصهيونيون، والى ان التملك اليهودي لفلسطين سيدخل العرب واليهود في صراع عنيف اقتصادي وثقافي وسياسي . ومما اضفى على تقاريره مزيدا من الاهمية المكانة الخاصة التي كان يتمتع بها بصفته مبعوثا لوزارة الخارجية الامريكية والتي لها شأن كبير بنظر كل الاطراف المعنية بالمنطقة ومشاكلها .

الولايات المتحدة والقضية العربية داخل اطار مؤتمر السلم في باريس ١٩١٩:

كان العرب قد علقوا الآمال على مبادىء ويلسون وعلى السياسة التي أشيع في العالم بأن الولايات المتحدة سوف تنتهجها بعد الحرب وذلك لمواجهة الاطماع البريطانية والفرنسية نحو بلادهم . وكانت الافكار التي انعشت آمال العرب وقوت ثقتهم بالمستقبل هي التي اعلنت ان الشعوب تملك حرية تقرير مصيرها وانه لن يفرض على أي شعب من الشعوب نوع من الحكم الا برضاه واختياره ، وكذلك انكار الاتفاقات السرية التي تهدف الى اقتسام الدول الصغرى بين الدول الكبرى كغنائم حرب ، وكان المسؤولون البريطانيون والفرنسيون يصرحون اثناء الحرب بنفس مبادىء ويلسون (٣٣) . وتطلع العرب الى امكانية التحول في الاوضاع العالمية ، الذي يحدث عادة في اعقاب الحروب لتحقيق مستقبل سياسي افضل خاصة وان اسهام العرب في احداث الحرب في انحاء مختلفة من الوطن العربي (سواء تلك الأجزاء التي وقعت تحت الاحتلال الغربي قبل الحرب أو تلك التي ظلت جزءا من الدولة العثمانية) كان يبشر بالمكافأة بعد الحرب .

وكانت جميع الشعوب الصغيرة التي شهدت نموا متزايدا في الفكرة القومية تبحث عن العدالة في مؤتمر السلم الذي افتتح في باريس في كانون الثاني ١٩١٩ ، ليحقق الاعتراف بمطلبها في الاستقلال أو على الادق بمبدأ رضى المحكومين وحق تقرير المصير حسب المبادىء التي عرضها ويلسون على العالم . ورغم اختلاف الاوضاع تماما بعد الحرب وقبول مبادىء ويلسون وافتضاح بعض المعاهدات السرية ، ظلت الادعاءات التي قدمتها الدول الكبرى بعد الحرب هي نفس ادعاءات المعاهدات السرية مع فرق في الشكل وليس في المحتوى (٣٤) . وجرت معظم تسويات مؤتمر السلم وراء ابواب موصدة وفي جلسات سرية واتخذت القرارات من قبل مجلس العشرة (مؤلف من رؤساء الدول الكبرى ووزراء خارجيتها) ، او مجلس الاربعة (مؤلف من رؤساء الدول الاربعة : ويلسون ـ كلمنصو ـ لويد جورج ـ اورلاندو رئيس وزراء ايطاليا) قبل ان تعرض على وفود الشعوب المختلفة التي تهمها مباحثات السلم . ومع انه سمح لهذه الوفود بالتكلم امام المؤتمر وعرض قضاياها ، كما مثلت في لجان مختلفة ، لم يكن لها سلطة تقرير او ابداء راي أو اعتراض على خطة سيما اذا تناقضت مع مصالح الدول الكبرى .

وكان العرب من جملة من عانوا من هذا المخطط الجديد في فترة ما بعد الحرب ، وتبين البون الشاسع بين ما يطالب به العرب وما ترضى الدول الكبرى

ان تعترف به ، اذا لم يعد للعرب بعد هزيمة الدولة العثمانية الفائدة التي كانت لهم أثناء الحرب ، ورفضت بريطانيا في تشرين ثاني ١٩١٨ طلب وفد في مصر يرأسه سعد زغلول بالاذن بالسفر الى لندن لطرح قضية الاستقلال طبقا للمبادىء الاساسية التي نادى بها الحلفاء ، بحجة الانشغال بمؤتمر السلم (٣٦) . واعتبرت بريطانيا مؤتمر السلم تبريرا للتأخير والتنصل من المسؤولية فيما يتعلق بالتزامها للحسين ، وكان تصريح بلفور سلاحا فعالا بيدها تأمل بواسطته ، بالاضافة الى تحقيق المصالح البريطانية ، التخلص من فكرة الدولة العربية الموحدة ، ونسف خطط فرنسا الطامعة بسورية ولبنان وشمال فلسطين . وتمسكت فرنسا بنصوص اتفاقية سايكس بيكو ، ورغم انها قبلت التغيير في التوزيع الا انها لم تشأ التخلي عن مبدأ الاتفاقية (٣٧) . وتمت في لندن صفقة شفوية بين البلدين في كانون اول ١٩١٨ كانت مقدمة للاجراءات التي تمت الموافقة عليها في مؤتمر السلم (٣٨) .

وكان الوفد العربي الوحيد الذي اتيح له حضور مؤتمر السلم هو الوفد المرافق للامير فيصل بوصفه نائبا لوالده . وكان فيصل يرأس حكومة عربية انشئت في سورية الداخلية ولكنها تدخل عمليا ضمن الاجراءات العسكرية المطبقة على الاراضي المحتلة الى ان تتم التسوية النهائية (٣٩) .

وفشلت نداءات سعد زغلول الى ويلسون بطلب مساعدته في السماح لوفد يسمع صوت مصر ويفضي بمطالبها في مؤتمر السلم ويحتج على فرض الحماية التي ليست الا عملا من الاعمال الحربية ويطالب بالاستقلال تطبيقا للمبادىء الجديدة التي تقضي باحترام الجنسيات (٤٠) . وفشل نداء آخر وجهه سعد الى كلمنصو رئيس مؤتمر السلم باسم الانسانية التي تأبى ان تكره الامم على ان تنتقل من يد الى أخرى كما تنتقل ملكية السلع (٤١) . وجدد احتجاجه الى لويد جورج بمناسبة مرور الوفد السوري بمصر للذهاب الى فرنسا فطالب ان تعامل مصر حسبما اتفق عليه مع ويلسون ، ولم يستبعد سعد امكانية تطبيق المبادىء الجديدة التي خرجت بها الانسانية من الحرب متى جد ويلسون في تطبيقها ومتى صحت نيات اكثرية الدول التي اقرتها ، وانه لا ينقص مصر الا ان يسمع مؤتمر السلم صوتها فيعترف باستقلالها (٤٢) . وقد دفعت هذه التحركات القيادة البريطانية الى توجيه انذار الى الوفد بعدم معارضة الحماية وطلب الاستقلال وانتهت بنفي سعد ورفاقه وتفجر الثورة (٤٣) .

وقد استبعدت في مناقشات مؤتمر السلم المناطق العربية التي كانت قد احتلت قبل نشوب الحرب (شمال افريقيا العربي بما فيه مصر) ، أما المناطق التي بقيت تحت حكم الدولة العثمانية (سورية الطبيعية والعراق والجزيرة العربية) فكانت من اهم المسائل التي شغلت مؤتمر السلم نظرا لتعلق مصيرها بمصير الدولة العثمانية ، وهي قضية اختلفت آراء الدول الكبرى بشأنها لان لها مصالح في اجزاء مختلفة منها .

وفي شباط ١٩١٩ عرض فيصل المطالب العربية في مؤتمر السلم طبقا للعهود التي منحت للحسين باستقلال الاجزاء العربية في آسيا ووحدتها ، واستشهد بالنقطة الثانية من خطاب ويلسون تموز ١٩١٨ التي تنص على ان تسوية اية مسألة ستبنى على اساس القبول الحر لهذه التسوية من قبل الشعوب المعنية مباشرة (٤٤) . ورغم تواضع مطالب فيصل ، اذ لم يتحدث عن قضية العرب في افريقيا فقد كانت فرصته في النجاح ضئيلة ، مهما كانت صحة مطالبه من حيث المبدأ وقيمة الاثر الذي احدثه على سامعيه ، اذ كان المسيطرون على المؤتمر قد خططوا لمستقبل الشرق العربي قبل ان يستمعوا اليه .

وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩١٩ وفي جلسة خاصة بحضور ممثلي الدول الكبرى اتخذ المؤتمر قرارا مؤداه فصل اجزاء معينة من الدولة العثمانية هي سورية وفلسطين والعراق وارمينيا وكليكيا واجزاء اخرى من آسيا الصغرى ، ووضعها تحت اشراف عصبة الامم عن طريق حكومات تعمل كدول منتدبة تستطيع ان تأخذ على عاتقها رفاهية هذه الشعوب وتقدمها (٤٥) . وكان هذا القرار اساسا للمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم الذي وضعت مسودته النهائية في ٢٨ نيسان ١٩١٩ (٤٦) . وقد سأل ويلسون فيصل بعد القاء خطابه ان كان يؤثر ان يرى دولة واحدة تتولى الانتداب على شعبه أو يتولاه عدد من الدول ، وكان ذلك خروجا عما كان يطالب به فيصل من الاستقلال والسيادة ، وامتنع عن الرد بصورة صريحة ولكنه طالب باتخاذ خطوات ايجابية للتحقق من رغبات الشعوب المعنية حتى يمكن الوصول الى تسوية عادلة مؤكدا مبدأ موافقة المحكومين حسب مبادىء ويلسون (٤٧) .

وقد تأخر الوصول الى اتفاق بشأن مصير سورية لانها كانت تمثل قمة المساومات والتناقضات والتحالفات السرية وموضوع المشاحنات بين بريطانيا وفرنسا (٤٨) ، وقد وجهت وزارة الخارجية الامريكية الدعوة للدكتور هوارد بلس مدير الكلية البروتستنتية في بيروت (الجامعة الامريكية فيما بعد) ليأتي الى

باريس ويدلي امام مؤتمر السلم بآرائه حول الوضع في سورية نظرا لخبرتـه الواسعة ومعرفته الدقيقة بشـؤون لبنان وسورية وكـان كسائر المراقبـين الامريكيين في سورية من الذين يعطفون على آراء ويلسون واصبحوا عاملا لابأس به في جلسات المؤتمر . وقد نقل الى اعضاء الوفد الامريكي لمؤتمر السلم اعتقاده بأن السوريين سيختارون بالدرجة الاولى الولايات المتحدة لتكون الدولة المنتدبة ومن بعدها بريطانيا . اماا ختيارهم امريكا ، من وجهة نظره فهو لانها بلد محايد وليس لها مصالح انانية . وكتب الى ويلسون رسالة شخصية يخبره فيها عـن مدى ثقة السوريين بمبادئه وتطلعهم الى فرصة يمكن معها التعبير عن مطامحهم السياسية (٤٩) . وامام مجلس العشرة في ١٣ شباط ١٩١٩ عرض بلس هذه الآراء مطالبا بارسال لجنة تحقيق من ممثلين مفوضين عن المؤتمر الى سورية للحصول على بيان دقيق عن وجهة نظر السوريين وعن امانيهم بالنسبة الى نوع الحكم الذي يرغبون فيهوبالنسبة الى الدولة الحاميةالمنتدبة اذا شاؤوا ذلك(٥٠) .

وقد وقفت الحركة الصهيونية كاتجاه خطير يعارض تحقيق المطالب العربية في سورية . وكان الوفد الصهيوني الى مؤتمو السلم يسعى للحصول على تأكيد دولي لتصريح بلفور وتأمين ضمه الى نص معاهدة السلم وميثاق العصبة . ومع ان النفوذ الفعلي في الوفد كان ليهود بريطانيا (برئاسة وايزمان) الا ان كفة يهـود الولايات المتحدة من ذوي النفـوذ كانت راجحة (برانديز وفرنكفورتر) بسبب وجود ويلسون . وكسب الصهيونيون دعم الوفد الامريكي الرسمي الى مؤتمر السلم الى جانب الدعم البريطاني كي يضمنوا من المؤتمر كل مساعدة ممكنة وكي تعترف العصبة بفلسطين دولة يهودية (٥١) . واعتبر ويلسون ان الوطن القومي اليهودي هو احد اثنين من المنجزات الجديدة التي انبثقت عنها الحرب الى جانب العصبة (٥٢) . ويذكر لورنس ان جهوده انصرفت الى أن يكون التعاون الامريكي البريطاني في الشرق معززا بمشاريع الصهيونية .

ولم تغـير موقف الوفـد الامريكي الرسمي الى مؤتمر السلم مجموعـة البرقيات والاحتجاجات من الهيئات الامريكية في الشرق واليهـود المعـارضين للصهيونية والعرب المقيمين في الولايات المتحدة (٥٣) ، التي تحذر من تنفيذ تصريح بلفور لتناقضه مع مبادىء ويلسون فيما يتعلق بتقريرالمصير. وعرض فرنكفورتر على الوفد الامريكي الرسمي مسـودة صك الانتداب قبل عرضه على ممثـل الدول (٥٤) . واستغل فرنكفورتر وقوع الوفد العربي الى مؤتمر السلم تحت ضغط الحكومة البريطانية وعدم ادراكه الاعيب السياسة الدولية ، الى الحصول

على تصريح من فيصل ، بتدبير لورنس ، يؤكد فيه على التفاهم والتعاون بين العرب واليهود للعمل معا من أجل نهضة الشرق كله (٥٥) .

لجنة كنغ ـ كرين : تجربة امريكية للتعرف على أوضاع الشرق العربي ١٩١٩ :

فشلت القضية العربية في باريس ، وكان غاية ماتمكن فيصل من الحصول عليه اقتراح تقدم به ويلسون لمعالجة مستقبل الاجزاء العربية من الدولة العثمانية بالاطلاع على رغبات سكانها طبقا للمبدأ الذي تلتزم به الولايات المتحدة وهو موافقة الشعوب المحكومة (٥٦) . وخلاصة اقتراحه ارسال لجنة تحقيق من ذوي الخبرة والمؤهلات من الدول الكبرى الحليفة لمعرفة رغبات السكان في المنطقة والتحقق من الوضع ، وعلى اساس الوقائع المكتشفة يمكن ارساء العدالة وتأمين السلام ، وذلك كي يقنع العالم بأن المؤتمر حاول جهده لايجاد اساس موضوعي ممكن للتسوية المقبلة (٥٧) .

وضع ويلسون تعليماته الى اللجنة المقترحة ووافق المجلس الاعلى للحلفاء عليها رسميا في ٢٥ آذار ١٩١٩ . وتقضي هذه التعليمات بزيارة الشرق الادنى والتعرف بقدر الامكان على حالة الرأي العام وعلى الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المنطقة والخروج بتصور حول تقسيم المنطقة وتوزيع الانتداب بحيث يمكن توطيد النظام والسلام وتطوير شعوب هذه البلاد ، واصر ويلسون ان يرسل الممثلين ومعهم تفويض كامل بذكر الحقيقة كما يجدونها (٥٨) .

ورغم ان اقتراح ويلسون كان أفضل ما يمكن للمؤتمر ان يفعله ، الا انه لا يشير الى طريق حل نظرا لان الاوضاع التي اكتسبتها الدول الكبرى في السابق أصبح من الصعب تغييرها ، فتعطلت اللجنة بذلك قبل ان تباشر مهامها . ولكن ويلسون استطاع من خلال هذا الاقتراح ان يدخل الولايات المتحدة الى الشرق العربي ، وكان مبدأ دراسة رغبات الشعوب قبل الموافقة رسميا على وضعها تحت انتداب الدول الكبرى هي الحجة الملائمة .

وكان لاتخاذ قرار ارسال اللجنة اثر كبير على فيصل لانه كان يثق تماما بنتائجها (٥٩) . وقد بدأ يتحول كلية نحو الولايات المتحدة بعد ان عرف ان اتفاقية سايكس بيكو ظلت خطة العمل في اذهان ساسة فرنسا وانكلترا ، وظهرت دعاية قوية تدعو الى طلب المساعدة (او ما اطلق عليها مهمة الانتداب) من الولايات المتحدة لكونها غنية وليس لها مطامع في الشرق . وتوسعت الدعاية بنشاط بلس

وبعض سوريي المهجر ، وحزب الاتحاد السوري في مصر (٦٠) . وقد ذكر احمد قدري في مذكراته (وكان أحد اعضاء الوفد العربي لمؤتمو السلم) أنه سمع ويلسون يقول للامير : « لن تروا في بلادكم ابدا عمالا للاستعمار باسم المشورة او خلافها... واذا أحوجتكم المشورة فستكون بناء على رغبتكم وموافقتكم »(٦١).

ولكن رغم الآمال الغامضة التي ظل فيصل يعقدها على دعم الولايات المتحدة لمبدأ حق تقرير المصير ، فان القضية العربية قد سويت ، او كانت على وشك التسوية من قبل الدولتين الكبيرتين وبدت قضية استشارة رغبات السكان عديمة الجدوى . ويعلق امين الريحاني « انه ويلسون الذي خدع الامير كما خدع غيره من الناس والامم والشعوب لقد توقع فيصل حلا افضل على يد لجنة تحقيق » (٦٢) .

خيبة امل مماثلة اصابت سعداً ورفاقه وكانوا ، بعد ان اطلق سراحهم في ٧ نيسان ١٩١٩ قد توجهوا من مالطة نحو فرنسا لطرح قضيتهم امام مؤتمر السلم حيث كانوا يرجون الكثير من الدعوة الويلسونية ولم يستجب « رسول السلام » على طلب الاذن بمقابلة خاصة للوفد المصري ، وجاء الرد المنتظر بصورة اعتراف الولايات المتحدة بالحماية البريطانية على مصر في ١٩ نيسان أي بعد وصول الوفد الى مرسيليا بيوم واحد (٦٣) . واهتمت الحكومة البريطانية بنشر اعتراف ويلسون بالحماية عن طريق القنصلية الامريكية في القاهرة . وصيغة الاعتراف (٦٤) تكشف الطريقة التي استطاعت فيها السياسة البريطانية حمل ويلسون على نقض مبادئه باسم الامن وكراهية العنف بحجة أن المصريين قد اساءوا فهم دعوته وتشجعوا بها على الثورة فهددوا الحضارة والمصالح الاجنبية.

ولقد كانت صدمة ويلسون للوفد من الاسباب التي دفعت سعداً ورفاقه الى التحول في معركة الدعاية عن الحكومات والوسائل الحكومية الى مخاطبة الشعوب (٦٥) ، بصفتهم وفداً من الوفود الشعبية الى جانب مؤتمر السلم . وقد اتجهت انظار الوفد الى نشر الدعاية في الولايات المتحدة ، بسلسلة من البيانات والاحتجاجات وبدات دلائل الاهتمام بالقضية المصرية بين بعض اعضاء مجلس الشيوخ الامريكي ورجال الصحافة ، دون أن يكون لويلسون فضل في ذلك ، فقد كان الوفد قد تلقى ردا على كتاب سعد بطلب المقابلة يعتذر فيه لضيق الوقت ، ويرجو ان يتسع وقته في المستقبل للمقابلة المطلوبة (٦٦) .

وكان ويلسون لايزال في باريس يواجه مناورات السياسة الاوربية تجاه

ارسال لجنة تحقيق دولية الى الشرق . وكانت فرنسا تعارض فكرة التحقيق في سورية في حين وقفت الحكومة البريطانية منهـا موقف الفتـور ، والتقت مصالحها مع مصلحة الصهيونية التي احتجت على اجراء التحقيق في فلسطين حتى لايكشف بأن العرب يرغبون في حكومة عربية (٦٧) . وعبر فرنكفورتر باسم المنظمة الصهيونية الى ويلسون عن مخاوفه من أن يؤدي التحقيق الى حل يخالف مضمون تصريح بلفور (٦٨) . وكان على ويلسون صاحب اقتراح اللجنة الدولية ان يختار بين التخلي عن مذكرة التحقيق أو ان يتولى الجانب الامريكي هذه المهمة، فقرر اتخاذ الحل الاخير (٦٩) . وفي ٢١ أيار اصدر ويلسون تعليماته الى الاعضاء الامريكيين في اللجنة الدولية بالذهاب الى سورية باسم « الجانب الامريكي من اللجنة الدولية بشأن الانتداب في تركيا » ، عرفت اختصاراً باسم لجنة « كينغ ـ كرين » نسبة الى رئيسي اللجنة وكان هذا القرار بنظر ويلسون افضل مايمكن للمؤتمر ان يفعله في تلك الظروف (٧٠) .

ورغم ان نتائج التحقيق كانت معروفة سلفا ، كان الجميع في الشرق العربي يعلق أهمية كبرى على وصولها لانها برأيهم الوسيلة الوحيدة التي يستطيعون بواسطتها ان يعبروا عن أمانيهم لدى مؤتمر السلم . وسبق قدومها انطباع عام بأن الشعوب تستطيع الاعتماد على ويلسون وعلى الشعب الامريكي من اجـل الوصول الى سلام دائم تحت لواء عصبة الامم . وتلقى ويلسون برقية من فيصل في ٢٢ أيار ١٩١٩ يعلمه فيها بأن كل فرد ينتظر بتلهف قدوم اللجنة (٧١) .

وجرى التحضير لقدوم اللجنة في جميع انحاء سورية وفي العراق ، وتشكل حزب جديد في مصر يضم بعض زعماء السوريين (نمر ، صروف ، شقير) هو الحزب الحر المعتدل اداته السياسية جريدة المقطم واعتبره البعض وسيلة للدعاية الامريكية في الوطن العربي (٧٢) . وعقد في دمشق (مقر الحكومة العربية) المؤتمر السوري العام في مطلع حزيران ١٩١٩ ممثلا لسورية في مناطقها الثلاث باعتباره الوسيلة الوحيدة لاقناع اللجنة بشرعية المطالب العربية ليبين لها راي الشعب في مصير البلاد (٧٣) . وقد قرر المؤتمرون استقلال سورية ضمن وحدة عربية والاحتجاج على المعاهدات السرية لتجزئة البلاد وعلى تصريح بلفور . ولكنهم قبلوا اختيار الولايات المتحدة لتقديم المساعدة الاقتصادية والفنية والمالية نظرا لثروتها المادية والعلمية ورغبتها بمساعدة الشعوب الصغيرة وعدم وجود مطامع استعمارية لها ، على أن لايكون لذلك معنى الوصاية والحماية أو أي مساس بالاستقلال والوحدة ، وان تعذر فبريطانيـا مـع رفض فرنسا على الاطلاق . واظهروا ثقتهم بمؤتمر السلم ومبادىء ويلسون (٧٤) .

وقضت اللجنة اثنين واربعين يوما في انحاء متفرقة من المناطق السورية الثلاث (٧٥) منذ نزولها في يافا ١٠ حزيران وحتى وصولها مرسين في تركيا (لم تزر العراق واكتفت بلقاء وفد عراقي في حلب) (٧٦) زارت مختلف المدن والقرى واطلعت على جميع وجهات النظر واجرت مقابلات مع وفود تمثل فئات مختلفة تعبر عن الرأي العام في سورية وقدمت لها عرائض مختلفة تشرح أراء ورغبات الناس وتردد البعض في المثول أمام اللجنة لعدم ثقتهم بجدواها (٧٧) . وتبين للجنة من خلال المقابلات والعرائض والتحقيقات الشفهية شبه اجماع على قرارات المؤتمر السوري في دمشق ، والتي اعتبرتها اللجنة تمثيلا كافيا للارادة الشعبية.

وقبل أن تضع اللجنة تقريرها النهائي بعث كينغ وكرين برقية الى ويلسون في ١١ تموز يلخصان رأيهما حول الوضع في سورية والرغبة العميقة بالوحدة والاستقلال وعن أن الولايات المتحدة هي الاختيار الاول للاغلبية لتقديم المساعدة لانه ليس لها مطامع اقليمية . ووضعت توصيات اللجنة في ٢٨ آب ١٩١٩ في تقرير طويل (٧٨) ، رفع الى الوفد الامريكي في باريس ، وابرق كرين بعد يومين الى ويلسون بخلاصة التوصيات وهي في ثلاثة اجزاء :

الاول : شرح لعمل اللجنة ، وتقرير عن الاوضاع السائدة في المنطقة ، والثاني: توصيات عامة الى مؤتمر السلم حول تسوية المسألة التركية ، والثالث: الملحق السري وهو اكثر الاجزاء أهمية بين فيه الاعضاء ما وجدوه في تحقيقاتهم بصراحة اكبر .

وكانت أهم التوصيات تلك المتعلقة بفلسطين ، فقد اوصت اللجنة بتعديل كبير للبرنامج الصهيوني المتطرف الذي يتطلع نحو تجريد كامل للسكان المحليين من غير اليهود ولذا اقترحت وجوب توحيد فلسطين مع سورية تحت انتداب بريطانية او امريكا ، مع تحديد للوطن القومي اليهودي . وبالنسبة لسورية فقد اوصت اللجنة بوحدتها تحت حكم ملكي دستوري برئاسة فيصل على ان يعهد لامريكا او بريطانيا بالانتداب . وبالنسبة للعراق فقد اوصت بانتداب بريطاني مع ضم الموصل .

وعرضت اللجنة تحليلات اضافية حول الوضع في سورية ضمنته الملحق السري ، فوجدت ان سورية تقدم مثلا صالحا لانشاء دولة قومية حديثة يعيش فيها افراد الديانات الثلاث بانسجام تام ، فالبرامج التي قدمت هي برامج قومية تدعو الى سورية الموحدة المستقلة عدا انصار الصهيونية ولبنان المستقل . ويرى

التقرير أن فصل لبنان وفلسطين عن بقية سورية سوف يقوي الفروق الدينية على حساب الشعور القومي . وبرأي اللجنة ان طلب الاستقلال التام في سورية ومعارضة المادة ٢٢ من ميثاق العصبة لم يمنع الاغلبية من قبول نوع من الاشراف بشكل مساعدة اقتصادية فنية لاتتعارض مع الاستقلال ، لذا تقترح اللجنة أن أحسن حل هو انتداب أمريكي على كل سورية . وترجع اللجنة اسباب الشعور الموالي للولايات المتحدة الى الثقة بمبادىء ويلسون التي دخل الحرب على اساسها ولكونها دولة غنية ليست استعمارية ، ويعزز ذلك اعجاب بالتعليم والثقافة الامريكيتين .

ولم ينشر تقرير لجنة كنغ كرين في حينه ، وظل أمره خافيا على مؤتمر السلم الذي وضعت اللجنة تقريرها له ، ولم يستخدمه اعضاء الوفد الامريكي في باريس رغم أن اعضاء اللجنة قد رفعوا نص التقرير الكامل الى البيت الابيض في ٢٧ ايلول ١٩١٩ ، واختفى في ملفات وزارة الخارجية الامريكية في واشنطن ، بعد ان كان ويلسون يرى في اللجنة الدليل الوحيد لتأكيد مبدأ العدالة وميثاق العصبة . ويبدو ان صراحة التقرير كانت ستربك الحكومة الامريكيةفي مؤتمر السلم وستهدد علاقاتها بحلفائها ، فوجدت أن اخفاءه هو الطريقة الوحيدة لانهاء الوضع الذي خلفه تعيين اللجنة (٧٩) ، وربما دفعتالتوصيات المناوئة للصهيونية والمعادية لفرنسا كلا من الحكومتين الفرنسية والبريطانية للتدخل لدى الوفد الامريكي في باريس ووزارة الخارجية في واشنطن لاخفاء التقرير دون أن يصدر بيان رسمي بذلك ودون ان تشير ملفات القرارات الثلاث الى الدوافع (٨٠) .

وقد يكون من العوامل التي حالت دون نشره مرض ويلسون واستحالة تولي الولايات المتحدة أي انتداب في الشرق ، وكون التحقيق قد تم على يد الجانب الامريكي من اللجنة الدولية (٨١) .

وحين نشر التقرير في كانون اول ١٩٢٢ كان قد فقد أي تأثير له في تسوية القضايا التي عالجها . فقد تراجعت الولايات المتحدة كعامل هام في تسيير السياسة العالمية ، وصوت الكونغرس في ايار - حزيران ١٩٢٠ مؤكدا تصريح بلفور . وتركت حرية العمل الى الحكومتين الفرنسية والبريطانية اللتين وجدتا من الضرورة التوصل الى تفاهم حول توزيع المناطق العربية من الدولة العثمانية السابقة واقرت العصبة تسليم الانتداب في فلسطين في ٢٤ تموز ١٩٢٢ الى بريطانيا بعد ان نجح الصهيونيون في جعل مؤتمر السلم يعترف رسميا بالتفسير الموسع لتصريح بلفور ، وادرج نصه ضمن قرارات مؤتمر باريس وميثاق العصبة .

وبذلك اثبتت هذه المحاولة التي قام بها مؤتمر السلم للتعرف على رغبات السكان عدم جدواها في التأثير على مجرى السياسة ، ولم يكن ذلك خطأ الاعضاء اذ حين قرر ويلسون ارسال اللجنة كان المؤتمر قد قرر توزيع مناطق النفوذ بين فرنسا وانكلترا ، ولذا فمن المضلل ان يستفتى الشعب في الاختيار بينهما ، كما انه من المضلل ان تقدم الولايات المتحدة كاحدى الدول المنتدبة دون ان يعرف موقف الولايات المتحدة من قبول الانتداب . وسيظل مدار بحث دوما حول من يقع اللوم في فشل اللجنة . واعتبر البعض مجيء اللجنة عاملا في زيادة حدة العصبيات الدينية والطائفية (٨٣) ، وان تأثير تقرير اللجنة كان عديم القيمة على مجرى الاحداث ، بل بالعكس فرض القلاقل وعدم الاستقرار واثار امالا مزيفة وجعل تسوية السلم اكثر صعوبة (٨٤) ، وان مجيء اللجنة قد شهد تدهور مكانة الولايات المتحدة في الشرق (٨٥) .

ولكن مهما كانت درجة الانتقاد الموجه الى اللجنة فقد اثبتت الحوادث التالية ان التحقيق قد كشف بدقة معقولة الرغبات الحقيقية لجميع الفئات في المنطقة ، وان تقرير اللجنة ، باستثناء توصياتها السياسية غير العملية ، يعطي تحليلا دقيقا للوضع كما وجد في صيف ١٩١٩ (٨٦) ، وانه قد وضع بشكل موضوعي دقيق مبني على المعرفة التامة في منطقة مليئة بالتوتر ، كما اضاف كثيرا من المعاملات عن المحادثات التي قررت بها الدول الاوربية الكبرى الاستيلاء على المناطق العربية في الدولة العثمانية .

الولايات المتحدة تتخلى عن تسويات ما بعد الحرب لصالح حلفائها :

فشل مؤتمر السلم في باريس في التوصل الى تسوية مناسبة لمصير الدولة العثمانية ، ولم تشمل معاهدة فرساي المبرمة في ٢٨ حزيران ١٩١٩ سوى تسوية قضايا الدول المغلوبة الاخرى بصيغة لا تتفق مع الاهداف والمبادىء التي صرح بها ويلسون ، وقد سعى ويلسون الى الحاق معاهدة فرساي بميثاق يتضمن انشاء مؤسسة عالمية (عرفت بعد بعصبة الامم) على ان تشترك فيها جميع الدول (بما فيها الولايات المتحدة والدول المتحالفة والدول التي بقيت اثناء الحرب على الحياد على ان تنضم اليها فيما بعد الدول المغلوبة) وذلك لفض المشاكل الدولية والسعي لصيانة السلام العالمي (٨٧) .

وقد نصت المادة ٢٢ من ميثاق العصبة على نظام سياسي جديد اقترح بمناسبة البحث في قضية تصفية المستعمرات الالمانية نص على ان رفاهية شعوب

المستعمرات وتنمية مواردها تستلزمان رعاية الدول المتقدمة التي استنادا الى مواردها والى خبرتها ، واستنادا الى موقعها الجغرافي تستطيع ان تتولى هذه المسؤولية ، على ان تمارس هذه الدول رعايتها بصفتها دولا منتدبة من قبل عصبة الامم (٨٨) . ونظام الانتداب هو تجربة سياسية غريبة لما بعد الحرب سعى الى وضعه ويلسون والجنرال سمطس (ممثل اتحاد جنوبي افريقيا الى مؤتمر السلم) ومن ثم ايداعه ميثاق العصبة كتطبيق لمبدأ حق تقرير المصير الذي ينكر مبدأ « الالحاق » القديم . والواقع ان نظام الانتداب لم يكن الاصيغة منافقة استخدمت لتغطية الامبريالية القديمة ، بدعوى ان الدولة المنتدبة التي تختارها الشعوب المنتدبة (التي اقتطعت من الدول المغلوبة) لن تحصل على أي سيادة او مصلحة ذاتية بل همها ان تساعد الشعب الذي يعهد به اليها من قبل العصبة، وان تجعل مصلحته وتقدمه وديعة في يد المدنية . وكما كتب سمطس بأن « الشعوب التي خلفها انهيار روسيا والنمسا وتركيا هي شعوب متخلفة سياسيا فان كثيرا منهم اما لا يستطيعون ممارسة الحكم الذاتي ، او انه تنقصهم القدرة والكفاية على ذلك ، وهي شعوب في معظمها فقيرة جدا وتحتاج الى رعاية كبيرة الى ان تصل يوما الى الاستقلال الاقتصادي والسياسي » (٨٩) .

كان على ويلسون بعد ابرام معاهدة فرساي ، ان يحمل نص المعاهدة بما فيها ميثاق العصبة الى الولايات المتحدة لاقرارها من الكونغرس . وقد واجهت ويلسون بعد عودته الى الولايات المتحدة في خريف ١٩١٩ معارضة شديدة ترجع الى قضايا داخلية بحتة حيث كان زعماء الحزب الجمهوري يندَدون بخططه واساليبه واتخذوا من معاهدة فرساي اداة للتقليل من مكانه ويلسون ، كما وقفت فئة من المحافظين تمانع في دخول عصبة الامم خشية تورط الولايات المتحدة في مشاكل اوربا ومنازعاتها مفضلة سياسة العزلة .

وفي الاشهر الاخيرة من وجود الولايات المتحدة في مؤتمر السلم ، ورغم ان ويلسون لم يعط الوفد الامريكي في باريس أي صلاحيات باتخاذ قرار خلال غيابه في الولايات المتحدة ، بذل العرب كل جهد لكسب عطف الولايات المتحدة على قضاياهم ، ولم يفقد فيصل امله بحل امريكي رسمي وطلب من لويد جورج في ٩ تشرين أول ١٩١٩ (اثناء زيارته الثانية للندن بعد ان تأكد من تخلي القوات البريطانية عن الاجزاء الداخلية من سورية لصالح فرنسا) طلب عرض المسألة السورية على مؤتمر السلم او على لجنة ثلاثية يرأسها امريكي (٩٠) . واسر الى الكابتن ييل (وكان احد خبراء لجنة كنغ كرين ولكنه كان يبحث عن تسوية للقضية السورية خارج توصيات لجنة كنغ ــ كرين ، ونشرت في التيمس في ١٨

تشرين اول ١٩١٩) اسر له ان بريطانية لو انسحبت فسيقوم بتقديم طلبه الاخير الى الولايات المتحدة فلو رفضت اتخاذ أي اجراء فسيعود الى سورية كي يقود شعبه في ثورة مسلحة ضد الاحتلال الاجنبي ، واعلن انه سيقبل اي حل تفرضه الولايات المتحدة (٩١) .

وقام عضوان من اعضاء الوفد العربي الى مؤتمر السلم (عوني عبد الهادي ونوري السعيد) بمقابلة فرانك بولك ، رئيس الوفد الامريكي بعد سفر ويلسون، وتحدثا معه مفصلا عن الظلم الكبير الذي يلحق بالعرب فيما اذا وضع جزء من البلاد العربية تحت اشراف دولة أخرى ، وناشداه بصفته ممثل ويلسون ، الذي من مبادئه عدم اقرار سياسة لاية بلد دون استشارة اهلها ، بأن يحول دون تحقيق مطامع هولاء الساسة . وادرك العضوان ان بولك كان يعرف تماما ان لا رجاء في ان يفلح مؤتمرالسلم بتغييرخطط الانجليز والفرنسيين وانهم سينفذون جميع اتفاقاتهما السرية العسكرية رضي المؤتمر أم لم يرض (٩٢) . ولم يكن بيد بولك شيئا فقد كان يعلم هو وويلسون قرب انسحاب الولايات المتحدة من المؤتمر ونفض يدها من السياسة العالمية .

وفشلت مهمـة المفاوضين العرب في اوربة للحصول على تسوية المسألة السورية ولم يحصلوا الا على مقابلات غير حاسمة ، في نفس الوقت كان سعد زغلول في باريس لا يزال يضع امله بما يمكن ان تحدثه حملة الدعاية في الدوائر السياسية الامريكية وابدى اعتماده على مساعدة الشعب الامريكي « محب الحرية في تحقيق الامال القومية لشعب حكم علية بالاستعباد من غير ان يسمع دفاعه » واوكل الى جوزيف فولك وهو محام امريكي كبير ، سبق له الوكالة في القضايا السياسية الكبرى ، ببسط وجهـة النظر المصرية لـدى مجلس الشيوخ وفي الصحافة . ونجحت جهوده بصدور تصريح عن لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ يطلب ان تكون مصر مستقلة وزمامها بيدها ، وارسل سعد من باريس الى اللجنة المركزية للوفد في ٢٩ اب نص التصريح (٩٣) .

وسعت الجهات البريطانية في مصـر الى اخفائه . كما اصدرت السفارة البريطانية في واشنطن تصريحات مضادة ، وقد اثارت القضية المصرية اهتمام الكثيرين في الصحافة ولدى بعض اعضاء المجلس ، كما وصل محمد محمود باشا في منتصف تشرين اول الى الولايات المتحدة لمتابعة مهمة الدعاية ، ولكن لم يعقب ذلك نتيجة حاسمة في موقف الحكومة الامريكية ، كل ما عملته ان عجلت بريطانية بايفاد لجنة تحقيق برئاسة ملنر لسؤال المصريين عن مطالبهم وتقرير نظام الحكم الذي يريدون في ظل الحماية (٩٤) .

وفي سورية ، وبعد حوالي سنتين من الانتظار تحت الاحتلال الاجنبي والادارات العسكرية ، جابه المؤتمر السوري العالم بالامر الواقع . وبالاستناد الى حق الشعب في التحرر السياسي ووعود الحلفاء ومبادىء ويلسون اتخذ في ٨ آذار ١٩٢٠ قرار استقلال سورية الطبيعية ، وايجاد اتحاد سياسي واقتصادي مع العراق المستقل . وابلغ الدول الحليفة القرار بأسلوب معقول ومقنع مع توضيح الاسباب التي ادت الى هذه الخطوة . وبذل فيصل وحكومته جهودا كبيرة للحصول على موافقة الولايات المتحدة وحاولا وضع قضية اعلان استقلال سورية في اطار مرض كي يحظيا برضاها وموافقتها (٩٥) . وفي رسالة فيصل الى ويلسون كرر الدعوة لزيارة لجنة كنغ كرين مع طلب المساعدة للتوصل الى وحدة سورية واستقلالها بدلا من تجزئتها (٩٦) . ولكن الولايات المتحدة لم تبد اكتراثا بأمر استقلال سورية ولم يرد ويلسون على مراسلات دمشق . فقد شغل ويلسون بالنزاعات الداخلية ، اذ لما لم يبلغ اعضاء مجلس الشيوخ المؤيدين لمعاهدة فرساي ولميثاق العصبة الاكثرية في النصاب المعين في الدستور ، عمد ويلسون الى الاتصال بالشعب مباشرة طالبا معاضدته في سياسته الخارجية فراح يطوف البلاد شارحا مزايا العصبة وسمو مبادئها . وفيما هو في ولاية كولورادو اصابه شلل اقعده عن العمل . وفي ١٩ آذار صوت مجلس الشيوخ الامريكي ضد سياسة ويلسون الخارجية ورفض المصادقة على معاهدة فرساي وميثاق العصبة .

وهذا القرار الذي فاز به مجلس الشيوخ قضى على مشروعية اشتراك الولايات المتحدة في مؤتمر السلم ، وتوقفت عن التدخل في السياسة الاوربية ، مما افسح المجال أمام بريطانية وفرنسا لتنفيذ خططهما بمستقبل الشرق العربي. وكانت جلسات مؤتمر السلم قد انتهت في ٢١ كانون ثاني ١٩٢٠ دون ان تعقد معاهدة مع الدولة العثمانية ، ولكن عقد بعد ذلك عدد من المؤتمرات الدولية في فترات متقطعة لاستئناف البحث في المعاهدة كان اهمها الاجتماع الثاني لمجلس الحلفاء الاعلى نيسان ١٩٢٠ في سان ريمو في ايطاليا ، اشتركت فيه الدول الاعضاء في مجلس العصبة الدائم (الدول الكبرى) وكان غرض الاجتماع الاساسي وضع مشروع المعاهدة مع الدولة العثمانية (٩٧) . ومع ان شرعية فصل المناطق العربية عن الدولة العثمانية لا يصح الا بعد عقد المعاهدة ، ومع ان نظام الانتداب لم يعرض بعد على مجلس العصبة فقد قرر المجتمعون في سان ريمو تطبيق نظام الانتداب من الفئة (آ) وفقا للفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من الميثاق على المناطق العربية التي وزعت دبلوماسيا اثناء (٩٨) الحرب . ولم تعترض

الولايات المتحدة على هذه الاجراءات الا حين مست هذه التدابير مصالحها الاقتصادية . وكان ردها سلبيا امام النداءات التي بعثت بها حكومة دمشق حين كانت القوات الفرنسية تتقدم نحو سورية الداخلية بعد أزمة الانذار في تموز ١٩٢٠.

خاتمـــة :

لقد جاءت تسوية ما بعد الحرب مخالفة للتعهدات التي قطعت للعرب وفشل مؤتمر السلم في تحقيق الامال القومية التي كان العرب يرتقبون تحقيقها. فوضعت معظم اجزاء الشرق العربي تحت الانتداب ولم يبق الا الجزيرة العربية عدا الاطراف الجنوبية والشرقية خارج نطاق تقسيمات الانتداب . اما الاجزاء الاخرى من الوطن العربي التي احتلت قبل الحرب فقد توطد فيها حكم الدول الكبرى بعد ثورات كثيرة . ولم يكن العرب وحدهم الذين وثقوا بمبادىء ويلسون ، التي اثبتت انها خير دعاية اثناء الحرب ولكنها عديمة الجدوى لارساء قواعد السلم ، وكان من الصعب على العرب ان يدركوا حتى عام ١٩٤٥ ان الاهداف المثالية التي اعلنتها حكومة الولايات المتحدة كاهداف للحرب لا تتطابق مع الحقائق السياسية داخل الولايات المتحدة ولا مع حقائق العلاقات الدولية (١٠٠).

وكان انسحاب الولايات المتحدة من مؤتمر السلم وقرار الكونفرس بعدم الانضمام الى عصبة الامم وتوقيع معاهدات الصلح بداية فترة جديدة من العلاقات الامريكية العربية في الفترة بين الحربين ، تميزت بوقوف الولايات المتحدة من قضايا الوطن العربي السياسي موقفا سلبيا . دون ان يعني ذلك عزلة الولايات المتحدة عن المنطقة العربية ، وكذلك لم يكن يعني توقف يهود امريكا عن دعم سياسة الوطن القومي اليهودي . وإكتفت الولايات المتحدة الامريكية برعاية الانشطة غير السياسية وظلت تعترف لفرنسا وانجلترا بالتفوق السياسي في المنطقة العربية طالما ضمنت هاتان الدولتان مصالح الافراد والشركات الامريكية. ومنذ نشوب الحرب العالمية الثانية بدات ترتسم اتجاهات جديدة في العلاقات : أول هذه الاتجاهات الدور المتزايد الذي اخذت تلعبه الموارد البترولية بالنسبة للاهتمام الامريكي بالشرق العربي ، والثاني توضح اهمية الموقع الاستراتيجي الجغرافي للمنطقة . واخيرا بداية المواجهة مع القوى القومية العربية بعد ازدياد الدعم الامريكي للمطالب الصهيونية في فلسطين .

Hamm, W. A., From Colony to World Power, a history of the United States, Boston, 1953, p. 645. (١)

Macrides, R. C. (ed.), Foreign Policy in World Politics, New Jersey, 1976, p. 344. (٢)

Ibid, p. 345. (٣)

(٤) رايت ، كوينسي ، السياسة الدولية في الشرق الاوسط ، محاضرة القيت في مؤتمر الشرق الاوسط في جامعة شيكاغو ١٩٤٢

(٥) بونداريفسكي ، سياستان ازاء العالم العربي ، ترجمة دار التقدم ، موسكو ١٩٧٥ ، ص ٢١٢ — ٢٢٥

Macrdis, Op. cit, p. 345. (٦)

(٧) من تقرير بعث به السفير البريطاني في الاستانة ١٩١١/٢/١٤ F.O. 424/250.
عن مشروع تشستر Cheter احد اصحاب النفوذ من اليهود الامريكيين لبناء الخطوط الحديدية عبر آسيا الصغرى .

Manuel, F., Te Realities of American - Palestine relation, Washington 1949, p. 267. (٨)

ibid, pp. 6 - 13. (٩)

Hayamson, A., The British Consulate in Jerusalem in the Jews in Palestine, Vol. II, London, 1939 - 1941, pp. 546 - 562. (١٠)

(١١) أوراق المكتب العربي فى القاهرة (عام ١٩١٧)
Arab Bureau Papers F.O. 882 /14/ Pa/17/6.

(١٢) تفاصيل الحادث في :
خيرية قاسمية ، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ — ١٩١٨ ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧١ ص ٢١٥ — ٢١٨

Baker, R. S., Woodrow Wilson and World Settlement New York, 1922, Vol. I, p. 12. (١٣)

Lansing, R., The big four and others of the Peace Conference, London, 1922, pp. 40 - 42. (١٤)
والمؤلف كان وزير خارجية الولايات المتحدة .

(١٥) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، لندن ١٩٣٩ (مترجم) ملحق آ ، ملحق ب .

Lansing, Op. cit, pp. 45 - 49. (١٦)

(١٧) بونداريفسكي ، مصدر سابق ، ص ٢٣٣

(١٨) محمود حسن صالح منسي ، تصريح بلفور ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢٠٥ — ٢٠٧

Aaronson, A., With the Turks in Palestine, Lindon, 1917, pp. 14 ff. (١٩)

Manuel, Op. cit., pp. 149 - 152. (٢٠)

(٢١) برقية من السفير البريطاني في واشنطن لوزارة الخارجية ١١/٦/١٩١٧
F.O. 371/3057/114918/104218

(٢٢) **Yale, W.,** Ambassador Morgenthan's Special Mission of 1917, World Politics, Vol. I, No. 3, 1949, p. 311.

(٢٣) **Yale, W.,** The Near East, a modern history, University of Michegan, 2nd. edition,, 1968, pp. 268 - 269.

(٢٤) **بوندار يفسكي** ، مصدر سابق ، ص ٢٢٦ نقلا عن لويد جورج « حقيقة معاهدات الصلح » مجلد ٢ ، ص ٣٠٢

(٢٥) **Yale,** The Near East, Op. cit, p. 269.

(٢٦) **Weizmann, Ch.,** Trial and Error, London 1950, p. 265

(٢٧) **بوندار يفسكي** ، مصدر سابق ، ص ٢٢٨ نقلا عن داغدال Dugdale كاتبة سيرة بلفور وابنة اخته في كتابها :
The Balfour Declaration, London 1940, p. 27.

(٢٨) **Weizmann,** Op. cit, p. 262.

(٢٩) **Yale,** The Near East, Op. cit, p. 399.

(٣٠) محمود صالح منسي ، مصدر سابق ، ص ٢١٤

(٣١) **Yale,** The Near East, Op. cit, p. 486.
وقد اصبح (ييل) بعد الحرب احد خبراء شؤون الشرق الاوسط في وزارة الخارجية الامريكية .

(٣٢) **محمود صالح منسي** ، مصدر سابق ، ص ٢١٤ ــ ٢٢١ ، وقد حصل المؤلف على نسخة مكرو فيلم كاملة لتقارير (ييل) من مكتبة جامعة ييل ، وقام بترجمة التقارير المتعلقة بفلسطين في الكتاب المشار له سابقاً « تصريح بلفور » .

(٣٣) **جورج انطونيوس** ، مصدر سابق ، ملحق (د) التصريح الى السبعة ، ملحق (هـ) التصريح المشترك .

(٣٤) **Lansing,** Op. cit., pp. 40 - 42.

(٣٥) **Ibid.,** pp. 4 - 5.

(٣٦) عباس محمود العقاد ، سعد زغلول ، سيرة وتحية ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٢٠٤

(٣٧) **Cumming, H.,** Franco-British rivalry in the Post-War Near East, 1914 - 1923, London, 1931, p. 67.

(٣٨) **Woodward and Butler** (eds) Documents on British Foreign Policy 1919 - 1939, 1st. Series, Vol. IV, London, 1952, p. 251.

(٣٩) خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٨٥ ــ ٨٦

(٤٠) عباس محمود العقاد ، مصدر سابق ، ص ٢٠٦

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩

(٤٣) عبد الرحمن الرافعي ، ثورة ١٩١٩ ، مجلدان طبعة ثانية القاهرة ١٩٥٥

(٤٤) خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ ، مصدر سابق ص ٩٥-٩٧

(٤٥) **Howard, H.,** The King Crane Commission, Beirut, 1963, p. 22.

(٤٦) **Hurewitz, J.,** Diplomacy in the Near East and Middle East, New York, 1956, Vol. II, pp. 61 - 62.

(٤٧) خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ، مصدر سابق ، ص ٩٧

(٤٨) **Lansing,** Op. cit., p. 72.

(٤٩) **Zeine, N. Z.,** The Struggle for Arab Independence, Beirut, 1960, pp. 70 -7 .1

(٥٠) **Ibid,** Appendix ((F).

(٥١) **Howard,** Op. cit, p. 12.

(٥٢) **Jeffries, J.,** Palestine : The reality, London, 1939, p. 243.

(٥٣) خيرية قاسمية ، النشاط الصهيوني فى الشرق العربي ١٩٠٨ ـ ١٩١٨ ، مصدر سابق، ص ٣٩

(٥٤) **Manuel,** Op. cit, pp. 232 - 236.

(٥٥) **Jeffries,** Op. cit, pp. 242 - 257.

(٥٦) **Zeine,** Op. cit, p. 79.

(٥٧) **Howard, H.,** An American Experiment in Peace making, Moslem Wolrd, Vol. 32 April, 1942, p. 126.

(٥٨) Loc., cit.

(٥٩) جريدة العاصمة (دمشق) عدد ٢٠ ، ١٩١٩/٤/٢٤

(٦٠) **المنار** ، جزء ٤ ، مجلد ٢١ ، ١٩١٨/٦/٢٨ ، ص ٢٠٤

كانت نواة الحزب قد ظهرت في حزيران ١٩١٨ حين وجهت الحكومة التصريح الى السبعة بعد كشف اتفاقية سايس بيكو ، وأعلن رسمياً في ١٩١٨/١٢/١٩ برئاسة ميشيل لطف الله .

(٦١) **احمد قدري** ، مذكراتي عن الثورة العربية ، دمشق ١٩٥٦ ، ص ١٠٥

(٦٢) **امين الريحاني** ، ملوك العرب ، جزء ١ ، بيروت ١٩٢٤ ، ص ٣٠٦

(٦٣) محمد فريد ، مذكراتي بعد الهجرة ، ١٩٠٤ ـ ١٩١٩ ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٤٣٢

(٦٤) عباس محمود العقاد ، مصدر سابق ، ص ٢٧٠

(٦٥) **Zayid, M.,** Egypt Struggle for independence, Beirut, 1965, p. 88.

(٦٦) العقاد ، مصدر سابق ، ص ٢٧٥ ـ ٢٨١ حول نشاط الوفد الدعائي في الولايات المتحدة.

(٦٧) **Tibawi, A.,** Syria from Peace Conference to the Fall of Damascus, Islamic Quarterly, December 1967, p.87.

(٦٨) **Howard,** An American Experiment, Op. cit, p. 129.

(٦٩) Ibid p. 143.

(٧٠) Baker, Op. cit, Vol. II, p. 207.

(٧١) Howard, An American Experiment, Op. cit, p. 131.

(٧٢) Nashabi, H., The Political Parties in Syria, 1918 - 1939, (Unpublished thesis) Beirut, A.U.B. 1952, p. 69.

(٧٣) المنار ، جزء ٥ ، مجلد ٢٣ ، ١٩٢٢/٥/٢٧ ، ص ٣٩

(٧٤) جورج انطونيوس ، مصدر سابق ، ملحق ٨ ، (مقررات المؤتمر السوري) .

(٧٥) حول تحقيقات اللجنة :

Howard, H., The King-Crane Cmomission, Op. cit,

(٧٦) Yale, The Near East, Op. cit., p. 336.

ويذكر المؤلف ان اللجنة لم تزر العراق لانها افترضت ان أهل العراق يريدون انتدابا بريطانيا .

(٧٧) Howard, The King-Crane Commission, Op. cit,p.. 134.

(٧٨) Ibid, pp. 122 - 140.

وأيضا انطونيوس ، مصدر سابق ، ملحق ٩

(٧٩) Esco Foundation for Palestine — A study of Jewish-Arab and British Policies, Vol. I, Yale University Press, 1947 - 1949, pp. 212 - 213.

(٨٠) Howard, King-Crane Commission, Op. cit, pp. 259 - 260.

(٨١) حين كان (بيكر) Baker يعد مجلداته عن « ويلسون والتسويات العالمية » ـ المصدر المذكور سابقا ـ لم يجد بين أوراق ويلسون الشخصية نسخة عن تقرير اللجنة أو دليلا على انه قد اطلع عليه في حينه ، وربما انتقلت نسخة الرئيس الى وزارة الخارجية خلال مرضه ، وفي أيار ١٩٢٢ وبموافقة ويلسون ، سمح كنغ وكرين بنشر مقتطفات من التقرير في كتاب بيكر (الجزء الثاني ، الفصل ٢٥) ونشر التقرير كاملا في ٢ كانون اول ١٩٢٢ في مجلة The Editor and Publisher

وقام كرين ومساعدوه بتوزيع ٢٠٫٠٠٠ نسخة من التقرير على الجامعات والمكتبات والمهتمين بمشاكل الشرق الاوسط .

(٨٢) Jeffries, Op. cit., p. 302.

(٨٣) امين الريحاني ، مصدر سابق ، ص ٣١٦

(٨٤) Kedouri, E., England and the Middle East, 1914 - 1921, London, 1956, p. 147.

(٨٥) Yale, The Near East, Op. cit, p. 337.

(٨٦) Baker, Op. cit, p. 205.

(٨٧) رايت ، كوينسي ، السياسة الدولية فى الشرق الاوسط ، مصدر سابق ، ص ١٣٠

(٨٨) Zeine, Op. cit., p. 152.

(٨٩) Ibid, p. 154.

(٩٠) Howard, King-Crane Commission, Op. cit., p. 276.

(٩١) Garnett, D., (ed.) The letters of T.E. Lawrence, New York, 1939, pp. 284 - 285.

(٩٢) **عوني عبد الهادي** ، اوراق خاصة ، اعداد خيرية قاسمية ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٣٢ . ويضيف عوني في أوراقه ان بولك قام من مقعده بعد ان اصغى لهما واتجه الى خريطة معلقة على الحائط ووضع اصبعه على خريطة فلسطين وقال اذا كانت انجلترا ستأتي الى هنا ، وهي مصممة أن تأتي ، ففرنسا لابد وأن تأتي الى هنا ، ووضع اصبعه على سورية ، والا فليس هناك ما يمنع من ان ينشب بينهما نزاع ينقلب الى حرب .

(٩٣) **محمد أنيس** ، مقالات في جريدة الاهرام (شباط ١٩٦٣) عن مراسلات سعد زغلول مع اللجنة المركزية للوفد في القاهرة .

(٩٤) Zayid, Op. cit, pp. 290 - 293.

(٩٥) جريدة العاصمة ، عدد ١٠٩ ، ١٥/٣/١٩٢٠

(٩٦) المصدر نفسه ، عدد ١١٤ ، ١٥/٤/١٩٢٠

(٩٧) لم تقدم المعاهدة الى الوفد التركي الا في ١١/٥/١٩٢٠ واضطرت الحكومة التركية الى توقيع معاهدة سيفر Sévres ، وما لبثت ان نقضتها فيما بعد حتى تم تصديق معاهدة لوزان في ٢٤/١/١٩٢٣

(٩٨) Cumming, Op. cit, p. 99.

(٩٩) خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ، مصدر سابق ، ص ١٩٦ – ١٩٧

(١٠٠) Yale, The Near East, Op. cit, p. 261.



مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام

في العهد العثماني

د. عبد الكريم رافق

كلية الآداب ـ جامعة دمشق

لعبت الطوائف الحرفية دوراً هاماً ، في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والادارية ، في بلاد الشام ، في العهد العثماني . وقد انتظم قسم كبير من السكان ، وبخاصة في المدن ، في الطوائف الحرفية ، سواء في مجالات الانتاج ، أم الخدمات ، أم التسويق . وظهر حديثاً كثير من الجدل حول نشاة الطوائف الحرفية وبنيتها ودورها في التاريخ العربي والاسلامي (١) . وقد لاحظ الرحالة العربي ابن بطوطة حين زار امارات الغزاة التركمان في الاناضول ، في النصف الاول من القرن الرابع عشر ، انتشار منظمات الأخية ، التي انتظم فيها الصناع والتجار ، وامتزجت معها تقاليد الفتوة (٢) .

وقد بلغت الطوائف الحرفية درجة كبيرة من التنظيم ، في الولايات العربية، إبان الحكم العثماني . ولعبت دوراً رئيساً على أكثر من صعيد . وحين تدفقت البضائع الاوربية ، في أعقاب الثورة الصناعية ، الى الاقطار العربية ، في القرن التاسع عشر ، قاست البضائع المحلية من منافستها . وأثر ذلك في إضعاف الطوائف الحرفية .

انواع الطوائف الحرفية

لم تكن الطوائف الحرفية متساوية في العدد ، او متشابهة في النوعية ، في مختلف مدن بلاد الشام ، في جميع الفترات ، في العهد العثماني ، وذلك بسبب اختلاف كل مدينة عن الأخرى من حيث نشاطها الاقتصادي ، محلياً ودولياً . وتتميز حلب بعدد الطوائف وأنواعها وتفرعاتها ، كما تدلنا الوثائق الشرعية ، نظراً لتنوع نشاطاتها الاقتصادية وغناها .

ولم تكن هناك من استمرارية في أنواع الطوائف في مدينـة ما ، فبعض الطوائف انقرض او تضاءل شأنه بتناقص الحاجة الى منتجاته . كما أن بعض الطوائف ازدهر وكثرت أنواعه نظراً لازدياد الحاجة اليه . وكمثال على الحال الاولى نذكر انـه حين شـاع استخدام القوالب في صنـع الطواقي (وربما كان المقصود الطرابيش) ، ظهرت طائفة الطواقية الذين يشتغلون الطواقي بالقوالب في دمشق ، في الربع الاول من القرن الثامن عشر ، وبطلت ثلاث طوائف مقابل ذلك هي طائفة الطواقي الزربا ، وطائفة الزربابية ، وطائفة طواقي المخمل (٣) . وكمثال على الحال الثانية نذكر ازدياد شأن الطائفة التي عنيت بالتبغ وانواعه ، اثر إباحة التدخين من قبل مفتي دمشق الشيخ عبد الغني النابلسي في الرسالة التي وضعها وعنوانها . الصلح بين الاخوان في حكم إباحة الدخان (٤) .

وتتحكم نوعية المصادر ومدى توافرها ، في مقدار معرفتنا لتطور الطوائف الحرفية في قطر ما او فترة ما . ففي مصر ، مثلاً ، يمكن مقارنة ما كتبه الرحالة العثماني أوليا جلبي ، في رحلته (سياحة نامة) التي قام بها في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، وما قدمه من تفصيلات واحصاءات عن الطوائف الحرفية في مصر ، مع الدراسة المفصلة التي قام بها الفرنسيون لهذه الطوائف ابان حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٨ ، وضمنوها في المؤلف المشهور « وصف مصر » (٥) . اما في بلاد الشام فلا توجد مثل تلك الدراسات التي وضعت عن مصر ، ولهذا وجب الاعتماد على المعلومات المبعثرة في سجلات المحاكم الشرعية . وهناك وصف مفصل ودقيق للصناعات الشامية ، في القرن التاسع عشر ، في « قاموس الصناعات الشامية » (٦) . وبلغ عدد الصناعات التي وردت في هذا القاموس ٤٣٥ صنعة ، بعضها تضاءل شأنه ، وبعضها جديد محدث . وهناك وصف عام وموجز للطوائف وعمليات الشد فيها ، كتب في الربع الاخير من القرن التاسع عشر (٧) .

وقد تميز التنظيم الحرفي ، في بلاد الشام ، بالتخصص وتوزيع العمل . فهناك طوائف عنيت بالانتاج ، واخرى بالخدمات ، أو بالتسويق . ونورد فيما يلي الطوائف التي عثرنا على معلومات عنها في سجلات المحاكم الشرعية ، في بعض الفترات ، من كل من حلب ودمشق . ولا تشمل القائمة كافة الطوائف الموجودة فعلاً ، لان الوثائق الشرعية ذكرت فقط الطوائف التي لجأت الى المحكمة لتنصيب شيخ لها ، او عزله ، او لتسوية منازعات ضمن الطائفة ، او بينها وبين الطوائف الاخرى ، او بينها وبين السلطة والسكان . ولم ندخل في قائمة الطوائف اسماء الصناعات التي أوردها « قاموس الصناعات الشامية » لان هدفنا دراسة

الطائفة كمنظمة حرفية . واتبعنا الترتيب الابجدي للطوائف في القائمة التالية . ويمكن تمييز طوائف الانتاج والخدمات والتسويق من خلاله .

وقد ذكرت سجلات المحاكم الشرعية التي اعتمدناها من حلب ودمشق ، من القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، ما يقارب من مائة وثلاث وستين طائفة هي : الأبارين ، الأدبين ، الأساكفة ، الأشجية ، الاقسماوية (أو البقسماوية) ، الالاجاتية ، الامشاطية ، البارودية ، بائعي البن ، بائعي جلال الخيل (الجليلاتية) ، بائعي السختيان الملون ، بائعي العبي ، بائعي لحم الجاموس ، بائعي النعال ، البزورية ، البساتنة ، العكامة ، البفالة ، البقارين ، البقالين ، البكسمادية ، البوابجية ، البوزجيـة ، البياطرة ، التجار جلابي النحاس ، الترابين (الترابة) ، التكجية ، التوتنجية ، الجراكسية ، الجرامين ، الجمالين ، الحبالين ، الحدادين ، الحريريين ، الحصرية ، الحلاقين (أحياناً الحلاقين والجراحين) ، الحلوانيـة ، الجمالين ، الحماميـة ، الحوارين ، الحواصلية ، الحياك ، خبازي الافرنجي ، خبازي الحصا ، خبازي المعروك ، الخبازين ، الخرامين ، الخردجية ، الخشابين ، الخضرية ، الخفافين ، الخفافين الأروام بحلب ، الخفافين من ابناء العرب بحلب ، الدباغين ، دباغي الحور ، الدجاجاتية ، الدخانية (بائعي السمك المدخن) الدقاقين (للحنطة) ، الدقاقين (للقماش) ، الدلالين ، دلالي المفص ، دلالي الخام الكلزي ، الدلالين ، رامي البخـور ، الرواسين ، الزجاجيين ، الزراميزية ، الزربابيـة ، السختيانية ، السراجين (السروجية) ، السرفجية ، السعاة ، السقايين ، السكاكينية ، السماسرة، السمرجية، السنبوسكيين (تذكر احياناً مع الطباخين والشوايين)، السيورية ، السيوفية (احياناً مع السكاكينية ، والقواسين ، والخناجرية ، والتروسية) ، الشدودية ، الشعارين ، الشلاحين ، الشماعين (للشحمة) ، الشوايين ، الصابونية ، الصاغرجية ، الصباغين ، صباغي الازرق ، صباغي الاحمر ، صباغي الالوان غير الازرق ، الصرماياتية ، الصناديقية ، الصياغ ، الطباخين ، الطحانين ، طحاني الجلب ، طحاني الخاص ، الطوافة ، الطواقية ، طواقي المخمل ، العباجية ، العباياتية ، العتالين ، العجانين ، العرقجية (أو العرقيانية) ، العطارين ، العقادين ، العلافين ، العناياتية ، الغرابلية والمناخلية، (صناع الغرابيل والمناخل) ، المغربلين ، فتالي الحريـر ، فتـالة الحريـر العنداري ، الفتالين بالدولاب الكبير ، الفرايين ، الفواخرية ، قازنجيان ، القاوقجية ، القصابين (او اللحامين) ، القصارين ، قطاعي النعل ، القطانين ،

القلاشينية ، القلفات ، القنوية ، القهوية ، القوافين ، الكعيكاتية ، الكلاسين ، الكوايين ، الكونجية ، الكيالين ، اللبابيدية ، اللحفيين ، محمصي البن ، المخملجية ، المخومين للسروج ، مداحي الرسول وحكوية السير النبوية ، المدادين ، المرجلية ، المروبصين ، المزيكين ، المسالخية ، المساميرية ، المسلاتية ، المطافجية ، المعاريكة ، المعاصرية ، (لعلها المعصرانية ، واختصت بعصر السمسم ، وربما اطلقت الكلمة نفسها على من يعصر الزيتون ويعمل الدبس) ، المقومين ، المعمارية ، الملقية ، المنجدين ، النجارين ، النحاتين ، النحاسين ، النشارين ، النشواتية ، النعالين ، نعالي البوابيج ، نقاشي الجيث ، النهودية ، الوتارين .

ويلاحظ في قوائم الطوائف هذه انها تغطي قسماً كبيراً من أنواع الطوائف ولا تشكل بحال مسحاً عددياً لها (٨) . ومع ذلك فاذا ما قارنا هذا العدد التقريبي للطوائف المتواجدة في حلب ودمشق مع عدد الطوائف التي أحصاها أوليا جلبي في القاهرة في زيارته لها حوالي عام ١٦٦٠ والمقدر ب : ٢٦٢ طائفة ، وكذلك مع عدد الطوائف التيأحصاها الفرنسيون في القاهرة في عام ١٨٠١ والمقدر ب : ١٩٣ طائفة (٩) ، لوجدنا أن بلاد الشام قد تمتعت بنسبة لابأس بها من التنظيم الحرفي .

ويلاحظ ايضاً في الطوائف المذكورة أنه يصعب تحديد نسبة الطوائف المعنية بالانتاج الى الطوائف المعنية بالتسويق ، لان بعضها قام بالعملين معاً ، كما في طائفة الحبالين . وادى هذا الازدواج في العمل الى منازعات بين الفريقين (١٠) . اما طوائف الخدمات فبعضها واضح الحدود يسهل فرزه كالدلالين والحمالين والعتالين والقنوية والكوايين ، وبعضها ما يجمع بين اعمال الخدمات والتسويق أو الانتاج ، مثل الخاناتية ، والمنجدين ، واللحفيين .

ويصعب ، بالاستناد الى المصادر المتوافرة ، معرفة عدد الافراد الذين شكلوا الطائفة الحرفية ، الا في بعض الحالات النادرة ، مثلاً ، بلغ عدد طائفة النحاتين في دمشق في أواخر عام ١٦٨٩ سبعاً وعشرين نحاتاً (١١) . وطبيعي ان هذه الطائفة لا تمثل الا نسبة ضئيلة من الطوائف . ولو اتيح لنا معرفة عدد افراد الطوائف الحرفية لامكننا معرفة نسبة الذين يعملون في الانتاج الى الذين يعملون في الخدمات او التسويق ، والطوائف الحرفية التي كانت في طريق الازدهار أو الانقراض ، والطبقات الاجتماعية المرتبطة بها ، وبالتالي السمات الاساسية لحياة البلد الاقتصادية . ومع ذلك ، يمكننا ، بالاعتماد على تركات

المتوفين من الحرفيين ، معرفة مدى ازدهار حرفهم ، واوضاعهم العائلية ، وحجم اسرهم (١٢) .

ومما يلاحظ على الطوائف الحرفية التي درسناها غياب اسماء النساء بين أعضائها ، وكذلك غياب طوائف خاصة بالنساء . ومن الطبيعي ان النساء ، سواء في المدن أم في الارياف ، قمن بأعمال حرفية هامة ، مثل قشر القطن ، وغزله ، او حبك حبال القش لصنع الحصر . ولا نعلم فيما اذا انتظمت النساء ضمن طوائف خاصة بهن ولم يتيسر الاعلان عنها نظراً للحياة المغلقة التي كن يعشنها . وفي مثال من حلب بتاريخ ٥ صفر ١٦/١٠٣٧ تشرين الاول ١٦٢٧ عين القاضي للمدعوة فطمة بنت الشيخ محمد نصف حصة من قسم الشحم المعد لعمل الشمع الشحمي تأخذه من المسلخ ، اسوة بافراد طائفة الشماعين الذين يشتغلون الشمع الشحمي . وتم ذلك بحضور شيخ طائفة الشماعين ، الذي أمره القاضي بان يعطي المرأة حصتها يوماً بيوم ، كما هي عادة الشماعين بحلب (١٣) . وليس في النص ما يوحي بان فطمة كانت عضواً في طائفة الشماعين. كما ان ما اعطي لها كان نصف حصة ، في حين ان الشماع كان يأخذ حصة كاملة.

ولم يقتصر استعمال كلمة « طائفة » على التنظيم الحرفي اذ أطلقت أيضاً على طائفة دينية ، كما في شيخ طائفة اليهود ، او على جماعة من المقيمين الاغراب، كما في شيخ طائفة المغاربة ، أو طائفة عسكرية ، كما في طائفة عسكرية حلب . واستعملت الكلمة ، في مجالات اخرى ، لتدل على فئة اجتماعية تحترف الاخلال بالأمن ، كما في طائفة اشقياء العرب (أي البدو) وقطاع الطرق ، وطائفة الحرامية والسراق ، او طائفة السراقين . وفي مثال عن الطائفة الاخيرة أن امرأة اتهمت اخرى بسرقة اثني عشر قرشاً من جيبها في سوق الاروام بدمشق وانها التصقت بها وشقت الجيب . واعترفت المتهمة ، أمام القاضي ، أنها من طائفة السراقين وتتخذ ذلك حرفة ودأباً (١٤) .

التركيب البنيوي للطائفة الحرفية

راس الطائفة الحرفية شخص عرف عادة بالشيخ ، وقد اختاره أعضاء الطائفة ، وأقر اختياره ونصبه القاضي الشرعي الذي اصدر حجة بالواقعة سجلت في سجلات المحكمة . والعبارة التي استخدمت في السجل بهذه المناسبة تذكر ان القاضي نصب (فلانا) شيخاً ومتكلماً على الطائفة (الفلاتية) . وكلمة « متكلم » تعني أن صاحبها يتكلم في مصالح الطائفة (١٥) . وفي بعض الحالات

أطلق على شيخ الطائفة الحرفية لقب باشي ، كما في طائفة القصابين التي عرف رئيسها بالقصاب باشي ، واحياناً بالشيخ ، وفي طائفة المعمارية التي عرف رئيسها بالمعمار باشي . واطلق على رئيس طائفة الدباغين لقب اخي بابا ، واحياناً بابا . وكلمة اخي مشتقة من العربية أخ التي اطلقت في الاناضول ، في مطلع التاريخ العثماني ، كما ذكر ابن بطوطة ، على الحرفي ، وجمعها الاخية . أما كلمة بابا فقد استخدمت في الاناضول ، في النصف الاول من القرن الثالث عشر ، للدلالة على الواعظ التركماني الشعبي .

والذين رافقوا الشيخ الى المحكمة ، حيث نصبه القاضي رسمياً ، كانوا في الغالب من المعلمين أو الاساتذة أو الاسطاوات في الطائفة ، وهم الذين أشير اليهم احياناً باختيارية الطائفة . ويلاحظ ان بعض مشايخ الحرف ورثوا المشيخة عن أبائهم او اخوتهم ، ومع ذلك وجب عليهم الحصول على موافقة اختيارية الطائفة باختيارهم للمشيخة ، وقام القاضي بتنصيبهم رسمياً . ووجب على الشيخ أن يكون ملماً باصول الحرفة ، واذا تبين انه غير ملم بذلك أمكن لاعضاء الطائفة عزله رغم حسن اخلاقه . وقد طلب جماعة من طائفة الدباغين بدمشق من القاضي الموافقة على عزل شيخ طائفتهم السيد محمد بن السيد أحمد البابا « لأنه ليس له خبرة في أحوال الدباغة وليس له وقوف على معرفة الكار وليس له قدرة على تعاطي أمور البابوية » وان ذلك سبب خللاً في مهنتهم . وقد تنازل السيد محمد عن البابوية ، اثر ذلك ، واختار افراد الطائفة بابا غيره نصبه القاضي (١٦) .

واشترط كذلك في شيخ الطائفة ان يكون رجل دين ، مستقيماً ، قادراً على أداء المشيخة ، صالحاً لها ، وان يكون الاعضاء راضين به . وأشير ، حين شغر منصب الشيخ ، الى ان المشيخة كانت محلولة بسبب وفاة الشيخ السابق ، او عزله ، أو عجزه عن القيام بأمور المشيخة ، أو فراغه عنها برضاه . ويتم الفراغ في المحكمة . وفي بعض الحالات عين شيخ الطائفة ، التي شغرت مشيختها ، بموجب براءة سلطانية . واذا ما ثبت للقاضي صحة البراءة نصب صاحبها في المشيخة (١٧) .

واذا ما عارضت فئة من الحرفيين راي الاكثرية في اختيار الشيخ ، او خشي من قيام مثل هذه المعارضة ، اتفق الحرفيون المجتمعون في المحكمة على « أن من خالف منهم يفعل معه الحقارة بما يستحق ، اتفاقاً مقبولاً » (١٨) . وأمكن للطائفة الحرفية أن ترفض تعيين شيخ لها ، كما حدث بالنسبة لطائفة المسالخية في حلب عام ١٦٠٨/١٠١٧ ، حين ادعت ان العادة القديمة الا يكون

عليهم شيخ لان في تعيين الشيخ عليهم ظلماً لهم ومخالفة للعادة القديمة . ولما تأكد القاضي من صحة ذلك منع ان يكون شيخ لهم بدون رضاهم (١٩) .

وفي الحالات التي وجد فيها شيوخ فرعيون لتجمعات حرفية في صوايح (احياء) حلب ، مثلاً ، مثل السقطية ، والمدينة ، وتحت القلعة ، والبياضة ، وبانقوسا ، وباب النيرب ، وباب النصر ، او في سوق فرعي ، كما في سوق العطارين ، او سوق الصابون ، فان اختيار شيخ الطائفة الفرعي كان يتم من قبل حرفيي طائفته المحليين ، ولكن تنصيبه في المحكمة يتم بحضور شيخ الطائفة الرئيسية أو قائم مقامه (٢٠) .

وليس من دليل على ان الشيخ تقاضى مرتباً من الطائفة . وكان يعيش في الغالب ، من عمله . ولكن هناك بعض الامتيازات المادية التي تمتع بها ، فقد ذكر ان طائفة المسالخية بدمشق التي كانت تابعة (يمقا) لطائفة القصابين دفعت لشيخ طائفة القصابين كل سنة عشرين قرشاً لقاء مال المشيخة (٢١) .

واختير شيخ الطائفة عادة من بين كبار الحرفيين في الطائفة الذين أطلق على واحدهم لقب أستاذ (أو استاد) ، وهي كلمة فارسية الاصل ، حورت احياناً الى كلمة اسطه . وأشير اليه ايضا بكلمة معلم العربية . ونظراً لاهمية هذا اللقب في المراتب المهنية ، ضمن الطائفة الواحدة ، فقد عرف اصحابه به . ومعلم الحرفة هو الذي يحق له اقامة مشغل خاص به يعمل فيه الصناع والاجراء .

ويأتي بعد الاستاذ ، أو المعلم ، في المرتبة المهنية ، الصانع . ولا نعلم فيما اذا كانت هناك مدد زمنية لابد للصانع من أن يلتزم بها قبل أن يرتقي الى مرتبة الاستاذ ، أو المعلم ، أم أن اجادته المهنة ، بقطع النظر عن المدة ، هي وحدها الكفيلة بالانتقال به الى الرتبة العليا . ويبدو أن هناك استثناءات قد تدل على الالتزام بالتدرج المهني واجادة المهنة ، أو على انهيار القواعد المهنية ، اذ ذكر القدسي أن « من الصناع من يشد في النهار ذاته صانعاً ومعلماً » (٢٢) .

وشكل الصناع العدد الاكبر في الحرفة بالمقارنة مع عدد المعلمين والاجراء. وكانوا عماد العمل في الحرفة ، وتقاضوا أجراً عليه . وحاول المعلمون تأخير ترقيتهم الى رتبة معلم لتحاشي منافستهم لهم ، لانه يحق عندئذ للصانع الذي أصبح معلماً أن يكون له مشغله الخاص به . وكان على المعلم أن يدفع اجرة دكانه ومصروفها ، بما في ذلك تصليح عدة الشغل، ولا يخص الصانعمن ذلك شيء(٢٣) .

وفي أسفل السلم المهني يأتي المبتدىء أو الاجير ، وهو عادة بالغ . وكان استخدامه يتم من قبل المعلم ، بموجب عقد رسمي ، والمثال التالي يوضح ذلك: استأجر السيد محمد الحلبي الطباع ، لدى القاضي الشافعي بدمشق ، ابن أخيه البالغ ، عبد الرحمن ، فأجره نفسه باذن الحاكم ليشتغل عنده في صناعة الطباعة ، لعقدين كاملين ، مدة كل منهما ثلاث سنوات ، تبدأ في يوم العقد . وكان اجر عبد الرحمن اليومي ست قطع فضة مصرية ، اربعة منها يحتفظ بها المستأجر السيد محمد الحلبي لتغطية نفقات عبد الرحمن من مأكوله ومشروبه وزينته وسائرلوازمه التيلابد منها ، والمصريتانالباقيتانتدفعانالىعبد الرحمن. وتم العقد بحضور والد عبد الرحمن (٢٤) . وفي مثل آخر بقي الاجير في عمله مدة خمس سنوات ، ودفع له ، بالاضافة الى نفقاته اليومية ، مصريتان يومياً (٢٥) .

وهناك اشارات الى وجود رئيس أعلى للطوائف هو شيخ المشايخ ولكن وثائق المحاكم الشرعية قلما اشارت الى وجوده الفعلي وممارسة صلاحياته . وقد ذكر المحبّي (٢٦) ان السيد محمد بن السيد محمد كمال الدين بن عجلان الدمشقي الميداني الشافعي ، المتوفى عام ١٠٠٤/١٥٩٦ ، كان شيخ مشايخ الحرف . ولكنه اهتم ، كما يبدو ، باقامة الذكر بانتظام أكثر من عمله الحرفي . ويقول المحبّي : « وربما كان يأكل من كسب يمينه ونسج الحرير » . ومما يرجح ان عمل شيخ المشايخ لم يكن مهنياً بقدر ما كان شعائرياً يتعلق بالاشراف على اقامة الاحتفالات والطقوس الرمزية بين اعضاء الحرف قول المحبّي : « وشيخ المشايخ هو الذي يعقد الشد والعهد لاهل الصنائع » . وبهذا المعنى أشار اليه القدسي في « نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية » ، في الربع الاخير من القرن التاسع عشر . وذكر القدسي (٢٧) ان شيخ المشايخ ، السيد احمد افندي منجك العجلاني ، لم يكن على شيء من صنعة أو حرفة ، وان هذه الرتبة موروثة في آل عجلان الذين اختصوا أيضاً بنقابة الاشراف ومشيخة الطرق الصوفية ، وان شيخ المشايخ يرأس ، عملياً أو نظرياً (وفي هذه الحال ينيب عنه النقيب) حفلة الشد التي يجرونها للمبتدىء أو الاجير عند انتقاله من درجته الى درجة صانع ، أو للصانع عند ارتقائه الى درجة معلم . كما أنه يبارك شيخالحرفة عند انتخابه. ويكون الشد بربط المرشح « بالمحزم » ، وتتلى الفاتحة عدة مرات . أما بالنسبة للمسيحي فتتلى الصلاة الربانية ، وبالنسبة لليهودي فالوصايا العشر . ويزود المشدود بالنصائح الاخلاقية والمهنية . ويعين له أب بالكار يكفله من الخلل ، ثم يولم للحاضرين (٢٨) . اما قول القدسي (٢٩) ان شيخالمشايخ ، قبل عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ — ١٨٦١) ، كان يتمتع بسلطة كبيرة على مشايخ الحرف

وافرادها فيلقي من يسيء منهم في السجن ويضربه فليس هناك ما يؤيده في وثائق المحاكم الشرعية التي هي المصدر الرئيس لمثل هذه الاعمال .

والى جانب هذه المراتب المهنية في الطائفة الحرفية وجدت وظائف عدة ، بعضها استمر طوال العهد العثماني تقريباً ، مثل وظيفة النقيب ، وبعضها اندثر او استحدث على فترات . وقد تمتع النقيب بسلطة كبرى في الطائفة الحرفية ، وناب أحيانا عن شيخ الطائفة . كما أنه حضر تنصيب شيخ الطائفة في المحكمة . ومما يدل على أنه كان حرفياً في الاصل اشتراكه مع أعضاء الطائفة في اختيار شيخ لهم . ويعين النقيب في وظيفته من قبل القاضي بناء على اقتراح شيخ الطائفة المعنية (٣٠) . واختير عادة من بين المعلمين في الطائفة . ووجد النقيب على مستوى الطائفة الرئيسة في المدينة ، وعلى مستوى طائفة الحي أو الصايح- التي هي جزء من الطائفة الرئيسة التي تنتظم المدينة ككل(٣١) ، وكان شيخ الطائفة يكلف النقيب بالسهر على حسن انتظام قواعد الطائفة واخلاق أفرادها . ومما يدل على علو شأن النقيب في الطائفة أنه كان يذكر - بين حرفيي الطائفة اذا ما شخصوا الى المحكمة ، بعد الشيخ مباشرة . وعلى غرار شيخ المشايخ ، وجد للنقباء نقيب أعلى ، عرف بنقيب النقباء . وذكر أحمد البديري الحلاق (٣٢) أن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ محمد الحلاق القادري ، صاحب الحلقة في الجامع الاموي ، والمتوفى في ٢٦ ربيع الاول ١١٥٦/ (٢٠ أيار ١٧٤٣) ، كان نقيب النقباء في دمشق على الحرف والصنايع والطرق . ويدل جمع نقيب النقباء بين يديه السلطة على نقباء الحرف والصنايع والطرق على أهميته وعلى ارتباطه بالطرق ، مما يظهر الرابطة التي كانت تجمع بين الطرق الصوفية والحرفيين . وذكر القدسي أن أهمية النقيب قد نقصت كثيراً في عهده (٣٣) .

والى جانب النقيب وجد منصب اليكيت باشي - والكلمة مشتقة من يكيت التركية ، وتعني فتى ، أي الرجل الاخلاقي والكريم ، وباشي تعني الرئيس . وعين اليكيت باشي في الطائفة من قبل الشيخ - الذي اشرك معه أحياناً ، في عملية الانتقاء ، كبار اعضاء الطائفة ، وروعي في اختياره ان يكون أهلا لعمله ، قادراً على القيام به على الوجه المرضي . وذكر ان طائفة العطارين اليهود بحلب ، وهي تابعة لطائفة العطارين في المدينة ، نصب القاضي عليها يكيت باشي يهودياً ، وذلك بطلب من شيخ طائفة العطارين وعدد من اعضائها مسلمين ويهوداً (٣٤) ، وناب اليكيت باشي ، أحيانا ، عن شيخ الطائفة في الامور المتعلقة بالطائفة (٣٥) ، ومع ذلك ، كان النقيب أكثر حضورا وربما استمرارا من اليكيت باشي ، بدليل ان القدسي لم يشر اليه . وربما تغيرت تسميته فيما

بعد . وقد ذكر القدسي « الشاويش أو الجاويش » (٣٦) ، الذي ينتخبه الشيخ واعضاء الطائفة ، ويقوم بابلاغ أوامر الشيخ الى الحرفيين . ولم يرد لهذا الموظف ، بهذا الاسم ، ذكر في الوثائق الشرعية التي اعتمدناها .

وذكرت الوثائق صاحب رتبة آخر هو الاونجي باشي ، بالنسبة لطائفة طحاني الخاص بحلب ، ولعله شيخ هذه الطائفة المتفرعة من طائفة الطحانين (أو الطحانة) . وقد نصب، على غرار النقيب واليكيت باشي، من قبل القاضي، بناء على طلب شيخ طائفة الطحانين وكبار أفرادها، وروعي فيه أن يكون مستقيما دينا ، قادرا على اداء عمله . وعهد اليه دون غيره ، باخراج الكماجة (لفظة فارسية الاصل ، جمعها كماج ، وتعني الخبز المستدير السميك) المعروك ، والسنبوسك ، والخبز الافرنجي ، والحلاوة . واذا اخرج الكماجه شخص آخر، غير الاونجي باشي « تفعل معه الحقارة التامة » ويغرم الف عثماني فضة (وفي مثال آخر خمسة الاف عثماني فضة) ، بطريق النذر للجامع الكبير الاموي بحلب (٣٧) .

وذكرت وظيفة أخرى ، بالنسبة لطائفة الدلالين بحلب ، وهي كتخدا (أو كاخيا) الطايفة ، الذي حضر فراغ شخص عن وظيفة الدلالة لابنه (٣٨) . والكلمة تعني المساعد ، وربما كان أحد مساعدي شيخ الدلالين .

وورد ذكر وظيفة « مقدم » في حلب في عام ١٥٩١/٩٩٩ ، وتعني في هذا المثال ، رئيس سبع طوائف ، لكل منها شيخها ، وتعنى بالخدمات ، مثل العتالين ، والحمالين ، والعكامين ، والسقايين ، والبغالة . وكان أحد الاشخاص المسمى تقي الدين ابن الحاج محمد ، قد حصل على براءة سلطانية للحصول على مقدمية هذه الطوائف من صاحبها الحاج احمد بن محمد . ولكن القاضي ، بناء على طلب عدد من اعضاء هذه الطوائف ، ابقى الحاج احمد بن محمد في مقدمية الطائفة لانه « رجل مستقيم في امور المقدمية المذكورة خبير باحوالها من غيره وهو اولى بها من تقي الدين » (٣٩) . وقد شاعت وظيفة « مقدم » في العصور التي سبقت الفترة العثمانية ، ولكنها لم تستمر ، كما يبدو ، بدليل عدم ورودها في الوثائق ، بعد القرن السادس عشر .

العلاقة بين الطوائف الحرفية

ارتبطت احيانا اثنتان أو أكثر من الطوائف الحرفية ببعضها ، نظراً لتكامل الحرف المعنية ، أو لاعتماد حرفة على اخرى ، أو للمشاركة في تأدية الضرائب

الجماعية . فطائفة الحماميين ، مثلا ، كانت على علاقة وثيقة بطائفة الحلاقين . وقد تم الاتفاق بين الطائفتين في حلب في ٢٨ محرم ١٠٥٥/٢٦ آذار ١٦٤٥ ، على أن من دخل الحمام واعطى اجرة الحمام واجرة الحلاق معاً الى معلم الحمام ينقسم ذلك بين الحمامي والحلاق بالتساوي ، واذا أعطى اجرة الحمام الى الحمامي وحده وأجرة الحلاقة الى الحلاق وحده فلا يعترض احدهما على الاخر ولا يطلب منه شيئاً (٤٠) . وقد اتفقت طائفة الأبارين (صانعي الابر) مع طائفة المداين للشريط على أنه اذا جاء الجلاب بالشريط تأخذ الطائفة الاولى الشريط الرفيع ، والثانية الشريط الغليظ (٤١) . وكانت العادة أنه اذا جاء اليقطين الجلب الى حلب للبيع قسم بالتساوي بين طائفة البقالين وطائفة الخضرية . وفي احدى المرات تخلت الطائفة الاولى للثانية عن حصتها (٤٢) .

وفي عدد من الحالات عين شيخ واحد لمجموعة من الطوائف المتقاربة في الاختصاص ، مثل طائفة الطباخين وطائفة الشوايين وطائفة السنبوسكيين التي عين لها في حلب في ٨ محرم ١٠٣٩/٢٨ آب ١٦٢٩ شيخ واحد . ويبدو أن هذا الشيخ المشترك بين الطوائف الثلاث لم يلغ شيخ كل طائفة منها ، كما تدل وثائق تلك الفترة . وفي حالة اخرى عين شيخ على طائفة السيوفية والسكاكينية والقواسين والخناجرية والتروسية (٤٣) . ومع ذلك وجد شيخ لطائفة السيوفية فقط (٤٤) . ولا ندري فيما اذا كان الاختصار هو سبب عدم ذكر الحرفيين الاخرين الى جانب طائفة السيوفية ، التي كانت الاشهر ، أم أن الحرف الاخرى قد وسعت أعمالها وحق لها تعيين شيخ لكل منها ، كما حدث في الواقع ، اذ ذكرت طائفة السكاكينية على حدة .

وضمت بعض الطوائف الحرفية اكثر من مهنة مثل طائفة الحلاقين والجراحين التي كان لها شيخ واحد . ومن المعروف ان الحلاق كان يقوم ببعض الاعمال الطبية ، ولكن ليس من الضروري أن يقوم الجراح بالحلاقة ، وما يؤيد هذا ان عددا من أفراد هذه الطائفة حملوا لقب جراح فقط (٤٥) . والشائع أن تذكر طائفة الحلاقين على انفراد . ويبدو أن اضافة الجراحين اليها هو اما استطراد بحكم عمل الحلاق في الطب — والحلاقون هم الكثرة — أو ان الجراحين لم يتمكنوا من ايجاد طائفة خاصة بهم فاندمجوا مع الحلاقين . وذكر فما بعد ، وجود دكان لصنعة الطب قائمة بذاتها (٤٦) . واستمر الحلاقون مع ذلك في تعاطي التطبيب وسمحت لهم السلطة في دمشق في ٦ شعبان ١٢٦١ / ١٠ آب ١٨٤٥ بالاستمرار في بيع العلق ، على أن يحدد سعر العلقة الواحدة في الصيف باربع بارات وفي الشتاء بخمس بارات .

وهنـــاك طوائف حرفية تبعت الواحدة منها الاخرى ، وكان للطائفتين شيخ واحد أو احتفظت كل طائفة بشيخها . فقدكانت طائفة الصاغرجية (تصنع جلود الادوات الموسيقية) تابعة لطائفة الدبـاغين (٤٧) . وكان لشيخ طائفـة الدباغين ، المعروف بأخي بابا ، في فترة من الفترات ، سلطة على عدد مـن الطوائف ، مثل الخفافين ، وبائعي النعال ، والسيوفية ، والحياك ، والنهودية، واللبادية ، والخياطين ، ربما لان هذه الطوائف استخدمت الجلد بكميات متفاوتة ولاستعمالات متباننة . وفي مثال آخر قرر القاضي شيخ طائفة الخياطين بحلب شيخا على طائفة العرقيانية (صانعي القبعات) فيها ، وذلك بطلب عدد مـن اعضاء الطائفتين (٤٨) .

وعرفت الطائفة التي تبعت طائفة اخرى ، رغم ان لكل منهما شيخـاً مستقلا ، بانها يمق لها ، وهذه كلمة تركية ، تعني المساعدة . وكانت الطوائف التابعة لبعضها ذات علاقة في الانتاج . والهدف الرئيسي من التبعية هو المساهمة في الضرائب . مثال ذلك ان طائفة المسالخية في دمشق كانت يمقاً لطائفة القصابين واقتضى ذلك ان تدفع الطائفة الاولى عشرين قرشا في السنة ، عرفت بمـال المشيخة ، الى القصاب باشي ، وذلك بالاضافة الى ثلاثين قرشا مساهمة في ضريبة الجيش (مال العرضي ، أو الاوردي ، مـن اوردو التركية ، وتعني الجيش) (٤٩) . وفي مثال آخر حاولت طائفة القاوقجية (التي تصنع القبعات) ان تلحق بها طائفة العرقجية (التي تصنع الطواقي) والتي كانت ملحقة منذ القديم بطائفة الخياطين ، واسهمت معها بدفع الضرائب . وكان هدف طائفة القاوقجية ان تجعل طائفة العرقجية تسهم معهـا بدفع الضرائب ، نظرا لان طائفة الطواقي الزربا ، وطائفة الزربابية ، وطائفة الطواقي المخمل ، التي كانت في السابق ، تسهم مع القاوقجية في دفع الضرائب ، قد بطلت وأن لاقدرة لطائفة القاوقجية على دفع الضريبة بمفردها ، ولهذا طالبت بضم طائفة العرقجية اليها، ولكن القاضي رفض ذلك لانه يخالف العادة القديمة (٥٠) .

وقد اعتمدت التقاليد ورغبة افراد الطائفة في تقرير ما اذا كان يحق لشيخ احدى الطوائف ان يضم طائفة اخرى الى مشيخته . وقد حدث ان شيخ طائفة رامي البخور قد وجهت اليه مشيخة طائفة مداحي الرسول وحكوية السير النبوية . وحين احتج افراد الطائفة الاخيرة على ذلك وافقهم القاضي ، وقرر لهم شيخاً خاصاً بهم (٥١) .

وبالاضافة الى تحمل الطائفة التابعة (اليمق) مسؤولية المساهمة في الضرائب مع الطائفة المتبوعة ، فقد اقتضت التبعية ايضا ان ترعى الطائفة المتبوعة امور

ومصالح الطائفة التابعة لها لما فيه نفع الطائفتين . وقد أكد على ذلك القاضي حين اعترف افراد طائفة البوزجية انهم تابعون (يمق) لطائفة الاقسمارية منذ القديم (٥٢) . ونستدل من ذلك على ان الطائفة الكبيرة كانت تسيطر على الطائفة الصغيرة ، ضمن فصيل واحد ، مع ما يترتب على ذلك من تبعية اقتصادية .

أهمية الطوائف الحرفية اقتصادياً واجتماعياً وادارياً

طبقت الطوائف الحرفية مبدأ توزيع العمل والتخصص الدقيق ، وهي من صفات الاقتصاد المنظم. ففي مجال الصباغة، مثلاً ، وجد صباغون متخصصون بالصباغ الاحمر ، وأخرون بالازرق الفامق (الكحلي أو النيلي) ، وأخرون ببقية الالوان . وفي حين اقتصر عمل هؤلاء ، في الغالب ، على صباغة الخام ، وجد صباغون آخرون يصبغون الحرير الملون . ولكل تخصص طائفته وشيخه . ويدل ذلك على رواج عمل الصباغين ، وبالتالي تصنيع الخام والحرير محلياً ، للاستهلاك الداخلي وللتصدير . ووجد بين فتالة الحرير طائفة متخصصة بفتل الحرير الشطي والابلق والبلدي ، وأخرى متخصصة بفتل الحرير العنداري ، وثالثة بالفتل على الدولاب الكبير ، الى جانب طائفة فتالي الحرير ذات الصفة العامة .

ووجد تخصص في العمل على اساس جغرافي ، فهناك مثلاً شيخ القصابين بصايح السقطية بحلب ، وأخر بصايح باب النصر ، وثالث بصايح باب النيرب ، ورابع بصايح بانقوسا في الوقت نفسه . وعين القاضي في ١٥٨٨/٩٩٦ شيخ القصابين بصايح السقطية شيخا اعلى على القصابين بالصوايح الثلاثة الاخرى، بحضور مشايخ هذه الصوايح ورضاهم به (٥٢) . ويتبع هؤلاء المشايخ القصاب باشي ، اي شيخ القصابين ، المسؤول عن طائفة القصابين بعامة في حلب .

ووجدت طوائف جمعت بين التخصص والتوزع الجغرافي ، مثل طائفة دلالي العفص بخان الصابون بحلب . وهناك طائفة دلالي الخام الكلزي بحلب ، وطوائف دلالين في عدد من الاسواق الرئيسية في المدينة ، الى جانب طائفة الدلالين العامة . ولكل طائفة شيخها .

ووجدت طوائف خاصة بالمسلمين ، او بالمسيحيين ، او مشتركة بينهم . وضم اختيارية الطائفة ، التي شخصت الى المحكمة لابلاغ القاضي اختيارها لمن ينصب شيخاً عليها ، ممثلين لاعضاء الطائفة على اختلاف مذاهبهم . وهذا يبين

القاسم الحرفي المشترك الذي جمع بين الحرفيين هؤلاء ، واولوية المقدرة والخبرة الحرفية على اي شيء آخر . وقد اتفق ، مثلاً ، في طائفة القصارين بحلب ، في ٦ ذي القعدة ١٠٣٦/١٩ تموز ١٦٢٧ بمعرفة شيخ الطائفة وافرادها والقاضي ، ان ما يتجمع لديهم من الخام والشاش والمناديل والدعى للقصر يكون بينهم ستة أقسام : اربعة منها للمسلمين واثنان للمسيحيين (٥٤) . ثم تقرر بعد شهرين ، في ٥ صفر ١٠٣٧/ ١٦ تشرين الاول ١٦٢٧ ، ان يكون القصر بينهم بالسوية (٥٥) .

واذا ما وجدت طائفة على اساس مذهبي ، مثل طائفة اليهود العطارين بمدينة حلب ، اشترك شيخ طائفة العطارين وممثلون عن اعضائها ، على اختلاف مذاهبهم ، في اقتراح تعيين يكيت باشي على طائفة اليهود العطارين هذه (٥٦) . ولا نعلم فيما اذا كان لهذه الطائفة شيخ خاص بها . وفي مثال آخر سمح للقصابين من طائفة اليهود بزيادة درهم على السعر الذي يبيع به القصابون المسلمون ليدفعوا هذه الزيادة الى فقراء اليهود وصعاليكهم . ووافقت طائفة القصابين على ذلك ، ولم يعارض المحتسب (٥٧) . ولكن لم يسمح القصاب باشي بحلب والقاضي للقصابين اليهود بذبح الاغنام خارج المسلخ ، خلافا للعادة المتبعة ، حيث تدمغ الاغنام بالدمغة السلطانية ويترتب عليها رسم (٥٨) . وفي مثال آخر نصب القاضي يهودياً شيخاً على طائفة مروبصي الفضة والذهب من اليهود بحلب (٥٩) . ولا نعلم فيما اذا شاعت هذه المهنة بين المذاهب الاخرى .

ووجدت طوائف خاصة بالنزلاء ،العرب وغيرالعرب،او مشتركة بينهم وبين السكان المحليين . فهناك طائفة خاصة بالمغاربة في حلب،في القرن السابع عشر ، لها شيخها ونقيبها. وعمل افرادها اكثر شيءفي الحراسة وكسعاة (٦٠). ووجدت في دمشق ، في القرن الثامن عشر ، طوائف متعددة للمغاربة ، مبنية على اساس جغرافي ، نظرا لكثرة عدد المغاربة المقيمين في دمشق للمجاورة ، او العلم ، او العمل كمسلحين . ووجد لكل طائفة شيخها ، وترأس جميع الطوائف شيخ المشايخ . وهذه الطوائف هي : الفاسية ، الجزائرية ، السوسية ، التونسية ، الطرابلسية ، الدراوية ، والمراكشية (٦١) .

وقد وجد بين الخفافين في حلب (الذين يبيعون الحذاء الخف) ، طائفتان منقسمتان حسب هوية افرادهما ، فهناك طائفة الخفافين الاروام (أي الاتراك)، بحلب ، وطائفة الخفافين من ابناء العرب بحلب (٦٢) . ومن الطوائف التي اشترك فيها النزلاء العرب مع السكان المحليين طائفة السقايين بحلب ، الذين يأخذون

الماء من قسطل الطواشي داخل باب المقام . وقد ضمت ، حوالي منتصف القرن السابع عشر ، ثمانية افراد ، اربعة منهم مصريون واربعة حلبيون (٦٣) .

وقد تحكمت الطوائف الحرفية في نوعية الانتاج ومواصفاته وجودته واجرته واسعاره . مثال ذلك ان افراد طائفة الحريرية بحلب اتفقوا ، في اوائل القرن السابع عشر ، على ان ينتجوا نوعين من الاثواب المعروفة بالعناياتية : الاول يتكون من عشرة الاف طاق ، وطوله عشرة اذرع ، وعرضه ذراع ، والثاني من ثلاثة عشر الف الى اربعة عشر الف طاق ، ووزن الثوب من هذا النوع مائتا درهم . واذا نقص طول كل ثوب من النوعين تحسب قيمته وتسقط من ثمنه ويعمل مع صاحبه ما يستحقه بحسب الشرع الشريف وبمعرفة الشيخ او من يقوم مقامه ، ولا يكون للمحتسب دخل في ذلك (٦٤) . وفي مثال آخر ، اتفق شيخ طائفة الحريريين وشيخ طائفة العقادين مع شيخ طائفة الفتالين للحرير الشطي والابلق والبلدي على ان الحرير الذي تفتله الطائفة الاخيرة بالاجرة تكون اجرته قرشين لكل الف درهم . واذا صبغ الحرير باللون الازرق ، بعد الفتل ، يصبح وزن المائة درهم ، بعد الصبغ ، ستة وسبعين درهماً . واذا اصبح الوزن اقل من ذلك يكون الحرير مغشوشاً بالزيت ، ويؤخذ النقص من الفتال الذي فتله ، ويعامل بما يستحق من الاهانة والحقارة (٦٥) . وفي مناسبة اخرى ، اتفقت طائفة الحياك بحلب ان يكون طول الفوط الزرقاء التي تشتغلها ثلاثة اذرع الا ربعاً ، بالذراع الحلبي ، وعرضها ذراعان الا ربع ذراع ، وأن يكون أعتبار ذراعها بعد بلها بالماء وجفافها ، وان تكون قيمة الواحدة منها سبعة وأربعين عثمانياً فضياً ما دام القرش يومئذ مائة وخمسون عثمانياً ، ومن خالف يفعل معه أنواع الحقارة (٦٦) .

وقد اتفق افراد طائفة الغرابلية والمناخلية بحلب ، برضاهم وحسن اختيارهم ، من غير اكراه ولا اجبار ، على ان يكون شغل المناخل على خمسة طوق ، على العادة القديمة ، ومن خالف منهم واشتغل غير ذلك تعمل معه الحقارة ويغرم بالف عثماني لجهة وقف الجامع الكبير الاموي بحلب (٦٧) .

وفي مثال آخر ، شكت طائفة القوافين بدمشق ، في مطلع القرن الثامن عشر ، من ان طائفة البقارين (الذين يدبغون جلود البقر) تمتنع عن اعطائهم ما يحتاجون اليه كل يوم من النعل والكسلا ، ولا تأخذ بعين الاعتبار عامل القلة والكثرة . واعترف البقارون بانهم يبيعون للمدعين كل يوم ستة جلود ويبيعون الباقي لغيرهم . وصدرت فتوى آنذاك تمنع القوافين من اجبار البقارين على

رفع مخصصاتهم من الجلود ، والتزم القاضي بذلك (٦٨) . واللجوء الى الفتاوى في حل منازعات الطوائف الحرفية كان أمراً شائعاً ، واذا كان الخلاف عميقاً وشمل عدة طوائف استشير مفتيو جميع المذاهب في الامر (٦٩) .

وكانت المواد الخام المستوردة توزع على العاملين فيها ، من ابناء الطائفة ، من قبل شيخهم . فقد اتفق النجارون بحلب ، في مطلع القرن الثامن عشر ، على انه اذا جاء الجلاب بالخشب والدفوف الى سوق الخشب فيوزعها شيخهم على أهل الحرفة بحسب ما تتحمله حالهم . واذا أخذ الحكام من شيخهم خشباً ودفوفا وما اعطوه ثمنها فيوزع الثمن على أهل الحرفة برضاهم . واذا طلب الجلاب مالا بطريق السلفة فيأخذه الشيخ منهم ، على مقدار تحمل حالهم ، ويدفعه الى الجلاب ، وان لا احد من أهل حرفة النجارين يعين ثمن الخشب والدفوف سوى الشيخ (٧٠) . ومما يؤيد ان لا المحتسب ولا القاضي كان لهما حق تسعير الحاجيات ان طائفة البساتنة بحلب احتجت على المحتسب الذي طالبهم بتسعير القرنبيط والملفوف واجابوا بانه لم تجر العادة بتسعير ذلك في المحكمة . وايدهم القاضي ، ومنع المحتسب من معارضتهم (٧١) .

ونلاحظ في عمل الحرفيين انه كان فردياً في الغالب ، ونادراً ما أجاؤا الى الشركة فيما بينهم . وفي احدى الحالات اتفق افراد طائفة صباغي الحرير الملون بدمشق ان الحرير الذي يأتيهم للصباغة يصبغونه بطريق الشركة ، ثم تقسم الاجرة بينهم . ولكنهم عدلوا عن ذلك ، فيما بعد ، لاسباب لم يبينوها . واتفقوا ان يشتغل كل منهم على حدة ، ومهما حصل له من اجر يتناوله لنفسه (٧٢) .

ويبدو أن الاتجاه نحو فردية العمل قد شجعته الانظمة الحرفية وطبقه القاضي ومثال ذلك ان القاضي طلب من طائفة المخومين للسروج (الذين يعملون السروج من جلد الجمل) « أن يشتغل كل واحد منهم في دكان مستقل ولا يشتركون في العمل لان فيه ضرراً للمسلمين » (٧٣) . وهذا يعني ان تبقى امكانات الحرفي محدودة وعلاقاته مع زملائه متوازنة . وليس من مجال ، والحالة هذه ، لوجود تضخم في الثروات ، وبالتالي لحدوث تفاوت كبير فيها ، ولكن التفاوت يبقى قائماً بين مستوى ثروات المعلمين ومستوى ثروات الصناع ، ضمن الطائفة الواحدة . صحيح ان الصانع يترقى ليصبح معلماً ، في منظور مهني صرف ، ولكن افتتاح حانوت خاص به ، كمعلم حرفة ، يقتضي رأس مال لا يستهان به لشراء خلو الحانوت ، بما في ذلك الادوات اللازمة لعمله ، وهذا ما عرف بالتركية (كدك) .

وقد عرف الكدك في دمشق ، في حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، بأنه « جميع عدة الدكان المعبر عنه بالكدك » (٧٤) وفي بعض الفترات وبعض المدن اقترنت كلمة خلو بكدك ، او استخدمت لوحدها وتضمنت معنى الكدك (٧٥) . ونظراً لهذه الصعوبات والاعباء المادية فقد صعب أحياناً على الحرفيين الفقراء الارتقاء في سلم المهن ، واقامة مشاغل خاصة بهم .

وعارض المعلمون ، في بعض الاحيان ، في زيادة أجور الصناع الذين عملوا لديهم ، مثال ذلك ان الصناع في عمل القطنيات الحلبيات ابتهلوا الى القاضي لينصفهم من معلميهم الذين اعطوهم أجرة الثوب ثلاثين قطعة فضة . وذكر الصناع ان هذه الاجرة « دون اجرة المثل يوميذ واظهروا الحيف وتظلموا بسبب ذلك » ، وحضر الى المحكمة أهل الخبرة وشهدوا ، بمواجهة المعلمين ، ان اجرة الثوب الواحد لصانعه اثنتان وثلاثون قطعة . فأمر القاضي المعلمين بدفع ذلك(٧٦) . ولكن في مثال أخر ، بعد قرنين من الزمن ، رفض بعض المعلمين في صناعة الكريشه طلب الصناع زيادة أجرة السدا عما يأخذوه ، وهو ثمانية قروش ، لانه لا يفي بمعيشتهم ، وحكم القاضي انه ليس للصناع اجبار المعلمين على دفع الزيادة ، وخير الصناع بين العمل عند هؤلاء المعلمين او ترك خدمتهم .

ولما كانت المبادرة الحرفية فردية في الغالب نجد ان المشاغل تقوم في حانوت (دكان) مستقل ، او قائم في خان ، أو في دار . وينطبق ذلك على المصابغ وأماكن النسيج . وبما أن استيعاب الحانوت او الدار كان محدوداً ، فان أنوال النسيج ، مثلاً ، لدى شخص واحد ، لم يتجاوز وسطيها العشرة أنوال . وفي حين نجد اماكن بيع السلع مجمعة في أسواق متخصصة ، يرأس كلا منها شيخ السوق ، نلاحظ ان معظم حوانيت تصنيع الحاجيات كانت متفرقة في انحاء المدينة . ولم يكن هناك ، مثلاً ، حي للمصابغ ، او للحياكة ، على غرار سوق الحرير ، او سوق القطن ، او سوق القوافين . ولكن بعض الطوائف ، التي تصنع وتبيع في ان ، مثل الصياغ ، او السيوفية ، او السروجية ، فلها أسواق خاصة بها . وتجمعهم في مكان معين اقتضته ، عادة ، دواعي الامن ، او تيسير المتاجرة ، لتمكين الشاري من الحصول على حاجياته في مناطق متقاربة . كما أن شيخ الطائفة يسهل عمله اذا كان افراد حرفته منتشرين في منطقة محددة وذلك لتمكنه من مراقبة عملهم وجودة انتاجهم ، ومن جمع الضرائب منهم . وقد حاول بعض افراد طائفة الزراميزية بحلب الخروج على العادة المتبعة التي تقضي ببيع انتاجهم في السوق المخصص لهم ، قرب الجامع

الكبير الاموي بحلب ، واخذوا يبيعونه خفية في الازقة والمقاهي . وحين تبين لباقي افراد الطائفة ان ما يباع في هذه الاماكن سيء الصنع ويسيء الى مهنتهم ككل نبه القاضي ان على من يشتغل بصنعة الزراميزية الا يبيع في غير السوق المخصص لها على العادة القديمة الجارية (٧٧) .

وقد حصر عمل الدباغين في منطقة معينة لان ذلك يقتضي تواجد عدد من الخدمات القريبة ، مثل المسلخ للتزود بالجلود ، والمياه لغسلها . كما أن الروائح الناتجة عن العمل ، وما يلحق بها ، يحسن حصرها في مكان معين . لذا كان مركز الدباغات في دمشق ، حتى فترة قريبة ، في باب السلام ، حيث توافرت الشروط اللازمة لذلك (٧٨) . وحين تعاطى أحد الدباغين الدباغة بداره ، بمحلة القبيبات بدمشق ، احتج الدباغون ، وثبت لدى القاضي ان ذلك مخل بنظام الحرفة ومضر بأهلها لما فيه من اختلال قواعدهم . فمنعه القاضي من تعاطي حرفته خارجا عنهم (٧٩) . وحدث مثل ذلك في حلب ايضا (٨٠) . وانتقال الدباغات من منطقة الى اخرى ، اكثر بعداً عن اطار المدينة ، يعتبر مؤشراً لنمو المدينة العمراني (٨١) .

وبعض الحرف تقتضي الانتشار لا التجمع ، مثل طائفة البارودية التي لاتتواجد في سوق السلاح ، حيث تجمع في الاصل صناع السلاح الابيض الفولاذي ، لان وجود البارود في مكان واحد يجعل خطورة الانفجارات قائمة ، لذا نرى بائعي البارود موزعين في مناطق متباعدة .

وفي مجال الخدمات ، كما في مجال الانتاج والتسويق ، روعي الاختصاص وتقسيم العمل . فهناك ، مثلا ، دلالون وقبانيون لسلع معينة ، وفي أماكن جغرافية معينة . وقد وجد في طائفة الطوافة (الباعة المتجولين) من اختص ببيع الفستق البلدي ، ومن أختص ببيع الفستق الجلب (٨٢) . وفي طائفة الحمالين وجد تخصص في مناطق العمل ونوعيته . فقد اتفق ، في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، ان يختص شيخ طائفة الحمالين بدار الوكالة بباب الجنان بحلب ، بحمل ماء الليمون ، بينما اختص بقية الافراد في الحمولة الاخرى ، ولم يتدخل فريق منهم في عمل الاخر (٨٣) . وكانت طائفة العتالين متخصصة بحمل أحمال طائفة الافرنج بحلب ، وعارضت أن يخالطها أحد من الخارج في عملها (٨٤) .

وحرص أصحاب كل طائفة على منع العناصر الغريبة من تعاطي حرفتهم . والهدف من ذلك ضمان حسن الانتاج ، واستئثار بالارباح ، ومشاركة

جميع أعضاء الحرفة في تحمل الضرائب الجماعية . وقد احتج جماعة من طائفة الدباغين لجلود الحور بدمشق ضد ممارسة احد النطاعين (الذين يدبغون الجلد ويصنعون الاطباق منه) (٨٥) لحرفتهم لانه « لم يتقدم للمدعي المزبور تعاطي الصناعة المزبورة بينهم ، ولم يتقدم له أخذ قسم من الحور المزبور وان العادة القديمة والقاعدة المستمرة بينهم على ان سابر الحرف لاتداخل صناعتهم المزبورة ... ولم يتقدم لاجنبي الدخول في صناعتهم المزبورة وان صدر ذلك فيحصل الخلل لهم في الصناعة » . وقد وافقهم القاضي على ذلك (٨٦) .

وحافظت الطوائف ، في المجال الاجتماعي ، على بعض المميزات السائدة في المجتمع . كما انها ، بتنظيماتها واخلاقيتها المهنية ، قد ساعدت على تطوير مستوى الاخلاق بعامة . وبهذا لعبت الطوائف دورا فاق الى حد كبير ، دور المحتسب ، الذي تضاءل شأنه في بلاد الشام في العهد العثماني ، وغاب في كثير من الاحيان عن الوجود .

وقد طبعت الحرفة حياة الحرفي بطابعها ، ولصق اسمها به حتى غدا كنية له . ونظراً لان الابن ، في غالب الاحيان ، كان يتعلم حرفة أبيه فقد لصق اسم الحرفة بالاسرة ككل ، مثل خشاب ، مسالخي ، حواصلي ، حداد ... الخ . ونلاحظ ، من ناحية اخرى ، ان الطوائف عكست مواقع فئات السكان في المجتمع ففي الربع الاول من القرن السابع عشر وجد بين الدباغين في حلب شيخ للاشراف من طائفة الدباغين،وكذلك شيخ للدباغين غير الاشراف (٨٧) . ويعكس هذا أهمية الاشراف وكثرة عددهم بين الدباغين بخاصة ، وفي حلب بعامة ، كما يستدل من الدور السياسي والعسكري الذي لعبه الاشراف في حلب في القرنين التاليين . ولم نعثر على أدلة لاحقة حول استمرار هذين الشيخين بين الدباغين الذين ذكرت لهم طائفة واحدة فيما بعد .

ويبدو أن العلماء بين الحرفيين عوملوا معاملة خاصة ، كما يستدل من اعفاء الشيخ عبد الرحمن بن محمد ، من طائفة النشارين بدمشق ، من الكلف والمغارم العرفية المترتبة على هذه الحرفة « لكونه اماما وخطيبا ويتعاطى ذلك (أي النشارة) لاجل معيشته ، وانه قبل تاريخه منع من التعرض له بموجب حجة شرعية ابرزها من يده » (٨٨) .

وقد لقي الفقراء والمفلسون من الحرفيين اهتماما ورعاية كبيرين . فالذي كانت بذمته ديون لم يستطع الوفاء بها قسط عليه الدين بنسبة تتناسب

مع ثروته ، ويختلف ذلك من حالة الى اخرى . ففي احدى الحالات ثبت لدى القاضي فقر احد العاملين في صناعة تحميل البضائع اذ كان مدينا لعدد من الناس بخمسمائة قرش ، فقرر القاضي ان يدفع المدين خمسا وعشرين قرشا من فاضل كسبه كل سنة ليوزع على ارباب الديون بنسبة ديونهم (٨٩) . وفي حالة اخرى ثبت اعسار اب وولدين يعملون في الحياكة فقسطت الديون التي كانت بذمتهم بان اعطوا ، من فاضل كسبهم ، لصاحب كل مائة قرش خمسة قروش (٩٠) .

وعرفت الطوائف الحرفية درجة متميزة من الاخلاقية المهنية التي ظهرت على مختلف المستويات ، فشيخ الطائفة اشترط فيه ، الى جانب معرفته بأمور الحرفة وقدرته على أداء واجبات المشيخة ، ان يكون متحليا بالعفة والاستقامة والتدين . واشترطت الصفات نفسها في التقيب واليكيت باشي . واذا اخل الشيخ ومساعدوه بالثقة التي وضعت فيهم حق لافراد الطائفة طلب عزلهم . ووافقهم القاضي ، عادة ، على ذلك بعد ان ثبتت لديه صحة دعواهم . وطبقت المقاييس ذاتها على الحرفيين ، فالحرفي الذي يغش في عمله (يعامل بما يستحقه من الاهانة والحقارة » (٩١) . وحين ثبت لدى القاضي ان شخصا وولديه من طائفة الصياغ هم « على غير الطريق المستقيم في بيعهم وشرائهم وانهم دائما يتطاولوا على الناس بغير حق » وافق القاضي على طرد هؤلاء من السوق (٩٢) . وقد هدد شيخ الترابين في حلب افراد طائفته بالا يلقي أحد منهم التراب على المقابر ، أو في الطرق ، أو على التلال بظاهر المدينة ، وان يحصر ذلك في الحفر والمغارات المهجورة . ويعاقب المخالف بما يستحق من الاهانة (٩٣) . وحين أخل صباغ ، اعطي الف درهم من الحرير لصبغه ، بشروط الصباغة ، توجب عليه اعطاء صاحب الحرير الفا ومائة وثمانين درهما من الحرير الخام (٩٤) . ويبدو أن تفسير الزيادة في وزن الحرير المعوض هو أنها تعويض اضافي لان هذا الوزن الاجمالي يعادل وزن الالف درهم من الحرير الخام المسلمة أصلا الى الصباغ والتي ربما كان وزنها سيزداد الى الف ومائة وثمانين درهما بعد صبغها بنتيجة ما يلحق بها من زيت ومواد أخرى اثناء الصباغة . وظهر بين الطوائف اتجاه نحو تطبيق العدالة الاقتصادية بين الحرفيين . فالشيخ هو المسؤول ، عادة ، عن توزيع المواد الخام بالتساوي على افراد الطائفة ، ولكنه غالبا ما أخذ لنفسه حصة ونصف .

ويدل هذا التأكيد على الالتزام بالاخلاقية المهنية على اهتمام الحرفيين ، وبالتالي الشعب ، بالممارسة الاخلاقية . وينعكس ذلك بالمقابل ، على توطيد

فكرة الاخلاق بين الناس . وامكن للطائفة ان تصهر الحرفيين ، على اختلاف مذاهبهم ، في انضباط مهني تجاوز حدود التمييز بينهم ، فشارك المسلمون والمسيحيون في انتخاب شيخ الطائفة الحرفية على اساس من المقدرة والاستقامة والتدين .

ومما يجدر بحثه ، في مجال الحياة الاجتماعية للطائفة الحرفية ، تقصي العلاقة بين الطوائف الحرفية والطرق الصوفية ، ومقدار ما اسهمت به التنظيمات الحرفية في نشر الطرق الصوفية ، واستمراريتها ، وكذلك مقدار ما مارسته الطرق الصوفية من تأثيرات على الحرفيين في مجال تقديم الطاعة لشيوخ الطوائف وموظفيها الاعلين . ونظرا لاهمية هذه الموضوعات التي لم تدرس بعد فانها تحتاج الى ابحاث خاصة بها .

وعلى الصعيد الاداري ، لعبت الطائفة دورا هاما من حيث تنظيم العلاقة بينها وبين السلطة الحاكمة . فالسلطة تبلغ اوامرها الى الحرفيين عن طريق شيخ الطائفة . وبالمقابل، يرفع الحرفيون مطالبهم الى السلطة عن طريق الشيخ. وتجلت العلاقة بين الطرفين ، بأوضح صورة ، في مجال الضرائب . ووجدت ضرائب ثابتة واخرى عارضة ، فالاولى ، التي اشير اليها احيانا باموال الميري (من أميري اي دولة) ، جمعت عن طريق الالتزام ، وهو في الغالب لسنة . ومثال ذلك التزام مقاطعة دق القطني ، ومقاطعة دلالية العطارين ... الخ . ويصعب معرفة نسب الضرائب الثابتة الى العارضة . وقد اشير الى الاخيرة بتعابير مختلفة مثل « تكاليف عرفية » أو « مال الاوردي او العرضي » ، أي الجيش ، وهي مدفوعات غير منتظمة فرضتها الدولة لتمويل حملة أو غير ذلك. اما « مال المشيخة » فهو ما يفترض أنه مخصص لشيخ الطائفة . وأيا كان الحال ، وجب على كل حرفي في الطائفة المساهمة ، حسب امكاناته ، في اداء الضريبة التي كانت تفرض بصورة جماعية ، ويقوم شيخ الطائفة ، بمساعدة بعض الموظفين ، بجمع أموال الضريبة من الافراد بالطريقة التي يرونها .

واشترك مع شيخ الطائفة في عملية توزيع الضرائب ثم جمعها كل من نقيب الطائفة واليكيت باشي فيها ، الى جانب شخص دعي بالمعرف . وقد نصب المعرف على مجموعة من الطوائف وكلفها بدفع ما توجب عليها بموجب الدفتر (٩٥) . وذكر ايضا الحواط الذي يبدو أن مشاركته اقتصرت على جمع مال الجزية (٩٦) .

وتوضح الامثلة التالية كيفية جمع الضرائب ، فقد اتفق شيخ طائفة الصابونية بمدينة حلب وجماعة من الصابونية مع طائفة الصابونية في محلة

بانقوسا على أنه اذا وقعت على طائفة الصابونية بحلب تكاليف عرفية يكون اربعة اخماسها على المدينة وتوابعها ، والخمس الخامس على صايح بانقوسا (٩٧) . واذا تخلف عضو في الطائفة عن المساهمة في التكاليف العرفية « يفعل معه الحقارة التامة » (٩٨) .

وفي الحالات التي تكون فيها طائفة ، او مجموعة طوائف ، تابعة (يمق) لطائفة اخرى ، تشترك هذه الطوائف معا في تحمل التكاليف ، مثال ذلك ان طائفتي المطافجية واللبابيدية التابعتين لطائفة الشعارين ، تحملتا ثلاثة أرباع التكاليف ، وتحملت طائفة الشعارين الربع الرابع (٩٩) ، وفي مثال آخر التزمت طائفة المسالخية ، التابعة لطائفة القصابين ، بدفع مبلغ معين للطائفة الاخيرة من التكاليف (١٠٠) .

وقد روعيت أوضاع الطوائف المادية عند فرض الضرائب عليها . مثال ذلك ان مبلغا من المال فرض على عدد من الطوائف الحرفية في حلب للمساهمة في تمويل حملة امر بها السلطان ، وطلب من والي حلب المشاركة فيها ؛ وذلك في شوال ١٠٤٦ / آذار ١٦٣٧ . واجتمعت الطوائف المعنية واتفقت ، دون اكراه ، على توزيع مبلغ الضريبة بالنسب التالية :

جماعة بازرستان ٤٣٧ (بالقروش الريالية) ، بقالين ٢٩٤ ، قوافين ٢٧٣ ، عطارين ٢٥٩ ، سراجين ١٩٧ ، قره قماش ١٩٥ ، عقادين ١٨٧ ، سيوفية١٧٥ ، قاوقجية ١٦٤ ، صباغ ١٦١ ، سوق دهشة ١٥٩ ، خبازين ١٣٥ ، قصابين ١٣٢ ، مطاقجية ١٢٦ ، خياطين ١٢٣ ، حدادين ١٢١ ، سمرجية ٩٦ ، بياطرة ٨٩ ، اشجية ٨٢ ، فرايين ٨٢ ، علافين ٧٧ ، نجارين ٧٣ ، عباجية ٦٩ ، حبالين ٦١ ، سرفجية ٣٣ ، قازنجيان ٢٩ ، حلاقين ١٣ (١٠١) .

وسواء دلت كلمة جماعة على طائفة بكاملها ، أم على جماعة منها فان تفاوت النسب بين الجماعات يبقى قائما ، ويستدل منه على الملاءة المالية لكل جماعة . وليس غريبا ان جماعة بازرستان (أي السوق حيث خزن التجار بضائعهم وسوقوها واحتفظوا فيه بسيولتهم المالية وبالامانات) (١٠٢) ، تحملت العبء الاكبر من الضريبة .

وفي حالات اخرى وزعت الضريبة على افراد الطائفة بنسبة ما عين لكل منهم من المادة الخام ، التي درت عليه الارباح بحسب مقدارها وطاقته على تصنيعها ، مثال ذلك اتفاق افراد طائفة المصرانية ان ما يطلب منهم من التكاليف

العرفية لجهة الميري في عام واحد يوزع بينهم على قدر أخذهم السمسم (١٠٣) . وفي مثال آخر اتفق افراد طائفة الكونجية (الذين يدبغون جلود الجواميس المسماة بالكون) ان تؤخذ التكاليف العرفية منهم على قدر الجلود التي يدبغها كل منهم (١٠٤) .

واذا ما تعطلت فئة من طائفة حرفية عن العمل تحملت بقية الطائفه ماخص الفئة المعطلة من ضرائب ، مثال ذلك انه وجد في دمشق في الربع الثاني من القرن الثامن عشر ، تسعة محامص للبن ، موزعة في مختلف مناطق المدينة ، وشكل أصحابها طائفة محمصي البن ، وكان على الطائفة مائتا قرش ضريبة في الشهر . وقد تعهد افراد الطائفة لدى القاضي انه اذا تعطل أحد المحامص فانهم يتحملون ما عليه من مال الميري بحيث لاينقص هذا المال (١٠٥) .

وبالاضافة الى دورها الاداري ، قامت الطوائف الحرفية بدور سياسي وعسكري ، وبخاصة في القرن الثامن عشر ، حين ضعفت سلطة الدولة ، وبرزت المنظمات الشعبية في مراكز المدن ، مثل اليرلية في دمشق (وهي الطائفة الانكشارية التي سيطر عليها السكان المحليون) ، والاشراف في حلب ، ورجال الاحياء،للدفاع عن مصالح السكان المحليين . وقد استعرض الحرفيون في دمشق في حوالي ١٧٦٠ ، وكان بعضهم « بالاسلحة والعدد والدروع الفاخرة » (١٠٦) .

أثر الاقتصاد الأوربي على الطوائف الحرفية في القرن التاسع عشر

أدت الثورة الصناعية في اوربا ، وبخاصة في مجال صناعة النسيج ، الى اغراق اسواق العالم ، في القرن التاسع عشر ، بالبضائع التي تميزت بالجودة والرخص . وكان ذلك ضربة شديدة للصناعات الحرفية المحلية التي لم تقو على الوقوف في وجهها (١٠٧) .

وقاست الصناعة الحرفية في بلاد الشام من منافسة البضائع الاوربية فضعفت وافتقر اصحابها . وتضرر الاقتصاد المحلي بصورة عامة . ويعزى ذلك الى سببين رئيسيين ، أولهما عدم اهتمام اوربا ، في فترة التصنيع الاقتصادي ، بمبادلة منتجاتها بالمنتجات المحلية ، كما كان الامر قبل الثورة الصناعية . فقد غدت انتقائية فيما تستورد ، واقتصرت على ما يغذي صناعاتها الناشطة . وبذلك كسدت في بلاد الشام المنتجات التي لم تعد تلائم اغراض

الصناعة الاوربية . والسبب الثاني هو اضطرار بلاد الشام ، ازاء هذا الوضع ، الى دفع ثمن البضائع المستوردة بالعملة النقدية ، اكثر منها بالمنتجات المحلية ، مما أرهق ميزانها التجاري .

وأدى تدفق البضائع الاوربية الى بلاد الشام ، ورواجها فيها ، الى قيام دكاكين متخصصة ببيعها . وذكر من هذه الدكاكين في عام ١٢٧١/١٨٥٥ دكان بسوق الخياطين بالصف الغربي معدة لبيع الاقمشة الافرنجية ، واربعة دكاكين بسوق البريد بالصف الغربي معدة لبيع الاقمشة والامتعة الافرنجية ، ودكان اخرى بالصف الشرقي من هذا السوق (١٠٨) ونستدل من هذا ان البضائع الافرنجية اصبحت تحتل اماكن بارزة في أسواق دمشق الرئيسية . ولم تقتصر الصادرات الاوربية على الاقمشة بل تعدتها الى المواد الاولية ، واصبح الغزل الافرنجي ، مثلا ، يستعمل في الانسجة المحلية .

وقد تعرض عدد متزايد من العاملين في النسيج الى الافلاس بسبب مزاحمة البضائع الاوربية . وتدنت قيمة الانوال ، وكذلك قيمة خلو الدكاكين وكدكاتها ، وكثر بيعها بفعل كساد المنتجات المحلية ، وقصر ملتزمو الضرائب عن دفع كامل ما يستحق عليهم من أموال للدولة نظرا لعجز الحرفيين عن تأدية ما يترتب عليهم لهم . وجاء في الكتاب الذي رفعه عبد القادر آغا خطاب ، احد كبار الملتزمين بدمشق ، الى السلطات المسؤولة فيها ، مطالبته بتخفيض قيمة التزام دمغة القطني والالاجة والصلواتي والديما ، وقلم المنكنا ودق القطني والالاجة وغيرها ، التي كانت في عهدته، بسبب « حالة الكار وقلة تشغيله من قبل تكاثر وجود اجناس البضائع الافرنجية فالاقمشة الشامية كلما لها على تدني ومن ذلك يزيد بالاقلام (الالتزام) المذكورة تدني حاصلاتها وهذا شيء معلوم عند حضراتكم » (١٠٩) . وقد نظرت السلطات المعنية في هذا التقرير في ٥ محرم ١٢٦١ / ١٤ كانون الثاني ١٨٤٥ ، وقررت « بخصوص توقف بضائع الاقلام المذكورة في محروسة الشام من تكاثر البضائع الافرنجية فهذا مشاهد وملحوظ من تدقيق الاقلام المذكورة وتنازل أموالها عن العام الماضي لقلة رواج بضائعها التي هي القطني واللاجة والسدي فقبول هذا الالتماس فيه المغدورية على جانب الميري وان كانت اعذار عبد القادر آغا من تدني الاقلام المذكورة لسبب تدقيربضائعهامقبول»(١١٠) .

وانعكس اضطراب صناعة النسيج المحلية على تناقص عدد الانوال وانتاجها، فقد قدر عدد انوال النسيج في دمشق في أواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر باربعة آلاف نول ينتج النول الواحد منها في الاسبوع بين اربع وخمس قطع

منسوجة (١١١) ، اي ما يقرب من ٨٣٢٫٠٠٠ الى ١٫٠٤٠٫٠٠٠ قطعة سنوياً . وقدر عدد انوال القطني في دمشق عام ١٨٥٠ بـ ٦٥٣ نولا ، استخدمت ٦١٣ رجلا و ٣٠٠ ولد . وقدر عدد أنوال الالاجة في السنة نفسها بـ ١٠١٣ نولا ، استخدمت ١٠١٣ رجلا و ١٣٠٠ ولد ، وبلغ مجموع انتاجها بين ٢٢٠٫٠٠٠ و ٢٣٠٫٠٠٠ قطعة سنوياً (١١٢) ، وقدر عدد الانوال في عام ١٨٦٢ ، في اعقاب الاضطرابات في دمشق التي زادت في تعطيل الاقتصاد المحلي ، حوالي ٣٠٠ نول ، كان نصفها فقط منتجاً (١١٣) . ورغم ان عدد الانوال بلغ في السبعينات من القرن التاسع عشر ٥٢٥٠ نولا ،كما ذكرنعمان القساطلي(١١٤)، الا انه اعتبر عددها هذا أقل مما كان عليه في بداية جيله . واضاف « اما الان فقد نكبت صنائع دمشق اعظم نكبة ولا سيما صنعة النسيج لسبب غلاء الحرير وكثرة انتشار البضائع الافرنجية مع عدم متانتها » . ويلاحظ ان ٢٣٠٠ نول من مجموع الانوال التي ذكرها القساطلي اختصت بنسيج الديما ، وهو النسيج الذي ابتكرته الصناعة المحلية لترد على منافسة البضائع الاجنبيــة . وذكر الياس القدسي (١١٥) في عام ١٨٨٣ « ان من تفحص أحوال الحرف الدمشقية ونظر اليها نظر المنتقد المدقق يرى انها في تأخير عظيم يوجب الاسف من جهة وفي اتقان يوجب الدهشة من جهة اخرى . . . اما الترتيب . . . فهو كمال الانتظام وحسن الترتيب اللذان لم يزالا محفوظين من أزمنة قديمة الى يومنا هذا بين عملة اليدين من كل نوع وملة » .

ونظراً للازمات الاقتصادية التي تعرض لهــا الحرفيون بسبب منافسة البضائع الاجنبية للبضائع المحلية كثر الفقر والافلاس في صفوفهم ، وعمدت السلطة القضائية الى جرد ثروة المفلس وتوزيعها على الدائنين . ففي احدى الحالات اخذ الدائن من أصل القرش ربعه وسامح المدين بالباقي ، وفي حالة اخرى اخذ النصف وبقي له بذمة المدين النصف الاخر ، وذلك بعد ان ثبت للقاضي ،في الحالين ، ان المدين معسر فعلا .

وغدا تهرب الحرفيين من دفع الضرائب امراً شائعاً . ولجأ بعضهم الى طلب حماية القناصل الاجانب والحصول على براءة من قبلهم لتحاشي الضرائب . وعرف الواحد منهم ، في هذه الحال ، بانه « براءتلي » ، اي صاحب براءة تعفيه من دفع الضرائب . وفي احدى الحالات تقدمت طائفة فتالة الحرير بمعروض الى سلطات دمشق تبين فيه ان بعض افرادها ينقطعون عن العمل وقت دفع أموال الميري ، ويعودون اليه بعد دفعه ، لتحاشي مشاركتهم في الدفع . فقررت السلطات ان الذي يشتغل بالحرفة يجب ان يساوي أهل حرفته بمال الميري ،

وفي حال انقطاعه عن العمل يجب ان يعطي سنداً بعدم العودة اليه ، واذا عاد واشتغل ، ولو باخر السنة ، وجب عليه ان يدفع ما خصه من مال الميري ، ويطلب ذلك أيضاً ممن هم تحت الحماية .

واذا كانت البضائع الاجنبية قد أوجدت أزمة بالنسبة لصناعة النسيج المحلية ، فان التجار المحليين سرعان ما تأقلموا مع الوضع الجديد وجنوا ثروات كبيرة نتيجة تعاطيهم المتاجرة بالبضائع الاجنبية . واصبح تعاملهم مع « لوندره» وغيرها امراً مألوفاً . ونشأت بنتيجة ذلك طبقة بورجوازية محلية من التجار والوسطاء ، ضمت اناساً من مختلف المذاهب ، كما يستدل من ثروات التجار وأنواع السلع التي تعاطوها .

وأدى التداخل بين الاقتصاد الاوربي والاقتصاد المحلي والتعقيدات التي نجمت عن تشعب التجارة الى انشاء محكمة تجارية بدمشق عام ١٨٥٠ (١١٦) . وكانت محكمة مشابهة قد انشئت في دمشق في أواخر الحكم المصري ثم ألغيت (١١٧) ، وانشئت محكمة مماثلة في حلب في عام ١٨٥٥ (١١٨) .

وادت كثرة البضائع المتدفقة من أوربا الى بلاد الشام ، في القرن التاسع عشر ، الى الحاجة الى ميناء جديد يتسع لاستقبال السفن الكبيرة التي اخذت تسير بقوة البخار . وكانت الموانى التقليدية ، قبل ذلك ، مثل الاسكندرونة وطرابلس وصيدا ، صالحة لاستقبال السفن الشراعية التي تحمل كميات محدودة من البضائع . ولهذا انشىء ميناء بيروت لاستقبال البضائع الاوربية بكميات كبيرة . واقتضى ذلك انشاء طريق بيروت ـ دمشق لتصريف البضائع في الداخل . وقد بدأ العمل في هذا الطريق عام ١٨٥٩ من قبل شركة عثمانية مغفلة وبراسمال فرنسي بلغ ثلاثة ملايين فرنك موزعة على ستة الاف سهم . وافتتح الطريق رسمياً في الاول من كانون الثاني ١٨٦٣ (١١٩) وارتفع عدد المسافرين عليه من ٥٨٠٩ عام ١٨٦٣ الى ٨٤١٨ مسافراً في العام التالي . ووصل العدد عام ١٨٦٩ الى ٩٥٠٩ مسافر (١٢٠) . وجرت اتصالات بين ممثلي الشركة والقبائل البدوية المسيطرة على طرق المواصلات في بادية الشام لتسهيل انتقال القوافل التجارية بين دمشق وبغداد لنقل البضائع اليها من بيروت . ولطريق بيروت ـ دمشق اهميته في مجال الحياة الاجتماعية والثقافية ، فضلا عن اهميته الاقتصادية ، لانه اصبح المعبر الرئيس للافكار والعادات الاوربية .

وادى انشاء شركات الملاحة الاوربية في البحر المتوسط (١٢١) في القرن التاسع عشر الى استخدام عدد كبير من الحجاج الاتراك طريق البحر للسفر

الى الحجاز ، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، مما انقص عدد الحجاج المارين بدمشق (١٢٢) . وحرمت دمشق ، وبلاد الشام بعامة ، من كثير من النشاط التجاري الذي رافق قافلة الحج (١٢٣) .

ورغم التأثيرات المدمرة للاقتصاد الاوربي المتصنع على الصناعات المحلية ، وبالتالي على الطوائف الحرفية ، فلم تعدم الصناعة المحلية وسائل التأقلم والرد على هذا التحدي(١٢٤) . فقد تكيفت بعض الصناعات مع التحدي الاوربي، وظهرت صناعات محلية تجمع ما بين المحلي والمستورد ، من ناحية المادة والزي . ولمجابهة رأس المال الاوربي المتفوق عمد التجار المحليون الى التحول تدريجياً عن الفردية التجارية ، الى المشاركة لمواجهة التحدي ، كما عمدوا الى تقليد البضائع الاوربية . فظهر في دمشق نسيج الديما ، الذي قلد الالاجة ، وهو القماش المقلم المصنوع من الحرير والقطن . فعوضاً عن الخيوط الحريرية استخدمت القطنية فقط ، وهي ارخص ثمناً . وراجت الديما كثيراً . وحين شاع لبس البنطلون محلياً (الكلمة فرنسية ذات أصل ايطالي) ، نسج نوع خفيف الوزن من الديما يصلح لصناعة البنطلون ولبسه في الصيف . وكان هذا النسيج اجود وارخص ثمناً من النسيج الاوربي المماثل . واستخدمت المياه في تشغيل الات غزل القطن محلياً . ورغم النجاح في هذه النواحي فلم يلق تقليد القماش الافرنجي المعرق رواجاً محلياً اذ ان « النساء ابين لبسه لانه غير مشرف بوسام افرنجي » (١٢٥) . وهكذا اصبح الاقتصاد المحلي يدور في فلك الاقتصاد الاوربي ، وترتب على ذلك حدوث تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية عميقة في بلاد الشام .

---

(١) انظر مثلا :

Louis Massignon, **Encyclopédie de l'Islam,** 1ère ed. s.v. sinf; Claude Cahen, «Y-a-t-il eu des corporations professionnelles dans le monde musulman classique?» dans The **Islamic City,** edd. A.H. Hourani, S. M. Stern, Oxford, 1970, pp. 51 - 63.

(٢) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، جزءان ، تحقيق الدكتور علي المنتصر الكتاني ، بيروت ١٩٧٥ ، ج ١ ، ص ٣١٤ ــ ٣١٥ .

(٣) انظر : سجل دمشق الشرعي ، رقم ٤٥ ، ص ٥٨ ، (تاريخ القضية) ٢٨ شعبان ١١٣٢ / (٥ تموز ١٧٢٠) .

(٤) عني بنشرها محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٣٤٣ .

(٥) انظر الدراسة الهامة عن الطوائف الحرفية في مصر التي قام بها :

André Raymond, **Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe Siècle,** 2 tomes, Damas 1973 - 1974.

(٦) في جزئين ، الجزء الاول ، تأليف محمد سعيد القاسمي ، والثاني تأليف جمال الدين القاسمي وخليل العظم ، تحقيق ظافر القاسمي ، نشر موتون وشركاه ، باريس ـ لاهاي ، ١٩٦٠ .

(٧) الياس بن عبده بك قدسي قنصل دولة هولانده في دمشق ، « نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية » ، قدمها للمجمع العلمي الشرقي الملتئم في مدينة ليدن ، عام ١٨٨٣ ، ونشرت في :

Carlo Landberg, **Actes du VIe congrès des Orientalistes,** t. 2, Leiden, 1885.

(٨) مثلا وجد في دمشق في القرنين السابع عشر والثامن عشر من يصنع البنادق ، الذي عرف بلقب بندقجي . ولكن لم تذكر طائفة البندقجية ربما لان صنع البنادق كان ممنوعا من قبل الدولة، انظر حول عمل هؤلاء البندقجية وهويتهم بحثنا :

«The Local forces in Syria in the seventeenth and eighteenth centuries», in **War, Technology and Society in the Middle East,** edd. V. J. Parry and M.E. Yapp, Oxford University Press, 1975, p. 298.

(٩) انظر : Raymond, I, p. 265.

(١٠) انظر بحثنا بعنوان :

«The Law-Court registers of Damascus, with special reference to craft-corporations during the first half of the eighteenth century», dans **Les Arabes par Leurs Archives (XVIe-XXe siècles).** par J. Berque et D. Chevallier, Editions du Centre National de la Recherche Scientifique, Paris, 1976, p. 156.

(١١) انظر : سجل دمشق ، رقم ٢٢ ، ص ٦٠ ، ٥ ربيع الاول ١١٠١ / (١٧ كانون الاول ١٦٨٩) .

(١٢) انظر كنموذج لهذا النوع من البحث دراستنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية ، من خلال الوثائق الشرعية ، ١٢٧٣ ـ ١٢٧٧ / ١٨٥٧ ـ ١٨٦١ ، بحث قدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام المنعقد في الجامعة الاردنية بعمان ، ١٩ ـ ٢٤ نيسان ١٩٨٠ .

(١٣) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٢٣٧ ، ٥ صفر ١٠٣٧ (١٦ تشرين الاول ١٦٢٧) .

(١٤) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٩١ ، ٢٤ رمضان ١١١٩ / (١٩ كانون الاول ١٧٠٧) .

(١٥) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ١٣٤ ، ٢٧ محرم ١٠٥٥ / (٢٥ آذار ١٦٤٥) .

(١٦) سجل دمشق ، رقم ١٥١ ، ص ٣٦٠ ، ٦ ذي القعدة ١١٦٨ / (١٤ آب ١٧٥٥) .

(١٧) سجل حلب ، رقم ٢٣ ، ص ٤٤٨ ، ١١ رجب ١٠٥٥ / (٢ ايلول ١٦٤٥) .

(١٨) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٣٠٢ ، ٢٨ محرم ١٠٣٨ / (٢٧ ايلول ١٦٢٨) .

(١٩) سجل حلب ، رقم ١٠ ، ص ٥٩٥ ، ٢٠ رجب ١٠١٧ / (٣٠ تشرين الاول ١٦٠٨) .

(٢٠) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٠٩ ، ٢٥ محرم ١٠٤٤ / (٢١ تموز ١٦٣٤) ، رقم ٢٤ ، ص ٢٨٠ ، ٢٥ ربيع الاول ١٠٥٥ / (٢١ أيار ١٦٤٥) .

(٢١) سجل دمشق ، رقم ٢٢ ، ص ٢٨٥ ، ١٢ جمادى الثاني ١١٠١ / (٢٣ آذار ١٦٩٠) .

(٢٢) نبذة تاريخية ، ص ٢٨ .

(٢٣) سجل دمشق ، رقم ١١ ، ص ١٢١ ، ٢٢ محرم ١٢٦١ / (٣١ كانون الثاني ١٨٤٥) .

(٢٤) سجل دمشق ، رقم ٥٠ ، ص ٢٨ ، ٢٥ ذي الحجة ١١٣٤ / (٦ تشرين الاول ١٧٢٢).

(٢٥) سجل دمشق ، رقم ٢٤ ، ص ١٥٩ ، ٢٢ ذي الحجة ١١٠٣ / (٤ ايلول ١٦٩٢) .

(٢٦) محمد الامين المحبي ، خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، أربعة اجزاء ، القاهرة، ١٢٨٤ / ١٨٦٩ ، ج ٤ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٢٧) ص ١٠ .

(٢٨) القدسي ، ص ١٥ — ٣٠ .

(٢٩) ص ١١ .

(٣٠) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٤٢٠ ، ٢٠ محرم ١٠٣٩ / (٩ ايلول ١٦٢٩) .

(٣١) المصدر السابق ، ص ٨٥٢ ، ٩ رمضان ١٠٤٦ / (٤ شباط ١٦٣٧) .

(٣٢) حوادث دمشق اليومية ١١٥٤ — ١١٧٥ / ١٧٤١ — ١٧٦٢ ، تحقيق الدكتور احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٩ .

(٣٣) نبذة تاريخية ، ص ١٢ .

(٣٤) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٦٨٨ ، ٤ ربيع الثاني ١٠٤٣ / (٨ تشرين الاول ١٦٣٣) .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٨٥ ، ٢٤ ذي القعدة ١٠٣٥ / (١٧ آب ١٦٢٦) ، ص ٧٦١ ، ٩ ربيع الثاني ١٠٤٥ / (٢٢ ايلول ١٦٣٥) .

(٣٦) ص ١٤ .

(٣٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٩١ ، ١٧ شعبان ١٠٤٥ / (٢٦ كانون الثاني ١٦٣٦) ، ص ٨٣٠ ، ٣ ربيع الثاني ١٠٤٦ / (٤ ايلول ١٦٣٦) .

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٦٢١ ، ٢٥ ذي القعدة ١٠٤١ / (١٣ حزيران ١٦٣٢) .

(٣٩) سجل حلب ، رقم١٢ ، ص٤٢٣، أواخر ربيع الاول٩٩٩/(أواخر كانون الثاني ١٥٩١).

(٤٠) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ١٣٧ ، ٢٨ محرم ١٠٥٥ / (٢٦ آذار ١٦٤٥) .

(٤١) سجل حلب ، رقم ٢٠ ، ص ١٤ ، سلخ محرم ١٠٤٦ / (٤ تموز ١٦٣٦) .

(٤٢) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٥٢ ، ١٤ محرم ١٠٤٥ / (٣٠ حزيران ١٦٣٥) .

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٣٨٠ ، ٢٢ جمادى الاول ١٠٣٨ / (١٧ كانون الثاني ١٦٢٩) .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٧٦١ ، ١٧ ربيع الثاني ١٠٤٥ / (٣٠ ايلول ١٦٣٥) .

(٤٥) المصدر السابق ، ص ٣٩٥ ، ١٦ شوال ١٠٣٨ / (٨ حزيران ١٦٢٩) .

(٤٦) سجل دمشق ، رقم ٣٨٨ ، ص ٣٣٧ ، ١٥ جمادى الثاني ١٢٦٤ / (١٩ أيار ١٨٤٨).

(٤٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٣٨٦ ، ٢٥ جمادى الثاني ١٠٣٨ / (١٩ شباط ١٦٢٩) .

(٤٨) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ١٢٥ ، ٦ ربيع الثاني ١٠٥٢ / (٤ تموز ١٦٥٢) ٠ ٠
(٤٩) سجل دمشق ، رقم ٢١ ، ص ٢٨٥ ، ١٥ جمادى الثاني ١١٠١ / (٢٤ شباط ١٦٩٠) ٠
(٥٠) سجل دمشق ، رقم ٤٥ ، ص ٥٨ ، ٢٨ شعبان ١١٣٢ / (٥ تموز ١٧٣٠) ٠
(٥١) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ٣٧٦ ، ٢ ذي القعدة ١٠٥٢ / (٢٢ كانون الثاني ١٦٤٣) ٠
(٥٢) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٠٥ ، ٢٦ ذي الحجة ١٠٤٥ / (١ حزيران ١٦٣٦) ٠
(٥٣) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ٢٨٠ ، أواسط ربيع الاول ٩٩٦ / (أواسط شباط ١٥٨٨)٠
(٥٤) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٢٠٨ ، ٦ ذي القعدة ١٠٣٦ / (١٩ تموز ١٦٢٧) ٠
(٥٦) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٦٨٨ ، ٤ ربيع الثاني ١٠٤٣ / (٦ تشرين الثاني ١٦٣٣)٠
(٥٧) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ٢٦٥ ، سلخ صفر ٩٩٦ / (٢٩ كانون الثاني ١٥٨٨) ٠
(٥٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ ، ٥ صفر ١٠٣٧ / (١٦ تشرين الاول ١٦٢٧) ٠
(٥٨) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٥٨ ، ٢٩ رجب ١٠٥٠ / (١٤ تشرين الثاني ١٦٤٠) ٠
(٥٩) سجل حلب ، رقم ٧ ، ص ٤ ، ٢٩ رجب ٩٩٨ / (٣ حزيران ١٥٩٠) ٠
(٦٠) سجل حلب ، رقم ١١ ، ص ٢٧٦ ، ١٠ ذي القعدة ١٠٢٧ / (٢٩ تشرين الاول ١٦١٨) ، رقم ١٥ ، ص ٤٨٤ ، ٢١ رجب ١٠٣٩ ، رقم ٢١ ، ص ٢٤٨ ، ٦ شوال ١٠٤٩ / (٣٠ كانون الثاني ١٦٤٠) ، رقم ٢٢ ص ١٥٣ ، ٥ شوال ١٠٥٠ / (١٨ كانون الثاني ١٦٤١) ٠
(٦١) سجل دمشق ، رقم ٥٩ ، ص ٢٢٠ ، ١٠ رمضان ١١٤١ / (٩ شباط ١٧٢٩) ٠
(٦٢) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ١٦٥ ، أوائل صفر ٩٩٦ / (أوائل كانون الثاني ١٥٨٨) ٠
(٦٣) سجل حلب ، رقم ٤ ، ص (بدون ترقيم) ، غرة ربيع الثاني ١٠٥٢ / (٢٩ حزيران ١٦٤٢) ، رقم ٢٥ ، ص ١٩٦ ، ٢٢ شوال ١٠٥٨ / (٩ تشرين الثاني ١٦٤٨) ٠
(٦٤) سجل حلب ، رقم ١٠ ، ص ٨٧٠ ، أوائل ذي الحجة ١٠١٦ / (أواسط آذار ١٦٠٨) ٠
(٦٥) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٨٩ ، ٢٥ شعبان ١٠٥٠ / (١٠ كانون الاول ١٦٤٠) ٠
(٦٦) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٥٠٠ ، (٤) رجب ١٠٢٨ / (حزيران ـ تموز ١٦١٩) ٠
(٦٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٥٨٨ ، أواسط ربيع الثاني ١٠٤١ / (أوائل تشرين الثاني ١٦٣١) ٠
(٦٨) سجل دمشق ، ٢٨ ، ص ١٩٥ ، ٤ جمادى الثاني ١١١٢ / (١٦ تشرين الثاني ١٧٠٠) ٠
(٦٩) انظر : سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ١٣٦ ، ٥ ذي الحجة ١١٩ / (٢٧ شباط ١٧٠٨)، ص ١٣٩ ، ١٤ ذي الحجة ١١١٩ / (٧ آذار ١٧٠٨) ٠
(٧٠) سجل حلب ، رقم ١١ ، ص ٧٦ ، ٢٢ محرم ١٠٢٧ / (١٩ كانون الثاني ١٦١٨) ٠
(٧١) المصدر السابق ، ص ٥٥ ، ٢٩ ذي الحجة ١٠٢٦ / (٢٨ كانون الاول ١٦١٧) ٠
(٧٢) سجل دمشق ، رقم ٢٤ (بدون ترقيم) ، ٨ رجب ١٠٩١ / (٤ آب ١٦٨٠) ٠
(٧٣) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٢٤٨ ، ١٤ رمضان ١٠٤٩ / (٨ كانون الثاني ١٦٤٠) ٠
(٧٤) سجل دمشق ، رقم ٤٧٢ ، ص ١٣١ ، ١٤ صفر ١٢٧٢ / (٢٦ تشرين الاول ١٨٥٥) ٠

(٧٥) انظر تفاصيل اخرى عن الكدك في دمشق وحلب في بحثنا التالي الذي القيناه في المؤتمر الدولي الثاني للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لتركيا ، المنعقد في جامعة ستراسبورغ بين ١ ــ ٥ تموز ١٩٨٠ :

«The Impact of Europe on a traditional economy : The case of Damascus, 1840 - 1870», IIe Congrès International d'Histoire Economique et Sociale de la Turquie, Colloque : Economie et Sociétés dans l'Empire Ottoman, fin du XVIIIe-début du XXe siècle, Strasbourg, 1er - 5 Juillet 1980.

(٧٦) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ١٦٦ ، ٣ صفر ٩٩٦ / (٣ كانون الثاني ١٥٨٨) .

(٧٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٦٠٢ ، أواخر رجب ١٠٤١ / (اواسط شباط ١٦٣٢).

(٧٨) سجل دمشق ، رقم ٣٤ ، ص ٢٨ ، ٢٩ ذي الحجة ١١٢٢ / (١٨ شباط ١٧١١) .

(٧٩) سجل دمشق ، رقم ٢٨ ، ص ٢٢٠ ، ١١ محرم ١١١٤ / (٩ تموز ١٦٩٩) .

(٨٠) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٨٨ ، ٢٢ شعبان ١٠٥٠ / (٧ كانون الاول ١٦٤٠) .

(٨١)

André Raymond, «Le déplacement des tannerie à Alep, au Caire et à Tunis». **Revue d'Histoire Maghrébine**, VII - VIII, 1977.

(٨٢) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٤٢٠ ، ٢٠ محرم ١٠٣٩ / (٩ ايلول ١٦٢٩) .

(٨٣) سجل حلب ، رقم ٢٥ ، ص ١٠٤ ، ١٠ شعبان ١٠٥٨ / (٣٠ آب ١٦٤٨) .

(٨٤) سجل حلب ، رقم ١٢ ، ص ١٦٣ ، ١٠ جمادى الاول ١٠٣٢ / (١٢ آذار ١٦٢٣) .

(٨٥) قاموس الصناعات الشامية ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

(٨٦) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٨٠ ، ٢٣ شعبان ١١١٩ / (١٩ تشرين الثاني ١٧٠٧) .

(٨٧) سجل حلب ، رقم ٢ ، ص ١٥٢ ، ١٧ ذي الحجة ١٠٠١ / (٢٤ ايلول ١٥٩٣) .

(٨٨) سجل دمشق ، رقم ٢١ ، ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ ، غرة جمادى الثاني ١١٠١ / (٥ آذار ١٥٩٣) .

(٨٩) سجل دمشق ، رقم ١٤٨ ، ص ١٥٧ ، ١٩ جمادى الاول ١١٦٨ / (٣ آذار ١٧٥٥).

(٩٠) سجل دمشق ، رقم ١٤٨ ، ص ١٧٤ ، ٥ جمادى الثاني ١١٦٩ / (٧ آذار ١٧٥٦).

(٩١) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٨٩ ، ٢٥ شعبان ١٠٥٠ / (١٠ كانون الاول ١٦٤٠) .

(٩٢) سجل حلب ، رقم ٢٥ ، ص ١٢٤ ، ١٩ شعبان ١٠٥٨ / (٢٨ آب ١٦٤٩) ، وانظر كذلك ، دمشق ، سجل ٥١ ، ص ١١٩ ، ٨ رجب ١١٣٥ / (١٤ نيسان ١٧٢٣) .

(٩٣) سجل حلب ، رقم ٢٣ ، ص ١٨٤ ، ١٩ جمادىالثاني ١٠٥٢ / (١٤ ايلول ١٦٤٢).

(٩٤) سجل حلب ، رقم ١٢ ، ص ٤٦٧ ، ١٩ ربيع الثاني ٩٩٩ / (١٤ شباط ١٥٩١) .

(٩٥) سجل دمشق ، رقم ٥١ ، ص ٣٦ ، ٧ ربيع الاول ١١٣٥ / (١٦ كانون الاول ١٧٢٢).

(٩٦) سجل حلب ، رقم ٢٣ ، ص ٤٤٧ ، ٧ رجب ١٠٥٥ / (٢٩ آب ١٦٤٥) .

(٩٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٥٢ ، ٩ رمضان ١٠٤٦ / (٤ شباط ١٦٣٧) .

(٩٨) المصدر السابق ، ص ٧٩٩ ، ١١ ذي القعدة ١٠٤٥ / (١٧ نيسان ١٦٣٦) .
(٩٩) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، (بدون ترقيم) ، ١٧ شعبان ١٠٩٠ / (٢٣ ايلول ١٦٧٩) .
(١٠٠) سجل دمشق ، رقم ٢١ ، ص ٢٨٥ ، ١٥ جمادى الثاني ١١٠١/(٢٦ آذار ١٦٩٠).
(١٠١) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٢٠ ، ٢٦ شوال ١٠٤٦ / (٢٣ آذار ١٦٣٧) .
(١٠٢) انظر حول أهمية البازرستان (أو البدستان) في الدولة العثمانية :

Halil Inalcik, «The Hub of the City · the Bedestan of Istanbul», **International Journal of Turkish Studies**, Vol. 1, **No. I, pp. 1 - 17.**

(١٠٣) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٣٤ ، ٢٧ شعبان ١٠٤٤ / (١٥ شباط ١٦٣٥) .
(١٠٤) المصدر السابق ، ص ٨٣٨ ، ٢٥ جمادى الثاني ١٠٤٦ / (٢٤ تشرين الثاني ١٦٣٦).
(١٠٥) سجل دمشق ، رقم ١٠١ ، ص٢ ، ٢ جمادى الثاني ١١٥١ / (٧ تشرين الثاني ١٧٣٨).
(١٠٦) البديري ، ص ٢٢٤ ، وانظر أيضا بحثنا :

«Changes in the Relationship between the Ottoman Central Administration and the Syrian Provinces from the Sixteenth to the Eighteenth Century, in **Studies in Eighteenth Century Islamic History**, edd. Thomas Naff and Roger Owen, Southern Illinois University Press, 1977, p. 65.

(١٠٧) انظر الدراسة الهامة التي قام بها حول لبنان :

Dominique Chevallier, **La Société du Mont Liban à l'Epoque de la Révolution Industrielle en Europe**, Paris, 1971.

(١٠٨) سجل دمشق ، رقم ٤٧٢ ، ص ٣٢ ، ٢٩ شعبان ١٢٧١ / (١٧ أيار ١٨٥٥) .
(١٠٩) سجل دمشق ، رقم ١١ ، ص ٩٩ ، ٥ محرم ١٢٦١ / (١٤ كانون الثاني ١٨٤٥) .
(١١٠) المصدر السابق .
(١١١) انظر :

John Bowring, **Report on the Commercial Statistics of** Central Administration and the Syrian Provinces from the Sixteenth to the Eighteenth Century, in Studies in Eighteenth **Middle East, 1800 - 1914**, ed. Charles Issawi, Chicago, 1966, p. 2²4.

(١١٢) انظر :

Affaires Etrangères; Correspondence Commerciale, (Paris, Quai d'Orsay), Damas 3, (dépêche de) 20 janvier, 1850.

(١١٣) انظر :

A.E. CC, Damas 4, 16 occtobre, 1962.

(١١٤) ص ١٢٣ .
(١١٥) « نبذة تاريخية » ، ص ٨ ــ ٩ .
(١١٦)

AE, CC, Damas 3, 28 mai, 1850.

(١١٧) Bowring, p. 93.

(١١٨) AE, CC, Alep 31, 31 mai, 1855.

(١١٩) AE, CC, Damas 4, 12 juin, 1863, Damas 5, 29 avril 1870.

(١٢٠) AE, CC, Damas 5, 29 avril, 1870.

(١٢١) مثل شركتي : Messageries Impériales, et Compagnie Russe

انظر : AE, CC, Damas 5, 19 Janvier, 1870.

(١٢٢) انظر بحثنا : «The Impac of Europe», pp. 4 - 5.

(١٢٣) القساطلي ، ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(١٢٤) انظر :

Dominique Chevallier, «Un exemple de résistance technique de l'artisanat syrien aux XIXe et XXe siècles, les tissus ikatés d'Alep et de Damas», **Syria,** 39 (1962).

(١٢٥) القساطلي ، ص ١٢٣ .



بعض أحداث الدولة العباسية

والدور العباسي الأول

من خلال منظور عنصري واقتصادي واجتماعي

د . نبيه عاقل

عميد كلية الآداب ـ جامعة دمشق

النقاش الذي اثاره بعض الباحثين المحدثين حول هوية الثورة العباسية ومدى عروبتها أو عجمتها ، انتهى لصالح الفريق القائل بأصالة هذه الثورة من حيث كونها عباسية في قيادتها ، اسلامية في شعاراتها ومبادئها . واستقر رأي العديد منهم على انها قامت على أكتاف عرب خراسان باعتبارهم عصب القوة الضاربة للجيش الخراساني . واذا ما أضفنا الى هذا عروبة الخلفاء العباسيين وانتسابهم الى العباس بن أبي طالب عم الرسول (ص) ، وعروبة بلاطهم بما كان يضمه في مطلع دولتهم ، وأهلهم وصحابتهم وقادتهم وولاتهم ، وكلهم عرب أقحاح وشيوخ قبائل عربية تألفتهم السلطة لتأتلف قبائلهم من ورائهم . حتى أن بعض الخلفاء العباسيين الاوائل لعب لعبة العصبية القبلية ، اذ تذكر المصادر أن الخليفة المنصور كان يحرص على ضرب القبائل العربية الكبرى بعضها ببعض لتنكسر شوكتها ، ولكيلا تكون في دولته مراكز قوى تنازعه السلطان . ومن هذا القبيل كان عمله الدائب منذ تسلمه الخلافة لكسر الحلف بين الازد وربيعه ، وقد نجح في ذلك . أما كتلة الموالي ، فلم تكن ذات هوية عرقية معينة ، بل كان ولاؤها للخليفة والدولة ، وهذا ما جعل مؤلفاً مثل الجاحظ يميز بين « الموالي » و « العجم » من جهة ، وبين « العرب » و « العجم » من جهة اخرى . فولاء « الموالي » كان خالصاً للدولة ، لا لجنس معين ، وهذا يعني ، كما يقول الدكتور فاروق عمر ، « بأن التنظيم السياسي للدولة الاسلامية لم يتحول الى تنظيم فارسي يسيطر عليه الفرس ، بل تحول تدريجياً من عربي الى أممي ، أي أن الانسان الاساس الذي استندت عليه الدولة الجديدة لم يعد يستند على الاصل الواحد للارستقراطية العربية الحاكمة ، كما كان في عهد الامويين ، بل العقيدة المشتركة ، الاسلام » . [انظر ، فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ط ، ١ ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٢٨١] .

ومعلوم أن الثورة العباسية التي أسقطت حكم بني أمية ونقلت مركز الثقل السياسي من الشام الى العراق لم تلق ترحيباً من جميع أفراد الجماعة الاسلامية أو مواطني دولة الاسلام . ففي حين كان البعض يدعو لها ويقوم بأمرها وينتظر على يديها الخير العميم ، كان آخرون يرون في قيامها سقوط العرب وغلبة العجم وعودة الامر ملكاً عضوضاً كسروياً . [انظر مثلا ما ينقله فاروق عمر عن صاحب كتاب « النبذة » الذي يعتبر بأن الدولة العباسية « دولة مباركة ردت الامور الى قرارها واسندت القضايا والاحكام الى خيارها » ، وقارنه برأي ابن الطقطقي صاحب « الفخري » الذي يعتبرها « دولة خداع ودهاء وغدر » ، أو ابن عذاري وابن حزم اللذين ينعيان سقوط دولة بني أمية العربية ودواوينها وغلبة عجم خراسان . انظر ، المصدر السابق ، ص ٢٧٨ — ٢٧٩] . واذا اضفنا الى ذلك ان الوعي العربي كان قد دخل دور التعبير عن ذاته قبل ذلك بكثير ، اي منذ عهد الراشدين والامويين ، وان حركة الردة التي استطاع ابو بكر الصديق ان يقمعها بحزمه واخلاصه وايمانه الذي لا يتزعزع بوجوب استمرار الدولة العربية المسلمة الموحدة الاولى التي أقام الرسول صلوات الله عليه دعائمها في المدينة ، وان هذه الحركة انتهت بتوحيد جميع عرب الجزيرة ورص صفوفهم في ظل راية واحدة استطاعت أن تعلو خفاقة فوق امبراطورية مترامية الاطراف ، عربية اللسان والرسالة والعطاء الحضاري .

وبهذا يمكننا أن نعتبر أن حركة الفتح كانت التعبير الحي عن الطاقات الهائلة التي ولدتها الوحدة العربية الاولى واجتماع كلمة العرب تحت قيادة موحدة ، استطاعت ان تنشر السيادة العربية وأن توسع رقعة الارض العربية ، لاسيما بعد أن أكمل الامويون هذه المهمة القومية بفرض عملية التعريب على مختلف أصقاع الدولة ومؤسساتها الادارية والحضارية المختلفة ، وجاءت الان الدولة العباسية لتوقف هذا المد العربي ولتلغي التمييز بين العرب وغير العرب في دولة أممية تزداد فيها أهمية العنصر العباسي وتتمازج فيها الدماء العربية بدماء غير عربية ، ولا يستثنى من ذلك الخلفاء العباسيون انفسهم الذين غدت غالبيتهم من أبناء « أمهات ولد » .

وقد تعارف المؤرخون على اعتبار دولة الامويين دولة عربية ، ووصف عصرهم بأنه العصر العربي الامثل ، وهذا الجاحظ يقول : « دولة بني العباس اعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان اموية عربية » . ويثني المسعودي على قول الجاحظ هذا فيعتبر أنه « باستخدام العباسيين للموالي سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها » . [انظر ، الجاحظ ، البيان والتبيين

ج ٣ ، ص ٣٦٦ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ط . باريس ١٨٧٣ ، ج ٧ ص ٢٩١ – ٢٩٢] . ولكننا نرى أن تبلور الوعي العربي وتعاظم اهتمام أصحابه به كان بعد العصر الاموي حين تعرض العرب لازمات كان أولها تضاؤل دورهم في الحياة السياسية للدولة وتدهور سلطانهم واستيلاء أفراد وشعوب غير عربية على مقاليد الامور وتربع مكان الصدارة في السياسة والمجتمع . ووضح كيد هذه الشعوب الغريبة في الحركات الانفصالية والثورات المسلحة التي قاموا بها ضد الدولة العربية في ظل الاسرة الحاكمة الجديدة ، وفي الحركتين الفكريتين الهدامتين : الشعوبية والزندقة . ورغم أنه لايدخل في نطاق هذا البحث الحديث عن هذه الثورات والحركات الفكرية ، الا أنه لا بد لنا ان نذكر انه كان لها دور كبير في بلورة فكرة عربية وشخصية عربية تعي ذاتها وتشعر بحدة الهجمة المقصودة التي تتعرض لها بهدف ابادتها والاجهاز على كل منجزاتها . وبنت هذا الذي نزعم بصورة اكمل اذا ما تذكرنا التلازم والصلة الوثيقة بين الحركة الشعوبية والزندقة من جهة ، وبين هاتين الحركتين والثورات العرقية المسلحة والحركات الانفصالية التي ظهرت في الاقاليم الاعجمية من جهة أخرى فالشعوبية التي هدفت الى ضرب الكيان العربي والانتقاص من كل ما كان للعرب من مزايا ومفاخر بما في ذلك انتماء الرسول (ص) الى الجنس العربي ، والزندقة التي رمت من زاوية أخرى الى تهديم القاعدة التي يستند اليها السلطان العربي وهي الاسلام ، للترادف الوثيق بين العروبة والاسلام في نظر الشعوب المختلفة التي دخلت في ظل الحكم العربي واعتنقت الاسلام ، كانتا السهم المسموم الذي وجه الى الصدر العربي منذ بدايات الحكم العباسي ، وما لبثت أن بدأت حركات مريبة كالراوندية والخرمية وحركة المقنع الخراساني وسواها تطل برأسها لتعمل في الجسد العربي نخراً وتخريباً . ورغم وعي السلطة العباسية لخطورة هذه الادواء ، ومحاولتها خنقها في مهدها ، الا أنها لكثرتها ولعظم ما احتاجته من جهد ومال ورجال ، خلفت آثاراً عميقة كان أقلها انفصال أقاليم عديدة عن الدولة العربية بتدبير فئات غير عربية تحكم اسمياً باسم الخليفة العباسي ولا تعطيه من مظاهر السلطان الا الخطبة والسكة والطراز ، وكثيراً ما كانت تحجبها عنه ، وقد وضح هذا الصراع اكثر ما وضح في العراق ، قلب الدولة العباسية ، والذي كان منذ القديم ساحة صراع سياسي وثقافي واجتماعي بين السامية والآرية ، وغدا الآن مسرحاً لصراع مماثل بين العروبة والعجمة ، لبروز العرب كقوة بديلة على مسرح السياسة الدولية .

وليس من شك في أن الثورة العباسية بما عبأت من قوى عرقية وبما استقطبت من نقمات كامنة ، وما أفسحته لها من مجالات للعمل ، كانت المسؤولة

مسؤولية غير مباشرة عن هذا الخلل في ميزان القوى والذي مال لصالح العناصر غير العربية . على أن هذا لا يعني أن المسؤولية بكاملها تقع على كاهل هذه الثورة ، لأن انفلات هذه القوى العرقية الناقمة من أسر أغلالها السابقة ، وبما كان يعتمل في قلبها من أحقاد ، كان أقوى من أن تقدر السلطة العباسية على ضبطه واعادته الى خضوعه القديم . وقد يكون من الجائز أن نضيف أن السلطة العباسية لم تقدر في هذه المرحلة المبكرة من تسنمها المسؤولية السياسية الأخطار التي ستترتب على الاستعانة بهذه القوى . وهكذا فقد كان هذا الصراع العرقي أقوى وأعمق أثراً من مجرد ظاهرة تبدل أسرة حاكمة بأسرة حاكمة سواها . انه بركان حبيس أتيح له أن يتفجر في لحظة ضعف فطغى ودمر ، ولم يكن من السهل الوقوف في وجهه .

ولسنا نريد أن ننهي هذه المقدمة لبحثنا دون أن نشير الى أن هذا الصراع المرير بين العرب وغير العرب لم يكن شراً كله ، اذ أنه ساعد على بلورة فكرة « أمة عربية » متميزة عن بقية شعوب الدولة الاسلامية ، وعمق وعيها لذاتها وخصوصيتها ، وسار بها شوطاً طويلاً تلازم فيه الوعي القومي بالاطار العقائدي للانسان العربي . وقد استمر هذا الصراع في تعميق الوعي القومي على مر العصور ، وانتقل الوعي العربي من صعيد طبقة محدودة الى صعيد شعبي ضم قطاعات واسعة ترص صفوفها على الدوام وتوجه جهدها في سبيل التحرر والانعتاق .

وكان أول مظاهر هذا الوعي التأكيد على اللغة العربية ، واحلالها محل الصدارة في المجتمع والدولة والفكر ، ورغم كل الاعاصير التي ضربت العرب كعنصر قائد في الدولة الاسلامية فقد استطاعت العربية أن تصمد وأن تحفظ وجهاً عربياً للدولة ، رغم عجمة العديد من القائمين عليها . وطبيعي ، في دراسة كهذه ، الا نسرف في شرح أبعاد وآثار هذه الظاهرة ، ولكن لا بد من التنويه بأن كل من حمل راية معارضة العروبة ، نطق بلسان عربي واختبأ وراء ستار مزور مما تنزل في القرآن العربي . وفي هذا ما يكفي .

وقد يكون مهماً في هذه المرحلة من بحثنا ان نتساءل عن الاسباب التي تكمن وراء هذا التحول الذي طرأ على حال العرب في ظل دولة بني العباس التي بدأت حياتها وهي تلوح عالياً بهويتها العربية ، معتزة بها ، وبالدم العربي الذي أوصلها الى سحق حكم بني أمية والتربع على كرسي السلطان بما قدمه لها يمانية خراسان وربيعتها ومضريتها من قوة ضاربة قاتلت تحت الراية

السوداء ، وما أخذ يشعر به هؤلاء العرب بعد أمد غير طويل من قيام الدولة من غربة في دولتهم وجأرهم بالشكوى مما آلت اليه حالهم ؟! وفي هذا التساؤل الذي نطرح يكمن التناقض بين أنصار الرأي القديم الذي يقول بعجمة الثورة ، وأنصار الرأي الجديد الذي يقول بعروبتها . ويستطيع أصحاب الرأي القائل بعجمة الثورة أن يستغلوا الأخبار التي نجدها في مصادرنا حول تذمر العرب وثوراتهم منذ الدور العباسي الأول كدليل على صحة نظريتهم ، وفساد رأي القائلين بأن العرب عموماً ، وعرب المشرق خصوصاً ، هم الذين أوصلوا الثورة الى نهايتها السعيدة ، ومن أجل الفصل في هذا الموضوع لابد لنا من أن نتذكر الامور التالية :

أولاً :

ان القول بعروبة الثورة لا ينفي الدور الكبير الذي لعبته بقية العناصر غير العربية للوصول بها الى النصر وتسلم مقاليد السلطة . ويكفي أن نستعرض القوائم التي يقدمها لنا صاحب أخبار الدولة العباسية [مؤلف مجهول ، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي ، ط . بيروت ١٩٧١ ، ص ٢١٦ وما بعدها] بأسماء النقباء ونظراء النقباء والدعاة حتى يتبين لنا أن القائمين على الثورة كانوا عرباً وغير عرب ، وأن الذي كان يربط بينهم هو العمل المشترك لاسقاط بني امية وايصال بني العباس الى الحكم ، وأن الرابطة العرقية لم يكن لها دور في تسميتهم ، وانه كان لهم في ذلك مصلحة مشتركة .

ثانياً :

كانت خراسان معقل الثورة ومستقر رجالاتها ، ويحار المرء في سبب هذا الاختيار . ويبدو أن هذه الحيرة قد وقرت في نفس بعض كبار رجالات الدعوة الأول من أمثال سالم بن بجير (سالم الأعمى) الذي دار بينه وبين محمد بن علي الحوار التالي :

« ولما اجمع محمد بن علي على توجيه أبي عكرمة الى خراسان قال له سالم : ليس لنا أن نستبد بأمر دونك ولا نسبقك ونحن نأتم بك ، وقد أحببت أن استأذنك في شيء قد كنا رأيناه فخالفنا فيه بكير اذ نحن بالكوفة ، قال : فهاته وما أحب ان تخالفوا بكيراً فانه يحب آل محمد ، وهو ذو رأي . قال : كنا نظرنا في أمرنا هذا فرأيناك قد حلت بين أهل الشام ، ورأينا لأهل الشام دولة وجماعة ونجدة فيهم ظاهرة ، فرأينا ان نبث دعوتك فيهم ، وندعو منهم من طمعنا في

اجابته ، فكره ذلك بكير وخالفنا فيه . قال محمد : أصاب بكير ، واخطأتم أبى الله أن يأتي بالشمس من المغرب ، وأحب أن يأتي بها من المشرق ، وان أهل الشام أعوان الظالمين ، وآفة هذا الدين ، وشيعة الملاعين ، وقد ابتعثوا بنصرة بني أمية ، وأغرى أكثر اهل العراق بمشايعة بني ابي طالب ، وقد خصنا الله بأهل خراسان ، فهم أنصارنا وأعواننا وذخائرنا ، وقد حلت عليهم من الله رحمة قد غشيتهم ، ويوشك أن تتبعهم ريح الحياة **فتعز ذليلهم ، وتقوي ضعيفهم ،** وتقتل من قاتلهم ، حتى يعز دين الله ويظهر الحق وأهله ، يقول الله عزوجل : (أنزل من السماء ماء فسالتْ أودية بقَدَرِها)، فكأنكم بالاودية قد سالت برجال خراسان أشد في طاعتنا من زبر الحديد ، **أسماؤهم الكنى ، وأنسابهم القرى ،** يقدمهم النصر ويحوطهم العز ، فاله عن غير اهل خراسان ، فانه ليس لكم بغيرها دعوة ولا من غير أهلها مجيب » . [المصدر السابق ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦] .

ويتضح من هذا الحوار أن سالم بن بجير الذي كان من كبار رجالات محمد ابن علي وموضع ثقته ، استغرب موقف بكير بن ماهان من أهل دمشق ومحاولته ابعادهم عن الدعوة ، على الرغم من أن بكيراً كان من موالي بني مسلية ، وكان يسكن بالاردن من الشام ، وكان من أهل الديوان قبل أن يغزو مع يزيد بن المهلب خراسان ويدخل معه جرجان حين فتحت . [انظر اخبار الدولة العباسية ، ص ١٩١] . ومع أن سالماً لا يطلب من محمد بن علي أن يثق بجميع أهل الشام وأن يطلعهم على أسرار الدعوة ، وأن يقتصر في ذلك على الثقاة منهم الذين يطمع في اجابتهم ، ولكن محمداً يرفض وينعت أهل الشام بنعوت قاسية ، ويؤكد أن الله قد خصهم (أي بني العباس) بأهل خراسان ، وأن رحمة الله **ستعز ذليلهم وتقوي ضعيفهم ،** وكأن في ذلك اشارة الى فئة خاصة من اهل خراسان هي فئة الاذلاء والضعفاء التي كانت عصب الجماعة المؤيدة للحركة العباسية . كما أنه لايمكن أن يفهم من وصف محمد بن علي للرجال الخراسانيين المؤيدين لبني العباس بأن « أسماءهم الكنى » بأنهم كانوا من العرب فقط، لأن زعماء الدعوة من العباسيين كانوا يكنون الموالي من رجالاتهم . وهذا بكير بن ماهان الذي كان يكنى بـ « أبي هاشم » ، وخالد بن عثمان مولى خزاعة الذي كان يكنى بأبي اسحق . وأبو مسلم الخراساني ، وسواهم كثير . أما قوله بأن « أنسابهم القرى » فدليل واضح على تخليهم عن النسب بالعصبية ، واستعاضتهم عن ذلك بالولاء للجماعة المدنية المتمثلة بالقرية التي يقطنونها . وعندنا أن هذا التخلي عن العصبية القبلية وتحويل الولاء الى الحركة السياسية الجديدة كان نتيجة قهر اجتماعي واقتصادي كبيرين ، عاشه في تلك المنطقة عرب وغير عرب ، جعلا الشعور العصبي يتضاءل أمام الامال المعقودة على نجاح الثورة والوصول الى الفردوس الارضي

المنشود . كما أنه دليل على انصهار عرب خراسان المؤيدين لدعوة بني العباس بسواهم من سكان هذا الاقليم من أخلاط الامم الذين كانوا يؤيدون هذه الدعوة ، الامر الذي أدى الى انتساب الناس الى القرى التي يسكنون لا الى الدماء التي تجري من عروقهم .

ثالثـا :

ويقودنا ما قلناه في الفقرة السابقة الى الاعتراف بأنه لا يمكن لباحث في موضوع نجاح ثورة بني العباس وسقوط حكم بني أميـة أن ينكر أثر العوامل الاجتماعية والاقتصادية في نجاح هؤلاء وسقوط أولئك . كما أنه لا بد أن نلاحظ أن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية لم تكن حال فئة الموالي فحسب في الايام الاخيرة لحكم بني أمية ، بل كانت كذلك حال الكثيرين غيرهم مـن العرب أيضاً . واذا ما استبعدنا بعض الفئات الارستقراطية العربيـة القديمة أو تلك التي نشأت وترعرعت زمن الحكم الاموي ، وفئة الدهاقين من رجال الاقطاع الفارسي القديم والتي استمر نفوذها في ظل بني أميـة ، لوجدنا أن النقمـة الاقتصادية والاجتماعية التي سادت بين الكثيرين آنذاك والتي ضمت العديد من رعايا الدولة عرباً وغير عرب كانت من أهم عوامل نجاح هذه الثورة التي علق عليها الناقمون آمالا عراضاً في عدالة لم يحصلوا عليها في ظل البيت الاموي . وحين فشل الحكم الجديد في تحقيق هذه العدالة ، ولا سيما لهذه الفئة المحرومة من العرب التي كانت عصب الثورة ، رفعت رايات العصيان مجدداً ، لا سيما وأن عوامل جديدة أخرى ، سنشير اليها في حينها ، جعلت الشكوى تتعاظم ، فعاد الذين ثاروا بالامس لرفع الظلم ، ليثوروا مجدداً للغرض نفسه . [من أجل تفاصيل أوفى حول هذا الموضوع ، انظر كتابنا ، خلافة بني أمية ، ط . دمشق ١٩٧٢ ، ص ٣٧٣ ـ ٣٨٦] . فقد تبين لهؤلاء أن ما كان يدعيه العباسيون من أنهم ثاروا « لاظهار العدل ، وانكار الجور ودفع الظلم عن الضعفاء وأخذ الحق من الأقوياء » ما هو الا ضلال لا يماثله الا ما كان يفعله أبو مسلم الخراساني حين كان يحرر الاسرى مـن الجيش الاموي ويعاملهم معاملة حسنة ويعيدهم الى معسكر نصر بن سيار ليحدثوا اخوانهم بما لقوا على يدي أبي مسلم وجماعته . [أخبار العباس وولده ، ص ٢٩٢] .

على أن هذا الانحراف الذي حدث في دولة بني العباس لم يكن دونما مبرر ، ويستطيع الباحث في أحوال الدولة في طور نشوئها واستقرار أمرها أن يستخرج العوامل التي حرفت الدولة عن مسار الثورة التي أوصلتها للحكم ، وأوجدت الوحشة بينها وبين بعض رعاياها من العرب الذين كانوا عضداً قوياً أمدها بالدماء

والمهج حتى حققت النصر على خصومها الامويين . فلا بد اولا من ان نذكر أن القضية الاقتصادية والاجتماعية لسكان خراسان كانت ماثلة في ذهن الرواد الاوائل للحركة العباسية . وليس أدل على هذا من قول محمد بن علي في وصف أهل خراسان الذين اعتمدهم عصب ثورته : « ومـا يزالون يدالون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون » [أخبار العباس وولده ، ص٢٠٧] فهؤلاء الذين كانوا على هذا الحـال والذين انضموا للثورة بامل الخلاص ، لم يتحقق لهم الحلم الموعود . اذ ما كادت الدولة تستوي على أقدامها ، حتى وضح لهم أنها ليست الفردوس الذي حلموا به وظنوا أنهم سيتظللون أفياءه اذا ما كتب النصر لبني العباس. ومعروف أن التركيبالاجتماعي للدولة الاسلامية في عهدها الجديد ، وبعد أن ارتفع نير السيطرة العربية عن رقاب رعاياها ، غدا تركيباً لاتجانس فيه تتقسمه المطامع الفئوية والعرقية لتعمل يـد التخريب في جسد الدولة ووحدتها السياسية والاجتماعية ، هذه الوحدة التي كانت مظهراً واضحاً من مظاهر الحكم زمن بني أمية ، ولا سيما خلال فترات القوة أيام معاوية وعبد الملك وهشام وسواهم . وقد أدت هذه الظاهرة الجديدة الى توزع أهواء رعايا الدولة من غير العرب ، وانعدام التجانس بينهم ، واستعدادهم للاستجابة لكل صرخة أو حركة اعتقدوا ان فيها تنفيساً عن كربهم أو أمـلا بنجاتهم . وقد وصل الأمر ببعضهم الى الارتداد الى الماضي المجوسي ، ومحاولة احيـاء ماكان الاسلام قد اقتلعه من جذوره من ارث ماضيهم وموروث كفرهم . ولسنا نرى في هذه الردة موقفاًدينياً أو قومياً فحسب ، كما يحلو للبعض أن يفسره . ولكننا نرى فيه أيضاً تعبيراً عن نقمة اجتماعية واقتصادية كانت تعتلج بقوة وشراهة فينفوسهؤلاء المرتدين،لاسيما وانالسلطة العباسية لم تكن وفية لمبادىء المساواة والعدالة التي أطلقتها حين كانت تخطب ود المحرومين وتعد بعدالة لم تتحقق على يد الأمويين . وخير مثال على هذا الذي ندعيه ، تفحص واع لبعض أخبار الثورات التي قامت على السلطة العباسية منذ أيامها الأولى ، ومنها ثورة السودان في المدينة زمن أبي جعفر المنصور ، والتي تقدم مثلا واضحـا على ما أصاب المحرومين من خيبة أمل في الحكم الجديد جعلهم يحملون السلاح في وجهه . والقضية كما يلخصها لنا الطبري [ج ٧ ، ص ٦٠٩ وما بعدها] أن جند عبد الله بن الربيع الذي ولي المدينة لأبي جعفر المنصور سنة خمس واربعين ومائة أساؤوا معاملة بعض السود الذين كانوا يسكنون المدينة من أصحاب الحرف والصناعات واعتدوا عليهم اعتداءات فردية أدت الى ردود فعل فردية أيضاً أول الامر . ولما تمادى الجند العباسي في غيهم ، ولم تلق شكاوى السود

من الوالي أذناً صاغية « نفخ السودان في بوق لهم » ، أي أعطى رئيسهم اشارة البدء ، فتوجهوا اليه من جميع أنحاء المدينة ، وقاتلوا الوالي في عدة مواضع منها ، وهزموه وهزموا جنده ، وانتهبوا كل ما كان في المدينة من مؤن وعتاد مخصص للجيش ، حتى لقبهم أهل المدينة بـ « السحرة والشياطين » لشدة بأسهم . وفي ثنايا الخبر الذي يورده الطبري نجد اشارات عديدة الى أعمال كان يرتكبها ممثلو السلطة العباسية ضد الفئات المستضعفة في المدينة ، كدخولهم المتاجر وأخذ الاشياء دون دفع ثمنها ، او سرقة أموال الناس ، أو قتل بعض المساكين الذين كانوا يستجدون الناس قرب باب المسجد وما شابه ذلك . [انظر ، الطبري ، ج ٧ ، ص ١٦٠] . ونجد في الحل الذي اقترحه وثيق ، زعيم السود ، للازمة التي عصفت بمدينة رسول الله بعد هذه الثورة ، صورة لنوعية الحكم الذي كانت تصبو اليه عامة الناس ولم يتحقق لهم . فقد قال وثيق لمحمد بن عمران ، وهو من وجوه أهل المدينة أنذاك ، حين جاءه يسأله عما يريد بعد أن تم الأمر له وهزم الوالي العباسي وأصبح ورجاله أصحاب الامر في المدينة : « فدخل عليه ابن عمران ، قال : الى من تعهد يا وثيق ؟! قال : الى أربعة من بني هاشم ، وأربعة من قريش ، وأربعة من الانصار ، وأربعة مـن الموالي ، ثم الامر شورى بينهم . » . [المصدر السابق ، ص ٦١٢] . وفي هذا الرد ما يوضح خيبة الامل التي أصيبت بها العناصر المستضعفة من الحكم الجديد ، وعدم رغبتها في أن يكون الامر لها ، كما أن فيـه ما يؤكـد بأنها تقر لاهل الفضل بفضلهم ، ولا تحيد عن مبدأ الشورى الذي طرحه الاسلام أساساً للحكم .

واذا حاولنا تتبع جميع الحركات التي قامت في العصر العباسي الاول واعتبرت في عرف العديد من المؤرخين بأنها حركات عرقية معادية للعرب ، ودرسنا تفاصيل أحداثها لوجدنا فيها ، الى جانب العوامل العرقية والقومية ، روائح نقمة اقتصادية واجتماعية عملت على جذب أعداد كبيرة اليها . وقد جرت عادة المؤرخين الذين يجنحون الى التفسير العنصري ان يجعلوا نقطة البـدء في هذا النوع من التحركات مقتل أبي مسلم الخراساني ، ويتحدثون عن حركة سنباذ ، الذي خرج بخراسان بعد مقتل أبي مسلم سنة ١٣٧ هـ مباشرة للطلب بدمه . ان حركة سنباذ الذي تزعم المصادر أنه كان مجوسياً ومن أتباع أبي مسلم والتي انتشرت في نيسابور وقومس والري، تطرح العديد من القضايا والتساؤلات التي لانجد في مصادرنا اجابات عليها ، ومن ذلك مثلاً :

١ ـ النص في المصادر على مجوسية سنباذ ، وتبعيته في نفس الوقت لأبي مسلم [يقول الطبري ، ج ٧ ، ص ٤٩٥ : « وذلك أنه كان من صنائعه . »]؛ وابو مسلم داعية آل البيت ورافع رايتهم ؟!

٢ ـ سرعة استجابة الناس له وتكاثرهم حوله وسيطرته على رقعة واسعة من الارض رغم أن الفترة بين مخرجه ومقتله لاتزيد على السبعين يوما فقط حتى بلغ من قتل من رجاله نحواً من ستين ألفا .

٣ ـ كانت خزائن وأموال أبي مسلم المحور الرئيسي في الحركة . فقد كان الهم الاول لسنباذ الاستيلاء عليها ، ولما قتل على يد القائد العربي جَهْوَر بن مرّار العِجْلي الذي أرسله المنصور لاخماد الحركة ، كان هم هذا القائد كنوز أبي مسلم أيضاً ، اذ استولى عليها لنفسه وامتنع عن ارسالها الى الخليفة وانضم اليه في عصيانه « نُخَب فرسان العجم » [المصدر السابق ، ص ٤٩٧] . وهكذا استوى العرب والعجم في حرصهم على نهب المال وفي الثورة على السلطة العباسية .

٤ ـ أخذ سنباذ معه حين خرج عدة من النساء المسلمات الحرائر كان قد سباهن وأركبهن الجمال ، ووضعهن أمام عسكره حين هاجمه الجيش العباسي. [أنظر ، ابن الطقطقي ـ الفخري في الاداب السلطانية ، ط . مكتبة محمد علي صبيح ، ص ١٣٨] . ولست أجد تفسيرا لهذه الفعلة سوى أنه اراد ان يبالغ في اهانة الحرائر المسلمات انتقاما للاماء من بنات جنسه اللواتي كن يسبين من قبل العرب ، وفي هذا رفض اجتماعي وعرقي للسيادة العربية .

وتتوضح هذه الصورة بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية تارة . والعرقية تارة أخرى عند استعراضنا للحركات المماثلة التي حدثت في هذا الدور . فالراوندية الذين خرجوا زمن أبي جعفر المنصور ، كانوا من أهل خراسان ، وعلى رأي أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم . ولكنهم وبعد مقتل أبي مسلم جهروا بقولهم بتناسخ الارواح ، وزعموا أن روح آدم حلت في عثمان بن نَهِيك . (وهو أحد القادة الذين كان يعتمدهم أبو مسلم اثناء عمله في خراسان لانجاح الدعوة ، وكان رئيس حرس المنصور، وهونفسه الذيأوكل اليه المنصور بعدذلك قتل أبي مسلم . وشارك بسيفه مع اربعة آخرين من رجال الحرس في قتل أبي مسلم) ، وان ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو ابو جعفر المنصور (قاتل ابي مسلم) ، وأن الهيثم بن معاوية جبرائيل ، (الهيثم هذا هو أحد خلص المنصور، وكان واليه على مكة والطائف) . وقبل ان نستمر في سرد أحداث هذه الحركة نستطيع أن تلمس الشر الذي كانت تخفيه من الوقوف عند هذا الحد المعلن من مبادئها : فأبو جعفر المنصور ، قاتل أبي مسلم : هو ربهمالذي يطعمهم ويسقيهم وعثمان بن نهيك ، اداة تنفيذ القتل ، حلت فيه روح آدم ، والهيثم بن معاوية

ثقة أبي جعفر وواليه على مكة والطائف . هو جبريل . كل هذا ، والسبب الذي أعلنوه لخروجهم هو الثأر لمقتل أبي مسلم . وفي هذه الوقائع ما يكفي لان يكون المؤشر الواضح لما كان يكتنف هذه الحركة من ريبة وشك لايدافع عنهما .

واذا انتقلنا الى أحداث الحركة والذعر الذي أصاب أبا جعفر بعد قيامها وتوليه بنفسه ماشياً ، دونما دابة يركبها ، أمر ملاحقة أصحابها وقتلهم ، ثم استعانته بألد أعدائه ، معن بن زائدة الشيباني ، الذي كان مختفياً لما كان من قتاله المسودة مع ابن هبيرة ، وهو اليوم لا يجد من يلجأ اليه لقتال هذه الفئة المرتدة سواه ، ويعلل لجوءه اليه قائلا أن معن بن زائـدة **« رجل من العرب ،** شديد النفس ، عالم بالحرب ، كريم الحسب » . [الطبري ، ج ٧ ، ص ٥٠٧] .

وعثمان بن نهيك الذي « حلت فيه روح آدم » ، على حد زعم الراوندية ، كان أول ضحاياهم ، ولولا وقفة معن بن زائدة منافحاً عن أبي جعفر المنصور ، لما سلم من غدرهم ، وقد أكرم المنصور معناً أيما اكرام ، وأفسح له مكاناً الى جانبه على مائدة العشاء ، بعد اخماد الحركة ، وقال لجلسائه على تلك المائدة يصف معناً : « انه من أشد الرجال ، وانه من تلك الآساد » وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وولاه اليمن .

من هذا كله ، تتضح أمور عدة ، لعل أهمها :

١ ــ الخلاف في الهوية العرقية بين الراوندية ومن والاهم ، وابي جعفر المنصور ومن وقف يدافع عنه ، فقد كانت ثورة الراوندية ثورة عجم آلمهم وأمضهم مقتل رجلهم الاول أبي مسلم الخراساني ، وكان الذين وقفوا الى جانب أبي جعفر، سادة عرب، ذابت الخلافات السياسية بينهم (معن والمنصور مثلاً) وتوحدوا في جبهة عربية موحدة .

٢ ــ حاول القائمون على الحركة الانسلال الى أهم ركيزة من ركائز الدولة، وهو دينها ، وتزييف بعض الشعارات الاسلامية ، كالقول بتناسخ الارواح ، وربوبية أبي جعفر ، وتقمص جبريل في الهيثم بن معاوية وسواها . ويبدو أن المنصور لم يكن في أول الأمر على بينة من أهداف الحركة ومراميها ، حتى أنه حين ابلغه أحد خاصته بأنهم يقولون بأن المنصور هو رب العزة ، وهو الذي يطعمهم ويسقيهم ، أجاب الرجل قائلاً : « يا هذلي ، يدخلهم الله النار في طاعتنا ويقتلهم ، أحب الي من أن يدخلهم الجنة في معصيتنا » [الطبري ، ج ٧ ،

ص ٥٠٧] . على أن هذا الموقف من جانب أبي جعفر سرعان ما تبدل . ولا سيما حين أدرك أن ما يقولون بألسنتهم ما هو الا تزييف قبيح لما في نفوسهم من نقمة على الاسلام ، مصدر عزة العرب ومرتكز سيادتهم ، فحاولوا أن يأخذوا بظاهره لينسفوا جوهره ، ولكن اللعبة ما لبثت أن انكشفت لابي جعفر ، وكان ما كان من قتلهم وافنائهم .

على أن حركة الراوندية تظل رمزاً بما حملته من مظاهر ثلاثة توافرت فيما سبقها وما سيتلوها من حركات :

١ ـ هويتها الخراسانية .

٢ ـ حقدها الدفين على العرب .

٣ ـ حربها على الاسلام ومحاولة تشويه مبادئه وتزييفها من الداخل .

وهنا لا بد لنا ان نلاحظ ، أن خراسان لم تكن في هذه الفترة من تاريخها خالصة لبني العباس ، بل كان لشيعة علي بن أبي طالب فيها دعاة ورجال يكيدون لبني العباس ويحاولون استمالة الناس اليهم . [انظر،الطبري ج٧ ، ص٥١٩]. وقد زاد هذا الصراع العباسي الشيعي ضعف الموقف العربي فيها ، كما زاد من الفوضى العقائدية الاسلامية ، في بقعة لم يكن ولاؤها في الاساس خالصاً للاسلام .

واذا استعرضنا أهم الازمات التي كانت تواجهها الدولة في هذه المرحلة من تاريخها فيما كان يعرف باسم بلاد ما وراء النهر ، لوجدنا أنه لم يكن يمر يوم دونما انتفاضة في اقليم من الاقاليم أو مدينة من المدن ، أو دونما ثورة يحركها زعيم محلي ، وحتى القادة والولاة الذين كانت ترسلهم الدولة ليمثلوها في تلك الاصقاع ، كانوا ، وبعد مرور فترة قصيرة على تسلمهم السلطة ، يرفعون رايات العصيان وتغريهم الاطماع الشخصية على اعلان الانفصال عن جسد الدولة . وكان هم الدولة اليومي هو وضع حد لهذه الحركات والثورات والانتفاضات ، الامر الذي جعلها تنزف نزيفاً دائماً ، وما تكاد تسد خرقاً حتى تواجه بخرق أدهى وامر . اذا أضفنا الى كل ذلك ، أن الغالبية العظمى من سكان تلك الاصقاع لم يكونوا قد أسلموا بعد ، أو ان الكثير ممن اسلم منهم كان ايمانه اما ضعيفاً أو مشوهاً لاختلاطه بالعقائد المحلية القديمة ، لوجدنا أن الارض كانت مهيأة لهذا النوع من المشاكل التي شغلت الدولة على الدوام ، وقد زاد هذا الوضع حدة ، السيرة السيئة للعديد ممن وسدت اليهم القيادات والولايات في تلك

الاصقاع، كما ان أطماعهم بما تفيض به تلك البلاد من خيرات وتسخيرهم لطاقاتهم وسلطانهم لجني أكبر ما يمكن من كسب ، كانت كلها عوامل في جعل هذه المنطقة منطقة تفجر دائم ، ومخزن حقد لا ينضب على الذين كانت تدار الدولة باسمهم، الا وهم الخلفاء العباسيون .

ان أهم ما يلاحظه المتتبع لاحداث هذه الفترة من فترات تاريخنا ، هو هذا الفارق الكبير بين الاهداف التي أعلنتها ثورة بني العباس على أسلافهم من بني أمية ، وبين التطبيق العملي لهذه الاهداف في السياسة اليومية وفي الاطار العام لسياسة الدولة . ولنبدأ بقضية العداء بين بني العباس وبني هاشم ، وما كان من موقف أبي جعفر المنصور من محمد (النفس الزكية) وابراهيم ، ابني عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، مروراً بثورة الحسين بن علي بن الحسن ، وثورة ادريس بن عبد الله وأخيه يحي ونهاية موسى الكاظم على يد الرشيد ، حتى نصل الى مقتل محمد بن القاسم العلوي الذي كان يدعو الى الرضا من آل محمد والذي بدأ دعوته في الكوفة ثم انتقل الى الطالقان ، وكانت بينه وبين جيش المعتصم معارك دامت حتى سنة ٢٢٠هـ ، وانتهت بموته مسموماً على أغلب الظن ، وظل أتباعه في الكوفة وطبرستان والديلم وخراسان يقولون بأنه حي ولم يمت وانه المهدي الذي لن يلبث أن يخرج ليملأ الارض عدلاً بعد ما عمها الجور والفساد ، وظلت ذيول حركته قائمة حتى سنة ٣٣٤ هـ . هذه الحركات وما تمثله من طعنة في صميم ما أعلن من أهداف الدعوة العباسية (الدعوة الى الرضا من آل محمد) كانت دونما شك عامل هدم خطير في جسد الدولة من جهة ، وملجأ لكل ثائر على سياسة البيت العباسي من عرب ، وعجم على الخصوص ، من جهة أخرى . فاذا كانت الدعوة التي أعلنت باسم الرضا من آل محمد ، قد انتهت بخيانة هذا المبدأ الاول وملاحقة فئة كريمة من هؤلاء الآل تحظى بتأييد العديد ممن ساندوا الدعوة وبذلوا دماءهم في سبيلها ، فانه من الطبيعي ان يجد أعداؤها ممن يؤيد آل هاشم ، متنفساً في كل تحرك يقوم ضدها ، فيسرعوا الى مساندته ومده بالدعم المادي والمعنوي ، لا سيما وأن اجماع كتاب التاريخ والفرق ينعقد على أن أصل الحركة العباسية يرجع الى الكيسانية والهاشمية ، من اتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي وأبي هاشم الذي عهد الى ولد عبد الله بن عباس ، أولاد عمومته ، بالامر من بعده ، بعد حادث السم المزعوم ولجوئه الى الحميمة . وحتى نقطع الطريق على ما تفرق حوله الراي من أسباب عهد أبي هاشم الى محمد بن علي العباسي وجعله اياه اماماً

للحركة السرية الهاشمية ، فاننا نقول بأن في هذا العهد ما يؤكد صدق القائمين الاوائل على هذه الدعوة في تحركهم ضد بني أمية وشعورهم بوحدة آل البيت ، فان أبا هاشم صاحب الدعوة رغم انتسابه الى الفرع الهاشمي لم يجد حرجاً في أن يعهد بالامر حين شعر بدنو أجله الى ابناء عمومته من آل العباس ، وبشكل خاص الى محمد العباسي ، لانه أخذ العلم عن أبي هاشم نفسه . ورغم وجود أقرباء لابي هاشم من العلويين ، ولكن تفرق رأيهم وما كان بينهم من تنافس على زعامة الشيعة العلوية وخصومة على ولاية ارث علي وفاطمة ، كانت كلها أسباب جعلته لا يتحرج من اسناد الزعامة الهاشمية الى شخصية غير علوية . وهو محمد العباسي ، الذي حول المنظمة الهاشمية الى منظمة عباسية . وما لبث أعقابه ، ومن آل اليهم الامر من بعده من أفراد أسرته أن جعلوا همهم الاول القضاء على ابناء عمومتهم من آل علي ، أصحاب الدعوة الاول ، وشركاؤهم في النسبة الى آل البيت .

وسار العباسيون بعد أن غدوا أصحاب السلطان شوطاً أبعد في التنكر لشعارات ثورتهم ، اذ انهم وجدوا أن اعتمادهم في اثبات حقهم على وصية أبي هاشم يجعلهم يظهرون وكأن المبرر الوحيد لوجودهم هو ارتباطهم بآل علي وأن حقهم في ولاية أمور المسلمين مرتبط بقرابتهم لابناء علي فقط ، وهذا مالا يقيم لهم دولة ، ويجعل آل علي ، وهم أحياء يرزقون ، أحق بارثهم عن أبيهم . كما أن ارث الكيسانية يفضح ارتباطهم بحركات الغلو والتطرف والسرية ، وهم يودون كسب ود الفقهاء وعامة الناس ، ويودون بناء دولة لهم تقوم على أساس من حق عمومتهم لرسول الله من جهة - وثورتهم على « أهل الجور » أي الامويين ، وما يستتبع ذلك من عدالة ومنع للظلم وارساء لقواعد الشرعية والسنة النبوية ، من جهة أخرى . وهكذا غدا الاساس الديني لدعوى الحق العباسي في الحكم هو أن العباس عم الرسول (ص) وانه وريثه بعد أن انتقل الى جوار ربه . وسار العباسيون في عملية التحويل هذه بخطى وئيدة استمرت منذ عهد ابي هاشم الى محمد العباسي ، وحتى خلافة المنصور . ففي خطبة للسفاح يذكرها الطبري والدينوري والمسعودي وسواهم من المؤرخين يتحدث السفاح عما خص به الله آل عباس من صفات وألزمهم من واجبات فيقول . « وألزمنا (أي بني العباس) كلمة التقوى ، وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله (ص) وقرابته وانشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته » . [الطبري ، ج ٧ ، ص ٤٢٥] . كما يؤكد الحقيقة ذاتها داوود بن علي فيقول . وبنفس المناسبة : « الحمد لله ، شكراً شكراً ، الذي اهلك عدونا وأصار الينا

ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم » . [الطبري ، ج ٧ ، ص ٤٢٦] .
واستمر الموقف العباسي حيال هذا الامر فترة ليست بالطويلة ، كان الامر يطرح فيها تلميحاً حيناً ، وتصريحاً أحياناً أخرى حتى كانت خلافة المنصور الذي كشف كل قناع ، وأعلنها صريحة لا لبس فيها أن الامر لآل العباس وليس لسواهم من آل البيت ، اذ أنه في مراسلاته مع محمد النفس الزكية الذي كان أقوى المرشحين العلويين للخلافة في زمنه والذي أعلن الثورة عليه ، دخل في حوار طويل حول أحقية ارث النبي وقال في رسالة له الى النفس الزكية رداً على ادعاء هذا الاخير بأن الحق لآل علي وفاطمة : « وأما قولك انكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان الله تعالى يقول في كتابه (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم) ولكنكم بنو ابنته ، وانها لقرابة قريبة ، **ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية »** . ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الام والخال والخالة لا يرثون » . الى أن يقول له في نفس لرسالة : « ... ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره (أي غير العباس) ، فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الامر غير واحد من بني هاشم فلم ينله الا ولده ، فالسقاية سقايته وميراث النبي له ، والخلافة في ولده ، ولم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا اسلام في دنيا ولا آخرة الا والعباس وارثه ومورثه » . [الطبري ، ج ٧ ، ص ٥٧٠ — ٥٧١] . حتى أن بعضهم يذهب الى حد القول بأنه سمى نفسه « المنصور » بعد انتصاره على العلويين [انظر ، فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ١١٩] . كما شجع الشعراء على نظم أشعار تمجد حق آل عباس في خلافة رسول الله وامرة المؤمنين ، وروجت أحاديث نبوية لنفس الغاية . وهكذا فقد خاض العباسيون معركة سياسية وفكرية ضد العلويين خلال الدور العباسي الاول بكامله وسخروا لها رجالات الفكر والعقيدة وألفت كتب تتناول مواضيع تمس هذا الامر مساً مباشراً أو غير مباشر . ولا أريد أن اطيل حول هذا الموضوع ، ويكفي ان نعود بذاكرة القارىء الى خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد حين كانت سلطات دمشق تراقب بعين الشك والحذر تحركات علي بن عبد الله بن العباس الذي كان يمارس نشاطاً سياسياً سرياً جعل الوليد بن عبد الملك يضطر الى سجنه وضربه بالسياط ونفيه الى الشراة ، فاتخذ الحميمة مقراً له . اقول ، يكفي أن نعود بالذاكرة لهذه الاحداث ، وسواها كثير بعد ذلك ، لنقرر انه كان لآل العباس أطماع ومطامح سياسية ، و ن الفرصة لاحت بعد عهد ابي هاشم ووصيته لمحمد العباسي .

واذا تركنا هذا المظهر الأول من مظاهر مخالفة العباسيين للأهداف المعلنة لثورتهم من حيث علاقتهم بآل البيت من العلويين ، وانتقلنا الى أمر آخر من الأمور المعلنة في خطة الثورة العباسية وأهدافها ، وهو الاعتماد على العنصر العربي ، والذي يتجلى في قول أبي مسلم الخراساني : « أمرني الامام أن أنزل في أهل اليمن ، واتألف ربيعة ، ولا ادع نصيبي من صالحي مضر ، واحذر اكثرهم من أتباع بني أمية ، واجمع الي العجم » . [أخبار العباس وولده ، ص ٢٨٥] ، وقوله : « قد أمرنا الامام باختصاص اليمن » . [المصدر السابق ، نفس الصفحة] ، هذا فضلاً عن النقاش الطويل الذي دار بين باحثين متخصصين حول هوية الثورة العباسية ، والذي جنح فيه باحثون محدثون من أمثال فاروق عمر وعبد الحي شعبان وسواهما الى القول بأن جهد الدعاة العباسيين في خراسان كان موجهاً بصورة رئيسية للعرب : مقاتلتهم ومستقريهم . « فقد كان هناك دعاة عباسيون في قرى مرو حيث استقر العرب ، وفي كل مدينة فيها حامية عربية . لقد أدرك الدعاة بأن العرب وحدهم مصدر السلطة والقوة الضاربة الوحيدة في خراسان ، ومن أجل الوصول الى السلطة يجب أولاً كسبهم الى الدعوة العباسية » . [فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٩٨] . و « أن سند أبي مسلم الرئيسي جاء من العرب المستقرين في مرو وضواحيها ، الذين أدركوا بأن لا مفر من الثورة من أجل تغيير جذري لا في خراسان وحدها ، بل في كل الامبراطورية » . كما يقول عبد الحي شعبان . [انظر ، المصدر السابق ، ص ٩٦] . وكان جهد هؤلاء الباحثين منصباً على تغيير التفسير العنصري الذي قال به فان فلوتن وسواه ، وكان يرى في هذه الثورة ثورة عنصرية ايرانية ضد السيادة العربية في الدولة ، ومحاولة منهم لابراز دور عرب المشرق في هذه الثورة . وسأترك الجانب الاجتماعي والاقتصادي من نظريتهم الى فقرة لاحقة ، لانطلق من هذا المنظور القومي العربي للعناصر التي قامت بالثورة ، وأناقشه في ضوء الاحداث السياسية التي طبعت هذا الدور العباسي الأول بطابعها .

ان الباحث المدقق في الاحداث السياسية لهذا الدور يلاحظ قيام العديد من الثورات ذات الهوية العربية بقادتها ورجالاتها ومضمونها . وكأن الذين قاموا بهذه الثورات ، على كثرتها وخطورتها في فترة زمنية قصيرة ، كانوا يرون في حكم بني العباس حكماً لم يف بوعوده للعنصر العربي الذي كان عماد ثورتهم ، ففي الفترة الاولى من حكم هذه الأسرة ، كان طبيعياً أن تثور الشام رغم القهر والقمع الشديدين اللذين تعرضت لهما ، ولكن الأمر تجاوز ذلك بعد فترة قصيرة

ليغدو شعوراً عاماً ينتظم جميع القبائل القيسية التي شعرت أن الحكم العباسي يحابي اليمانية على حساب القيسية ولا يقيم للتوازن القبلي حساباً . ثم ما لبث الأمر أن غدا على خلاف ذلك ، فانحسرت الثورات القيسية لتحل محلها ثورات يمانية ، على الرغم مما بين اليمانية والثورة العباسية من حلف اكدته جميع مصادرنا . ورغم انه لا يدخل في نطاق هذه الدراسة التي تأخذ بالتعميم لا بالجزئيات ذكر تفاصيل هذه الثورات ، فلا أقل من ان نذكر أن اهمال شأن العرب في الدولة غدا من السمات المميزة للعمل السياسي الى الحد الذي دعا قيساً ويمناً الى الثورة على السلطة العباسية في كل مرة تسنح فيها الفرصة وتتعاظم الشكوى . فكانت ثورة نصر بن شبث العقيلي عام ١٩٨ هـ والتي بررها بقوله انه لا يكره بني العباس وانه لا يقاتلهم الا لأنهم انحرفوا عن العرب واعتمدوا على الأعاجم . وكذلك الحال بالنسبة للثورة التي قامت في حوران والبثنية زمن عبد الله بن علي وثورة أبي الورد والسفياني في حمص وتدمر وحلب وشمال الشام ، وثورة الجزيرة برئاسة اسحق بن مسلم العقيلي ، وثورات دمشق التي استمرت حتى خلافة المتوكل عام ٢٤٠ هـ ، وثورات لبنان وحمص التي لعب فيها البيزنطيون دوراً محرضاً ودامت حتى خلافة المتوكل ، وثورات فلسطين والأردن التي توجتها حركة المبرقع اليماني عام ٢٢٦ هـ التي انضم اليه فيها ما يزيد على المئة الف رجل ، واستمرت حتى خلافة المعتصم .

ان استقراء أسباب وأحداث هذه الثورات يوضح انها بدأت منذ الأيام الأولى لانتقال السلطة لبني العباس ، وأن اسبابها المباشرة كانت مخالفة السلطة العباسية الجديدة لما أعلنته من مبادىء . ويتجلى هذا الذي ندعيه فيما نقرأه في كتاب العيون والحدائق عن ثورة شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم الخراساني سنة ١٣٣ هـ . يقول صاحب العيون والحدائق : « وفيها (أي في العام ١٣٣ هـ) خرج شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم ببخارى ، وقال : ما على هذا بايعنا آل محمد ، على أن تسفك الدماء ، ويعمل بغير الحق ، وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين الفاً ... وخرج جماعة على أبي مسلم فقتلهم بعد حروب كثيرة » . [العيون والحدائق ، ج ٣ ، ط . المثنى ، بغداد ، ص ٢١١]. وقد اهمل بعض الباحثين المحدثين امر هذه الثورات العربية في الدور العباسي الأول وظنوا انها لم تقم الا في بلاد الشام ، وانها كانت تعبيراً عن نقمة « أهل الشام على العباسيين بسبب حرمانهم من المكاسب التي كانت لهم في عهد الخلافة الأموية » و « لابتعاد مركز الخلافة عن دمشق » . [انظر ، أمينة بيطار ، دراسات في تاريخ العصر العباسي ، ط . دمشق ١٩٨٠/١٩٨١ ، ص ٧١ ــ ٧٢] . ولكن

تتبع الاحداث واستقصاء ما في مصادرنا من أخبار يظهر أن هذه الثورات كانت لا تقتصر على الشام فحسب ، بل تقوم في أغلب أصقاع الدولة الاسلامية . فهذه ثورة الأمير أحمد بن محمد العمري المعروف بالأحمر العين ببلاد اليمن [انظر ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، وانظر أيضاً الطبري والبلاذري] ، وهذه ثورات واضطرابات الحجاز واليمامة التي قام بها بنو سليم من قيس عيلان وبنو هلال وبنو مرة وفزارة وغطفان ، وسواهم من القبائل العربيــة التي شغلت الخلافة العباسية ردحاً طويلاً من الزمن خلال حكم الواثق وبعد أقل من قرن على تسلم بني العباس السلطة [انظر أحداث خلافة الواثق في الطبري وابــن الأثير وسواهما] ، وكانت كلها تعبيراً عن النقمة العربية على التوجه الفارسي للدولة وانحسار سلطان العرب عنها . وهذا هو نصر بن شبث سيد بني عقيل ورافع راية العروبة مع الأمين يقولها مجلجة لرسول المأمون اليه حين جاءه يطلب اليه أن يقلع عن ثورته بعد مقتل الأمين ويضع السلاح الذي شهره في وجه الدولة لما رآه من تنكرها للعنصر العربي وميلها الى الفرس : « فصاح (أي نصر) بالخيل صيحة فجالت ، ثم قال : ويلي عليــه ! (أي على المأمون) ، هو لم يقــو على اربعمائة ضفدع تحت جناحــه ــ يعني الزط ــ يقوى على حلبــة العرب » . [الطبري ، ج ٨ ، ص ٥٩٩] .

ولم تكن مصر أقل تحسساً لهذه الوحشة التي قامت بين خلفاء الدور العباسي الأول وأصولهم العربية ، فقامت فيها ثورات عربية كان أكبرها واكثرها خطراً ثورة عبيد الله بن السري بن الحكم زمن المأمون ، مما اضطر هذا الخليفة لأن يعهد بقمعها لأمهر قواده عبد الله بن طاهر ، وكافأه على نجاحه في القضاء عليها بتوليته مصر . [انظر أخبار هذه الثورة في ، الطبري ، ج ٨ ، ص ٦٠٩ وما بعدها] . وهكذا فان العنصر العربي الذي كان عماد الثورة العباسية على ما تذكر المصادر الأولية والدراسات الحديثة ، وجد نفسه يتراجع الى المحل الثاني في الدولة ، الأمر الذي دعاه الى اشهار السيف في أكثر من مناسبة محاولاً رد الأمور الى نصابها ، واحتلال المكانة لتي لم تعط له منذ اليوم الأول لوصول العباسيين للسلطة . ولن يطول الأمر بالعنصر العربي حتى يبعد نهائياً عن المسرح السياسي وتدال دولته ما قام للعباسيين أمر ، وسيحل محله كما هو معروف، ومنذ خلافة المعتصم ، العنصر التركي ، ثم سواهم من شعوب غير عربية كالديلم والسلاجقة وسواهم .

وعندي أن هذا الذي آل اليه حال العرب في دولة بني العباس كانت له بوادره وما يدل عليه منذ الأيام الاولى للثورة ، وقبل أن تحقق نصرها على بني

أمية . فرغم انضمام بعض عرب المشرق اليها واندفاعهم في نصرتها ، فقد شعروا ، ومنذ ولاية نصر بن سيار على خراسان ، وقيام أبي سلمة الخلال بالأمر لبني العباس في مرو ، بأن دورهم لن يكون الا ضئيلاً وثانوياً . « فاضطرب أمر العرب بخراسان ، وتعصبوا وتحزبوا واقتتلوا وهم متحيرون » كما يقول صاحب كتاب « أخبار العباس وولده » [ص ٢٤٨] . وهكذا ، فالريبة قديمة والشك قائم في نفوس العرب منذ تلك الفترة المبكرة ، وجاءت تصرفت وافعال من وسدت اليهم الأمور من آل العباس ، لتؤكد هذا الشك ، فكانت الثورات العربية للأسباب التي أوضحنا ، وعلى النحو الذي أسلفنا ، حتى بلغ الأمر ببعضها الى اعلان الاستقلال بما تحت أيديهم من أرض وجباية الخراج وتعيين الوزراء ، كما كان الحال في ثورة نصر بن شبث سيد بني عقيل التي سبقت الاشارة اليها . [انظر ، ابن أعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، ج ٨ ، ط . حيدر أباد ، ١٩٧٥ ، ص ٣١٢ ـ ٣١٣] .

واذا ما انتقلنا الى الميدان العقائدي ، فقد أعلنت الثورة العباسية في أكثر من مناسبة ، وعلى لسان أكثر من زعيم من زعمائها ، منذ الفترة السرية وحتى آلت اليها السلطة خالصة لا ينازعها فيها منازع ، أن الثورة انما قامت لتقاتل « قوماً حرفوا كتاب الله وبدلوا دينه ، وتولوا عن أمره » [فتوح ابن أعثم الكوفي ، ج ٨ ، ص ١٧١] ، كما أنها عازمة أصدق العزم « على اتباع كتاب الله وسنة نبيه » ، وندد زعماؤها « بأهل الجور » (أي الأمويين) الذين « فشلوا في تطبيق مبادىء العدالة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . وهكذا فقد تبرأ العباسيون من كل العناصر ، وخاصة المتطرفة منها التي ساندتهم في ثورتهم » [فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ١١٧] . ولكن هذا الادعاء لم يدم طويلاً ، وجاءت الأحداث في هذا الدور لتثبت أن الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ، لم يكن الأمر المطبق دائماً ، ولا سيما حين آلت الخلافة الى المأمون الذي نستطيع أن نعتبر فترة حكمه بداية مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الاسلامي اتسمت بسمات ظاهرها الحرية الفكرية ، ولكنها كانت حصيلة مخاض فكري طويل ، وثمرة طيبة حيناً ، وخبيثة حيناً آخر ، من ثمار التلاقح الفكري بين الأمم المختلفة التي عاشت على أرض الدولة الاسلامية وحملت معها إرثها الفكري وما تحصل لها من سالف حضاراتها ودياناتها ، كما حملت أحقادها القديمة ورغبتها في الانتقام من هذا الدين الذي أعز العرب وأشاد لهم دولة وحضارة ورثت دولهم وحضاراتهم .

وطبيعي أن الخلفاء العباسيين الأوائل كانوا أكثر التزاماً بالقواعد والأصول من أولئك الذين تلوهم . فهذا المهدي وابنه الهادي يشهران السيف في وجه

حركة الزندقة التي أخذت تستشري منذ زمن المهدي ، ويقتلان دون رحمة من يتناهى اليهما أنه من أصحاب ماني . وكانت وصية المهدي لابنه الهادي : « يا بني ان صار الأمر لك ، فتجرد لهذه العصابة فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن ... ثم تخرجها الى عبادة اثنين ، أحدهما النور والآخر الظلمة .... فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها الى الله لا شريك له ، فاني رأيت جدك العباس في المنام ، قلدني سيفين وامرني بقتل أصحاب الاثنين » . [المرتضى ، ذكر المعتزلة ، ص ٣١] . وحين آل الأمر الى الرشيد منع الجدال في الدين وحبس أهل علم الكلام . ولكن الحال تغيرت زمن المأمون ، فأطلق القول وفسح في المناظرات وشارك بشخصه في مجادلة الفقهاء ، حتى أنه كما يقول صاحب العقد الفريد ، كان يوسع صدره للمرتدين عن الاسلام ويستعمل الحجة بعد الحجة حتى يرجع بهم اليه . [العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢٥٥] . ثم ما لبث أن التزم مبدأ المعتزلة وقال بخلق القرآن ، وابعد عن دواوين الدولة وشد بالحديد من خالف رايه ، واخذت المحنة الفكرية تسد على الناس سبل بقائهم ومعاشهم . وظل الحال كذلك طيلة خلافته وخلافة من تلاه حتى عهد المتوكل . ويصل التناقض أوجه حين ترى الاضطهاد والسجن وحتى الموت كان قدر كل من لا يقول بخلق القرآن مهما علت منزلته ، أما المجوس مثلاً ، فكان لهم أن يعارضوا وبوقاحة علماء المسلمين من أمثال الجاحظ الذي يحدثنا فيقول : « وقد عارضني بعض المجوس وقال : فلعل أيضاً صاحبكم (يقصد الرسول صلوات الله عليه) انما توعد أصحابه بالنار لأن بلادهم ليست ببلاد ثلج ولا دَمَق ، وانما هي ناحية الحَرور والوَهَج والسموم ، لأن ذلك المكروه أزجر لهم » . ويرد عليه الجاحظ رداً علمياً حول تنوع أقاليم بلاد العرب وأن فيها الحار والبارد الذي تتجمد مياهه بسبب شدة برودته في فصل الشتاء ، الى أن يقول له الجاحظ « .... وحجة أخرى على المجوس ، وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان قال : لم أبعث الا الى أهل مكة ، لكان له متعلق من جهة هذه المعارضة ، فأما وأصل نبوته والذي اليه مخرج أمره ، وابتداء مبعثه الى ساعة وفاته أنه المبعوث الى الأحمر والأسود ، والى الناس كافة ... فلم يبق أن يكون مع ذلك قولهم معارضة ، وأن يعد من باب الموازنة » . [الجاحظ ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٥] . وفي هذا النص ، وهو واحد من كثير جداً في هذا الباب ، ما يوضح الحرية التي كان يتمتع بها مجوسي يشتم الرسول الأعظم ودين الاسلام ، في حين أن الذي كان لايقول بخلق القرآن يتعرض لاقسى المحن والويلات مهما علت منزلته وسما قدره . ويبدو أن شخصاً كالجاحظ قد مر في موقفه من هذا الأمر بمرحلتين :

مرحلة أولى ظن فيها أن هذا النقاش والجدال دليل حرية فكرية ووسيله لتنشيط الفكر الناقد الخلاق ، فدعا المفكرين المسلمين الى الأخذ بهذا النهج واتباعه سبيلاً في تنبيه الاذهان اذ يقول : « وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا ، على أنا وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكثر مما وجدنا ، فما ينتظر العالم باظهار ما عنده ؟ رما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ؟ وقد أمكن القول وصلح الدهر ، وخوى نجم التقية ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم » . [الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٣] . وهذه المرحلة كانت في الفترة الأولى من حكم المأمون على أغلب الظن . ولكنه ما لبث أن اكتشف سوء نوايا هؤلاء المتسترين بحرية الفكر ، فانتقل الى المرحلة الثانية التي رأى فيها أن الاغراق في هذه الحرية سيؤدي بالضرورة الى استشراء الزندقة في جمهرة المسلمين وكثرة تفرقهم وتشرذمهم واندساس أصحاب الغرض بين صفوفهم ، وأدرك أن هذه الحرية استغلت أشنع استغلال ممن يريدون القضاء على العرب والاسلام معاً وافساد الناس . وقد وصف هذا الذي حدث في المجتمع في عصره بقوله : « وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانباً ، وأعرضوا عنه صفحاً ، فليس الا : لا أو نعم . الا أن قولهم لا ، موصول منهم بالغضب ، وقولهم نعم ، موصول منهم بالرضا ، وقد عزلت الحرية جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن » . [الحيوان ، ج ٧ ، ص ٣] . ووجد أن ذلك لم يكن صدفة ، وانما أمر تعمده المتعمدون في اشاعة الزندقة ، فقال في أولئك الذين روجوا له بين صفوف العامة : « يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالاسناد من روايتنا ، والمتشابه في كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ،وحتى مع ذلك ربما تبرؤوا الى علمائنا وأهل الاقدار منا ، ويشغبون على القوي ، ويلبسون على الضعيف . . . » . [رسائل الجاحظ على هامش الكامل ، ج ٢ ص ١٧٤] .

وعندي أن في كلام الجاحظ هذا صورة صادقة لهذا الانحراف الفكري الذي تناول أسس العقيدة فعمل فيها تخريباً وتشويهاً بقصد خبيث ، لا أستطيع تبرئة الدولة عن مسؤوليته ، ولكني لا أجزم بتواطئها مع اصحابه أو ضلوعها في الترويج له عن قصد وسوء نية . ولست اريد أن أسير شوطاً في هذا الامر ، ولكني أردته اشارة واضحة الى الصلة البينة التي يمكن أن يلاحظها المدقق في الاحداث بين الحركات الثورية الدينية التي اشرت الى بعضها في مطلع

بحثي ، كالروائدية وحركات سنباذ والمقنع الخراساني وسواهم ، وبين هـذا المناخ الفكري المتسربل بأثواب الحرية في الظاهر ، والذي يخفي أفاعي حادة الانياب تنتظر اللحظة المناسبة لتنهش الاساس العقائدي الذي قامت عليه الدولة فتقوضها من الداخل .

ولست أريد وانا أضع خاتمة لهذا البحث أن أدخل في تفاصيل الفوارق الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعاني منها المجتمع العباسي في هذا الدور الاول وما تلاه من أدوار ، وأثر هذا كله في توجيه أحداث هذه الفترة وجهة غدت فيها حركة العيارين والشطار في القرن التالي حركة لها وجه اجتماعي واقتصادي ، فكانت الاغارة على الاسواق ونهب أموال الاغنياء من السادة والتجار تبرر وتحمد لان بعض هذه الاموال المنهوبة كان يعطى للفقراء والمحرومين ، ولهذا موضع آخر ، أرجو أن يتاح لي تناوله في بحث قادم ، ولكني أود أن اذكر بأن طبيعة الظرف الذي أدى الى ولادة الدولة العباسية وتنوع الشعارات التي حملتها والتي قصدت من ورائها كسب كل المتذمرين من الحكم الاموي الى جانبها ، أدت كلها الى أن ينضم الى صفوفها خليط عجيب من المؤيدين فيهم الغلاة والمعتدلون، المسلمون وغير المسلمين ، العرب وغير العرب . وقد أدى هذا كله الى نجاح الثورة ووصول بني العباس الى الحكم ، ولكنه كان في نفس الوقت المنبت الوخيم الذي رتعت فيه عوامل الفساد والتفسخ التي نجم عنها هذا التناقض الكبير بن ما رفعته الثورة من شعارات ، وما آل اليه الامر بعد أن انتهت السلطة الى البيت العباسي .

ولنا في تنوع مواقف المؤرخين العرب المسلمين من هذه الدولة ، وتقسمهم بين مادح مستفيض في المدح ، وقادح مغرق في القدح ، خير دليل على عدم وحدة الموقف وتباين الآراء وفق الاهواء والمصالح التي كان يمثلها هؤلاء المؤرخون .

وتظل الدعوة قائمة الى الباحثين في هذه الحقبة من تاريخنا لان لايكتفوا بالظاهر وألا يعتمدوا على المروي والمدون فحسب ، وأن يستشفوا ما وراء هذه الاحداث من دلالات ومؤشرات ، وهذا هو ما نبغيه في دعوتنا لكتابة التاريخ العربي بأسلوب يلتزم المنهجية العلمية ويضع الحادث الفرد في مكانه الصحيح من المنظومة التاريخية .

حياة الناس في مدن الثغور
مدينة طرسوس

د . مصطفى علي الحياري

الجامعة الاردنية ــ كلية الآداب

تميزت الفترة الممتدة من الثمانينات من القرن الأول الهجري وحتى نهاية القرن الثاني للهجرة باهتمام الخلافة الاسلامية ــ سواء أكان مركزها في دمشق أو بغداد ــ بعمران مناطق الحدود الطويلة بين أراضيها وأراضي الامبراطورية البيزنطية لتكون مراكز دفاع أمامية تصدّ عن بلاد العالم الاسلامي الغارات المتكررة ، وتمنع قوات العدو من الاعتداء على سكان الحدود أو القيام بتخريب مدنهم وقلاعهم وحصونهم أو التعرض لمزروعاتهم وماشيتهم .

وشمل العمران كافة مناطق الثغور سواء بسواء . ونالت المنطقة التي عرفت بعد بالثغور الشامية اهتماما خاصا من قبل الدولة نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام الذي يتحكم بالدروب المؤدية من قلب هضبة الأناضول الى بلاد الشام والعراق ، وبالعكس .

وقد أعيد ، خلال الفترة المذكورة ، بناء كافة المدن في هذه المنطقة والتي كانت قد خربت أو هجرها أهلها بالتدريج منذ بدايات الفتح الاسلامي لبلاد الشام . كما اقيم فيها أو على أطرافها الكثير من القلاع والحصون الجديدة ولذلك فقد عمرت مدن مثل المصيصة وأذنة وطرَسوس (١)، وقلاع وحصون مثل الثقب والهارونية والكنيسة السوداء ولؤلؤة (٢) . واحتلت مدينة طرسوس من بينها مكانة خاصة نظرا للدور الكبير الذي كان لها بعد تأسيسها بحيث صارت أكبر مدن الثغور الشامية وأوسعها عمرانا وأكثرها سكانا .

وسنحاول في هذه الدراسة اعطاء صورة مناسبة ، وبالقدر الذي تسمح به المعلومات المتوافرة ، عن سكان هذه المدينة الثغرية وعن حياتهم اليومية وفعالياتهم في أوقات السلم والحرب . وهي صورة ربما كانت نموذجاً لحياة الناس في مختلف مدن الثغور .

كان الهدف الأساسي لبناء مدينة طرسوس وغيرها من مدن الثغور أن تكون مراكز للجهاد في سبيل الله ، تتجمع فيها المقاتلة والمتطوعة القادمون من مختلف بلدان العالم الاسلامي ثم تنطلق بحملاتها باتجاه أراضي الامبراطورية البيزنطية ، وقواعد حدود ثابتة مهمتها الدفاع عن حدود الخلافة الاسلامية ضد اعتداءات قوات الروم عليها . وعلى هذا الاساس شحنت هذه المدن في البداية بالمقاتلة على زيادة في العطاء وذلك ترغيبا في حياة المرابطة والتفرغ للجهاد في سبيل الله ، ومن ثم قصدتها المتطوعة من مختلف انحاء العالم الاسلامى .

وفي الفترة الأولى لعمران الثغور الشامية ، أثبتت التجربة العملية أن القوات التي تطوعت للمرابطة في مدن الثغور كانت قليلة وغير كافية للقيام بالمهام التي انيطت بها على الوجه الأفضل ، ولذلك فقد اعتمد في عملية الجهاد والدفاع عن مناطق الحدود التابعة للدولة الاسلامية على قوات الخلافة المركزية بصورة رئيسية .

وكانت هذه القوات ترسل كل سنة في حملات الصوائف أو الحملات التي كان يقودها الخلفاء أو من ينوب عنهم للغزو أو للرد على ما كان يقوم به الروم من تخريب في منطقة الثغور . ولكن قوات الخلافة هذه لم يكن بامكانها البقاء في منطقة الثغور بصورة دائمة بل كانت تعود كل سنة الى مراكزها التي جاءت منها . وبعد عودة هذه القوات كان يبدأ عادة الدور الفعال لأهل مدن الثغور من حامية وغيرها من الفئات في حماية الحدود في الفترة التي تمتد من أوائل الخريف وحتى أواخر الشتاء .

واستمر وضع الثغور الشامية على هذا النحو حتى تبعت هذه المنطقة للدولة الطولونية في بداية النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة (العقد السادس من القرن التاسع الميلادي) . فمنذ ذلك الوقت صارت مدينة طرسوس وبقية مدن الثغور الشامية تعتمد اعتماداً يكاد يكون كليا على امكاناتها العسكرية المحلية الممثلة بالحاميات والمتطوعة وأهل الثغور عامة ، في الدفاع عن حدود العالم الاسلامي الذي انشغل امراؤه بخلافاتهم الداخلية وصراعاتهم المستمرة من أجل السيطرة والنفوذ .

وزاد اعتماد الثغور الشامية على امكاناتها المحلية في النصف الاول من القرن الرابع للهجرة / العاشر الميلادي بسبب من الظروف السياسية الصعبة التي مرت بها الخلافة الاسلامية التي تمثلت بضعف الخلافة العباسية وسيطرة

العناصر غير العربية من أتراك وديالمة على الدولة ، والتفكك السياسي الذي ادى الى ظهور امارات مستقلة انفصلت فعليا عن الخلافة وتصارعت فيما بينهـــا لاخضاع منطقة الثغور الشامية لنفوذها مثل امارة الحمدانيين في حلب وامـارة الاخشيديين في مصر والمناطق الجنوبية من بلاد الشام .

واثرت هذه الظروف كلها في بنية مجتمع مدينة طرسوس ونوعية النـاس الذين سكنوها واتخذوها موطنا لهم . ففي بداية عمرانها ، شحنت المدينة بالمقاتلة والمتطوعة الذين استقدموا اليها من مختلف أمصار العالم الاسلامي ، فصار أغلب سكانها في البداية من أهل خراسان ومن أهل المصيصة واهـل انطاكية الذين كانوا بدورهم يمثلون مختلف امصار الشام والجزيرة الفراتية . ونمت المدينة بعد ذلك نموا كبيرا من حيث اتساع العمران وازدياد عدد سكانها حتى صارت « أجل مدن الثغور وأكثرها أهلاً وأغصّها اسواقاً » (٣) ، واقبل الناس من المجاهدين والمتطوعة اليها من مختلف انحاء العالم الاسلامي . وذكرت المصادر المعاصرة لفترة ازدهار طرسوس انه لم يكن ثمة من مدينة كبيرة من مدن الاسلام ومعروفة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والري واصبهان وجميع الجبال وطبرستان والجزيرة الفراتية واذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشام ومصر والمغرب الا وبطرسوس لاهل هذه البلاد دار ورباط ينزله غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها ، وترد عليها الجرايات والصلات ، وتدر علهم الانزال والحملان العظيمة الجسيمة (٤) .

وكانت الجماعات التي تفد على طرسوس لتكريس حياتها للجهاد والغزو أولا ثم لنمط حياتها العادية ثانيا تمثل مختلف اجنـاس الناس وطبقـاتهم في المجتمع الاسلامي . وكان يساعد على ذلك كله ان الرؤساء وأصحاب النعم في حواضر العالم الاسلامي لم يبخلوا ، في التعويض عن عدم تمكنهم من المشـاركة في الجهاد والدفاع عن حدود العالم الاسلامي ، في اقامة الربط وبناء الدور في طرسوس لتكون دور ضيافة أو أماكن اقامة للمتطوعة والغزاة الوافدين اليها ؛ وفي وقف الوقوف الكثيرة عليها لتستغل ويصرف من مغلها على مختلف جوانب الانفاق على هؤلاء الناس وخيلهم وسلاحهم . وقـد فصل ابن حوقل ذلك فذكر انه بالاضافة الى ما كان السلاطين والامراء يتكلفونه من أموال تنفق على الثغور فان القسم الاكبر من ذلـك كان يأتي من الأمصار لأن « أربـاب النعم يعانونـه وينفذونه متطوعين ويتحاضون عليه متبرعين » خاصة الاوقاف الكثيرة اذ لم يكن في بلد من البلدان من « رئيس أو نفيس الا وله عليها أوقاف من ضياع ذات

أكرة وغلات أو مسقف من فنادق ودور وحمامات وخانات ، هذا الى مشاطرة من الوصايا بالعين الكثير والورق والكراع الغزير » (٥) .

وكان أكثر هذه الوقوف والاحباس لاهل بغداد (٦) . ونتيجة لذلك كله صارت طرسوس المدينة « التي يقوم بها سوق الجهاد ، وينزلهـا الصالحون والعبّاد ، ويقصدها الغزاة من سائر البلاد » (٧) .

وادت هذه الظروف التي ذكرنا والتطورات التي طرأت على مدينة طرسوس خلال القرن التالي لتأسيسها الى جعلها أكثر مدن الثغور الاسلامية الروميـة سكانا ، فقد ذكر ابن حوقل ، الذي عرفها قبل استسلامها للروم ، أنه كان بها وبالمناطق التابعة لها مائة ألف فارس (٨) . وليس هذا بالعدد المبالغ فيه . فاذا كان عدد الرماة الذين يرمون عند الضرورة من فوق أسوارها ستة عشر ألف رام ، واذا لم كان ثلثا دور المدينة البالغ عددها أربعة وثلاثين ألف دار ، مخصصة لسكنى العزاب الذين كانوا على الاغلب من الغلمان المكرسين حياتهم للجهاد ومن المتطوعة ، واذا كان ثلث الدور الثالث مخصصا لسكنى المجاهدين وعائلاتهم (٩)، ثم اخيرا اذا كان أصحاب المتاجر الصغيرة والصنائع الوضيعة « يلحقون بالطبقة العليا في الفروسية والشجاعة وارتباط الخيل واعداد السلاح » (١٠) فان كل ذلك يعني أن كل بالغ من سكان المدينة ومن عمالها كان عند الحاجة يشارك في الجهاد والغزو مهما كان العمل الذي يمارسه في حياته العادية . وسيظهر ذلك واضحا من الامثلة التي سترد في ما يلي من هذه الدراسة .

كان أكثر سكان طرسوس من الغلمان والمتطوعة الذين استوطنوها أو كانوا يفدون اليها . ولم يكن لهؤلاء صنعة أو حرفة الا الجهاد في سبيل الله أو التدريب المستمر على فنون القتال والاستعداد للغزو . وقد خلف لنا الجغرافي المعاصر المهلبي صورة مختصرة للحياة اليومية لهذه الفئات في المدينة . وهي صورة حية لحياة هذه الفئات من أهل الثغور . ففي الأيام التي لم يشغلهم فيها غزو الى أراضي العدو او نفير لمواجهة هجوم مفاجىء قام به الروم في منطقة الثغـور الشامية ، كان هؤلاء الغلمان يقسمون يومهم الى قسمين : القسم الاول ، وهو صدر اليوم ، خصصوه للتدريب على ركوب الخيل واستعمال مختلف انواع الاسلحة « ... لس لهم (فيه) عملا الا ارتباط فرهة الخيل وتخريجهـا في الطراد والعمل عليها » (١١) ، والقسم الثاني ، وهو بقية اليوم ، فقد جعلـوه للراحة في منازل فياحة فيها « ... البساتين والمياه الجارية والعيش الرغد »(١٢) .

واما بقية سكان المدينة فلم يكن حالهم من حيث التدريب واستعمال الاسلحة أقل من حال الغلمان . وينطبق ذلك على جميع الفئات الاخرى حتى أصحاب المتاجر الصغيرة والصناعات الوضيعة (١٣) . وحتى الاولاد الصغار كانوا يبداون التدريب الذي يناسبهم منذ نعومة أظفارهم وحتى بلوغهم السن التي تؤهلهم للالتحاق بفئات المقاتلة من الفرسان أو الرجالة (١٤) .

كان أهل مدينة طرسوس يمثلون مختلف أمصار العالم الاسلامي ويشكلون مجتمعا متميزا تمثلت فيه مختلف أجناس الناس والوانهم . فقد كان الغالب على ألوانهم البياض والحمرة والسمرة الصافية . من ناحية أخرى نجد أن المجتمع الطرسوسي تمثلت فيه أيضا أغلب فئات الناس الاجتماعية وما يرتبط بهذه الفئات من خصائص عامة أو صفات مميزة . ومن الصفات العامة التي وصف بها أهل طرسوس ، والتي ربما تكونت نتيجة ظروف حياتهم الثغرية ، أنه كان في أكثرهم « جفاء وغلظة على الغريب الا من كان قريب عهد منهم بالغربة» وان الشح كان غالبا عليهم (١٥) .

وترد معظم معلوماتنا عن فئات أهل مدينة طرسوس الاجتماعية عند صاحب كتاب **العزيزي** الذي يظهر انه زار المدينة وعرف أهلها معرفة وثيقة . ويلاحظ أن المهلبي لا يشير الى فئات السكان في المدينة الثغرية على أساس النمط المتعارف عليه من فئات خاصة واخرى عامة ولا حتى جماعات العامة المتعددة ، وانما يذكر فئات السكان حسب الدور الذي كانت تقوم به كل فئة في المدينة والصفات العامة التي تميزت بها . وذكر فئتين ، يظهر انهما تمثلان اكثر سكان المدينة ؛ الفئة الاولى هي فئة أهل البلد واولاد الغلمان واولاد المجاهدين واولاد خراسان الذين كانوا « من الاخلاق السمحة والنفوس الكريمة والهمم العالية والمحبة للغريب على ما ليس عليه أحد » . ثم يضيف معلقا « ولكنهم كانوا في بقية من هؤلاء الاوباش » والاوباش الذين يقصدهم المهلبي هم الذين كانوا يشكلون الفئة الاخرى والذين يسميهم بالسوقة والمستخدمين . وكان أكثر هؤلاء « من الخوز » (١٦) وسفلة العجم ومن كان فيه فسولة عن الحرفة وكسل عن طلب المعاش ، فأظهروا زهدا وورعا واعلنوا بالنصب » (١٧) . وليس هذا بالامر المستغرب في مدينة مثل طرسوس جمعت الناس من كل أمصار العالم الاسلامي .

ويرد في المصادر الاخرى ذكر لبعض الجماعات من أهل طرسوس كان لها مكانة خاصة في المجتمع ميزتها عن غيرها من الفئات . فيذكر القاضي الطرسوسي أهل الشرف في المدينة الذين تميزو عن غيرهم ، وكانت هذه الجماعات تقتصر

على ابناء المهاجرين والانصار المقيمين بطرسوس والذين كان لهم سجل خاص بهم أنشيء زمن الخليفة المأمون ، كما كان لهم عطاء مقرر من عشـور عمـل طرسوس « يجري عليهم مجرى الميراث يأخذه خلفهم عن سلفهم » (١٨) ، ويذكر الطرسوسي جماعة ثابتةكان لها مكانتها ودورها المعروف فيالجهاد هي « الشيوخ المسجدية » الذين سنذكر أمثلة من نمط حياتهم بعد قليل . أما ابن العديم فانه يؤكد على جماعات المتطوعة الذين كان اكثرهم من أهل الجبل وخراسان ، والذين يصفهم بانهم جمعوا بين « غلظ الاعجمية وسوء أدب الصوفية » (١٩) .

ويرد ذكر لفئة هامة في حياة مدينة طرسوس وان كانت لاتشكل جماعة خاصة لها مركزها الاجتماعي في المدينة ، هي فئة « الأولاء المؤلفة قلوبهم من الروم والارمن وأولادهم » الذين كان لهم دور أساسي في التجسس على العـدو والحصول على اخبارهم خاصة وقت الحرب وكان يخصص لهذه الفئة حصص معروفة من وارد العشر حددها الوالي لهم ومن يتجدد منهم . وكانوا يفضلون في توزيع عشر الشعير على غيرهم اذ كان يطلق لهم منه رسم « على مقـدار كراعهم قضيما لها في كل سنة » (٢٠) .

ويظهر من المقتطفات المتبقية من كتاب **سير الثغور** أن القاضي الطرسوسي قد اهتم بالترجمة لحياة عدد كبير من ابناء المدينة يمثلون مختلف فئات الناس وجماعاتهم وطبقاتهم ولكن المقتطفات ذاتها لاتعكس هذا الاهتمام العام . فالعدد القليل من التراجم التي وصلتنا من هذا الطريق تترجم بمعلومات قليلة ومحدودة لبعض رجال المدينة من الغلمان المشهورين والشيوخ المسجديـة وأئمة المسجد الجامع وخطبائه ورجال الصوفية والقراء . ولعـل ذكر ملخص لبعض سير هؤلاء يساعد في اعطاء صورة مجملة للحياة العامة والحياة اليومية لبعض فئات السكان في مدينة طرسوس .

ومن أشهر الجماعات التي استوطنت المدينة وكان لها دور هام في حياتها العامة ـ خاصة الجهاد ـ الشيوخ المسجدية . وهؤلاء كانوا جماعة معروفة تعيش في المسجد الجامع ولا عمل لها الا الغزو والجهاد في سبيل الله والصـلاة الدائمة حتى أنه لم يكن لديهم تلاميذ يقرأون عليهم وانما كانوا يمضون وقتهم متوجهين الى القبلة « يصلون نافلة نهارهم أجمع الا في الاوقات المنهي عن الصلاة فيها ، لايشغلهم عن ذلك الا النداء بالنفير أو الغزو أو تجريد أو تشييع جنازة من يموت من الصالحين أو عيادة مريض من المجاهدين(٢١) . وكان من أبرز أفراد هـذه الجماعة اسحق بن ابراهيم بن يعقوب الشهرزوري ، أحـد الرجـال

الصالحين المرابطين الذي امضى عشرين سنة من حياته ملازما للجانب الغربي من منبر المسجد في طرسوس يصلي ويقرأ القرآن ويلبي نداء النفير الى الغزو الى أن مات (٢٢) . ومنهم زَبْرَج الثَمَلي الاسود ، أحد غلمان ثَمَل الخادم الذي تولى طرسوس مدة طويلة ، وقد ترك اللذة وزينة الدنيا في أيام سيده وحفظ القرآن وتنسك واشتغل بالعبادة كل وقته لايشغله عنها الا الجهاد أو تشييع جنازة أو عيادة مريض (٢٣) . ومع أنه كان يعيش في دويرة خارج المسجد الجامع الا أنه عد من الشيوخ المسجدية لكثرة مكوثه فيه . وبقي زبرج في طرسوس حتى استسلمت للروم فخرج عنها الى القدس حيث عاش بقية حياته (٢٤) .

ويرد عند القاضي الطرسوسي ذكر لعدد من الخطباء والأئمة والقراء الذين عملوا في المسجد الجامع بمدينة طرسوس . وكان للخطباء من بين هؤلاء دور هام في حياة المدينة الثغرية وهو حث الناس على الجهاد والغزو . من أشهر الخطباء الذين ذكروا أبو القاسم الحمامي الذي يبدو أنه أوتي مقدرة كبيرة في البيان واعطاء كل مناسبة حقها من المقال . وكان في بيانه أمهر مايكون في مقام الدعوة ودفع الناس الى المشاركة في القتال . ويروى عنه في هذا المجال الحادثة التالية التي تشير بوضوح الى دوره وأمثاله في حياة مدن الثغور : أراد أحد الامراء القيام بغزاة من طرسوس ، فحضر الى المسجد الجامع « للخروج منه على الرسم » المعروف في كل غزاة لكن هطول الامطار الغزيرة في ذلك اليوم ثبط عزائم الناس فتخلفوا عن تلبية نداء الجهاد والغزو . ورأى الخطيب الحمامي قلة عدد من حضر من الناس مع الامير وانه دون العدد المعهود في مثل تلك الغزاة، فقام وخطب خطبة كان رد فعلها أن تجددت عزائم الناس وتجهز عدد كبير منهم للمشاركة في الغزاة (٢٥) .

ومن أئمة المسجد الجامع المذكورين ابن أبي سمينة الذي كان من الصالحين المعروفين بجودة القراءة وطيب الصوت ، وصلى بالناس بضع عشرة سنة (٢٦) ، وابن أبي قباس الذي يوصف بانه كان « من فرسان المحراب » وكان « اذا قرأ في محراب طرسوس سمعت قراءته في سوق الصفارين وكان اذا خطب حير السامعين والهى المحزونين » (٢٧) .

واما الصالحون من القراء والزهاد وأهل العلم والحديث فيذكر القاضي الطرسوسي انه لم يستطع احصاءهم لكثرتهم . وعدد منهم اسحق ابن خلاد الذي كان يعلم قراءة القرآن الكريم ، وكان يقرأ عليه « ثلاثين شيخا قراء استاذين من أهل الفضل والنبل والورع والزهد » ، وامضى خمسين سنة من

حياته صائما متعبدا (٢٨) ، ومنهم أبو عبد الله العلوي من المحدثين الصالحين المستورين (٢٩) ، وابو الترك السلمي من أهل العلم والحديث والجهاد في سبيل الله (٣٠) ، وابو القاسم القحطبي وابو القاسم بن الابار من الزهاد ورجال الصوفيـة (٣١) .

ومن الزهاد المعروفين بطرسوس ايضا زهير بن محمد بن قصبر المروزي. أصله من أهل بغداد وانتقل الى طرسوس وأقام فيها مرابطا . ويروى عن البغوي قولا مشهورا يتعلق بورعه وزهده : « ما رايت بعد أحمد بن حنبل اورع من زهير ولا أفضل ، سمعته يقول : اشتهي لحما أربعين سنة ولا آكله حتى ادخل (ارض) الروم فآكله من مغانم الروم » (٣٢) .

ولا تكتمل الصورة العامة لمدينة طرسوس وحياة الناس فيها دون وصف لحياتهم في الاوقات التي كانت تعيش المدينة فيهـا أقصى درجات الاستعداد الحربي والتهيؤ للقتال والتي كان يتحدد فيها دور كل فئة من فئات السكان حتى الاولاد الصغار الذين لم يبلغوا الحلم . تلك الاوقات هي اوقات النفير العام أو الدعوة المفاجئة لامير المدينة وقادة فرسانها ورجالتها والمتطوعة للخروج الى الغزو أو التصدي لهجوم العدو في اية منطقة من مناطق الثغور الشامية الاخرى القريبة . وقد قدم لنـا القـاضي الطرسوسي صورة حية لهـذا الاستعداد المفاجىء .

كان اذا وقع النفير في أي وقت من نهار أو ليل فان اول عمل يقوم بـه المسؤولون عن المدينة هو اغلاق جميع ابواب المدينة ما عدا الباب الذي تقرر خروج النفير منه . وكان هذا الباب هو أقرب أبواب المدينة الى الجهة التي سيقصدها الغزاة . وكانت توضع مفاتيح الابواب جميعا عند صاحب الشرطة . وكان مقر هذا المسؤول ورجالته والمحتسب ورجاله ، في حال النفير وطول مدته، عند الباب الاول الذي يلي الباب الذي يخرج الناس منه الى النفير . وفي نفس الوقت الذي كانت تتم فيه هذه الخطوات الاولى كان المحتسب يركب ومعه رجالته يجوبون شوارع المدينة وينادون بأعلى اصواتهم « النفير يا أصحـاب الخيل والرجالة ، النفير حملكم الى باب الجهاد . . . أو الى أي باب اتفق » . واذا كان الوقت الذي وقعت فيه الدعوة الى النفير نهارا انضم الى المحتسب ورجالته عدد كبير من الصبيان وساعدوهم في النداء بالنفير (٣٣) .

وكان نوع الدعوة الى النفير يعتمد على شدة الموقف الذي استدعاه . فاذا كان الموقف عاديا استدعي أهل الخيل والرجالة فقط ، اما اذا كان الحال صعبا

وخطيرا فقد كان المحتسب ورجالته يأمرون أهل الاسواق باللحاق بالنفير الذي خرج مع والي المدينة . وبعد خروج الناس مع الامير كانت تستمر الدعوة الى النفير والمناداة به حتى يعود الامير او الوالي مع من خرج معه و لحق به ، الى دار الامارة التي كانت تقع عند باب الجهاد وبالقرب من المسجد الجامع (٢٤).

وأما كيفية خروج النفير العادي من المدينة وحتى وصوله الى مبتغاه فقد كان ايضا يتم حسب اصول مرعية ، فعندما كان يعقد الامير او الوالي لقائد من الفرسان بالتوجه الى جهة من الجهات ، كان يبعث معه قائدا أو قوادا من قواد الرجالة المعروفين مع رجالهم « أهل القوة والنشاط والنية من المتطوعة المسجدية » (٢٥) . فاذا خرجوا ونزلوا اول منزل من منازل الطريق ، قام شيوخ من الصالحين المعروفين بالمحافظة على الغلمان الذين يحصلون تحت علم وراية كل واحد منهم حتى أنه اذا أراد أحد هؤلاء الغلمان الوضوء لم يسمح له بذلك الا برقيب ثقة أمين وشيخ معروف يمضي معه الى حاجته ويعيده من ثم الى جماعته (٢٦) .

ولعل أجمل دور من أدوار فئات السكان في مدينة طرسوس من حيث الاستعداد للجهاد والمشاركة في النفير الصبيان . ويبدو أن هؤلاء كانوا يدربون منذ نعومة اظفارهم ليصبحوا أعضاء فعالين في مجتمعهم وفي عملية الجهاد التي كانت محور النشاط لكل فئات السكان . وذكر صاحب **سير الثغور** أنه بالاضافة الى اشتراك الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم في النداء للنفير ، كانوا ــ بعد خروج النفير من المدينة ــ يجتمعون الى رجل معروف في المدينة ، ثم يحملون من السلاح ما يستطيعون ممارسته ومزاود فيها اطعمة أمثالهم ويسيرون وراء هذا الرجل ، يسيرون بسيره ويقفون بوقوفه ، فلا يزال ذلك دأبهم الى عودة الامير الى دار الامارة ، فيدخلون أمامه .

« على مراتبهم ، يصفهم قائدهم الامثل فالامثل رماتهم عن قسي الرجل التي عملت على مقاديرهم ، ثم رماتهم عن القسي الفارسية ، وربما كان فيه من اولاد اليمانية من يحمل القسي العربية بنبلها ــ صبيين صبيين . ثم من يحسن الثقاف فيثاقف قرينه ومثله وخدينه وشكله ، حتى يدخل كل صف منهم في مرتبته . ثم يتلوهم رؤية قائدهم بمطرده وعلامته (٢٧) .

وكان تدريب هؤلاء الصبيان يتم على هذه الصورة :

« حتى اذا خرج احد الصبيان من حد الطفولة واشتد عضده وقارب حد البلوغ او بلغ أو تجاوز البلوغ قليلا ، انضاف الى قائد من قواد الرجالة الذين

ذكرت وصحبه في نفيره وغزوه وارتاد لنفسه الرفاق بحسب ما يختار تربه وجاره وقرينه . فاذا التحى وخرج عن حد المرد دخل في جمهور الناس ، حاذقا بما يحتاج اليه ، ماهرا بامر جهاده وتدبير أمره ، ناقدا يقظا ان شاء الله » (٢٨) .

هذه هي الصورة العامة التي نجدها في المصادر المتوافرة ، عن حياة الناس في هذه المدينة المشهورة من مدن الثغور الشامية ، وتمثل هذه الصورة اسلوب حياة الناس فيها على مختلف اجناسهم وطبقاتهم ، وذلك في فترة قوة منطقـة الثغور وازدهار مدنها . ولكن الوضع في الثغور الشامية لم يستمر على الحال التي ذكرنا . فقد طرات في منطقة الثغور الاسلامية ــ البيزنطية ظروف غير مناسبة تراكمت مع الزمن وادت بالنتيجة الى ضعفها وعدم تمكنها من التصدي لهجمات الروم المتكررة عليها . وادى ذلك كله في النهاية الى استيلاء الروم على معظم المنطقة واستسلام ما تبقى لهم دون قتال . وكان آخرالمدن التي استسلمت مدينة طرسوس .

---

(١) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، نشر م . دي غويه (ليدن ــ بريل ، ١٨٦٦) ١٦٥ ــ ١٧٠ ، قدامة **الخراج وصنعة الكتابة** ، مخطوطة كوبرولو باسطنبول رقم ١٠٧٦ ، ورقة ١٢٨ ــ ١٣٠

(٢) نفس المصدر ، ١٧١ ، قدامة ، **الخراج** ، ورقة ١٣٠ أ .

(٣) المهلبي ، **المسالك والممالك في بغية الطلب في اخبار حلب** ، مخطوطة ايا صوفيا باسطنبول رقم ٣٠٣٦ ، ورقة ١٠٨ ب (وسيشار اليه فيما يلي **ببغية**) .

(٤) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، (دار مكتبة الحياة ــ بيروت ، الارت) ، ١٦٨ . انظر كذلك **سير الثغور في اخبار طرسوس** في بغية ، أيا ، ورقة ١١٢ أ ، المهلبي ، **المسالك** ، في **بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٨ ب ، وقد ترجم Le Strange فصل ابن حوقل بصورة موجزة انظر ، **Lands of the eastern caliphate,** (London, 1969), P. 132.

(٥) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، ١٦٨ ــ ١٦٩ ، وبشكل مختصر في المهلبي ، **المسالك والممالك في بغية** ، ايا ، ورقة ١٠٨ ب ــ ١٠٩ أ .

(٦) المهلبي ، **المسالك والممالك في بغية** ، ايا ورقة ١٠٨ ب ــ ١٠٩ أ . وهناك مثل يورده ابن الجوزي عن احد هؤلاء المهتمين بأمر الثغور من اهل بغداد ، اذ يذكر في ترجمة الحسين بن علي ابن محمد بن يحيى النيسابوري المشهور بحسينك ، انه لما وقع الاستنفار لطرسوس ، وذلك قبل تسليمها للروم ، دخل على حسينك بعض اصحابه فوجدوه يبكي ويقول : « دخل الطاغي ثغر السلمين طرسوس وليس في الخزانة ذهب ولا فضة » . ثم باع ضيعتين نفيستين من اجل ضياعه بخمسين الف درهم واخرج عشرة من الغزاة والمتطوعة الاجلاد بـدلا عن نفسه . **المنتظم في تاريـخ الملوك والامم** ، ٧ ، (طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن ، ١٣٥٨ هـ) ١٢٧ ، ويبدو انه نقل ذلك عن الخطيب البغدادي ، انظر **تاريخ بغداد** ، ٨ (تصوير المكتبة السلفية ــ المدينة المنورة) ص ٧٥

(٧)المهلبي ، **المسالك والممالك** ، في **بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٦ ب .

(٨) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، ١٦٨ .

(٩) **سير الثغور في بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٩ ب ـ ١١٠ م ، ١١٢ أ .

(١٠) المهلبي ، **المسالك والممالك** ، في **بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٩ أ .

(١١) **المصدر ذاته** .

(١٢) **المصدر ذاته** .

(١٣) **المصدر ذاته** .

(١٤) سيرد ذكر ذلك بالتفصيل في ما يلي .

(١٥) المهلبي ، **المسالك والممالك** ، في **بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٩ أ .

(١٦) الخوز هم أهل خوزستان ونواحي الاهواز بين فارس والبصرة وواسط الجبال . ويصفهم ياقوت بانهم ألأم الناس وأسقطهم وأن الغالب على أخلاقهم السوء والبخل المفرط والمنافسة فيما بينهم في النزر اليسير . **معجم البلدان** ، ٢ ، ٤٩٤ ـ ٤٩٧ .

(١٧) المهلبي ، **المسالك والممالك في بغية** ، أيا ورقة ١٠٩ أ .

(١٨) **سير الثغور في بغية** ، أيا ورقة ١١٠ أ .

(١٩) ابن العديم ، **بغية** ٦/مخطوطة ، مكتبة أحمد الثالث باسطنبول رقم ٢٩٢٥

(٢٠) **سير الثغور في بغية** ، أيا ، ورقة ١١٠ ب .

(٢١) **المصدر ذاته** ، ٢/أحمد الثالث ، ورقة ٢٦٢ أ .

(٢٢) **المصدر ذاته** .

(٢٣) **المصدر ذاته** ، ٦/أحمد الثالث ، ورقة ١٩٢ ب .

(٢٤) **المصدر ذاته** .

(٢٥) ابن العديم ، **بغية** ، ٨/أحمد الثالث ، ورقة ١٧٣ ب ـ ١٧٤ م .

(٢٦) **سير الثغور في بغية** ، ٨/أحمد الثالث ، ورقة ٢٣٩ م .

(٢٨) **المصدر ذاته** ، ٢/أحمد الثالث ، ورقة ٢٦٩ أ .

(٢٧) **المصدر ذاته** ، ورقة ٢٣٩ ب ـ ٢٤٠ م .

(٢٩) **المصدر ذاته** ، ٣/أحمد الثالث ١٣٨ ب ـ ١٣٩ ا .

(٣٠) **المصدر ذاته** ، ٨/أحمد الثالث ، ٣٧ ب ـ ٣٨ أ .

(٣١) **المصدر ذاته** ، ورقة ١٧٤ ب .

(٣٢) الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ٨ ، ٤٨٤ ـ ٤٨٥ ، ابن الجوزي ، **المنتظم** ، ٥ ، ٤٤ ، سبط بن الجوزي ، **مرآة الزمان** ، (خط) مكتبة أحمد الثالث ، ١٠ ورقة ١٠

(٣٣) **سير الثغور في بغية** ، أيا ورقة ١١٤ ب ـ ١١٥ أ .

(٣٤) **المصدر ذاته** ، ورقة ١١٥ ا .

(٣٥) **المصدر ذاته** ، ورقة ١١٥ أ ـ ب .

(٣٦) **المصدر ذاته** .

(٣٧) **سير الثغور في بغية** ، أيا ، ورقة ١١٥ ب .

(٣٨) **المصدر ذاته** ، ورقة ١١٥ ب ـ ١١٦ أ .

أضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس

د. يوسف درويش غوانمه

جامعة اليرموك

هو داود بن عيسى بن محمد بن ايوب الملك الناصر الولي المهاجر صلاح الدين ابو المفاخر ابن المعظم عيسى (١) . ولد بدمشق في ١٧ جمادى الاولى سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) (٢) ، وامه ام ولد تركية الاصل ، عاشت فترة في مدينة الكرك (٣) ، وعرفت بشدة البأس ورباطة الجأش ، فأحبها أهل الكرك ، وتمكنت بمساعدتهم سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) من مقاتلة قوات الكامل محمد التي ارسلها لمحاصرة الكرك ، وانتزاعها من الناصر داود ، فابقت المدينة لولدها (٤) .

نشأ الناصر داود في حياة أبيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، ملازما للاشتغال بالعلوم على اختلافها ، وشارك في كثير منها (وحصل منها طرفا جيدا) (٥) . وعاش حياة العلماء واحبهم (٦) ، وارتحل الى العراق في طلب العلم ، فسمع في بغداد من جماعة من العلماء نذكر منهم : محمد بن احمد القطيعي وغيره . وسمع بالكرك من ابن اللتي ، وشمس الدين عبد الحميد الخسروشاهي، وسيف الدين علي الآمدي (٧) ، واجازه ابو الحسن المؤيد بن محمد الطوسي وغيره من العلماء (٨) . ويذكر ابن شاكر الكتبي بأنه (كان حنفي المذهب عالما فاضلا مناظرا ، ذكيا له اليد البيضاء في الشعر والادب) (٩) .

وكان لنشأة الناصر داود اثر كبير في حبه للعلم وتعلقه بالعلماء ، فوالده المعظم عيسى كان عالما فاضلا متفننا في الفقه والنحووغيره،قرب العلماء واكرمهم، ولازمه العديد منهم فكانوا (لا يفارقونه في سفر ولا حضر) (١٠) . وكان يجلس الى جماعة الفقهاء ويباحثهم في مسائل لغوية وفقهية ، ويجزل لهم العطاء (١١). وكان ايضا يحث ابنه الناصر داود على طلب العلم واقتناء الكتب النفيسة ، بل

كان حريصا على اهدائه بعضها (١٢) ، فاليونيني يذكر ان الناصر داود كان يحب اقتناء الكتب النفيسة فيقول : (حصل منها جملة كثيرة ذهبت بعد وفاته) (١٣).

وقد اصطحب المعظم عيسى ابنه الناصر داود في العديد من اسفاره وحروبه ضد الفرنج ، كما ارسله في مهمات رسمية (سفارات) الى بعض الملوك والامراء (١٤) ، فصارت لديه دراية بأمور الدولة ، وازدادت حنكته وتجربته السياسية .

الانقسام في صفوف البيت الايوبي :

شب النزاع بين المعظم عيسى صاحب دمشق واخيه الكامل محمد سلطان مصر ، وأدى هذا التصدع الى اضعاف الجبهة الاسلامية ، فانهك قواها وزادها تمزيقا ، وكان سببا في ضياع بيت المقدس ، فقد حاول المعظم عيسى صاحب دمشق التوسع شمالا على حساب امارة حماة ، فاحتل معرة النعمان وسلمية (١٥) ، ثم حاصر حماة نفسها . فلما وصلت انباء ذلك الى اخويه الكامل محمد صاحب مصر ، والاشرف موسى صاحب سنجار واخلاط (١٦) ، والبلاد الشرقية ، خشيا من ازدياد نفوذه ، فابن واصل يقول على لسانهما ، ان اخذ المعظم عيسى حماة (تعدى الى غيرها واطمعته نفسه بالاستيلاء على البلاد كلها) (١٧) . لذا هدداه وارغماه على العودة الى دمشق ، وفي نفس الوقت عقدا اتفاقا مفاده انتزاع دمشق من المعظم عيسى . الا ان المعظم تمكن من كسب اخيه الاشرف الى جانبه ، بعد ان تحالف مع جلال الدين خوارزم شاه صاحب مملكة عراق العجم واذربيجان، ومظفر الدين بن زين الدين كوكبوري صاحب أربل(١٨) . واصبحوا يشكلون خطرا على املاكه ، فاضطر الى مسالمة اخيه المعظم وانضم الى جانبه ، واتى الى دمشق معلنا ذلك (١٩) .

الا ان الكامل محمد كانت له اطماعه في بلاد الشام ، فقد عمل حثيثا على انتزاع دمشق من أخيه المعظم ، وبسط نفوذه على بلاد الشام جميعها (٢٠) . ازاء ذلك خشي مغبة هذا التحالف ، بالاضافة الى انه أخذ يشك في اخلاص جنوده الى درجة اتهامهم بممالأة أخيه المعظم (٢١) . فبحث عن حليف يستطيع الوقوف الى جانبه ، ولم يجد غير الاجنبي فأرسل سفارة الى الامبراطور فردريك الثاني The Emperor Frederik II. في صقلية على رأسها الامير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ مستنجدا به ، واعدا اعطاءه بيت المقدس ، وما بيد المسلمين من الساحل ، ان قدم بقواته لمساعدته (٢٢) فلقيت هذه الدعوة استحسان الامبراطور واعاد الكامل بسفارة أخرى محملة بالهدايا

النفيسة (٢٣) ، ووعد بالحضور الى فلسطين ، ثم أخذ في الاستعداد لاعداد حملة صليبية جديدة الى الديار المقدسة .

تسليم بيت المقدس للصليبيين :

في خضم هذه الاحداث ، توفي الملك المعظم عيسى في ذى القعدة سنة ٦٢٤ هـ (تشرين ثاني ١٢٢٧ م) ، وتولى مملكة دمشق ابنه الملك الناصر داود ولم يتجاوز العشرين عاما . وهكذا اصبحت الساحة خالية للكامل محمد ، فعمل بسرعة على تحقيق اطماعه في بلاد الشام وضمها الى سلطانه . فافتعل خلافا مع الناصر داود ، اذ طلب منه قلعة الشوبك (٢٤) ليجعلها خزانة له ؛ فامتنع الناصر داود (وأدى ذلك الى تصميم عزم الملك الكامل على الخروج الى الشام وأخذ دمشق وغيرها منه) (٢٥) . ولكي يهيء الجو لقدوم الصليبيين الى فلسطين ، خرج الكامل بقواته من مصرفي رمضان ٦٢٥ هـ (آب ١٢٢٨ م) ؛ فاستولى على نابلس وبيت المقدس والخليل من الناصر داود (٢٦) ؛ ثم اقام في تل العجول قرب غزة منتظرا وصول الامبراطور فردريك الثاني الذي كان في طريقه الى فلسطين .

وصل الامبراطور الى فلسطين . وحطت قواته في عكا في شهـر شوال ٦٢٥ هـ (ايلول ١٢٢٨ م) ، وبدأت الاتصالات بين الطرفين ؛ ويجدر بنا التساؤل عن موقف الكامل محمد ؛ ووقوفه هذا الموقف المثير . فالمؤرخون يذكرون ان الظروف كانت الى جانب الكامل محمد ولمصلحته ، فموت أخيه المعظم عيسى قد انهى حاجته الى حليف خارجي . فابن واصل يقول : (وانما قصد الملك الكامل بالاتفاق مع الامبراطور واستدعائه لاشغال سر الملك المعظم ولئلا يتمكن الملك المعظم بالاتفاق مع جلال الدين خوارزم شاه صاحب اربل من قصده وقصد الملك الاشرف) (٢٧) . وذكـر بعض المؤرخين المحدثين ان الحملة الصليبيـة السادسة كانت من الضعف بحيث لا تشكل خطرا على الكامل محمد خاصة وبلاد الشام عامة (٢٨) ، ومع ذلك جبن الكامل محمد من الوقوف امامها ، مدعياً انه اراد الايفاء بوعده لما عرف عنه من تسامح ديني . ولكن هل بلغ التسامح الديني لدى الكامل حدا جعله يفرط بأقدس مقدسات المسلمين ؟ وهل التسامح الديني يجعلنا نفرط بأوطاننا ونسلمها للصليبي المستعمر ؟

كانت فكرة القيام بحملة صليبية الى بلاد الشام واردة لدى الامبراطور فردريك الثاني بسبب ضغط البابوية عليه . ولا شك ان الكامل كان على علم بالاستعداد للحملة ، فوجدها فرصة مواتية كي يرسل للامبراطور للاتفاق معه على الاسراع والقدوم الى فلسطين ، كي يحول دون نجاح المعظم عيسى وحلفائه من مهاجمته وانتزاع مصر منه . وهذا ما اكده ابن واصل (٢٩) . ثـم ان المصادر

اللاتينية للحملة اكدت وجهة النظر التي ذهبنا اليها . فالامبراطور فردريك كان يستعد للقيام بهذه الحملة في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) ، أي قبل وصوله الى فلسطين بعام واحد ، ولكنه تأخر بسبب اصابته بمرض شديد (٣٠) . كذلك اراد الامبراطور ان يمهد لحملته هـذه ، فأرسل بدوره الى المعظم عيسى صاحب دمشق للاتفاق معه مقابل التنازل عن بيت المقدس الذي كان ضمن أملاكـه . فرد المعظم على رسوله قائلا : (قل لصاحبك ما انا مثل الغير ، ما له عندي سوى السيف) (٣١) . ثم بادر فأعد قواته وارسلها الى نابلس للوقوف في وجه الصليبيين وحماية بيت المقدس . فالخطة كانت مدبرة ومتفق عليها بين الكامل محمد وفردريك ، بموجبها يسلم الكامل بيت المقدس ومعظم الفتوح الصلاحية للصليبيين .

وكان بامكان الكامل النكوث بوعده خصوصا وان الامر يتعلق ببيت المقدس ، المدينة الاثيرة لدى المسلمين جميعا ، ولن يكلفه ذلك كثير جهد ، اذا اخذنا بعين الاعتبار أقوال بعض الباحثين بان الحملة الصليبية السادسة كانت غير ذي بال، وانها أضعف واغرب حملة صليبية وصلت الى بلاد الشام. ان الدلائل تنفي ذلك، فالمصادر الاسلامية ذكرت ان جموعا فرنجية كثيرة وصلت الى فلسطين قبـل قدوم الامبراطور ، ومكثوا هناك بانتظار وصوله (٣٢) . واكدت ذلك المصادر اللاتينية فالمؤرخ Roger of Wendover ذكر في تاريخه ان جموعا صليبية وصلت الى فلسطين قبل قدوم الامبراطور فردريك في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م)، ولما ايقنوا انه غير قادم عاد ٤٠,٠٠٠ منهم الى أوروبا ، وبقي آخرون بانتظاره (٣٣) اما عن الحملة نفسها ، فالمصادر الاسلامية ذكرت ان الامبراطور قدم (الى عكا في جموع كثيرة من الالمانية وغيرها من الفرنج) (٣٤) . اما المصادر اللاتينية فذكر المؤرخ : Philip of Novara ان الاسطول الذي حط في ميناء عكا رفقة الامبراطور كان مؤلفا من سبعين قطعة بحرية (٣٥) .

وهكذا فاننا نرى ان الحملة الصليبية السادسة كانت على درجة من القوة والاستعداد ، ويؤكد ذلك ، ما فعله الامبراطور فردريك الثاني . فبعد قدومه الى فلسطين استولى على بعض المناطق في الساحل ، كصيدا ويافا وقيسارية ، وراح يزيد في تحصيناتها (٣٦) . ثم ان الجيش الذي تحرك نحو قيسارية كان مؤلفا من ٨٠٠ فارس و ١٠,٠٠٠ من المشاة (٣٧) . ومع ذلك فان قوات الكامل آنذاك كانت من القوة والمنعة ما تستطيع به التصدي للصليبيين والايقاع بهم . الا ان الكامل خرج بقواته الى فلسطين لا للوقوف في وجه الصليبيين بل لانتزاع بيت المقدس من ابن أخيه الناصر داود ، لتسهيل مهمة تسليمها للصليبيين ، كما نصت على ذلك المعاهدة المعقودة بين الطرفين ثم اقام في غزة بانتظار وصول

الامبراطور الى فلسطين . وهذا الموقف يذكرنا بموقف الافضل شاهنشاه من جموع الحملة الصليبية الاولى للاراضي المقدسة ، فقد خرج من مصر بقواته وانتزع بيت المقدس من الاميرين سكمان وايلغازي بعد سقوط انطاكية بشهر واحد (٣٨) . فكلاهما تعاهد مع الصليبيين وفرط ببيت المقدس . فالافضل خرج من مصر وانتزع القدس من الاراتقة ، بينما كان الصليبيون متوجهين اليه ، والكامل خرج من مصر وانتزع القدس من الناصر داود صاحب دمشق ، بينما كان فردريك الثاني في طريقه للاراضي المقدسة . ومصر في الحملتين الاولى والسادسة كانت من القوة والمنعة ما تستطيع به دفع المعتدين والتصدي لهم والانتصار عليهم .

ولما شعر الكامل محمد ان حصار دمشق قد طال بقيادة اخيه الاشرف موسى — وكانا قد اتفقا على انتزاع املاك ابن أخيهما الناصر داود واقتسامها فيما بينهما — وان مشاعر الكراهية ضده قد ازدادت ، حتى من داخل قواته (٣٩) . فقد عارضه امراء جيشه ومنهم الامير سيف الدين بن زكرى الذي اشار عليه ضرورة الاتحاد مع أخيه الاشرف وابن أخيه الناصر داود ، فيجتمع ثلاثتهم ويقاتلوا العدو (فاما لنا واما علينا ، ولا يقال عن السلطان انه اعطى الفرنج القدس) (٤٠) . وخشي الكامل ان يؤدي ذلك الى ثورة عارمة ضده تطيح بملكه ، فأسرع الى انهاء المفاوضات ، وعقد معاهدة مع الصليبيين في ٢٨ ربيع الاول ٦٢٦ هـ (٢٥ شباط ١٢٢٩ م) ، سلم بموجبها بيت المقدس اليهم (٤١) . بالاضافة الى الناصرة وبيت لحم واللد والقرى الممتدة على طول الطريق بين القدس وعكا (٤٢) . فالكامل محمد اتفق مع الصليبيين على القدوم الى الاراضي المقدسة ، وكانت له اطماعه في الاستيلاء على بلاد الشام واضعاف خصومه فيها ، فاستعان بالصليبيين من أجل ذلك . ويؤكد ابن واصل ذلك حيث يقول : (ورأى الملك الكامل انه ان شاقق الامبراطور ولم يف له بالكلية ان يفتح له باب محاربة مع الفرنج ويتسع الخرق ويفوت عليه كلما خرج بسببه) (٤٣) . واما المؤرخ اللاتيني: Roger of Wendover فيذكر ان الحروب الداخلية انهكت الملك الكامل فآثر عقد المعاهدة مع الفرنج لمدة عشر سنوات بدون اراقة دماء (٤٤) .

ولم يغفر المؤرخون المعاصرون له هذه الزلة ، فنعتوه بالخيانة والتقصير واعتبروا ذلك العمل وصمة في الدين ، وحزن المسلمون لخروج القدس من ايديهم ، وانكروا على الملك الكامل هذا الفعل (٤٥) . وقامت المآتم في جميع بلاد المسلمين واستعظموا ذلك واكبروه واستشنعوه منه (٤٦) . وجلس سبط ابن الجوزي في الجامع الاموي يذكر للمسلمين ما جرى على البيت المقدس ، وذكر ما في تسليمه من الصغار للمسلمين والعار ، وعلق هو نفسه على هذه الحادثة في تاريخه فقال : (يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة) (٤٧) . ووصف

ابن واصل الناس في الجامع الاموي قائلا : (وكان يوما مشهودا وعلا يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم) (٤٨) .

اما تعليق الكامل على هذه الضجة التي اجتاحت العالم الاسلامي فقوله : (انا لم نسمح لهم الا بكنائس وآدر خراب ، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين) (٤٩) . وذكر ابن واصل ان الكامل اذا قضى غرضه واستتبت الامور له ، سيبادر الى تطهير البيت المقدس من الفرنج واخراجهم منه (٥٠) . ولكن تقديرات الكامل كانت خاطئة ، فقد توفي ولم يتمكن من استرداده ، او حتى مجرد التفكير في تحريره من الصليبيين ، وكانت وصمة عار في تاريخه .

استيلاء الكامل محمد على دمشق :

ارسل الكامل اخاه الاشرف لحصار دمشق ، وبقي هو في فلسطين (لتتميم امر الصلح مع الفرنج وليخلو سره من جهتهم) (٥١) . وبعد توقيع المعاهدة توجه الى دمشق ، وشددت قواته الحصار على الناصر داود الذي اضطر الى الاتفاق مع عميه وقررا له : (الكرك والشوبك واعمالهما ، والصلت والبلقاء والاغوار جميعها ، ونابلس واعمال القدس وبيت جبريل) (٥٢) . ثم دخلت قواتهما دمشق بين مشاعر السخط من أهلها ، ويصور ابن واصل مشاعر الدماشقة قائلا : (وما رايت يومئذ احدا من الدمشقيين الا ورأيته في صورة من فجع بموت ولد أو أب) (٥٣) . ثم غادر الناصر داود دمشق ، وتسلم البلاد التي عينت له مكونا : امارة الكرك الايوبية ، وذلك في شعبان ٦٢٦ هـ (تموز ١٢٢٩ م) .

وقد لعبت هذه الامارة دورا له اهميته في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، وتحملت عبئا كبيرا في مقارعة الوجود الصليبي في فلسطين ، واتسعت رقعتها فشملت كل منطقة شرقي الاردن ، ومعظم الاراضي الفلسطينية (٥٤) . ثم كان لها دورها في مرحلة الصراع الذي نشب من جديد بين الملوك الايوبيين ، فأصبحت اذ ذاك تمثل مركزا لتوازن القوى بين القاهرة ودمشق . ويعبر اليونيني عن ذلك على لسان احد الامراء موجها كلامه للكامل : (انت واخوك ــ أي الاشرف موسى ــ مثل الميزان لا يرجح عليك ولا ترجح عليه ، وقد بقي بينكما الملك الناصر داود ، فالى اي جهة مال ترجحت) (٥٥) .

الناصر داود يحرر بيت المقدس :

نصت معاهدة الصلح التي عقدها الكامل محمد مع فردريك الثاني على تسليمه القدس شريطة ان لا تجدد اسواره . اما القرى الواقعة في منطقة القدس فتبقى بأيدي المسلمين ، ويعين وال عليها يكون مقامه في قريــة البيرة شمالي القدس (٥٦) . وبقي بيت المقدس بيد الفرنج طيلة حياة الكامل محمد ، ولم يفكر في استرداده منهم كما وعد ، علما بأنه كان يستطيع ذلك بما لديه من قوات . اضف الى ذلك انه جمع حوله معظم الملوك الايوبيين في الشام ، وحاول التوسع شرقا على حساب السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم ، وانتزاع ما بيده من بلاد (٥٧) . ولكنه لم يحاول بهذه القوات تحرير بيت المقدس من الفرنج .

وفي رجب ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) توفي الكامل محمد وبيت المقدس بيــد الفرنج . وبعد وفاته عاد التمزق والانشقاق الى صفوف البيت الايوبي ، فاهتبل الفرنج هذه الفرصة واخذوا يعززون وجودهم في المدينة المقدسة وفلسطين ، فأعادوا بناء بعض اسوار القدس ، ثم عمروا في غربيه (قلعة جعلوا برج داود عليه السلام من ابراجها) (٥٨) وشجنوا هــذه القلعة بالاجناد والعتــاد (٥٩) . وصاروا يضيقون على المسلمين ، ويحاولون السيطرة على اجزاء أخرى مــن فلسطين ، فقاموا بزعامة ثيوبالد الكمباني : Théopald of Champagne بتحصين عسقلان وغيرها اثر وصول جموع صليبية الى فلسطين (٦٠) ، واستولوا ايضا على قافلة تجارية اسلامية قرب نهر الاردن كانت في طريقها الى دمشق(٦١) . عندئذ رأى الملك الناصر داود صاحب الكرك وجــوب استنقــاذ القدس مــن الصليبيين ، فالمنهاجي السيوطي ذكر ان الناصر داود كان يعمل منذ قدومه الى الكرك (على استنقاذ بيت المقدس من أيدي الفرنج وتطهيره من أرجاسهم وادناسهم) (٦٢) . وهكذا قر عزمه على تحرير القدس خصوصا وان عمه الكامل الذي كان يؤيد بقاء القدس بيد الصليبيين قد توفي (٦٣) .

فحشد الناصر داود قواته . وسار من الكرك باتجاه القدس (٦٤) ، وكان الصليبيون لايتوقعون هذا الهجوم ، سيما وان الخلاف والانقسام بين الايوبيين كان على أشده ، اما هم فكانوا في شغل شاغل بسبب احتفالهم (بيوم عيدهم الاكبر) (٦٥) . فحاصر الناصر داود بيت المقدس ، وقسم قواته الى فرق وضع كل فرقة في مكان اعده لها ، ثم نازل القلعة ونصب عليها المجانيق (٦٦) . وقبيل فجر ذلك العيد هجمت قواته على القدس فدهش الفرنج (وحاروا حين سمعوا

التكبير من كل جانب من جوانب البلد ، ووضع المسلمون فيهم السيف) (٦٧) . واجتاحت قوات الناصر القدس وذلك في جمادى الاولى ٦٣٧ هـ (كانون اول ١٢٣٩ م) ، وطهروه من الفرنج (٦٨) . أما القلعة فبقيت محاصرة مدة سبعة وعشرين يوما واخيرا (سلمت اليه بالامان ، ولما سلمت اليه هدمها ، وهدم برج داود عليه السلام) (٦٩) ، وسواها بالارض . ثم سمح الناصر داود للفرنج بمغادرة القدس (٧٠) ، وهذا التصرف يذكرنا بما فعله صلاح الدين الايوبي مع الفرنج عند تحريره للقدس في سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) .

ثم كتب الناصر من انشائه الى الخليفة العباسي المستنصر بالله يبشره بهذا الفتح المبين (٧١) ، كما أمر بكتابة البشائر الى سائر الممالك الاسلامية يخبرهم بفتح بيت المقدس وتحريره من الفرنج (٧٢) واتفق عند هذا الفتح وصول محي الدين ابن الجوزي رسول الخليفة العباسي للتوفيق بين الملوك الايوبيين(٧٣) وصحبته الشاعر جمال الدين بن مطروح، فقال ابن مطروح بهذه المناسبة قصيدة يمدح فيها الناصر داود ويمثله بالناصر صلاح الدين الايوبي ، نقتطف منها الابيات التالية :

المسجد الاقصى لـه عادة سارت فصارت مثلا سائرا
اذا غدا بالكفر مستوطنـا ان يبعث الله لـه ناصرا
فنـاصـر طهـره اولا وناصـر طهـره آخرا (٧٤)

اما المنهاجي السيوطي فقال : (ثم رجع الناصر بعد تمام هذا الفتح المبين الى الكرك ، وقد سطرت هذه المثوبة في صفحات حسناته ، وتواردت الالسن بالثناء له وشكر مساعيه المثوبة المحمودة) (٧٥) .

مناقشة وخاتمة :

يوجد في تاريخنا الكثير من السلبيات ، وعلينا ان لانركز في كتاباتنا على الوجه المشرق فقط ، فلدينا الجانب المظلم من هذا التاريخ . وباعتقادي أن دراسة تلك الجوانب المظلمة واجب قومي على باحثينا تقع مسؤولية تحمل عبئه ، لنأخذ من تلك الاحداث العظة والعبرة .

فبيت المقدس اصبح سلعة في فترة الصراع المرير بين الملوك الايوبيين في مصر والشام ، فكانوا لايجدون حرجا في عرضه على الصليبيين بين الفينـة

والاخرى . فالكامل محمد صاحب مصر عرض تسليم القدس الى الصليبيين في الحملة الصليبية الخامسة على دمياط ، مقابل جلائهم عن الاراضي المصرية ، ثم استدعاهم الى فلسطين وسلمهم بيت المقدس في الحملة الصليبية السادسة. اما الصالح اسماعيل صاحب دمشق فقد عقد صفقة مع الصليبيين بموجبها سلمهم القدس ، مقابل مساعدتهم له عسكريا في حربه ضد الصالح نجم الدين ايوب صاحب مصر ، بل زاد على ذلك فمنحهم طبرية وعسقلان وكوكب الهواء (٧٦) . وكان رسوله في اتمام الصفقة الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص الذي ذهب بنفسه (الى عكا واجتمع بالفرنج وقرر معهم أن يمضوا معه لحرب الملك الصالح فأجابوه الى ذلك) (٧٧) .

وقد سلطنا الاضواء في هذا البحث على الملك الناصر داود ودوره في مقارعة الصليبيين وتحريره لبيت المقدس سنة ٦٣٧ هـ . فالمراجع الحديثة صمتت عن دوره في تحرير البيت المقدس ، ولكنها ركزت على تحريره من قبل الخوارزمية سنة ٦٤٢ هـ بعد استدعائهم للشام من قبل الصالح نجم الدين ايوب . ونؤكد هنا ان الفرنج لم يكونوا في القدس حال دون الخوارزمية اليه ، فابن واصل ذكر ان الناس جفلوا بين أيديهم حال تقدمهم الى بلاد الشام ، حتى ان قوات الصالح اسماعيل عادت من غزة الى دمشق . أما عن فرنج القدس فقال : (وهربت الفرنج الذين كانوا بالقدس بعد استيلائهم عليه) (٧٨) . فقوات الفرنج خرجت من القدس حال سماعهم بمقدم الخوارزمية . اما نقمة الخوارزمية فوقعت على نصارى القدس دونما تمييز ، ويؤكد ابن واصل ماذهبنا اليه فيقول : (وهجمت الخوارزمية القدس ، وبذلوا السيف فيمن كان فيه من النصارى ، ولم يبقوا على احد منهم ، وسبوا ذراريهم ونساءهم ودخلوا كنيستهم المعروفة بقمامة)(٧٩) فنقمة الخوارزمية لم توجه ضد القوات الفرنجية ، بل الى أهالي بيت المقدس من النصارى ، لان الفرنج غادروا القدس حال سماعهم اجتياح الخوارزمية لبلاد الشام .

ولذا فاننا نرى ان القدس لم يحرره الخوارزمية سنة ٦٤٢ هـ كما هو متعارف عليه في مراجعنا الحديثة ، فالتحرير يكون بقوة السيف ومواجهة قوات عسكرية وقتال مرير كما حدث سنة ٥٨٣ هـ عندما حرره صلاح الدين الايوبي ، وسنة ٦٣٧ هـ عندما حرره الناصر داود بن المعظم عيسى . وكل مافعله الخوارزمية هو اجتياح المدينة المقدسة والانتقام من سكانها النصارى ، تماما كما فعلوا بالمسلمين في بقية بلاد الشام ، عند اجتياحهم لها . وهذا ما أكده ابن واصل حيث قال : (فاجفل الناس بين ايديهم وما مروا بموضع الا ونهبوه وعاثوا

به) (٨٠) . اما عن المدة التي مكثها الفرنج في بيت المقدس بعد ان سلمها لهم الصالح اسماعيل ، فكانت شهورا قليلة ، فقد غادروها قبل وصول الخوارزمية للقدس .

وعلى ذلك فالملك الناصر داود صاحب الكرك هو الذي حرر بيت المقدس بعد ان سلمه الكامل محمد صاحب مصر للصليبيين ، وبقي القدس بيد المسلمين قرونا عديدة ، اللهم الا تلك الشهور القليلة التي اشرنا اليها في بحثنا هذا .

---

(١) ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٣ م ، ج ١ ص ٤١٩ – ٤٢٢

ابن واصل ، مفرج الكروب ، تحقيق حسنين ربيع وسعيد عاشور دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ م ، ج ٥ ص ١١٢

ويذكر اليونيني انه لقب بأبي المظفر ايضا (الذيل على مرآة الزمان ج ١ ، ص ١٢٦) .

(٢) ابن شاكر الكتبي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٩ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ج ٣ ص ٤٩٦

(٣) الكرك : بفتح الكاف والراء وكاف اخرى ، اسم لمدينة وقلعة مشهورة في طرف الشام من نواحي البلقاء من ناحية جبال الشراه ، وهي على سن جبل عال تحيط بها اودية سحيقة الا من جهة الربض (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ق ١ ص ٣٦٢) .

وعن اصل الكلمة ومشتقاته انظر للباحث : امارة الكرك الايوبية ، عمان ، ١٩٨٠ م ، ص ٤٥ وما بعدها .

(٤) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٥٨ وللباحث امارة الكرك الايوبية ، ص ٢٢٤

(٥) اليونيني ، الذيل على مرآة الزمان ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، الهند ، ١٩٥٤ – ١٩٦١ ، ج ١ ص ١٢٧

(٦) اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٨

(٧) اليونيني ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٢٧ – ١٤٨ ، ابن شاكر الكتبي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٩ ، ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٥ – ٤٠ ، وللباحث امارك الكرك الايوبية ص ٢٣١

(٨) اليونيني ، المصدر السابق،ج ١ ، ١٢٧ ، ابن شاكر الكتبي، المصدر نفسه ، ج١ ص٤١٩

(٩) ابن شاكر الكتبي ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ٤١٩ ، ومن المعروف ان الايوبيين كانوا على المذهب الشافعي ماعدا المعظم عيسى وابنه الناصر داود ، فقد كانا على المذهب الحنفي (ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢١١) .

(١٠) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢١٤

(١١) المصدر نفسه ، ص ٢١٨ ، ج ٥ ص ٣٨

(١٢) ابن شاكر الكتبي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٢٦ ، ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ١١٩

(١٣) اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٥

(١٤) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٤٢

ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية ، ج ٦ ص ٢٥٧

(١٥) معرة النعمان : سميت كذلك نسبة الى النعمان بن بشير الصحابي ، وهي مدينة كبيرة تقع بين حلب وحماه ، وتشتهر بالزيتون والتين والفستق (لي سترانـج ، فلسطين في العهـد الاسلامي ، عمان ، ١٩٧٠ م ، ص ٤٧٧) .

سلمية : هو حصن كالمدينة تقع على طرف البادية ومن سلمية الى حمص اربعة وعشرون ميلا (الادريسي ، القسم الخاص بفلسطين وسورية من نزهة المشتاق ، بون ، المانيا ، ص ٢٦) .

(١٦) سنجار : قرية تقع في اقليم جبل سمعان الى الغرب من حلب (لي سترانج ص ٤٠٣) .

اخلاط : او خلاط ، بلدة واسعة ذات خيرات كثيرة ، وهي قصبة ارمينية الوسطى ولها بحيرة جميلة (ياقوت ، ج ٢ ، ص ٣٨٠) .

(١٧) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢٧

(١٨) اربل : مدينة كبيرة تقع بين الزابين وتبعد عن الموصل مسافة يومين ولها قلعة حصينة (القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦٦) .

(١٩) لمزيد من التفاصيل عن هذا التحالف انظر كتابي ، امارة الكرك الايوبية ص ٢١١ ــ ٢١٢

(٢٠) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، مخطوط مصدر طبع شكاغو ، ج ٨ ، ص ٤١٧ ، الذهبي : دول الاسلام تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، ج ٢ ، ص ١٣٢

وللباحث ، امارة الكرك الايوبية ، ص ٢١٠

(٢١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٤ ص ١٧٧

(٢٢) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٠٦

الذهبي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٢

Eracles, Recueil des Historiens, H. occ. Vol. 2, p. 528.

Michaud's, History of the Crusades, translated by : W. Robson, London, 1852, Vol. 2, P. 273.

Ibid, P. 273. (٢٣)

(٢٤) الشوبك : قلعة حصينة في اطراف الشام بين عمان وآيلة قرب الكرك . (البغدادي ، مراصد الاطلاع ، ج٢ ص ١٣٢) .

(٢٥) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٢٥

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٤٨٠

ابن واصل : المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٢٧

(٢٧) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٣٤

(٢٨) سعيد عاشور ، مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٧٢ م ، ص ٨٦

Runciman, A History of the Crusades, Vol. 3, PP. 183-184.

(٢٩) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٣٤

Roger of Wendover, The Crusade of Frederick II, From Christian Society and the Crusades, Sources of Medievall history, Edited by Edward Peters, Pennsylvania, 1971, P. 148.

Runciman, op. Cit. Vol. 3, P. 178.

(٣٠) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٤٢٤

Recueil des Historiens des Croisades H. Orientaux, vol. 4, P. 185.

(٣١) سبط ابن الجوزي ، المصدر نفسه ، ص ٤٢٧

(٣٢) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٣٤

الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ص ١٣٢

(٣٣) **Roger of Wendover,** op. Cit. P. 148.

(٣٤) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٣٣

(٣٥) **Philip of Novara,** The Crusade of Frederick II, Source of Medieval history. From Christian Society and the Crusades, Edited by Edward Peters, Pennsylvania, 1971, P. 157.

(٣٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ص ٤٧٧

ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٣٥

Eracles, Recueil des Historiens des Croisades, H. occ. Vol. 2, P. 372.

(٣٧) **Roger off Wendover,** op. op. cit., p. 151.

(٣٨) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ١٠٤

وللباحث بيت المقدس في الحملة الصليبية الاولى ، بحث القي في المؤتمر الدولي الثالث لبلاد الشام ، عمان ، نيسان ١٩٨٠ م .

(٣٩) **Michaud's,** op cit. vol. 2, P. 278.

(٤٠) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ص ٢٢٤

(٤١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ص ٤٨٢

ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٤٢

Roger of Wendover, op. cit. P. 152.

(٤٢) ابن واصل ، المصدر السابق ،ج ٤ ص ٢٤٢

اليونيني : الذيل على مرآة الزمان ، ج ١ ص ١٢٩

Philip of Novara, op. cit. P. 158.

Michaud's, op. cit. P. 278.

(٤٣) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٤٢

(٤٤) Roger of Wendover, op. cit. P. 152.

(٤٥) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٤٣

(٤٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٤٨٢

ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٤٣

(٤٧) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٤٣٢

(٤٨) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٤٦

(٤٩) ابن واصل : المصدر نفسه ، ج٤ ص ٢٤٣

(٥٠) المصدر نفسه ، ص ٢٤٣

(٥١) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٤١

(٥٢) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٦

(٥٣) المصدر نفسه ص ٢٥٧

(٥٤) ابن واصل ، المصدر نفسه ج٥ ص ١٧٥ ـ ١٩٢

اليونيني : الذيل على مرآة الزمان ، ج ١ ص ١٣٨

(٥٥) اليونيني ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٣٨

(٥٦) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٤١

(٥٧) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج٥ ص ٧٤

(٥٨)ابن واصل : المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٢٤٦ . وانظر : اليونيني ، الذيل على مرآة الزمان ج ١ ص ١٤١

(٥٩) المنهاجي السيوطي : اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى ، مخطوط بجامعة برنستون ، اميركا رقم ٥٨٥٠ لوحة ٧٨ ب .

(٦٠) هاملتون جب ، صلاح الدين الايوبي ، ترجمة يوسف ابيش ، بيروت ١٩٧٢ م ، ص٢٢٢

(٦١) رانسمان ، ج ٣ ص ٣٧٣

(٦٢) المنهاجي السيوطي ، المصدر السابق لوحة ٧٨ ب .

(٦٣) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٤٢٣

(٦٤) ابن شاكر الكتبي ، المصدر نفسه ، ص ٤٢٣

(٦٥) المنهاجي السيوطي : المصدر نفسه لوحة ٧٩ أ .

(٦٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٢٤٧

(٦٧) المنهاجي السيوطي : المصدر نفسه : لوحة ٧٩ ب .

(٦٨) هاملتون جب : المصدر السابق ، ص ٢٢٣

(٦٩) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٤٧ وانظر :

Michaud's, op.cit. voll. 2, P. 293.

Benvenisti, The Crusaders in the Holy Land, New York, 1972, P. 48.

(٧٠) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٢٤٧

(٧١) راجع نص هذه الرسالة في ملاحق كتابي (امارة كرك الايوبية) ص ٢٦١

(٧٢) المنهاجي السيوطي : المصدر السابق ، لوحة ٧٩ ب .

(٧٣) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٤٨

(٧٤) ابن واصل : نفس المصدر ، ص ٢٤٧

اليونيني : الذيل على مرآة الزمان ، ج ١ ص ١٤٣

ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ١ ص ٤٢٤

(٧٥) المنهاجي السيوطي : المصدر نفسه ، لوحة ٧٩ ب .

(٧٦) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٣٢

(٧٧) المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٣٣

(٧٨) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٣٧

(٧٩) ابن واصل : المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٣٧

(٨٠) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٣٦

* * *

التنظيم العسكري عند العرب المسلمين
فترة النشأة والتكوين

د . أحمد بدر

رئيس قسم التاريخ ـ جامعة دمشق

يرتبط انشاء الجيش المنظم بوجود الدولة ، أي ما افتقده العرب البدو قبل الاسلام ، لذلك لم يكن لهم جيش بالمعنى الدقيق للكلمة ، رغم ان حياتهم كادت تكون حرباً دائمة ، وقدراتهم القتالية واقدامهم في الحرب جعلت منهم محاربين مثاليين الى الحد الذي دفع ابن خلدون كي يجعل من انتصارهم في الحروب التي يواجهون فيها الحضر قاعدة مطردة وقانوناً عاماً يتجاوز مجتمعاً معيناً وعصراً محدداً . اما العرب المتحضرون الذين اقاموا ، دولاً ، كدول اليمن وتدمر والانباط ، فكانت لهم جيوشهم المنظمة التي خاضت حروباً هجومية او دفاعية معروفة ومشهورة شهرة مستفيضة .

وتقدم لنا القبائل التي تنتقل الى مرحلة التحضر وانشاء الدول نموذجاً لكيفية التدرج في ارتقاء التنظيم العسكري والتلازم بينه وبين درجة التحضر وكذلك انسجامه مع الشكل العام للسلطة في هذه المجتمعات . وهكذا ظهر لدى القرشيين المتحضرين في مكة نظام عسكري قائم على مهام متعددة وزعت على البطون ، شأنه في ذلك شان تنظيماتهم الأخرى . اشتهر من هذه المهام القيادة وهي امارة الركب ، التي يقود صاحبها الركب في خروجهم للقتال أو للتجارة وكانت لبني أمية . وفي الحرب كانت لهم رايتهم العامة المسماة بالعقاب ، واسندت مهمة نشرها لبني عبد الدار . كذلك كانت قيادة الخيل في المعركة مهمة خاصة يدعونها « الأعنة » ، ومثلها « القبة » فكانوا اذا خرجوا للحرب ضربوا خيمة كبيرة يجمعون فيها ما يجهزون الجيش به ، وتشبه ما يسمى في عصرنا الحاضر بالمهمات الحربية ، وظهر لدى الغساسنة والمناذرة تنظيم اكثر تعقيداً ، اذ اشتهرت عند آل جفنة كتيبتا الملحاء والشهباء ، بينما برزت لدى المناذرة الاكثر تحضراً اسماء خمس كتائب ، كان احد ملوكهم يغزو بها ويوجهها

وهي : الشهباء التي تضم اخوته وبني عمه ومن معهم من اعوانهم وعبيدهم ، وقد سميت بذلك لبياض وجوههم ، واياهم عنى الاعشى بقوله « وبني المنذر الاشاهب » . اما الرهائن فرهائن العرب ، ودوسر اشتهرت بشدة بطشها حتى اصبحت مضرب المثل فيقال : ابطش من دوسر . واما الصنائع فبنو قيس وتيم اللات ، واما الوضائع فالف رجل من الفرس وجههم كسرى اعواناً فكانوا يقيمون سنة وينصرفون ليحل غيرهم محلهم .

الاساس الايديولوجي للحرب ـ الجهاد :

ظهر الاسلام كدعوة للايمان بما جاء من عند الله ، وبلغها رسوله الكريم ، ثم اضحى بعد الهجرة دولة مختلفة عن كل الدول التي قامت من قبل . فدولة الاسلام لم تكن دولة قبيلة او مملكة تخضع لأمر الشيخ او نزوات الملك ، وانما تعمل بأوامر الله التي يبلغها رسوله ، كذلك تكون مجتمع هذه الدولة من مجتمع لا تربط بين افراده طاعة الملك او رابطة الدم المتمثلة بالنسب والقرابة ، وانما رابطة الايمان ، وانعكس ذلك على طبيعة الحرب التي تخوضها وهدفها ، فلم تعد غزواً للآخرين بغاية الغنيمة والكسب كما هي الحال في حروب القبيلة ، كما لم تهدف الى توسيع الملك وتضخيم السلطان والاستزادة من الثروة والمال ، وانما حرباً لخدمة الدعوة وفي مصلحتها ، للدفاع عن معتنقيها وتأمين حرية انتشارها وسعياً لتطبيق شريعتها ، وهذه الحرب هي الجهاد وهو الشكل الوحيد من الحروب الجائزة ، اما ما عداها فهي حروب بغي وعدوان . وقد عبر ابن خلدون عن هذه الأفكار بقوله « اعلم ان الحروب وانواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله واصلها ارادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيته فاذا تذامروا . . . كانت الحرب ، وهو امر طبيعي في البشر لا تخلو عنه امة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الأكثر اما غيرة ومنافسة واما عدوان واما غضب لله ولدينه واما غضب للملك وسعي في تمهيده . فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة . والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الامم الوحشية الساكنين بالقفز كالعرب والترك والتركمان والاكراد واشباههم لانهم جعلوا ارزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم . . . والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها . فهذه اربعة أصناف من الحروب الصنفان الاولان منها حروب بغي وفتنة والصنفان الاخيران حروب جهاد وعدل » .

تعني كلمة الجهاد لغوياً الجهد الموجه نحو هدف معين ، اما في الاصطلاح فتطلق على معنيين ، الاول مرادف للمجاهدة أي الجهد الموجه نحو الذات يهدف

الوصول الى الكمال خلقياً ودينياً . ويسمى بعض المفكرين المسلمين المجاهدة باسم الجهاد الروحي أو الاكبر ، مقابل المعنى الثاني للجهاد وهو المعنى الحربي الذي يسمونه الجهاد الجسدي او الاصغر ، ومع ذلك فان الاستخدام الاكثر شيوعاً وعمومية هو الجهاد بمعنى محاربة اعداء الدين ، وهذا المعنى الاخير هو البارز والظاهر بشكل اوضح في الفترة الاولى التي نتحدث عنها . وقد نظمت الشريعة هذه العملية من نواح متعددة ؛ امراً بهـا وتوجهها وغايتها ، وهكذا كانت الآيات القرآنيـة التي تنزل على الرسول حسب مقتضى الحال تتوالي وتحتوي في جملة ما تحتوي عليه ، هذا الشكل من الجهاد في قتال ومحاربة اعداء الدين منذ الهجرة الى ما قبيل وفاة الرسول الكريم ؛ بدات بآيات من سورة الحج وانتهت بآيات من سورة براءة ، ويتجلى فيها تطور متناسب مع اوضاع المسلمين خلال هذه الفترة ، اذ يتجلى الطابع الدفاعي عند ما كان المسلمون ضعفاء والهجومي عندما اصبحوا اقوياء ، وهكذا يرد في سورة الحج « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيـع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز » . وتدل آيات أخرى على ان الحرب حالة طارئة على الوضع الاساسي وهو السلم ، ولا تنبغي مباشرتها الا باذن ، ويخوضها المؤمن دفاعاً عن النفس والديار والعقيدة . وتظهر القاعدة نفسها في الرد بالمثل سواء عند التجاوز على حرمة الحياة والنفس أو حرمة الاماكن المقدسة ، كما يظهر ذلك في آيات من سورة البقرة « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين» واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلونكم فيه ... وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عـدوان الا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليـه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين » .

بعد الانتصارات المدويـة التي احرزها المسلمون مثل فتـح مكة وبسط السيادة على الجزيرة العربية وتطلعهم لنشر الدين الاسلامي خارجها بتأمين حرية الدعوة له ، اصبح التشريع بدفعهم للهجوم كما يظهر ببعض آيات سورة التوبة التي تشير الى ضرورة العمل ضد المشركين مثل الآية ٣٨ « يا ايها الذين آمنوا ان المشركين نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا .... » ثم

تنتقل للأمر بقتالهم حيث كانوا (الآية ٢٩) « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » وترد في الآيات مبررات ذلك مبرزة التناقضات في العقيدة بين المسلمين وبينهم وإشراكهم بالله وكذلك ظلم كهنوتهم الاجتماعي ووقوفهم في وجه الاسلام « يا ايها الذين آمنوا ان كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » . وفي الآية ٣٣ « يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون » . وتجعل الآية (٣٦) حكم غير المسلمين واحداً على اختلاف معتقداتهم ودياناتهم .... وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين » . وهناك اتجاه آخر يحاول ان يجعل الأمر بمحاربة أهل الكتاب غير مطلق ولا يخص جميعهم ، اذ يرد في الآية « من الذين اوتوا الكتاب ... » ومن هذه للتبعيض تدل على البعض الذي بغى واعتدى بدليل الآيتين السابقتين. وقد نزلت هذه الآيات في اجواء التوجه لقتال الجماعات والقبائل التي تصدت لقوافل المسلمين في الشمال وتجمع بعض القبائل لغزو المدينة . وكذلك قتل مبعوث رسول الله الحارث بن عمرو الى ملك غسان كما قتل فروة الجذامي وهو عامل من عمال الروم اسلم (٤) . ومن ناحية اخرى فقد استثنت الآيات من القتال المشركين المرتبطين بعهد مع المسلمين كما ورد في الآية ٤ « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم احداً » .

وقد اعتبر الجهاد بالمعنى الحربي فرضاً استناداً للآية الكريمة (٢١٦ سورة البقرة) « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ...) لكنه فرض مختلف عن غيره من الفروض الدينية الاخرى لكونه فرضاً على الجماعة لا على الفرد كالصلاة . فاختلف المجتهدون والفقهاء حول صفته ، هل هو فرض عين ام فرض كفاية ؟ واعتبرته الغالبية فرض كفاية استناداً الى الآية ١٢٢ من سورة التوبة « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » والآية ٩٤ من سورة النساء التي يرد فيها ما ينص على أجر الطرفين القائم بالجهاد والقاعد عن ضرورة « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وانفسهم وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجراً عظيماً » . كما ان افعال الرسول الكريم وأعماله تفيد ذلك فلم يخرج قط للجهاد الا وترك في المدينة بعض الناس كما يروى عن انس قوله « كان النبي (ص) في غزاة فقال ان اقواماً بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً الا وهم معنا فيه حبسهم العذر » (٥).

ولم يلبث الفقهاء ان قاسوا على الاحكام الواردة في القرآن الكريم والحديث في القضايا المستجدة وتحديد ما بدا من الاحكام عاما بالنسبة لها ، ومن ذلك ما يتعلق بقضية كون الجهاد فرض كفاية اذا قام به البعض سقط عن البعض الآخر ، فمن هو هذا البعض الذي يقوم به ؟ وما هو المعيار الذي يحدد هذا البعض ؟ فربطت الغالبية بين هذه البعض وتحقيق الغاية فقالت انه كل من يلزم لتحقيقها وهكذا تتوسع حدود البعض أو تضيق تبعاً لوضع الحرب ، حتى انها تشمل الجماعة كلها في حالة مدينة محاصرة او جماعات مقيمة على الحدود وبالتالي تجعل الفارق يتلاشى بين فرض العين وفرض الكفاية .

تبقى الى جانب آراء الاغلبية هذه آراء متباينة لجماعات متميزة ضمن اطار المسلمين كالخوارج الذين يجعلون الجهاد فرض عين ، وقامت في الطرف الآخر والجانب المعاكس جماعات تجعله فرض كفاية وفي حدود دنيا . وربما تأثر هؤلاء بالجو المحيط من فقدان عملية محاربة اعداء الاسلام لشيء من عنصرها الروحي لحساب الميل الى جمع الغنائم ، وكذلك لاستقرار المجتمع النسبي وانغماس قطاعات واسعة منه في الفعاليات الاقتصادية ، وهكذا ينسب لعطاء المتوفى سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ ـ ٣٣ م رأي يشدد على ضرورة التمسك بتحريم القتال في الشهور الاربعة الحرام . كما ينسب لسفيان الثوري المولود سنة ٩٧ هـ/٧١٥ راي يقول بأن الجهاد فرض في حالة الدفاع فقط ، الاانه في حالات الهجوم مندوب ، وفي وقت متأخر اكثر تبني الجاحظ رأي سفيان الثوري هذا ،كما ان عبد الله بن الحسن يرى ان الجهاد مجرد تطوع (٦) .

مهما يكن من امر موقع الجهاد بين الفروض الدينية فان كلا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية تحض المسلمين عليه وتعد القائمين به بالاجر والثواب والمتخلفين والقاعدين عنه بالعقاب والعذاب ، فعندما دعا الرسول (ص) الناس لغزوة تبوك وتثاقلوا لما هم فيه من عسر وشدة وحر تنزلت الآيات التي تحض على هذا الأمر ومنها ، الآية ٣٨ من سورة التوبة « يا ايها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل » وفي الآية التالية يأتي الوعيد « الا تنفروا يعذبكم عذاباً اليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً ان الله على كل شيء قدير » .

اما ثواب المقاتلين فقد نصت على جوانبه آيات كثيرة ، فهم الاعلون ولهم الرحمة ونصيبهم الجنة مقابل ما يبذلون ومن الامثلة عليها،الآية الكريمة(٢٠و٢١) من سورة التوبة « الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم

درجة عند الله واولئك هم الفائزون» «يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم» . والآية ١١١ « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » . واستثنت الآيات من هذه الاوامر اولئك القاعدين والمتخلفين لسبب قاهر عددت الآيتان ٩١ ـ ٩٢ من سورة التوبة انواعه بالقول « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين اذا ما آتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزناً لا يجدوا ما ينفقون » . وعلى ذلك نصت الآية ١٧ من سورة الفتح « ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج » .

وتأتي الاحاديث النبوية لتصور جوانب أخرى مما يحيق بالقاعد والمتخلف من عقاب وما ينتظر المجاهد والمستشهد من صور الاجر واشكال الثواب مثل الحديث الذي رواه مسلم وابو داود والنسائي قوله (ص) « من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق » بينما تجب الجنة لمن قاتل ولو قليلا وذلك في قوله : « اغزوا في سبيل الله فمن قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » كما ان خطاياه تغفر « قال رجل يا رسول الله ارأيت ان قتلت في سبيل الله اتكفر عني خطاياي . فقال : نعم وانت صابر محتسب مقبل غير مدبر » . ويصل الشهيد الى مرتبة الشفاعة كما في قوله (ص) « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » .

من ناحية اخرى تحض الآيات القرآنية على الثبات في الحرب والتعاضد والطاعة « يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين » (آية ٤٥ و ٤٦ من سورة الانفال) ، كذلك وصفت الآية (١٥ من سورة الحجرات) الطريقة المثلى للتقدم للحرب « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وتجعل جهنم وبئس المصير لمن ينهزم في الحرب كالآيتين (١٥ ـ ١٧) « يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

ومن ناحية اخرى احتوت الآيات القرآنية ما اتخذه الفقهاء تحديداً للثبات واعتباره غير مطلق « يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون

صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا الفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » فبنى عليها ان على المسلم ان يقف لعشرة من الكفرة ، ثم خفف هذا الحد الى اثنين في الآية « الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين » وهكذا يكون على المسلم الا ينهزم امام مثليه من الاعداء . لكن تطور القتال وتباين قوة الاسلحة وفعاليتها جعل الفقهاء يوجهون انظارهم نحو عناصر اخرى غير العدد لوضع حدود للثبات . وهكـذا ذهب المـاجشون الذي اعتمد على قول لمالك ابن انس « ان الضعف انما يعتبر في القوة لافي العدد ، وانه يجوز ان يفر الواحد عن واحداذاكان أعتق جواداً منه وأجود سلاحاً وأشدقوة» .

من ناحية اخرى حددت الآيات القرآنية والاحاديث ما هو جائز وما هو محرم من النكاية والاذى الذي يلحق بالعدو . والذي يمكن تصنيفه الى ما يمكن ان يقع في الاموال والاملاك أو في النفوس والرقاب . اما في النفوس والرقاب فتقول اية كريمة « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » ، وعند الاسر يمكن ان يقتل او يفتدى او يمن عليه اسوة بما فعل الرسول الكريم . ويستثنى من الاستعباد والقتل الرهبان لقول الرسول الكريم «فذرهم وما حبسوا انفسهم له» كما يروى ان الرسول لم يستعبد احرار ذكور العرب . وهناك رأي آخر لايرى ان امر الله وسنة الرسول ورد فيها شيء عام هو المذكور ، وورد الى جانبه ما يخصصه فضرب الرقاب العامة تخصصها آية اخرى هي « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وبالتالي فهي تستثنى غير المقاتلين ، ويدعمون رأيهم بما اثر عن نهي الرسول الكريم عن قتل اصحاب الصوامع والعاجزين والاطفال والنساء وهي اصناف غير مقاتلة ، فقد روى ابن عباس قول الرسول عند بعث جيوشه « لاتقتلوا أصحاب الصوامع » وروى أنس ابن مالك « لاتقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلا صغيراً ولا امرأة ولا تغلوا » . ويلحق بهؤلاء المستخدمون أو الاجراء (العسفاء) والفلاحين ، فقد روى رباح بن ربيعة « انه خرج مع رسول الله (ص) في غزوة غزاها فمر رباح واصحاب رسول الله (ص) على امراة مقتولة فوقف رسول الله (ص) عليها ثم قال : ما كانت هذه لتقاتل ، ثم نظر في وجوه القوم فقال لاحدهم « الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفاً ولا امرأة » وطبق عمر الشيء نفسه اذ روى عن زيد بن وهب قال « أتانا كتاب عمر رضي الله عنه وفيه لاتغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً واتقوا الله في الفلاحين » (٨) .

وفي مجال النكاية في الاملاك اباح الرسول الكريم اتلاف ما يقوي الاعداء ، فقد قطع كروم اهل الطائف وكان ذلك احد اسباب استسلامهم ، وأمر في حرب النضير بقطع نخيلهم ونزلت الآية مؤيدة لفعله « ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين » . وقد قاس الفقهاء فيما بعد على ذلك واباحوا اتلاف اشياء اخرى تؤدي الى اضعاف الاعداء كتغوير المياه عليهم أو قطعها (٩) .

انهاء الحرب :

ورد في القرآن الكريم آيات تجعل الحرب ضد الكفار مستمرة لا تنتهي الا باسلامهم او دفعهم الجزية كما في الآية (٥) من سورة التوبة « فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » وفي الآية (١٦) « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين » . واذا لم يسلموا « حتى يؤتوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . لكن الآية (٦٥) من سورة الانفال تجعل بالامكان انهاء الحرب بالسلم والموادعة اذ تقول « ان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه السميع العليم » وتسير السنة النبوية على النهج نفسه ، اذ كان الرسول الكريم يطلب من قواد سراياه ان يخيروا العدو بين ثلاث الاسلام او الجزية او الحرب ، لكنه وادع المشركين في صلح الحديبية . وقد اختلف الفقهاء بعد ذلك حول جواز مهادنة او مسالمة اعداء الاسلام ، وقد اعتبر الشافعي الآيات التي تدعو الى الجهاد ضد اعداء المسلمين حتى اخذ الجزية او الاسلام ناسخة لآيات سورة الانفال التي تجيز الصلح ، اما الاحتجاج بفعل الرسول في الحديبية فيصح على المهادنة الموقتة لا المسالمة ويجب الا يتجاوز امد هذه المهادنة مدة استمرار موادعة الحديبية . وقد شهد عصر الرسول والخلفاء الراشدين تطبيق هذه الموادعة مع جماعات مقابل شيء يدفعونه للمسلمين دون خضوع لهم مثل موادعة الرسول الكريم لاهل نجران (١٠) . وموادعة المسلمين في خلافة عثمان أهل النوبة عندما سألوا عبد الله بن سعد بن ابي سرح الصلح والموادعة « فأجابهم الى ذلك على غير جزية لكن على هدية ثلاثمائة رأس كل سنة وعلى ان يهدي المسلمون اليهم طعاماً بقدر ذلك » ووجد في عهد معاوية نموذج آخر عندما اعترف باستقلال امراء ارمينيا وفي حكم بلادهم حسب قوانينهم مقابل دفع كمية من المال والعين . وبناء على ما تقدم قسم الفقهاء العالم كله الى ثلاثة مناطق : ديار الاسلام حيث تسود

احكام الشريعة الاسلامية ويكون الحكم للمسلمين دون ان يعني ذلك كون المجتمع مسلماً بكامل افراده لوجود اتباع لديانات اخرى أيضاً ضمن صفوفه . ومقابل هذه الديار توجد دار الحرب التي لا سيادة للمسلمين عليها ، وبينهما تقع دار العهد التي لا تطبق فيها أحكام الشريعة ولها استقلالها وليس عليها للمسلمين سوى سيادة غير مباشرة يعبر عنها بدفع كميات من المال أو العين تقوم مقام الجزيــة .

الجيش

عناصر الجيش :

كونت نواته تلك المجموعات الصغيرة المعروفة بالسرايا التي كان يرسلهـا الرسول الكريم قبل موقعة بدر للاغارة على قوافل القرشيين ، وكانت كلها من المهاجرين ، لان بيعة أهل المدينة وما نصت عليه الصحيفة الناظمة للعلاقات بين الرسول (ص) من جهة وبين أهل المدينة من جهة ثانية كانت دفاعية . وعند الاستعداد لخوض عمار معركة بدر انضم الانصار ، مما جعل الجماعة الاسلامية في المدينة بكاملها جماعة محاربة يتوجب على افرادها المشاركة في الجهاد بشكل أو بآخر حسب اوامر الرسول (ص) ولم يبق من فاصل بين مجتمع وجيش ، حتى ان اولئك المدنيين الذين انفصلوا عن الجيش المتوجه للمواجهة في احد اعتبر ذلك منهم علامة على عدم الاخلاص للاسلام وهم المنافقون (١٢) . وفيما بعـد سارت الامور نحو وجود هـذا التمايز بقـدر ما كان الاسـلام يتقـدم وينتشر بين القبائل العربية ، اذ اصبح هناك مسلم مجاهد وآخر غير ذلك دعى بالاعرابي . وقد ثبت عن الرسول الكريم انه اذا بعث سريـة في الجزيرة قال لاميرها « اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال او خلال فأيتهن ما اجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين واعلمهم انهم ان فعلوا ذلك ان لهم ما للمهاجرين وان عليهم ما على المهاجرين ، فان أبوا واختاروا دارهم فاعلمهم انهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب الا ان يجاهدوا مع المسلمين » (١٣) . استمر هذا التمايز وتضخم مع الزمن ، ففي زمن ابي بكر لجأ الى التكليف ، فحيث كان انقسام بين القبائل حول الردة سنة ١١ هـ كلف من بقي على الاسلام والطاعة بمواجهة المرتدين من بني قومه ، ولتشكيل قوات حملات لمحاربة مناطق الردة الكبرى اعتمد على أهل المدينة اولا ثم كلف في المناطق الاخرى ممن لم يلتحق طوعاً في الجهاد ، كما هو

الحال في الطائف حيث كتب الى اميرها عثمان بن ابي العاص ان يضرب بعثاً على أهل الطائف على كل مخلاف بقدره . كما كتب الى عتاب بن اسيد ان « اضرب على أهل مكة وعملها خمسمائة مقو « القوي بنفسه ودابته » (١٤) .

عندما بدات الفتوحات في عهد أبي بكر ، اثر اخضاع الجزيرة العربية كلها ، لم يرض بالاستعانة بأحد من أهل الردة فيهـا ، الا ان الحاجة الجأت المسلمين فيما بعد للاستعانة بهم والاستفادة من طاقاتهم . وهكذا سار المثنى بن حارثة الشيباني نحو أبي بكر ليستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبته وتجلى ندمه من أهل الردة ممن استعظمه العدو ، وليخبره أنه لم يخلف احداً انشط الى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم ، لكنه وجد ابا بكر مريضاً لم يلبث ان توفي وقام عمر بالسماح بالاستعانة باهل الردة في الفتوح ، مفسحاً المجال بذلك لمشاركة كل ابناء القبائل في الجزيرة بالفتح .

تبع ذلك توسع جبهات القتال وتعددها مما خلق حاجة ووفر الامكانيات في الوقت نفسه للاستعانة بجماعات غير عربية . ولعل اول عملية انضمام قوى من خارج الجزيرة العربية الى صفوف الفاتحين تمت في جنوب غرب ايـران الحالية ، حيث حصل اتصال بين أبي موسى الاشعري قائد الجيش الفاتح وسباه الاسواري قائـد مقدمة يزدجرد في المنطقة ، الذي ادرك على ما يظهر صعود نجم العرب المسلمين وامكانياتهم على احراز نصر مؤكد . فعرض هـذا الاخير على أبي موسى الانحياز بقومه الاساورة الى جانب العرب المسلمين بصفة حلفاء لهم على الا يتدخلوا في المنازعات التي تنشب بينهم ويكون لهم النزول بحيث شاؤوا من ارض العرب وان ينسبوا للقبيلة التي يختارونها كأحلاف لها وان ينالوا شرف العطاء ، أي الفي درهم . ولم تلبث جماعات محاربة اخرى في الجيش الفارسي ان حذت حذو السابقين مثل السيابجة والزط والاندغار ، واكثرهم ممن سبى الفرس من أهل السند وادخلوه في عداد جندهم ومقاتليهم . ثم اسكنهم ابو موسى في البصرة مع الاساورة الذين سبقوهم في النزول وحفروا قناة خاصة بهم دعيت بنهر الاساورة (١٥) . واصبح الجميع احلافاً لقبائل تميم النازلة في هذه المدينة ؛ فصارت الاساورة في بني سعد والزط والسيابجة في بني حنظلة ، ومعهم شاركوا في الفتوحات ايضاً حتى خراسان الواقعة في الشمال الشرقي من ايران ، وبرز الاساورة في المعارك بمهارتهم في رمي النشاب . ومع ذلك لم تستطع هذه الاقوام الغريبة ان تنأى بنفسها عن النزاعات بين العرب عندما تعمقت لتبقى محافظة على احد شروط اتفاقها مع العرب بانضمامها لهم ونزولها جيث شاءت ومحالفة من ارادت . فقد اضطرت جماعة من السيابجة

في البصرة الموكلة ببيت المال للخليفة الراشدي علي بن ابي طالب اثناء فتنة الجمل للبقاء الى جانبه ورفضوا تسليم بيت المال الى جماعة عائشة ام المؤمنين الذين قتلوهم . وفي رواية للطبري انه كان في صفوف جيش علي زط وسيابجة ؛ كذلك ظهر السيابجة في صفوف المتقاتلين في فتنة ابن الاشعث . كل هذا برّر للامويين نفي اغلبهم من العراق الى جهات متعددة (١٦) . باعتبارهم خالفوا شرط التحالف الذي ينص على الا يعينوا العرب على بعضهم بعضاً ؛ كذلك سار مع عمرو بن العاص من الشام الى مصر لفتحها بعض الروم واليهود دعوا باسم الحمراء ، ويظهر انهم تحالفوا مع القبائل العربية هنا على شاكلة تحالف جماعات الفرس والقبائل العربية في البصرة . وكان هؤلاء ثلاث جماعات « بنو تيه وروبيل والازرق وكانوا ممن سار مع عمرو بن العاص من الشام الى مصر من عجم الشام ممن كان رغب في الاسلام من قبل اليرموك ومن أهل قيسارية » . وكان عدد من رافق عمرو من بني تيه مائة رجل ومن بني الازرق اربعمائة رجل ومن بني روبيل الف رجل (١٧) ولم يخل جيش عمرو بن العاص في مصر من وجود جماعة فارسية اذ ينقل ابن ماكولا عن ابن يونس قوله « ان سنبخت الفارسي كان بمصر وكان على عرافة الفارسيين وكان في شرف العطاء» . وفي أقصى الشمال عند التوغل في ارمينية باتجاه الخزر لمحاربتهم في عهد هشام بن عبد الملك الذي ولاها لاخيه مسلمة . فسأله ملوك الجبال فصار اليه كما يقول البلاذري « شروانشاه ولبرانشاه وطبرسرانشاه وفيلانشاه وخرشانشاه وصار اليه صاحب مسقط » وكان هؤلاء يحاربون معه مقابل ألا يفرض عليهم تقديم شيء من الجزية او العين . وقد حدد دور كل منهم في الحرب وظهر عند تولية مروان بن محمد في زمن هشام ذاته ؛ الذي « جعل على صاحب شروان ان يكون في المقدمة ، اذا بدأ المسلمون بغزو الخزر وفي الساقة اذا رجعوا ، وعلى فيلانشاه ان يغزو معهم فقط وعلى طبرسرانشاه ان يكون في الساقة اذا بدأوا وفي المقدمة اذا انصرفوا » (١٨) .

بدأ العمل في الحاق المحاربين الغرباء بالجيش الفاتح في اذربيجان منذ بداية فتحها زمن عمر بن الخطاب ؛ وذلك مقابل اعفاء من يحشد الفاتحون من الجزية في عام حشده ، اذ يرد في كتاب امان عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب لاهل اذربيجان من جملة واجباتهم « ان يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ... ومن حشد منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة » (١٩) . وفي الامان الذي قدمه سراقة بن عمرو عامل الخليفة نفسه للارمن ان على هؤلاء المشاركة في الدفاع عن

مواقعهم بأن « ينفروا لكل غـارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحاً ، على ان يوضع الجزاء عمن اجاب الى ذلك ، والحشد عوض عن جزائهم ومن استغني عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على اهل اذربيجان (٢٠) .

ظلت قاعدة الاستخدام لابناء البلاد المفتوحة مستمرة الى زمن عمليات فتح ما وراء النهر ، ولو انها تقدمت باتجاه تحديد أعداد ثابتة من كل بلد عوضاً عن ترك اعداد المجندين خاضعة للظروف مقيدة بالضرورات الآنية التي يفرضها وضع معين ، وتذكر هذه الاعداد في شروط الامان والصلح لكل منطقة او مدينة ، كما يرد في الروايات ما يفيد مشاركة هؤلاء المجندين في فتح المناطق التي تلي بلادهم وكلما توغل الفتح اكثر في العمق كانت الاعداد المطلوبة اكثر . وهكذا فرض قتيبة بن مسلم الباهلي على أهل بخارى وكس ونسف خوارزم عشرين الفاً وتفيد الرواية التي تتحدث عن حصـار قتيبة لسمرقند عـام ٩٣ هـ أنه « ناصحه مـن معه مـن اهل بخارى وخوارزم فقاتلوا قتـالا شديداً وبـذلوا انفسهم » (٢١) . وعند ما صالح قتيبة اهل سمرقند فرض عليهم ثلاثين الفاً « ليس فيهم صبي ولا شيخ ولا عيب ، ويفهم من اجزاء اخرى من الرواية ان هذه الاعداد كانت تخدم غرضاً مزدوجاً ، فهي محاربة ورهائن في الوقت نفسه اذ يقول قتيبة بعد دخول سمرقند « الآن ذلوا حين صار اخوانهم واولادهم في ايديكم » (٢٢) .

بينما كانت عملية الحاق ابناء المشرق وسكان البلاد المفتوحـة بالجيش العربي الفاتح تأخذ مجراها في المشرق ، كان يجري الامر نفسه في الجناح الغربي من ديار العرب والاسلام ويقوم الفاتحون بضم اعداد من ابناء القبائل المغربية التي دعاها مؤرخونا القدماء بالقبائل البربرية جرياً على التسمية الكلاسيكية لها . وقد جرى الضم لاعداد من التجمعات القبلية الاساسية في المغرب وهي زناته وصنهاجة ومصمودة . اذ يحدثنا ابن عذاري أنه كان « مع حسـان بن النعمان جماعة من البربر استأمنوا اليه فلم يقبل منهم الا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر الفا يجاهدون مع العرب . فأجابوه وأسلموا عليه فعقد لولدي الكاهنة لكل منهما على ستة آلاف فارس ، واخرجهم مع العرب يتجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر »

وقد عبرت عن هذا التعاون أو الاخوة في السلاح حسب التعبير الحديث بين ابناء القبائل المشرقية الفاتحة وبين قبيلة جراوة المغربية من تجمع زناته ،

تعبيرا رمزيا اسطورة حيكت حول الكاهنة تقول : « بأن الاسير العبسي خالد بن يزيد كان في جملة اسراها فقالت له يوما : « ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع وأنا اريد ان ارضعك فتكون أخا لولدي ، وكان لها ابنان أحدهما بربري والاخر يوناني ... وقالت له نحن جماعة البربر لنا رضاع ! اذا فعلناه نتوارث به فعمدت الى دقيق الشعير فلتته بزيت وجعلته على ثدييها ودعت ولديها وقالت كلا معه على ثديي ففعلا ، فقالت قد صرتم اخوة (٢٣) . ويظهر ان قبائل زناتية اخرى أي من نفس التجمع ، مثل بني يفرن سلكوا مسلك اخوتهم في التجمع لانهم بقوا بعد قرون يقولون انهم موالي عثمان بن عفان الذي يعتبر فاتحة وبداية السلطة الاموية . بعد حسان بن النعمان برز موسى بن نصير كقائد منتصر في فتح المغرب ، وقد اتبع فيه سياسة قائمة على مهاجمة القبائل في مواطنها وكي يأمن بقاء هذه القبائل الكثيرة الانتقاض على ولائها صار يأخذ منها رهائن كما فعل في كتامة وهي القبيلة التي تنتمي الى التجمع القبلي الثاني صنهاجة ، وعندما قدم عليه وفدها « ولى عليهم رجلا منهم وأخذ منهم رهائن من خيارهم » .. وفي المغرب الاقصى حيث ينزل في مرتفعاته وجباله التجمع القبلي الثالث مصمودة، تكرر ما حصل في اجزاء المغرب الاخرى اذ « حمل أبو مدرك زرعة بن ابي مدرك رهائن المصامدة ، جمعهم موسى مع رهائن البربر الذين اخذهم من افريقيا والمغرب وجعل عليهم مولاه طارقا ودخل بهم جزيرة الاندلس (٢٤) .

اضافة لهؤلاء الملتحقين بالجيش العربي الاسلامي أو بالخدمة كحلفاء للعرب شارك في الفتوح أيضا عنصر آخر هو عنصر العبيد ، الذين حاربوا الى جانب اسيادهم . وقد يمن عليهم هؤلاء الاخيرون بالحرية ليصبحوا موالي لهم ولكنهم موالي عتاقة مختلفين عن موالي الحلف كحلف الاساورة مع تميم .

وهذا ما يفسر لنا ماحدث في الصراع بين العرب والموالي في مناطق من الدولة عندما عمم العرب على الموالي كلهم وصف العبيد ونعتوهم ببني العبيد واعتبروا مشاركتهم لهم في الفيء غبنا لا يحتمل ، كما فعل اشراف الكوفة تجاه المختار بن أبي عبيد عندما استنكروا عمله في مشاركة الموالي لهم في فيئهم . كذلك كان أبناء القبائل المغربية في المغرب والاندلس يشكون من عدم ادخالهم في ديوان العطاء وعدم مشاركتهم في الفيء ، ولم يجد عبد الرحمن الداخل عندما اراد التمكين لنفسه في الاندلس وتوسيع قاعدة الدعم لدولته وسيلة افضل من ادخال ابناء هذه القبائل في الديوان (٢٥) .

كانت عدة الرقيق كبيرة لدى بعض القادة ، فقد استرق عبيد الله بن زياد في غزوة لمنطقة ما وراء النهر أربعة آلاف سنة ٥٤ هـ وأسكنهم البصرة (٢٦)

وربما تجاوز موسى بن نصير الجميع في عدد من استرقهم واصطنعهم مما جعل بعض الكتاب يطلقون العنان لخيالهم في سرد قصص عنهم كتلك التي يوردها ابن قتيبة « قال وذكروا عن بعض المصريين ، ان رجلا منهم اخبرهم أن يزيد قال لموسى ذات ليلة ، وقد سهر سهرا طويلا : يا أبا عبد الرحمن ، كم تعد مواليك واهل بيتك ؟ فقال كثير . قال : يكونون الفا ؟ قال له موسى : نعم والفا الفا حتى ينقطع النفس ، لقد خلفت من الموالي ما اظن ان احدا لايخلف مثلهم » (٢٧) .
لكن هذا الرقيق لم يكن ليصب كله في مجرى القوى المحاربة اذ كان فيه الجواري وفيه من يستخدم في الاعمال الخاصة بالسادة ، حتى ان احد فاتحي ما وراء النهر جعل الرهن لديه يعمل في المدينة بالزراعة مما جعل افراد الرهن الذين كانوا من عليّة القوم يغتالونه (٢٨) .

من ناحية اخرى يطرح السؤال التالي نفسه ، وهو الى اي حد كان دور الموالي الملتحقين بالجيش العربي ، بصنفيهم من موالي الحلف وموالي العتاقة ، فعالا وحاسما ؟ وتجيب الوقائع على هذا التساؤل ان هذا الدور اصبح فاعلا وحاسما ، اواخر القرن الاول الهجري وفي طرفي الدولة القصيين ؛ اقصى الشرق واقصى الغرب . فقد استخدموا بأعداد كبيرة في فتوحات ما وراء النهر وفي ارمينيا وبرز دورهم كقوى تعمل تحت امرة قادتها أو امرائها وتحتل موقعاً خاصا بها في الجيش كمقدمة او ساقة . وفي المغرب كانت فعالية دورهم أكبر واوضح لدرجة ان الحملة الاولى التي حطمت قوة القوط الضاربة في الاندلس وباشرت فتحها مكونة في غالبيتها من المغاربة الذين يقودهم طارق بن زياد .

أما في الفترة الاولى وفي قلب الدولة فكان عدد الموالي وبالتالي دورهم متواضعا ، فقد لاحظنا اعداد الروم الذين رافقوا عمرو بن العاص في فتح مصر ، كذلك يذكر البلاذري عن جماعة السيابجة الذين حالفوا العرب في جنوب شرق ايران « انهم اربعون ويقال اربعمائة » . واذا كان هذا الرقم يمثل عدد جماعة انضمت للعرب في الفترة الاولى في عصر الخلفاء الراشدين فان الاعداد العاملة ضمن الجيش الدائم في قواعد المركز ظل ضئيلا بالقياس الى اعداد ابناء القبائل العربية . ونجد مثلا على ذلك في احدى روايات الطبري التي تتحدث عن اعداد جند البصرة في خراسان في فترة خلع قتيبة وتقول « من أهل العالية تسعة آلاف وبكر سبعة آلاف وتميم عشرة آلاف وعبد القيس اربعة آلاف والازد عشرة آلاف .... والموالي سبعة آلاف عليهم حيان من الديلم أو من خراسان » بهذا وباستخدام هذا الرقم كمؤشر ، يمكننا القول ان الموالي بعناصرهم المختلفة لم يزد اسهامهم في جند قاعدة من قواعد قلب الدولة عن اسهام قبيلة عربية واحدة من القبائل الست .

عدد الجيش :

مما مر نستنتج ان تحديد اعداد القوات المحاربة في الدولة العربية الاسلامية ، ليس بالامر السهل لكون البعض جندا دائمين وقيام البعض بالحرب في اوقات معينة وظروف محددة . لكن من الممكن تقديم ارقام لانستطيع الجزم بصحتها الاكيدة وانما يمكن الركون اليها واعتبارها قريبة من الصدق لكون مصادرها ذات صلةبالدواوين التي تسجل العطاء،وهيالارقامالمتعلقة باعدادالجند الدائميين او النظاميين الذين يتناولون العطاء ويحوزون على نسبة من الغنيمة . وقد سارت هذه الاعداد في خط متصاعد منذ الهجرة حتى ذروة موجة الفتوحات في العصر الاموي . اذ لم تتجاوز العشرات في زمن بعث الرسوم (ص) للسرايا عندما كان القتال خاصا بالمهاجرين فقط ، ثم قفز الرقم الى عدة مئات بعد مشاركة الانصار ، فقد بلغ عدد المشاركين من المسلمين في موقعة بدر « ثلاثمائة وبضعة عشر ، وكان المهاجرون سبعة وسبعين رجلا وكان الانصار مائتين وستة وثلاثين » وتضاعف هذا العدد ثلاث مرات عند خروج المسلمين لمواجهة قريش في أحد ، اذ خرج الرسول (ص) في ألف من أصحابه . وانخزل عنه في الطريق عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس ، وفي الحديبية وما بعدها عند غزوة خيبر يحدثنا البلاذري ، ان الرسول (ص) قسم خيبر على ستة وثلاثين سهما له ثمانية عشر سهما لما ينوبه من الحقوق وامر الناس وقسم ثمانية عشر سهما كل سهم لمائة . . . ممن شهدوا الحديبية وهم الف وخمسمائة واربعون والذين كانوا بأرض الحبشة اربعون رجلا » (٣٠) وعند قيام موجة الفتوحات والقبول بمشاركة جميع عناصر الجزيرة العربية قفز العدد قفزة هائلة اذ يذكر ابن عبد الحكم ان « الديوان كما حدثنا سعيد بن عفير عن ابن لهيعة في زمن معاوية اربعين الفا »(٣١) وهناك ما يسم ويطبع هذه الرواية بسمة الصحة وطابع الاعتدال ، خاصة وأنها تنسجم مع روايات اخرى عن اعداد الجند في فترة سابقة . ففي رواية تسند الى محمد بن الحنفية تجعل جيش أبيه عند نزوله في العراق قبيل موقعة الجمل في حدود عشرة آلاف . خرج علي من المدينة في سبعمائة رجل وانضم اليهم من الكوفة سبعة آلاف وممن حولهم الفان (٣٢) . واكثر الروايات مبالغة في تضخيم عدد جيش علي تصل بمن خرج اليه من أهل الكوفة عماد جيشه الاساسي الى اثني عشر الفا . مقابل هذا تبدو رواية سيف في الطبري والتي تصل بعدد من التف حول عائشة في موقعة الجمل ثلاثين الفا مبالغة الى حد كبير ، وفي فترة الفتوحات الواسعة في العصر الاموي بلغ عدد جنود الديوان في الشرق أي مركز

التوسع الكبير مائة الف كما يستفاد من رواية للطبري اثناء حديثه عن ذروة المواجهة بين الحجاج والثائرين عليه بقيادة ابن الاشعث بقوله « واصبح أهل الكوفة واهل البصرة وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم والقراء من أهل المصرين فاجتمعوا جميعا على حرب الحجاج وجمعهم بغضهم والكراهية له ؛ وهم اذ ذاك مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم » . فاذا اعتبرنا أن عدد الجند ممن يأخذ العطاء في الجناح المقابل الغربي معادلا لعددهم في الشرق بلغ عدد من ينال العطاء مائتي الف ، ومثل هذا الامر في التعادل بين الجهتين كان واردا في ذهن الاخباريين سابقا ففي رواية للمدائني ينقلها الطبري ان يزيد بن المهلب انطلق من خراسان لفتح جرجان « في عشرين ومائة ألف ومعه من أهل الشام ستين ألفا » لكن هذه الاعداد لم تكن تشارك كلها في الحرب ؛ وانما كان يضرب عليها البعث للقيام بمهمة ما ، فيختار العدد المطلوب لهذه المهمة ، أو يترك لمن يوكل اليه أمر الحملة أمر الاختيار والانتقاء .أما في حالات النفير عند الخطر العام فيجب ان يخرج الجميع . وقد لوحظ ميل عام نحو التراخي واهمال الالتحاق بالحملات أو بالجيش المحارب منذ استشراء الفتنة عند الصراع بين علي ومعاوية ؛ وخاصة في أيام الاول الاخيرة . وقد اعتبر علي التراخي والتقاعس ناتجا لاعن رغبة في الخوض بفتنة وانما تمسكا بالحياة ، فورد في كتابه الذي قرىء على المنبر في أيامه الاخيرة ما نصه « قد صرتم غرضا ترمون ولا ترمون ويغار عليكم ولا تغيرون ، ويعصى الله فترضون ، اذا قلت لكم سيروا في الشتاء قلتم كيف نغزو في هذا القر والصر ، وان قلت لكم سيروا في الصيف قلتم حتى ينصرم عنا حمارة القيظ ، وكل هذا فرار من الموت ، فاذا كنتم من الحر والقر تفرون فأنتم والله من السيف أفر ، والذي نفسي بيده ما من ذلك تهربون ، ولكن من السيف تحيدون ... » واضطر آخر الامر عند العزم على التوجه ضد معاوية ولم ير غير ثلاثمائة رجل ، الى العمل بنصيحة حجر بن عدي وسعيد بن قيس الهمذاني اللذين قالا « اجبر الناس على المسير وناد فيهم فمن تخلف فمر بمعاقبته » فأمر مناديا فنادى في الناس لايتخلفن أحد وأمر معقل بن قيس ان يسير في الرسانيق فلا يدع أحدا من جنوده فيها الا حشره ، فلم ينصرف هذا الا بعد مقتل علي (٣٣) . وتزايد هذا الامر باطراد خلال العصر الاموي ووجد فيه بعض القواد خطرا شديدا يتجاوز ضرورة الدفاع ضد عدو خارجي أو فتنة داخلية ليتعداها الى تعريض اعراض الجند الذين يذهبون للقتال ويخلفون نساءهم وراءهم للخطر . وقد خطب مسلم بن سعيد امير خراسان سنة ١٠٦ هـ عند قيامه بالغزو فقال « ... ما اخلف بعدي شيئا أهم عندي من قوم يتخلفون مخلفي الرقاب، يتواثبون الجدران على نساء المجاهدين »

ادى هذا الامر لقيام الخلفاء والولاة بفرض العقوبات على المتخلفين منها الغاء العطاء . فعندما توفي بشر بن مروان الذي وجه أهل مصري الكوفة والبصرة تحت قيادة المهلب لقتال الازارقة ، انصرف كثير من الناس بموته فهددهم عبد الملك برسالة حملها مولاه بقوله : « ومن عصى ولاة الامر والقوام بالحق اسخط الله عليه ، وكان قد استحق العقوبة في بشره وعرض نفسه لاستفاءة ماله والغاء عطائه » (٣٥) .

وقام الحجاج بفرض عقوبة أشد وصلت الى الاعدام ومصادرة الاموال وذلك في حالتي النفير وضرب البعث . فقد استنفر الحجاج الناس في السنة التالية بقوله : « والله لتستقيمن على سبل الحق أو لادعن لكل رجل منكم شغلا في جسده ، ومن وجدت بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وانهبت ماله » وأوجد طريقة محكمة للتحقق من الالتحاق وعدم التخلف ، فلم يجعل التواجد عند العرفاء في المصر والخروج مع الجيش دليل براءة من التخلف بل ارسل العرفاء الى مقر المهلب برامهرمز ليأخذوا منه كتب موافاة الناس لهم وتبرئة انفسهم . وسلك نفس الطريق في حالة البعث ؛ فعندما وجه عثمان بن سعيد ضد الخوارج وامره بالخروج عن المدينة وانتظار موافاة الناس ، طلب من أصحاب الدواوين ضرب البعث ليخرجوا اربعة آلاف من الناس من كل ربع الف رجل ، ولما فعلوا ، اهدر دم من يتخلف ممن ضرب عليه البعث بعد اربعة ايام .

لكن هذه الشدة بدأت تزول وزادت نسبة التخلف كما شاعت قضية ارسال البديل التي كانت تتم بقيام المكلف بدفع ما يسمى جُعاله أو جِعاله أو جَعَاله ومعناها الاصلي أجر العمل أو الرشوة ، لكن المعنى الاصطلاحي كما ورد في اللسان « أن يكتب الغزو على الرجل فيعطي رجلاً آخر شيئاً ليخرج مكانه بجعل يشترطه » . واتسم الموقف من هذا العمل على الصعيدين النظري الشرعي والعملي الواقعي بعدم التصريح بجوازه . فمن الناحية النظرية سئل ابن عمر عن الجعالة فلم يحرمها صراحة بل كان جوابه اميل للقبول بها الى حد انه صرّح بأن البديل ينال ثواباً بجهاده وحلالاً بغنيمته اذا توفرت عنده النية في الغزو ولم يغز رغبة في المال وذلك بقوله « اذ انت اجمعت الغزو فعوضك الله رزقاً فلا بأس به واما أن اعطيت دراهم غزوت وان منعت اقمت فلا خير فيه » ، اما عن كون المال الذي يأخذه البديل كأجر لخروجه حلالاً أو حراماً فيقول « ان كان عبداً أو أمة يختص به ، أي بمن يأخذ الجعالة فهو غير طائل ، وان جعله في كراع أو سلاح فلا بأس » (٣٨) . وعلى الصعيد العملي نجد الخلفاء يتراخون

أمام العمليتين التخلف والجعالة ، اذ ضرب الوليد بن عبد الملك بعث الفين « وتجاعلوا فخرج الف وخمسمائة وتخلف خمسمائة » (٣٩) .

وعالج الولاة والقواد امر ارسال البديل سنة ١٦ هـ بطريقة تدل على انهم ارادوا التوفيق بين منعه من جهة وعدم المعاقبة على القيام به من جهة ثانية ، وذلك بأخذ القسم من المكلف على يمين لا نعرف نصه ولكن يفهم من سياق الخبر الوارد فيه انه غير دقيق في الفاظه ويسمح لمن يقسمه بالتحايل وتنفيذ رغبته . نجد مثلاً على ذلك فيما حدث عند ما عين اسد بن عبد الله على قيادة الجيش الغازي في بلاد ما وراء النهر في العام المذكور وترك تصريف الامور الى المولى توبة ، الذي يورد الطبري وصفه بالقول أنه « احسن الى الناس وألان جانبه وأحسن الى الجند واعطاهم ارزاقهم ، فقال له اسد : حلفهم بالطلاق فلا يتخلف احد عن مغزاه ولا يدخل بديلاً ، فأبى ذلك فلم يحلفهم بالطلاق . قال : وكان الناس بعد توبة يحلفون الجند بتلك الايمان ، فلما قدم عاصم بن عبد الله اراد ان يحلف الناس بالطلاق فأبوا ، وقالوا نحلف بايمان توبة » .

ويظهر ان التخلف والتقاعس عن تلبية داعي الحرب مرده الى الاستقرار الذي تجاوز القواعد القديمة الى المناطق القاصية في اقصى الشرق واقصى الغرب لدرجة انه أصبح لكل فرع عشيرة عدا النسب رابطة ارض . وهكذا يورد الطبري اسماء قرى في اقصى الشرق ترتبط باسم قبيلة مثل قرية « باسان » وهي لبني نصر وبوينة وهي لطيء (٤١) . اما في اقصى الغرب في الاندلس حيث نزلت كل قبيلة عند الفتح فيما طاب لها من ارض لدرجة ان العشائر والقبائل نزلت كل منها في اماكن خاصة . مما اعطى النسب معنى ارضياً مع الزمن واستمر الوضع قرونا عدة لدرجة ان الفقيه ابن حزم الذي جاء بعد أربعة قرون وكتب انساب العرب ، استطاع ان يحدد امكنة نزول ومواطن القبائل الفاتحة . وحذا الجند الذين جاؤوا بعد فترة الفتح بربع قرن حذو اسلافهم وقد ربط قائدهم بلج بن بشر بين معنى اسم مدينة وهي أبده وبين تأبيدها على قبيلة معينة في صفوف جيشه (٤٢) . لكل ذلك كان توجيه الحملات والنفير يواجه بتقاعس من هؤلاء المستقرين ، واذا كان صعباً بالنسبة للقريبين من الثغور المستقرين فهو اكثر صعوبة بالنسبة لمن يوجهون من القواعد القديمة البعيدة كالتوجه من البصرة والكوفة الى اقصى الشرق ، وكان الثائرون من القواد يستغلون النقمة التي تعمر القلوب من جراء البعد عن المواطن ، كما فعل ابن الاشعث عندما اثار الجند على الحجاج بقوله « انكم ان اطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ... ولن تعاينوا الاحبة فيما ارى أو يموت اكثركم » وكانت اوضاع جند

الشام اكثر صعوبة اذ انهم كانوا مصدر النجدات لاخماد الثورات أو للمعونة في الفتح ، كارسالهم زمن الحجاج نجده له ضد ثورة ابن الاشعث ، وارسالم زمن هشام لاخماد ثورة القبائل المغربيــة الى اقصى اراضي المغرب التي وصلوا منها الى الاندلس (٤٣) .

ولعل ما يعطي صورة بالغة الدلالة على ما تثيره هــذه العملية من نقمــة . وعد يزيد الثالث ، في جملة وعوده التي أطلقها لنيــل الدعم لحكمه ، ان يبقي قوات الشام في ارضها ولا يرسلها الى الخارج ، كما جرى الامر مراراً وتكرارا قبله (٤٤) .

تعبئة الجيش :

تطور شكل التعبئــة وفق التزايد في الاعداد وتنوع الاسلحة وضرورات مواجهة الجيوش الكبيرة للاعداء التي واجهها العرب المسلمون ، ومع ذلك ظلت مراعاة العصبيات والارتباطات الاجتماعية شيئاً يؤخذ بالحسبان ، ويظهر هذا واضحاً جلياً في التعبئة .

كانت نواة الجيش العربي الاسلامي كتلة شديدة التماسك اذ يربط بينها الايمان والنسب القبلي وان طغى الايمان على النسب القبلي حتى كاد يمحوه . اذ ان اسم المهاجرين لحق بكل من آمن مــن القبائل الاخرى في الفترات الاولى وهاجر الى المسلمين . وعندما وافق الانصار على الاشتراك في الهجوم تحت قيادة الرسول (ص) صار الجيش يسير الى الحرب وهو مؤلف من وحدتين متميزتين وان لم تتميز كل جماعة براية خاصة ، لكن تضخم الجيش بعــد الحديبية وقبيل فتح مكة خاصة وضرورات التوجيه والقيادة جعل الوحدات تتمايز اكثر . فعدا عن المهاجرين والانصار الذين ظلوا تحت قيادة الرسول (ص) كونت كل قبيلة وحدة خاصة تحت رايتها ، كما يستفاد من خبر ايقاف ابي سفيان زعيم مكة القادم على الرسول (ص) في مكان يرى منه مرور الجنــد الاسلامي مع العباس بن عبد المطلب حسب ابن هشام الذي يقول « ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هذه . . . » وازداد التمايز عند تكوين الجيوش في حروب الردة ، اذ أصبح لكل وحدة قائد ، كما يظهر في جيش خالد المتوجه لمحاربة مسيلمة حيث كان « على الانصار ثابت بن قيس والبراء بن فلان وعلى المهاجرين ابو حذيفة ، وعلى القبائل على كل قبيلة رجل » . ويظهر ان دوافع عدة لعبت دورها في هذا التقسيم والتمايز ، منها ضرورة تمكين القائد العام للجيش من ادارة دفة التوجيه لهذه الاعداد مما يضطره لتقسيمها الى

وحدات ، اما جعل الوحدة قبيلة وليس غير ذلك فمرده الى ضرورة تامين الطاعة من جهة وضمان التعاون والتلاحم بين افراد الوحدة وكذلك الاستفادة من اعتزاز القبيلة بمكانتها ، اذ يتميز عملها بذلك وتتحدد مسؤوليتها ومدى اسهامها في تحقيق النصر ومسؤوليتها عن الهزيمة . ويظهر هذا الامر واضحاً في الروايات التي تتحدث عن ذلك في جيوش الردة . فقد ردّت احداها سبب التمييز الى تقاذف التهم بين الجماعات حول المسؤول عن الهزيمة فتقول « ان المهاجرين والانصار جبّنوا أهل البوادي وجبنهم أهل البوادي ، فقال بعضهم لبعض ، امتازوا كي نستحيا من الفرار اليوم ، ونعرف اليوم من أين نؤتى ففعلوا . وقال أهل القرى : نحن اعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم فقال لهم أهل البادية : ان اهل القرى لا يحسنون القتال ، ولا يدرون ما الحرب » (٤٦) . ويأتي الطبري برواية أخرى لسيف يرد فيها التمييز الى القائد خالد بن الوليد لتحديد المسؤولية وتقول « لما اشتد القتال ، كانت يومئذ سجالاً انما تكون مرة على المسلمين ومرة على الكافرين فقال خالد ايها الناس امتازوا لنعلم بلاء كل حي ولنعلم من أين نؤتى ، فامتاز أهل القرى والبوادي وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر ، فوقف بنو كل أب على رايتهم فقاتلوا جميعاً » . افلح هذا النظام في تحقيق الغاية اثناء حروب الردة . لكنه بدا غير ملائم اثناء الفتوحات عند ما قفزت الاعداد قفزات كبيرة وتكونت جيوش ضخمة اضطرت اثناء زحفها لمواجهة جيوش كبيرة منظمــة محتشدة ، وينسب احداث التطوير الملائم في اللحظات الحاسمة لخالد بن الوليد ، تصوراً وتطبيقاً . فقد لاحظ عندما قدم بمدد من العراق الى الشام حيث وقفت أربعة جيوش ، كان كل منها مخصصاً لفتح منطقة في الاصل ، في مواجهة الجيش البيزنطي المحتشد في اليرموك . ورأى انها عاجزة من مواجهته بوضعها الراهن . اذ كانت كما قال « على تساند وانتشار » بينما كان الجيش البيزنطي على نظام وتعبئة ، ويعني التساند كما في اللسان خروج القوم على رايات شتى دون قائد عام يجمعهم ، كما يعني الانتشار تفرق الابل عن راعيها وتفرق الجيش عن قائده . فاقترح وجود قيادة عامة من جهــة ، وتعبئة الجيش على طريقــة الكراديس من جهــة ثانية . فجعــل اعداده التي تبلغ حوالي الاربعين الفاً في حوالي اربعين كردوساً . ويرجح أن يكون معنى الكردوس هنا جمع وحدات الجيش في كتائب لان التكردس في اللسان يعني « الانقباض واجتماع بعضه الى بعض وكردس القائد خيله اي جعلها كتيبة كتيبة » (٤٧) . ثم جمعت هذه الكراديس في وحدات اكبر هي :

مقدمة أو طليعة وقلب وجناحان وردء أو ساقة . لكنهم عند المسير في الشعاب وعدم الخشية من الاحاطة بهم من هذه الناحية لايتخذون مجنبتين أو جناحين . وتحدد الرواية العلاقة بين الكردوس او الكتيبة وبين الوحدةالعسكرية

السابقة وهي القبيلة ، أو العشيرة منها . هل كانت الكتيبة قبيلة أو عدة قبائل ؟ أو ان القبيلة كأقسام المدن قد يكون بعضها مؤلفاً من قبيلة واحدة وبعضها الآخر من عدة قبائل ذوات اعداد صغيرة كالاسباع والارباع والاخماس ؟

ومهما يكن من أمر تبدو الوحدات هنا كراديس أو كتائب على كل منها قائد يخضع لقائد القسم الذي يتبعه من اقسام الجيش الخمسة . ويظهر لنا من الروايات التي تسرد اخبار المعارك ان رابطة النسب القبلية ظلت تراعى في تشكيل الكتائب أو وحدات الجيش التي تدخل ضمن وحدات أكبر قائمة على اساس الروابط الجديدة التي نشأت بعد موجة الفتوحات . كروابط الارباع والاخماس والاسباع ضمن المدينة أو القاعدة العسكرية أو الجند . واضافة لرابطة النسب نشأت وحدات على أسس اسلامية لا علاقة لها بالنسب بل بفئات اجتماعية جديدة ظهرت ضمن المجتمع الاسلامي كفئة القراء . كذلك ظهرت وحدات متميزة بسبب الاعتماد المتزايد على العنصر المتحرك في الحرب وهو الخيل الذي يستحق تطور استخدامها وقفة خاصة .

الخيل واستخدامها :

اهتم العرب منذ الجاهلية بالخيل اضافة لاهتمامهم بالجمال . وخاصة في حالات الحرب وغاراتها نظراً لسرعتها وليونة حركتها ، كما كانت في اوقات السلم وسيلة احتفالات جماعية كاقامة حلبات السباق الذي كانت له قواعده التي تحدد فيها مراتب الخيل السابقة وتحديد اسماء خاصة لها (٤٨) ، كما ذاع صيت بعض الخيول واشتهرت اسماؤها بعدما ارتبطت حروب متطاولة بين بعض القبائل باسمائها . ومن الشائع ان العرب اعتقدوا بوجود انساب للخيل شبيهة بأنساب البشر ، وان خيل الجزيرة الاصيلة انحدرت من « زاد الراكب » الحصان الذي منحه سليمان الحكيم لقبيلة الازد . ومن تم أصبح النسب للخيل يشرفها ، ويعوضها عما يفقدها اياه أحياناً المنظر غير اللائق من الاعتبار حتى خلال العصور الاسلامية، فعندما هدد الحجاج احدهم قطع عطاء فرسه الاعجف، اثبت صاحبه نسبه الى زاد الراكب ، فتراجع الحجاج (٤٩) .

جاء الاسلام وحاجته للقوة دفاعاً عن المسلمين ودعوتهم وحرية نشرها فدعا المسلمين لاعداد وسائل القوة التي وضع الخيل في مقدمتها أو مرادفة لها كما تدل على ذلك الآية الكريمة « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بها عدو الله وعدوكم » . وقام الرسول الكريم يشجع على ارتباطها

بالقول والفعل ، فقد فضلها في السهمان ، وذهب الجمهور « أن للفارس ثلاثة اسهم واحد له واثنان لفرسه ، واما الراجل فله سهم واحد » . اما في الاقوال فيؤثر عنه « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة واهلها معانون عليها . فامسحوا نواصيها وادعوا لها بالبركة » وفي رواية اخرى « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة ، واهلها معانون عليها والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة » ويثاب الانسان حتى على النية « من هم ان يرتبط فرساً في سبيل الله بنية صادقة اعطي أجر شهيد » . كما اعتبرت بعض الاحاديث العملية واجبة على القادر « ما من رجل مسلم الا وحق عليه أن يرتبط فرساً اذا اطاق ذلك » . واتبع المسلمون بعد وفاة الرسول سنته المتمثلة في أفعاله وأقواله في الاهتمام بالخيل ، لابل أن أهمية الخيل ازدادت لديهم بسبب استمرار الفتوحات وضرورات الحركة ضمن مسافات شاسعة اضافة لتعاظم الجيوش وتطور أساليب عملياتها ، والحاجة في بعض الاحيان لتقديم الامدادات السريعة . وقد ظهر ذلك واضحاً منذ أيام الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب الذي أمر باقامة مراكز تجميع لها تكون في الوقت نفسه موضع الاعداد والاكثار ، كما يستفاد مما يورده الطبري بالقول « كان لعمر أربعة آلاف فرس عدة لكون ان كان يشتيها في قبلة قصر الكوفة وميسرته ومن أجل ذلك يسمى ذلك المكان الآري الى اليوم ، ويربعها فيما بين الفرات والابيات من الكوفة مما يلي العاقول فسمته الاعاجم آخر الشاهجان يعنون معلف الامراء ، وكان قيمه عليها سلمان بن ربيعة الباهلي في نفر من أهل الكوفة يصنع سوابقها ويجريها في كل عام ، وفي البصرة نحو منها وقيمه عليها جزء بن معاوية ، وفي كل مصر من الامصار الثمانية على قدرها ، فان نابتهم نائبة ركب قوم وتقدموا الى أن يستعد الناس » وفي أماكن أخرى تشير رواية أخرى الى تعميم العملية على الامصار اذ أن « عمر اتخذ في كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين عدة لكون ان كان فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف » . وعندما اختط العرب المسلمون القطائع تركوا بينهم وبين البحر (النيل) والحصن فضاء لتعريق دوابهم وتأديبها . ويورد ابن عبد الحكم مايفيد ان ولاة العرب المسلمين ساروا على نهج عمر في هذا المضمار وذلك بقوله « كان الناس يجتمعون بالفسطاط اذا قفلوا فاذا حضر مرافق الريف خطب عمرو بن العاص فقال : قد حضر مرافق ريفكم فانصرفوا [وعودوا في الصيف] اذا حمض اللبن واشتد العود وكثر الذباب فحي على فسطاطكم ولا اعلمن ماجاء أحدكم قد أسمن نفسه وأهزل جواده » وفي مكان آخر يهدد من فعل ذلك « واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة

حططت من فريضته قدر ذلك واعلموا أنكم في رباط الى يوم القيامة » . وفيما بعد وحتى أواخر القرن الاول عندما كان قتيبة بن مسلم الباهلي يقود العمليات في بلاد ما وراء النهر ويعبر عبر أراض فسيحة وصحارى مترامية الاطراف يلعب فيها الاستكشاف وقطع الحواجز المائية دوراً بارزاً ، اشتهر عنه اهتمامه بانتقاء واعداد الخيول للطلائع يشتريها عقب العودة من كل غزو كما تعبر عن ذلك رواية الطبري بالقول « وكان قتيبة اذا رجع من غزاتهكل سنة اشترى اثني عشر فرساً من جياد الخيل ، واثني عشر هجيناً ، لا يجاوز بالفرس أربعة آلاف فيقام عليها الى وقت الغزو ، فاذا تأهب للغزو وعسكر قيدت واضمرت ، فلا يقطع نهراً بخيل حتى تخف لحومها فيحمل عليها من يحمله من الطلائع » (٥٢) .

صفوف الجيش :

نجد هذه الاعتبارات التي اوردناها واضحة بشواهد من وصف صفوف الجيش عند تقدمها للمعارك ، ففي موقعة صفين كان الجيش مؤلفا من وحدات قبلية هي عبارة عن فرع القبيلة المقيم في مكان معين كتميم البصرة ، يقودها فردمنها ولها رايتها . كما أن كل قسم من هذه الاقسام الخمسة كانت مؤلفة من تجمع قبلي اكبر كما هو حال جيش علي عند التعبئة في الموقعة ذاتها فوضع في القلب مضر وفي الميمنة ربيعة وفي الميسرة أهل اليمن ، أما أقسام جيش معاوية الكبرى فكانت عبارة عن فروع القبائل التي تعيش في جند معين وهكذا يشار لعمل معاوية بالقول « استعمل على أهل دمشق الضحاك بن قيس وعلى أهل حمص ذا الكلاع وعلى أهل قنسرين زفر بن الحارث وعلى أهل الاردن سفيان بن عمرو وعلى أهل فلسطين مسلمة بن خالد » .

وكانت كل كتلة كبرى سواء أكانت كتلة قبلية كبيرة تكون أحد أقسام الجيش الخمسة أو مجموعة العشائر في جند معين تنقسم الى قسمين رئيسين هما : الرجالة والخيالة ولكل من القسمين قائد . كما نستنتج من اللوحة الكاملة التي يرسمها لنا أبو حنيفة الدينوري (٥٣) لكن الخيالة لم يلبثوا ان انقسموا بدورهم الى قسمين ؛ الخيول العادية التي اصبحت تعرف باسم الخيول المجردة أو المجردة فقط ، والخيول المجففة التي عليها التجافيف ، جمع تجفاف وهو مايوضع على جوانب الخيل من معدن او مايشابهه ، ويظهر أنها عمت الجيش في أواخر القرن الاول وأوائل الثاني ، اذ كان يشار للخيالة دائماً بهذين الاسمين عند الحملات ولكل منها قائدها . ويذكر المدائني في خبر غزوة طخارستان « فركب الناس الى الجنيد (قائد الحملة) فصير تميما والازد في الميمنة وربيعة في الميسرة مما يلي

الجبل ، وعلى مجففة خيل بني تميم عبد الله بن زهير بن حيان وعلى المجردة عمر ــ أو عمرو ــ بن جرقاس ، وعلى جماعة بني تميم عامر بن مالك الحماني وعلى الازد عبد الله بن بسطام بن مسعود بن عمرو المعنى، وعلى خيلهم المجففة والمجردة فضيل بن هناد وعبد الله بن حوذان ، احدهما على المجففة والاخر على المجردة »

ويظهر أن عملية وضع التجافيف كانت للجمال أول الامر تقليدا للفيلة التي واجهتهم في معارك فتح العراق الكبرى وقاوموها بطرق مختلفة ثم قاموا حسب التعبير الذي يورده الطبري « وعندما فعل المسلمون ما فعلوا بالفيول تكتبت كتائب الابل المجففة فعرقبوا فيها وكفكفوا عنها » .

وكانت هذه القوى بهذا التنظيم تتقدم للمعارك صفوفا اختلف عددها من معركة لاخرى ، لكن القوات الصغيرة كانت تشكل كتائب صغيرة متحركة لانها لاتستطيع المواجهة بالصفوف والمقاتلة على أساس الزحف . وفي آخر العصر الاموي تطور الامر في عهد مروان الثاني فاستغنى عن الصف واصبحت الحرب حرب كراديس تهاجم أو تنسحب ككتلة وليس على اساس الصف (٥٥) .

القيادة ومرافقو الجيش :

بهذا النظام كان الجيش يسير ويتقدم نحو المعارك تحت امرة قائد عام كان الرسول الكريم اول الامر أو احد صحابته فيما بعد الى أن كانت سنة ١٣هـ وجاء المثنى بن حارثة الشيباني يطلب من الخليفة توجيه النجدات، فقام عمر بعد بيعته يندب الناس لحرب فارس فلم ينتدب أحد طيلة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع تقدم اثنان احدهما أبو عبيد الثقفي الذي لم يكن من أهل السابقة . وعندما اجتمع الناس أو البعث للعراق قيل لعمر « أمرّ عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والانصار . قال : لا والله لا أفعل ; ان الله انما رفعكم بسبقكم وسرعتكم الى العدو . فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق الى الدفع واجاب الى الدعاء . والله لا اؤمر عليهم الا أولهم انتداباً » (٥٦) . ومع ذلك أبقى عمر للصحابة مكانة خاصة فرغم تعينه لابي عبيد الا أنه أمره بأن يسمع من أصحاب الرسول (ص) وأن يشركهم في الامر . ورغم مكانة المثنى منه الا أنه أجابه كرد على شكوى من زعيم بجيله ذي السابقة أنه لن يمكنه من التحكم بأحد أصحاب رسول الله . وظلت قضية السابقين تراعى حتى في التعيين للقيادات الاصغر فعندما سمح عمر لسعد بن أبي وقاص باستخدام المرتدين أمره « الا يولي رؤساءهم على مائة » . لكن شرط السابقة لم يدم بعد عمر ان تولاه

اناس لاسباب اخرى مختلفة للقرابة او للكفاءة او للاخلاص الى حد تعيين موالي الامراء ، كما هو حال موسى بن نصير في تعيين مولاه طارق بن زياد لفتح الاندلس .

وكان الى جانب القائد حسب اخبار أوائل القرن الثاني الهجري هيئة من المستشارين تشاهدهم لدى القادة في العمليات الحربية في اقصى الشرق واقصى الغرب . فعندما ارسل هشام جيشا شاميا لاخماد ثورة القبائل المغربية بقيادة كلثوم بن عياض « عهد اليه ان يطيع هرون القرني مولى معاوية بن هشام ومغيثا مولى الوليد لمعرفتهما بالبلد » وعند اجتماع جيشه بجموع القبائل المغربية وصفا للقائد خطة مناسبة لقلة عدد أفراد الجيش تجاه الجموع المعادية بالقول « خندق أيها الامير وتلوم بالكراديس واعطنا الخيل نخالفهم الى قراهم وذراريهم » لكن أمرهما لم يطع (٥٧) . وفي الاندلس قام يوليان حاكم سبته حليف العرب بدور المستشار لطارق بن زياد وهو الذي عين له الادلاء . أما في فتوح الشرق فيظهر ان مهمة الاشارة على القائد اصبحت وظيفة ثابتة ويسمى صاحبها « صاحب الرأي » وتقدم رواية المدائني في الطبري ما يفيد في التعرف على النواحي التي تعطي هيئة المستشارين هؤلاء رأيها فيها « في المعارك التي جرت مع الترك سنة ١١٢ هـ » « وكان صاحب رأي خراسان في الحرب المجشر ابن مزاحم السلمي وعبد الرحمن بن صبيح الخرفي وعبيد الله بن حبيب الهجري ، وكان المجشر ينزل الناس على راياتهم ، ويضع المسالح ليس لاحد مثل رأيه وكان عبيد الله على تعبئة القتال . وكان رجال من الموالي مثل هؤلاء في الرأي والمشورة والعلم بالحرب ، فمنهم الفضل بن بسام مولى بني ليث وعبدالله بن أبي عبدالله مولى بني سليم والبختري بن مجاهد مولى بني شيبان(٥٨) وهذا يعني أنهم يقومون بأعمال عدة منها تنظيم الكتائب وتأمين الحماية حول الجيش وتعبئة الجيش للقتال وتقديم الخطط للخلاص من المآزق . وهناك حوادث اخرى تدل على أنهم يشيرون في نواح اخرى ؛ فعندما أراد القائد السير نحو سمرقند سأل أي طريق يسلك من الطريقين السهلي والجبلي أشار المجشر الى الطريق الاول بما تضعه الرواية على لسانه « فيه الشجر والحشيش ولم يزرع منذ سنين ، فقد تراكم بعضه على بعض ، فان لقيت خاقان احرق ذلك كله فقلتنا بالنار والدخان ولكن خذ طريق العقبة » . كما كانوا يستشارون في اتخاذ القرار الحاسم حول دخول المعركة والامتناع عن ذلك ، وكانوا يعطون رأيهم بناء على المعطيات التي يعرفونها عن العدو . وقد قدموا النصح للقائد بأن لايقدم على دخول معركة مالم يتوفر له خمسين الفاً لان الاتراك يحاربون خيالة ليس صفاً ولا زحفاً ولا يمكن مجابهتهم الا بجيش كبير .

وترافق الجيش عناصر ليست في الاصل ذات مهمات حربية وفي مقدمة هؤلاء التجار اذ ترد اشارات متعددة لخروجهم وكان هؤلاء يقومـون بفتـح الاسواق كي يتجهز منها الجند ، ومن الامثلة عليهـا مايرد عن الاشعث أثنـاء الاستعداد لمحاربة رتبيل ، اذ خطب فيهم يحثهم على الالتحاق بالحرب والخروج لمعسكرهم مـع الناس حيث « عسكر الناس كلهم في معسكرهم ووضعت لهـم الاسواق واخذ الناس بالجهاز والهيئة بآلة الحرب » . كما كان مع الجيش قاص وقاض وقارىء . فعندمـا برز الجيش العربي الاسلامي لموقعة اليرمـوك كان القاضي ابو الدرداء والقاص ابو سفيان ويظهر ان القاص كان بمثابة واعظ يعظ الناس ويحضهم على الجهاد . اذ يرد في رواية لسيف يوردها الطبري ان القاص كان عشية المعركة يسير فيقف على الكراديس فيقول الله الله انكم زادة العرب وانصار الاسلام وانهم زادة الروم وانصار الشرك ، اللهم ان هذا يوم من ايامك، اللهم انزل نصرك على عبادك . وتصف رواية اخرى عن نفس الموقعة ان « القارىء كان المقداد ومن السنة التي سن رسول الله (ص) بعد بدر أن تقرأ سورة الجهاد عند اللقاء وهي الانفال ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك » (٦٠) .

رافق الجيش اضافة للسابقين النسوة ، ففي معارك العراق الاولى كـن على مسافة من الجيش وأوكلت قوة خيالة بحمايتهن . وعدا المهمة التي كن يقمن بها في منذ ايام الجاهلية في اثارة النخوة لدى الرجال المحاربين قمن بمهمات مساعدة للجيش فبعد اليوم الاول من معركة القادسية أمر سعد بنقل الشهداء والرثيث الى خلف الصفوف « فأما الرثيث فأسلم الى النساء يقمن عليه الى قضاء الله عز وجل عليهم . وأما الشهداء فدفنوهم هناك » كما عملت النسوة والصبيان بحفر القبور في يومي اغواث وارماث . وعندما يتعرضن للهجوم كـن يدافعن عن أنفسهن ، وعندما تتوفر الحماسة لدى بعضهن كن يقمن في بعض الحالات خلال فترة الفتوح الاولى بمساعدة الرجال في الحرب ، فأثناء المجابهة بين العرب والفرس في جبهـات ميسان قالت « أردة بنت الحارث بن كلدة ، لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم فاعتقدت لواء من خمارها واتخذ النساء من خمرهن رايات ، وخرجن يردن المسلمين فانتهين اليهم والمشركون يقاتلون فلمـا رأى المشركون الرايات ظنوا أن الامدادات بدأت تصل للمسلمين فانكشفوا » . واستمرت مرافقة النساء في العهد الاموي كما يقول البلاذردي انه « كانت بنو امية تفعل ذلك ارادة الجد في القتال للغيرة على الحرم » . واستمر الامر على ذلك حتى وقت متأخر من العصر الاموي لدرجة انهن تعرضن لخطر أثناء حروب قتيبة الترك « وأثناء غزو بخارى تراجع المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم

حتى دخلوا في عسكر قتيبة وجاوزوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين » . وبعدها منع أسد بن عبد الله في المنطقة نفسها من اصطحاب النساء ونادى مناديه « برئت ذمة الله من رجل حمل امرأة ممن كان من الجند » .

خطط الجيش وطريقته في المعارك :

التأهب والاستطلاع :

قبل مسير الجيش كان القائد يقوم في جملة ما يقوم به بالاهتمام بتجهيز الجند لأنفسهم ، وتنظيم الاستطلاع . وقد وصل اهتمام بعض القادة بأمر تجهيزات الجند الى الاشياء الصغيرة كما هو حال كثير بن شهاب صاحب الري وقزوين الذي عينه المغيرة بن شعبة والي الكوفة من قبل عمر بن الخطاب ويقول عنه البلاذري أنه « كان اذا غزا أخذ كل امرىء ممن معه بترس ودرع وبيضة ومسلة وخمس ابر وخيوط كتان وبمخفف ومقراض ومخلاة وتليسة »(٦٢) .

اما الاستطلاع فكانت له حسب شهادة النصوص اشكاله المختلفة بحسب الوضع فعند الاستعداد للدخول في معركة كانت ترسل جماعات تقوم بالاغارة وتأسر رجلاً من علية القوم اذا امكنها لمعرفته بالاوضاع العامة اكثر من غيره . لكن الاستطلاع الاصعب والادق كان في بلاد ما وراء النهر ومع الترك السريعي الحركة الذين يهاجمون بغتة وعلى الخيول وليس زحفاً لذا كان الاستطلاع هنا لتعيين مكان تواجدهم على مسافات بعيدة .

وقد سلك قتيبة في هذا المجال طريقة يأمن معها شر تقاعس الطليعة المستطلعة عن اداء واجبها والكذب عليه لذا اختار نوعيتها وحدد عملها بطريقة ملائمة يوردها لنا الطبري بالقول « وكان يبعث في الطلائع الفرسان من الاشراف ويبعث معهم رجالاً من العجم ممن يستنصح على تلك الهجن . وكان اذا بعث بطليعة أمر بلوح فنقش ، ثم يشقه شقين فيعطيها شقة ويحتبس شقة لئلا يمثل مثلها ، ويأمر القائد بأن يدفنها في موضع يصفه له من مخاضة معروفة او تحت شجرة معلومة أو خربه ثم يبعث بعده من يستبريها ليعلم اصادق في طليعته أم لا » . وسلك قائد آخر طريقة أخرى لمعرفة الاخبار بسرعة ، اذ سرح عشرة من طلائع الجند وامر قائدهم بأن يرسل اليه احد الافراد كلما سار مرحلة (مسيرة يوم) كي يعلمه الخبر (٦٣) .

بعد استكمال الاهبة يتوجه الجيش نحو المعركة ولدينا وصف لشكل السير في ايام سعد بن أبي وقاص في فتح العراق يرد فيه انه « في السير كان امراء

التعبئة (أي قادة الاقسام الاساسية) يلون الامير والذين يلون امراء الاعشار والذين يلون امراء الاعشار اصحاب الرايات والقواد ورؤوس القبائل . وقد تعددت اشكال المعارك التي خاضها العرب في هذه الفترة بين معركة في ارض مكشوفة ، قد تكون بين جيشين متكافئين نسبياً أو بين فئة قليلة وجيش عرمرم وقد تكون حرب حصار للمدن والحصون .

الحرب في الارض المكشوفة :

عندما يكون العرب على تعبئتهم استعداداً للحرب يعلن القائد الهجوم بالتكبير أو بهز اللواء ، فالمثنى بن حارثة حدد اشارة الهجوم بالقول « اني مكبّر ثلاثا فتهيأوا ثم احملوا مع الرابعة . وكذلك جعل سعد بن أبي وقاص التكبيرة الرابعة علامة الهجوم كما يذكر لنا سيف في الطبري « لا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر فاذا صليتم الظهر فاني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا .. ثم اذا سمعتم الثانية فكبروا ولتستتم عدتكم ثم اذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا فاذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم ، وقولوا : لا حول ولا قوة الا بالله » (٦٤) .

اما النعمان في موقعة نهاوند فقد جعل الاشارة هز اللواء وقد اخبر جنده « اني هاز لوائي ثلاث مرات ، فأما اول هزة فليقض الرجل حاجته وليتوضأ ؛ واما الثانية فلينظر الرجل الى شسعه وليلزم سلاحه فاذا هززت الثالثة فاحملوا ولا يلوين احد على احد » (٦٥) .

وقبل التجديد الذي أدخله مروان بن محمد كانوا يتقدمون للحرب صفوفاً اختلف عددها من معركة لاخرى ومن زمن لآخر . ففي يوم القادسية عندما كان الفرس ثلاثة عشر صفاً كان المسلمون في ثلاثة صفوف ، بينما كانت صفوف ابن الاشعث في مواجهته للحجاج سنة ٨٢ هـ سبعة . كما كانت الاسلحة تتباين بتتابع الصفوف ففي اليوم الاخير من معركة القادسية كان الصف الاول من الرجالة اصحاب الرماح والسيوف وصف فيه المرامية وصف فيه الخيول تكنفهم رجالة وكذلك الميمنة وكذلك الميسرة (٦٦) . وفي موقعة صفين نجد الصفوف تتباين بتباين اقسام الجيش بين الميمنة والميسرة فقد كان كل من جيش معاوية وجيش علي سبعة صفوف ؛ صفين في الميمنة وصفين في الميسرة وثلاثة صفوف في القلب (٦٧) .

كانت هذه الطريقة تتبع في مواجهة جيوش مكافئة ، لكن الوضع يختلف عندما تواجه جماعة صغيرة أو جيش قليل جيشاً كبيراً ، ولدينا على هذا مثالان

احدهما على الصعيد النظري والاخر على الصعيد العملي . فقد اشار زفر بن الحارث الكلابي على التوابين المتوجهين نحو الجزيرة لمحاربة الامويين سنة ٦٥هـ بأن يحاربوهم بطريقة معينة يصفها أبو مخنف على لسانه وبأقوال ينسبها اليه « فان بدرتموهم الى عين الوردة فلا تقاتلوهم في فضاء وترامونهم وتطاعنوهم فانه ليس لكم مثل عددهم ، فان استهدفتم لهم لم يلبثوكم أن يصرعوكم ، ولا تصفوا لهم حين تلقونهم ، فاني لا ارى معكم رجالة ولا اراكم كلكم الا فرساناً ، والقوم لاقوكم بالرجال والفرسان ، فالفرسان تحمي رجالها والرجال تحمي فرسانها وانتم ليس لكم رجال تحمي فرسانكم فالقوهم في الكتائب والمقانب ثم بثوها بين ميمنتهم وميسرتهم ، واجعلوا مع كل كتيبة كتيبة الى جانبها فان حمل على احدى الكتيبتين ترجلت الاخرى فنفست عنها الخيل والرجال ، ومتى ما شاءت كتيبة ارتفعت ومتى ما شاءت كتيبة انحطت ولو كنتم في صف واحد فزحفت اليكم الرجال فدفعتم عن الصف انتقض وكانت الهزيمة ». (٦٨) .

وقد طبقت جماعات الخوارج المؤلفة من اعداد صغيرة من الخيالة هـذا الاسلوب في الحرب سواء في حالة الهجوم او الدفاع ؛ ففي المعركة التي جرت بين جيش للحجاج يقوده الجزل وهو عثمان بن سعيد ويتألف من أربعة آلاف رجل عام ٧٦ هـ ضد شبيب الخارجي الذي بلغت عدة رجاله مائة وستين . صار هذا الاخير يتهرب حتى نزل الجيش في موقع ، وعندها قسم رجاله الى اربع كتائب تتألف كل منها من اربعين رجلاً انقضوا على الجيش من الجهـات الاربع .

وهناك من الامثلة ما يدل على ان الجماعات الصغيرة كان لدى بعضهـا تصور عن الشكل العام الذي يجب ان تأخذه الحرب مع جماعات اكبر ، فقد نصح الزعيم القيسي عمير بن الحباب ابن الاشتر قائد المختار بن أبي عبيـد سنة ٦٧ هـ بألا يحارب الامويين حرب مطاولة بقوله « ان طالوك وماطلوك فهو خير لهم ، هم كثير اضعافكم ، وليس يطيق القليل الكثير في المطاولة » ومن هنا يفهم ان طريقة الغارات السريعة التي كان يقوم بها الخوارج وغيرهم كانت مبنية على هذا التصور (٦٩) .

اما في حالات الدفاع فتحاول الجماعات الصغيرة ان تحيط نفسها بحواجز طبيعية أو صنعية لكي تجعل مجال المواجهة محدوداً وتحمي نفسها من التطويق . وهكذا قام الحسين بن علي وهو في جماعة صغيرة لا تتجاوز اثنين وثلاثين فارساً واربعين راجلاً في مواجهة الجيش الذي انفذه ضده عبيد الله بن زياد الى جعل

البيوت حيث النسوة خلفه ، ومن ورائها جعل اصحابه يأتون بقصب وحطب الى مكان وراءهم منخفض كأنه ساقيــة فحفروه في ساعة مــن الليل وجعلوه كالخندق ثم ألقوا فيــه الحطب والقصب وقالوا : اذا عــدوا علينا فقاتلونا القينا فيه النار كيلا نؤتى من ورائنا وقاتلنا القوم من وجه واحد » (٧٠) . وبعده بحوالي ثلاثين سنة كان طارق بن زياد في الاندلس يواجه وضعاً مشابهاً ، وان لم يكن على نفس الدرجة ، في مجابهة عدو متفوق عليه في العدد (١٢ر... مقابل ٤٠ر...) وكان التفوق في عدد الخيول اكبر بكثير فلجأ لاختيار ارض مناسبة كي يستفيد من عناصرها في تجاوز اثر تفوق خصمه عليه ، وكان اختياره لموقع وادي لكه حيث حمى احد جناحيه بمرتفعات ريتين وحمى الجنــاح الاخــر بالبحيرة مما وفر عليه تخصيص قوى في المجنبتين لحماية جناحيه ، اضف الى ذلك ان الميدان كله ضيق وفي منطقة مستنقعية الامر الذي يحد كثيراً من عمل الخيول التي يفتقر جيشه اليها وتكثر اعدادها لدى اعدائه .

حرب الاماكن الحصينة :

لم يكن الفاتحون الاولون ذوي خبرة او تجربة في محاربة الحصون والمدن المسورة ، كما لم يكونوا أهل صناعــة متقدمة تساعد على صنعها ، وما ساد حروبهم في السابق اسلوب الكر والفر في الغالب . وهكذا افتقروا في معاركهم الاولى الى الآلة الحربية فحاولوا التعويض عنها باللجوء لاستخدام بعض ادواتهم من بيئتهم الاولى ، اضافة لاسلحتهم الفردية مع الحيلة لتجاوز العقبات التي اعترضتهم في هذا المجال . ولعل الاستثناء الوحيد لذلك ما يروى عن الرسول (ص) من استخدام آلات الحرب اثناء حصاره للطائف سنة ٨ هـ . لكن الرواية التي ينقلها ابن هشام في هذا الصدد تبدو مضطربة تتناقض فيها التفاصيل مع الخبر العام . اذ يرد فيها « قال ابن هشام ورماهم رسول الله (ص) بالمنجنيق. رمى أهل الطائف . قال ابن اسحاق حتى اذا كان يــوم الشدخة عنــد جدار الطائف ، دخل نفر من اصحاب رسول الله (ص) تحت دبابة ، ثم زحفوا بهــا الى جدار الطائف ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً ، فأمر رسول الله (ص) بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون » (٧٢) .

لايبدو التفصيل هنا منسجما مع السياق لان المسلمين كانوا يشكون من رمي أهل الطائف لهم بالنبال عند تقدمهم نحو جدارها ويمكن اتقاؤه بالدبابة . وعلى كل حال فان استخدام اصحاب الرسول الكريم لهذه الآلات ضد الطائف لم يعط

اكله وفضل عليه قطع الاعناب كوسيلة اكثر جدوى لدفع الطائف للاستسلام . ومن جهة ثانية بقيت العملية منفردة لم يستخدمها الرسول الكريم لفتح أماكن حصينة أخرى كفتح حصون خيبر . كما انها لم تستخدم في قتال مسيلمة بل انهم رفعوا البراء بن مالك ليصعد الى أعلى الجدار ومنه نزل الى الباب لفتحه للمسلمين .

واستمر العرب المسلمون في عصر الخلفاء الراشدين ، وحتى خلال العصر الاموي في الشام والغرب يحاربون الحصون بالطريقة نفسها ؛ تسلق الجدران أو الدخول من باب باتفاق مع احد البوابين او من مداخل سرية او قنوات المياه . وهكذا قام خالد بن الوليد في عملية فتح دمشق سنة ١٣ هـ باستخدام الوسائل التي اعتاد جنده على استعمالها في بيئتهم لتجاوز العائقين اللذين اعترضاه للفتح ؛ اولهما الخندق المائي وثانيهما الاسوار . حل المشكلة الاولى بقيام الجند بنفخ القرب وعبور الماء عليها وهو امر اعتادوه في وديان الجزيرة العربية ، ولارتقاء السور استغل يوماً ضعفت فيه الحراسة لانشغال الناس بمناسبة اجتماعية ، وربما زاد من غفلتهم ثقتهم بمناعة اسوارهم وقناعتهم بفقدان الآلات الحربية اللازمة لدى العرب لاختراقها او اعتلائها . وكان خالد قد اتخذ حبالاً كهيئة السلاليم واوهاقاً (الوهق حبل في طرفيه انشوطة) رميت هذه الحبال على الشرافات في أعلى السور في المكان المحدد منه ، ولما علق منها وهقان تسلق القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي ، تم لم يدعا احبولة الا اثبتاها بالشرف فصعد عدد من المسلمين كان كافياً للانحدار الى الداخل وقتل حراس الباب وفتحه للمسلمين (٧٣) .

وفي سنة ٥٩ هـ وبعد فتح شمشاط في الثغور الشمالية توقف المسلمون عند حصن كمخ بقيادة صفوان بن معطل السلمي ومعه عمير بن الحباب فعلا عمير السور وجالد حتى كشف الروم وصعد المسلمون ، وبذلك كان يفخر عمير ويفخر بنو قومه .وفي فتح مصر تمكن المسلمون من اقتحام حصن بابليون بالطريقة نفسها ، اذ صعد الزبير سلماً الى اعلى الحصن وكبر فتبعه اناس وفتحوا باب الحصن (٧٤) . واخيراً نجد ان العرب المسلمين ظلوا يتخذون وسائل مشابهة حتى وقت متأخر وفي اقصى ميادين الفتوح في الغرب ، حيث قام المولى مغيث عند فتح قرطبة بانفاذ رجل عبر ثغرة تعرف عليها من راعي غنم الى اعلى السور ، ثم اعطاه مغيث عمامته فتسلق عليها الرجال ، ويبدو ضعف امكانيات العرب في أدوات الحصار من ملاحظة ما تم بعد ذلك ، اذ تحصن من استطاع الهرب من الحامية في كنيسة لهم فبقي العرب على حصارهم ثلاثة شهور حتى استسلموا .

وفي حالات اخرى كان العرب المسلمون يدخلون من الابواب بشراء احد البوابين كما حصل في الاسكندرية حيث أمنوا لابن بسامة البواب تحقيق رغباته (٧٦) . أو يدخلون من مسارب أرضية للمدينة يدلهم عليها من يشترون خدماته كما فعلوا في قيسارية بفلسطين ، التي حاول العرب عبثاً دخولها لمدة سبع سنين ، الامر الذي دفع بعض الرواة لاختلاق روايات تبرر هذا العجز ، فقالوا ان عدد المرتزقة المدافعين عنها يبلغون سبعمائة الف مما سبب عجز عمرو بن العاص وابنه عن فتحها ، الذي تم لمعاوية عندما اتى يوسف اليهودي لمعسكره ليلاً ودلهم على طريق في سرب فيه الماء الى حقو الرجل مقابل تأمينه مع أهله فأنفذ معاوية اناساً لذلك قاموا بفتح الابواب (٧٧) .

ومن الطرق التي استخدمها العرب المسلمون لدخول المدن دون ادوات حصار قطع الموارد الغذائية عنها من غذاء أو ماء . استخدموا الوسيلة عندما هاجموا بقيادة عياض مدينة الرها في شمال بلاد الشام في أوان الحصاد ، وعندما أمطر المدافعون عنها المهاجمين بالسهام والحجارة اضطر القائد للتراجع الى مكان بعيد عن مرماها مكتفيا بوضع روابط عليها ، ووجه سراياه الى القرى المحيطة فجمعوا منها الاطعمة والزروع فدب اليأس في قلوب المدافعين واستسلموا بعد خمسة أيام أو ستة فقط من بدء الحصار . وفي المغرب حيث كانت المدينة العظمى قرطاجنة قوية حصينة اضافة لكونها ميناء يتبع القوة البحرية المسيطرة على المتوسط آنذاك وهي بيزنطة ، الامر الذي يجعل فتحها على ايدي العرب بالغ الصعوبة لكن نقطة ضعفها تجاه المهاجمين تمثلت بالقناة التي تحمل الماء اليها من عين جوقار على مسافة خمسة أيام ويوزع فيها بواسطة منشآت متعددة اعتبرت آنذاك من الاعاجيب ، لكن امتدادها خارج المدينة الى هذه المسافات الطويلة يجعل قطع الماء عنها عملية سهلة ، وربما حصل ذلك بقيام القائد حسان ابن النعمان بكسر هذه القناة فتركها أهلها وهربوا في السفن (٧٨) .

اما في الشرق فكان الوضع مختلفا اذ استخدمت هنا آلات حرب الحصار ولعبت دورا فعالا لفت انظار الاخباريين فسجلوه واوضحوا دوره . ويمكن تعليل هذا الوضع بكون الحروب المتطاولة التي خاضها العرب في الجبهة الغربية كانت مع بيزنطة القوة الغالبة في البحر والتي تعتمد على قوتها البحرية في المقام الاول وللآماد الطويلة ، أما الحروب البرية فخاضوها على أمد قصير لم يوفقوا فيه . ولم يخض العرب في بر الغرب حروبا طويلة الامد الا مع القبائل المغربية التي كانت تماثلهم في طريقة الحياة البدوية والحياة خارج المدن المسورة . اما في الشرق فكانت فارس دولة برية وجرت معارك قاسية في الطريق الى المدن

وحولها وأثناء حصارها . جرى أول استخدام للمنجنيق أثناء حصار المدائن عاصمة الفرس سنة ١٦ هـ ، فقد اقاموا على بهرسير ، الجزء السفلي منها شهرين رماهم الفرس خلالها بالمجانيق وصاروا يدبون اليهم بالدبابات ، وهنا استغل العرب أو دفعتهم الحاجة الى استغلال من كان قد استسلم لهم قبل ذلك من دهاقين الفرس ، وكان أحدهم دهقان ساباط استسلم على الصلح وتأدية الجزاء للعرب وهم في طريقهم الى المدائن بعد انتصار القادسية ، فاستصنعه سعد عشرين منجنيقا نصبها علىأهل بهرسير(٧٩). واستمر استخدام المنجنيق بعد ذلك في الشرق وفي جهات ارمينيا واذربيجان على نطاق أضيق ؛ وربما رمزت افكار اسطورية تالية الى ظهور واستخدام المنجنيق في الشرق بالزعم أن اول من استخدم المنجنيق في العالم هو ابرهة الاجذم (٨٠) ومهما يكن من أمر نرى المنجنيق يتطور وفعاليته تزداد ودوره يبرز أكثر فأكثر في موجة الفتوحات العربية الاسلامية أواخر القرن الاول الهجري - وخاصة في بلاد ما وراء النهر ، حيث كان قتيبة بن مسلم الباهلي يقود العمليات . ففي سنة ٩١ هـ حاصر هذا القائد ملك شومان على مقربة من بخارى ووضع على قلعته المجانيق التي اشتهر منها ما سماه الفحجاء ، وهي تسمية يدل معناها الحرفي كما هو في اللسان « امرأة فحجاء (٨١) متباعدة ما بين الساقين » على انه منجنيق أكبر من غيره . وتضيف الرواية ما يفيد بفعالية هذه المنجنيقات وخاصة الفحجاء منها ، اذ تقول « فرمى بأول حجر فاصاب الحائط ؛ ورمى بآخر فوقع في المدينة ثم تتابعت الحجارة فوقع حجر منها في مجلس الملك فأصاب رجلا فقتله ففتح القلعة عنوة (٨٢) . وفي حربه مع السند وفتح سمرقند بعد سنتين وضع قتيبة المنجنيقات عليها وأظهرت الرواية مدى فعاليتها بايراد نقاط عدة منها انها فتحت ثلمة في الاسوار تلتها ثلمة يظهر انها كانت كبيرة الى الحد الذي اضطر السند لطلب الموادعة والصلح ، ورد قتيبة بأنه لايصالحهم الا ورجاله على الثلمة ومجانيقه تخطر على رؤوسهم ومدينتهم .

اضافة لذلك استخدم قتيبة وسيلة اخرى من وسائل حروب الحصار وهي النقب سنة ٨٧ عند فتح بيكند الواقعة في نهاية مفازة تفصل بينها وبين بخارى بعد عصيانها ، فعندما بلغ ذلك قتيبة رجع اليهم وقد تحصنوا فقاتلهم شهرا ، ثم وضع العقلة في أصل المدينة (السور) فعلقوها بالخشب ، وهو يريد اذا فرغ من تعليقها ان يحرق الخشب فتهدم فسقط الحائط وهم يعلقونه فقتل أربعين من الفعلة .

كذلك برز امام العرب المسلمين في تقدمهم في الجبهة الشرقية عائق آخر عدا الاسوار وهو الحسك الذي يضعه الفرس على الطرق المؤدية الى مدنهم . حدث ذلك في وقعة جلولاء عندما نثر الفرس حسك الخشب فتعطل عمل الخيل ولم يستطيع العرب التقدم الا بعد ثمانين زحفاً . ثم طور الفرس عملهم فصاروا يضعون حسك الحديد الامر الذي لم يستطع العرب تجاوزه الا بالحيلة ، اذ تظاهروا بالتراجع كي يستدرجوا الفرس ويعرفوا منهم الممرات الخالية من الحسك ، وقد تم ذلك واستدرجت القوة الفارسية الى مسافة بعيدة بينما كانت قوة اسلامية كامنة تسير على الممر الخالي من الحسك نحو باب المدينة فتقف امامه حائلة بينه وبين القوة الفارسية التي ارتد عليها المتراجعون ولاذت أمامهم بالفرار للوصول الى مدينتها فهوجمت من الطرفين واضطر افرادها لدخول مناطق الحسك . وخلا الممر الخالي بذلك للمسلمين كي تتقدم جموعهم من المدينة (٨٢) .

النظام المالي للجيش : —

لم يكن المحاربون الاولون ينالون غير الغنائم أو بعض واردات الاراضي الزراعية ذات المردود المحدود نسبياً من اراضي الجزيرة العربية ، كما مر معنا سابقاً . وكان التوزيع ، بعد اخذ خمس الله والرسول من الغنائم ، بالسوية ، باستثناء حالة المؤلفة قلوبهم ، واستمر توزيع الوارد بجميع اشكاله بالسوية حتى أيام أبي بكر . ثم جاء عمر بن الخطاب واتسعت الفتوحات وتضخمت الواردات ، ولم تعد كما كانت في عهد أبي بكر تكفي للمعاش مما يوجب ان تكون متساوية لتساوي الحاجات الاساسية بين الناس ، بل اصحبت تفيض عنها . مما جعل عمر بن الخطاب بعد رفض تقسيم الاراضي بين المفتتحين لها بل جعلها ملكاً عاماً للمسلمين يعمل بها اصحابها ويدفعون عنها خراجاً هو بمثابة اجر لها يوزع على المسلمين حسب القاعدة المعروفة والمشهورة التي يتفاوت فيها عطاء الناس حسب القرابة من رسول الله والسابقة والبلاء في الاسلام . لكن هذا العطاء يناله الجند كمحاربين ويناله آخرون . أما ما اقتصر عليهم فمنها الانفال واصلها كما يقول ابو عبيد جماع الغنائم أو كل نيل يناله المسلمون من أموال أهل الحرب . وفي كلام العرب « كل احسان فعله فاعل تفضلاً من غير ان يجب ذلك عليه ، وكذلك الانفال . والمشهور منه هو نفل السلب وهو ما على القتيل من ثياب وسلاح بما فيه الفرس والدرع والرمح (٨٤) . اما قسمة الغنائم الاخرى فكانت على الاساس المعروف ، بأن للمقاتلة اربعة اخماس ما غنم عنوة ، وخمسا لما كسب دون ايجاف خيل ولا ركاب . وتجمع الغنائم عند نيلها لدى صاحب القبض وعملية احتجانه دون تسليمه تسمى الغلول وهي في الاصل كتمان الشخص لما

أئتمن على ايصاله للآخرين ، وهو المعنى الذي يفسرها به ابن اسحاق لها من الآية الكريمة «وما كان لنبي ان يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة» أي ما كان لنبي ان يكتم الناس ما بعثه الله به اليهم عن رهبة من الناس ولا رغبة . ثم استخدمت بمعنى احتجان الرجل الغنائم لنفسه دون ادخالها في القبض وقد شدد الرسول الكريم على تحريمها ، ويؤكد ذلك صاحب اللسان في شرحه للكلمة بقوله « والاحاديث في الغلول كثيرة » . وكانت عملية الجمع وقسمته بعد ذلك على المحاربين بعد عزل الخمس بيد موظفين بعينهما القائد ففي المدائن سنة ١٦ هـ قسم سعد دور المدائن بين الناس فأوطنوها ، والذي ولي القبض عمرو بن عمرو المزني والذي ولي القسم سلمان بن ربيعة . ولكن الوظيفتين قد تجمعان لشخص واحد كما حصل بعد جلولاء فما غنم ولي قسمته سلمان بن ربيعة فكانت اليه يومئذ الاقباض والاقسام . اما مؤهلات هؤلاء الاشخاص فكانت اول الامر بسيطة على ما يظهر كما حدث عند فتح الايلة سنة ١٤ هـ ، ويورده الطبري بالقول « ولم يجدوا قاسماً يقسم بينهم فكان زياد قاسمهم ، وهو ابن اربع عشرة سنة له ذؤابة فأجروا عليه كل يوم درهمين » . لكن ضخامة الغنائم وصعوبة قسمتها فيما بعد جعلت من الضروري ان يختارلها عارف بالحساب كما فعل عمر عندما عين السائب بن الاقرع الذي تشير اليه الرواية بالقول انه كان كاتباً حاسباً .

لكن الشيء الذي بقي يمد الجند بالمردود الدائم كان العطاء الذي طور بالنسبة للجيش عند الفتوحات عندما شملت السابقة عدا عن السبق الى الاسلام البلاء في الفتوحات والسبق اليها . وهكذا نالت نساء النبي عشرة آلاف مما يعبر عن أهمية القرابة . اما حسب السابقة فقد قسم الناس على ما يظهر الى فئات كبرى وضمن كل فئة وجدت اصناف ، ويلاحظ وكأن هذه التقسيمات اعتمدت الاساس الثلاثي . فالفئة الاولى فئة السابقين الى الاسلام في الفترة التي سبقت الفتوحات العظمى قسمت الى ثلاثة اصناف ؛ أهل بدر ولهم خمسة آلاف (درهم سنوياً) ثم فرض لمن بعد بدر الى الحديبية الى ان اقلع ابو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ، في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولي الايام قبل القادسية . ويأتي بعد هؤلاء مباشرة الذين شهدوا الفتوحات ، الذين ينقسمون بدورهم الى ثلاثة اصناف ؛ هناك من حضر المعارك الكبرى التي كسرت شوكة العدو مثل القادسية واليرموك . وفرض له الفان ولاهل البلاء البارع منهم الفان وخمسمائة . ويأتي بعدهم صنف تال فرض له الف ، والصنف الثالث هم الذين قدموا بعد ذلك وفيهم ثلاثة أصناف أيضاً ؛ الروادف المثنى وفرض لهم خمسمائة والروادف الثليث ثلثمائة والربيع مائتان وخمسون (٨٦) . وقد دعي عطاء الالفين

وخمسمائة شرف العطاء الذي حوله معاوية الى الفين (٨٧) . على ان هذه الفئات لم تكون طبقة مغلقة بل كان بالامكان انتقال جماعة كاملة من مرتبة لاخرى بسبب ضرورات معينة وقد تم ذلك منذ ايام عمر بن الخطاب كما يروي الطبري عن سيف القول بأنه « وكان اصحاب الالفين ممن شهد القادسية ثم أتى البصرة مع عتبة خمسة آلاف وكانوا بالكوفة ثلاثين الفاً ، فألحق عمر اعدادهم من أهل البصرة من أهل البلاء في الالفين حتى ساواهم بهم (٨٨) . ويلاحظ ان اعداد من ينالون هذا العطاء الكبير في العراق كبيراً ، بصرف النظر عن مدى ايماننا بصحة هذه الارقام التي يهمنا منها نسبة من ينالون العطاء الكبير بالنسبة لافراد الجيش الآخرين ، والتي من الطبيعي ان ترتفع في العراق لكونه من مواطن الجهاد الاولى . اما الشام التي كانت من مواطن الفتح الاولى ايضاً فان عدد من ينالون العطاء الكبير فيها غير معروف وان كانت بعض المؤشرات تدل على كونه كبيراً ، فعندما قتل الضحاك بن قيس في موقعة مرج راهط التي جرت بينه وبين مروان بن الحكم قتل « ومعه ثمانون كلهم يأخذ القطيفة لكل رجل منهم في العطاء الفان وقطيفة يعطونها مع عطائهم (٨٩) » ويبين ابن عبد الحكم ان نسبة من كان ينال شرف العطاء كان يبلغ العشر ، دون ان ندري اذا كان المقصود به مصر وحدها او على مستوى الدولة زمن معاوية اذ يقول « كان الديوان في زمان معاوية اربعين الفاً وكان منهم اربعة آلاف من مائتين مائتين (دينار) .

لكن التطور خلال العصر الاموي سار باتجاه تعداد اكبر في المراتب وتدرج اكثر في كمية العطاء ، كما يستنتج من رواية للبلاذري يظهر فيها عبد الملك بن مروان يتحدث مع أثنين عطاء احدهما ثلاثمائة والآخر سبعمائة . كما تطور باتجاه الخضوع لرغبة الامير مع ما يتحكم بهذه الرغبة من دوافع . يبقى من بينها بالطبع البلاء في الحروب ، لكن الولاء للبيت الاموي والاخلاص له كان دافعاً هاماً لزيادته فقد نقل معاوية حسب قول تيوفانس بيت مال الدولة . من الكوفة الى دمشق وزاد في عطاء أهل الشام وانقص عطاء أهل العراق (٩٠) وتدعم الرواية العربية هذا القول ، اذ يروي الطبري في احداث سنة ٨٢ هـ عن أبي مخنف ان عبد الملك عرض على أهل العراق نزع الحجاج عنهم وان يجري عليهم اعطياتهم كما تجري على أهل الشام (٩١) . ومثل هذا الامر منطقي جدير بالتصديق لما عرف عن أهل الشام من ولاء للامويين ، ومع ذلك لم تكن كل قبائلهم على نفس الدرجة من الولاء بل ان بعضهم ربط مصيره بمصيرهم خلال حقبة طويلة من أيام حكمهم كقبيلة كلب اليمانية في فلسطين ، ومن الطبيعي الا يكون عطاء هؤلاء كعطاء سائر القبائل ويذكر لنا المسعودي ما يفيد بحدوث ذلك فعلاً اذ يقول « اشترط حسان بن مالك ،

وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام ، على مروان ما كان له من الشروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد : منها ان يفرض لهم لألفي رجل ألفين ألفين (٩٢) . وانطلاقاً من هذا المبدأ من المنتظر ان يزيد البعض في كمية العطاء عند توليهم او عندما تزداد الحاجة للجند لاخماد ثورة او انقاذ الامير من ورطة وقد انتقل هذا التقريب بزيادة العطاء للثائرين على الدولة الذين يسيطرون على مناطق غنية كالزبيريين فقد كان مصعب يعطي أهل العراق عطاءين في كل سنة ؛ في الشتاء عطاء وفي الصيف عطاء فأحبه الناس حباً شديداً ، لكن عودة السيادة للامويين حرمت أهل العراق من ذلك فقد ورد في خطبة للحجاج « ان الزيادة التي زادكم ابن الزبير في اعطياتكم زيادة فاسق منافق ولست اجيزها » رغم انهم وعدوا على ما يظهر من قبل عبد الملك عند الاجهاز على ابن الزبير بابقائها لهم . لذلك تصدى للحجاج ابن الجارود قائلاً « انها ليست بزيادة فاسق منافق ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبد الملك قد أثبتها لنا فكذبه وتوعده » (٩٢) .

لعب الخليفة بهذا دور المانح للعطاء حسب مشيئته لجلب الاتباع وكسب الولاء لكنه استخدمه أيضا كوسيلة ضغط لمنع التمرد . ففي سنة ٦٠ هـ عندما تحرك اتباع الحسين بن علي في الكوفة لجأ عبيد الله بن زياد الى التهديد بالغاء عطاء كل الجماعة التي تضم اعداء للبيت الاموي . وهكذا جاء في كتاب هذا الوالي « وايما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه البنا صلب على باب داره ، والغيت تلك العرافة من العطاء » .

ويظهر أنه كان على من ينالون العطاء ان يجهزوا أنفسهم بجهاز للحرب يتناسب مع المقدار الذي ينالونه . ففي زمن الحجاج كان يفرض في ثلاثمائة ففرض للحرنفش احد بني ثعلبة بن سلامان . وكان يأخذ من فرض له بفرس جواد وسلاح شاك » . كما أن عمر بن عبد العزيز أعلن أنه « لايقبل من رجل له مائة دينار الا فرس عربي ودرع وسيف ورمح ونبل » (٩٤) .

لم يكن العطاء خاصا بالجند وان كانوا غالبية من يناله ، ويشاركهم وعلى نطاق اوسع آخرون في تقاضي ما يسمى بالرزق شهريا ، وهو شيء مخصص للغذاء يقدر بجريبين حبوبا شهريا للفرد وان كان الوزن الناتج عنهما قد تغير من وقت لآخر ، كما تمايزت أنواع الطعام المقدم بحسب واردات المنطقة ففي الشام دخل الزيت الى جانبه . فقد روى ابن عساكر أن عمر بن الخطاب لما وصل الى الجابية ، كان من جملة ما فعله أنه « دعا ابن قاطور صاحب الارض فقال : أخبرني ما يكفي الرجل من القوم في الشهر واليوم ؟ فأتى بالمدي والقسط

فقال : يكفيه هذان المديان في الشهر وقسط زيت وقسط خل فامر عمر بمديين قمحا فطحنا ثم عجنا ثم ادمهما بقسطي زيت ، ثم اجلس عليهما ثلاثين رجلا فكان كفاف شبعهم » (٩٥) . واضافة الى الارزاق كان يدفع للجند معونة وقت الغزوات ومن الامثلة عليها ان يزيد بن معاوية دفع الى جانب عطاء سنة كاملة مائة دينار لكل من ينخرط في صفوف الجيش المتوجه ضد الثائرين في المدينة .

أما عن مواعيد الدفع فيزودنا الطبري بخبر عنها من أيام عمر يستقيه من سيف الذي يقول : « وكتب عمر الى سعد بن مالك والى عتبة بن غزوان ان يتربعا بالناس في كل حين ربيع في اطيب ارضهم وامر لهم بمعاونتهم في الربيع من كل سنة وباعطائهم في المحرم من كل سنة وبفيئهم عند طلوع الشعرى في كل سنة وذلك عند ادراك الغلات » (٩٦) . ويجمع صالح العلي جملة اخبار عن عدد من الولاة والخلفاء الامويين تدل على أنهم كانوا يقدمون العطاء في المحرم لكن هذا لم يكن مطبقا من قبل الجميع كما يذكر الباحث نفسه . وبالتالي لايمكن القول بوجود قاعدة ثابتة ، فقد يعطى الجند اعطياتهم وارزاقهم عند القيام بالغزو تشجيعا لهم ، كما فعل عبد الملك بن مروان عندما عين عمر بن عبيد الله بن معمر لقتال ابي مذيك الخارجي وسمح له بأن ينتدب من شاء من أهل القطرين (البصرة والكوفة) وانتدب له من كل بلد عشرة آلاف فأخرج لهم ارزاقهم واعطياتهم فأعطوها » (٩٧) .

من ناحية اخرى نجد في اقصى الطرف الغربي تقديما للرزق على شكل مالي كالمعونة في الشرق بشكل منظم دقيق ينقله لنا المؤرخ ابن الخطيب المتأخر في الزمن كثيرا عن اوائل المؤرخين الاندلسيين ؛ لكننا لانستطيع الجزم بالزمن الذي وصل فيه الى هذه الدقة .

فقد كان العرب المسلمون هناك منقسمين الى فئتين ؛ الاولى هي الفاتحة التي استقرت فيما فتحته من اراض ودعي افرادها بالبلديين ، تمييزا لهم عن موجة ثانية قدمت من الشام في الغالب لقمع تمرد القبائل المغربية سنة ١٢٢ هـ . ودعي افرادها بعد بقائهم في الاندلس بالشاميين ؛ وهم جند معدون للغزو . وكانت لكل فئة من الفئتين طريقته في الغزو ومدته ورزقه الخاص اثناء قيامه بالعملية . فقد كان الخليفة يعقد للشاميين لواءين لواء غازيا ولواء مقيما ؛ وكان رزق الغازي مائتي دينار ويبقى المقيم بلا رزق ثلاثة شهور ثم يدال بنظيره من أهله أو غيرهم ، ويرزق الافراد من الغزاة عند انقضاء غزوهم عشرة دنانير اذا كانوا من أقاربه بموجب الكشف الذي يقدمه صاحب اللواء ويعطى الناس على قوله

فقط تكرمة لهم . أما اذا كان الغازي من غير اقارب صاحب اللواء فيرزق خمسة دنانير . اما البلديون فيعقد لهم لواءان غاز ومقيم لمدة ستة شهور ، ولا يعطى من هؤلاء الا المعقود له مائة دينار ولا ديوان لهم للعطاء ، ويمكن تفسير ذلك بأن هؤلاء تمولوا من الاراضي المفتوحة التي نزلوا بها (٩٨) .

أما عن طريقة توزيع العطاء فالاخبار متوافرة لنا عنها في العراق ومصر حيث كان من المنتظر ان يتم على اساس العشيرة ووحدة العرق والوحدة العسكرية . لكن تفاوت العدد بين العشائر وعدم استقراره بسبب استمرار الهجرة جعل التوزيع كما لاحظ العلي يتم على اساس وحدة مالية هي العرافة التي يتألف عطاؤها من مائة ألف درهم كما يقول سيف « وعرفوهم على مائة ألف درهم . فكانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة واربعين رجلاً وثلاثا واربعين امرأة وخمسين من العيال ... وكل عرافة من أهل الايام عشرين رجلا على ثلاثة آلاف وعشرين امرأة ، وكل عيل ، على مئة ألف درهم ، وكل عرافة من الرادفة الاولى ستين رجلا وستين امرأة واربعين من العيال ممن كان رجالهم الحقوا على ألف وخمسمائة على مائة ألف درهم » (٩٩) . لكن الاوضاع لم تستقر على هذا الاساس ، اذ كانت اعداد المهاجرين تتزايد لكن كمية المال لكل عرافة وللعشائر فيها ظلت ثابتة ، مما جعل زياد بن أبيه يخير الناس بين أخذ نصف اعطياتهم وارزاقهم أو ان تكفيه كل عشيرة من فيها . فمنهم من ضم عشيرته ومنهم من طابت نفسه بنصف عطائه وارزاقه وارزاق عياله (١٠٠) .

كان العريف مسؤول التوزيع ولم يلبث ان اصبح مسؤولا عن استنفار الجند الذين يدفع لهم الى الحرب اضافة لمسؤليته عن الامن . ويظهر ان البعض صار يستغل وضعه فلا يميت الاموات ويتقاسم عطاءه مع أهله مما كان يدفع الولاة الى اعادة التدقيق في سجلات العطاء كما فعل زياد في البصرة ، وكما ظهر بشكل واضح بمصر في عهد معاوية وولاية عمرو بن العاص ، حيث نظمت وظيفة العريف الذي تصف الرواية دقته في عمله « وكان معاوية قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب اسماءهم ويقال نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله فيسميه فاذا فرغ من القيل اتى الديوان حتى يثبت ذلك » .

وكان لموالي بعض القبائل عرفاؤهم اذ ينقل ابن ماكولا عن ابن يونس القول بأن « عبد الله بن صالح مولى قريش يعرف بمولى بسامة حضر فتح مصر ،

وكان عريف موالي قريش عمر طويلا وكان في شرف العطاء » . اكمال ، ج ١ ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ . وان عامر جمل مولى عبد الله بن يزيد بن برذع الجملي ، كان عريف موالى مذحج ، اكمال ج٢ ، ١٢١ .

لكنه حدث على ما يظهر هنــا ما حدث في أماكن أخرى مــن تطورات على أوضاع الناس مما جعل الولاة يعيدون التدوين عدة مرات « فأول تدوين كان بمصر على يد عمرو بن العاص ثم دون عبد العزيز ٦٥ ـ ٨٦ هـ ودون قرة بن شريك ٩٠ ـ ٩٦ هـ التدوين الثالث ثم دون بشر بن صفوان تدوينا رابعا (١٠١) . وبعده لم يكن هناك تدوين الا التعديل الذي حدث في زمن هشام بن عبد الملك عندما وفد ابن الحجاب على هشام فسأله ان ينقل من قبائل قيس ابياتا الى مصر فأذن له هشام في الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر (١٠٢).

القواعد العسكرية :

عندما دخل العرب فاتحين للمنطقة المحيطة بالجزيرة العربية نزلوا فيما جلا عنه أهله في بعض البلدان كالشام مجاورين للسكنى فيمن بقي من السكان باستثناء السواحل والثغور حيث كان الجلاء عاما في بعض المواقع . أما في المناطق الداخلية حيث كان العرب يتابعون الفتح فقد نزلوا في قواعد خاصة لم تلبث ان أعمرت أو مصرت . وقد اختيرت مواقعها رغم التباعد الكبير بينها بناء على مبدأ ينسب اتخاذه للخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب واكثر النصوص دلالة عليه ما يورده ابن عبد الحكم ويقول : « ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها هم أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها فكتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمين ماء قال : نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل فكتب عمر الى عمرو اني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فتحول عمرو ابن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط » ويروي البلاذري رواية مشابهة فيها « أن عمر بن الخطاب كتب الى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى والى عامله بالبصرة والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية ان لاتجعلوا بيني وبينكم ماء متى اردت ان اركب اليكم راحلتي حتى اقدم عليكم قدمت » .

كذلك يعزى لعمر بن الخطاب ايضا ضمن المبدأ المتبع لبناء القواعد مراعاة مايلائم صحة الجند فقد كتب عمر الى سعد حسب ما يورده الطبري عن سيف « انبئني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم ؟ فكتب اليه : ان العرب خدّدهم

(اهزلهم) وغير ألوانهم وحومة المدائن ودجلة ، فكتب اليه : ان العرب لايوافقها الا ما وافق ابلها من البلدان ، فابعث سلمان رائـدا وحذيفـة ــ وكانا رائدي الجيش ــ فليرتادا منزلا بريا بحريا . . . » .

بعد اختيار الموقع يبنى المسجد ومقر الامير في الوسط ثم تقسم البقية الى قطائع ويتولى العملية اناس يوكلهم الامير بذلك ويعينهم له فيقومون بانزال الناس في مواقعهم المحددة ، وهكذا كان على انزال البصرة ابو الجرباء عاصم بن الدلف ، احد بني غيلان بن مالك بن عمرو بن تميم . أما في الفسطاط فقد رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية الى موضع فسطاطه فانضمت القبائل بعضها الى بعض وتنافسوا في المواضع فولى عمرو على الخطط معاوية بن خديج التجيبي وشريك بن سمي الغطيفي وعمرو بن قحزم الخولاني وحبويـل بن ناشـرة المغافري وكانوا هم الذين انزلوا الناس وفصلوا بين القبائل » (١٠٦) كما تولى ذلك في الكوفة السائب بن الاقرع وابو الهياج الاسدي (١٠٧) .

وكانت المشكلة فيما يتعلق بالانزال هو مراعاة القبلية الضروريه لضمان حسن التجاور اضافة للضرورات الحربية بما ان القبيلة وحدة ، لكن الضرورات المالية في توزيع العطاء وعدم استقرار اعداد القبائل بسبب الوافدين كل ذلك ادى الى مراعاة مبادىء أخرى اضافة للقبلية ويظهر ذلك واضحا باستعراض العملية في القواعد الثلاث .

في الكوفة التي تعني الرملة المستديرة حيث قام مركز الامير والمسجد في الوسط وزعت الخطط او المناهج الرئيسية على القبائل وفي نهاياتها خطط اصغر انزلت فيها اعشار الايام والقوادس كما حفظت اماكن للمقيمين في الثغور كي ينزلوا بها عند موافاتهم . لكن الامر لم يستقر على هذه الحال لاستمرار الهجرة ، مما أدى الى تغيير في أماكن النزول كما يقول سيف « فلما ردفتهم الروادف . البدء والثناء وكثروا عليهم ، ضيق الناس المحال فمن كانت رادفته كثيرة شخص اليهم وترك محلته ومن كانت رادفته قليلة انزلوهم منازل من شخص الى رادفته لقلته اذ كانوا جيرانهم ، والا وسعوا على روادفهم وضيقوا على أنفسهم » وريثما تتم مثل هذه العملية اعدوا مناخاً لكل رادف فكان كل من يجيء سواء فيه حتى يأتوا الهياج (المسؤول عن الانزال) فيقوم في امرهم حتى يقطع لهم حيث احبوا » (١٠٨) . لكل هذه الاسباب قسم الناس الى اعشار تراعي النسب القبلي ، لكن التوازن العددي بينها لم يلبث ان اختل فعدلهم سعد الى اسباع روعيت فيها قدر الامكان ضم السبع لقبائل متقاربة نسباً بدليل انه عندما سمح له بذلك « أرسل الى قوم من نساب العرب وذوي رأيهم وعقلائهم منهم سعيد بن نمرات ومشعلة بن

نعم فعدلوهم على الاسباع وبعد مضي قرابة ثلاثين عاماً اعيد التعديل الى الارباع ايام زياد بن ابيه ولكن ظل القرب في النسب مرعياً .

اما البصرة فينسب تمصيرها الى عتبة بن غزوان في تاريخ غير متفق عليه بين ١٤ و ١٦ هـ ، وقد بدأه باقامة معسكر من الخيام والفساطيط والقصب في مكان يسمى الخريبة ، ثم توسع الى جهة منطقة مجاورة تدعى الدهناء حيث حد فيها مكاناً للمسجد الجامع وتأسست بذلك نواة البصرة . ثم توسعت هذه النواة بفعل الهجرة على نطاق واسع اليها ، خاصة بعد تحويل موارد بعض مناطق الكوفة اليها . وادى هذا بدوره الى ازدياد اعداد من يتناولون العطاء فيها ، اضافة لقيام بعض العرفاء بابقاء من توفي حياً على سجلاتهم وشعرت الدولة ايام زياد بن أبيه بوطأة الثقل فقام هذا الوالي بالتدقيق في السجلات وحذف اسماء المتوفين ، ثم نقل من مصر العراق الى خرسان خمسين الفاً مع عيالاتهم حسب قول البلاذري - الذي تدعمه أيضاً رواية للمدائني في الطبري وتحدد ان النصف كان من البصرة - والى زياد هذا تنسب الرواية تقسيم الجند في البصرة الى اخماس كانت اساس تعبئتهم للحرب كما يظهر في موقعة المربد - ويلاحظ في هذه الاخماس أيضاً مراعاة القبلية الى حدود معينة ، حتى ان خمس العالية منها كان خليطا الى حد تعيير الخصوم له ونعت اهله بالقول « ان اهل العالية كأبل الصديق جمعت من كل اوب . كما ان عديدا من العشائر كانت في خمسها بعيدة عن اهلها ويتردد في الاخبار ذكر للعديد من الاشخاص الذين يقولون عن افراد منهم انه من قبيلة كذا لكن عداده (أي الخمس الذي ينتمي اليه) في كذا .

كانت الفسطاط القاعدة الثالثة التي انشئت في هذه الفترة واسمها مشتق من مخيم عمرو بن العاص كما تقول الرواية العربية ، الا ان كاتب مقالة « الفسطاط » في الموسوعة الاسلامية يورد ان البعض يعتقد بأنها تعريب للكلمة اليونانية الموجودة على البرديات مزدوجة اللغة والتي تعني المخيم او المعسكر . وقد بنيت على ضفة النيل الشرقية الى جانب حصن بابليون المشهور في عمليات الفتح الاسلامي لمصر . هنا نزل الجند الفاتحون ضمن خطط موزعة على القبائل - ولم يرد في الروايات ما يفيد تنظيمها في اخماس او ارباع بل الغالب ان لكل قبيلة خطة ولها ديوانها المالي ، لكن بعض القبائل ممن لم يكن عددها كافياً لينفرد بدعوة من الديوان وكرهت ان تدعى باسم غير اسم قبيلتها وجدت حلا موفقاً لدى عمرو بن العاص بجمعها تحت اسم لا يمت بصلة لاسم احد منها وهو الراية التي « لم ينسبها لاحد وقال يكون موقفكم تحتها فكانت لهم كالنسب الجامع وكان ديوانهم عليها . وكما دعت الضرورة المالية لهذا الجمع بين قبائل كذلك

دعت ضرورات الحرب لجمع قبائل أخرى في خطة اعطيت أيضاً اسماً جامعا وليس اسم قبيلة وهي خطة اللفيف رغم ان لها عدة دواوين لكل قبيلة ديوان » (١٠٩) .

لم تتمصر هذه القواعد وتعمر دفعة واحدة وانما تم ذلك بالتدرج من مدينة من الخيام الى مدينة ذات عمران ، فمدينة الكوفة حسب رواية ياقوت عن ابن عباس « أخصاصاً من قصب اذا غزوا قلعوها وتصدقوا بها فاذا عادوا بنوها فكانوا يغزون ونساؤهم معهم » ، وحتى هذا البناء الوقت استأذنوا فيه عمر الذي تردد وقال : العسكر اجد لحربكم وأذكى لكم وما احب ان اخالفكم . وعندما حصل حريق في القصب سمح لهم عمر بالبناء باللبن . كذلك كانت هذه القواعد تتطور باتجاه اخر هو التوسع تبدأ صغيرة وتكبر بالتدريج كما حصل في البصرة اذ انهم كانوا يتوسعون بالتدريج ومع توسعهم يمدون النهر الذي يستقون منه .

من ناحية أخرى لم تكن هذه القواعد على الحدود وانما كان لها ثغور بعيدة على حدود الاعداء تتخذ كمحارس ونقاط انطلاق نحو ارض العدو . وقد كان للكوفة عند تمصيرها اربعة ثغور حسب قول سيف هي حلوان ، وماسبذان (وراء جلولاء) وقرقيسياء والموصل . وعند عودتهم من الغزو كانوا يخلفون فيها حاميات تصل الى الآلاف ، كما هو حال أهل البصرة « الذين كانوا يغزون من لم يصالح من أهل خراسان ، فاذا رجعوا خلفوا اربعة آلاف للعقبة » (١١١) .

استمرت الاحوال على هذا المنوال قرابة ثلاثين عاماً ، اذ اقيمت القواعد الثلاث في اواخر العقد الثاني من القرن الاول الهجري ، وخلالها كانت فتوحات العرب المسلمين تتوسع وغزواتهم تتعمق ، مما جعل القواعد بعيدة جداً عن ميدان العمليات في المشرق والمغرب على حد سواء . وبعد انقضائها في حوالي سنة خمسين للهجرة ، قام العرب المسلمون باقامة قواعد متقدمة ، عزت الروايات انشاءها لمبادرات فردية من القواد ، لكن التلازم الزمني في اقامتها وتوطين العرب المسلمين بها يدعو للاعتقاد بأن العملية كانت تنفيذاً لسياسة عامة للدولة . ففي الشرق يورد البلاذري أن زياد بن أبي سفيان عين على البصرة سنة ٤٥ هـ وقام بدوره بتعيين امير بن احمر المتوفى سنة ٥٠ هـ وكان اول من اسكن العرب مرو وفي السنة التالية ولي زياد الربيع بن زياد الحارثي سنة ٥١ هـ خراسان ومعه حول الخمسين الفاً من أهل المصرين (الكوفة والبصرة) كما ذكرنا سابقاً . أما في المغرب فكانت الغزوات تنطلق من الفسطاط وتخوض معارك

تنتصر في العديد منها لتحرز الجزية وتتقبل استسلام البعض ، لكنها ما ان تعود حتى ينتقض من استسلم وتتوقف الجزية ، مما يضطرهم للبدء من جديد. وفي نفس السنة التي وطن فيها العرب بمرو ، أي سنة ٥٠ هـ ، شرع عقبة في بناء مدينة القيروان ، كما يقول ابن عذاري . واجابه العرب الى ذلك . وقد سار في عملية البناء واختيار الموقع وفق المبدأ المنسوب لعمر بن الخطاب في بناء القواعد الاولى ، كما يستفاد مما يرويه ابن عذاري حول هذا الموضوع بقوله على لسان عقبة وجنده « فأرى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للاسلام الى آخر الدهر فاتفق الناس على ذلك وان يكون أهلها مرابطين» وقالوا : « نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط ، فقال عقبة : اني اخاف ان يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون . فلما اتفق رأيهم على ذلك قال : قربوها من السبخة فان دوابكم الابل وهي التي تحمل اثقالكم » (١١٢) .

من هذه القواعد صارت الغزوات تنطلق شرقاً وغرباً وتعبر الحواجز المائية ، ففي الشرق مثلا ، كانت تخرج من مرو الى آمل التي يقول عنها ياقوت الحموي انها مدينة مشهورة في غربي جيحون على طريق القاصد الى بخارى من مرو . وعند قسم من هذه المدينة يدعى آمل الشط كان العرب يعبرون جيحون الى البلاد التي عرفها العرب باسم بلاد ما وراء النهر كما فعل قتيبة في عبوره سنة ٨٧ هـ . وكانت عمليات مشابهة تجرى في الوقت نفسه في الغرب حيث وصلوا لاقصى المغرب واستقروا في قاعدة طنجة حيث اقام امير المغرب موسى ابن نصير مولاه طارقاً كحاكم لطنجة سنة ٨٥ هـ ، ومن هناك انطلق هذا الحاكم لفتح شبه جزيرة ايبريا الاندلس ولحق به سيده حتى اتما الفتح .

الثغور البرية والبحرية :

لم تكن ثغور القواعد البرية في الشرق ثابتة على الاغلب اما في الغرب فقد كان الوضع مختلفاً اذ ان التقدم العربي الاسلامي وراء طوروس لم يتعد الهجمات ولو انها في بعض الاحيان وصلت لمحاصرة القسطنطينية ذاتها . اضف الى ذلك ان البيزنطيين ظلوا عموماً خلال القرن الاول الهجري سادة المتوسط يوزعون غاراته على شواطىء كل البلدان التي فتحها العرب المسلمون بدءاً بسواحل الشام مرورا بمصر وانتهاء بشواطىء المغرب . وكان على العرب في مواجهة هذا الامر ان يعمرو هذه المناطق لان أهلها من الروم البيزنطيين جلوا عنها ، كما تؤكد لنا الاخبار الواردة عنها كلها . فطرابلس التي فتحت أيام ولاية معاوية على

الشام ، كتب المحاصرون فيها الى ملك الروم يسألون : ان يبعث اليهم بمراكب يهربون فيها الى ما قبله فوجه اليهم بمراكب كثيرة فركبوها ليلاً وهربوا . وحصل الامر نفسه في الاسكندرية وقرطاجنة على الشاطىء الافريقي . كذلك حصل في الحدود البرية مع بيزنطة ، اذ اخليت المنطقة اما بهرب أهلها أو بحمل هرقل لهم عند انسحابه ، كما خرب العمران فيها وهدمت الحصون حتى يحرم الروم العرب المسلمين من مآوي وموارد اقتصادية (١١٣) .

تجاه هذا الوضع قام العرب وخاصة على الشواطىء باتباع سياسة معينة اول الامر« انهم كلما فتحوا مدينة ظاهرة او عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين فان حدث في شيء منها من قبل العدو حدث سربوا اليها الامداد من الداخل » ويلاحظ أن قواعدهم الاساسية كانت في الداخـل حيث الاجناد في الشام وحواضرها،جند فلسطين وحاضرته لد ثم الرملة، وجند الاردن وحاضرته طبرية ثم جند دمشق وحمص التي فصل عنها فيما بعد في المنطقة الشمالية أيام معاوية أو أيام ابنه يزيد قنسرين كما يقول البلاذري ، ولو ان خبر الطبري الذي يعزو العمل لمعاوية اكثر تفصيلاً وتحديداً اذ يقول عـن قنسرين « كانت رستاقاً من رساتيق حمص حتى مصرها معاوية وجندها بمن ترك الكوفة والبصرة في ذلك الزمان وأخذ لهم معاوية بنصيبهم من فتوح العراق واذربيجان والموصل والباب » . ويظهر أن ميدان عمليات هؤلاء الجند في الفتوح ضد اعداء المسلمين كان محدوداً لا يتعدى الهجمات في فترات متباعدة نسبياً على بيزنطة ، لذلك كانوا اداة الحكومة المركزية في الازمات كتعثر فتح أو قيام تمرد خطير كذلك الذي قام به ابن الاشعث على الحجاج ، أو تمرد القبائل المغربية في المغرب والاندلس . ونتج عن هذا الوضع الاخير انتقال نظام الاجناد الى الاندلس ذلك ان هشام بن عبد الملك عندما حدثت الثورة المغربية وقتل فيها أشراف العرب ارسل حملة من اجناد الشام من كل جند ستة الاف ومن أهل قنسرين ثلاثة آلاف فتم لهسبعة وعشرون الفاً حسب رواية صاحب الاخبار المجموعة التي يضيف لها ثلاثة آلاف من مصر ، بينما يجعل ابن عذاري بعث الشام اثني عشر الفاً وانضم اليه اناس آخرون في الطريق حتى واجه الثائرين بثلاثين الفاً (١١٤) . والمهم في الامر بالنسبة لموضوعنا ان قسما من هذا الجيش الذي فشل في شمال افريقيا توطن على ارض الاندلس برزق خاص هو ثلث أموال أهـل الذمة ثم انزلوا على الكور ؛ نزل جند مصر في كورتي اكشونية وباجة وجند حمص في كورتي ليلة واشبيلية وجند فلسطين في كورتي شذونة والجزيرة وجند الاردن في كوره ريه . وجند دمشق في كورة البيرة وجنـد قنسرين في كورة جيـان

واصبحت هذه الكور تسمى بالكور المجندة (١١٥) وصار اسم الجند النازل بعضها علماً لها او مرادفاً لاسمها الاول كتسمية اشبيلية بحمص وغرناطة التي اضحت قاعدة البيرة دمشق .

اضافة لهذه المهمات التي كان يقوم بها الجند كانوا ايضاً عدة للدفاع عن السواحل منهم ترسل الجنود الى الساحل في أوقات الهجوم كمدد أو في الفترة التي يكون فيها البحر ملائما للابحار فيه ويتوقع مجيء الغزوات . وقد تطورت طريقة الدفاع والوسائل المتخذة لذلك ويورد لنا البلاذري صورة للوسائل الاولى عند الفتح نقلاً عن احد الشاميين بقوله « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين فان حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا اليها الامداد ، فلما استخلف عثمان رضي الله عنه كتب الى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزله اياها » ويظهر النظام في هذا الشكل الاول واضحاً في كيفية الرباط بالاماكن الساحلية التي ظلت قائمة كالاسكندرية حيث بقي فيها خلق من الروم لان المدينة كبيرة ولم تتسع السفن المائة الكبار التي كانت في مينائها عند سقوطها بيد العرب المسلمين لاكثر من ثلاثين ألفاً فبقي فيها مئتا ألف من الرجال حسب رواية ابن عبد الحكم . وقد اهتم عمر بن الخطاب بالدفاع عنها فأمر الولاة بتكشف رابطها وعدم الغفلة عنها ، كما كان يرسل من أهل المدينة رابطة لها . وجاء بعده عثمان بن عفان ليسير على السياسة نفسها ويأمر اميرها عبد الله بن سعد بن أبي سرح بتخصيص رابطة للاسكندرية وتحديد امد اقامتها فيها بستة شهور من العام .

وفي عهد معاوية وولاية عمرو بن العاص الثانية تعدى تنظيم الدفاع الاسكندرية الى السواحل ، اذ يورد الكندي وابن الحكم القول بأن « عمرو بن العاص قطع من اصحابه لرباط الاسكندرية ربع الناس صائفة يقيمون ستة أشهر ثم تعقبهم شاتية ستة أشهر ، وخصص ربعاً للسواحل ، والنصف يقيمون معه» واستمر الاهتمام بالاسكندرية بعد وفاته ، فتجلى بتعيين حاكم خاص للمدينة مع حامية دائمة ؛ وهكذا عين عتبة بن ابي سفيان على مصر سنة ٤٣ هـ ، وعقد هذا بدوره لعلقمة على الاسكندرية مع اثني عشر الفاً من أهل الديوان يكونون فيها رابطة ، لكن أمير الاسكندرية الجديد لم يلبث ان كتب شاكياً قلة من معه من الجند وانه يتخون على نفسه وعليهم فخرج عتبة الى الاسكندرية مرابطاً وابتنى فيها دار الامارة . ويظهر ان الخليفة احيط علماً بالشكوى أيضاً فأخبر واليه بأنه يمكن الاعتماد كاحتياطي عند الحاجة على جند فلسطين في قاعدته الرملة حيث يوجد اربعة آلاف ممسكين بأعنة خيولهم ، واضافة لذلك امدهم

بأربعة آلاف . شمل التنظيم قضية نزول الجند في المدينة ، اذ كانوا قبلا ينزلون على البيوت الخالية حسب السبق ، ثم يتركونها عند قفولهم ، مما جعل عمراً يخشى عليها من الخراب فخص كل انسان بالمنزل الذي سبق اليه فيصبح له ولبني ابيه ، وفرض الترميم على رومها . وبهذا ظهر نوع من الاقطاع مختلف شرعاً عن الملكية ، اذ انه حق انتفاع فقط كما يقول الفقية يزيد بن أبي حبيب من انه لا يحل توريثها ولا بيعها ولاكرائها . اضف الى ذلك أن شؤون البحر أصبحت خطة خاصة عين لها « جنادة بن امية الازدي من الصحابة الذي شهد الفتح ثم ولي حطة البحر لمعاوية ، وفي سنة ثمان وخمسين عين لها الاكدر بن حمام احد فرسان لخم بمصر » (١١٧) .

اما على الشواطىء الشامية ، حيث اضحى قسم من موانئها مخرباً والآخر خاوياً ، فقد نظم امر الدفاع على اساس اعادة تعمير ما تخرب واعماره مع اعمار الخاوي بالجند وتجهيزه بوسائل مناسبة للدفاع وطلب الامداد . وقد بدىء بذلك منذ أيام ولاية معاوية على الشام ، مع اختلاف في الروايات حول الخليفة الذي اذن له في عمل ذلك ؛ اذ يعزوه البعض الى عمر ويرجعه البعض الآخر الى عثمان وهكذا ورد لـه الاذن من الخليفة بعدما وصف لـه حال السواحل « في مرمة حصونها واقامة الحرس على مناظرها أي لاكتشاف السفن القادمة واتخاذ المواقيد لها ، وهي التي تشعل النار فيها ليلاً ويرسل الدخان منها نهاراً وذلك لطلب الامداد من الداخل . وهذا يعني انه ظهر نظام اقامة مرابطين على الساحل أو حاميات مع توفير وسائل عند الضرورة لطلب المدد مـن الداخل واضافة لذلك كانت ترسل ـ حين ملاءمة البحر للابحار ، جماعة اضافية كما هو الحال في طرابلس اذ كان معاوية كما يقول البلاذري « يوجه في كل عـام الى طرابلس جماعة كثيفة من الجند يشحنها بها ويوليها عاملا فاذا انغلـق البحر قفل وبقي العامل في جماعة منهم يسيرة » . اما العمران والترميم فقد تم في مدن وحصون عدة على الساحل الشامي فعندما فتح المسلمون الشاطىء فتحوا مدينة تعرف ببلدة على فرسخين من جبلة عنوة ثم انها خربت وجلا عنها أهلها فأنشأ معاوية بن أبي سفيان جبلة وشحنها . كما رمم عكا وصور وحصّن انطرطوس وعرقة وبيروت وجبيل وصيدا وظلت عملية البناء والترميم قائمة طيلة العصر الاموي وخاصة للمواقع والمدن التي يهدمها الروم في غاراتهم أيام ضعف العرب المسلمين بالفتن الداخلية .

ومن الامثلة عليها قيسارية وعسقـلان اللتان اعـاد عبد الملك بن مروان بناءهما . كما اعمرت هذه المدن بالناس خاصة بعد تشجيعهم بالاقطاع فيهـا

فقد نقل معاوية قوما من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الاردن (صور وعكا) سنة اثنين واربعين . ونقل من اساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى انطاكية حوالي السنة نفسها . وينقل البلاذري أيضا بسند طويل يعود الى معمرين لمنطقة الشاطىء قولهم « نزلنا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم ثم نزع الينا أهل بلدان شتى فنزلوها معنا وكذلك جميع سواحل الشام » (١١٩) .

وسار نظام الدفاع عن السواحل خطوة اوسع الى الامام عندما انتقل العرب المسلمون من تحصين السواحل الى المباشرة في انشاء الاسطول . ولم يكتفوا في هذا المجال بدور الصناعة التي ورثوها عن ايام البيزنطيين في مصر وانما اقاموا دار صناعة بعكا على شاطىء جند الاردن سنة ٤٩ هـ في عهد معاوية ثم نقلها المردانيون الى صور . وفي المغرب ، وبعد ذلك بثلاث وثلاثين سنة ، أنشأ العرب المسلمون في افريقيا اثناء ولاية حسان بن النعمان قاعدة تونس البحرية بدلا من قرطاجنة البيزنطية التي خربت ، وفي موقع قريب منها الا أنه اكثر ملاءمة لكونها غير مفتوحة على البحر مباشرة مثلها بل وراء بحيرة ، وانشأ فيها دار صناعة أمده الخليفة تحقيقا لهذا الغرض بألف قبطي حملوا من مصر مع عائلاتهم (١٢٠) .

ويمكن الاعتقاد بأن الاسطول العربي الاسلامي أضحى كبير العدد خلال خلال هذه الفترة بناء على بعض المؤشرات منها ما يقوله ابن عبد الحكم والكندي بأن مراكب العرب المسلمين في معركة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ كانت مائتي مركب ونيف في هذه الفترة المبكرة وقبل انشاء دور الصناعة في الشام وافريقيا . ومؤشر آخر يمكن الاعتماد عليه هو أن والي مصر حفص بن الوليد قد فرض أو ادخل في الديوان لحساب الخليفة يزيد الثالث ثلاثين ألفا من القامصة والموالي (١٢١) وهم من العاملين في البحر الذين لم ينالوا قبلا شرف التسجيل في الديوان . ومن المعروف ان كلمة القامصة هي التحريف العربي للمحارب عند اليونان « ماشيموس » كما ان المولى كانت مستخدمة كمرادف للنوتي التي استخدمتها العرب ايضا .

أما في المجال البري فكانت هضبة الاناضول ميدان المعارك سواء في غارات العرب المتكررة أو خلال محاولاتهم لفتح القسطنطينية . ويظهر أن الروم البيزنطيين منذ انسحاب هرقل قد اخلوا المنطقة الى ما وراء طوروس وضربوا ما فيها من عمران ودمروا ماتحتوي عليه من موارد ، وخاصة طريق الممرات

بين انطاكية وطرسوس . وربما فعلوا ذلك لحرمان العرب المسلمين من اتخاذ مآوي لهم والانتفاع بموارد المنطقة . وبالتالي بقيت حدود المسلمين خرابا في هذه الجهة من انطاكية وما حولها الى ما يوازيها حتى الجزيرة ، أي كل المنطقة التي سماها الرشيد عواصم ، واضطر قادة الشواتي والصوائف اذا دخلوا بلاد الروم أن يخلفوا وراءهم جندا كثيفا الى خروجهم وذلك خوفا من هجمات عليهم من الخلف وضرب المتخلفين والمنقطعين منهم .

وفي عهد معاوية بدأ شك هـذه المناطق بالحصون لتكون بمثابة مسالح ومحارس ونقاط انطلاق للمهاجمين من جهة وحماية لخطوطهم الخلفية من جهة اخرى . وتركز اكثر العمـل بالتالي على البناء في منطقة مدخلي بـلاد الروم البيزنطيين ، من جهة الساحل الشامي والممرات الجبلية الى جهات ساحـل الاناضول الجنوبي ، بين انطاكية وطرسوس ، ثم من ناحية الفرات ، ولم تلبث المنطقة الاولى ان دعيت بالثغور الشامية ودعيت الثانية بالثغور الجزرية . تشبه المنطقة الاولى مثلثا رؤوسه في انطاكية ونهرجيجان وطرسوس . فعلى الساحل بجوار انطاكية بنيت سلوقية وعلى بعد اربعة فراسخ مـن انطاكية بني حصن بغراس وفي الممرات الجبلية بني حصنا قطرغاس وموره وبني على نهر جيجان على اساسه القديم حصن المصيصة الكبير سنة ٨٤ هـ وتجاوزه العرب المسلمون ليبنوا في عهد مروان بن محمد شرق جيجان حصن الخصوص . وفي المنطقة الثانية ، منطقة ثغور الجزيرة بنيت شمشاط وملطية . ثم توغلـوا اكثر نحو الداخل فبنوا حصن طراندة على مسيرة ثلاثة أيام من ملطية .

اقيمت هذه الحصون باعتبارها محارس حاميات من الرجال ، فقد اقام هشام في حصن مورة اربعين رجلا من جماعة الجراجمة وفي بغراس خمسين ، بينما أسكن عبد الله بن عبد الملك في حصن المصيصة جماعة كبيرة من الجند بلغ عدد المختارين منهم من ذوي البأس والشدة ثلاثمائة رجل ، ثم جاء مروان ابن محمد فانزل الخصوص فرسا وصقالية وانباطا نصارى مما يوحي بكثرة العدد ايضا . ومما يلاحظ في توزيع الجند على الحصون ان عدد الجند في حصون الطريق قليل بينما يتضخم في الحصون الواقعة في منطقة التماس مع العدو .

عدا عن الهجمات الكبرى الموجهة ضد القسطنطينية كان العرب يقومون بغارات دورية سنوية تقريبا على البيزنطيين سميت بالصوائف والشواتي ويسمي البلاذري القوة المهاجمة أحيانا باسم الطوالع التي تأتي من القاعـدة الرئيسية المجاورة للحدود ، وذلك من معرض حديثه عن المصيصة ، حيث يذكر ايضا ان

عدد « من كان يطلع اليها الف وخمسمائة الى ألفين ». بينما يسجل لنا ابن عساكر وهو متأخر رواية منقولة عن احد المشاركين فيها زمن معاوية يصف طريقتهم في الغارات ويقول انهم ينقسمون الى فرق عندما ينزلون في اراضي البيزنطيين فقسم للحراسة والدفاع وقسم للاغارة مع تأمين الاتصال بين الجميع (١٢٢) . ويقدم لنا الكاتب قدامة بن جعفر الزمن الذي تقوم به هذه الغارات التي تسمى بالشواتي والصوائف فيجعل الصوائف حملتين والشواتي حملة واحدة . تقوم حملة الصوائف الاولى في اواسط مايو العجمي او مايس عندما تكون الخيول قد سمنت ولمدة ثلاثين يوما تتابع فيها الرعي في الارض البيزنطية وبعدها يرتاح المسلمون شهرا ليتابعوا الغزو بعد ذلك لمدة شهر آخر . وبهذا يكون المجموع ستين يوما . أما حملة الشواتي الوحيدة فتبدأ أواخر شباط الى اوائل آذار (١٢٣) ، أي لاتستمر اكثر من عشرين يوما . لكن الاخبار التاريخية التي يوردها البلاذري لاتؤيد هذه القواعد النظرية فعند الحديث عن ملطية من الثغور الجزرية يقول : « وكانت تأتيها طالعة من جند الجزيرة في الصيف فيقومون بها الى أن ينزل الشتاء وتسقط الثلوج » وعند حديثه عن المصيصة في الثغور الشامية يقول : « وكانت الطوالع من انطاكية تطلع عليها في كل عام فتشتو بها ثم تنصرف ... » وهذا يعني ان العملية حسب وصف البلاذري تكاد تنطبق على الفصول . كما انه يفهم من اقوال البلاذري شيء آخر وهو ان كل ثغر مختص بفصل للغزو فالصوائف تتوجه الى ثغور الجزيرة والشواتي الى ثغور الشام ، ويؤكد هذا المعنى في مكان آخر عندما يشير الى ملطية « بأنها كانت طريق الصوائف » . وربما تكون دلالات البلاذري مقصودة وصحيحة ويمكن تبريرها بقسوة الشتاء في أعالي الفرات داخل الاناضول أي في منطقة الثغور الجزرية ، وكونه محتملا اكثر في الثغور الشامية القريبة من البحر نسبيا .

لعل آخر ما يمكن الحديث عنه فيما يتعلق بنظام الثغور قضية ترغيب الناس بسكناها وربطهم بالارض بها ، فقد لجأ الامويون الى منح الاقطاعات في بعضها وفي بعضها الآخر يحيلون واردها ينفق على القائمين بها ولو كان ملكا خاصا مثل بغراس التي كانت ملكا لمسلمة بن عبد الملك ووقفها على سبيل البر (١٢٥) ، وفي أماكن اخرى كسلوقية حصن انطاكية على البحر (اعطيت الارض مقابل مبالغ بسيطة) اذ صير الفلثر (وحدة للمساحة تقابل الفدان أو الجريب) بدينار ومدي قمح . وعندما فتحت الاندلس في وقت متأخر من هذا العصر حدث ما يدل على أن مفهوم تقديم أو اقطاع الارض في الثغور للناس أمرا مقبولا ومعتادا ومفهوما سائدا . اذ سقطت أراضيها عنوة في الغالب فلم تخمس كما فعل

الرسول الكريم فيما فتح ، كما لم تقر لجميع المسلمين كما فعل عمر . يضاف الى ذلك أن هناك أراضي خالية هرب منها اصحابها من النبلاء ورجال الكنيسة الكبار ، أو قتلوا ، وهي تشكل نسبة واسعة من الارض ، كما أن بعض الاراضي سقطت صلحا . ومع كل ذلك عامل موسى بن نصير ولمصلحة المحاربين جميع الاراضي معاملة الغنيمة وحاول أخذ الخمس فأخذه من السبي والاموال لكنه لم يكمله من الاراضي ، واقرهم الوليد على ما بأيديهم باعتبارها ثغرا . وعند تولي عمر بن عبد العزيز أرسل السمح بن مالك الخولاني ليقوم بتمييز أرض العنوة عن أرض الصلح ليصح التخميس فلجأ المالكون الى تعلتهم المعروفة وهي الرغبة في ترك أراضي الاندلس والعودة للمشرق فاقرهم عمر على ما بأيديهم وعلى ما سجله لهم الوليد وموسى بن نصير وأمر واليه بأن يقر القرى بأيدي أربابها (١٢٦) .

نظرة عامة واستنتاج

باستعراض ما مر يتبين لنا أن قضية التنظيم العسكري في الحضارة العربية الاسلامية مثلها مثل سائر قضايا هذه الحضارة تحتوي على عناصر أربعة . عربي جاهلي واسلامي،واقتباس عن الآخرين مع ابتكار ذاتي مستجيب ومنسجم مع تطور الظروف الموضوعية التي كان العرب يمرون بها . وهكذا رأينا القبيلة أو العشيرة وحدة المجتمع الجاهلي تستمر في البقاء وبقوة متفاوتة حسب الزمان والموقع ، اذ تظهر على شكل وحدة عسكرية أو مالية وحتى سكنية في بعض الاحيان . وعندما تدمج لغايات عسكرية أو مالية في تنظيمات أكبر لا تذوب وانما تبقى عنصراً مكونا وبارزا في هذه التنظيمات . كما أن العادات القبلية بقيتظاهرة على مستوى بعض العادات كعادة الانتماء عند احتدام المعركة أو التقدم للاشتباك قبلها كقولهم انا الفتى الشيامي وانا الفلام الشاكري . يأتي العنصر الاسلامي ليعطي للنظام العسكري الغاية المثالية أو الانسانية لعمله ، فالحرب ليست غاية وانما السلام هو الهدف وهو القاعدة الثابتة التي لا يجب تجاوزها أو الخروج عنها الا لهدف مثالي نبيل ، وهل هناك اسمى من تأمين حرية نشر رسالة الاسلام وتبليغ أمر الله ؟ وفي الوقت نفسه حوى الاسلام تشريعا تضمن في جملة ما تضمنه تنظيما كاملا للعملية بدءاً من القتال وانتهاء بتوزيع الغنائم . أما الاقتباس فيظهر واضحا جليا ومباشرا في صناعة آلات حرب الحصار ، وسار مع الاقتباس جنبا الى جنب التطور الذاتي والابتكار على شكل استجابة ناجحة لمتطلبات التطور في الظروف الموضوعية كما حدث عندما تطور الجيش تطورا كميا كبيرا ، من

جيش جماعة الى جيش ما يشبه القبيلة ثم الى مجموعات جيوش القبائل بكل ما توفره من اعداد لكن التطور الكيفي بقي متخلفا حتى أصبح خطرا مهددا عند مواجهة جيوش الامبراطوريتين الكبيرتين فارس والروم البيزنطيين . وتم حينذاك العمل المنسوب لخالد والذي كون من مجموعة الجيوش جيشا واحدا وقدم بالتالي مثلا على التطوير والابتكار المتلائم مع التغير في الظروف الموضوعية .

من ناحية ثانية يبدو التطور في مظاهر التنظيم العسكري سريعا بالقياس الى الوتائر البطيئة للتطور في مجالات الحياة المختلفة لتلك العصور ؛ وذلك فيما لو قارنا بين البداية والاوج وبينهما مدة لاتتجاوز الخمسين سنة في كثير من الاحيان . سواء على صعيد العدد أو على صعيد الآلات والعدد . ويكفي لبيان الفارق على الصعيد الاول تذكر القفزة الواسعة في العدد بين محاربين لا يتجاوزون العشرات الى جيش كبير يعد بمئات الالوف . وعلى الصعيد الثاني صعيد الالة الحربية والعدد يكفي استعادة صورة أولئك الرجال الذين كانوا يجهدون خلال حروب الردة أمام حائط حديقة الموت كي يرفعوا بعضهم على اكتاف بعض ليصل آخرهم بعد محاولات عدة فاشلة الى أعلاه ويقفز منه ليفتح الباب لرفاقه ؛ ومقارنة هذه الصورة مع صورة جيش قتيبة بن مسلم الباهلي وهو يدك بمنجيقاته عن بعد سور مدينة ليفتح فيها ثغرة تلو ثغرة وعندما يطلب منه حكام المدينة استمهالهم ليلة واحدة كي يستسلموا او يوقف الضرب يجيبهم بما يشتم عنه الزهو والفخر والثقة بفعالية اسلحته بأنه لايقبل الا بوقوف جنده على الثغرة وان تبقى منجنيقاته تخطر فوق رؤوسهم .

اضافة لهذا التطور والتنظيم في التفاصيل نلمح تنظيما على المستوى العام والشامل . فهناك . على سبيل المثال . قواعد للجيش تنطلق منها الفتوحات وعندما تبتعد عنها الحدود كثيرا تقدم القواعد الى الامام في الشرق والغرب بآن واحد . وتميز الحدود عن بقية اراضي الدولة وتسود بالنسبة لها اعتبارات واحدة في كل الامكنة كاعطاء المحاربين عليها والمقيمين فيها تسهيلات في ملكية الارض أو الانتفاع ؛ من حدود الشام مع الروم البيزنطيين الى الاندلس ثغر العرب المسلمين وحدودهم مع الجلالقة والفرنجة . وعلى حدود البحر ايضا يسود نظام موحد للدفاع عن الشواطىء وتقام المنشآت لصنع القطع البحرية في كل شاطىء عندما تتوفر الوسائل اللازمة لذلك وبالتعاون بين أجزاء الدولة الواحدة .

واخيرا توفر مفردات الوقائع التي أوردناها امكانية تبين شيء من سوء التقييم لهذه الفترة والتقليل من قيمة واهمية التطورات التي حدثت فيها سواء

على مستوى التفاصيل أو على مستوى التنظيم العام ، وذلك ضمن ابحاث ومقالات حديثة منشورة في دوريات أو في الموسوعة الاسلامية الثانية . كتقدير البعض بأن عدد أفراد الجيش في أوج فترة التوسع لم يتجاوز المائة ألف رغم ان اكثر التقديرات اقلالا سواء في روايات المؤرخين أو فيما تعكسه الاحداث تقفز بهذا الرقم الى الضعف . وفي مجال الحديث عن استخدام العرب للآلات الحربية في حروب الحصار يؤخر البعض استخدامها الى زمن الحروب الصليبية عندما تأثر العرب بالصليبيين . وفي مجال التقييم العام يقدم باحث آخر حكماً عاما يقول بأن الجيش المنظم بالمعنى الدقيق للكلمة لم يظهر الا في العصر العباسي، مما يطرح تساؤلات عدة ، منها اذ لم يكن كل ماتم في الفترة مجال البحث نظاما وتنظيما فما معنى النظام والتنظيم ؟ ثم هل حدث انقطاع في تاريخ العرب كأمة عند انتقال الحكم من الامويين الى العباسيين ؟ واذا كان الامر كذلك كيف ظهر النظام والتنظيم وخلق فجأة ، واذ لم يكن الامر كذلك أليس من الاصح القول ان التنظيم العسكري خطا في ظل العباسيين خطوات الى الامام بعد ما سار شوطا على هذا الطريق قبلهم .

---

(١) ابن سيدة ، المخصص ، ج٦ ، ص ٢٠٤ . ابن حبيب ، المحبر ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٢) سورة الحج ، آية ٣٩ ـ ٤٠ .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٩٠ .

(٤) دروزة ، الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث ، دمشق ١٩٧٥ ، ص ٥٨ ـ ٦٠ .

(٥) ابن رشد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ط بيروت ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ . التاج ج ٤ ، ص ٣٠٥ .

(٦) بداية المجتهد ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٧) المصدر السابق ص ٢٤٤ .

(٨) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٠

(٩) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، الطبعة الثالثة ، مصر ١٩٧٣ ، ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(١٠) البلاذري ، فتوح ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

(١٢) ابن هشام ، السيرة ، الطبعة الثانية ، مصر ١٩٥٥ ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

(١٣) بداية المجتهد ، ص ٢٤٣ .

(١٤) الطبري ، ج ٣ ، ص ١١ .

(١٥) ياقوت الحموي ، المعجم ، مادة : نهر الاساورة .

(١٦) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٩ .

(١٧) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩٨ . رغم ان المقريزي من رجال القرن التاسع ومتأخر عن الاحداث لكنه يستقي هذه المعلومات من متقدمين كالقضاعي والكندي المتوفى على ما يروى حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ، وقد اشتهر بمعرفته بأحوال مصر وله كتب كثيرة عنها منها كتاب عن الخطط . وانظر كذلك ، ابن ماكولا ، الاكمال ، ج ٤ ص ٣٨٦ .

(١٨) البلاذري ، فتـوح ، ص ٢٠٩ ، ٢١١ .

(١٩) الطبري ، ج ٤ ، ص ١٥٥ .

(٢٠) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥٧ .

(٢١) رواية المدائني في المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٧٤ .

(٢٢) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٧٥ .

(٢٣) ابن عذاري ، البيان المغرب ، طبعة بروفنسال ، ج ١ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ . ابن خلدون ، العبر ، طبعة بولاق المصورة ، ج ٧ ، ص ٩١ . المالكي ، رياض النفوس ، ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢٤) ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢٥) رواية ابن حبان في النفح ، ج ٢ ، ص ٣٦ . الاخبار المجموعة ، ص ١٠٩ .

(٢٦) الترشخي ، تاريخ بخارى ، طبعة دار المعارف ، ص ٦٢ .

(٢٧) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ط ٣ ، ١٩٦٣ ، ص ٨٥ .

(٢٨) الترشخي ، ص ٦٥ .

(٢٩) ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

(٣٠) البلاذري ، فتوح ص ٣٩ ـ ٤٢ .

(٣١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٠٢ .

(٣٢) الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٠٦ .

(٣٣) ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، سلسلة تراثنا ، ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

(٣٤) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٣ .

(٣٥) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٩٩ .

(٣٦) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٠٤ .

(٣٧) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ .

(٣٨) ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، مادة « جعالة » .

(٣٩) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٣٤ .

(٤٠) في المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٥ .

(٤١) رواية المدائني في الطبري ، ج ٦ ، ص ٣١٤ .

(٤٢) ابن عبد الملك ، الذيل والتكملة ، ج٥ ، ط ١ ، ص ٢١٤ .

(٤٣) الاخبار المجموعة ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٤٤) ابن خياط ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ .

(٤٥) ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ .

(٤٦) في الطبري ، ج ٣ ، ٢٩٣ .

(٤٧) ابن منظور ، اللسان ، مادة « سند » ومادة « كردس » .

(٤٨) المسعودي ، مروج الذهب .
(٤٩) ابن الكلبي ، انساب الخيل .
(٥٠) في الطبري ، ج ٤ ، ص ٥١ – ٥٢ .
(٥١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، صص ١٤١
(٥٢) رواية ابي مخنف في الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٠٣ .
(٥٣) ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ١٧١ – ١٧٢ .
(٥٤) رواية المدائني في الطبري ، ج ٧ ، ص ٧٣ .
(٥٥) الطرطوشي ، سراج الملوك ، ص ١٥٥ .
(٥٦) رواية سيف في الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٤٤ – ٤٤٥ . البلاذري ، انساب ، ج ٥ ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .
(٥٧) أخبار مجموعة ، ص ٣١ – ٣٢ .
(٥٨) رواية المدائني في الطبري ، ج ٧ ، ص ٧٩ ، ٧١ – ٧٢ .
(٥٩) رواية ابي مخنف في الطبري ، ج ٦ ، ص ٢٢٨ .
(٦٠) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٩٧ .
(٦١) البلاذري ، فتوح ، ١٧١ – ١٧٢ .
(٦٢) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .
(٦٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٠٣ ، ج ٧ ، ص ٨٢ .
(٦٤) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٦٥ و ص ٥٢٥ .
(٦٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ .
(٦٦) الطبري ، ج ٦ ، ص ٨٢ و ج ٣ ، ص ٥٥٩ .
(٦٧) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٧٣ .
(٦٨) رواية ابي مخنف في الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٩٥ . المسعودي ، انساب ، ج ٥ ص ٢١٠ .
(٦٩) المسعودي ، انساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٢٤٧ . الطبري ، ج ٦ ، ص ٨٦ – ٨٧ .
(٧٠) رواية ابن مخنف ، طبري ، ج ٥ ، ص ٤٢٢ .
(٧١) أحمد بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس ، ص ١٦ – ١٧ .
(٧٢) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ .
(٧٣) رواية سيف فى الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ .
(٧٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٦٣ .
(٧٥) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٩ – ١٠ والمقري ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٤٥ – ٢٤٧ .
(٧٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٠ .
(٧٧) البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٧ .
(٧٨) الادريسي ، طبعة دوزي ، ص ١١٢ ، الحميري ، الروض المعطار ، ٤٦٢ – ٤٦٤ .
(٧٩) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ص ٦ .
(٨٠) الاعلاق النفيسة .

(٨١) ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، مادة فحج .
(٨٢) رواية المدائني في الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٦٣ .
(٨٣) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٢٤ ـ ٢٦ .
(٨٤) ابو عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٢٥ـ٤٣٨
(٨٥) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ١١٧ .
(٨٦) الطبري ، ج ٣ ، ص ٦١٣ ـ ٦١٩ . ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣١٩ ـ ٣٢٥ .
(٨٧) العلي ، التنظيمات ... ، ص ١٥٢ .
(٨٨) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٧٥ .
(٨٩) البلاذري ، انساب ، ج ٥ ، ص ١٣٦ .
(٩٠) تيوفانيس عن ولهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١٢٦ .
(٩١) رواية ابي مخنف في الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٤٧ .
(٩٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٨٦ .
(٩٣) البلاذري ، ج ٥ ، ص ٢٨٠ . الطبري ، ج ٥ ، ص ٢١١ .
(٩٤) العلي ، التنظيمات ... .
(٩٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، تحقيق المنجد ، ج ١ ، ص ٥٥٦ .
(٩٦) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٣ .
(٩٧) الطبري ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .
(٩٨) ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق عنان ، ج١ ، ص ١١٠ ـ ١١١ .
(٩٩) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٩ .
(١٠٠) العلي ، التنظيمات .... ، ص ١٦٥ .
(١٠١) المقريزي ، خطط ، ص ٩٤ .
(١٠٢) الكندي الولاة ... ، ص ٧٦ .
(١٠٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٩١ .
(١٠٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٩١ . المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .
(١٠٥) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٤١ .
(١٠٦) المقريزي ، خطط ، ص ٢٩٧ .
(١٠٧) ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٦٢ .
(١٠٨) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(١٠٩) المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨ .
(١١٠) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة كوفة .
(١١١) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٩ ـ ٥٠ و ٣١٦ .
(١١٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩ .
(١١٣) البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ و ١٤٨ ـ ١٤٩ .
(١١٤) اخبار مجموعة ، ص ٣٠ ـ ٣١ . ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٥٤ .

(١١٥) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

(١١٦) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٨٢ .

(١١٧) المصدر السابق ، ص ١٩٢ . الكندي ، الولاة وكتاب القضاة ص ٣٥ ـ ٣٦ . ابن ماكولا الاكمال ، ج ٢ ، ص ١١٥ و ص ٥٣٠ .

(١١٨) البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

(١١٩) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(١٢٠) ابن ابي دينار ، المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ،

(١٢١) الكندي ، الولاة وكتاب القضاة ، ص ٨٤ .

(١٢٢) ابن عساكر ، التهذيب ، ج ٦ ، ص ١٢١ و ١٢٨ .

(١٢٣) قدامة بن جعفر ، ص ٢٥٦ .

(١٢٤) البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٩ و ١٨٩ .

(١٢٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة بفراس .

(١٢٦) رواية الرازي في « الرسالة الشريفية » المطبوعة كملحق لكتاب ابن القوطية افتتاح الاندلس ، ص ٢٠٤ ـ ٢١١ .



مؤتمرات تاريخية

المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية

والمهمات المطروحة على عاتق المؤرخين العرب

د. مسعود ضاهر

الجامعة اللبنانية

تعقد الجمعية الدولية للعلوم التاريخية مؤتمرها مرة كل خمس سنوات يضم مؤرخين من كافة ارجاء العالم على اختلاف انتماءاتهم العرقية والايديولوجية . وهي مناسبة هامة يتبادل فيها المؤرخون الابحاث والاراء ويتناقشون في جو من الديموقراطية والحوار المثمر حول موضوعات نقدم الى اللجنة خلال السنوات الخمس التي تسبق تحضير المؤتمر وتتم طباعتها وتوزيعها على المشاركين مباشرة قبل انعقاد المؤتمر .

عقد المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية هذا العام في عاصمة جمهورية رومانيا الاشتراكية ، بوخارست ، في الفترة الممتدة ما بين ١٠ و ١٧ آب ١٩٨٠ وبحضور أكثر من ألفين وخمسماية مؤرخ وباحث في العلوم التاريخية (بلغ عدد الاعضاء المسجلين رسميا في لوائح المؤتمر ٢٦٩١ عضوا) وفدوا من أرجاء العالم كافة .

افتتح الرئيس الروماني نيقولاي شاوشيسكو هذا المؤتمر الضخم الذي لم تشهد مثيلا له مؤتمرات المؤرخين السابقة ، وذلك في قاعة قصر المؤتمرات الكبرى في العاصمة الرومانية . وقد شدد شاوشيسكو في خطابه على الاهمية التاريخية لانعقاد المؤتمر في رحاب بلاده وتمنى على المشاركين تقديم المساهمات العلمية لتعميق الدراسات التاريخية ونشر معرفة أفضل حول المشاكل التي تعاني منها مجتمعات اليوم . ودعا الى تبادل وثيق بين الحضارات البشرية بمعزل عن الانتماء العرقي للقوى المشاركة في صنع تلك الحضارات . وشدد على ضرورة احترام الخصوصيات التاريخية لكل شعب فميزت تطوره وقادته الى بناء دولة قومية معترف بها عالمياً .

وختم الرئيس الروماني كلمته بالقول : « نعيش الآن مرحلة التبدلات الثورية العميقة على كافة المستويات الوطنية والقومية والاجتماعية ، كما نعيش

أيضاً تبدلات نوعية على مستوى ميزان القوى العالمي . فهذه المرحلة التاريخية التي نعيشها اليوم تفسح المجال أمام جميع الشعوب للتعبير عن وجودها الحر وسيادتها الكاملة على أراضيها . وامتلاك مصيرها بيدها مع المساهمة النشيطة في بناء السلم والاستقرار في العالم . وكلنا ثقة ان تكاتف الشعوب . بقيادة قواها الاكثر طليعية ، قادر على ترسيخ السلم والاستقرار في العالم وبناء مجتمع جديد تنتفي فيه الحروب ويضمن للشبيبة العالمية أجواء أفضل من العدالة الاجتماعية والحرية .

والقيت في حفل الافتتاح كلمات ممثل الاونيسكو . ورئيس الجمعيه الدولية للعلوم التاريخية ، ورئيس الجمعية الرومانية للعلوم التاريخية . فشددوا في كلماتهم على أهمية انعقاد المؤتمر الذي ضم هذا الحشد الضخم من المشاركين وأفسح لهم مجال الاطلاع على انتاج بعضهم البعض ومناقشة أهم القضايا الاجتماعية والسياسية والاترية . ودراسة تطور حركات التحرر في العالم ، والمشكلات الرئيسية التي تعترض طريق السلم والاستقرار في العالم . واعتبر البعض ان المؤتمر هو بمثابة « عائلة كبيرة للمؤرخين » ينتج عنها تبادل الافكار والمؤلفات . كما اقترح بعض الخطباء استمرار السعي الدؤوب للجان التاريخية العالمية من أجل الوصول الى فهم أفضل لمشاكل المجتمعات المعاصرة . بحيث يصبح المؤرخون رسل معرفة وتبادل خبرات في مجال التقارب بين الشعوب والدول بمعزل عن الانظمة السياسية التي تسودها .

لجان المؤتمر :

توزعت أعمال المؤتمر على مدى أسبوع كامل في اطار اللجان الاساسية التالية :

— اللجنة الدولية للدراسات البيزنطية .
— اللجنة الدولية للدراسات السلافية .
— مناهج وطرق دراسة تطور مجتمعات اوربا الوسطى منذ عام ١٩٤٥
— اللجنة الدولية لدراسات عصر النهضة .
— اللجنة الدولية لعلم المسكوكات .
— اللجنة الدولية للتاريخ الاقتصادي .
— اللجنة الدولية للعلاقات بين الشرق والغرب منذ العصور الوسطى .
— اللجنة الدولية لتاريخ الحقوق والشرائع .
— اللجنة الدولية لتاريخ الحركات الاجتماعية .
— اللجنة الدولية للدراسات المتعلقة بجنوب شرق اوروبا .

- اللجنة الدولية للتاريخ البحري .
- اللجنة الدولية لتاريخ الحرب العالمية الثانية .
- اللجنة الدولية لتاريخ المؤسسات الدولية .
- اللجنة الدولية للدراسات العسكرية المقارنة .
- لجنة المؤرخين الافارقة .
- اللجنة الدولية لتاريخ المدن .
- اللجنة الدولية لتاريخ الجامعات .
- لجنة اتحاد المؤرخين العرب .
- اللجنة الدولية لعلم المكتبات .
- اللجنة الدولية للدراسات التاريخية المقارنة .
- اللجنة الدولية للدراسات السكانية التاريخية .
- اللجنة الدولية لدراسة العلاقات الدبلوماسية .
- اللجنة الدولية لتاريخ الثورة الفرنسية .
- اللجنة الدولية للصحافة .
- اللجنة الدولية لدراسة الوثائق التاريخية .
- اللجنة الادبية لدراسة التاريخ المعاصر .
- لجنة المؤرخين الاوروبو ـ امريكيين لاتينيين .
- لجنة الدراسات التاريخية حول ثورات ١٨٣٠ الاوروبية .
- اللجنة الخاصة بجمع الوثائق العالمية والمتعلقة بتاريخ الولايات المتحدة الاميركية .
- اللجنة المهتمة بكيفية تطبيق الرياضيات في الدراسات التاريخية .
- اللجنة الدولية للاثار القديمة .
- اللجنة الدولية للتاريخ الحديث .
- اللجنة الدولية للتاريخ المعاصر .

وبالاضافة الى هذه اللجان الاساسية ، عقدت في اطار المؤتمر اجتماعات خاصة للجان محلية او ذات علاقات ثنائية بين مؤرخين من بلدان مختلفة بهدف تعميق العلاقة الثنائية وتبادل الخبرات والوثائق في مجالات متنوعة .

وقد تم توزيع الاعضاء المؤتمرين في رحاب جامعتي بوخارست الاولى والثانية ، وفي قاعة المؤتمرات الكبرى ، وفي المسرح الروماني الكبير وفي المتحف العسكري ومتاحف العاصمة الرومانية .

التقارير التي قدمت للمؤتمر :

طبعت التقارير المقدمة الى المؤتمر قبل آذار ١٩٨٠ بمساعدة مالية من الاونيسكو ووزعت على المؤرخين في ثلاثة مجلدات منـذ اليوم الاول لانعقاد المؤتمر . أما الابحاث التي وردت الى امانة السر بعد ذلك التاريخ فقد أشير فقط الى الباحث وعنوان البحث استناداً الى النظام المعمول به في الجمعية الدولية للعلوم التاريخية . وجاءت التقارير مطبوعة باحدى اللغات الرسمية الخمس المعتمدة في المؤتمر وهي : الفرنسية والانكليزية والروسية والالمانية والاسبانية . كذلك وعدت أمانة السر بنشر المناقشات في مجلد رابـع يرسل الى عناويـن المشاركين ويتضمن تقارير اللجان والمناقشات الخطية المقدمة الى امانة سر اللجان أو أمانة سر المؤتمر طيلة فترة انعقاد المؤتمر .

بلغت صفحات المجلد الاول أكثر من سبعماية صفحة دارت عناوينها ضمن محورين فقط :

أولا ــ احداث تاريخية بارزة .

ثانيا ــ موضوعات منهجيـة .

أهم التقارير التي عالجت أحداثاً تاريخية بارزة تركزت حول الموضوعات التالية :

ــ **أوروبا الشرقية كمركز لتلاقي الحضارات العالمية** . قـدم الابحاث مؤرخون من بلغاريا ، الولايات المتحدة الاميركية ، فنلندا ، والاتحاد السوفياتي .

ــ **مشكلات السلم عبر التاريخ** . قدم الابحـاث مؤرخون مـن فرنسـا واليابان .

ــ الدول المتحدة والدول المتعددة القوميات . ركز المؤرخون أبحاتهم حول موضوع « **الدولة الاتحادية ومبادىء الوحدة عبر التاريخ** » وقدمت نماذج من تاريخ اسبانيا ، فرنسا ، المانيا الاتحادية ، المانيا الديموقراطية ، اليابان ، والاتحاد السوفياتي .

ــ **مشكلات المرأة في المجتمعات القديمة والحديثة** . تناولت الابحـاث نماذج من مشكلات المرأة السوفياتية والاميركية والفرنسية .

المحور الثاني تناول دراسات في موضوعات منهجية أهمها :

ــ **حول لغـة المؤرخ** : وقدمت أبحاث من المانيـا الغربية ، ايطاليا ، المانيا الديموقراطية ، بريطانيا ، بولونيا ، رومانيا .

— **حول موقع وأهمية تدريس التاريخ في المدارس الثانوية والجامعات الحديثة** : قدمت فيها أبحاث من الاتحاد السوفياتي وبلجيكا وكندا وفنزويلا وايطاليا واليابان ومنغوليا ورومانيا ويوغوسلافيا .

— **حول مبادىء وطرائق التاريخ الشفوي غير المكتوب** : قدمت فيها أبحاث من السنغال ونيجيريا واسبانيا وبريطانيا وهنغاريا والنروج والولايات المتحدة الاميركية .

— **حول مبادىء وطرائق علم السكان وعلم البيئة وكيفية الاستفادة منها في الدراسات التاريخية الشمولية** : قدمت فيها أبحاث من بلجيكا وفرنسا وايطاليا وهولندا ورومانيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا .

يلاحظ ان مناقشات لجان المنهجية كانت تضم اعداداً كبيرة من المشاركين بالمؤتمر . وكانت الكلمات التي تلقى تترجم مباشرة الى اللغات الرسمية الخمس المعتمدة في أعمال المؤتمر . وحافظت اللجان المنهجية على نسبة حضور مرتفعة جداً طوال فترة انعقاد المؤتمر مما يدل على الاهمية القصوى التي يوليها المؤرخون للدراسات المنهجية وآفاق تطورها وكيفية الاستفادة من خبرات بعضهم البعض في مجال تعزيز الكتابة التاريخية العلمية .

وقد ابرز نقاش المؤتمرين مدى أهمية الوثائق الشفوية كمصادر أساسية لدراسة التاريخ المعاصر والاتصال بماضيها عبر ما اختزنته ذاكرة الناس من حكم وامثال وعادات وتقاليد وفولكلور وغيرها من المصادر التي يمكن تسجيلها وتحليلها والاستناد اليها في الكتابة التاريخية العلمية .

تقارير المجلد الثاني ناهزت الثمانماية صفحة ضمن عنوان رئيسي واحد : **أحداث تاريخية** واندرجت الابحاث ضمن المحاور التقليدية المعروفة : تاريخ قديم ، وسيط ، حديث ، ومعاصر .

١ — **في التاريخ القديم** : ركز الباحثون على نقطتين فقط :

أ — **حول علاقات الشرق والغرب** : وتضمن أبحاثا من اليابان والاتحاد السوفياتي وهنغاريا حول مفهوم الدولة في آسيا القديمة ، والعلاقات المتبادلة بين اليونان وشعوب البحر الاسود ، وروابط اوروبا الشمالية والشرقية بالامبراطورية البيزنطية .

ب — **حول الحضارات والمجتمعات القديمة** : قدمت فيها ابحاث من الدانمارك ورومانيا حول دور الرجل والمرأة في أثينا ، والداشيون وحضارتهم .

٢ — **في تاريخ العصور الوسطى** : عولجت فيه ايضا نقطتان في اطار المؤتمر :

أ ــ **حول التبدلات الاجتماعية والاقتصادية في العصور الوسطى** : قدمت فيها أبحاث من تركيا وفرنسا وايطاليا تناولت الموضوعات التالية : التيارات الفكرية العقلانية في الشرق الاوسط في القرن الحادي عشر للميلاد ، بنى العائلة الغربية في العصور الوسطى ، مدخل لدراسة وثائق العصور الوسطى .

ب ــ **حول العلاقات التجارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى** : قدمت أبحاث من الدانمارك وفنلندا وقبرص تناولت الموضوعات الآتية : اوروبا وتجارة بحري الشمال والبلطيق ، بيزنطية والبلدان السكندينافية ، قبرص كمحطة هامة بين الشرق والغرب ابان الحروب الصليبية .

٣ ــ في التاريخ الحديث تم التركيز على ثلاثة موضوعات اساسية :

أ ــ **حول العلاقات بين الشعوب والقارات** : قدمت فيه ابحاث من قبرص ويوغوسلافيا وكندا . أهم موضوعاتها : التكون العرقي لشعوب السلطنه العثمانية عبر التاريخ ، وهو بحث بالغ الاهمية ، مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨ . الرؤيا الفرنسية لاميركا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ــ دراسة وثائقية .

ب ــ **علاقة الفكر بالمجتمع في العصر الحديث** : قدمت فيه أبحاث من ايطاليا ورومانيا وتركيا وبولونيا . ابرز الموضوعات : المثقفون والسلطة في ايطاليا عصر التنوير في اوروبا الشرقية وآثاره السياسية ، المؤسسات الوقفية ودورها الاقتصادي والاجتماعي في السلطنة العثمانية ، ثورات ١٨٣٠ في اوروبا وآثارها الاصلاحية .

ج ــ **أثر العوامل الاقتصادية في التاريخ الحديث** : شارك فيها مؤرخون من السويد والولايات المتحدة الاميركية . اما ابرز الموضوعات المقدمة فهي :

الركائز الاقتصادية لتكون المجتمعات السلافية الحديثة ، ورد الفعل الصيني على اختراق التجارة الغربية للمجتمعات الآسيوية منذ اواسط القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين .

٤ ــ في التاريخ المعاصر تم التركيز على أربعة موضوعات رئيسية هي :

أ ــ **في العلاقات الدولية المعاصرة** : قدمت فيها أبحاث من اليابان والفاتيكان وكندا ، ابرز التقارير انهيار النظام الامبريالي العالمي ومشكلة السلم في آسيا

في القرن العشرين ، الدبلوماسية البابوية في شرقي أوروبا بين الحربين العالميتين، الاتحاد الانكليزي ١٩١٩ ـ ١٩٣٩ .

ب ـ **علاقة السياسة الداخلية بالتطور الاقتصادي :** قدمت فيها دراسات من ايطاليا والمانيا الغربية وفرنسا وهنغاريا والنروج . ابرز الموضوعات : النمو والتخلف في عالم القرن العشرين ، العلاقة بين المؤسسات والثورة الصناعية في فرنسا في القرن العشرين ، أقتصاد النروج بعد الحرب العالمية الثانية .

ج ـ **دراسات في تطور المجتمعات الحديثة :** قدمت فيها نماذج من الاتحاد السوفياتي وبولونيا ورومانيا وفنلندا . ابرز الموضوعات : الاصلاح الزراعي في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانيـة ، الاثر الاجتماعي والثقـافي للمؤسسات الرياضية .

د ـ **ادارة المصانع ونظام العمل في القرن العشرين :** قدمت فيها نماذج من ايطاليا ، فرنسا ، بريطانيا ، الولايات المتحدة الاميركية ، الاتحاد السوفياتي، يوغوسلافيا ، والنروج .

أهم التقارير : العمل والادارة في القرن العشرين في كل من الولايات المتحدة الاميركية والنروج وبريطانيا وايطاليا ويوغوسلافيا والاتحاد السوفياتي .

اما تقارير المجلد الثالث فقد ناهزت الاربعمائة صفحة تقدمت بها اللجان الدولية واللجان الوطنية او المحلية المشاركة بالمؤتمر .

أبرز الموضوعات التي تقدمت بها اللجان التاريخية الدولية هي التالية :

ـــ **اللجنة الدولية للدراسات البيزنطية** قدمت بحثا حـول جزر بحـر ايجه بعد معركة منزكرت (١) .

ـــ **اللجنة الدولية للتاريخ الاقتصادي** قدمت بحثـا حـول : التخلف الاوروبي في مرآه العلاقة بين الشرق والغرب في القرن التاسع عشر .

ـــ **اللجنة الدولية لتاريخ الحقوق والمؤسسات :** قدمت ثلاثة ابحاث حول : الزواج في أوروبا الغربيـة في العصور الوسطى ، والزواج في العالـم الاسلامي ـ وهو البحث العربي الوحيد في المؤتمر تقدم به باحث مصري غير معروف هو الشخنخيري ـ والزواج الافريقي المعاصر .

ـــ **اللجنة الدولية لتاريخ الحركات الاجتماعية عبر العصور .** قدمت أبحاثاً حول المؤسسات الصغيرة وتحولها الى مصانع كبرى منذ القرن الثامن عشر

حتى اليوم . وقدمت فيه نماذج من هذا التحول في القارات الخمس .

ــ **اللجنة الدولية للتاريخ البحري** قدمت بحثاً حـول التعريف بالوسط البحري والعاملين فيه .

ــ **اللجنة الدولية للحرب العالمية الثانية** ركزت بحثهـا حول موضوع الدعاية خلال الحرب العالمية الثانية . وهذه اللجنـة تعقد مؤتمرات سنويـة لدراسة وثائق الحرب العالمية الثانية .

ــ **اللجنة الدولية لتاريخ الدول الحديثة** قدمت بحثين حول : الدول المنفرده وعلاقاتها الثنائية والدولة الحديثة والمؤسسـات البرلمانية وهو بحث بالغ الاهمية .

ــ **اللجنة الدولية لدراسة التاريخ العسكري المقارن** قدمت بحثاً حول التطور التاريخي لعلاقة الدولة بالجيش .

ــ **لجنة المؤرخين الافارقة** قدمت بحثاً حول استقلال السنغال .

اما ابرز الموضوعات التي تقدمت بها اللجان التاريخية الوطنية أو المحلية فهي التالية :

ــ **اللجنة الدولية لدراسة التاريخ الديني المقارن** قدمت بحثاً بعنوان : اوروبا الشرقية ملتقى الحضارات الدينية .

ــ **للجنة الدولية لعلم السكان** قدمت بحثاً بعنوان مساهمة علم السكان في دراسة التاريخ الشمولي .

ــ **اللجنة الدولية لتاريخ الجامعات** قدمت بحثاً بعنوان تطور تقنيـة التعليم في الجامعات منذ تأسيسها حتى الحرب العالمية الاولى .

ــ **اللجنة الدولية للتاريخ الدبلوماسي** قدمت بحثاً بعنوان : من أجل قواعد عامة وشاملة لقضايا نشر الوثائق والسجلات المالية والادارية وسندات المساحة والمراسلات السياسية وغيرها .

ــ **اللجنة الدوليـة لتاريخ الثورة الفرنسية** قدم أمـين سرهـا المؤرخ الفرنسي المعروف البير سوبول بحثاً طويلاً وبالغ الاهمية بعنـوان « الملكيات العقارية وشروط تملك الارض في أوروبا زمن الحروب النابوليونية » وكانت مناقشة هذا البحث غنية جداً .

لقد استعرضنا هنا ابرز الموضوعات المسجلة في المجلدات الثلاثة مـع الاشارة الى ان عدداً وافراً من الابحاث وصل متأخراً واشير اليه فقط باسم

المؤلف وعنوان البحث دون أن يتسنى لنا الاطلاع عليه . كذلك هناك ابحاث صغيرة وتعليقات مقتضبة لم نشر اليها في هذا التعريف بموضوعات المؤتمر .

وقد توخينا من خلال هذا العرض المستفيض حول موضوعات المؤتمر ابراز جملة من الوقائع التاريخية العلمية منها :

أ ـ أن اهتمامات المؤرخين المعاصرين في العالم كله لم تعد كالسابق مجرد رصد للظواهر السياسية ودراستها وتحليلها بل باتت الدراسات التاريخية ذات المنحى السياسي موضوع اهتمام نفر قليل جدا من المؤرخين . فالتطور الاجتماعي ، بشموليته السياسية والاقتصادية والثقافية والعمرانية والعسكرية والادارية وغيرها ، يشكل محور نشاط التأريخ العالمي في الربع الاخير من القرن العشرين .

ب ـ ان منهجية البحث وطرائق الكتابة التاريخية المعاصرة شكلت مركز استقطاب غالبية المشاركين في المؤتمر بحيث كانت قاعة قصر المؤتمرات تغص يومياً بأعداد كبيرة منهم ويضطر بعضهم للوقوف فترة زمنية طويلة ليجد مكانا لجلوسه . وتتم ترجمة الكلمات مباشرة الى اللغات الخمس الرسمية المعتمدة في أعمال المؤتمر . وكانت المناقشات ذات طابع علمي في محاولات لتقديم تجارب المؤرخين من البلدان كافة وطرح مشكلات دراسة التطور التاريخي للمجتمعات التي ينتسبون اليها . كذلك برزت محاولات حثيثة للخروج بجامع مشترك حول حقائق العصر التي أفرزتها عملية الانتقال من المجتمعات ما قبل الرأسمالية الى نمط الانتاج الرأسمالي ومنه الى نمط الانتاج الاشتراكي في بعض البلدان . وهذه المحاولات التوحيدية لا تلغي فوارق التحليل على أساس منهجيات علمية متباينة بل تشدد على تلك الفوارق شرط ان يكون هدف التحليل ابراز دور الانسان في صنع تاريخه بنفسه والغاء كل ما يعوق عملية التطور الاجتماعي من عوامل موضوعية ناتجة عن صراع الانسان مع الطبيعة أو عن استغلال الانسان للانسان .

ج ـ أن الحواجز المصطنعة بين العلوم الانسانية غابت عن أعمال المؤتمر بحيث برز التاريخ الاجتماعي كعلم شمولي يضم كل العلوم الانسانية ويتجاوزها لابراز عملية التطور الاجتماعي بجميع جوانبها . فقد ضمت أبحاث المؤتمر نماذج من مختلف جوانب الحياة البشرية . فهناك أبحاث تصنف عادة في لائحة تاريخ الحضارات أو علم السياسة ، أو علم الشرائع ، او مشكلات المراة ، او علم

الاجتماع ، او الرياضيات ، او علم السكان ، او علم دراسة البيئة ، او علم الجغرافيا البشرية ، او علم الاثار ، او علم المسكوكات ، او تاريخ الفكر والمذاهب، او علم الاقتصاد او تاريخ المدن او تاريخ المجتمعات الزراعية ... وغيرها الكثير.

وبهذه الشمولية الغنية جدا تبرز أهمية العبارة الشهيرة لكارل ماركس : « لم تعرف البشرية سوى علم واحد هو علم التاريخ » .

د ـ ان الاهتمام بالكتابة التاريخية المعاصرة يشكل أحد هواجس المؤرخين الاساسية . فلم تعد الكتابة التاريخية مجرد تسجيل وتحليل للاحداث بـل تركز اهتمام المؤتمرين على الربط بين الكتابة التاريخية المعاصرة وبين تنشئة الاجيال الجديدة . وحظيت هذه الناحية بنقاش استمر يوما كاملا شارك فيه مؤرخون من مختلف بلدان العالم ، وقدمت فيه أبحاث ووثائق ودراسات نقدية لعدد وافر من الكتب التاريخية المقررة في المدارس الثانوية والجامعات في البلدان الرأسمالية والاشتراكية على السواء . وكانت حصيلة تلك المناقشات ضرورة انقاذ الشبيبة من براثن النظريات العرقية والفاشية وادانة التوجهات الشوفينية والعنصرية والعسكرية عند الكثير من الانظمة المسيطرة وكان هناك اجماع على رفض مبدأ الحرب كوسيلة لحل المشكلات الدولية المعاصرة وضرورة تجنيب البشرية ويلات حرب عالمية جديدة وتنشئة الاجيال الجديدة على مبادىء حرية الشعوب في حق تقرير مصيرها دون ضغوط او تدخل خارجي .

هـ ـ بالرغم من وجود عدد وافر من الابحاث يشدد على ربط حاضر بعض الدول بماضيها « القومي » القديم (برز هـذا الاتجاه لدى المؤرخين الرومان الذين قدموا الكثير من الابحاث بمناسبة مرور ألفين وخمسين سنة على ولادة الدولة الرومانية ايام الداشيين) فان الطابع الغالب للمؤتمر كان ينحو باتجاه رصد تطور المجتمعات المعاصرة على اساس نتائج المرحلة الرأسمالية التي وحدت السوق العالمية وما اعقب هذه المرحلة من قيام النظام الاشتراكي أي ان الصراع الدائر منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم يتمحور ضمن عملية الانتقال مـن المجتمعات السابقة على الرأسمالية ومنها الى الاشتراكية . لذا كانت جميع ابحاث المؤتمرين تشدد على هذه العملية كاحدى بديهيات حقائق العصر الذي نعيش فيه .

و ـ ملاحظة أخيرة في هذا المجال : ان تنوع الكتابـة التاريخية المعاصرة وشموليتها باتيطرح بالحاح ضرورة تجاوز المؤرخ الفرد الى البحث التاريخي الجماعي . فليس بمقدور باحث فرد ان يلم بمحتوبات هذا العدد الوافر جدا من الابحاث

والمناقشات . وانسجاما مع هذه النظرية الجماعية في الكتابة التاريخية الشمولية تقدمت بعض الدول ، الاشتراكية منها والرأسمالية على السواء . بأبحاث مؤرخيها ضمن كتب معدة خصيصا للمشاركة بأعمال المؤتمر . وكانت بعض الكتب تحمل العنوان الموحد التالي مثلا : « بولونيا في المؤتمر الخامس عشر للعلوم التاريخية » . كذلك بلغاريا والاتحاد السوفياتي ، وفرنسا ، ورومانيا . واسبانيا وغيرهم . وهذه الكتب تضم أبحاث مؤرخي هذه البلدان بين مؤتمرين ومطبوعة باللغات الخمس الرسمية المعتمدة في المؤتمر وهي تعطي صورة وافية عما وصل اليه التأريخ في تلك الدول . كما أصدرت بعض البلدان أعدادا وثائقية من المجلات التاريخية بهذه المناسبة .

توصيات المؤتمر :

بناء على توصية من اللجنة الدولية لمؤرخي اميركا اللاتينية تم اعتبار ١٩٨٠ عام سيمون دو بوليفار ، أحد قادة التحرر الوطني في اميركا اللاتينية ، وذلك بمناسبة الذكرى المئة والخمسين على وفاته . كذلك تمت توصية بضرورة احياء ذكراه عام ١٩٨٣ بمناسبة مرور مئتي سنة على ولادته . ورفع المؤرخون العرب المشاركون في المؤتمر الى امانة سره التوصية التالية :

« ان المؤرخين العرب المجتمعين في المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية المنعقدة في بوخارست ما بين ١٠ ــ ١٧ آب ١٩٨٠ ، شعورا منهم بمدى المساهمة العلمية الفعالية للتراث العربي في مجال العلوم التاريخية ، يطلبون من رئاسة المؤتمر اعتماد اللغة العربية احدى لغات العمل الرسمية في المؤتمر وذلك تمشياً مع مقررات الاونيسكو بهذا الشأن » .

وقد وقع الطلب المؤرخون العرب المشاركون في المؤتمر من لبنان وتونس والمغرب والعراق والسودان ومصر ومنظمة التحرير الفلسطينية . ووعدت القيادة الجديدة التي انتخبت في نهاية المؤتمر بدراسة هذا الطلب والعمل على تنفيذه في المؤتمر القادم . كذلك تم اعتماد توصيات جماعية بضرورة فتح أبواب المحفوظات (الارشيف) امام جميع الباحثين بحيث تتم الاستفادة القصوى من الوثائق في مجال الدراسات التاريخية وغيرها ، وبضرورة حماية الاماكن الاثرية والمخطوطات التاريخية وتجميع المستندات والوثائق واقامة مراكز خاصة بها في الجامعات والمعاهد العلمية والمكتبات العامة وغيرها .

بعض الملاحظات الختامية :

من خلال هذه اللوحة الوصفية الواسعة لاعمال المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية تبرز ملاحظات عدة :

أ ـ ان هذا المؤتمر هام جـدا ينعقد مرة كل خمس سنوات باشـراف الاونيسكو وبمساعدة مالية منه لطبع الابحاث وتوزيعها على المشاركين فقط . أي أن أكبر مرجع ثقافي في العالم هو الذي ينظم فعليا هذا المؤتمر الذي تشارك فيه وفود من غالبية دول العالم ، على اختلاف انظمتها السياسية ، وبأعداد كبيرة جدا في بعض الاحيان .

ب ـ ان الاعداد لابحاث المؤتمر يتم طيلة السنوات الخمس التي تفصل بين مؤتمرين بحيث تأتي الابحاث علمية وجادة في معظم الاحيان لان للباحث حرية اختيار الموضوع ضمن أي حقل من حقول المعرفة التاريخية التي أشرنا اليها ، وهي حقول كثيرة ومتشعبة وتطال تطور المجتمع البشري من كافة جوانبه .

ج ـ ان الجمعية الدولية للعلوم التاريخية هي التي تنظم المؤتمر وتشرف على تجميع الابحاث وتنسيقها وطباعتها ولا يحق تقديم الابحاث في المؤتمر الا للدول المشاركة في الجمعية الدولية عبر جمعيات وطنية أو محلية تاريخية تسدد اشتراكها السنوي باسم الدولة التي تنتسب باسمها . وتجدر الملاحظة هنا الى ان معظم الدول العربية ليست أعضاء في هذه الجمعية بل هناك انتساب باسم اتحاد المؤرخين العرب الذي كان شبه غائب عن أعمال المؤتمر الخامس عشر .

استناداً الى هذه الملاحظات الاولية نحاول رصد الدور العربي في المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية الذي انعقد في بوخارست هذا العام .

أ ـ لقد تميز هذا المؤتمر بالغياب شبه الكامل للدول العربية عن اعمال المؤتمر وأبحاثه . فلم تشهد المجلدات الثلاثة بصفحاتها التي تناهز الالفين اسم مؤرخ عربي واحد قدم بحثاً اصيلاً في حقل من المعرفة يعتبر العرب من رواده الاوائل أي حقل الدراسات التاريخية . فقط باحث مصري شبه مغمور هو هو الشخنخيري قدم بحثاً سريعاً حول الزواج الاسلامي .

ب ـ هناك عدد وافر مـن المؤرخين العرب سجلوا اسماؤهم في عـداد المشاركين بالمؤتمر لكنم لم يحضروا أعمالـة] ونذكر منهم على سبيل المثـال

لا الحصر عبد الله العروى ، وحسين أمين ، وعبد القادر زبادية . وسعود عطية وغيرهم] . وكان حضورهم سيشكل دون شك عنصراً ايجابياً في تعزيز الدور العربي في أعمال المؤتمر .

ج ـ ونظراً للغياب شبه الكامل لاتحاد المؤرخين العرب على الصعيدين العربي والعالمي وعجزه عن تأطير وبرمجة حضور المؤرخين العرب في الندوات الدولية كانت الجلسات المخصصة لاتحاد المؤرخين العرب والتي كان مقررا لها أن تمتد طوال يومين كاملين ، أكثر جلسات المؤتمر فشلا ان لم نقل الفشل الوحيد الذي أصاب لجان المؤتمر . فقد كان برنامج المؤتمر يضم اربع جلسات مخصصة لاتحاد المؤرخين العرب تقدم فيها ابحاث مكتوبة حول الموضوعات التالية :

ـــ ركائز الحضارة العربية ، بحث يقدمه فيصل السامر .

ـــ طرائق البحث لدى المؤرخين العرب ، بحث يقدمه عبد القادر زبادية .

ـــ نشاطات اتحاد المؤرخين العرب ، بحث يقدمه حسين أمين .

ـــ مفهوم التطور في الدراسات التاريخية ، بحث يقدمه عوض خليفات.

ان أياً من هذه الابحاث لم يقدم للمؤتمر بل وفد عدد كبير من الباحثين والمهتمين بنشاطات المؤرخين العرب . ومنهم رئيس اللجنة الدولية للعلوم التاريخية ليجدوا القاعة المخصصة لابحاث المؤرخين العرب مغلقة وخالية في اليوم الاول .. ولابد من التنويه بمحاولة بعض المؤرخين العرب المشاركين في المؤتمر لانقاذ سمعة اتحاد المؤرخين العرب اذ قدموا أبحاثاً شفوية حول الموضوعات المطروحة ونشطت اللجنة جزئياً في اليوم الاول وبشكل مقبول في اليوم الثاني لكن تنشيط اللجنة استناداً الى المؤرخين العرب الوافدين للمشاركة بالمؤتمر قد تم دون أي تنسيق مسبق مع اتحاد المؤرخين العرب الذي فاجأ مندوبه الحضور في اليوم الثاني ببحث حول أثر الرحالة العرب في تاريخ الشرق الاقصى في العصور الوسطى .

واذا كنا نسوق هذه الملاحظات القاسية حول الدور المفروض لاتحاد المؤرخين العرب فان غياب هذا الدور كان مؤلماً اذ انعكست نتائجه على المؤرخين العرب . وكان بامكان الاتحاد القيام بأعمال ذات اثر ايجابي واضح للتعريف بنشاطات المؤرخين العرب المعاصرين واسهامهم في جميع المجالات التاريخية

التي تنضوي في ظلها لجان المؤتمر . وليس مقبولاً غياب الاتحاد عن مؤتمر عالمي يشارك فيه ألفان وسبعماية مؤرخ من مختلف بقاع العالم ولهم تأثير مباشر على ملايين الطلبة والجماهير الشعبية . سيما وأن الترتيبات الادارية لمشاركة الاتحاد قد أعدت بالكامل وسجلت الندوات وحددت الاسماء للمشاركة في أعمال المؤتمر .

د ـ وقد استتبع الغياب العربي عن أعمال المؤتمر غياب آخر عن معرض الكتب التاريخية الذي نظم باشراف الاونيسكو والجمعية الدولية للعلوم التاريخية وذلك في قاعات معهد الفنون الجميلة في جامعة بوخارست . فمن المعروف جيدا أن الدراسات التاريخية العربية . القديمة والمعاصرة . هي من الكثافة والتنوع بحيث تغطي صالات كثيرة في المؤتمر لكن اللافت للنظر أن اتحاد المؤرخين العرب شارك بكتيبات قليلة لاتتمتع بسمعة علمية جيدة في حين كان الحضور الاسرائيلي لافتا للنظر . وليس من قبيل الصدفة أن يكون عرض النتاج العربي الضحل جنبا الى جنب مع الجناح الاسرائيلي الغزير النتاج ،اذ تكفي المقارنة بين الجناحين لمعرفة الخلفيات الدعائية لاسرائيل من جراء هذا العرض أمام جماهير الباحثين والمشاركين باعمال المؤتمر .

هـ ـ واستتباعا لنفس الخطة لم يحظ المؤرخون العرب . المشاركون رسميا أو أفراديا أو بدون رغبة دولهم في بعض الاحيان ، برئاسة أي من لجان المؤتمر طوال فترة انعقاده على مدى اسبوع كامل وبمعدل مرتين في اليوم الواحد . في حين حظي الوفد الاسرائيلي باهتمام خاص وتولى مندبوه رئاسة عدة لجان منها أكبر لجنة في المؤتمر ، أي لجنة المنهجية . وتجدر الملاحظة أن سكرتاريا المؤتمر وبعض المؤرخين الرومان أبدوا استعدادا وترحيبا لابراز دور المؤرخين العرب وتقديم كافة التسهيلات لهم لمناقشة التقارير وتسجيل الكلمات في وثائق المجلد الرابع المزمع اصداره قريبا . فاتحاد المؤرخين العرب أو بالاحرى الدول العربية هي التي تتحمل مسؤولية غياب مؤرخيها عن ساحة هامة جدا من ساحات الصراع الايديولوجي ضد العدو الصهيوني في ظروف كانت مهيأة تماما لخوض معركة ناجحة في أضخم محفل علمي تاريخي يعقد حتى الان .

بقي أن نشير في ختام هذه الدراسة الى أن المؤتمر الخامس عشر للعلوم التاريخية الذي انعقد في بوخارست هذا العام كان حدثا علميا هاما في مسيرة تلاقي الباحثين في الحقل التاريخي ومناقشة انتاجهم بهدف الوصول الى معرفة

اكثر دقة بتطور مجتمعاتهم وتطور البشرية كلها . واذ سجل المؤرخون العرب حضورا افراديا ورسميا أفضل بكثير من المرات السابقة (زاد حضور المؤرخين العرب في مؤتمر بوخارست على العشرين مؤرخا مقابل ثلاثة في مؤتمر سان فرنسيسكو عام ١٩٧٥) فان دورهم الاساسي يكمن في تلافي التقصير السابق والاعداد الجيد للمؤتمر السادس عشر للعلوم التاريخية المزمع عقده في المانيا الغربية عام ١٩٨٥ .

ان الصراع الايدلوجي ، والحقل التاريخي احد ساحاته الرئيسية ، يلعب دورا أساسيا في معركة العرب ضد اسرائيل وما تمثله من متداد للقوى الامبريالية العالمية . وعلى المؤرخين العرب تجنيد طاقاتهم في هذه المعركة ، ليكشفوا عن دورهم الحقيقي الفعال في مسيرة الحضارة الانسانية .

---

(١) يسميها المؤرخون العرب : مناز جرد ، ومناز كرد ، وملاز كرد ، وبها كانت الوقعة الشهيرة التي هزم فيها السلاجقة البيزنطيين عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، انظر : تاريخ ابن الاثير ، ١٠ : ٢٦ ـ ٢٨ ، ومعجم البلدان ـ مناز جرد (المجلة) .